

مُعْجَزَاتُ التَّفَكُّرِ

وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرُ تَدْبِيرِيٍّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ التَّرْوِلِ  
وَفُقْ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الْأَمْثَلِ» لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

المجلد الثالث

تفسير سور

ق (٣٤) - البلد (٣٥) - الطارق (٣٦) - القمر (٣٧) - ص (٣٨)

عبد الرحمن حسن جنيته المياداني

دار الفقه

دمشق



عَمَّا رَجَّحَ التَّفَكُّرَ  
وَدَقَائِقَ التَّدَبُّرِ

الطبعة الأولى  
١٤٢٠ هـ ~ ٢٠٠٠ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

---

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



# سورة و

٥٠ صَحَفٌ ٣٤ نَزُول

مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا، إِلَّا الْآيَةَ (٣٨) مِنْهَا مُحَمَّدِيَّةٌ



(١)

## نص السورة وما فيها من فرش القراءات سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

- ٣ - قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿مُتْنًا﴾ بِكسر الميم.
- وقرأ باقي القراء العشرة: [مُتْنًا] بضم الميم. وهما وجهان عربيان جائزان.
- ١١ - قرأ أبو جعفر: [مَيِّتًا] بِتشديد الياء المكسورة.
- وقرأ باقي القراء العشرة: [مَيِّتًا] بِإسكان الياء من غير تشديد. وهما وجهان جائزان والإسكان تخفيف.

وَأَصْحَبُ الرِّسِّ وَشَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾  
وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعِينَا  
بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا  
الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ  
الْأَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا  
يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ  
بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ  
الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ  
كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكُشِفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ  
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ  
كَفَّارٍ عَيْنٍ ﴿٢٤﴾ مِّنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ  
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا  
مَا أَطَعْتُمُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخَصِمُونَا لَدَىٰ  
وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ  
لِّلْعِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ

١٤ - • قرأ ورش [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف يعقوب.

• قرأ باقي القراء العشرة [وَعِيدٍ] بحذف ياء المتكلم وصلًا ووقفًا. وحذف ياء المتكلم كثير ويدل عليها إبقاء الحرف الذي قبلها مكسورًا.

٣٠ - • قرأ نافع، وشعبة: [يَوْمَ يَقُولُ] بياء الغائب، والضمير يعود على الله المعلوم من السياق على طريقة الالتفات من المتكلم إلى الغائب.

(٣٠) وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ  
 أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ  
 (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا  
 وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ  
 بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيسٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)  
 وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا  
 مَسَنَا مِنْ تَغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ  
 رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ  
 وَأَدْبَرَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ  
 (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا  
 نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ

= • وقرأ باقي القراء العشرة: [نقول] بنون المتكلم العظيم.

٣٢ - • قرأ ابن كثير: [يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.

• وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بقاء المخاطبين وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٤٠ - • قرأ نافع، وابن كثير، وحمزة، وأبو جعفر، وخلف: [وَأَدْبَرَ] بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان، والمعنى: وقت إدبار السجود.

• وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَدْبَرَ] بفتح الهمزة، وهو جمع «دبر» وهو آخر الصلاة وعقبها، والمعنى: وسبّخه في أعقاب الصلوات.

٤١ - • ﴿الْمُنَادِ﴾ أثبت الياء وصلًا نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثير ويعقوب وحذفها مطلقاً باقي القراء العشرة.

٤٤ - • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَشَقُّقُ﴾ =

سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

● وقرأ باقي القراء العشرة: [تَشَقُّقُ].

«تَشَقُّقُ»: أصلها «تَشَقَّقُ» أذغمت التاء بالشين فصارت شيناً مُشَدَّدة.

و«تَشَقُّقُ»: أصلها أَيْضاً «تَشَقَّقُ» حُذِفَتِ التاء الثانية تخفيفاً.

وكلا الوجهين جائزان في العربية.

٤٥ - ● قرأ وزش: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل.

● وقرأ يعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.

● وقرأ باقي القراء العشرة [وَعِيد] بحذف ياء المتكلم وصلّاً ووقفاً.

وهي وجوه جائزة في اللسان العربي. وسبق نظيرها في الآية (١٤).

(٢)

## مما ورد في السنة بشأن سورة (ق)

كان للرسول ﷺ عناية خاصة بسورة (ق) دلّ على هذا عدة أحاديث صحيحة:

(١) روى مُسْلِمٌ وغيره، عن قُطَيْبَةَ بن مالك قال:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى قَ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ». أي سورة (ق).

(٢) وروى الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وأَهْلُ السُّنَنِ عن أَبِي واقد اللَّيْثِي قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدِ بِقَافٍ وَأَفْتَرَبَتْ». أي: كان يقرأ سورة (ق) وسورة ﴿أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وهي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في عيدي الفطر والأضحى.

(٣) وروى مسلم وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقي، عن أم هشام ابنة حارثة قالت:

«ما أخذتُ ﴿قَ﴾ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴿١﴾ إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
كَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ».

أي: إنها حَفِظَتْهَا مِنْ كَثْرَةِ سَمَاعِهَا مِنْ فِيهِ، وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى  
المنبر، إِذَا خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.



(٣)

### موضوع سورة (ق)

يدور موضوع سورة (ق) حول متابعة الموضوع الذي دارت حوله  
سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي نزلت قبل (ق) مباشرة.  
وهو موضوع معالجة المكذبين بيوم الدين، وتضيف إليه تكذيبهم  
بالرَّسول ﷺ، بحجَّة أَنَّهُ بشر منهم، زاعمين أَنَّ إِرْسَالَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ إِلَى  
الْبَشَرِ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ عَجِيبٌ، فَهُوَ لَا يَحْصُلُ، وكذلك إحياء الموتى بَعْدَ فَنَاءِ  
أَجْسَادِهِمْ وَتَفْتَتِ ذَرَّائِهَا وَضِيَاعِهَا فِي تَرَابِ الْأَرْضِ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ عَجِيبٌ، فهو  
لا يحصل.

والمعالجات الفكرية والنفسية، للإقناع الفكري، واستثارة مخوري  
الرَّهْبِ والرَّعْبِ النَّفْسِيِّينَ الَّتِي اشتملت عليها سورة (ق) معالجات تكميلية  
لِمَا جَاءَ فِي سورة (المرسلات) والسُّورِ قَبْلَهُمَا فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ، وَلَيْسَتْ  
مُكَرَّرَةً تَكَرِّراً تَطَابُقِيّاً، وجملة النصوص السابقة تسعة نصوص، وهذا الذي  
اشتملت عليه سورة (ق) هو النص العاشر<sup>(١)</sup>.

واشتملت أيضاً سورة (ق) على معالجة لنفس الرسول وقلبه، تُجَاة مَا  
كَانَ يَلْقَاهُ مِنْ تَكْذِيبٍ بَعْضِ قَوْمِهِ لَهُ، وَمَا يُوَاجِهُونَهُ بِهِ مِنْ أَقْوَالٍ جَارِحَةٍ

(١) انظر الفقر (٥) من مقدمات تدبر سورة المرسلات.

مؤلمة، فأَوْصَى الله رُسُولَهُ ﷺ، بِأَنْ يَغْتَصِمَ بِالصَّبْرِ، وبأنْ يُكثِرَ مِنَ التَّسْبِيحِ والذِّكْرِ، لله عَزَّ وَجَلَّ الذي تَنْشُرُ بِذِكْرِهِ الصُّدُورَ، وَتَنْحُلُ بِهِ عُقْدَ الْأُمُورِ، وَأَوْصَاهُ بِأَنْ يَكُونَ تَسْبِيحُهُ، قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَأَثْنَاءَ اللَّيْلِ، وَعَقِبَ الصَّلَوَاتِ الَّتِي يُصَلِّيُهَا لِرَبِّهِ.

وأَبَانَ لَهُ فِي هَذِهِ الْمَعَالِجَةِ أَنَّ وَظِيفَتَهُ فِي رِسَالَتِهِ التَّبْلِيغِ، فَهُوَ لَيْسَ مُجْبِراً وَلَا مَكْرِهاً لِلنَّاسِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَتَابَعَةُ التَّبْلِيغِ بِالتَّذْكِيرِ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ، وَالَّذِي يَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي يُوقِنُ قَلْبُهُ بِهِ، وَلَوْ لَمْ يُعْلِنِ إِيْمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ.

ومَوْضُوعُ سُورَةِ (ق) ظَاهِرٌ فِي الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِهَا، وَهُوَ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ الْأُولَى مِنْهَا.



(٤)

### دروس سورة (ق)

اشتملت السورة على اثني عشر درساً:

الدرس الأول: تَضَمَّنَ بَعْدَ الْقَسَمِ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، عَرْضَ مَقَالَةِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ فِي رِسَالَتِهِ، وَكَذَّبُوا بِنَبَأِ الْبَعْثِ لِلْحِسَابِ، وَفَصَلَ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّعْجُيبِيِّ الْإِنْكَارِيِّ.

وهو الآيات من (١ - ٣).

الدرس الثاني: تَضَمَّنَ دَفْعَ تَوَهُّمِهِمْ أَنَّ تَفْتَّتَ رُفَاتِ أَجْسَادِ الْمَوْتَى وَاخْتِلَاطَها بِتَرَابِ الْأَرْضِ يَجْعَلُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ تَمْيِيزَها وَجَمْعَها، وَإِعَادَتَها إِلَى الْأَجْسَادِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا قَبْلَ مَوْتِها. وَتَضَمَّنَ بَيَانَ وَاقِعِ حَالِهِمُ النَّفْسِيِّ الَّذِي جَعَلَهُمْ فِي وَضْعٍ قَلِقٍ مُضْطَرِبٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهُ إِذْرَاكَ حَقَائِقِ



الأمور، بَعْدَ أَنْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ، لِأَنَّهُ خَالَفَ أَهْوَاءَهُمْ وَرَغَبَاتِ  
الْفُجُورِ الَّتِي لَدَيْهِمْ.

وهو الآيتان: (٤ - ٥).

الدرس الثالث: تَضَمَّنَ عَرْضُ أُدِلَّةٍ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى  
أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِ الْمَوْتَى، وَأَنَّ بَعْثَهُمْ يُشْبِهُ إِحْيَاءَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِ  
نَبَاتَاتِهَا، بِفَلْقِ الْبُذُورِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ.

وهو الآيات من (٦ - ١١).

الدرس الرابع: تَضَمَّنَ عَرْضُ نَمَازِجٍ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْأَوَّلِينَ وَكَيْفَ حَقُّ  
وَعِيدِ اللَّهِ لَهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا عَامًّا، لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَهَذَا  
إِنْدَارٌ لِلْمُشْرِكِينَ.

وهو الآيات من (١٢ - ١٤).

الدرس الخامس: تَضَمَّنَ تَسَاوُلًا يَكْشِفُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَغَيِّرْ  
بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، بِدَلِيلِ وَجُودِهِ وَاسْتِمْرَارِ تَكَرُّرِهِ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ الْمَكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ،  
فِي لُبْسٍ مِنْ أَمْرِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ إِنْهَاءِ اللَّهِ ظُرُوفَ الْخَلْقِ  
الْأَوَّلِ.

وهو الآية (١٥).

الدرس السادس: تَضَمَّنَ بَيَانٌ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ بِسُلْطَانِ  
رُبُوبِيَّتِهِ وَخَلَقَ لَهُ خَصَائِصَ نَفْسِهِ، يَعْلَمُ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ  
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، فَلَا يَغْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ مِنْ خَوَاطِرِهِ وَنِيَّاتِهِ، وَقَدْ خَلَقَ  
لَهُ مَلَائِكِينَ مُرَافِقِينَ لَهُ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ يُسَجِّلَانِ عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ الظَّاهِرَةَ  
وَالْبَاطِنَةَ.

وهو الآيات من (١٦ - ١٨).

**الدرس السابع:** تَضَمَّنَ عَرَضَ سَاعَةِ الْمَوْتِ وما يَشْهَدُ فِيهَا الْمَيِّتُ من أحداثٍ أُمُورٍ ما بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعَرَضَ سَاعَةِ الْبَعْثِ الذي يَكُونُ عَقِبَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَأَنَّ هَذَا الْإِحْيَاءَ يَكُونُ لِيَوْمِ الْوَعِيدِ، وَعَرَضَ مَجِيئِهِ إِلَى مَوْقِفِ حَسَابِهِ يَسُوقُهُ إِلَيْهِ سَائِقٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَشَهِيدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ قَدَّمَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مَعَ بَيَانِ أَوَّلِ قَوْلٍ يُقَالُ لَهُ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى مَوْقِفِ حَسَابِهِ.

وهو الآيات من (١٩ - ٢٢).

**الدرس الثامن:** تَضَمَّنَ عَرَضَ لِقْطَةٍ مِنْ حَسَابِ الْكَافِرِ الْعَنِيدِ الْمُعْتَدِي وَالْحَكْمَ عَلَيْهِ الْمَسَاوِي لِلْحَكْمِ عَلَى كُلِّ نُظَرَائِهِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمِنْهُمْ قَرِينُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي كَانَ يُوَسَّوِسُ لَهُ، وَعَرَضَ مَا يُحَاوَلُ أَنْ يَعْتَذِرَ بِهِ هَذَا الْقَرِينُ، مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهِ.

وهو الآيات من (٢٣ - ٢٩).

**الدرس التاسع:** تَضَمَّنَ عَرَضَ لِقْطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ تَتَعَلَّقُ بِجَهَنَّمَ، وَبِالْجَنَّةِ وَإِزْلَافِهَا، وَبِخُطَابِ الَّذِينَ قَضَى اللَّهُ لَهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوهَا وَبِأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُنْعَمِينَ فِيهَا.

وهو الآيات من (٣٠ - ٣٥).

**الدرس العاشر:** تَضَمَّنَ تَوْجِيهَ إِذْذَارٍ لِمُكَذِّبِي الرُّسُولِ وَالْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ بِسُئَةِ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِ أَمْثَالِهِمْ، كَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولَى مِنْ إِهْلَاكِ عَامٍّ شَامِلٍ وَتَعْذِيبٍ يَعْتَبَرُ بِهِ مَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ، أَوْ أَصْغَى لِلْبَيِّنَاتِ الْكَلَامِيَّةِ وَشَهِدَ آثَارَ الْأَوَّلِينَ.

وهو الآيتان: (٣٦ - ٣٧).

**الدرس الحادي عشر:** دُرِسَ مَدْنِي التَّنْزِيلِ ضُمًّا إِلَى سُورَةِ مَكِّيَّةِ التَّنْزِيلِ، مِرَاعَاةً لِاقْتِضَاءَيْنِ:

**الاقتضاء الأول:** أن سبب نزوله الرّد على مقالة اليهود في المدينة، الرّاعمين أن الله بَعْدَ أن خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، استراح في اليوم السابع فجعله مقدّساً، متوهمين أن الله قد مَسَّهُ التَّعَبُ والنَّصَبُ، في عمليّات الخلق، فأبان الله كذبهم في هذا.

**الاقتضاء الثاني:** المناسبة الفكرية اقتضت ضمّه إلى سورة (ق) المكية. وهو الآية (٣٨).

**الدرس الثاني عشر:** تضمن معالجة حالة الرسول ﷺ النفسية والقلبية تجاه ما يكابده من مزعجات أقوال المكذبين، ويُلْحَقُ بالرّسول كلُّ حَمَلَةٍ رسالته من أمته، وتضمّن بيان أن الرّسول مبلغ عن الله وليس بجبارٍ على الاستجابة له.

وفيه إعلامٌ بطريقة غير مباشرة للكافرين المكذبين بيوم الذين ببعض حقائق عن أحداث يوم البعث، مع بيان أن الله عَظُمَ سلطانه هو الذي يُحيي ويميت.

وهو الآيات من (٣٩ - ٤٥ آخر السورة).



(٥)

## التدبر التّخيليّ للدرس الأوّل من دُروس السورة وهو الآيات من (١ - ٣)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ يُحِبُّونَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِذَا مِنْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾

## القراءات:

- قرأ نافع، وحفص، وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مِثْنَا﴾ بكسر الميم.
- قرأ باقي القراء العشرة: [مُثْنَا] بضم الميم.
- والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

## التدبر:

﴿قَ﴾: سبق الكلام على الحروف المقطعة الواردة في بعض أوائل السور في أول سورة (القلم/ ٦٨ مصحف ٢/ نزول).

- قول الله عز وجل:

﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾:

الواو هي «واو» القسم، وفي هذه العبارة يُقسِمُ الله عز وجل بالقرآن الذي وَصَفَهُ بأنه مجيد.

إن القرآن معجزة الرسول الخالدة، الدائمة الإعجاز، ما كَرَّت العصور، ومَرَّت الدهور، وإعجازه يُثَبِّتُ بِشَكْلِ قاطع أنه رَسُولُ الله حقاً وصدقاً، وأنه صادق بلا رَيْب في كل ما يُبَلِّغُ عن ربه، ومنه خَبَرُ البعث للحياة بَعْدَ الموت، بحياة أخرى، يتم فيها الحساب وفضل القضاء وتحقيق الجزاء، على ما كان في رحلة الحياة الدنيا رحلة الابتلاء، بالنسبة إلى الذين خَلَقَهُم الله عز وجل فيها لِيَبْلُوَهُم.

﴿الْمَجِيدَ﴾ أي: الشريف الكريم الرفيع المقام العَلِيِّ المنزلة، بسبب ما فيه من كَمالاتٍ جَليلاتٍ عَظيماتٍ تدلُّ على أنه كلامُ الله عز وجل، وَلَيْسَ كلامَ بَشَرٍ مَهْمَا اِزْتَقَتْ مِنْهُ ذَلِكَ الْبَشَر.

وكلمة «مجيد» على صيغة «فعليل» التي تدلُّ على المبالغة والكثرة لصيغة اسم الفاعل، هي بالنسبة إلى الله عز وجل وصفاته تدلُّ على غاية كمال الصفة، وهي محوِّلة هنا عن اسم الفاعل «ماجد». وكلاهما: «الماجد والمجيد» من

أسماء الله الحسنى . وهذا الوصف لم يَرِدْ في القرآن إلا وصفاً لله مَرَّتَيْنِ ، وللقرآن مَرَّتَيْنِ ، وللعرش مرة واحدة في قراءة ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ (١٥)﴾ بكسر الدال .

**والمجّد في اللّسان العربي** هو الكرم والشرف والعلوّ والرّفعة المعنويّة العالية السامية . تقول لُغَةً : مَجَّدَ مَجَادَةً فهو مجيد . وأمَجَدَهُ وَمَجَّدَهُ ، أي : عَظَّمَهُ وَكَرَّمَهُ وأثنى عليه بالمجد .

**والتمجيد :** أن تنسب الرّجل إلى المجّد . وتقول : تَمَجَّدَ فُلَانٌ ، أي : صار مَجِيداً .

● أما جوابُ القسم الوارد في قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ فَمَحْذُوفٌ .

وبالنظر التأملّي فيما جاء بَعْدَهُ ، وهو أنّ المشركين الذين كَفَرُوا بالرّسول محمّد ﷺ ، وكَفَرُوا بما أنذَرَهُم به من عذاب الله يوم الدّين ، قد تعَجَّبُوا تعَجَّبَ المنكر من أن يأتيهم رُسُولٌ بشرٌ منهم مُنْذِرٌ لهم بعذابِ الله يوم الدّين ، فإنّ باستطاعتنا أن نُذَرِكَ أن المُقَسِّم عليه قضيتان :

**القضية الأولى :** صدّق رسالة الرّسول محمد ﷺ ، وأنّه رسول الله حقّاً ، لأنّ القرآن بِمَجْدِهِ المعجز ، قد جعله الله الآية الكبرى على صدق الرّسول في رسالته ، وفي بلاغه للناس ، وعلى أنّه رسول الله حقّاً وصدّقاً .

**القضية الثانية :** صدّق إنذار الرسول بعذاب الله يوم الدين ، وصدّق ما أخبر به عن ربّه من أمر البعث بعد الموت ، إلى الحياة الأخرى ، للحساب ، وفصل القضاء ، وتحقيق الجزاء .

ويمكن تقدير جواب القسم بما يلي : والقرآن المجيد لمُحمّد رسول الله حقّاً وصدّقاً ، وهو صادق فيما يبلغ عن ربّه ، ولإنذاره بعذاب الله يوم الدين حقّ وصدق ، وَللْبَعْثِ بعد الموت للحساب ، وفصل القضاء ، وتحقيق الجزاء ، في اليوم الآخر حقّ وصدق .

وَالْقَسَمُ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ قَسَمٌ بِآيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَاتِ، وَيَتَوَقَّفُ إِذْرَاكَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّذَبُّرِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ عُنَاوَرِ إِعْجَازِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ صَادِرًا عَنْ فَرْذٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ عَنْ كُلِّ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى ذَلِكَ، فَالْقُرْآنُ آيَةٌ عَظْمَى، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَسِّمَ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَقَسَمَ بِظَوَاهِرِ آيَاتِ صِفَاتِهِ فِي الْوُجُودِ.

وَالْقَسَمُ بِهِ مُوجَّهٌ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَنْ هُمْ مُؤَهَّلُونَ لِإِذْرَاكِ عُنَاوَرِ إِعْجَازِهِ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ.

فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَقْسَمُ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الْمَعْجَزِ، لِأُولِي الْأَلْبَابِ الْقَادِرِينَ عَلَى إِذْرَاكِ عُنَاوَرِ إِعْجَازِهِ بَعْدَ التَّفَكُّرِ وَالتَّذَبُّرِ، عَلَى صِدْقِ رَسُولِي مُحَمَّدٍ وَصِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ عَنِّي لِيُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ، كَمَا أُنْزِلَتْهُ عَلَيْهِ.

ولهذا لم يَواجِهْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هَذَا الْقَسَمِ الْكَافِرِينَ بِالْخَطَابِ، بَلْ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ، فَالْقَسَمُ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَا يُوَكِّدُ فِي نَفُوسِهِمْ، صِدْقَ الرِّسُولِ فِي رِسَالَتِهِ، وَلَا صِدْقَ نَبِيٍّ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، إِذْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يَتَذَبَّرُوا عُنَاوَرِ إِعْجَازِهِ، لَكِنْ قَدْ يَوْجَدُ فِيهِمْ مُسْتَقْبَلًا مُتَفَكِّرُونَ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ، أَوْ يَسْتَحِثُّ هَذَا الْقَسَمُ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ذَا لُبٍّ دَرَاكِ فَيَتَفَكَّرُ وَيَتَذَبَّرُ، فَيَكُونُ هَذَا الْقَسَمُ مُفِيدًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ، وَيُوَكِّدُ فِي نَفُوسِهِمْ صِدْقَ الرِّسُولِ وَصِدْقَ مَا جَاءَ بِهِ.

● قول الله عز وجل:

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِيَّادَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَآكَ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ۝﴾

﴿بَلْ﴾ حَرْفُ إِضْرَابٍ، وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ إِضْرَابٌ عَنْ كَلَامِ مَطْوِيٍّ مُقَدَّرٍ ذَهْنًا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقَسَمُ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ<sup>(١)</sup>، أَي: لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ

(١) يعجبني في مثل هذا الإضراب بحرف (بل) الداخلة على الجملة قول من يعتبرها حرف =

تُوْثِرُ فِيهِمْ معجزة القرآن المجيد، ولم يَسْتَفِيدُوا من دلالتها فيؤْمِنُوا بالرَّسُولِ وبما جاء به، بل أنكروا رسالة الرسول مُحَمَّدٍ وأنكروا البعث يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، باستعمال أسلوب التعجب والاستغراب فقط، دون حجة أو أي دليل يَصْلُحُ للمناقشة والبحث.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾ يقال لغة: عَجِبَ من الشيء يَعْجَبُ عَجَبًا، وَعَجَبًا، وَعُجْبًا، وتعجب منه، إذا أنكره لقلّة اعتياده إياه، وأصلُ الكلام: وَعَجِبُوا من أن جاءهم، ولكن حَذَفَ الجار قبل «أَنَّ» و«أَنَّ» قياس مطرد.

وكان مقتضى كون القرآن مجيداً معجزاً لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، أن يكون برهاناً على صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ في بيانه أنه رسول الله، وعلى صِدْقِ نَبَأِ البعث للحساب، وفضل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدين، وصِدْقِ كُلِّ ما يبلّغه الرسول ﷺ عن رَبِّهِ، وكان يجب على القوم بعد أن اسْتَمَعُوا إلى القرآن أن يأخذوا بهذه الدلالة فيؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا لله ورَسُولِهِ.

وعلى افتراض أن إعجاز القرآن لم يتّضح لهم تماماً، وأن آياتِ صِدْقِ الرَّسُولِ الأخرى لم تُوصِلْهُمْ إلى الْقَنَاعَةِ الكافية للإيمان به، فالواجب العقلي المنطقي يقتضي منهم أن يَتَرَيُّثُوا وَيَتَوَقَّفُوا، لِيَتَابَعُوا تَأْمُلَهُمْ وَبَحْثَهُمْ حَتَّى يَتِمَّ لديهم الاقتناع بصدق نبوة مُحَمَّدٍ وصدقِ رسالَتِهِ، وصدقِ ما يُبلِّغُهُ عن رَبِّهِ.

لكن هؤلاء المكذّبين الكافرين، قد سَتَرُوا ما عَرَفُوهُ من دلائل الحقّ بالكُفْرِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، ولم يَتَرَيُّثُوا باحثين، بل أنكروا رسالة الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ، وأنكروا يوم الدين الذي يتم فيه تحقيق قانون الجزاء الربّاني، مستندين إلى مجرد التعجب من أن يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ بَشَرٌ منهم، والتعجب من إحياء الله

= عطف من التّحويين، لا حرف ابتداء على ما هو المقرر عند جمهورهم والذي وصفه ابن هشام بأنه الصحيح، في «مغني اللبيب».

الموتى بعد أن يصيروا تراباً، مُتَعَامِينَ عن آية الله السابقة والدائمة، التي يُنشِئُ بها الأحياء النشأة الأولى من ماء وتراب، ضمن حلقاتٍ سببيةٍ في سلسلة إنشائه الأحياء جلّ جلاله.

فجاء الإضرابُ بلفظ «بل» دليلاً على هذا الكلام المطويّ، وهذا من بديع الإعجاز القرآني، الذي يَعتَمِدُ على منطقيّة التحليل.

وقد جاء الحديث عن الذين كفروا بالرّسول وبيوم الدين من مشركي مكّة بضمير الغائبين، ﴿بَلْ يَجْحَبُ﴾ دون أن يسبق في سورة (ق) حديث عنهم، اعتماداً على عدّة قرائن تُحدّد المراد.

القرينة الأولى: أنّ سورة (ق) قد نزلت عقب سورة (المرسلات) التي دارت آياتها حول معالجة المكذّبين، وتكرّر فيها قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يُؤْمِدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

القرينة الثانية: يُعلّم من واقع الحال إِبَّانُ نزول هذه السّورة، ومما جاء بعد ضمير الغائبين أنّ المكثّي عنهم بالضمير هم المكذّبون للرّسول والمكذّبون بيوم الدين، فواقع الحال يَکْشِفُ أنّ القوم ثلاثة أقسام:

(١) قِسْمٌ آمَنَ بالرّسول وبما جاء به، وأتبعوه، وهؤلاء لا يَعتَجبُونَ ولا يَنكُرون، فهم غير مقصودين حتماً.

(٢) وقسّم لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدُ وَلَمْ يَكْفُرْ، لأنّه لم يُناقش قضيّة الرّسول ولا قضيّة البعث للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، فلم يَبْدُ في القضيتين رأياً لا بالنفي ولا بالإثبات، وهؤلاء غير مقصودين أيضاً، إذ لم يُعلِنُوا إنكارهم، ولا تكذيبهم.

(٣) والقسم الثالث: هم الذين أعلَنُوا كُفْرَهُمْ وإنكارهم، ولم تكن حاجتهم إلّا أنّهم تعجبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ بَشَرٌ منهم، وتعجبُوا من قضيّة البعث، فقالوا: أإذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً سَوْفَ نرجع إلى الحياة مرّةً أخرى



لنَجَازِي عَلَى مَا كُنَّا عَمِلْنَاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ذَلِكَ رَجْعٌ مُسْتَبَعَدٌ مُسْتَنْكَرٌ لَا نُؤْمِنُ بِهِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَقْصُودُونَ حَتْمًا. وَقَدْ دَمَعَهُمُ اللَّهُ بِالْكَفْرِ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

إِنَّ التَّعَجُّبَ مِنْ شَيْءٍ لَا يَصْحُحُ فِي مُوَازِينِ الْعُقُولِ السَّوِيَّةِ أَنْ يَكُونَ دَلِيلَ نَفْيٍ لِلشَّيْءِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ.

لَكِنَّ التَّعَجُّبَ قَدْ يُتَّخَذُ أَسْلُوبًا بَيَانِيًّا لِإِنْكَارِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ.

فَاخْتِيَارُ الْكِنَايَةِ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَائِبِينَ مَعَ وَجُودِ الْقَرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِمْ، مِنْ أَحْكَمِ الْبَيَانِ وَأَخْصَرِهِ وَأَكْثَرِهِ إِيجَازًا، مَعَ خَلْوِ الْعِبَارَةِ مِنْ إِيْهَامٍ غَيْرِ الْمُرَادِ. وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ.

وَوُضِعَ الْأِسْمُ الظَّاهِرُ فِي: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ بَدَلَ الضَّمِيرِ لِإِبْرَازِ وَصْفِ الْكَفْرِ الَّذِي تَدْنُسُوهُ بِهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْحَقِّ.

### تحليل بواعث التعجب:

الْعَجَبُ مِنَ الشَّيْءِ وَالتَّعَجُّبُ مِنْهُ حَالَةٌ مِنَ الْمَشَاعِرِ تَحْدُثُ فِي النَّفْسِ مِنْ إِكْبَارِ شَيْءٍ مَا وَإِعْظَامِهِ، أَوْ مِنْ اسْتِهْجَانِهِ لِقُبْحِهِ وَمُخَالَفَتِهِ لِلسُّلُوكِ الْمَقْبُولِ مِنَ الْأَسْوِيَاءِ، أَوْ مِنْ اسْتِبْعَادِ إِمْكَانِ حُدُوثِهِ وَقَدْ يَصِلُ الْأَمْرُ إِلَى حَدِّ تَصَوُّرِ اسْتِحَالَتِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ.

وَقَدْ يَكُونُ التَّعَجُّبُ مِنَ الشَّيْءِ لِعَدَمِ إِنْفِهِهِ، فَإِذَا صَارَ مَأْلُوفًا زَالِ التَّعَجُّبُ مِنْهُ.

إِنَّ التَّعَجُّبَ مِنَ الْمَشْهُودَاتِ أَوْ الْمَدْرَكَاتِ بِالْعِلْمِ، يَقْتَصِرُ عَلَى الْإِعْظَامِ وَالْإِكْبَارِ إِلَى حَدِّ الدَّهْشَةِ، أَوْ يَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ الاسْتِحْسَانِ لِنُدْرَةِ حُدُوثِهِ مُطْلَقًا، أَوْ قَلَّةِ حُدُوثِهِ نَسْبِيًّا.

وَإِذَا كَانَ التَّعَجُّبُ أَوْ الْعَجَبُ مِنْ خَبَرٍ أَوْ ادِّعَاءٍ رَافِقِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ الشُّكُّ، أَوْ الْإِنْكَارُ وَالتَّكْذِيبُ، مَعَ تَصَوُّرِ عَدَمِ الْإِمْكَانِ، أَوْ دُونَ

تَصَوُّر عدم الإمكان، وقد يكون مثل هذا التعجب مصحوباً بالتصديق دون طمأنينة، فإذا حدثت الطمأنينة كان التعجب مُجَرَّد إعظام وإكبار.

### تعجب المشركين الوارد في هذا الدرس:

وتعجب مشركي مكة المكذبين لرسول الله محمد ﷺ، والمكذبين بيوم الدين تعجب من قضيتين:

**القضية الأولى:** تعجبهم من أن يكون الرسول من عند الله بشراً من البشر، متوهمين أن كَوْن الرسول بشراً يُنافي الحكمة الربانية، أو متوهمين أن البشر لا يصلحون للاتصال بعالم الغيب.

وكلا التوهمين باطلان، ولدى البحث التحليلي لكشف دوافع نفوس المكذبين يظهر أنها دوافع تنبع من منابع الكبر أو الحسد أو الرغبة في الفجور.

**القضية الثانية:** تعجبهم من أن يكون في الإمكان الإعادة إلى الحياة بعد الموت والفناء، متوهمين أن هذا الأمر غير ممكن،

وتعجب المشركين الكافرين من هاتين القضيتين تعجباً يُفضي إلى إنكارهما، تعجب في غير محله مطلقاً.

● أما كَوْن الرسول إلى البشر بشراً منهم، فهو الأمر الحكيم، فلا داعي إلى التعجب منه، بل التعجب منه هو الذي يستدعي العجب.

● وأما الإعادة إلى الحياة بعد الموت فهي نظير بدء الخلق، أو هي أهون منه في تجارب الناس، فالتعجب منه يدعو إلى الإعظام والإكبار، لا إلى النفي والإنكار.

إن تعلل مكذبي الرسل في تكذيبهم لهم بعلّة بشريّتهم، ظاهرة تَكَرَّرَتْ في الأمم الأولى، وتكرّرها يدلُّ على تشابه قلوب الكافرين المكذبين لرسل الله رب العالمين، وتشابه نفوسهم وأفكارهم.

وبحث اعتراض الأمم على كون رُسُلهم بشرًا مستوفى في ملاحق تدبر سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) (١).

● وجاء في العبارة استعمال وصف الرسول ﷺ بأنه مُنذِرٌ، فقال الله تعالى، مبيناً اعتراضهم على بشرية الرسول محمد ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

مع أن الرُّسُولَ ﷺ مبشِّرٌ أيضاً ومبلِّغٌ وهادٍ وأُسوةٌ حسنة، وداعٍ إلى الله ومُربٍّ، إلى غير ذلك مِنْ وَطَائِفِ رسالته، فما الحكمة من هذا الاختيار؟

أقول: لَمَّا أَعْلَنُوا كُفْرَهُمْ، بَعْدَ أَنْ اتَّخَذَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَهُمْ كُلَّ وَسَائِلِ التبليغ والإقناع والمعالجات التربوية المختلفة، ومنها المعالجة بالترغيب، لم يَبْقَ لديه من وسائل معالجتِهِمْ إِلَّا المعالجة بالإنذار، بعذاب الله وعقابه المعجَّل والمؤجَّل، فهو بالنسبة إليهم بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى دركة العناد، والإصرار على الكفر وجحود الحق، مُنْذِرٌ فقط، فاقتضت الحكمة البيانية الاختصار على وصفه هنا بأنه مُنذِر.

أما من آمَنَ وَاتَّبَعَ وَأَطَاعَ فيلائمه من صفات الرسول ﷺ أَنَّهُ مُبَشِّر.

﴿مُنْذِرٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذَارًا».

والإنذار: هو الإخبار والإبلاغ والإعلام بما هو مخوفٌ منه، كعقابٍ، أو مصيبة، أو شرٍّ عَدُوٍّ مُدَاهِمٍ، أو نحو ذلك.

فالمُنْذِرُ: هو المخوفُ المحذَر، والمخبر بخطرٍ مُدَاهِمٍ، والمُعْلِمُ بأمرٍ مَكْرُوهٍ قادم، سواء أكان ذلك على وجه العموم، أم في حالةِ فَعْلٍ شَيْءٍ أو ترك شيء.

والرُسُولُ منذر بعقاب الله الخالد في جهنم بالنسبة إلى الكافرين،  
ومنذر بعقاب دون ذلك بالنسبة إلى عصاة المؤمنين.

وَيَحْسُنُ بالمتدبر أن يُذَرِكَ ما في هذه العبارة بعد الْقَسَمِ بالقرآن  
المجيد، من أداء كلامي بديع قائم على حذف ما يمكن أن يُذَرِكَ باللوازم  
الذهنية، وبما تقتضيه الروابط الفكرية واللفظية، على أن المكذبين للرَّسُولِ  
والمكذبين بيوم الدين قد أدركوا بُزْهَانَ إعجاز القرآن، فلم يقبلوا دلالته، بل  
كذبوا، ولم يكن لهم دليل يصلح للاحتجاج به، فلجؤوا إلى ادعاء أن  
بشرية الرَّسُولِ، وإنذاره بعقاب الله يوم الدين، من الأمور المستبعدة المثيرة  
للعجب، فاستخدموا التعجب للدلالة على أنهم مُكْذِبُونَ، وعلى اعتباره  
دليلاً صالحاً للاحتجاج به، مع أن التعجب لا يتضمَّن أي دليل مهما كان  
ضعيفاً غير ادعاء عدم الإمكان، وتوهمات لا تثبت أمام مناظرة إقناعية تعتمد  
على الاحتجاج بأدنى الحجج المنطقية.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾: الكافر: «اسم فاعل» من فعل «كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْرًا  
وَكُفْرَانًا». ويقال لغة: كَفَرَ الشيء، وَكَفَرَ عَلَيْهِ كُفْرًا، أي: سَتَرَهُ وَغَطَّاهُ،  
وَكَفَرَ الثَّرَابُ ما تَحْتَهُ، أي: غَطَّاهُ وَسَتَرَهُ ولهذا يُقال للزراع: كافر، وتُسَمَّى  
العرب الزُّرَّاعُ كُفَّارًا، لأنَّهم يَكْفُرُونَ الحبَّ المَبْدُورَ بتراب الأرض.

ويأتي الكُفْرُ في اللُّغَةِ بمعنى جُحُودِ النعمة، وهو ضدُّ الشكر. يقال:  
كَفَرَ بالنعمة إذا جحدها وسترها.

فأصل الكفر في اللغة تغطية الشيء تغطيةً تَسْتَهْلِكُهُ، فلا تبقى منه شيئاً  
مكشوفاً.

والكُفْر بالدين: هو موقف الرفض والجحود بعد معرفة الحقِّ ببراهينه،  
وَيَقُومُ على سِتْرِ الأدلة التي تُثَبِّتُهُ، بطرح الشبهات، وإلقاء عبارات التعجب،  
وإدعاء أن الأمر غير مقبولٍ عقلاً، والتشكيك في الأدلة الكثيرة، إلى غير

ذلك من حِيلٍ ومغالطات يَصْطَنَعُهَا المَبْطُلُونَ اصْطِنَاعاً، وَيُلْفِقُونَهَا تَلْفِيقاً، وَيُزَخِّرُونَهَا بِالْأَقْوَالِ الْمُنَمَّقةِ الْخادعةِ.

وليس الكافر من كان خالي الذهن من أدلة الإيمان، ولا من هو يبحث عنها، ولا المترئِثُ حتَّى تَنْضَحَ له أدلة الإيمان، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان، الَّذِي وَضَحَتْ له أدلتها وبراهينها، إِلَّا أَنَّهُ غَطَّى عليها بِحِيلِهِ حتَّى سَتَرَهَا ظُلْماً وَعُدْواناً.

والمقصودون بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ هم من كانوا عارفين الحق، السَّاتِرِينَ لَهُ ولأدلتِهِ بما يصطنعون من زُخْرِفِ القول، من الذين لم يستجيبوا لدعوة الرِّسُولِ إِبَّانِ نزول سورة (ق).

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ هو فيما يظهر لي كونُ مُحَمَّدٍ الَّذِي قال لهم إني رسول الله إليكم بشراً منهم، زاعمين أن رسول الله لا يصحُّ أن يكون بشراً من البشر، مُتَعَامِينَ عن أنَّ جميع رُسُلِ الله السابقين قد كانوا بشراً، وهذه هي القضية الأولى من القضيتين اللَّتين أثارهما كُفَارُ مَكَّةِ إِبَّانِ نزول سورة (ق).

أما القضية الثانية فهي ما دلَّ عليه قَوْلُهُمْ كما جاء في التعبير القرآني.

﴿أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا زُجَاباً ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبِيٌّ يتضمَّنُ إنكار البعث، بدليل كونه أمراً عجيباً بعيداً عن التصوُّر، إذ لم يشاهدوا مَوْتِي رَجَعُوا إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ولا سيما بعد فناء أجسادهم وَصَيُورَتِهَا رُفَاتاً مختلطاً بتراب الأرض، وَجُزْءاً منه.

وقد طوى النَّصُّ من مقالتهِم جواب [إذا] الشرطيَّة، إذ دلَّت عليه مقالتهِم ﴿ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾.

وباستطاعتنا أن نُبرز جواب [إذا] المطوي الذي يستدعيه الذهن بأدنى تأمل، فنقول: إذا مُتْنَا وَكُنَّا ثُرَاباً نُزْجَعُ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، للحساب، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وتحقيق الجزاء، عَلَى مَا قَدَّمْنَا وَأَخْرَزْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا!!؟ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.

أي: هو مُسْتَبَعْدُ الْحَصُولِ عَقْلاً، وكيف لا يكون كذلك وهو غير مشهود الوقوع فعلاً، بحسب مشاهدات الحياة الدنيا بالنسبة إلى الأحياء الحيوانية.

وَلَمَّا ادَّعَوْا أَنَّ هَذَا الْبَعْثَ مُسْتَبَعْدٌ اسْتِبْعَاداً يَخْرُجُهُ عَنْ حُدُودِ الْمُمَكِّنَاتِ، أشاروا إليه باسم الإشارة الخاصّ بالمشار إليه البعيد ﴿ذَلِكَ﴾. وهذا القول قد يكون حكايةً لقولهم مع بعض تصرّفٍ بالحذف، وقد يكون ترجمةً بليغةً مطابقةً في المعنى المراد لما عَبَّرُوا عَنْهُ بِعِبَارَاتِهِمْ، والله أعلم.

﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، أي: إِرْجَاعٌ إِلَى الْحَيَاةِ بَعِيدٌ عَنْ دَائِرَةِ الْمَعْقُولِ وَالْمُمْكِنِ. رَجَعُ مُضَدُّ رَجَعَهُ، أي: أَرْجَعَهُ، يُقَالُ لُغَةً: رَجَعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ تَلَفِهِ، رَجَعَا، وَمَرَجَعَا، وَمَرَجَعَةً، وَرُجُوعاً، وَرُجُوعَاناً.

(٦)

### التدبر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوسِ السورة

وهو الآيتان (٤ - ٥)

قال الله عز وجل:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِیْجٍ ﴿٥﴾﴾.

في هذا الدرس دفعُ لبعض توهّمات الكافرين منكري البعث، وسيأتي

دَفْعُ تَوْهُمَاتِهِمُ الْآخَرَى، فَمِنْ ذَلِكَ مَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ (ق) وَمِنْهُ مَا سَيَأْتِي فِي غَيْرِهَا مِمَّا نَزَلَ بَعْدَهَا فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ، مِرَاعَاةً لِمُعَالَجَةِ مَا هُوَ مِثْلُ فِي تَصَوُّرَاتِ الْمُعَالَجِينَ إِبَانِ نَزُولِ النُّجُومِ الْقُرْآنِيِّ، وَعَمَلًا بِالسُّنَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي تَجْزِئَةِ الْمَوْضُوعَاتِ وَبَثِّهَا فِي السُّورِ، مَعَ التَّكَامُلِ الْبَدِيعِ فِيمَا بَيْنَهَا، وَهَذَا أَحَدُ عُنَاوِرِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، مَعَ مَا فِي التَّجْزِئَةِ مِنْ حِكْمَةِ التَّدْرِجِ التَّعْلِيمِيِّ، وَالتَّكْلِيفِيِّ، وَالتَّرْبَوِيِّ.

وَنَلَاظِ هُنَا فِي هَذَا الدَّرْسِ أَنَّهُ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى دَفْعِ تَوَهُمٍ مِنْ تَوْهُمَاتِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ، دُونَ ذِكْرِ لِهَذَا التَّوَهُمِ، لِأَنَّ دَفْعَ التَّوَهُمِ يُشْعِرُ بِوُجُودِهِ فِي خَوَاطِرِ الْمُنْكَرِينَ وَأَحَادِيثِ نَفْسِهِمْ، سِوَاءَ عَبَّرُوا عَنْهُ بِأَقْوَالِهِمْ أَمْ لَمْ يُعَبِّرُوا، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَنَجِدُ نَظِيرَهُ فِي الْإِجَابَةِ عَلَى سُؤَالٍ غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي اللَّفْظِ، وَفِي حَلِّ إِشْكَالٍ غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي اللَّفْظِ أَيْضًا، إِلَّا أَنَّ الْمَوْضُوعَ يَسْتَدْعِي ذَلِكَ، فَمِنْ الْجَلِيلِيِّ فِي أُسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الرَّائِعَةِ، الَّتِي يُذَكِّرُهَا الْمُتَدَبِّرُ اللَّمَّاحُ أَنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ قَدْ يَدْفَعُ تَوْهُمًا، أَوْ يَحُلُّ إِشْكَالًا، أَوْ يَجِيبُ عَلَى سُؤَالٍ، دُونَ ذِكْرِ الشَّيْءِ الَّذِي يُعَالِجُهُ النَّصُّ، إِيْجَازًا فِي الْعِبَارَةِ، وَاكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْمُعَالَجَةِ عَنْ ذِكْرِ الدَّاعِي إِلَيْهَا، وَاعْتِمَادًا عَلَى ذِكَاةِ أَهْلِ التَّدَبُّرِ الْأَكْفَاءِ.

فَمِنْ التَّوَهُمَاتِ الَّتِي تُفْسِدُ تَصَوُّرَاتِ الْمَشْرِكِينَ حَوْلَ مَوْضُوعِ الْبَعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ، وَتَفَرُّقِ ذَرَاتِهَا فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، تَوْهُمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ لَدَيْهِ عِلْمٌ كَامِلٌ بِكُلِّ ذَرَاتِ أَجْسَادِ الْمَوْتَى، وَبِكُلِّ صِفَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ، حَتَّى يُعِيدَهُمْ إِلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ تَمَامًا، فَجَاءَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ فِي هَذَا الدَّرْسِ دَافِعًا لِهَذَا التَّوَهُمِ الْبَاطِلِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَفُصُّ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، أي: سَبَقَ في عِلْمِنَا، بما قَدَرْنَا وَقَضَيْنَا قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ وإِحْيَائِهِمْ، ثم إِمَاتَتِهِمْ ما تَنْقُصُ الأرضُ من أجسادهم بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وقد جاء هذا البيان بصيغة الفعل الماضي مع تأكيدِهِ بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ للدلالة على سبق العلم بِخُطَّةِ التكوين قبل تنفيذ عمليات الخلق المتتابعة بناءً وإِفْناءً.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم إشعاراً بأنَّ هذا العلم هو من خصائص رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ الَّذِي لا يَغْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ معلومٌ ما، مهماً كان صغيراً وجزئياً ممَّا كان وممَّا هو كائنٌ وممَّا سيكون، لأنَّه هو سبحانه واضع خُطَّةِ التكوين كُلِّهَا قَبْلَ بَدْءِ الخلق، مع تَحْدِيدِ مراحل تنفيذها بناءً وإِفْناءً.

وضمير المتكلم العظيم نجده في: [عَلِمْنَا - عِنْدَنَا].

إِنَّ أَمْرَ الإِيجَادِ، والإِحْيَاءِ، والإِمَاتَةِ، والإِفْنَاءِ، والإِعَادَةِ بالبعث، والإِيجَادِ بَعْدَ البعث، وسائر التصارييف في الكون، إِنَّمَا تَتِمُّ في الكون، ضَمْنِ خُطَّةِ القِضَاءِ والقَدَرِ العامِّ، فَمَا من شيءٍ يحدث في الكون بنفسه، إِنَّمَا يَخْدُثُ بقضاءٍ وقدرٍ من الخالق الرَّبِّ جَلَّ جلاله، سواءً أَكان ذلك الشيء كبيراً أم صغيراً.

إِنَّ سَبْقَ العلم بما سَيَخْدُثُ، وربط كُلِّ ما يَخْدُثُ بتقديرٍ حكيم، وإِرَادَةِ ماضية، وَخَلْقٍ يَتِمُّ به تَنْفِيذُ المراد، أُمُورٌ تَدْفَعُ كُلَّ التَّوَهُّمَاتِ المتعلِّقة بِصِفَةِ عِلْمِ الله سبحانه وتعالى عَمَّا يَتَوَهَّمُ الَّذِينَ لا عِلْمَ لَهُمُ بالله جَلَّ جلاله، وَعَظَمَ سُلْطَانَهُ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيءٍ كان أو هو كائن أو سَيَكُونُ ضَمْنِ خُطَّةِ التكوينِ العامِّ.

وناقصو المعرفة بالله وبمُجَرِّياتِ أحداثِ الكون، يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الله سبحانه عَمَّا يَصِفُونَ لَيْسَ لَدَيْهِ إِحْصَاءٌ كَامِلٌ لِمَا يَتَنَاقَضُ تَباعاً من أجساد الموتى، بسبب ما يَخْدُثُ لها بَعْدَ الدَّفْنِ في الأرض، فتتغيَّرُ بذلك صفاتها



الَّتِي كَانَتْ تَتَصَفُّ بِهَا وَهِيَ ذَاتُ حَيَاةٍ، ثُمَّ تَتَفَقَّتُ وَتَتَفَرَّقُ ذَرَاتُ أَجْسَادِهِمْ،  
ضِمْنِ سُنَنِ سَبَبِيَّةٍ مَرْسُومَةٍ وَمَوْصُوفَةٍ وَمَعْلُومَةٍ، وَالْفَعَالُ الْحَقِيقِيُّ مِنْ بَاطِنِ  
قَنَوَاتِ الْأَسْبَابِ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ، خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، الْمَحْتَجِبُ  
عَنِ الْأَنْظَارِ بِعَالَمِ الظَّوَاهِرِ، تَقَدَّسَتْ وَتَمَجَّدَتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ.

وكما كان بدءُ خلقِ الناسِ، وبناءُ أجسادهم ضِمْنَ خُطَّةِ خُلُقٍ مُسَبَّوْقَةٍ  
بِعِلْمٍ شَامِلٍ لِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، فَمَوْتُهُمْ وَإِفْنَاءُ أَجْسَادِهِمْ، وَكُلُّ التَّصَارِيفِ  
الَّتِي تَجْرِي فِيهَا وَفِي نَفْسِهِمْ مُسَبَّوْقٍ بِعِلْمٍ شَامِلٍ، وَخُطَّةٍ فِي الْإِفْنَاءِ تَتَنَاوَلُ  
كُلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، وَيَجْرِي تَنْفِيزُ كُلِّ ذَلِكَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى وَفْقِ عِلْمِهِ السَّابِقِ  
الَّذِي شَمَلَ كُلَّ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ مِنْ أَطْوَارِ الْإِبْجَادِ وَالْإِعْدَامِ، وَالْبِنَاءِ وَالْهَدْمِ،  
وَالْتَرَكِيبِ وَالْحُلِّ، وَالْإِفْنَاءِ وَالْبَثِّ، وَالْجَمْعِ وَالْإِعَادَةِ.

﴿مَا نَقُصُّ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾، أَي: مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْمَوْتَى  
بِالْإِفْنَاءِ. تقول لغة: نَقَصَ الشَّيْءُ يَنْقُصُ نَقْصًا وَنُقْصَانًا عَلَى أَنْ الْفِعْلُ لَازِمٌ،  
أَي: ذَهَبَ مِنْ مِقْدَارِهِ شَيْءٌ مَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ، وَتَقُولُ: نَقَضْتُ الشَّيْءَ عَلَى أَنْ  
الْفِعْلُ مُتَعَدٍّ، أَي: أَخَذْتُ مِنْهُ مِقْدَارًا مَا.

إِنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَبًّا خَالِقًا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ،  
مُخَيِّئًا مُمِيتًا لَا يَجْرِي شَيْءٌ فِي كَوْنِهِ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ إِذْنِهِ  
ضِمْنَ قَانُونِ التَّسْخِيرِ، كَيْفَ يَتَوَهَّمُ أَنْ يَنْدَ عَنْ عِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ. مَا تَنْقُصُهُ  
الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْمَوْتَى.

إِنَّ مَا يَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ تَطْبِيقُ لِمَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ بِأَنَّهُ سَيَقَعُ  
وَبَعْدَ الْوُقُوعِ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فَعَلًا.

يُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ الْعِلْمَ بِكُلِّ مَا سَيَحْدُثُ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ بِكُلِّ دَقَائِقِهِ  
فِي كِتَابٍ حَفِيفٍ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَتَدَبَّرُهَا:  
﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ إِنَّهُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ بِحِفْظِ اللَّهِ لَهُ، وَقَدْ يَشْمَلُ غَيْرَهُ  
مِنَ الْكُتُبِ، كَكُتُبِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ.

﴿حَفِظْتُ﴾ على وَزْنٍ «فَعِيل» وهذا الوزن يأتي بمعنى اسمِ الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، مع الدلالة على الكثرة والمبالغة فيهما.

فعلى المعنى الأول: هو حافظ غاية الحفظ لكلّ معلوم، لا يضلّ عنه ولا يتغيّر ولا يتبدّل فيه معلوم ما، إلاّ ما يشاء الله أن يمحّوه منه ويثبت غيره، وعنده «أم الكتاب» هو علمه جلّ جلاله الذي لا يتعرّض لمحو أو تغيير مطلقاً، وكذلك الحقائق الوجوديّة التي حدّثت فعلاً، لا تتعرّض في اللّوح المحفوظ إلى تغيير أو تبديل.

وعلى المعنى الثاني: هو محفوظ غاية المحفوظيّة، بحفظ الله له، من أن يؤثر عليه أي شيء في كلّ الوجود من دون الله عزّ وجلّ.

وجاء استخدام لفظ ﴿حَفِظْتُ﴾ بالمعنيين، وهذا من الإيجاز القرآني البديع.

ويضاف إلى ما دلّت عليه هذه الآية من بَيَانِ خَبَرِيٍّ عن علم الله، وعن الكتاب الحفيظ لكلّ معلوم، والمحفوظ بحفظ الله له، دليلٌ عقليٌّ تقدّمه الظاهرات الكونية في السماوات والأرض، إنّ ظاهرة إتيان الخلق كلّهم في الإنشاء والإفناء، والإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتصارييف والتّغييرات المرافقات لأصغر الوحدات الزمنية، ضمنَ خُطَطِ قضاءٍ وقَدَرٍ صارمةٍ في كلّ الكون، شاهدٌ دائم على شمولِ علم الله لكلّ شيء، فلا يعزّب عن علمه مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض، وهو العزيز الحكيم.

وظاهرة فناء الأجساد بعد موت الأحياء جزءٌ يسيرٌ قليل جدّاً، بالنسبة إلى سائر أحداث الكون الكبير في السّماوات والأرض، من أكبر مجرّة إلى أصغر ذرّة فما دونها، وكلّ ذلك مشمولٌ بعلم الله، وقضائه وقَدَرِهِ، ما تسقط من ورقةٍ من أيّة شجرة، وما تتحرّك ذرّةٌ ولا إلكترون في الكون

كله، إلا بعلمه، وقضائه وقدره، وخلقه تباركت أسماؤه، وتمجّدت صفاته.  
فالتشكُّك حول شمول عِلْم الله بما تنقُصُ الأرض من أجساد الموتى،  
جنوح سَخيف، عن منطق العقل الحصيف، حَوْل رُبُوبِيَّة الرَّبِّ المهيمنة على  
كلِّ شيءٍ في الوجود، مهما كان جسيماً كبيراً، أو صغيراً حقيراً.

### شمول علم الله كلِّ شيء:

وقد جاء بيان حقيقة شمول علم الله عزَّ وجلَّ كلِّ شيءٍ مفصّلاً في  
نصوص كثيرة جداً من القرآن المجيد، وهذه النصوص موزعة في معظم  
سُورِهِ، لأنَّ صفة علم الله الشامل من صفات الله العظمى، إذْ تَتَعَلَّقُ بكلِّ  
واجبٍ عقلاً، وبكلِّ مستحيلٍ عقلاً، وبكلِّ ممكنٍ عقلاً، وتتعلَّقُ بما كان،  
وبما هو كائن، وبما سيكون، مما يتمُّ بقضاء الله وقدره، ومما يكون من  
أفعال العباد الاختيارية.

وهذه النصوص قد أبانت أنَّ الله عزَّ وجلَّ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ، وما يخرج منها، وَيَعْلَمُ ما في  
الْأَرْحَامِ، وَيَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى، وما تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وما تزداد، وَيَعْلَمُ  
ما في البرِّ والبحر، وَيَعْلَمُ ما بين أيدي الخلائق (أي: ما مضى) ويعلم ما  
خلفهم (أي: ما يأتي في المستقبل) وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّ الخلائق وما تُعْلِنُ،  
وَيَعْلَمُ ما تُوسَّوسُ به النفوس، وَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ الصُّدُور، وَيَعْلَمُ السِّرَّ  
وَأَخْفَى.

ونظراً إلى كثرة النصوص القرآنية حول هذا الموضوع، فإنِّي أذكرُ  
أكثرها جمعاً ودلالات، مع نظراتٍ تدبُّريَّة.

**النص الأول:** قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥  
نزول) في سياق الحديث عن صفات الله الجليلة ذات الآثار العظيمة في  
كونه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩).

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: انفرد الله عز وجل بأنه مالك مفاتيح الغيب الأعظم، وهذه المفاتيح لا يعلمها إلا هو، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

أما المغيبات النسبية فلمعرفتها مفاتيح مكن الله من استخدامها بعض عباده دون بعض، فعند الملائكة مفاتيح قد يستخدمونها لمعرفة بعض المغيبات عن الناس، وعند الجن مفاتيح، وعند الإنس مفاتيح يعلمون بها من حقائق الكائنات غائبات عن الحواس، بما سخر الله لهم من وسائل، وهذا المفاتيح لا يملك نظيرها غيرهم، وهي مفاتيح الاستنباط والاستدلال من الصفات الظاهرات على وجود الأشياء الباطنة، وصفاتها وخصائصها.

وهذه المفاتيح قد أوصلت الباحثين من عباقرة البشر، إلى العلوم الذرية وعلوم الخلايا الحية ووظائفها، ودلت هذه العلوم على أن كل حركة من حركات دقائق أجزاء الذرات في كل شيء، محكومة بخطة ربانية مذهشة في الإحكام والإتقان والتوجيه، ومشمولة بعلم محيط لا يند عنه شيء مهما كان دقيقاً صغيراً.

فتبارك الله الذي أحاط بكل شيء علماً.

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨

نزول):

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥).

فأبان هذا النص أن الله عز وجل الذي هو رب كل شيء، يعلم ما تكنه صدور الناس، فتخفيه فيها، ويعلم ما يعلنونه.

وجاء تأكيد هذا الخبر عن شمول علم الله عز وجل بالمؤكدات التاليات: «إِنَّ» و«الجملة الاسمية» و«اللام المزلقة للخبر» كما يقول البلاغيون.

وأبان هذا النص أنه ما مِنْ غائبة على أَحَدٍ من خَلْقِ الله لَهُ إِذْرَاكَ عِلْمِيٍّ مَا، إِلَّا هِيَ مُسَجَّلَةٌ مُدَوَّنَةٌ فِي كِتَابٍ وَاضِحٍ الدَّلَالَةِ مُبِينٍ، ولهذا البيان لازمان عقليَّان.

الأول: أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِأَن يُعْلَمَ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، إِذْ مَا مِنْ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ إِلَّا هِيَ غَائِبَةٌ عَنْ بَعْضِ خَلْقِ الله، وَلَوْ كَانَتْ مَعْلُومَةً لِآخَرِينَ، فَشَمِلَتْ كَلِمَةً ﴿عَآبِئُوْهُ﴾ كُلَّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِأَن يُعْلَمَ.

الثاني: أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لِّلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾، أي: وَمَا يَنْعَدُ وَمَا يَخْفَى. يقال لُغَةً: عَزَبَ الشَّيْءُ يَعْزُبُ وَيَعْزُبُ عَزُوبًا، أَي: بَعْدَ وَخْفِي، وَفِي يَعْزُبُ قَرَاءَتَانِ بَضْمُ الزَّايِ وَكُسْرُهَا.

﴿مِنْ مِّثْقَالٍ ذَرَّةٍ﴾: «من» حرف جر جيء به لتأكيد عموم النفي في: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ويسمى حرف جر زائد وهو داخل هنا على الفاعل.

﴿مِنْ مِّثْقَالٍ ذَرَّةٍ﴾، أي: مِنْ مَقْدَارِ ذَرَّةٍ.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾، أي: وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَرَّةٍ وَلَا أَكْبَرَ. وفي «راء» أصغر وأكبر قراءتان، قراءة بالفتح، وقراءة بالضم.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، أي: وما شيء من ذلك المشمول بعلم الله إلا مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ في كتابٍ مُبِينٍ ذي دلالة واضحة كدلالة أشرطة تسجيل الصُّورَةِ والصُّوْتِ، مع الخواطر والنيات والأشياء والأعمال الظاهرة والباطنة، حتى أعمال القلوب والنفوس والأفكار وحركاتها.

حُذِفَ المستثنى منه لدلالة الجملة السابقة عليه.

النص الرابع: قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض الحديث عن الله عز وجل:

﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

فأبان هذا النص: أن الله عز وجل يعلم ما يسرُّ الناس ويعلنون، وأنه عليم بالغ غاية العلم بذات الصدور.

ذات الصدور: أي: صاحبة الصدور، وهي الخواطر والنيات وأعمال القلوب كالحقد والحسد، وابتغاء الخير أو الشر، وكالحب في الله والكُره في الله، والأهواء والشهوات ونحو ذلك.

وأبان أنه يعلم مُسْتَقَرَّ كُلِّ دَابَّةٍ في ظهور الذكور، ومستودع كل دابة في أرحام الإناث، وأن عليه رزق كل دابة.

وأبان أن كل هذه المعلومات مُدَوَّنةٌ مُسَجَّلةٌ في كتابٍ مُبِينٍ، كاشف لكل صغيرة وكبيرة حتى خفايا الصدور.

أفبعد هذا العلم المحيط الشامل المسجل المدوّن في كتاب حفيظ مبين، مجال لتوهمات وشبهات وشكوك حول قضية صُغرى، هي جزئية من جزئيات هذه الحقيقة الكبرى الشاملة، المتصلة بصفة علم الله المحيط بكل شيء؟!

ويضاف إلى هذا البيان الإخباري، أنّ أدلة هذا العلم الشامل منبئة في ظاهرات هذا الكون الكبير.

● قول الله عز وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ ۝﴾.

بعد أن أبانت الآية الرابعة من سورة (ق) شمول علم الله لما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وأن كل ذلك مُسَجَّل في كتاب على ما سبق شَرْحُه، كان من المناسب فَضَحُ حقيقة ما في نفوس وقلوب الكافرين المكذبين، مع الإشارة إلى أنّ أقوالهم التعجبية، ليست ناتجة عن شكوك حقيقية، وشبهات تشغل أذهانهم بصدق، بل هم يعلمون أنّ محمداً رسولاً من رُسُلِ الله، يبلغ عن ربه صادقاً منذ دعاهم إلى الإيمان والإسلام، لكنهم استَكْبَرُوا عن اتّباعه، أو لم يريدوا أن يتركوا ما هم فيه من فجورٍ واتّباعٍ للهوى، فكذبوه ظُلماً وَعُدواناً وهم يَعْلَمُونَ أنّ ما جاءهم به هو الحق من ربهم. دلّ على هذا قول الله عز وجل في هذه الآية:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۝﴾،

﴿بَلْ﴾ هنا نظير [بَلْ] في: [بَلْ عَجِبُوا]. والإضراب بحرف بل هنا إضراب عن كلام مَطْوِيٍّ مُقَدَّرٍ ذهناً.

والمعنى: ليسوا في الحقيقة شاكين، بل كذبوا بالحق الذي وضع لهم، لَمَّا جَاءَهُمْ.

﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى الحين، أي: بل كذبوا بالحق حين جاءهم، وعَرَفُوا أنّه حق، ولم يكن تَشَكُّكُهُمْ وَتَعَجُّبُهُمْ أكثر من طرح جدليّ لسانيّ، وإن سائرهم البيان القرآني في إقامة الأدلة الإقناعية لهم مجازاة لظاهرهم، والمعنيون بالخطاب فئة القادة الكفرة المكذبين بالحق، مع علمهم بأنّه حق.

ونستطيع أن نُذكرَ ذهنًا أن دافعهم لاتخاذ هذا الموقف كون هذا الذي جاءهم به رسول الله يُخالف أهواءهم وما يشتهون، أو أنهم استكبروا عن الإيمان به واتباعه.

وإذ كذبوا بالحق وهو ذو وجهٍ واحدٍ يؤمن به كلُّ فردٍ من الأمة المؤمنة بالله ورسوله، فهل كان الكافرون مُجتَمعين في عقائدهم ومفهوماتهم وأفكارهم حول الوجود والحياة والنشأة والمصير على مذهبٍ واحدٍ، ورأيٍ واحدٍ بين واضحٍ جليٍّ تدعّمه براهين، أو حُججٌ مقبولة؟؟!

سؤال مطويٍّ في النص غير مُصرّح به، لكن جاء الجواب عليه في قوله عز وجل في الآية: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

﴿مَرِيجٍ﴾ كلمةٌ تدور حول المعاني التالية: «مُلْتَوٍ أغوج - مُلتبسٍ مُختلِطٍ - مُختلفٍ - مضطرب - قلقٍ - فاسد».

ولدى متابعة مذاهب الكافرين بالحق الربّاني، والتفكر في عقائدهم ومفهوماتهم، حول الوجود والحياة والنشأة والمصير، نجد أن كلَّ معاني كلمة «مَرِيج» تنطبق عليهم بوجه عام، على التوزيع، وبعضها ينطبق عليهم جميعاً.

إذ لا نجد في مذاهب الناس المخالفة لدين الله الحق، إلا الالتواء والعوج، والتباس الحق بالباطل، واختلاط الأمور، والاختلاف والاضطراب، والقلق وعدم الثبات، وأخيراً الفساد والإفساد.

فالكافرون كما قال الله عز وجل هم في أمرٍ مَرِيجٍ.





(٧)

## التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٦ - ١١)

قال الله عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾  
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى  
لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ  
﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا  
كَذَلِكَ الْفُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

● قرأ أبو جعفر: [مَيْتًا] بتشديد الياء المكسورة.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَيْتًا﴾ بإسكان الياء، وهو تخفيف في  
النطق.



نظرة تدبرية عامة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس:

في هذا الدرس توجيهُ نظر الكافرين المكذبين وسائر الناس، لطائفة  
من آيات الله عز وجل في كونه، الدالات على كمال قدرته، وعلمه المحيط  
بكل شيء، وعلى عظيم حكمته، وبإلغ إتقانه لكل ما خلق، وعلى جليل  
رَحْمَتِهِ وعنايته بعباده، وهيمته على كل صغير وكبير في الوجود، ممّا دون  
الدُّرَّة، إلى أكبر وأعظم مجرّة، إلى ما هو أعظم وأجلّ وأكبر من هذا  
الكون كله، والدالات على قِيُومِيَّةِ الله جلّ جلاله لكل شيء في السماوات  
والأرض، بالحفظ والرعاية والهُيْمَةِ والمَنْ والسلطان العظيم.

فما يَتَحَرَّكُ متحرّك، ولا يَسْكُنُ ساكن، ولا يَخْذُ حَذْث، ولا يَتَغَيَّرُ

شيء، ولا يفنى شيء، ولا يُوجد شيء إلا بعلمه، وبقضائه وقدره وأمره، أو بإذنه وتسخيرهِ للمسخرات في كونه لبعض عباده.

إنّ موضوع السّورة قد سبق بيانه في الدرس الأول من دروسها وهو يدور حول قضيتين:

**القضية الأولى:** تكذيب مشركي مكة رسول الله محمداً في كونه نبي الله ورسوله، متعللين بأنه بشرٌ منهم، وهي تعلقة ذرائعية لا تستند إلى أي دليل.

**القضية الثانية:** تكذيب هؤلاء المشركين بنبأ البعث إلى الحياة بعد الموت، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين، متعللين بأنّ الإعادة إلى الحياة بعد الموت والفناء، أمرٌ مستبعد لا تقبله العقول، وهذه أيضاً تعلقة ذرائعية، لا تستند إلى أي دليل يثبت أو يرجح ما زعموا، كما سبق بيانه.

وأمثال هؤلاء المكذبين موجودون في كل عصرٍ حتى آخر الدهر، من أزمان الحياة الدنيا حياة الامتحان.

وقد جاء في الدرس الثاني من دروس السّورة دفعُ توهّمات المكذبين الماثلة في أذهانهم إبان نزول السورة، بالنسبة إلى القضية الثانية.

وإذ كانت حقيقة سبق العلم الربّاني بكلّ ما يجري في الكون من صغير وكبير، مرتبطة بقضاء الله وقدره السابقين لكلّ حوادث الوجود، وهذه الحقيقة من الحقائق التي يُنكرها أو يجهلها الكافرون بالله ورُسُلِهِ واليوم الآخر في كلّ العصور الماضية والحاضرة والآتية، كان من الحكمة البيانية لفتُ الأنظار إلى ما يدلُّ عليها في ظاهرات الكون التي هي آيات من آيات الله المُبصّرات ابتداءً، والمذكّرات دوماً.

فظاهرات الكون دالاتٌ على الخالق الرّب، وعلى جليل صفاته، ومن

تفكّر فيها بإمعانٍ ورغبةٍ في الوصول إلى الحقّ اتّصَحَتْ لَهُ هَيْمَنَةُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَقِيُومِيَّتُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَاتّصَحَ لَهُ أَنَّ أَيَّ شَيْءٍ يَخْدُثُ فِي الْكَوْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ، وَبِحُكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، وَبِقُدْرِهِ وَقَضَائِهِ، أَوْ بِإِذْنِهِ وَتَسْخِيرِهِ لِلْمَسْخَرَاتِ فِي كَوْنِهِ لِيَبْغُضَ عِبَادَهُ.

فجاء هذا الدرس الثالث من دُروس السورة متضمناً توجيه الأنظار للتفكّر في ثلاث آياتٍ مِنْ آياتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسَّمَاءِ، وَثَلَاثِ آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَرْضِ.

### الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسَّماء:

الآية الأولى: آيَةُ بِنَاءِ السَّمَاءِ الْمُحْكَمِ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَضَعَ فِي تَصَوُّرِنَا أَنَّ بِنَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ بِحَسَبِ طَبِيعَتِهِ، وَبِحَسَبِ الْغَايَةِ مِنْهُ، فَبِنَاءُ الْقُصُورِ غَيْرُ بِنَاءِ الْخِيَامِ، وَهُمَا عَلَى غَيْرِ بِنَاءِ الذَّرَّةِ وَعَلَى غَيْرِ بِنَاءِ الْخَلِيَّةِ، وَعَلَى غَيْرِ بِنَاءِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَعَلَى غَيْرِ بِنَاءِ بَيْتِ النَّمْلِ، وَعَشِّ الطَّائِرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وقد يكون تماسك الأجرام السَّماويَّةِ بِالْجاذِبِيَّاتِ، أَوْ بِطَاقَاتٍ أُخْرَى غَيْرٍ مَعْرُوفَةٍ حَتَّى الْآنَ، هُوَ الْمَقْصُودُ بِبِنَائِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية الثانية: آيَةُ تَزْيِينِ السَّمَاءِ بِالنُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ، وَالتَّزْيِينِ هُوَ التَّجْمِيلُ بِالزُّيِّنَاتِ الْجَمَالِيَّةِ الَّتِي تُمْتِعُ النَّفُوسَ.

وقد جاء التصريح بتزيين السَّماءِ الدُّنْيَا فِي السُّورِ التَّالِيَةِ: (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول - وَالصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول - وَقُضِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول - وَالْمُلْكِ/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

الآية الثالثة: أَنَّ نِظَامَ السَّمَاءِ الْمُتَمَاسِكِ لَا فُرُوجَ فِيهِ، أَي: لَا شُقُوقَ فِيهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ فُرُوجٌ لَحَصَلَتْ أَنْوَاعٌ مِنَ الْخَلَلِ عَبْرَ مِلْيَيْنٍ أَوْ مِلْيَارَاتِ السَّنِينَ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهَا.

### الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض:

**الآية الأولى:** مَدَّ الْأَرْضَ، كما يَتَمَدَّدُ السَّقَاءُ مِنَ الْجِلْدِ الْمَمْتَلِئِ مَاءً، وكذلك كان شكل الأرض قبل تثبيتها بالجبال التي أُلْقِيَتْ فِيهَا. وقد يكون المراد بالمدَّ الإمداد بالعناصر الصالحة لنفع الناس، بالأزراق وغيرها من مطالب الحياة الدنيا، كالمعادن المختلفة.

**الآية الثانية:** ثَبَّيْتُ الْأَرْضَ بِالرُّوَاسِي الَّتِي أَلْقَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْرِهِ التَّكْوِينِيِّ، لثَلَا تَمِيدُ بِسُكَّانِهَا، فَتَتَحَرَّكُ أَجْزَاءُ مِنْهَا وَتَضْطَرِبُ، كما تَمِيدُ الْفُلُكُ بِأَمْوَاجِ الْبَحْرِ وَتَتَخَبَّطُ.

**الآية الثالثة:** إِنْبَاتُ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ وَأَصْنَافِهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ (أي: من كُلِّ نَوْعٍ أو صِنْفٍ) بِهَيْجٍ، أي: ذِي بَهْجَةٍ. الْبَهْجَةُ هِيَ الْحُسْنُ وَالنُّضَارَةُ. وَحَرْفُ ﴿مِنْ﴾ فِي عِبَارَةِ ﴿مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ لِلتَّبْعِيضِ، لِأَنَّ احْتِمَالَاتِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ الْمُمْكِنَةِ لَا تَنْحَصِرُ فِيمَا أُنْبِتَ اللَّهُ مِنْهَا، فَمَا أُنْبِتَ اللَّهُ هُوَ بَعْضُهَا الْمَقْدَرُ وَالْمَقْضِيُّ.

وفي هذه الظواهر التي هي من آيات الله الكونية في السماء والأرض، تَبْصِرَةٌ ابْتِدَاءً، وَتَذَكُّرَةٌ دَوَاماً، لِأَهْلِ الْأَفْكَارِ الْمُتَدَبِّرَةِ الْوَاعِيَةِ الْمُنِيْبِينَ إِلَى بَارِئِهِمْ، بِمَا فِيهَا مِنْ دَلَائِلٍ تَدُلُّ عَلَى صِفَاتِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

فجاء في النصِّ عقب ذكر الآيات قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٨)

التبصرة في اللغة: التَّعْلِيمُ وَالتَّفْهِيمُ، فَمَنْ يُذَكِّرُ دَلَائِلَ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، تَكُونُ لَهُ تَبْصِرَةٌ وَتَعْلِيمٌ ابْتِدَاءً، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ ذِكْرَى دَوَاماً.

تقول لغة: بَصَرُهُ الْأَمْرَ تَبْصِيراً وَتَبْصِرَةً، أي: فَهَمَهُ إِيَّاهُ، وَعَرَفَهُ بِهِ، وَأَوْضَحَهُ لَهُ.

والتبصير: التعريف والإيضاح، والتبصُّر التأملُ والتعرُّف. وآيات الله في كونه تُعرَف بصفات خالقه ومتقنه ومُحكِّم أمره، وهي تُعلِّم دوماً من لم تُكن قد علِّمته، وتَهْدِي مَنْ تفكَّر فيها إلى إدراك صفات الله جلَّ جلاله، ففيها تبصِّرة.

وبَعْدَ التَّبَصُّرِ التَّعْلِيمِيَّةِ تَكُونُ مُشَاهَدَتُهَا الْمُتَكَرِّرَةُ ذِكْرَى أَي: تَكُونُ تذكيراً متكرراً بما دلَّت عليه في التعليم الأول.

وكَلِّمًا شَهِدَ الْمُتَفَكِّرُ الْمُتَأَمِّلُ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، تَعَلَّمَ مِنْهَا أَشْيَاءَ جَدِيدَةً، زَادَتْهُ مَعْرِفَةً بِحَقَائِقَ عَنْ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا، وَذَكَرَتْهُ بِمَا كَانَ قَدْ عَرَفَهُ مِنْهَا سَابِقاً، فَتَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ تَبَصُّرَةٌ وَذِكْرَى.

ذِكْرَى: فِي اللَّغَةِ كَالذُّكْرِ، بِمَعْنَى التَّذْكَرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ. وَبِمَعْنَى التَّذْكَيرِ بِالشَّيْءِ، تَقُولُ لُغَةً: أَذْكَرُهُ إِيَّاهُ وَذَكَرَهُ، وَالاسْمُ مِنْ ذَلِكَ: «الذِّكْرَى».

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾، أَي: لِكُلِّ عَبْدٍ يَزْجَعُ إِلَى آيَاتِ رَبِّهِ بِالتَّفَكُّرِ حِيناً فَحِيناً بِصِفَةِ مُتَكَرِّرَةٍ، فَتَكُونُ لَهُ تَبَصُّرَةٌ بِالتَّفَكُّرِ الْأَوَّلِ، وَذِكْرَى بِالتَّفَكُّرَاتِ الْلاحِقَاتِ.

منيب: اسم فاعل من فعل «أَنَابَ يُنِيبُ» أَي: رَجَعَ يَزْجَعُ، واسم الفاعل يُشَبِّهُ الْفَعْلَ الْمُضَارِعَ فِي الْمَعْنَى، يَدُلُّ عَلَى الْحَالِ وَالْاِسْتِقْبَالِ وَالتَّكَرُّارِ<sup>(١)</sup>.

وبَعْدَ تَوْجِيهِ الْأَنْظَارِ إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ فِي السَّمَاءِ، وَثَلَاثِ آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، جَاءَ فِي النَّصِّ التَّنْبِيهِ عَلَى

(١) هذا ما وضع لي في الاستعمالات القرآنية، ولم أرَ فيها أنَّ دلالة اسم الفاعل على الاستقبال دلالة مجازية، بل هي دلالة حقيقية من أصل الوضع، مثل: [وما كانوا مؤمنين] أَي: وما كانوا مستعدين لأن يؤمنوا مستقبلاً فأهلكهم الله.

ظاهرة عناية الله بالناس على ظهر الأرض، بذكر ثلاث نِعَمٍ مُفَصَّلَاتٍ، تتعلّق بموضوع الأرزاق التي يحتاجها الأحياء عليها، وهي:

النعمة الأول: نِعْمَةُ إنزال الماء المبارك من السماء.

النعمة الثانية: إنباتُ الجَنّاتِ ذوات الأشجار، ولا سيما النَّخْلُ الباسِقَاتُ التي لها طَلْعٌ نَضِيدٌ.

باسِقَات: أي: طَوَالُ مُرْتَفَعَاتِ القامات.

طَلْعٌ نَضِيدٌ: أي: حَمْلٌ مُتْرَكِبٌ بعضُهُ على بعضٍ بِاتِّساقٍ وترَاصفٍ وانتظامٍ.

النعمة الثالثة: إنباتُ الزُّرُوعِ ذوات الحبّ الذي به أقوات ومنافع النَّاسِ والدوابّ، وهذا الحبّ يجمع بِالْحَصَادِ، فيَكُونُ حصيداً.

وأبان هذا الدَّرْسُ أَنَّ من عِظَاتِ ظاهرة إنباتِ الزُّرُوعِ، ودلالات تكرار إحياءِ الأرضِ بها بَعْدَ مَوْتِهَا، قياسَ بَعْثِ النَّاسِ للحياة الأخرى، بعد موتهم وفناء أجسادهم، على إعادة حياة النباتات من بذورها، بالماء وتراب الأرض إذا اختلطاً وأحاطاً بها، مع شروطٍ أخرى كالحرارة ومرور الزمن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

أي: كذلك الذي يحدثُ للنباتات من بُزُورِها في سُنَّةٍ من سُنَنِ الله المتكرّرة في الأرض، يكون خروج الموتى إلى الحياة يوم القيامة مَرَّةً أُخْرَى، من الأرض، للحساب، وفُضِّلَ القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويلاحظُ في كلّ هذا الدَّرْسِ أَنَّهُ قد جاء فيه استعمال ضمير المتكلم العظيم، لأنّه يَتَعَلَّقُ ببيانِ آياتِ رُبُوبِيَّةِ الله في كونه، فكان من المناسب الإشارة إلى عظمة هذه الربوبية باستعمال ضمير المتكلم العظيم: «بَنَيْنَاهَا - زَيَّنَّاهَا - مَدَدْنَاهَا - أَلْقَيْنَا - أَنْبَتْنَا - نَزَلْنَا - أَحْيَيْنَا».



## نظرات تدبرية تحليلية تفصيلية لفقرات هذا الدرس الثالث:

● قول الله عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾.

يبدأ هذا الدرس باستفهام فيه معنى الاستنكار والتلويح للمكذابين الكافرين بالرسول وبيوم الدين، على إعراضهم عن آيات الله الكونية الدالات على قضية الإيمان الأولى، التي تنقلهم إلى ما وراءها من لوازم فكرية، حتى توصلهم إلى الإيمان بقانون الجزاء الرباني، فالإيمان بيوم الدين، والإيمان برسل الله المؤيدين بمعجزات وآيات باهرات من لدنه.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾، الهمزة استفهامية، و«الفاء» حرف عطف، ولكن لا نجد في السوابق ما هو ملائم للعطف عليه، والتأمل المتأتي في النص يهدي بتوفيق الله إلى أنها تعطف على محذوف، وإيجادها في الكلام يفصح عنه، فهي على ما يقول النحاة الفاء الفصيحة.

ويمكن استخراج هذا المحذوف بالتأمل أيضاً، والقرائن الفكرية المحيطة بموضوع النص تدل على أن لدى المتحدث عنهم أدوات النظر التفكرية التي وهبها الله للناس، وفضلهم بها على سائر خلقه تفضيلاً عظيماً، وهذه الأدوات كان من الواجب عليهم أن يستعملوها للوصول إلى معرفة خالقهم وممدهم بفيوض عطاءاته، وإلى معرفة طائفة من صفاته الجليلة، وإلى معرفة الغاية من خلقهم، وما يجب عليهم تجاه بارئهم.

وهنا لا بد أن يرد السؤال الأول حول عدم انتفاع الكافرين بما وهبهم الله عز وجل من أدوات نظر تفكرية وهو: ألم يستعملوا ما لديهم من أدوات نظر تفكرية في أعظم القضايا التي خلقوا من أجلها، فلم ينظروا إلى آيات الله في كونه، ومنها ما جاء ذكره في هذا الدرس.

إن النظر في آيات الله الكونية هو الحلقة الأولى في سلسلة التفكير

الإيماني لمن رفض التسليم ببلاغات المرسلين. إذ آيات الله عز وجل الكونية دالات على الرب الخالق، وعلى طائفة من عظيم صفاته جل جلاله، ومن آمن بالله عز وجل وبصفاته فلا بد أن يُدرك حكمة الله الجليلة من الخلق، ومن حكمته أن لا يخلق الكون باطلاً، وأن لا يخلق الإنسان عبثاً، ولا شيء يرفع احتمال العبث إلا أن يكون قد خلق الناس في ظروف هذه الحياة الدنيا ليلبّوهم بالإيمان والعمل، ثم ليحاسبهم، ويفصل القضاء بينهم، ويجازيهم، في حياة أخرى بعد حياة الابتلاء الأولى، وهذا يوصل المتفكرين إلى الإيمان بيوم الدين.

ومن حكمته بعد أن قضى أن يخلق الناس ليلبّوهم أن يرسل إليهم رُسلاً منهم، يبينون لهم مواد امتحانهم، وما هم مسؤولون عنه في حياتهم لدى بارئهم، وهذا يوصلهم إلى الاقتناع بحكمة إرسال الرسل، ولا ينقضي أمامهم إلا التأكد من صحة دعوى من يدعي أنه رسول الله، ويتحققون من صدقه بما خصه الله به من معجزة أو معجزات تشهد له بأنه صادق فيما يبلغ عن ربه، كمعجزة القرآن لمحمد ﷺ، وكمعجزات موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

فالله عز وجل في هذا الدرس يعيد الكافرين إلى الحلقة الأولى من سلسلة التفكير الإيماني، ويحملهم مسؤولية النظر التأمل في آيات الله الكونية.

ففي قوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾؟ مع الاستنكار والتلويح حث على النظر التفكر، إذا لم يسبق لهم أن نظروا هذا النظر.

﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾، أي: أفلم ينظروا إلى هذه السماء العظيمة العجيبة، في الامتداد الذي لا يدركون غايته فوقهم.

السماء: تطلق لغة على كل ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العلو،



من فعل «سَمَا يَسْمُو سُمُوًّا فَهُوَ سَامٌ» أي: اِزْتَفَعَ مَادِيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا، وَسَمَاً كُلُّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ، وَالسَّمَاءُ سَفَفُ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ بَيْتٍ، وَالسَّمَاءُ بِهَذَا الْمَعْنَى مَذْكُورٌ.

أَمَّا السَّمَاءُ الَّتِي تُظَلُّ الْأَرْضُ فَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ لِأَنَّهَا اسْمُ جَنْسٍ جَمْعِيٌّ مَفْرَدُهُ سَمَاءَةٌ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: السَّمَاءُ تَذَكَّرَ وَتَوَنَّثَ. وَكَثُرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إِطْلَاقُ لَفْظِ «السَّمَاءِ» عَلَى السَّحَابِ، وَهُوَ إِطْلَاقٌ مُنْطَبِقٌ عَلَى مَفْهُومِ لَفْظِ السَّمَاءِ لُغَةً.

أَقُولُ: وَالْغُلَافُ الْغَازِيُّ الْمَحِيطُ بِالْأَرْضِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا سَمَاءٌ لُغَةً، حَتَّى الْقَرِيبُ الْمَلَّاصِقُ لَهَا. وَكُلُّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَجَرَّاتِ مُتَرَابِطَةٌ بِنِظَامٍ فِي بَنَائِهَا وَحَرَكَتِهَا وَجَازِبِيَّاتِهَا هِيَ سَمَاءٌ.

أَمَّا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فَلَا نَسْتَطِيعُ تَقْدِيرَ حُدُودِ كُلِّ سَمَاءٍ مِنْهَا.

وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْمَطَرِ لَفْظُ «السَّمَاءِ» لِأَنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ جِهَتِهَا، وَهَذَا إِطْلَاقٌ مُجَازِيٌّ. مِنْ نَوْعِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ حَالٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَهِيَ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَفَائِدَةُ [فَوْقَهُمْ] شَدُّ أَنْظَارِهِمْ إِلَى الْارْتِقَاءِ.

﴿كَيْفَ بَيَّنَّهَا﴾، كَيْفَ: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنْ حَالَةِ الشَّيْءِ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ فِي مَحَلِّ نَضْبٍ عَلَى أَنَّهُ هُنَا نَائِبٌ عَنْ مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ لِلْفِعْلِ فِي ﴿بَيَّنَّهَا﴾ وَالتَّقْدِيرُ: بَنَيْنَاهَا بِنَاءً ذَا حَالَةٍ مُذْهِشَةٍ، جَدِيرَةٌ بِأَنْ يَسْتَفْهَمَ عَنْهَا بِإِعْجَابٍ بِاسْمِ الْاسْتِفْهَامِ «كَيْفَ» وَوَجِبَ لُغَةً تَقْدِيمُهَا فِي الْعِبَارَةِ، لِأَنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْاسْتِفْهَامَ لَهُ الصَّدَارَةُ. وَيُمْكِنُ إِعْرَابُهَا بِوَجْهِ آخَرَ.

﴿بَيَّنَّهَا﴾ يُقَالُ لُغَةً: بَنَى وَابْتَنَى. وَبِنَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ بِحَسَبِ

الحاجة الداعية إليه، فبيوت العرب في البوادي تُبْنَى من الجلود والأصواف والأوبار المنسوجة، ونحوها، وبيوت المدن والقرى تُبْنَى من الحجارة والآجر والطين والجص والخشب والإسمنت والحديد ونحوها. والعنكبوت تبني بيئتها من خيوط دقيقة جداً تفرزها من غدة في جسدها.

وتقول العرب: بنى الطعام لحم آكله. أي: أكثر لحمه فعظم من الأكل.

وجسم الكائن الحي بناء الرب جلّ جلاله، وهو مبني من الخلايا، التي يتكوّن منها العظم واللحم والشحم والأعصاب وتوزّع في الأعضاء، بمقتضى حكمة الله.

فبناء السماء ينبغي أن يكون بحسب نظام التماسك بين أجرامها. والغلاف الجوي المحيط بالأرض مبني كما هو مشاهد من الغازات. والمجرات مبنية كما هو مشاهد بالمناظير والمجاهر لعلماء الفلك الرّاصدين من النجوم والكواكب، وتماسكها حاصل بقانون الجاذبية التي جعلها الله فيها.

وقد تكون مجموعة مجرات مترابطة بنظام فيما بينها إحدى السماوات السبع الكبرى، والله أعلم.

ونترك للبحث العلميّ الإنساني ما يتوصل إليه في هذا المجال، بشرط أن يكون ما يتوصل إليه علماً يقينياً بأدلة مقطوع بها.

﴿وَزَيَّنَّهَا﴾ التزيينُ التجميلُ والتحسين، وقد زينَ الله عز وجلّ السماء بالنجوم والكواكب، وقد يكون تزيين الشيء بجعل بعض أجزائه زينة له. وقد اقتصر النص هنا في سورة (ق) على ذكر التزيين، دون بيان الأشياء التي زُيّنَتْ بها السماء.

ولكن جاء بيان هذا في نجوم التنزيل التي نزلت بعد سورة (ق) ونجد

في القرآن المجيد نصوصاً خمسة حول تزيين السَّماء للناظرين في الأرض، وهي نصوص متكاملة الدلالات فيما بينها وفق المنهج القرآني.

**النص الأول:** هو هذا النص الذي نتدبره من سورة (ق/٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

**النص الثاني:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝﴾

﴿بُرُوجًا﴾ البروج منازل الكواكب والنجوم السيّارة، وأصل معنى البروج في اللغة: القصور العالية المشرقة المتطاولة في السماء.

وقد أضاف هذا النصّ ذكر «البروج» وهي منازل حركة النجوم والكواكب، وهذه المنازل تمثل جزءاً من الزينة العامة. وأضاف أيضاً أن هذا التزيين إنما هو للناظرين، الذين يُدركون بحاسة النظر الجماليات التي تُدرك بالابصار، والبشرُ هم المقصودون الأولون بهذا التزيين.

**النص الثالث:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكِبِ ۝ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝﴾  
 ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝﴾  
 ﴿وَأَصِْبُ ۝﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝﴾

فأضاف هذا النص بيان قضيتين:

**الأولى:** أن التزيين للناظرين هو للسماء الدنيا بالنسبة إلى سكان الأرض.

**الثانية:** أن من الأشياء التي يحصل بها التزيين مشورات الكواكب، مع ما لها من وظائف أخرى، ومنها أن تكون أدوات حفظ، تحفظ أهل الملاء

الأعلى من أن تقترب منهم الشياطين، فيستمعوا منهم الأنباء من المقادير الربانية لينقلوها إلى قرنائهم من الإنس.

وهي التي تهوي منها الشهب في اتجاه الغلاف الجوي فتلتهب، ثم تهوي في اتجاه الأرض أسهماً نارية.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِن مِّنْ شَيْءٍ مِّمَّا يَرْجُونَ﴾، أي: ولهم عذاب دائم غير الاحتراق بالشهب التي تُصَيِّهُم.

النص الرابع: قول الله عز وجل في سورة (فُضِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).

﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

فأضاف هذا النص بيان قضيتين:

الأولى: وصف الأجرام التي جعل الله تزيين السماء الدنيا بها، بأنها تشبه المصابيح، سواء أكانت نجوماً ملتبة، أم كواكب عاكسات للنور.

الثانية: أن كلاً من التزيين والحفظ من الشياطين قد تم بتقدير العزيز العليم.

العزيز: أي: القوي الغالب الذي لا يُغلب.

العليم: أي: الواسع العلم.

النص الخامس: قول الله عز وجل في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

[رُجُوماً]: الرُّجُوم: ما يُرْجَمُ من حجارة وغيرها، مفردُها «الرَّجْم». وقد أضاف هذا النص دلالات ثلاثاً.

**الأولى:** تأكيد أن الله جَلَّ جلاله بعظمة ربوبيته وسُلْطانه زَيْنَ السَّمَاء الدنيا بمصاييح بعبارة [لقد].

**الثانية:** أن حفظ السماء من الشياطين يكون بِرَجْمِهِم بما زَيْنَ به السَّمَاء الدنيا من مصاييح.

**الثالثة:** أن العذاب الْوَاصِبَ الدَّائِم الذي أَعَدَّهُ الله لهم هو عذاب السعير في جهنم.



قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾.

**الفروج:** الشُّقُوقُ المفتوحة، والمنافذ التي تكون بانفصام الالتحام بين عناصر الشيء الذي له وحدة كُلِّيَّة متماسكة.

والسَّمَاء بنظامها المتماسيك خالية من الشقوق والمنافذ، التي تيسر دُخُولَ أشياء قضى الله بنظامه العام لها أن لا تدخلَ فيها، أو تُعَرَّضُ تماسكها لحدوث خللٍ فيه يُفْسِدُ نظامها.

وَتَمَاسُكُ كُلِّ شَيْءٍ يكون بحسب نظامه، وشقوق كُلِّ شَيْءٍ تكون بحسب نظامه، والفروج تكون في كُلِّ شَيْءٍ بحسب نظامه.

إنَّ تماسك أجرام المجموعة الشمسية بقانون الجاذبية الرِّبَّاني، ليس فيه شقوق ولا فروج - ولو كان فيه شيء من ذلك لاختلَّ التماسك والتجاذب بينها، ولحدث فيها فسادٌ في أبعادها وفي مداراتها، وفي أبراجها، ومن شأن هذا الفساد أن تبتلعَ الشَّمْسُ مَجْمُوعَتَهَا، أو تضلَّ أجرامُ منها في أبعاد فسيحة من مَجَرَّتِهَا، فتلتحقَ بنجومٍ أخرى، أو تبتلعَها نجومٌ أخرى.

إنَّ الفروج في النباتات تفطرات وتشققات في أجرامها بحسب

مقاديرها. وإن الفروج في الأجساد فَتَحَاتْ فيها، وإن الفروج في الأرض وفي الجبال شقوقٌ قد تكون عظيمة جداً، تنشأ عنها في الجبال وديان سحيقة، وفي سائر الأرض بحارٌ عظيمة، وإن الفروج في الغلاف الغازي المحيط بالأرض تشققاتٌ إذا حَدَثَتْ وَصَلَتْ إلى الأرض أشعةً شديدة الخطر والضرر على الأحياء والنباتات، من الشمس ومن أشعة كونيةٍ أخرى، وسبق أن عرفنا أن الغلاف الغازي المحيط بالأرض يطلق عليه في اللغة سماء.

وهنا أتساءل: هل يَضْلَح أن يكون هذا الغلاف الغازي هو المراد بالسَّماء الدنيا، مع دلالة قوله تعالى في الآية: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لأنه هو المحيط بهم من فوقهم، إذ لو لَمْ تَكُنْ لهذه الفوقية دلالة خاصة لكانت من فضول القول، فكلُّ السَّمَاوَات هي فوق الناس الساكنين في الأرض والله أعلم؟؟ وسبق بيان أن عبارة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تفيد شدَّ أنظار الناس إلى الالتقاء عن مواطئ الأقدام، إلى ما فوق الرؤوس من أبعاد.

قولُ الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، أي: جعلناها ذات امتداد في بُعْدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ، كَتَمَدُّ السَّقَاء، وهو ظَرْفُ الماء المَتَّخِذُ من الجلد، وهو ما يُسَمَّى بالقِرْبة.

ويقال لُغَةً: تَمَدَّدَ الرَّجُلُ، أي: تَمَطَّى وتطاول، وأضِلُّ المَدَّ في اللُّغَةِ الجَذْب.

وقد يكون المرادُ أيضاً بِمَدَّهَا مَدَّهَا بالخيرات، والمعادن ومواد الخِصْب، والعناصر النافعة للعباد.

تقول لغة: مَدَدْتُ الأرض مَدًّا، إذا زِدْتَ فيها تراباً أو سماداً من غيرها، ليكون أَعْمَرُ لها وأكثر رِيْعاً لِرِزْعِها.

ويقال في اللغة للرَّمَال وللسماد: مِدَادُ الأرض.

ومنه يقال لما يُرْسَلُ من محاربين للجيش المقاتل: مَدَد.

وواقع حال الأرض التي جعلها الله عز وجل دار سكنى الناس في الحياة الدنيا، يشهد بأنها متمددة كتمدد السقاء، وأن الله جلت حكمه وعظمت نعمه، قد أمدها بعناصر وفيرة لرزق العباد ومنافعهم. والتدبر الأمل يذعو إلى حمل اللفظ على معنيتين، فكل منهما يدل على إتقان صنع الله، وكمال حكمته، وعظيم رحمته وعنايته بعباده. قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسًا﴾، أي: وألقينا في الأرض جبلاً ثوابت رواسخ ثبتت قشرتها.

يقال لغة: رَسَا الشيء يَزُسُو رُسُوًا ورُسُوًا، أي: ثبت. ويقال: رسا الجبل، أي، ثبت أضله في باطن الأرض.

وكلمة ﴿رُوسًا﴾ هي في الأصل صفة لموصوف محذوف، هي الجبال، ولكثرة استعمالها صفة للجبال استغني عن ذكر الموصوف، ونزلت الصفة منزلته في أصل الدلالة، مع زيادة معنى الثبوت والرُسوخ.

ولعل في كون الجبال مُلقاة إلقاء إشارة إلى أن الأرض كانت ممددة كالسقاء، ثم حصلت فيها تفجرات بركانية، نجم عنها ترامي حمم بركانية في الجو، وألقيت هذه الحمم في الفجوات التي أخذتها البراكين العظمى، فكانت الجبال الرواسي.

ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده في الأرض بالجبال الرواسي:

نطالع في القرآن المجيد أحد عشر نصاً يمتن الله فيها على عباده بالجبال الرواسي، عشرة منها مكية، والحادي عشر منها مدني، وهي ما يلي مرتبة بحسب ترتيب نزول سورها:

النص الأول: قول الله عز وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/

٣٣ نزول) في معرض الحديث عن الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِيَ شَلِخَتْ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾

فوصف الله في هذا النص الجبال بوصفين لها: وصف الرؤس، ووصف الشموخ، وهو العلو والارتفاع.

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) التي نتدبرها في معرض الحديث عن الأرض: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾.

فأضاف هذا النص فكرة الإلقاء، الذي يشير إلى كيفية تكوين الجبال.

النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١١﴾.

فجاء في هذا النص ذكر الجبال الرواسي، ضمن تعليم جدلي لمناظرة المشركين، حول توحيد الربوبية، الذي يلزم عنه عقلاً توحيد الإلهية لله جل جلاله.

والمناظرة قائمة على طرح أسئلة على المخالف، رغبة في انتزاع اعترافه بأن الربوبية لا يُشارك الله فيها أحد، إذن فهو الذي يجب عقلاً أن تكون له وحده العبادة، إذ لا إله إلا هو، وهذا هو اللازم العقلي الأول لكونه لا رب في الوجود سواه.

النص الرابع: قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ۖ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ ۖ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾.

جاء هذا النص ضمن عرض طائفة من آيات الله عز وجل في كونه، ونعمه على عباده فيها، مُعالِجةً للكافرين بإقامة الأدلة لهم على عظمته



رُبُوبِيَّتِهِ، وعلى فيوض نِعَمِهِ عليهم رَحْمَةً بهم، عَسَى أَنْ يُؤْمِنَ مِنْهُمْ مَنْ  
لديه استعداد للانقياد والعبادة والطاعة.

وجاء فيه ذكر إلقاء الرواسي في الأرض باعتبارها إحدى آيات الله في  
الأرض، الدالة على ربوبيته ورحمته ونعمه على عباده.

النص الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧  
نزول):

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الثَّمَرَاتِ  
ذِي صِفَاتٍ حَسَنَةٍ نَافِعَةٍ طَيِّبَةٍ.

وأضاف هذا النَّصَّ بالنسبة إلى الجبال الرواسي بيان وظيفة كونية من  
وظائفها، وهي مَنْعُ قَشْرَةِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ تُمِيدَ بِمَنْ عَلَيْهَا. ماد الشيء.  
يَمِيدُ، مَيْدًا، وَمَيْدَانًا، أي: تحرَّك واضطرب.

النص السادس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/  
٦١ نزول) في معرض الحديث عن الأرض ضمن تعليم جدلي يُنَاطِرُ به  
الداعي إلى الله المشركين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً  
لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ نَهَارٌ ﴿١٠﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصَّ بالنسبة إلى الجبال الرَّوَاسِي، بيان كون هذه  
الرَّوَاسِي مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، للدلالة على أن ارتفاع مقادير عظيمة مِنْهَا فوق  
سَطْحِ الْأَرْضِ ذُو نَفْعٍ عَظِيمٍ لِلنَّاسِ.

النص السابع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠

نزول) حديثاً عن الله عز وجل:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمْتُمْ...﴾.

فأضاف هذا النص أن من فوائد الجبال الرواسي أنها بمثابة علامات يَهْتَدِي بها الناس في أسفارهم وتنقلاتهم، وكذلك الأنهار والسُّبُل.

النص الثامن: قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا النص جاء فيه الحديث عن الكافرين الغائبين، ولم يواجههم الله فيه بالخطاب. وجاء فيه بيان أن الرواسي إحدى آيات الله في كونه، وأن الكافرين معرضون عن آيات الله. وهذه إضافات أسلوبيّة وفكريّة.

النص التاسع: قول الله عز وجل في سورة (النبا/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾.

أوتاد: جمع «وتد» وهو العود الذي يُدَقُّ في الأرض لتثبيت الخيمة به، أو لربط عنان الدابة به.

فأضاف هذا النص بيان أن الجبال في الأرض تُشَبِّهُ الأوتاد لها، لما فيها من تثبيت، وأضاف أن الجبال يدخل منها قِسْمٌ عظيم في الأرض، كما يدخل الوتد، فقسّم منها فوق الأرض كما جاء في النص السادس، وقسّم منها مغموس في الأرض كحال الأوتاد.

النص العاشر: قول الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف

٨١ نزول):

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾.

فأضاف هذا النص بيان أن أحداث دَحْوِ الأرض، وإخراج الماء والمرعى، وإزساء الجبال، قد كانت بعد رَفْع سَمَكِ السماء وتَسْوِيتها، وإغطاش ليلها وإخراج ضحاها.

النص الحادي عشر: قول الله عز وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

فأضاف هذا النص عدة بيانات تتعلق بالثمرات، والزوجية فيها، وأن النهار هو الذي يغشى الليل فيستره.

أما الإضافة المتعلقة بالجبال مع تعلقها بغيرها من آيات الله، فهي أن الذين يتفكرون هم الذين يُذَرِّكُونَ ما في الظواهر الكونية من آيات الله الدالات على صفاته الجليلة.

### التعليق:

إن إلقاء الجبال الرواسي في الأرض لتثبيت قشرتها نعمة عظيمة، وعناية من الرب الخالق بسكان الأرض جسيمة، ولا يعرف قيمتها إلا الذين يتعرّضون للزلازل المدمرة في مواضع من الأرض، ولولا الجبال لظلت الزلازل والتشققات في الأرض وظاهرات الحسف تتوالى على سكان الأرض مهلكات ومدمرات ومربعات.

فلا عجب أن يوجه الله عز وجل للتفكر في ظاهرة الجبال الراسيات، ويمتنع على الناس بها في أحد عشر نصاً مع ما في الجبال من فوائد أخرى عظيمة، غير تثبيت قشرة الأرض، فهي خزانات مياه الأنهر والعيون، وهي

مستودعات كنوز كثيرة من كنوز الأرض - وعليها تُبنى القلاع والحُصُون  
والمساكن المحميّة المشرفة الطيبة الرياح، إلى غير ذلك من منافع كثيرة.



قول الله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا في  
الأرض من كل صنفٍ وكل نوعٍ ممّا تُنبِت الأرض من نباتٍ بهيجٍ.

الزَّوْجُ: يُطْلَقُ في اللُّغة على الصَّنْفِ من كل شيء، وهذا هو المراد  
هنا. وَيُطْلَقُ على ما يقابل الفرد - وكلُّ شَيْئَيْنِ مقترنين هُما زوجان ولو كانا  
مختلفين غير متشاكليين.

بَهِيْجٌ: أي: ذي بهجة. البَهْجَةُ: الحُسْنُ والنضارة والجمال. يُقال  
لغة: بَهَجَ الشَّيْءُ بَهْجَةً وبَهَاجَةً وبَهَجَاناً فهو بَهِيْجٌ، إذا كان ذا حُسْنٍ ونضارة  
وجمال.

فدلّ هذا البيان الربّانيُّ على أنّ الجمال في الكون أمرٌ مقصودٌ في  
نظام الخلق وخُطّيته. فكما زَيَّنَ الله عزَّ وجلَّ السَّماءَ الدُّنيا بمصابيح مضيئةٍ  
أو مُنيرةٍ، مع الغاية النفعيّة منها، أنبت في الأرض من كل صنف أو نوع  
من النبات ما هو بهيجٌ حسنٌ نضِرٌ جميل، للامتاع بجماله مع ما فيه من  
رِزْقٍ أو نفعٍ آخر للعباد.

قول الله تعالى: ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

بعد توجيه الأنظار إلى آيات الله في السَّماء، وبغض آياته في الأرض،  
وامتِنانِ الله على عباده بما فيهما من منافع لهم، في حياتهم الدنيا، وما  
فيهما من امتاع جمالي، وجَّه الله عزَّ وجلَّ أنظار الناس لِمَا فيهما من هداية  
ذوي الألباب والعقول المتفكرة الواعيّة إلى قضايا الإيمان الكبرى، التي هي  
أولى الواجبات الدينيّة التي يُطالبُ بها المكلفون الموضوعون في الحياة  
الدنيا موضع الامتحان.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ ذَاتُ وَظِيفَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ لِلنَّاسِ، وَذَاتُ وَظِيفَةٍ دِينِيَّةٍ لَهُمْ، إِذْ تَهْدِي أُولِيَ الْأَلْبَابِ مِنْهُمْ ابْتِدَاءً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ دَلَالَاتٍ إِمَانِيَّةٍ، عَلَى طَائِفَةٍ جَلِيلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ خَالِقِهَا وَالْمُهَيِّمِنِ عَلَيْهَا دَوَاماً بِرَبُوبِيَّتِهِ، ثُمَّ إِلَى الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الدِّينِ وَتَضَدِيقِ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ مِنْهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ. وَتُذَكِّرُ دَوَاماً بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ابْتِدَاءً.

هذا ما دلَّت عليه عبارة: ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَى﴾.

فالتَّبَصُّرُ: هي التعليم والفهم ابتداءً، لِمَنْ يُدْرِكُ دَلَالَاتِهَا، يُقَالُ لُغَةً: بَصَّرَهُ الْأَمْرَ تَبْصِيراً وَتَبَصَّرَهُ، أَي: أَفْهَمَهُ إِيَّاهُ، وَعَرَّفَهُ بِهِ وَأَوْضَحَهُ لَهُ. وَالتَّبَصُّرُ: التَّأَمُّلُ وَالتَّعَرُّفُ. وَالتَّبَصُّيرُ: التَّعْرِيفُ وَالْإِيضَاحُ.

وهكذا آياتُ الله في كونه، تُعَلِّمُ وَتُفَهِّمُ أُولِيَ الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مُتَفَكِّرِينَ مُتَدَبِّرِينَ.

وَالذُّكْرَى: التذكير بالشيء، يُقَالُ لُغَةً: أَذْكَرَهُ إِيَّاهُ، وَذَكَرَهُ، وَالاسْمُ مِنْ هَذَا «الذَّكَرَى».

وَآيَاتُ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ تَكُونُ مُشَاهِدَاتِهَا الْمُتَكَرِّرَاتِ بَعْدَ التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ، ذِكْرَى، أَي: تَذْكَيراً مُتَكَرِّراً بِمَا سَبَقَ أَنْ عَلَّمْتَهُ أَوَّلًا.

مَعَ مَا فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ مِنْ تَجْدِيدِ تَعْلِيمِيٍّ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَفَكِّرَ اللَّبِيبَ كُلَّمَا كَرَّرَ نَظْرَهُ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ بِإِمْعَانٍ اسْتِفَادَ عِلْماً جَدِيداً لَمْ يَكُنْ قَدْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِالْمُشَاهَدَاتِ السَّابِقَاتِ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَظْهَرُ بِجَلَاءٍ لِأَهْلِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، الَّذِينَ يَتَعَمَّقُونَ فِي دَرَاةِ الظُّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ، وَكَلَّمَا اكْتَشَفَ هَؤُلَاءِ جَدِيداً زَادَهُمْ هِدَايَةً لاسْتَبْصَارِ مُدْهَشٍ يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ جَلِيلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصُورِ الْحَكِيمِ، الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وَلَكِنْ مَنِ الَّذِي يَشْتَفِعُ بِالتَّبَصُّرَةِ وَبِالذُّكْرَى؟

النَّصُّ يجيب بيانه على هذا السؤال بقول الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّئِيْبٌ﴾.

﴿مُئِيْبٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَنَابَ يُنِيْبُ» أي: رجع وتاب. وبالتفكر نُذِرُكَ أَنَّ كُلَّ عَبْدٍ قَدْ خَلَقَهُ رَبُّهُ مُنْذُ فَطَرَهُ، على الإيمان بالحق في مشاعره الوجدانية متى أذكره، وأعظم حق في الوجود الربُّ الخالق البارئ وصفاته الجليلة.

ثم يبتعد العبد عن مشاعر الإيمان بربه، مُتَّبِعاً أهواءه وشهواته وزُخْرَفَ الحياة الدنيا، وقد يَضِلُّ في تيهها وتجتأله الشياطين، فيكون بذلك عبداً أبقاً.

وحينَ يَغْزُمُ على الرجوع إلى موطن عبوديته الإرادية، ويحقق ذلك بالرجوع الفعلي، وهي الإنابة، عندئذ يكون مُنِيْباً، أي: راجعاً إلى موطن عبوديته الإرادية الاختيارية، وحينئذ تَلِفَتْ نظره آيات الله الكونية، فتكون له تَبَصُّرَةٌ وذكرى.

هذه المعاني قد أوجزها النصُّ عن طريق اختيار الكلمات ذَوَاتِ الدَّلَالَاتِ المطابقة، وذَوَاتِ الدَّلَالَاتِ الزُّومِيَّةِ التي يكشفُها التفكير والتدبر، من خلال التعمق في فهم النص، بعدَ عرض طائفةٍ من آيات الله في كونه: ﴿تَبَصُّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّئِيْبٍ﴾ (٨).

فما أبدع هذا البيان، وما أوجزه وأكثره دقة وعمقاً وامتداداً.

وتطبيقاً لأسلوب التكامل البياني في القرآن نستطيع أن نقول: إِنَّ كُلَّ نَصٍّ قرآنيٍّ جاء فيه عَرَضُ آيةٍ أو أكثر من آيات الله في كونه يَصْلُحُ لأن يقال في آخره: ﴿تَبَصُّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّئِيْبٍ﴾ (٨) فإيراده في نصٍّ منها يُغني عن إيراده في سائرهما، ولكن لا نجعله قرآناً يتلى، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن القائم على التكامل في الأداء البياني.

● قول الله عز وجل :

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ .

● ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة في هذا الدرس، التنزيل كالإنزال، هو الإهباط من علو إلى سفلى، وفعل: «نزل» مثل فعل «أنزل» والتعدي بالتضعيف، كالتعدي بالهمز، وقد يدلُّ الفعل المضعَّف على تكثير الإنزال أما فعل: «أنزل» فيدلُّ على الإنزال مطلقاً دون إرادة التكثير، وهما حالتان لإنزال المطر.

● ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من السحب التي يُطلق عليها لغة اسم السماء، كما سبق بيانه، والمشاهدة تُثبِتُ أَنَّ المطر ينزل من السحاب.

فلفظ السماء يُحْمَلُ في كلِّ مَوْضِعٍ على ما يلائمه.

● ﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي: ماء فيه زيادةٌ نفع وخير، فالبركة في اللغة: النماء والزيادة والكثرة من الخير.

إنَّ الماءَ من أَجْلِ نِعَمِ الله على الأحياء في الوجود، وقد جعله الله عزَّ وجلَّ في الأرض غزيراً وفيراً، وما على الناس إلا أن يُحْسِنُوا الانتفاع منه، بإجرائه، وتوجيهه، واستنباطه، وجمعه وتحليله واستغلاله وعدم الإسراف والتبذير به، ولو كان من أجل الطهارة الشرعية.

وقد وصف الله الماء الذي ينزل من السماء في هذا النصِّ بأنه مباركٌ، ووصفه في موضع آخر بأنه طهورٌ، أي: طاهر في نفسه مُطَهِّرٌ لغيره أخذاً من صيغة «فَعُول» التي هي من صيغ المبالغة والتكثير.

● ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾: الإنبات ظاهرة مشهودة، لا تكون في الأرض إلا بوسيط هو الماء، الذي تتحلل فيه العناصر الغذائية الموجودة في

التراب، فتختلط به، فتمتصُّ الجذور الماء وما اختلطَ به، ويكون ذلك غذاءً للنبات فينمو.

وكلُّ الماء الحُلُوِّ في الأرض قد جاءت تَحْلِيَّتُهُ عن طريق التبخر، وتكوُّن السُّحُب، ونزول الأمطار.

فَمِنْ الْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ أَوْ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُتُ النَّبَاتُ، ضَمْنَ سُنَنِ اللَّهِ السَّيِّئَةِ، وَلَوْ أَخَذْنَاهُ مِنَ الْعْيُونِ، أَوْ الْأَنْهَارِ، أَوْ الْأَبَارِ، أَوْ مُذَابِ الثَّلُوجِ.

وظاهرة الإنبات حركة إنشاء متدرِّج، فذكرُ الإنبات يُغني عن ذكرِ الإنشاء المتدرِّج.

ولفظُ الإنبات ينطبقُ على كلِّ حَرَكَةٍ تُنْمُو مَهْمَا صَغُرَتْ عَنْ إِذْرَاكِ النَّظَرِ، مَعَ أَصْغَرِ وَحْدَاتِ الزَّمَنِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمُنْبِتُ دَوَاماً مُنْذُ تَحَرُّكِ الْخَلِيَّةِ الْأُولَى الْمَوْجُودَةِ فِي نَوَاةِ الْبِزْرَةِ، حَتَّى اكْتِمَالِ الشَّجَرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَكُلُّ ثَمَرَةٍ تَنْمُو فِيهَا، وَكُلُّ وَرَقَةٍ تَنْمُو فِيهَا، إِنَّمَا تَنْمُو بِإِنْبَاتٍ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

﴿جَنَّاتٍ﴾: أي: أشجاراً مختلفة الأنواع، تتكوَّن منها جنَّات.

الجنَّات: هي الحدائق والبساتين المكتظة بالأشجار، فهي ساترة لما تحتها، وأصل مادة «جَنَ» تدور حول السَّتر بشيءٍ سائرٍ، «جنَّات» جمعُ مفردة «جَنَّة».

● ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: أي: وأنبتنا به زُرُوعاً مختلفة، تُعْطِي عِنْدَ نُضْجِهَا وَاسْتِخْصَادِهَا حَبًّا، فِيهِ نَفْعٌ لِلنَّاسِ وَسَائِرِ الْأَحْيَاءِ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَكَوُّنُ الْحَبِّ نَفْسِهِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ الْإِنْبَاتِ أَيْضاً.

الحبُّ: اسم جنسٍ يَشْمَلُ كُلَّ الْحَبُوبِ وَالْبُزُورِ الَّتِي تُنْتِجُهَا الزُّرُوعُ.



الْحَصِيدُ: هو المحصود من الزرع، أي: المقطوع بالمنجل أو نحوه،  
لِيُذْرَسَ، أو يُدَاسَ، وَيُفَرَزَ مِنْهُ حَبُّهُ، وَيُكَسَّرُ قَشُّهُ حَتَّى يَكُونَ تَبْنًا عُلْفًا  
لِلدَّوَابِّ، أو يُتَنَفَّعَ بِهِ فِي مَنَافِعَ أُخْرَى.

فَحَبُّ الْحَصِيدِ: هُوَ حَبُّ الزَّرْعِ الْمَحْصُودِ.

فدلَّ هذا على أَنَّ كَمَالَ نُضْجِ الْحَبِّ إِنَّمَا يَكُونُ حِينَئِذَا يَصِيرُ الزَّرْعُ  
صَالِحًا لِأَنَّهُ يُخَصَّدُ، وَذَلِكَ بِاضْفِرَارِهِ، وَيَبْسِهِ، وَذَهَابِ خُضْرَتِهِ وَنَضْرَتِهِ.

● ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ (١١).

النَّخْلُ: اسم جنس جمعي، واحده «النخلة» وشجر النخل معروف  
يُثْمِرُ البلح الذي يصير تمرًا، و(ال) في [النَّخْل] للتنويه بهذا النوع من  
الشجر وكثرة منافعه.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾: أي: طَوَالًا مُزْتَفِعَاتٍ فِي جَوِّ الْأَرْضِ، ذَوَاتِ سَيْقَانٍ  
طَوِيلَةٍ، وَاللَّفْظُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ.

تقول لغة: بَسَقَ الشَّيْءُ يَبْسُقُ بُسُوقًا، إِذَا طَالَ وَارْتَفَعَ وَعَلَا.

﴿لِّمَا طَلَعَ﴾: قَالَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ الْمَحِيطِ: الطَّلَعُ مِنَ النَّخْلِ شَيْءٌ  
يَخْرُجُ كَأَنَّهُ نَغْلَانِ مُطْبَقَانِ، وَالْحَمْلُ بَيْنَهُمَا مَنْضُودٌ.

﴿نَضِيدٌ﴾: أي: مَنْضُودٌ، وَالْمَنْضُودُ هُوَ الَّذِي تَرَكَبَ بَعْضُهُ عَلَى  
بَعْضٍ بِاتِّسَاقٍ. يَقَالُ لُغَةً: نَضَدَ مَتَاعُهُ يَنْضُدُهُ، وَنَضَّدَهُ يَنْضُدُهُ، إِذَا جَعَلَ  
بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ بِاتِّسَاقٍ وَنِظَامٍ. فَهُوَ مَنْضُودٌ، وَنَضِيدٌ، وَمُنْضُدٌ.

وهكذا واقع حال طلع النخل، متراكب الحب بغضه فوق بغض  
باتِّسَاقٍ وَانْتِظَامٍ.

وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا الْبَيَانِ مِنْ لَفْتِ الْأَنْظَارِ إِلَى الظَّاهِرَاتِ الْجَمَالِيَةِ  
فِي خَلْقِ اللَّهِ، فَلِبُسُوقِ النَّخْلِ وَلِتَرَكَبِ الطَّلَعِ بِانْتِظَامٍ جَمَالٍ يُتَمَتَّعُ النَّظِيرِينَ.

● ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾: الرِّزْقُ: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مَأْكُولٍ، ومشروب، وملبوس، وغير ذلك، وقد يُطْلَقُ عَلَى مَا هُوَ سَبَبٌ أَوْ وَسِيلَةٌ لذلِكَ إطلاَقاً مجازياً، وبكثرة الاستعمال قد يصير مثل الحقيقة: كالعطاء، والرواتب من النقود.

والرِّزْقُ: بفتح الراء مَصْدَرُ فعل «رَزَقَهُ يَرْزُقُهُ رَزَقًا».

العباد: أُطْلِقَ لفظ العَبْدِ وَالْعِبَادِ وَالْعَبِيدِ فِي القرآن عَلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، ومنه قول الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول).

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣).

إذ هم مخلوقون له فهم مملوكون له، فكلُّ حَيٍّ قَابِلٌ لِكِتْسَابِ الْعِلْمِ يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ «عَبْدٍ» بهذا المعنى.

﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾: أَي: أَنْبَتْنَا فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَأَنْبَتْنَا جَنَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَأَنْبَتْنَا النَّخْلَ بِاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، وَاتَّخَذْنَا الْأَسْبَابَ الَّتِي جَعَلْنَاهَا فِي التَّنْظِيمِ الْعَامِ أَسْبَاباً تُجْرِي مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي قَدَّرْنَاهَا وَقَضَيْنَاهَا، لِأَجْلِ رِزْقِ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ فِي الْأَرْضِ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُنِيئاً أَمْ أَبَقاً، مُؤْمِناً أَمْ كَافِراً، فَحَيَاةُ الْإِمْتِحَانِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرِّزْقُ فِيهَا لِجَمِيعِ الْمُمْتَحِنِينَ مُحْسِنُهُمْ وَمُسِيئُهُمْ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ضَمَّنَ نِظَامَ الْحِكْمَةِ الْعَامَّةِ.

﴿رَزَقًا﴾: مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، فَهُوَ مَنْصُوبٌ لذلِكَ.

وتطبيقاً لأسلوب التكامل البياني في القرآن المجيد، نستطيع أن نقول: إِنَّ كُلَّ نَصِّ قُرْآنِيٍّ جَاءَ فِيهِ عَرَضُ ظَاهِرَةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ رِزْقُ هَيَأَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، يَضْلُحُ لِأَنَّهُ يُقَالُ فِي آخِرِهِ: ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾ كما جاء في هَذَا النَّصِّ قِيَاساً مَطْرُداً دُونَ أَنْ نَجْعَلَهُ قُرْآنًا يَتَلَوَّى، لِأَنَّ إِيرَادَهُ فِي نَصِّ مِنْهَا يُغْنِي عَنْ إِيرَادِهِ فِي سَائِرِهَا.

فما ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذا النَّصِّ يَضْلُحُ تَغْمِيمُهُ فِكْرِيًّا عَلَى سائرِ النَّصُوصِ، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن. القائم على التكامل في الأداء البياني.

فيالروعة الأداء البياني البديع في القرآن المجيد، مع مطابقة الحق والواقع.

**وظيفتا آيات الله في كونه ونعمه على عباده:**

لقد دللنا التدبر المتأنى على أن الله عز وجل قد جعل آياته في كونه، ونعمه على عباده، ذوات نوعين من الوظائف:

**النوع الأول:** الوظائف التي تكون لمصالح الدنيا، وهذه الوظائف ينتفع بها كل من يتخذ الوسائل للانتفاع بها، مؤمناً كان أم كافراً، تقياً كان أم فاجراً.

**النوع الثاني:** الوظائف الهادية بدلالاتها إلى الله عز وجل، وصفاته الجليلة، والمبصرة بحكمة الله والغاية من خلق الناس، وأن على العباد أن يؤمنوا بربهم ويعبدوه. ثم المذكرة بكل ذلك كلما نظر إليها الناظرون بتفكير وتدبر.

فهي وظائف لمصالح الآخرة، أما المنتفعون بدلالاتها التي تحقق مصالح الآخرة فهم كل عبد مئيب إلى ربه غير أبق.



● قول الله تعالى:

﴿..وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١)

أي: وأحيينا بالماء المبارك الذي نزلناه بلدة مئيتاً، فَمَا فِيهَا الثَّبَاتُ ذُو الْخُضرةِ وَالثُّغرةِ وَالثمراتِ النافعَاتِ الْمُخْتَلَفَاتِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْأَرْضُ تُرَاباً

قد تفرَّقَتْ فيه ذَرَاثُ النباتات التي كانت قَبْلَ حينٍ مَالِئَةً سَطْحَ الأرض بالخضرة والنضرة والحركة والنماء، وتفرَّقَتْ فيه بزورها حاملاتِ خرائطِ تكوينها، وبرامِجِ عودتها إلى ما كانت أُمَّهَاتُها عليه، وخصائصِ نَشَأَتِها ثانياً وثالثاً وإلى ما لا نهاية له، على الصفات التي تَمَّتْ بها نَشَأَتُها الأولى.

**الْبَلَدَةُ، وَالْبَلَدُ:** المكان الواسع من الأرض، وقد يُلاحَظُ فيهما المكان المأهول بالسُّكَّانِ المحتَاجين لنباتات الأرض وثمراتها.

وقد جاء في اللُّغة لفظتا: «بَلَدٍ» بالتذكير، و«بَلَدَةٍ» بالتأنيث، للدلالة على كُلِّ قطعة أرض ذاتِ حُدُودٍ ما، سواءً كانت عامرةً أم غير عامرة، سكونةً أم غير مَسْكُونَةٍ، وتُطلقان على التراب، ويُطلقُ لفظ «الْبَلَدَةُ» على الأرض، تقول العرب هذه بَلَدَتُنَا، أي: هذه أرضنا.

وقَدْ وُصِفَتْ «الْبَلَدَةُ» وَلَفْظُهَا مُؤَنَّثٌ، بلفظ «مَيْتٍ» أو «مَيِّتٍ» وهو مذكَّر، إلحاقاً بما يَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث، فهو لا يحتاج أداة تأنيث.

قال الزَّجَّاجُ: «المَيْتُ» و«المَيِّتُ» بالتخفيف والتشديد، والمعنى واحد، وَيَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث.

أقول: لم يأتِ في القرآن وصفُ الْبَلَدَةِ بِالْمَوْتِ إِلَّا بصيغة: ﴿بَلَدَةٌ مَيِّتَةٌ﴾ وهي في ثلاثة نصوص:

(١) في الآية (١١) من سورة (ق/٥٠ مصحف/٣٤ نزول).

(٢) وفي الآية (٤٥) من سورة (الفرقان/٢٥ مصحف/٤٢ نزول).

(٣) وفي الآية (١١) من سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول).

أمَّا في غير لفظ «ميت» فقد جاء وصف «البلدة» في القرآن بالتأنيث.

وعلَّل بعض المفسرين تذكير لفظ «مَيِّتٍ» في وصف «بلدة» بقوله:

لأنَّ الْبَلَدَةَ بِمعْنَى البلد.

وأقول: ما ذكره الزجّاج أحسن مما ذكره غيره من تأويلات لا داعي لها، فلا استعمال جارٍ في هذا اللفظ «ميت» على ما يستعمله العرب، والقرآن شاهدٌ عليه.

والمراد بإحياء البلدة إحياء النباتات فيها، من البزور والجذور المنبثّة فيها، وهذا إطلاق مجازي من نوع المجاز المرسل، والعلاقة فيه إطلاق المحل وأرادة ما يحل فيه، أو يخرج منه.

وهل المراد بالإحياء تشبيه إنماء النباتات بإحياء الحيوانات ذوات الحركات الإرادية، على ما أذكرنا من صفاتها، أم أنّ الحياة في الكون ذات مراتب ودرجات في هذه المراتب، ويظهر لنا من هذه المراتب ما يلي:

**الأولى:** مرتبة حياة النباتات، ذوات الخلايا الخاصة بها.

**الثانية:** مرتبة حياة الخلايا في أجساد الحيوانات ذوات الحركات الإرادية، وبعض الإحساسات.

**الثالثة:** مرتبة الحياة الكلية للحيوانات ذوات الحركات الإرادية، وجُملة مُجتمعة من الإحساسات المصحوبة بمشاعر اللذة والألم، ويحتل أعلى درجات سلّمها الإنسان.

والأرجح فيما أرى والله أعلم: أن الحياة ذات مراتب متفاضلات، وذات درجات متفاضلات في كل مرتبة.

فالحياة جنسٌ كُلِّي يدخل تحته أنواع متفاضلة، ويدخل تحت الأنواع منها أصناف متفاضلة أيضاً.

وبدء هذا السلّم ذي المراتب والدرجات المتفاضلات يمكن تحديده أدناه من وحيد الخليّة بحسب مُدركاتنا، فمتعدّد الخلايا في وحدة يحكمها نظام عام.

والكائنات التي تنمو بتكاثر خلاياها دون ظُهُور حركات إرادية لها وإحساسات راقيات، تدخل في نوع النباتات.

والكائنات التي تنمو بتكاثر خلاياها، مع ظهور حركات إرادية لها وإحساسات راقيات تدخل في نوع الحيوان، ولهذه الحيوانات درجات متفاوتات. ويحتل الإنسان قمة هذا النوع.

وعلى هذا فالتعبير القرآني بالإحياء هو تعبير على وجه الحقيقة، لا على التشبيه، أو المجاز بالاستعارة.

والله أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾: أي: يكون خروج الموتى من الأرض، مثل ذلك الذي يحصل لبُزور أو أصول جذور النباتات الموزعة في تراب الأرض، والمستقرّة أو المستودعة فيها، والذي تكون معه الأرض خالية من الحياة النباتية، إذا نزل عليها المطر من السحاب، فاختلط الماء بتراب الأرض، فوصل الماء إلى البزور أو أصول الجذور، فامتصته، فبدأت فيها عوامل الحياة النباتية، فانتفخت وامتدت منها ماصات الغذاء من التراب، وناميّات الثبات تشق تراب الأرض آخذة في الصعود لتمتص الهواء والضياء، وتتابع التعاظم بالنماء، حتى تعود مثل ما كانت عليه في دورات حياتها السابقة.

فإحياء الموتى يوم البعث يكون من يزور أجسادهم، إذا أنزل الله عز وجل على الأرض الماء الخاص بإعادة الأحياء الحيوانية إلى الحياة مرة أخرى، فيصل هذا الماء المختلط بالتراب إلى بزور الأجساد، فيحدث فيها مثل الذي يحدث لبُزور النباتات، فتنبو. وتعاظم، ويأمر الله نافخ الصور فينفخ فيه، فتطلق الأزواح إلى أجسادها بخلق الله.

وبزرة كل جسد حي الحاوية لخريطة حياته وصفات ذاته الجسدية

والنفسية، مستودعة في باطن عَجَبِ الذَّنْبِ<sup>(١)</sup> الذي لا يتعرَّضُ للفناء، وإن تعرض جِزْمُ الْعَجَبِ إلى تغييرات، فهي تغييرات سطحية لا تصل إلى عُمُقِ الْعَجَبِ الحاوي لخريطة حياته وصفاته، وبرنامج نمائه، فهي نواة صغيرة جدًا لا تُدْرِكُهَا الْأَبْصَارُ.

على أَنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحتاج في خلقه الأول وإعادة خلقه إلى كُلِّ هذه الأسباب، فخريطة كُلِّ كائنٍ مَعْلُومَةٌ لَدَيْهِ، وصفاتُ جَسَدِهِ ونفسه مَعْلُومَةٌ لَدَيْهِ، ولا تحتاج إعادة خلقه أكثر من كَلِمَةٍ: «كُنْ» فهو يكون، على مُرَادِ الله، وفي الإعادة يكون كما كان في الخلق الأول.

وإذا لَاحَظْنَا أَنَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِ اللَّهِ لِلْأَشْيَاءِ أَنَا فَأَنَا فِي كُلِّ أَصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمْنِيَّةٌ هِيَ خَلْقٌ مُتَجَدِّدٌ، دونَ أَنْ يُؤَثَّرَ هَذَا على أَصْلِ كِيَانِ الْمَخْلُوقِ، في وَحْدَةٍ ذَاتِهِ وصفاته، فَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَيْنَا جَدًّا أَنْ نتجاوز كُلَّ احتمالات انعدام كُلِّ ذَرَاتِ الذَّاتِ الْأُولَى، لو كان الواقع كذلك.

فإننا نَشَاهِدُ أَنَّ بَقَاءَ الثُّورِ في المصابيح الكهربائية قائم على التجدد المستمر، بالإمداد المتجدد بالطاقة الكهربائية، فكلُّ لحظةٍ من لحظات النور، يوجد فيها نُورٌ جَدِيدٌ غَيْرُ النورِ السَّابِقِ، دونَ أَنْ يُؤَثَّرَ ذَلِكَ على وحدة الأصل.

وهكذا كُلُّ ما في الوجود من كائنات في السَّمَاتِ والأَرْضِ، يُمَسِّكُهَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الوجود باقيةً بإيجادٍ مُتَجَدِّدٍ في تَوَالِي أَقْصَرِ اللَّحْظَاتِ، وقد دَلَّ على هذا قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

(١) عَجَبُ الذَّنْبِ: هو جُزْيَةٌ في أَصْلِ الذَّنْبِ عند رأسِ الْغُضْغُصِ، وَيُجْمَعُ على «عُجُوبٍ» و«أعجاب».

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١).

أي: إنه جلّ جلاله يُمْسِكُهَا في الوجود بما يُعِدُّهَا به من خَلْقٍ مُتَجَدِّدٍ، وحين يُوقِفُ تجديد الخلقِ تَعُودَ عَدَمًا إلى أَصْلِهَا، وعندئذٍ لا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْسِكَهَا لَتَبْقَى مَوْجُودَةً.

فَمَا الْعَجَبُ من إعادة أي مَخْلُوقٍ بِخَلْقٍ مُتَجَدِّدٍ مَا دَامَ عِلْمُ اللَّهِ به وبصفاته كُلِّهَا شَامِلًا عَامًّا، وَمَا دَامَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ لَمْ يَخْذُثْ لَهَا تَغْيِيرٌ، ومن صفاته جَلُّ جلاله أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فيكون.

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِعَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ أَسْبَابًا فَهُوَ يَخْلُقُ مِنْ قُوَّاتِهَا، التَّزَامًا بما اختار هو سبحانه من نظام.

وكلُّ كلام في الأسباب لا يخرج عن محاولة كشف النظام السَّبَبِيِّ الَّذِي نَظَّمْ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ بَدَأً وَإِعَادَةً، أما الأسباب بذاتها فَلَا تَفْعَلُ شَيْئًا، وَلَا تَخْلُقُ شَيْئًا.

وَنُلَاحِظُ فِي عِبَارَةٍ: ﴿.. كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ عَقِبَ بَيَانِ أسبابِ إنباتِ النباتات في الأرضِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ وَجَّهَ الْأَنْظَارَ لِلتَّفَكُّرِ فِي دَلَائِلِ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كُونِهِ، نَبَّهَ عَلَى ظَاهِرَةِ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا الَّذِي يَتِمُّ بَعْدَ تَنْزِيلِ الْمَاءِ الْمُبَارَكِ مِنَ السَّمَاءِ واختلاطه بِتُرَابِ الْأَرْضِ الَّتِي فِيهَا بَزُورِ النباتاتِ، فَتَنْبُتُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَقضائه وَقدره فَتَعُودُ حَيَّةً بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ فِيهَا الْحَيَاةُ السَّابِقَةُ.

وبعد التَّوَجُّهِ إلى هذه الظاهرة المتكررة في الحياة الدنيا، أُرْشِدُ اللَّهَ جَلَّ جلاله إِلَى أَنَّ حَيَاةَ النَّاسِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِثْلُهَا، فلا فرق بين حَيَاةِ شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ من نَوَاةٍ لَا تُدْرِكُ بِالطَّرْفِ فِي بَزَرَتِهَا، وَبَيْنَ حَيَاةِ إِنْسَانٍ بَعْدَ مَوْتِهِ من نَوَاةٍ لَا تُدْرِكُ بِالطَّرْفِ، فِي عَظَمَةِ من عِظَامِ جَسَدِهِ الَّذِي بَلِيَ وَتَفَتَّتْ، وَتَفَرَّقَتْ ذَرَاتُهُ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، وَهِيَ فِي عَجَبِ الذَّنْبِ.



فإذا كان المتشككون حريصين على مُشاهدة مِثَالٍ للحياة بَعْدَ الموت،  
فإحياء نباتات الأرض بَعْدَ موتها مِثَالٌ متكرّر الحدوث في الحياة الدنيا.

وأكد الله عزّ وجلّ بيان هذا في قوله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥  
مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ  
بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾.

﴿النُّشُورُ﴾: هو الإحياء بَعْدَ الموت. وكذلك الإنشمار.

ثمّ أنزل قوله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوتُ ۝١١﴾.

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا  
وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوتُ ۝١٩﴾.

وظاهر تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النباتات من نويات بزورها، يدلّ على أنّ إحياء الموتى يكون كذلك من نويات تبقى فيها صلاحية النشأة الأخرى، وحين يأتي يوم البعث يُهَيِّئُ اللَّهُ عزّ وجلّ الظروف الصالحة لهذه النشأة، والأسباب التي بها تكون، فتتمو هذه النويات حتّى تكون أجساداً مُستَعِدَّةً لنفخ الروح فيها، فيأمر الله - جلّ جلاله وعظم سلطانه - المَلَكُ المكلّف بنفخ الصور الذي اجتمعت فيه الأرواح، فينفخ فيه، فتنتطلق كلّ رُوح وتحلّ في جَسَدِهَا الذي صار جاهزاً بالنشأة الأخرى للحياة والبعث، على وفق ما كان عليه في الحياة الدنيا، لأنّ خريطة صفاته كلّها موجودة في نواته التي احتفظت الأرض بها، من جَسَدِهِ في الحياة الأولى.

وَتَدُلُّ ظَوَاهِرُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - يُنْبِئُ أَجْسَادَ الْمَوْتَى فِي الْأَرْضِ، كَمَا يُنْبِئُ النَّبَاتَاتِ الَّتِي نَشَاهِدُ عَوْدَتَهَا إِلَى الْحَيَاةِ فِي ظَاهِرَاتٍ مُتَكَرِّرَاتٍ، إِذْ يُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ صَالِحاً لَتَفْجِيرِ نَوِيَاتِ أَجْسَادِ الْمَوْتَى، فَتَأْخُذُ فِي النِّمَاءِ، كَمَا تَنْبُتُ الْبَقُولُ أَوْ الْفُطُورُ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى إِذَا اكْتَمَلَتْ نُفُحَتْ فِيهَا الْأَرْوَاحُ.

وهذا هو ما دلت عليه بيانات الرسول ﷺ فوجب اعتماذه.

● روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ الثُّفَحَيْنِ أَرْبَعُونَ»<sup>(١)</sup>.

قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أَيْتُ.

قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَيْتُ.

قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَيْتُ.

«ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ».

قال: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَنْبَلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

● وروى مسلم عن أبي هريرة أيضاً، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

● وروى مسلم عنه أيضاً، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْماً لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَداً، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) النفختان: هما نفخة الملك الأولى في الصور التي يتم بها إماتة الأحياء إلا من شاء الله، ثم يقبض الله أرواح هؤلاء، والنفخة الثانية هي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت.

قَالُوا: أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قال: «عَجَبُ الذَّنْبِ».

● وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«مَا بَيْنَ الثُّفَحَتَيْنِ أَرْبَعُونَ».

قالوا: يَا أبا هريرة: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قال: أَيْتُ.

قالوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قال: أَيْتُ.

قالوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قال: أَيْتُ.

«وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ».



فلا داعيَ بَعْدَ دَلَالَةِ ظَوَاهِرِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَصَرِيحِ دَلَالَةِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ لِلذَّهَابِ إِلَى مُبَالَغَاتٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا حَوْلَ فِكْرَةِ إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِأَعْيَانِهَا، وَلَا دَاعِيٍ لِلْعُلُوِّ وَالْمُمَاحَكَةِ وَاللَّجَاجِ فِي هَذَا، فَهُوَيَّةُ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ وَرُوحِهِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا حَيَاةُ نَفْسِهِ، وَخَرِيطَةُ نَفْسِهِ وَبِنَاءِ جَسَدِهِ مَوْجُودَةٌ فِي نَوَاتِهِ، كَمَا أَنَّ خَرِيطَةَ الشَّجَرَةِ الْعَظِيمَةِ مَوْجُودَةٌ فِي نَوَاتِهَا، كَامِنَةٌ فِيهَا، وَمَتَى تَهَيَّأَتْ شُرُوطُ إنبَاتِهَا شَجَرَةٌ، جَرَى نَمَاؤُهَا عَلَى وَفْقِ خَرِيطَتِهَا، مُسْتَفِيدَةً بِنَاءِ جَسَدِهَا مِنْ عَنَاصِرِ تُرَابِ الْأَرْضِ.

وَلَدَى تَبْدِيلِ جَسَدِ الْإِنْسَانِ كُلِّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِاسْتِثْنَاءِ ثَوَابِتٍ صَغُرَى فِيهِ، فَإِنَّ هُوَيْتَهُ وَحَقِيقَتَهُ لَا تَتَغَيَّرُ، وَالْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِضَرْبٍ لَجُزْمِ ارْتِكَابِهِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ إِذَا فَرَّ مِنَ السُّلْطَانِ وَعَادَ بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، إِنِّي الْيَوْمَ أَحْمِلُ جَسَدًا غَيْرَ الَّذِي كُنْتُ ارْتَكَبْتُ الْجُرْمَ بِهِ، فَلَا تَضْرِبُوهُ لِأَنَّهُ بَرِيءٌ، إِذِ النَّفْسُ هِيَ الَّتِي أَجْرَمَتْ وَالْجَسَدُ أَدَاةُ تَوْصِيلٍ لَهَا.



(٨)

## التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ - ١٤)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَشُعُوبٌ أُخْرَىٰ ۚ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۚ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ۚ﴾ (١٤)

وفي قراءة وزش: [ويعيدي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل، وأثبتها يعقوب أيضاً في الوصل والوقف.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قَبْلَ المَكْذِبِينَ الكَافِرِينَ الَّذِينَ بدأتِ السورة بمعالجتهم، فالضمير في: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يَعُودُ عليهم، وَسَبَقَ أَنْ عرفنا أَنَّ السُّورَةَ عَرَضَتْ مَقَالَتَهُمُ التَّعْجِيبِيَّةَ الْإِنْكَارِيَّةَ لِقَضِيَّتَيْنِ:

الأولى: أَنْ يجيئهم رسولٌ بَشَرٌ منهم.

الثانية: نَبَأُ إحياء الموتى يوم القيامة بَعْدَ فناء أجسادهم، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

وجاء هذا الدرس مشتملاً على ثلاث قضايا، مع عرض أمثلة تفصيلية موجزة لها:

القضية الأولى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا لم يكن بذعاً في تاريخ البشرية، فقد جاء قَبْلَهُ رُسُلٌ كثيرون، إلى أُمَمٍ مختلفةٍ كثيرةٍ من أُمَمِ الأرض.

أي: فَلَا دَاعِيٍ لِلتَّعْجُبِ مِنْ كَوْنِهِ بَشَرًا إِذْ هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وهو ما تقضي به الحكمة، وَلَوْ جَاءَ الرَّسُولُ غَيْرَ بَشَرٍ لَكَانَ بَغْثُهُ مَنَافِيًا لِكَمَالِ الْحِكْمَةِ.

ألم يُرْسِلِ اللَّهُ عز وجل نوحاً وهوداً وصالحاً، وموسى وهارون ولوطاً وشعياً من البشر؟! فما وجه العَجَبِ؟!

**القضية الثانية:** أَنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ بَعَثَتِهِ لَيْسُوا  
بِذُعَا أَيْضًا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، فَقَدْ سَبَقَتْهُمْ أُمَّمٌ كَثِيرَةٌ كَذَبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ،  
وَكَذَبُوا بِنَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ، وَكَانَتْ مَقَالَاتُهُمْ فِي التَّكْذِيبِ مُشَابِهَةً لِمَقَالَاتِ  
مُكَذِّبِي الرِّسُولِ، تَشَابَهَتْ أَفْكَارُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ.

أَلَمْ يَكْفُرْ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَقَوْمُ هُودٍ، وَقَوْمُ صَالِحٍ، وَفِرْعَوْنُ  
وَمَلَكُهُ وَقَوْمُهُ، وَقَوْمُ لُوطٍ، وَقَوْمُ شُعَيْبٍ؟!!.

**القضية الثالثة:** أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْمَكْذِبِينَ الْأَوَّلِينَ أَنَّ يَتَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ  
وَالْإِهْلَالِ إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَأَنْ يُحَقِّقَ فِيهِمْ وَعِيدُهُ مَتَى اقْتَضَتْ  
حَالَتُهُمُ الَّتِي وَصَّلُوا إِلَيْهَا أَنْزَالَ الْهَلَاكِ فِيهِمْ، وَيَكُونُ ذَلِكَ حِينَمَا تَصِيرُ  
حَالَتُهُمْ حَالَةَ مَيُؤُوسًا مِنْهَا يَأْسًا كَامِلًا وَيَكْثُرُ إِفْسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ.

أَي: وَالَّذِينَ كَذَبُوا مُحَمَّدًا ﷺ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ السُّنَّةُ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ،  
فَلْيَرْتَقِبُوا إِهْلَاكَهُمْ مَتَى صَارَتْ حَالُهُمْ عَامَّةً مِنْهُمْ مَيُؤُوسًا مِنْهَا، وَكَثُرَ إِفْسَادُهُمْ فِي  
الْأَرْضِ.

وَقَدْ دَلَّ الْوَاقِعُ عَلَى أَنَّ حَالَتَهُمُ الْعَامَّةَ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى هَذَا الْمَسْتَوَى،  
وَلِهَذَا لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ بِهِمُ الْإِهْلَاكِ الْعَامَ، كَمَا فَعَلَ بِالْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، وَإِنَّمَا  
أَهْلَكَ مِنْهُمْ وَعَاقِبَ أَفْرَادًا، وَنَصَرَ فِي الْمَعَارِكِ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَهَذِهِ  
مِيزَةٌ اِمْتَارَ بِهَا الْعَرَبُ أَيَّامَ بَعَثَةِ الرِّسُولِ ﷺ، مَعَ كُلِّ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ عِنَادٍ  
وَإِصْرَارٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَسْتَوَى يَسْتَحِقُّونَ بِهِ  
الْإِهْلَاكِ الْعَامَ الشَّامِلَ.

وَفِي عَرْضِ هَذِهِ السُّنَّةِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَحْذِيرٌ وَوَعِيدٌ  
لِلْمَكْذِبِينَ، بِأَنَّهُمْ إِذَا وَصَلَتْ حَالَتُهُمْ إِلَى الْمَسْتَوَى الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ  
الْإِهْلَاكِ الْعَامَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُهْلِكُهُمْ كَمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِنَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ مِنْ  
أَهْلِ الْقُرُونِ الْخَوَالِي، وَلَنْ يَكُونُوا مَغْفِيَيْنَ مِنْ تَطْبِيقِ هَذِهِ السُّنَّةِ عَلَيْهِمْ،  
وَإِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكًا عَامًا شَامِلًا، فَسُنَّةُ اللَّهِ لَا تَبْدِيلَ لَهَا.

وقد عرضَ الله عزَّ وجلَّ في هذا الدَّرْسِ من المكذِبين الأولين الَّذِينَ أَهْلِكُوا بسببِ كُفْرِهِمْ وإفسادهم في الأرض ثمانية أقوام، تَعَجَّبُوا مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، واستبعدوا قضية البعث ليوم الدين، وَهُمْ:

(١) قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وقد جاء ذكرهم في هذه السَّورة مع بيان أنَّهم من الذين كَذَّبُوا الرُّسُلَ من أهل القرون الأولى، وَأَنَّهُمْ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ اللَّهِ لَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ، فَأَهْلِكُوا، وَإِذْ جَاءَ بَيَانُ إِهْلَاكِهِمْ مَثَلًا لِسُنَّةِ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ مُتَعَلِّلِينَ بِأَنَّهُمْ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ، والمكذِبين بيوم الدين مُتَعَلِّلِينَ بِأَنَّهُ أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ عَجِيبٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْذُكَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَاقِعٌ حَالِهِمْ كَذَلِكَ، ولو لم يَأْتِ في هذا النَّصِّ تَصْرِيحٌ بهذا.

وحين نَسْتَغْرِضُ قِصَّةَ نُوحٍ وقومه في سائر سور القرآن، نَجِدُ في بَعْضِهَا التَّصْرِيحَ بهذا الأمر الذي فهمناه استنباطاً.

فقد جاء في عَرْضِ لَقَطَاتٍ من قصة نوح عليه السلام مع قومه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) حكاية قولِ نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُنْذِرُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَذَبُوا فَاتْحَبَتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا رَبَّائِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّ حُجَّتَهُمْ في تكذيب رسول ربِّهم لم تكن أكثر من التعجُّب من كونه رجلاً بشراً منهم، والتعجُّب من إنذاره لهم بيوم الدين.

وَتُسَعِّرُ عبارة: ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَاباً يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذَهُ قَوْمُهُ ذِكْرًا، بَعْدَ أَنْ يَتْلَوْهُ، وَيَعْقِلُوهُ وَيَتَفَهَّمُوا دَلَالَاتِهِ.

(٢) أَصْحَابُ الرُّس: ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَالُ هَؤُلَاءِ كَحَالِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تعجبهم من أن يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ، ومن نبأ البعث.

الرَّسَّ: بئرٌ عظيمة، وَيُطْلَقُ لفظ «الرَّس» على عدَّةِ أماكن في بلاد العرب. ولم يأتِ في القرآن تفصيلٌ عنهم. ولا تعيين لاسم الرسول الذي أرسل إليهم، وكلُّ ما جاء من بيان عَنْهُمْ في القرآن: أَنَّهُمْ أصحاب الرَّس، وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَهْلَكُوا، وَذَكَرُهُمْ في سورة (ق) ضَمَّنَ الأَقْوَامَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا، يَدُلُّ على أَنَّ كُفْرَهُمْ قد كان سَبَبُهُ تُعْجِبُهُمْ من كَوْنِ رسول الله لهم رجلاً منهم، وتَعْجِبُهُمْ من نَبَأِ الحياة بعد الموت يوم القيامة للحساب، وفَضْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاء ذِكْرُهُمْ وبيان إهلاكهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سِلْكَ سَبِيلٍ وَاعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَضْحَبَ الرِّسَّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۝ (٣٨) وَكُلًّا صَرَّفْنَا لَهُ الْآمْتَلَّ وَكُلًّا نَبَرْنَا نَذِيرًا ۝ (٣٩)﴾.

تعبيراً: أي: إهلاكاً فيه تكسيرٌ وتحطيمٌ وتفتيتٌ لهم.

وقد يدلُّ جمع «أَصْحَابِ الرَّس» مع عَادٍ وَثَمُودٍ على أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَيُنْحَتُ عن آثارهم في بلاد العرب، ولا سيما الأماكن التي تُسَمَّى «الرَّس».

وجاء في بعض روايات المؤرخين أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ خَسِفَ بِهِمْ.

(٣) ثمود: وهم قومُ النبيِّ الرسولِ صالح عليه السلام، ولا بُدَّ أَن يكون حال هؤلاء كحال قوم نوح في تعجبهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجبهم من نَبَأِ البعث، وللحساب، وفَضْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ومساكن ثمود معروفة ظاهرة في أرض تُسَمَّى الْحِجْرِ من أرض العرب، وتُعرَفُ بمداين صالح، ولهم في جبالها آثارٌ ظاهرة.

وجاء في بيان تكذيبهم رسول ربهم لأنه بشر مثلهم، قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) مُبِينًا مَقَالَتَهُمْ لَهُ:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وفي بيان تكذيبهم لرسولهم، وتكذيبهم بما أنذرهم به، قال الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثَّا وَحَدَاثَنُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وَسُعُرٍ: أي: وجنون.

(٤) عاد: وهم قوم النبي الرسول هود عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حال هؤلاء مثل حال قوم نوح أيضاً في تعجبهم مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ، وفي تعجبهم من نبأ البعث.

وكانت مساكن عادٍ في الأحقاف من أرض العرب، والأحقاف تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرُّبْعُ الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رِمَالٌ قاحلة.

وفي بيان كفرهم، وتكذيبهم متعجبين من أن يكون رسول الله لهم بشراً مثلهم، وتعجبهم من إنذاره لهم بيوم الدين، قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يحكي مقالة رسولهم لهم:

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

وتُسْعِرُ عبارة: ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بأن الله عز وجل قد أنزل على هود عليه السلام كتاباً يجب أن يتخذه قومه ذكراً، بغد أن يتلقوه، ويعقلوه، ويتفهموا دلالته.



وقال الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول)  
مُقْضًى مَقَالَةً عَادٍ لِرَسُولِهِمْ هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَيْدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْلًا أَنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

(٥) فِرْعَوْنُ: أي: وقومه، وجاء إفراده بالذكر لأن قومه كانوا له  
تبعاً، ولم يكن لهم رأي غير رأيه، ولو أنه آمن لآمنوا، فهو يمثل كل  
قومه، وإذا قال كلمة قالوها.

قال الله عز وجل في بيان تكذيبهم موسى وهارون عليهما السلام،  
مُتَعَلِّلِينَ بَآئِهِمَا بَشَرَانِ مِثْلَهُمْ، في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٦) قَوْمٌ لُوطٍ: وَهُمْ قَوْمُ الْقُرَى الَّتِي كَانَتْ فِي مَكَانِ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ،  
فَقَلَبَ اللَّهُ دِيَارَهُمْ عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَدَمَّرَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكًا وَخِيَمًا، لِقَبَائِحِهِمُ  
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا مَعَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَالُهُمْ مِثْلَ أَحْوَالِ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ ذُكِرُوا قَبْلَهُمْ.

(٧) أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: وَيُعْرَفُونَ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ مَدِينٍ، وَهُمْ قَوْمُ النَّبِيِّ  
الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالْأَيْكَةُ غَيْضَةٌ تُنْبِتُ نَاعِمَ الشَّجَرِ كَانَتْ لَهُمْ .

ولا بُدَّ أن يكون حالُهُمْ مثلَ أحوال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ومن ذَكَرَ بَعْدَهُمْ .

وقد ذكر الله عز وجل تعلُّلَهُمْ ببَشَرِيَّةِ رُسُولِهِمْ، واستبعادَهُمْ أن يُرْسِلَ اللهُ رُسُولاً من البشر، فقال الله عز وجل في سُورَةِ (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ .

(٨) قَوْمٌ تُبَّعَ: وهم من عرب اليمن: (حِمْيَر، وحَضْرَمَوْت، وَسَبَأ).

و«تُبَّعَ»: لَقَبُ مَنْ كَانَ يَمْلِكُ جَمِيعَ بِلَادِ الْيَمَنِ، وقد ذَمَّ اللهُ عز وجل قَوْمَ تَبَّعٍ هَؤُلَاءِ، وَذَكَرَ إِهْلَاكَهُمْ، وَلَمْ يَذْمُ تَبَّعًا، وَلَمْ يَبَيِّنْ أَنَّ الْإِهْلَاكَ الْجَزَائِيَّ قَدْ شَمِلَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

ولا بُدَّ أن يكون حال قَوْمِ تَبَّعٍ مثل أحوال الأَقْوَامِ الَّذِينَ جَاءَ ذَكَرَهُمْ أَنفَا.

وقد أَبَانَ اللهُ عز وجل أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانَتْ تَعْلُلُهُمْ اسْتِبْعَادَ أَنْ يَنْبَغْتَ اللهُ بَشَرًا رُسُولًا، فقال الله عز وجل في سورة (إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول) فِي مَغْرَضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ الْمَهْلِكِينَ إِهْلَاكَ عِقَابٍ وَعَذَابٍ شَامِلٍ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ بِحُجَّةِ الْإِسْتِبْعَادِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ كَوْنِ الرُّسُلِ بَشَرًا، وَالتَّعَجُّبِ مِنَ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَضِيَاعِ رِفَاتِ أَجْسَادِهِمْ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُمْ لِلتَّعَاظِ بِهِمْ، وَالْإِعْتِبَارِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَسَائِلِ إِهْلَاكِ وَعَذَابٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي آخِرِ هَذَا الدَّرْسِ الرَّابِعِ .

﴿... كُلُّ كَذَبٍ أُرْسِلَ حَقٌّ وَعِيدٌ﴾ .

أي: فَوَقَّعَ وَعِيدِي بِهِمْ، وَهُوَ الْوَعِيدُ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، فَكَانَ حَقًّا وَاقِعًا، يَعْتَبَرُ بِهِ أُولُو الْأَبْصَارِ .



(٩)

### التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآية (١٥)

قال الله عز وجل:

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿أَفَعِينَا﴾: أي: أَفَعَجَزْنَا؟ يُقَالُ لُغَةً: عَيَّ بِالْأَمْرِ عِيًا، وَعَيَّي بِالْأَمْرِ عِيًا، إِذَا عَجَزَ عَنْهُ، وَلَمْ يُطِقْ إِحْكَامَهُ، وَيُقَالُ أَيْضًا أَعْيَاهُ الْأَمْرُ، أَيْ: أَعْجَزَهُ .

﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ : أي: بهذا الخلق الذي يعيش الناس فيه ضمن الحياة الدنيا الأولى.

و«الفاء» في: ﴿أَفَعِينَا﴾ هي فيما أرى عاطفةً فصيحةً، وهي التي تعطف على محذوف، فهي تُفصح عنه. والتقدير أقدّرنا وقضينا فعيننا عند تنفيذ القضاء والقدر بالخلق والإيجاد، لهذا الخلق الأول عجزاً عن تحقيق ما تم به القضاء والقدر.

سؤال استفهامي تعجبي يطرحه الخالق الباري - جلّ جلاله وعظم سلطانه - مستخدماً ضمير المتكلم العظيم، على مُكيري البعث، الذين استبعدوا أن يكون الخالق قادراً على إعادة خلق الناس، وإحياء أجسادهم بعد فنائها، ويتضمن هذا الاستفهام أيضاً الإنكار عليهم، واتهام مداركهم بالضحالة والسطحية، أو اتهام أخلاقهم بالجنوح عن منهج الحق، اتباعاً للهوى والشهوات.

إنّ الخلق الأول لم تكن المخلوقات به موجودة أضلاً، إلا في علم الله ضمن خطط التكوين بالقضاء والقدر، ثم تمت عمليات الخلق الأول على وفق ما سبق به العلم والقضاء والقدر، فكانت المخلوقات بالخلق الأول حقيقة مشهودة.

أفعجز الخالق - جلّ جلاله وعظم سلطانه - عن إيجاد الخلق الأول الذي لم يكن للمخلوقات به وجود في الواقع قبله، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً؟!.

إنّ الجواب الذي يفرض نفسه من الواقع المشهود الذي تكرر أحداثه دواماً، هو: أنّ الخالق عز وجل لم يعجز عن إيجاد المخلوقات التي قدرها وقضاها في الخلق الأول، ولم يعي به.

وهذا يدل عن طريق اللزوم العقلي على أن من لم يعي بالخلق

الأول. وهو مازال وَلَنْ يَزَالَ من الأزل إلى الأبد على ما هو عليه في ذاته وصفاته، لا يَغِيَا بِإِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ فَنَائِهِ، ولا يَعْجِزُ عنه.

إِذَنْ: فَكَيْفَ يَقَعُ في تَوَهُّمِ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وبالبُعْثِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، اسْتِبْعَادُ هَذَا الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، اسْتِبْعَاداً يَجْعَلُهُ في تَصَوُّرِهِمْ أَمْراً غَيْرَ مُمَكِّنٍ الْوُقُوعِ؟!

هَذَا الدَّلِيلُ دَلِيلٌ بَرَهَانِيٌّ مُوجَّهٌ لِلَّذِينَ بَدَأَتْ السُّورَةُ بِالْحَدِيثِ عَنْهُمْ، وَهُمْ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۖ﴾ .

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ .

اللَّبْسُ: بِإِسْكَانِ الْبَاءِ وَفَتْحِهَا فِي اللُّغَةِ: اخْتِلَاطُ الْأُمْرِ. يُقَالُ لُغَةً: فُلَانٌ فِي رَأْيِهِ لَبْسٌ، أَيْ: فِي رَأْيِهِ اخْتِلَاطٌ.

ويقال: التَّبَسَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، أَيْ: اخْتَلَطَ وَاشْتَبَهَ.

وجاء الإضراب بِحَرْفِ ﴿بَلْ﴾ بَعْدَ طَرَحِ السُّؤَالِ الْاسْتِفْهَامِيِّ التَّعْجِيبِيِّ ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ﴾؟! لِيَدُلَّ هَذَا الْإِضْرَابُ عَلَى أَنَّ جَوَابَهُمْ سَيَكُونُ حَتَمًا: «لَا»، لِأَنَّ الْوَاقِعَ الْمَشَاهِدَ دَامِعٌ لَهُمْ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ جُحُودَهُ، وَلَوْ بِالْمَكَابَرَةِ، إِلَّا إِذَا فَقَدُوا عَقُولَهُمْ وَحَوَاسَّهُمْ.

وَلَكِنْ يُلْزَمُ مِنْ اعْتِرَافِهِمْ بِعَدَمِ الْعَجْزِ فِي الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، أَنَّ يَغْتَرِفُوا بِأَنَّ الْخَالِقَ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَعْجِزُ عَنِ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، الَّذِي تَتِمُّ بِهِ إِعَادَةُ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ، فَهَذَا لَازِمٌ عَقْلِيٌّ حَتْمِيٌّ.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَغْتَرِفُوا بِهَذَا اللَّازِمِ الْعَقْلِيِّ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِوُقُوعِهِ بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الرَّسُولِ الْمُؤَيَّدِ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ. بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ، بِتَأْثِيرِ رَغَبَاتِهِمْ وَأَهْوَاءِ نَفْسِهِمْ.

لَقَدْ قَطَعُوا الصُّلَّةَ بَيْنَ الْقَضِيَّةِ الْمَشْهُودَةِ الْحَسِيَّةِ وَلَازِمِهَا الْمُنْطِقِيِّ

العَقْلِيّ الحَتْمِيّ، فَلَا يَأْخُذُونَ بِاللَّازِمِ مَعَ اعْتِرَافِهِم بِالْمَلْزُومِ، فَهَم كَمَنْ يَعْتَرِفُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ لَكِنَّهُ يُنْكِرُ وُجُودَ النَّهَارِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ.

لَقَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى خَلْقٍ جَدِيدٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُسَاوَاتِهِ لِلخَلْقِ الْأَوَّلِ مُسَاوَاةً تَامَّةً، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُنْطَقِيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ تَقْرِضُ أَنْ لَا يَكُونَ لَدَيْهِمْ أَيُّ لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ مُسَاوٍ لِلخَلْقِ الْأَوَّلِ.

وهذا الاستدلال استدلالٌ برهانيٌّ لَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ، أَوْ نَقْضِهِ، أَوْ إِبْرَادِ أَيِّ احْتِمَالٍ يُبْطِلُ الاستدلالَ بِهِ، أَوْ يَجْعَلُ فِيهِ شَكًّا أَوْ شُبْهَةً.

فَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى شَيْءٍ إِبْدَاعًا، كَانَ قَادِرًا عَلَى مِثْلِهِ، مَا دَامَتْ صِفَاتُهُ عَلَى حَالِهَا، لَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَمْ تَتَنَاقُضْ.

وصوِّغُ الدَّلِيلَ بِالْأَسْلُوبِ الرِّيَاضِيِّ الْمُنْطَقِيِّ مِمَّا يَسْمَى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُنْطَقِ بِالْقِيَاسِ الْاِقْتِرَانِيِّ، نَسْتَطِيعُ تَقْدِيمَهُ بِمَا يَلِي:

**المقدمة الصُّغْرَى:** اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ خَلَقَ الْخَلْقَ الْأَوَّلَ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ، تَنْفِيزًا لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَقُدْرُهُ، وَصِفَاتُهُ لَا تَتَغَيَّرُ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبَدِ سُبْحَانَهُ.

**المقدمة الكُبْرَى:** وَكُلُّ قَادِرٍ عَلَى الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ صِفَاتُهُ لِأَيِّ تَنَاقُضٍ أَوْ تَغْيِيرٍ، قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ مَا كَانَ قَدْ خَلَقَهُ، إِذَا انْعَدَمَ أَوْ فَنِيَتْ ذَرَاتُ جَسَدِهِ.

**النتيجة:** فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ صِفَاتِهِ شَيْءٌ، لِأَنَّ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ وَاجِبَةُ الْوُجُودِ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبَدِ، قَادِرٌ حَتْمًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ نَظِيرَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ ابْتِدَاءً أَوْ إِعَادَةً.

وَلَا مَجَالَ لِلتَّهَرُّبِ مِنْ قَبُولِ هَذِهِ النُّتِيجَةِ بَعْدَ التَّسْلِيمِ بِمَقْدَمَتَيْهَا.

ويمكن صَوِّغُ الدليل بطريقةٍ أخرى تُسمَّى عندَ علماء المنطق، بالقياس الاستثنائي:

● لو لَمْ يَكُن الله عزَّ وجلَّ قادراً على إعادةِ ما كَانَ قد خَلَقَ بعد أن ماتَ وفَنِيَ، وهو جلَّ جلاله لم يتغيَّر من صفاته شيء، لَمَا كَانَ قادراً على بَدْءِ الخلق.

● لكِنَّهُ هُوَ الَّذِي بدأ الخلقَ بصفاته الَّتِي هي له دوماً من الأزل إلى الأبد.

النتيجة: فالله عزَّ وجلَّ قادرٌ حتماً على إعادة الخلقِ بَعْدَ فَنَاءِ المخلوق إلى مثل ما كَانَ عليه.

لكنَّ أمثال هذه الصياغات الرِّياضيَّة لا تَلِيْقُ بكتابِ رَبَّانِي مُعْجَزٍ في بيانه وأُسْلُوبه ومضامينه، فجاء فيه عَرَضُ هذا الاستدلالِ نَفْسِه بأسلوب السُّؤال الذي يَنْتَرِغُ الاعترافَ وَيَدُلُّ على لوازمه العقلية، وهو الطريقة المثلى للمناظرة التي يُرادُ بها الوصول إلى الحقِّ والاعترافُ به، لا المماراةُ بالباطل القائمة على السِّفْسَطات والمغالطات.

وبهذا ظهر لنا أَنَّ إعادة الرِّبِّ الخالقِ الموتى إلى الحياة مرَّةً أُخرى، ومَرَاتٍ كثرات، قضيةٌ واضحةٌ الإمكان لا ينبغي أن يكون فيها لَبْسٌ، ولا تحتاج أكثر من ثبوت الخبر عن الله، أو قيام الدليل العقلي الذي يقتضي إعادة الحياةَ لِتَحْقِيقِ العَدْل الذي تقتضيه الحكمة.

وما دَامَتِ القضيةُ بهذا الوضوح الفكري، فَالْلبْسُ الَّذِي وقع فيه الكافرون المكذبون بالبعث للحياة الأخرى، ليس مَنْزَعُهُ شُبْهَةٌ فِكْرِيَّةٌ ذات قيمة، أو ذاتُ وَزْنٍ في عالم المفاهيم الفكرية، حتَّى تُنَاقَشَ وتُدْفَع بالحجَّة.

إِنَّ هَذَا اللَّبْسَ يَتَسَاقَطُ تَلَقَّائِيًّا من نفسه، متى رَجَعَ مُنْكَرُ البَعْث إلى بصيرته الفِكْرِيَّة الذاتية، بَعْدَ التنبيه الذي يُخْذِثه في فكره السُّؤال المطروح.

ولم يكن واقع الإنسان العربي بطبيعته الفطرية، محتاجاً من الناحية الفكرية إلى أكثر من هذا الاستدال، إذ لم تكن لديه شبهة حول ثبات صفات الرب الخالق جلّ جلاله إذا هو آمن به، فلم ينزل في العهد المكي دفع شبهة اللغوب، وهو: التعب والكُل من مُمَارَسَةِ الخلقِ الأول، التي أثارها اليهود في العهد المدني.

فأخّر الله إنزال النص الذي يكذب به مقالة اليهود، وضمّه إلى سورة (ق) المكية، وجعله بعد كل المعالجات التي عالج بها المكذّبين من مشركي مكة في السورة، وقبل ما يخصّ معالجة الرسول ﷺ التربوية، وهو الآية (٣٨) من السورة.



(١٠)

### التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة

وهو الآيات من (١٦ - ١٨)

قال الله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْبَيْتِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

بعد أن جاء في السورة إثبات قضية البعث للحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء. وبعد أن جاء فيها الإلزام بقُدرة الله على الإحياء بعد الموت، عن طريق الحجّة البرهانية. يأتي هذا الدرس السادس منها لشرح قضية مُرَاقَبَةِ اللَّهِ والمُكَلِّفِينَ بالمراقبة من ملائكته، للإنسان في أعماله الباطنة والظاهرة في الحياة الدنيا، لمُحَاسَبَتِهِ يَوْمَ الدين على ما كان منها من كسبه الإرادي المسؤول عنه، لأنه هو الذي جعل مُخَيِّراً فيه ذا إرادة حرة، ليبتلى عن طريقه في ظُروفِ الحياة الدنيا.



وهذا الدرس السادس يُثَبِّتُ أَنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَخْدُثُ فِي جَسَدِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ فِكْرِهِ، حَتَّى مَا تُؤَسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَسُوءَاتُهُ خَفِيَّةٌ لَا تَصِلُ إِلَى مُسْتَوَى الْفِكْرَةِ الْجَلِيَّةِ، مَشْمُولٌ بِعِلْمِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ. فَهُوَ خَالِقُهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ دَقَائِقِهِ، الْمَسِيرُ لِكُلِّ خَلْقَةٍ فِيهِ، وَلِكُلِّ أَجْزَاءِ كُلِّ خَلْقَةٍ فِيهِ، وَبِأَمْرِهِ أَوْ بِإِذْنِهِ عَزَّ وَجَلَّ يَخْدُثُ كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي الْإِنْسَانِ وَفِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ، إِلَى أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ.

ولولا شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَسْيِيرُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهَيْمَنَتُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَفَسَدَ نِظَامُ الْكَوْنِ، وَلْتَضَارَبَتْ حَرَكَاتُهُ، وَلَمَّا انْطَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى غَايَتِهِ الْمَرْسُومَةِ لَهُ بِأَحْكَامٍ وَإِثْقَانٍ، وَلَدَمَّرَ بَعْضُهُ بَعْضًا.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ : في هذه العبارة تنبيه على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعَظَمَةِ رَبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلِيمًا بِكُلِّ دَقَائِقِ مَا يُسِيرُ أَجْزَاءَهُ، مَهْمَا صَغُرَتْ، وَعَلِيمًا بِكُلِّ مُتَحَرِّكِ فِيهِ وَسَاكِنٍ، وَعَلِيمًا بِمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ حَرَكَاتٍ إِرَادِيَّةٍ، وَسُلُوكٍ إِرَادِيٍّ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، وَعَلِيمًا بِخَوَاطِرِهِ، وَعَلِيمًا بِإِرَادَاتِهِ الَّتِي يُرِيدُهَا، وَعِزَمَاتِهِ الَّتِي يَغْزِمُهَا، وَشَهَوَاتِهِ الَّتِي يَشْتَهِيهَا، وَنِيَّاتِهِ الَّتِي يَنْوِيهَا، وَعَوَاطِفِ قَلْبِهِ الَّتِي يُحِسُّ بِهَا، حَتَّى مَا تُؤَسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ أُمُورٍ قَدْ لَا تَصِلُ إِلَى مُسْتَوَى التَّفَكِيرِ الْوَاضِحِ. وَجَاءَ تَأْكِيدُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِعِبَارَةِ ﴿وَلَقَدْ﴾ لِأَنَّ الْكَلَامَ مُوجَّهًا لِلْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ.

إِنَّ الْخَالِقَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْإِنْسَانَ الْمُتَقَنَّ الْعَجِيبَ، الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ خَلَقَ، فَجَعَلَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَجَعَلَهُ مِنْ خَلَايَا عَجِيبَةِ التَّرَكِيبِ، وَعَجِيبَةِ الْعَمَلِ دَاخِلِ جِسْمِهِ، وَيُسِيرُ فِيهِ كُلَّ دَقِيقَةٍ: مِنْ دَمٍ، وَغِذَاءٍ، وَطَاقَةٍ، وَحَرَارَةٍ، وَجُزْئِيَّةٍ، وَكُلَّ دَقِيقَةٍ مِنَ الْفَضْلَاتِ الَّتِي

ينبغي أَنْ تُطْرَحَ وَيَتَخَلَّصَ مِنْهَا جِسْمُهُ، وَيُوجَّهَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ مَهْمَا صَغُرَ إِلَى مَكَانِهِ الْمَقْدَّرَ لَهُ، بِإِتْقَانٍ وَإِحْكَامٍ غَايَةٍ فِي الْإِبْدَاعِ وَالتَّنْظِيمِ وَالتَّسْيِيرِ، هَلْ يُغْفَلُ أَنْ لَا يَكُونَ عَلِيماً بِأَعْمَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ، وَعَلِيماً بِمَا تُؤَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ؟!

إِنَّ الْبَدِيهَةَ الْعَقْلِيَّةَ تُثَبِّتُ بِمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلِيماً بِكُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى مَا تُؤَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ خَوَاطِرَ عَابِرَةٍ غَيْرِ مُسْوُولٍ عَنْهَا.

● قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَلَّمُوا مَا يُؤَسَّسُ بِهِ نَفْسُكُمْ﴾:

الْوَسْوَسَةُ: وَالْوَسْوَسَاتُ: حَدِيثُ النَّفْسِ. وَأَصْلُ الْوَسْوَسَةِ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، وَمِنْهُ صَوْتُ الْحُلِيِّ.

يَقَالُ لُغَةً: وَسَّسَ يُوَسِّسُ وَسْوَسَةً وَوَسْوَسَاساً.

وَالْإِسْمُ مِنْهُ: «الْوَسْوَسَاتُ» وَيُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى الشَّيْطَانِ، لِأَنَّهُ يُؤَسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، وَيُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى هَمْسِ الصَّيَّادِ الَّذِي يُخْفِي صَوْتَهُ لئَلَّا يُحَسَّ بِهِ الْحَيَوَانُ الْمُرَادُ صَيْدُهُ.

وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمَهُ بِمَا تُؤَسَّسُ بِهِ نَفْسُ الْإِنْسَانِ مِنْ خَوَاطِرَ خَفِيَّةٍ جَدًّا، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ يَصْدُرُ عَنِ الْإِنْسَانِ، فَعِلْمُهُ بِأَخْفَى الْأَشْيَاءِ يُدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ فِي الْخَفَاءِ، مِنْ بَابِ أَوْلَى، فَضْلاً عَنِ الْأَشْيَاءِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي لَا خَفَاءَ فِيهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَقْرِيبٌ لِفِكْرَةِ شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لِمَا يَعْمَلُ الْإِنْسَانُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، حَتَّى مَا تُؤَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ.

وَجَاءَ فِي الْعِبَارَةِ اسْتِخْدَامُ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، لِمَا فِي الْمَوْضُوعِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُ مِنْ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ.

حَبْلُ الْوَرِيد: هو شريان يُطْلَقُهُ الْعَرَبُ عَلَى الْوَتِينِ الْمَوْصُولِ بِالْقَلْبِ، وهو الشريان الذي يُغْذِي جَسْمَ الْإِنْسَانِ بِالدَّمِ النَقِيِّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ.

والمعنى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ أَقْرَبُ بِعِلْمِهِ إِلَى هُوِيَّةِ ذَاتِ الْإِنْسَانِ الْمَفْكُورَةِ الْمُرِيدَةِ الْمُؤَسَّسَةِ الْعَامِلَةِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ الْمَوْصُولِ بِقَلْبِهِ. أي: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْرَبَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَوْعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ الَّتِي تُمِدُّهُ بِالْحَيَاةِ مَعَ كُلِّ نَبْضَةٍ مِنْ نَبْضَاتِ قَلْبِهِ الَّتِي تَظْهَرُ دَقَّاتُهَا فِي جِبَالِ أَوْرَدَتِهِ.

إِذَنْ أَلَّا يُعَلِّمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَعْمَلُ الْإِنْسَانُ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ وَاخْتِيَارِهِ، لِيَحَاسِبَهُ وَيَفْصَلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِ وَيَجَازِيَهُ يَوْمَ الدِّينِ؟!

والجواب: بلى، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

● قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَنْفَلِقَ الْمَلَأَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾ (١٨).

أي: ومع علم الله الشامل الذي سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (١٦) وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ لَوَازِمٍ وَأَبْعَادٍ فِي الْمَفْهُومَاتِ، فَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْإِنْسَانِ شَاهِدَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يُسَجِّلَانِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ كَسْبٍ إِرَادِيٍّ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، فِي كِتَابٍ صَادِقٍ لَا يَزِيدُ شَيْئًا، وَلَا يَنْقُصُ إِلَّا مَا يَغْفُو اللَّهُ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتٍ.

وَجَاءَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ (١٧ - ١٨) بَيَانًا لِهَذِهِ الرِّقَابَةِ الدَّائِمَةِ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُرَافِقَةً مُلَازِمَةً لِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِلَّا أَنَّهَا خَفِيَّةٌ مُسْتَوْرَةٌ عَنْ مُشَاهَدَةِ الْإِنْسَانِ الْحَسِّيَّةِ، وَهُوَ فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ.

● ﴿إِذْ يَنْفَلِقَ الْمَلَأَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧).

﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ يُضَافُ إِلَى الْجُمْلَةِ وَجُوبًا، وَالْعَامِلُ فِيهِ هُنَا فَعْلٌ: ﴿تَعْلَمُ﴾.

أو اسم التفضيل: ﴿أَقْرَبُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُكَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. أي: حين يَتَلَقَّى المتَلَقَّيَانِ مِنَ الملائكة، المراقبانِ الْمُسَجَّلَانِ لأَعْمَالِهِ وأقواله.

﴿قَعِيدٌ﴾: أي: مُلَازِمٌ لا يُفَارِقُ، من فِعل «قَعَدَ يَقْعُدُ فَهُوَ قَاعِدٌ» وصيغَةُ «فَعِيلٌ» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل، وللدلالة على الملازمة الدائمة للمراقبة، حُسِّنَ استعمال صيغة المبالغة: «قَعِيدٌ».

ولم يأتِ في النصِّ: قَعِيدَانِ، باعتبار أنهما ملكان، لأنَّ العبارة على تقدير: عَنِ اليمينِ قَعِيدٌ وعن الشمالِ قَعِيدٌ، وَحُذِفَت «قَعِيدٌ» الأولى لدلالة الثانية عليها مع قرينة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

فَمَاذَا يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ مِنَ الملائكة المراقبانِ الْمُسَجَّلَانِ لأَعْمَالِ الْإِنْسَانِ وأقواله؟؟

حُذِفَ مَفْعُولُ يَتَلَقَّى لإفادة العموم، أي: يَتَلَقَّى المتَلَقِّيَانِ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عن الإنسان من عمل أو قول إراديّين.

وتُشْعِرُ مَادَّةُ «التَّلَقِّي» بأنَّ الملكين اللَّذِينَ يُسَجَّلَانِ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ وأقواله، هما بمثابة آلة تسجيل تتَلَقَّى وتُسَجِّلُ بِدُونِ كُفَّةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ.

● ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

جاء في هذه الآية تخصيصُ تسجيل قول الإنسان بالذكر لدفع توهم أنَّ الإنسان لا يُوَاحِذُ على أقواله، ويدُلُّ على احتِمَالِ وجود هذا التوهم سؤال معاذٍ رضي الله عنه رسول الله ﷺ، بقوله: وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال له الرسول:

«تَكَلَّمْتَ أَمْكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاحِرِهِمْ، إِلَّا حَصَانِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

حَصَائِدُ السِّنِّهِم: أي: مَا يَخْصُدُهُ مِنْجَلُ اللِّسَانِ مِنْ كَلَامٍ فِيهِ إِثْمٌ ومعصية الله، وهذه العبارة من لطائف الاستعارات، إِذْ شُبِّهَ اللِّسَانُ بِالْمِنْجَلِ وشبَّهت الأقوال بالحَصَائِدِ، ومعلومٌ أَنَّ الْمِنْجَلَ يَخْصُدُ كُلَّ مَا يَقَعُ حَدُّهُ عَلَيْهِ من نافع الزُّرُوعِ وضارِّها.

﴿لَدَيْهِ﴾: أي: عنده. لَدَى: ظرف مكان بمعنى «عند».

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: كثير المراقبة وَدَقِيقُهَا، فهو صيغة مبالغة لاسم

الفاعل.

﴿عَبِيدٌ﴾: أي: شديد قويُّ مُهَيَّأً للقيام بوظيفة مراقبة الإنسان طَوَالَ حياته. كَلِمَةُ «الْعَبِيدِ» تَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى «الْجَسِيمِ» وَتَأْتِي بِمَعْنَى «الْمُعَدُّ الْمَهْيِيَّ الْحَاضِرَ».

فَدَلَّتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ (١٧ و ١٨) عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ مَعَ كُلِّ مُكَلَّفٍ مِنَ النَّاسِ رَقِيبَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، وَأَتَاهُمَا يُسَجِّلَانِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، فِي كِتَابِ أَعْمَالِهِ، الَّذِي سَوْفَ يُقَدَّمُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

وَيُؤْتِي النَّاسَ كُتُبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) وفريقٌ يُؤْتَوْنَ كُتُبُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ مِنْ قِبَلِ وُجُوهِهِمْ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ.

(٢) وفريقٌ يُؤْتَوْنَ كُتُبُهُمْ بِشَمَائِلِهِمْ مِنْ جِهَةِ ظُهُورِهِمْ، وَهُمْ الْكَافِرُونَ.

دَلَّتْ عَلَى هَذَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ فِي عِدَّةِ سُور.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلًّا مِنْ هَذَيْنِ الْمَلَائِكَيْنِ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:

الصفة الأولى: أَنَّهُ يَتَلَقَّى مَا يَكْسِبُهُ الْإِنْسَانُ تَلْقِيًّا، فَكَأَنَّهُ جِهَارُ تَلَقٍّ

دَائِمِ التَّسْجِيلِ لِكُلِّ مَا يَضْدُرُّ عَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُسَجِّلُ بِتَلْقَائِيَّةٍ طَبْعِيَّةٍ لَا يَتَكَلَّفُ لَهَا.

الصفة الثانية: أَنَّهُ قَعِيدٌ فِي مَكَانٍ مَّا مِنَ الْإِنْسَانِ، مُلَازِمٌ لَهُ غَيْرَ مَفَارِقٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَعَنْ يَمِينِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَعَنْ شِمَالِهِ.

الصفة الثالثة: أَنَّهُ رَقِيبٌ، أَي: يَقِظٌ، مُوجَّهٌ كُلُّ أَجْهَازَةِ الْإِحْسَاسِ لَدَيْهِ، لِاتِّقَاطِ صُورِ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَصُورِ الْأَقْوَالِ مَهْمَا كَانَ شَأْنُهَا، حَتَّى الْخَوَاطِرِ وَالنِّيَّاتِ فِي الْأَعْمَالِ، وَحَتَّى الْآهَاتِ وَالْأَنَاتِ فِي الْأَلْفَازِ.

وَقَدْ قَرَّبَتْ لَنَا أَجْهَازَةُ اتِّقَاطِ الصُّورِ وَالْأَصْوَاتِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ.

الصفة الرابعة: أَنَّهُ عَتِيدٌ، أَي: شَدِيدٌ قَوِيٌّ مُهَيَّأٌ مُسْتَعِدٌّ لِلْقِيَامِ بِوُضُوفِهِ طَوَالَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْمَأْمُورِ بِمُرَاقَبَتِهِ.

فَالْمَعْنَى الْكُلِّيُّ لِلنَّصِّ الَّذِي نَفْهَمُهُ بِالتَّدَبُّرِ:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ بِسُلْطَانِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَظِيمِ، وَنَعْلَمُ كُلَّ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ أَوْ مِنْهُ حَتَّى مَا تُوسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ بِشُمُولِ عِلْمِنَا أَقْرَبُ إِلَى مَرَائِزِ إِرَادَتِهِ وَوَعْيِهِ وَخَوَاطِرِهِ وَأَحَادِيثِ نَفْسِهِ، مِنْ أَوْعِيَةِ دَمِهِ الَّذِي يُمِدُّهُ بِغَذَاءٍ اسْتِمْرَارِ حَيَاتِهِ، حِينَ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَّانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، عَنِ الْيَمِينِ قَعِيدٌ مِنْهُمَا، وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ آخَرُ، يُسَجِّلَانِ مَا أَمْرَانَاهُمَا بِتَسْجِيلِهِ مِنْ أَعْمَالِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَأَقْوَالِهِ، فَلَا يَنْدُ عَنْهُمَا شَيْءٌ مِمَّا يَصْدُرُ عَنْهُ، فَمَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ، وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا كَانَا رَقِيبَيْنِ لَهُ، مُتَهَيِّئَيْنِ جَاهِزَيْنِ، مُسْتَعِدَّيْنِ حَاضِرَيْنِ لِتَسْجِيلِهِ، وَفُقِ الْوُضُوفَةُ الْمُسْتَدَّةُ إِلَيْهِمَا.

وَقَدْ اقْتَضَى الْإِيجَازُ فِي التَّعْبِيرِ حَذْفَ مَا يَقْتَضِيهِ الْكَلَامُ وَيُسْتَدْعِيهِ الْفِكْرُ بِالتَّدَبُّرِ، أَوْ يُسْتَدْعِيهِ التَّقَابُلُ وَالتَّنَازُلُ.

فَلَمْ يُذَكِّرْ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّهِمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِدَلَالَةِ نصوصٍ أُخْرَى فِي الْقُرْآنِ، دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْكِتَابَةَ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ صَحُفَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ هُمْ رُسُلُ اللَّهِ، مَوْجُودُونَ لَدَيْهِمْ وَهُمْ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَأَنَّهُمْ حَافِظُونَ، وَكَرَامٌ كَاتِبُونَ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ، فَمِنْهَا مَا يَلِي:

(١) قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

ولم يذكر وصف المَلَك الذي يكون على يمين الإنسان بأنه قعيد، اكتفاء بدلالة وصف نظيره الذي هو عن الشمال، فقد وُصِفَ بأنه «قَعِيدٌ» .

وحذف من النص: «مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ» اعتماداً على ما يفيدُه التقابل، إذ ذكر في المقابل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ﴿فَحُسْنُ التَّدْبِيرِ يَهْدِي إِلَى أَنْ تُسَجِّلَ الْأَعْمَالُ أَجْدَرُ مِنْ تُسَجِّلَ الْأَقْوَالُ، فإذا كانت الأقوال تُسَجَّلُ، فتسجيل الأعمال يُفْهَمُ من باب أولى.

ودل كُنْ كُلٌّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رَقِيبًا عَتِيدًا عَلَىٰ أَنَّهُمَا يَقُومَانِ بِوُضَائِفِهِمَا التَّسْجِيلِيَّةَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ .

وَدَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي جَاءَ فِيهَا بَيَانُ كُتُبِ أَعْمَالِ النَّاسِ، عَلَى أَنَّهَا لَا تُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَتْهَا بِالتَّسْجِيلِ الْكَامِلِ، وَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَرَأَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ .

فتكاملت دلالات النصوص الموزعة في سور القرآن حول هذا الموضوع، كسائر الموضوعات القرآنية .



(١١)

## التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٩ - ٢٢)

قال الله تعالى :

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۚ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ۚ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۚ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۚ﴾

في هذا الدرس السابع من دروس السورة عرضُ لِقَطَاطٍ مِنْ أَحْدَاثِ الرُّحْلَةِ بَيْنَ سَكْرَةِ الْمَوْتِ وَمَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الدِّينِ، بَانْتِقَالٍ بَدِيعٍ مِنَ الْإِقْنَاعِ الْفِكْرِيِّ إِلَى هِزَةِ نَفْسِيَّةٍ وَجَدَانِيَّةٍ، تَحُومُ فِي فَلَكِ مِخْوَرِ التَّرْهيبِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ : هِيَ مَا يَخْذُثُ لِلْمَحْتَضِرِ سَاعَةَ نَزْعِ رُوحِهِ، إِذْ تَغْشَاهُ غَيْبُوبَةٌ مِنَ الشَّدَةِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْحَيَاةِ، بَانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ الَّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ.

فَسَكْرَةُ الْمَوْتِ، شِدَّتُهُ وَغَشِيَّتُهُ. وَأَضْلُ السَّكْرَةِ: غَيْبَةُ الْعَقْلِ.

وُثِبَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا تَغْشَاهُ الْمَوْتُ جَعَلَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ».

أَي: إِنَّ لِلْمَوْتِ لَعَشِيَّاتٍ شَدِيدَاتٍ تَخْذُثُ مَعَهَا غَيْبُوبَةٌ، وَبِهَا يَفْقِدُ الْحِسَّ الشُّعُورَ بِمَا يَخْذُثُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَاحِحٌ.

«إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ».



فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ، وَرَأْسُهُ عَلَى فَخْذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ  
بَصَرَهُ إِلَى سَفْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ:

«اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى».

فَقُلْتُ إِذَا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ  
صَحِيحٌ.

قالت: فكانت آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَتْ بِهَا: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى».

واللقطات التي عرضها هذا الدرس من أحداث الرحلة بين سَكْرَةِ  
الْمَوْتِ وَمَوْقِفِ الْحِسَابِ، أَرْبَعُ لَقَطَاتٍ بَيَانِيَّةٍ:

اللقطة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩).

عَرَفْنَا أَيْضًا مَا هِيَ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَنُلاحِظُ فِي هَذَا الْبَيَانِ اسْتِعْمَالَ  
الْفِعْلِ الْمَاضِيِّ فِي عِبَارَةٍ: ﴿وَجَاءَتْ﴾ مع أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِالنَّصِّ وَهُوَ الْمَكْذُوبُ  
بِیَوْمِ الدِّينِ مَا زَالَ يَعْیِشُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَمْ تَأْتِهِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بَعْدُ.

وَالْحِكْمَةُ الْبَلَاغِيَّةُ الدَّاعِيَةُ لِهَذَا، هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ مُتَحَقِّقُ  
الْوُقُوعِ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِعْلًا وَانْقَضَى. وَيُضَافُ إِلَى هَذَا مِلَاحَظَةُ أَنَّهُ قَدْ  
وَقَعَ فِعْلًا نَظِيرُهُ لِمَنْ سَبَقَ مَوْتُهُ نَزُولَ النَّصِّ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَقَعُ لِسَائِرِهِمْ  
حَتَّى آخِرِ إِنْسَانٍ فِي الْأَرْضِ.

وَأَقُولُ أَيْضًا: إِنَّ الْمَقْضِيَّ بِالْقَضَاءِ الرَّبَّانِيِّ الْمُبْرَمِ أَمْرٌ وَاقِعٌ حَتْمًا فِي  
النَّمُودَجِ الْمُعَدِّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، أَمَّا التَّطْبِيقُ فِي الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ فَهُوَ الَّذِي  
يَتَرَقَّبُ زَمَنَهُ.

● ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: خلقناه

ووضعناه موضع الامتحان في رحلة الحياة الدنيا، وانتهى أجله فيها،  
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ.

فما هو الحق الذي جاءت به سَكْرَةُ الْمَوْتِ؟

● المتبادر إلى الأفهام أنَّ سَكْرَةَ الموت جاءت بالموت، الذي هو الحق الذي لا يَشْكُ فيه أحدٌ، وهو اليقين الذي يُوقِنُ به كلُّ إنسان، وإنَّ كانَ يَحِيدُ عنه وَيَفِرُّ منه حُبًّا للحياة، وأصل العبارة على هذا. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بِالْمَوْتِ الحق، وحُذِفَ منها الموصوف وهو الموت اكتفاء بصفته، «الحق» فصارت: وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحق.

والأقرب أن تكون «الباء» في ﴿بِالْحَقِّ﴾ للتعدية، إذ يقال لغة: جَاءَ فُلَانٌ بِالشَّيْءِ، بمعنى أخْضَرَهُ. كما يُسْتَعْمَلُ فعل «جاء» لازماً، فيقال: جاء فُلَانٌ، أي: حَضَرَ.

● ويحتمل أن يكون الحق الذي جاءت به سَكْرَةُ الْمَوْتِ، مَا تُخْبِرُ به الملائكة المحتَضِرَ قُبَيْلَ مَوْتِهِ، عمَّا سَيَلَاقي بَعْدَ موته وَيَوْمَ الدِّينِ من عذاب إذا كان من أهل النار، ومن نعيم إذا كان من أهل الجنة، وَمَا يُكْشَفُ له من مَقْعَدِهِ الذي هو صائِرٌ إليه، في الجنة، أو في النار.

روى البخاري عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عن النَّبِيِّ ﷺ، قال:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

قالت عائشة أو بعض أزواج النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا لَنُكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ ﷺ:

«لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

وإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَكِرَةٌ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرَهُ لِقَاءَهُ».

فَدَلَّ هذا الحديث على أَنَّ سَكْرَةَ الموتِ تَجِيءُ بِأَمْرِ يَعْلَمُ بِهِ الْمُحْتَضِرُ عِلْمَ يَقِينٍ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنَ النَّارِ، فَاَلْمُؤْمِنُ يَشْتَأِقُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ، فَيُحِبُّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَيَنْزِلُ بِهِ الْمَوْتَ. أَمَّا الْكَافِرُ فَيُصِيبُهُ الدُّعْرُ مِنْ مَقْعَدِهِ فِي النَّارِ، فَيَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ، فَيَكْرَهُ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَيَنْزِلُ بِهِ الْمَوْتَ.

وَيُمْكِنُ حَمْلُ النَّصِّ عَلَى الْمَعْنَيْنِ: الْمَوْتَ، وَمَا يُبَشِّرُ بِهِ عِنْدَ سَكَرَاتِهِ.

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾:

هذا خطابٌ يُوجَّهُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ احْتِضَارِهِ، أَيْ: جَاءَكَ الْمَوْتُ الَّذِي كُنْتَ تَكْرَهُهُ وَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَعِيداً عَنْكَ. وَجَاءَكَ الْعِلْمُ الْحَقُّ بِعَذَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَسْتَبْعِدُهُ، فَلَا تُصَدِّقُ بِنَبَأِ الْبَعْثِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ.

﴿تَحِيدُ﴾: أَيْ: تَمِيلُ وَتَبْتَغِدُ عَنْهُ. يُقَالُ لُغَةً: حَادَ عَنِ الشَّيْءِ يَحِيدُ حَيْدًا وَحَيْدَانًا وَمَحِيدًا، أَيْ: مَالَ عَنْهُ وَعَدَلَ.

وَعُدِّي فِعْلٌ «تَحِيدُ» بِحَرْفِ الْجَرِّ «مِنْ» بَدَلِ «عَنْ» لِتَضْمِينِ فِعْلِ «تَحِيدُ» مَعْنَى فِعْلِ «تَفَرُّ» فَأَغْنَى هَذَا التَّضْمِينُ عَنْ ذِكْرِ جَمَلَتَيْنِ، فَالْمَعْنَى ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَحِيدُ عَنْهُ فَارًّا مِنْهُ.

والتَّضْمِينُ مِنْ لَطَائِفِ الْإِيجَازِ فِي الْقُرْآنِ، أَحَدِ عُنَاوِرِ إِعْجَازِهِ.

وَجَاءَ فِي الْعِبَارَةِ اسْتِعْمَالُ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ، لِأَنَّ الْكَافِرَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ الْمَوْتُ بَعِيدَ الْأَجَلِ، عَلَى احْتِمَالِ أَنَّ الْمُرَادَ

بالحق الموت. ولأنّ عذابه في جهنّم سوف يكون يوم الدين. فالمناسب في الإشارة إليه: «ذَلِكَ» وهذا على الاحتمال الآخر.

ومع بشارة الكافر بمقعده من النار عند احتضاره، فإنه يُعرَض عليه مقعده من النار بعد موته غُدوة وَعَشِيًّا، كما صَحَّ عن الرسول ﷺ.

روى البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدُوَّةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارَ، وَإِمَّا الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ».

بهذا تمّ تصوّر اللقطة الأولى المنتقاة من أحداث الرُحلة بين سكرة الموت، وموقف الحساب يوم الدين.

اللقطة الثانية: دلّ عليها قول الله عز وجل:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠):

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ واستعمال الفعل الماضي في ﴿وَنُفِخَ﴾ أقول فيه نظير الذي سبق قوله في استعمال الفعل الماضي في ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

الصُّور: مخلوق من مخلوقات الله كَهَيْئَةِ الْبُوقِ، أو كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إخذى جهته دائرة ضيقة، والجهة الأخرى دائرة واسعة كبيرة، وباطنه فارغ يُمكن أن يُنفخ فيه فيُصدّر صوتاً بحسب مقداره وتكوينه.

وسماه الله عز وجل «الناقور» في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).

● قال الحافظ ابن حجر في الفتح: أخرج أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وصححه ابن جبان والحاكم، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أغرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصُّور؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

● وروى الترمذي عن سعيد مرفوعاً إلى النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ :

«كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْأُذُنَ، مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ».

[قال الترمذي: حديث حسن]

● وروى أحمد والبيهقي من حديث ابن عباس، أَنَّ جَبْرِيلَ عَنْ يَمِينِهِ، وَمِيكَائِيلَ عَنْ يَسَارِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ الصُّورِ، يَعْنِي إِسْرَافِيلَ.

قال ابْنُ حَجَرٍ: واشتهر أَنَّ صَاحِبَ الصُّورِ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أقول: والنَّفْخَةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذَا النَّصِّ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْبَعْثُ إِلَى الْحَيَاةِ، لَتَلْقَى أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّينِ. بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿... ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

وجاء وُضِفَ يَوْمِ الدِّينِ بِأَنَّهُ يَوْمُ الْوَعِيدِ، مَعَ أَنَّهُ يَوْمُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدُ مَعاً، لِأَنَّ الْكَافِرَ بِيَوْمِ الدِّينِ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْبَيَانِ، فَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ يَوْمُ الْوَعِيدِ فَقَطْ.

وجاء فِي الْآيَةِ الْإِشَارَةُ إِلَى يَوْمِ الْوَعِيدِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَى الْبَعِيدِ، نَظْراً إِلَى أَنَّ نَفْخَةَ الْبَعْثِ يَكُونُ بَعْدَهَا حَشْرٌ وَأَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ، ثُمَّ تَكُونُ أَحْدَاثُ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَأْتِي تَنْفِيزُ الْجَزَاءِ فَيَتَحَقَّقُ الْوَعِيدُ، فَكَانَ مِنْ دَقَّةِ الْبَيَانِ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ «ذَلِكَ».

وجاء فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ سُورَةِ (ق) بَيَانٌ أَنَّ الصُّورَ تُنْفَخُ فِيهِ نَفْخَتَانِ:

**النَّفْخَةُ الْأُولَى:** هِيَ النَّفْخَةُ الَّتِي يَضَعُقُ بِهَا كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، أَيْ: يَمُوتُ بِهَا كُلُّ حَيٍّ خَلَقَهُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ شَاءَ تَأْخِيرَهُ، كَنَافِخِ الصُّورِ.

**النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ:** هِيَ النَّفْخَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْبَعْثُ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ

الموت، وبها تَنْطَلِقُ الأرواح إلى أجسادها الَّتِي نَبَتْ فِي الأرض كما يَنْبُتُ البقل، على ما سَبَقَ بيانه.

والدليل القرآني على هاتين النَفَخَتَيْنِ، نَجِدُهُ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) في قول الله عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنْظَرُونَ﴾ (٦٨).

وجاء في بيانات السُّنَّة أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُمِيتُ بَعْدَ النَفخة الأولى من استنابهم من الصَّعِقِ، أي: من الموت بها.

وورد في وصف الصُّور أَنَّ فيه ثُقُوباً بَعْدَ كُلِّ رُوحٍ مَخْلُوقَةٍ وَنَفْسٍ مَنفُوسَةٍ، وفي هذه الثُقُوبِ تَكُونُ الأرواح بحسب منازلها، وعند البعث يَأْمُرُ الله إسرائِيلَ فينفخ فيه، فَتَنْطَلِقُ كُلُّ رُوحٍ فَتَدْخُلُ فِي جَسَدِهَا.

اللقطة الثالثة: دَلَّ عليها قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١).

جاء استعمالُ الفعل الماضي في هذه الجملة كما جاء في الجمل السابقة ونقول فيه ما سَبَقَ بيانه في عبارة ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

والمعنى: وَسَوْفَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِعَثِّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحَسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، مَعَها مَلَكَانِ:

(١) مَلَكٌ يَسُوقُها إِلَى المَحْشَرِ.

(٢) وَمَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْها بِمَا عَمِلَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ السَّيِّئَاتِ.

السَّائِقُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الَّذِي يَحُثُّ الْمَسُوقَ مِنْ خَلْفِهِ<sup>(١)</sup>.

(١) بخلاف القائد، فهو الذي يمشي أمام المقود ويجذبه لِيَتَّبِعَهُ، وقائد الدابة هو الذي يمشي أمامها آخِذاً بِمَقْوَدها يَجْزُها.

ونستطيع بالتأمل الاستنباطي أن نفهم أن السائق هو المَلِكُ الْقَرِينُ  
الَّذِي كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَأْمُوراً بِكِتَابَةِ الْحَسَنَاتِ، وَهَذَا لَمْ يُسَمِّهِ اللَّهُ  
شَهِيداً، لِأَنَّهُ كَانَ يُدَوِّنُ الْحَسَنَاتِ، وَتَكْفِي الْإِنْسَانَ، كِتَابَةُ الْمَلِكِ الشَّامِلَةِ  
لِحَسَنَاتِهِ، وَيَكْفِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَفَوْقَهُ عِلْمُ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَحْتَاجُ لِمَنْ يَشْهَدُ لَهُ أَوْ  
عَلَيْهِ.

أَمَّا الشَّهِيدُ فَهُوَ الْمَلِكُ الْقَرِينُ الَّذِي كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَأْمُوراً بِكِتَابَةِ  
السَّيِّئَاتِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدلاً كَانَ حَالُهُ يَتَطَلَّبُ مَنْ يَشْهَدُ  
عَلَيْهِ بِمَا جَنَى مِنْ سَيِّئَاتٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الْقِطْعَةُ الرَّابِعَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢).

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: أَي: مُنْغِمِساً فِي غَفْلَةٍ، إِذِ الْغَفْلَةُ مُحِيطَةٌ بِكَ إِحَاطَةً  
تَامَةً، وَالخَطَابُ يُوجِّهُ لِمَنْ كَانَ يَكْفُرُ بَيَوْمِ الدِّينِ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا مُنْغِمِساً فِي غَفْلَةٍ شَدِيدَةٍ مُحِيطَةٍ بِهِ. أَي: يَقَالُ لَهُ هَذَا الْقَوْلُ.

الْغَفْلَةُ عَنِ الشَّيْءِ: هِيَ الْإِنْصِرَافُ الْحَسَنِيُّ وَالْفِكْرِيُّ عَنِ مِلَاحَظَتِهِ  
وَمُرَاقَبَتِهِ، مَعَ وُجُودِهِ فِي مَجَالِ الْإِذْرَاكِ، أَوْ وَجُودِ أَدِلَّتِهِ، وَإِمْكَانِ إِذْرَاكِ  
ذَلِكَ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ، أَوْ السَّهْوِ الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ إِطْبَاقِ الْجَفْنَيْنِ عَلَى  
الْعَيْنَيْنِ، وَمَا تُطَلَّبُ رُؤْيَتُهُ حَاضِرٌ فِي مَجَالِ النَّظَرِ.

يَقَالُ لُغَةً: غَفَلَ فُلَانٌ عَنِ الشَّيْءِ يَعْمَلُ عُفُولاً وَغَفْلَةً.

وَالْمَكْذَبُ بَيْنَ الدِّينِ شَعَلَتُهُ أَهْوَاؤُهُ وَشَهَوَاتُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعَشَّتْ  
عَلَى كُلِّ حَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَكُلُّ قُدْرَاتِهِ الْإِذْرَاكِيَّةِ، فَعَطَّنَهَا تَغْطِيَةً  
تَامَةً، وَوَجَّهَتْهَا لِلذَّاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِهَا وَأَنْوَاعِ مَتَاعِهَا الزَّائِلِ.

وَلَكِنْ مَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَضْعِ حَرْفِ «مِنْ» بَدَلِ حَرْفِ «عَنْ» فِي قَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾؟؟

أقول: هذا جارٍ على قاعدة التضمن، التي تكثر أمثلتها في القرآن المجيد، إيجازاً في اللفظ، إذ تُغني الجملة عن جملتين، والإيجاز في القرآن أحد عناصر الإعجاز.

وفي حلّ هذا التضمن أقول: إنّ المكذب بيوم الدين قد كان في الحياة الدنيا غارقاً في مطالبه منها، مُنصرفاً عن كلّ ما سواها، وحين تُعرض عليه أدلة يوم الدين، وما فيه من حساب، وفضل قضاء، وتنفيذ جزاء، يكون نافراً منها، وكلّما ذُكرَ بها لم يزد إلا نفوراً. ومعلوم أنّ فعل «نَفَرَ يَنْفِرُ نَفُوراً» يتعدّى بحرف «من».

فَضُمْنَتْ كَلِمَةً «عَفْلَةً» وهي مُضدَرٌّ يَغْمَلُ عمل فعله، مَعْنَى كَلِمَةٍ: «نُفُور» فَعُدِّيَتْ تَغْدِيَتِهَا. والتقدير يكون كما يلي: لَقَدْ كُنْتُ فِي عَفْلَةٍ غَارِقاً في متاع الحياة الدنيا وزينتها، نافراً من كلّ بلاغٍ ودليلٍ يَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ الدِّينِ، ومن كلّ تذكيرٍ يُذَكِّرُكَ به.

وقد جاء في عدة نصوص قرآنية استعمال مادة «النفور» من البيان ومن التذكير، بالنسبة إلى الكافرين المُصِرِّين على كُفْرِهِمْ، فتقدير النفور يُلائم الاستعمال القرآني في مواضع أخرى.

النُّفُور: هو الإعراض والصدُّ والابتعاد، كحالة المذعور الشارد، أو المتمنّع المتراجع بِحِزَانٍ.

● ﴿فَكُفِّنَّا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾: كلامٌ صادرٌ عن الله عزَّ وجلَّ مستعملٌ فيه ضمير المتكلم العظيم، ومَوْجَهٌ لمن كان في الحياة الدنيا مُكْذِباً بيوم الدين.

أي: فكشفنا اليومَ عَنْكَ الْغِطَاءَ الَّذِي كَانَ يُغَشِّي عَلَى مَدَارِكَ وَبَصِيرَتِكَ في الحياة الدنيا، وهو غطاء الأهواء والشهوات والتعلق بمتاع الحياة الدنيا وزينتها، عند مشاهدتك أحداث يوم القيامة، وبِقَطْعِ مطامعك التي كانت مَوْضُوعَةً كُلِّهَا بالحياة الدنيا، ومُنْحَصِرَةً فيها.



● ﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَيِّدٌ﴾: يُطْلَقُ الْبَصَرُ وَيُرَادُ بِهِ مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ الْمُبْصِرَةَ، وَمَا يَحْدُثُ بِهِ الْعِلْمُ وَهِيَ الْقُوَى الَّتِي تُذَكِّرُ بِهَا الْمَعَارِفُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ.

ومعلوم أن الذي كَانَ مُعْطًى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَكْذَبِ بِيَوْمِ الدِّينِ قُوَاهُ الْإِذْرَاكِئَةِ، لَا عَيْنُهُ الْمُبْصِرَةَ، فَالَّذِي كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ الْغَطَاءَ، هَذِهِ الْقُوَى الْإِذْرَاكِئَةُ النَّفْسِيَّةُ، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالْبَصَرِ لِأَنَّهَا هِيَ مَرَاكِزُ الْإِنْبَصَارِ فِي الْحَقِيقَةِ.

﴿حَيِّدٌ﴾: أَي: قَوِيٌّ نَافِذٌ يَرَى بِدِقَّةٍ مَا كَانَ مُنْصَرِفًا عَنْ آيَاتِهِ وَدَلَائِلِهِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَغَافِلًا عَنْهُ، وَنَافِرًا مِنْ كُلِّ بَيَانٍ لَهُ، وَتَذَكِيرٍ بِهِ.

إِنَّ الْمَكْذَبَ بِيَوْمِ الدِّينِ قَدْ شَغَلَتْهُ أَهْوَاؤُهُ وَشَهَوَاتُهُ وَمَطَامِعُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَغَفَلَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، وَعَنْ دَلَائِلِ يَوْمِ الدِّينِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَأَعْرَضَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَةِ وَتَفَرَّغَ مِنْهَا، وَمِنْ كُلِّ مُذَكِّرٍ بِهَا، فَضَلَّ وَعَوَى، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالْغَيْبِ.

لَكِنَّهُ يَوْمَ يُبْعَثُ يَكْشِفُ اللَّهُ عَنْ بَصِيرَتِهِ الْأَغْشِيَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ، فَيَرَى مُشَاهِدَ يَوْمِ الدِّينِ، الْيَوْمَ الَّذِي كَانَ قَدْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُوَ فِي حَيَاةِ الْامْتِحَانِ.



(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس السورة

وهو الآيات من (٢٣ - ٢٩)

قال الله عز وجل:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَفَلَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَنِدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾  
 ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُمْ لَوْلَٰكِنْ كَانَ فِي سُلَٰلِمٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ

قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ .

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ : أي: المَلَكُ الَّذِي كَانَ مُلَازِماً لَهُ عَنْ شِمَالِهِ يُسَجِّلُ عليه السَّيِّئَاتِ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ : أي: هَذَا مَا عِنْدِي مِمَّا سَجَّلْتُهُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتٍ مُهِيًّا مُعَدًّا حَاضِرًا. عَتِيدٌ: أي: مُهِيًّا مُعَدًّا حَاضِرًا.

﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ﴾ : أَمْرٌ يُوجَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُلَازِمِينَ لَهُ، مَنْ كَانَ قَعِيداً عَلَى يَمِينِهِ مَأْمُوراً بِتَسْجِيلِ الْحَسَنَاتِ، وَمَنْ كَانَ قَعِيداً عَلَى شِمَالِهِ مَأْمُوراً بِتَسْجِيلِ السَّيِّئَاتِ. وَجَهَنَّمَ: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ<sup>(١)</sup>.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ : أي: كُلَّ بَالِغٍ فِي الْكُفْرِ أَسْفَلَ ذَرَكَاتِهِ، لَيْسَ فِي دَاخِلِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ صَحِيحٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴿كَفَّارٍ﴾ مِنْ صَيَغِ الْمُبَالَغَةِ.

﴿عَنِيدٍ﴾ : أي: ذُو عِنَادٍ شَدِيدٍ، فَهُوَ يَغْرِفُ الْحَقَّ وَيُخَالِفُهُ وَيَرُدُّهُ، بِجُرْأَةٍ وَوَقَاحَةٍ. عَنِيدٌ: عَلَى وَزْنِ «فَعِيلٍ» فَهُوَ مِنْ صَيَغِ الْمُبَالَغَةِ لِاسْمِ الْفَاعِلِ. يُقَالُ لُغَةً: عِنْدَ فُلَانٍ يَغْنَدُ عُنْداً وَعُنُوداً، فَهُوَ عَانِدٌ، وَيُقَالُ فِي الْمُبَالَغَةِ: عُنُودٌ وَعَنِيدٌ.

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ : أي: كَثِيرِ الْمَنْعِ لِلْخَيْرِ الَّذِي يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ.

﴿مُعْتَدٍ﴾ : أي: ذُو عُذْوَانٍ عَلَى النَّاسِ، وَعَلَى الْحَقِّ وَعَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ.

﴿مُرِيبٍ﴾ : أي: يُوَقِّعُ النَّاسَ فِي الرِّيبَةِ وَالشُّكِّ بَوَسَاوِسِهِ وَإِغْوَائِهِ، وَتَضْلِيلَاتِهِ، يُقَالُ لُغَةً: أَرَابَ الْمُضِلُّ الرَّجُلَ، أي: أَوَقَعَهُ فِي الرِّيبَةِ وَالشُّكِّ.

(١) جهنم: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. ويقال لغة: بثر جهنم: أي: بعيدة القعر.

أو أقلقَه وأزعجَه، وَحَمَلُ مُرِيبٍ هُنا على أن ذو شك غير مناسب بعد إثبات أنه كفار.

﴿قَالَ فِرِينُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُمْ﴾: هو الشيطان الذي كان ملازماً للإنسان في حياة امتحانه، وقريناً له يُوسوسُ له وَيُسَوِّلُ، وهو أحد جنود إبليس من كَفَرَةِ الجَنِّ.



في هذا الدرس الثامن من دروس السورة عرضُ لقطاتٍ مِنْ مَوْقِفِ المحكمةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، التي يَجْري فيها الحساب، وَفَضْلُ القِضاءِ، وهذه اللَّقَطَاتُ خَاصَّةٌ بالكافرينِ المكذِّبينِ للرُّسُلِ، والمكذِّبينِ بِنَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ، وقد جاء عَرَضُها مزيجاً بَيْنَ أُمُورٍ ذُكِرَتْ على أَنَّها وَقَعَتْ وانْقَضَتْ، لتأكيد أنها سوف تقع لا محالة، وَأُمُورٍ مَقْتَطَعَةٍ من الحدث نفسه، ومُقَدِّمَةٍ في النِّصِّ كأنها تقع الآن، وهذا مِنْ روائع المبتكرات والإبداعاتِ القرآنيَّةِ.

وقد جاء ترتيب عرض هذه اللَّقَطَاتِ في السُّورَةِ عَقِبَ عَرَضِ لقطاتٍ من أحداثِ الرِّحْلَةِ بَيْنَ سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقِفِ الحسابِ التي جاءت في الدَّرْسِ السَّابِعِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، والتي سَبَقَ تَدَبُّرُها.

فالترتيبُ مُراعَى فيه التَّسْلُسُ المنطقيُّ، والترابطُ الفكريُّ فيه واضحٌ جليٌّ.

فلنَتَدَبَّرْ فقرات الدرس الثامن، مستخلصين منها اللَّقَطَاتِ المختارات للعرض، من شريطِ مَوْقِفِ المحاكمة:

فاللُّقْطَةُ الأولى: دَلٌّ عليها قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ فِرِينُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ﴾.

مَنْ هُوَ هذا القرين؟

باستطاعة المتدبر إذا تأمل في سياق النص، أن يذرك أنه الملك الذي كان معه في الحياة الدنيا قعيداً عن شماليه، ومأموراً برضد سيئاته وتسجيلها، لأنه هو الشهيد الذي يشهد عليه من الملائكة يوم الدين.

أما الملك الآخر القعيد عن يمينه والمأمور برضد حسناته، وتسجيلها، فقد دلّ الدرس السابق على أن وظيفته بين البعث وموقف الحساب، سوق الإنسان إلى موقف حسابه، وبما أنه كاتب حسناته فلا دور له في الشهادة على الكافر المكذب للرّسول، والمكذب بنأ يوم الدين.

إن الملك القرين راصد السيئات ومسجلها بالصوت والصورة والنيات، وحركات النفس معها، يسجل كل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، الفكرية والنفسية والقلبية، لا يمكن أن يقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْدٌ﴾ دون أن يسأل مسائل تتعلق بالوظيفة المسندة إليه بخصوص المسوق إلى المحاكمة، لكنّ البيان القرآني طوى أحداثاً تكون قبل هذا القول، لأن المتدبر يمكن أن يستنبطها بالتفكير، لملء الفراغات بين اللقطات، واعتنى النص بتقديم اللقطة الأجدر بالبيان، والملائمة لهذا النجم القرآني.

فالمهم أن يُقدّم ما لديه من وثائق لإدانة هذا الإنسان الذي كان في الحياة الدنيا موضوعاً تحت المراقبة، وتسجل عليه جرائمه وقبائحه وسيئاته.

فالواو العاطفة في جملة: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْدٌ﴾ تدلّ على أن في النص كلاماً مطويّاً تعطف الواو عليه كشأن الفاء الفصيحة التي ذكرها النحاة، فقد اكتشفت خلال تدبري الطويل لآيات كتاب الله المجيد، أن العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء الفصيحة التي ذكرها النحويون والمفسرون، بل قد يكون بغير الفاء من حروف العطف، والتدبر المتأني مع توفيق الله عز وجلّ كفيل باستخراج المطويات في النصوص القرآنية، ويستدلّ عليها أحياناً بذكر حرف من حروف العطف، أو بالافتضاء الفكري،

أو باللوازم الذهنية، أو بالتقابل والتناظر، أو بغير ذلك، وقد لا تقتصر الدلالة على واحد من هذه الأمور.

ويمكن تقدير المطويات في مَثْنِي النَصِّ كُلِّهِ، بدءاً مِنْ خِطَابِ الكافر في محكمة العدل الرِّبَّانِيَّةِ بما يلي:

أيُّهَا الْإِنْسَانُ الَّذِي كُنْتَ تَكْذِبُ بَنِيَّ يَوْمَ الدِّينِ، لَقَدْ كُنْتَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَارِقاً فِي غَفْلَةٍ بِمَطَالِبِكَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَذَاتِهَا، وَأَنْوَاعِ مَتَاعِهَا وَزِينَتِهَا، وَكُنْتَ نَافِراً مِنْ تَقْبِيلِ نَبَأِ الْبُعْثِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، الَّذِي صَارَ الْآنَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ: «هَذَا» فَكَشَفْنَا عَنْكَ الْغِطَاءَ الَّذِي كَانَ يَحْجُبُكَ عَنْ اسْتِبْصَارِ دَلَائِلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَقِّ، بِذَهَابِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَانْتِزَاعِ دَوَافِعِ أَهْوَاؤِكَ وَشَهَوَاتِكَ مِنْكَ، وَوَضْعِكَ مَوْضِعَ الْمَشَاهِدِ لِأَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، فَأَنْتَ الْآنَ ذُو بَصَرٍ إِذْرَاكِ قُوِّي شَدِيدٍ.

وهنا عند هذ الفصل يَدُلُّ سِيَاقُ النِّصِّ عَلَى أَنَّ هَذَا الَّذِي كَانَ كَافِراً بِيَوْمِ الدِّينِ، يُقَالُ لَهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي أَحْدَاثِهِ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟! .

فيقول: بلى. فيقال للملك القعيد عن شماله في الحياة الدنيا لقد كنت تسجل عليه سيئاته فماذا عندك؟ قال: نعم، لَقَدْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا أُسْجَلُ عَلَيْهِ سَيِّئَاتِهِ وَفَقَّ الْأَمْرَ الْمَوْجُوهَ لِي، وقال: هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ حَاضِرٌ مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حَسَبَ الْأَمْرِ إِعْدَاداً تَامَماً بِدُونِ تَحْرِيفٍ وَلَا زِيَادَةٍ.

فَيُغْرَضُ عَلَيْهِ كِتَابُ أَعْمَالِهِ نَاطِقاً بِالْحَقِّ.

ويقتصر البيان على اللَّقْطَةِ الدَّالَّةِ بِاللَّوْازِمِ الذَّهْنِيَّةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَالْإِنْسَانُ الْمَحَاكُمُ كَانَ كَافِراً بِرَبِّهِ، مُكْذِباً لِرُسُلِهِ، وَمُكْذِياً بَنِيَّ يَوْمِ الدِّينِ، وَلَا جَزَاءَ لَهُ إِلَّا الْحُكْمُ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ الْخَالِدِ، وَبَعْدَ الْحُكْمِ يَصْدُرُ الْأَمْرُ الرِّبَّانِيُّ بِالْقَائِمِ فِي جَهَنَّمَ، وَلَا تَدْعُو الْحَاجَّةُ إِلَى إِطَالَةِ مُحَاسَبَتِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ الْحِسَابِ.

ويمكن تصوّر المحاكمة التي تُجرى له على وجه التقريب بما يلي:

- كيف كانت حاله في الدنيا؟
  - لقد كان كافراً مُجرماً، وهذه الوثائق اليقينية تُدينه وتُجرّمه.
  - فإن اعترف صدر الحكم عليه، وعلى قرينه الشيطان الذي كان يوسوس له.
  - وإن أنكر شهدت عليه جوارحه، وتبتم إدانته، ويضدّر الحكم عليه وعلى قرينه الشيطان بالخلود في عذاب النار.
  - وبعد هذه المحاكمة يضدّر الأمر بتنفيذ الحكم.
  - ويُفرّز المجرمون إلى زمر بحسب مذاهبهم في الكفر، وبحسب أئمتهم، بانتظار استكمال محاكمة أمثالهم.
- ومع كل مجرم قرينه من الملائكة: السائق والشهيد، وهما اللذان كانا مأمورين بملازمته في الحياة الدنيا، وكان الذي عن يمينه مأموراً بكتابة حسناته، وكان الذي عن شماله مأموراً بكتابه سيئاته، وهما الآن مأموران معاً بضبطه وسوقه وحراسته، حتّى يضدّر الأمر بإلقائه في جهنم مع زمّرتيه التي هو منها.
- ومع كل مجرم أيضاً قرينه من الشياطين، وهو الذي كان أتبعه في الحياة الدنيا، فزاده إغواءً وضلالاً، ويكون الحكم على الشيطان القرين بالخلود في عذاب جهنم، لأنه كان كافراً مضللاً.
- حتّى إذا انتهى الحكم على المجرمين، وجمّعوا مُنْعَزِلِينَ زُمَرًا، يأمر الله عز وجلّ بسوقهم إلى جهنم زُمَرًا.

قال الله عز وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيْتُمْ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ .

هذا ما يتعلق باللقطة الأولى في هذا الدرس .

اللقطة الثانية: دلّ عليها قول الله عز وجل:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّاخَرًا فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ .

هذه الآيات الثلاث قدّمت اللقطة الثانية من هذا الدرس، والتي تتضمن الأمر العام بإلقاء المجرمين في جهنم، إذ يوجه الله عز وجل الأمر لكل ملكين قرينين منذ بدء رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا، والملازمين له في يوم الحساب، وفضل القضاء، حتى تنفيذ الجزاء، بإلقاء قرينيهما المجرم من الإنس مع قرنيه الشيطان من الجن، في جهنم، دار عذاب الكافرين المجرمين.

لقد جاء الأمر للقرينين من الملائكة شاملاً كل قرينين من أصحاب هذه الوظيفة، على طريقة الخطاب الشبيهة بالخطاب الإفرادي، والذي يفهم منه كل اثنين منهما أنهما مقصودان بالخطاب.

ويتم إلقاء الكافرين في جهنم زمراً كما جاء في النص الذي سبق الاستشهاد به آنفاً من سورة الزمر، إذ يلقي كل ملكين قرينيهما الكافر من الإنس، وقرينه الذي كان يؤسوس له بالشّر من الجن جنود إبليس.

وقد جاء وصف هؤلاء الكافرين المجرمين عند الأمر بإلقائهم في جهنم مبسوطاً، للدلالة على أن كل واحد منهم قد ثبت عليه لدى حسابه كل هذه الصفات، واشتمل قرار الحكم عليه بعد محاكمته على كل هذه الصفات، فأغنى ذكرها هنا عن ذكرها في المراحل قبل ذلك، وأغنى ذكر

الأَمْرُ بِالْإِنْقَاءِ فِي جَهَنَّمَ عَنِ التَّضَرِّيحِ يَصِيغَةُ قَرَارِ الْحُكْمِ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْإِيجَازِ الْقَائِمِ عَلَى الْإِلْمَاحِ، وَالْاِكْتِفَاءِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ دُونَ ذِكْرِهِ، وَهُوَ مِنْ رَفِيعِ الْأَدَبِ.

أَمَّا الصِّفَاتُ الَّتِي تَدَنَسَ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ الْمَخْكُومِ عَلَيْهِمُ بِالْإِنْقَاءِ فِي جَهَنَّمَ، فَهِيَ مَا يَلِي:

الْصِّفَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ ﴿كَفَّارٌ﴾، أَي: ذُو كُفْرٍ مُفْرِطٍ، بِدَلِيلِ صِيغَةِ الْمَبَالِغَةِ «فَعَالٌ».

وَلَدَى تَحْلِيلِ وَاقِعِ حَالِ الْإِنْسَانِ الْكَفَّارِ نُلَاحِظُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ عُرِضَتْ عَلَيْهِ أَدَلَّةُ الْإِيمَانِ الْكَثِيرَةِ، فَجَعَلَ يَسْتُرُهَا وَيَذْفِيهَا تَبَاعاً، لَثَلَا تُؤَثِّرَ عَلَى نَفْسِهِ فَيُؤْمِنَ، فَيُضْطَرُّ بِإِيمَانِهِ أَنْ يَخَالَفَ أَهْوَاءَ وَشَهَوَاتِهِ الْحَاكِمَةَ عَلَى إِرَادَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، خَوْفاً مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

الْصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ ﴿عَنِيدٌ﴾ أَي: ذُو عِنَادٍ شَدِيدٍ، فَهُوَ يَغْرِفُ الْحَقَّ وَيَرْذُهُ بِجُرْأَةٍ وَوَقَاحَةٍ، وَتَأْتِيهِ الْإِنذَارَاتُ بِالْعَذَابِ فَلَا يَكْتَرِثُ لَهَا، وَيُصِرُّ عَلَى رَفْضِهِ لِلْحَقِّ، وَيَمَسُّهُ بَعْضُ الْعِقَابِ الْمَعْجَلِ فَيَظَلُّ مُصِرّاً عَلَى رَفْضِهِ لِلْحَقِّ عِنَاداً وَاسْتِكْبَاراً.

الْصِّفَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ ﴿مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أَي: هُوَ شَحِيحٌ لَا يَبْذُلُ مِنْ جَسَدِهِ وَلَا مِنْ مَالِهِ وَلَا مِنْ جَاهِهِ، وَيَقِفُ فِي طَرِيقِ الْبَازِلِينَ الْمُحْسِنِينَ، فَيَمْنَعُهُمْ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ بِشِدَّةٍ، فَصِيغَةُ «مَنَّاعٌ» مِنْ صِيغِ الْمَبَالِغَةِ.

وَهُوَ أَيْضاً يَمْنَعُ دَعْوَةَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّ مِنَ الْإِنْتِشَارِ بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّ إِنْتِشَارَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ فِي النَّاسِ يُفَوِّتُ عَلَيْهِ التَّسَلُّطَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَانْتِهَابَ حُقُوقِهِمْ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِ سُبُلَ جَرَائِمِهِ وَفَوَاحِشِهِ.

وَالسَّبَبُ فِي كُلِّ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ الْمَعْجَلِ وَالْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



الصفة الرابعة: أنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: هو لا يكتفي بأن يمنع الخير، بل يمارسُ العُدوان على الناس في حقوقهم المختلفة، المالية والأدبية، والجسدية، ففي المال يَسْلُبُ وَيَظْلِمُ، وفي الأعراس يَجْرَحُ وَيَسُبُّ وَيَشْتُمُ، وفي الأجساد يضربُ وَيَهْشِمُ، ويَجْرَحُ وَيَقْتُلُ، ويحاربُ وَيُهْلِكُ الْحَزْثَ والنَّسْلَ، وَيُفْسِدُ في الأرض.

الصفة الخامسة: أنه ﴿مُرِيْبٍ﴾: من فعل أَرَابَ غَيْرَه، إذا أَوْقَعَه في الشُّكَّ والرَّيْبَةِ. أي: فهو لا يكتفي بأن يكفّر بالله واليوم الآخر، ويكفر بالرُّسُل وبالكُتُب وبسائر أركان الإيمان بل يجتهد حاشداً ما لديه من حِيلٍ تضليلية زُخرفية، لِيُلْقِيَ الشُّكُوكَ في أفكار الناس وقلوبهم ونُفُوسهم عن الدِّين كُلِّه، ويُوَقِّعُهُمْ في الرِّيب بما يَصْنَعُ من زُخْرَفِ القول تزييفاً وتزويراً للحقائق.

الصفة السادسة: أنه ﴿جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ فهو يَعْبُدُهُ من دُونِ اللَّهِ، أي: هو مُشْرِكٌ.

والشُّرْكُ أَخْفُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ خَسَّةً وَاَنْحِطَاطاً. وَأَقْبَحُ مِنَ الشُّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ الشُّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَقْبَحُ مِنْهُمَا إِسْنَادُ الرُّبُوبِيَّةِ لغير الله، وَأَخْسُ الدَّرَكَاتِ وَأَحْطُهَا إِنْكَارُ وُجُودِ رَبِّ خَالِقٍ لِهَذَا الْكَوْنِ مُطْلَقاً، وَأَضْحَابُ هَذَا الْإِلْحَادِ الشَّنِيعِ هُمَ الَّذِي يَقُولُونَ: لَا رَبَّ وَلَا إِلَهَ وَالْكَوْنُ مَادَّةٌ.

ومن ذِكْرِ صِفَةِ الشُّرْكِ الَّتِي هِيَ أَخْفُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ نَفْهَمُ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الْعَقْلِيِّ أَنَّ مَنْ كَانَ ذَا دَرَكَةٍ أَخْسَ وَأَحْطَ مِنْ دَرَكَةِ أَخْفَ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، مَسْمُومٌ مِنْ بَابِ أَوَّلَى بِاسْتِحْقَاقِ الْإِلْقَاءِ فِي جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا مُخَلِّداً، وَلَهُ فِيهَا دَرَكَةٌ ثَلَاثٌ دَرَكَةٌ كُفْرِهِ.

أَفَلَا يَسْتَحِقُّ كُلُّ مَنْ لِهَذِهِ صِفَاتُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ الْمَأْمُورِينَ بِمِرَاقَبَتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَسَوِّفِهِ وَالشَّهَادَةِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْحِسَابِ،

بأن يُلقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي جَهَنَّمَ وَيُسَّسَ الْمَصِيرَ. فقال الله عز وجل  
في آخر اللَّفْظَةِ الثَّانِيَةِ:

﴿فَالْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

اللَّفْظَةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

القرين هُنا هو قرين الكافر من شياطين الجن، وهو الذي كَانَ معه في الحياة الدنيا يُوسُوسُ لَهُ، وَيُحِثُّهُ عَلَى الْكُفْرِ وَازْتِكَابِ الْجَرَائِمِ، كَيْمَا يَزْدَادَ فِي غِيَّةٍ وَفَجْوَرِهِ وَكُفْرِهِ.

وحين يرى هذا القرين من شياطين الجن، أَنَّهُ سَيُلْقَى مَعَهُ فِي جَهَنَّمَ حَيْثُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، يُحَاوِلُ أَنْ يُبْرِئَ نَفْسَهُ مِنْ جَرِيمَةِ إِغْوَائِهِ لَقَرِينَهُ الْكَافِرَ مِنَ الْإِنْسِ، فَيَنَادِي قَائِلًا:

﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: رَبَّنَا مَا أَنَا الَّذِي جَعَلْتُهُ يَطْغَى، أَي: يُجَاوِزُ الْحَدَّ فِي الْعِضْيَانِ، حَتَّى بَلَغَ مُنْحَطًا إِلَى الْكُفْرِ، وَهَابِطًا فِي ذَرَكَاتِهِ، وَلَكِنْ وَجَدْتُهُ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ عَنْ حُدُودِ الْهِدَايَةِ وَالْإِيمَانِ، فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَوْسُوسَ لَهُ.

وَيَخْصُلُ تَخَاصُّمٌ بَيْنَ الْكَافِرِ وَقَرِينَةِ الشَّيْطَانِ.

كَأَن يَقُولَ الْكَافِرُ لَقَرِينَهُ الشَّيْطَانِ: أَنْتَ الَّذِي أَطْغَيْتَنِي، بَوْسَاوِسِكَ وَتَسْوِيلَاتِكَ لِي، وَإِطْمَاعَاتِكَ الْكَاذِبَاتِ.

فيقول له شيطانه: أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَذْعُوكَ فَتَسْتَجِيبُ لِي.

وَيَسْتَدُ بَيْنَهُمَا التَّخَاصُّمُ وَالْجِدَالُ.

دَلَّ عَلَى هَذَا التَّخَاصُّمِ الْمَطْوِيُّ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي النَّصِّ تَضْرِيحٌ بِأَقْوَالِ  
أَيٍّ مِنَ الْمُتَخَاصِمِينَ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨) ﴿أَي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ لِلَّذِينَ يَتَخَاصِمُونَ لَدَيْهِ مِنْ كُفَّارِ الْإِنْسِ وَقِرْنَائِهِمْ مِنْ شِيَاطِينِ الْجَنِّ: لَا  
تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ. أَي: فكل واحدٍ منكم يناله من  
العقاب على مقدار جرائمه التي ارتكبها في الحياة الدنيا، فلا تزر وازرةٌ وزرَ  
أخرى، فَمَنْ كَفَرَ مِنَ الْإِنْسِ وَطَغَى وَأَجْرَمَ فَقَدْ اكَتَسَبَ خَطَايَاهُ وَهُوَ حُرٌّ  
الْإِرَادَةِ، يَمْلِكُ الْأَهْلِيَّةَ التَّامَّةَ لِلتَّكْلِيفِ وَالْمَسْئُولِيَّةَ وَتَحْمُلُ النَّتَاجِ. وَمَنْ كَفَرَ  
وَأَغْوَى مِنْ شِيَاطِينِ الْجَنِّ وَوَسَّوَسَ بِالشَّرِّ، وَسَوَّلَ مَطْمَعًا بِالْبَاطِلِ، فَقَدْ  
اكَتَسَبَ خَطَايَاهُ، وَهُوَ حُرٌّ الْإِرَادَةِ، يَمْلِكُ الْأَهْلِيَّةَ التَّامَّةَ لِلتَّكْلِيفِ وَالْمَسْئُولِيَّةَ  
وَتَحْمُلُ النَّتَاجِ.

وقانون الحساب، وَفَضِّلَ الْقَضَاءَ، وَالْجَزَاءَ، وَمَا تَضَمَّنَ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ  
وَعِيدٍ، قَدْ كَانَ مَبِينًا مُفَضَّلًا فِيمَا أُتْرِلَتْ مِنْ كِتَابٍ، وَفِيمَا بَيَّنَّهُ وَشَرَحَهُ  
رَسُولِي.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٢٩).

أَي: إِنَّ الْقَوْلَ الَّذِي سَبَقَ مِنِّي فِي بَيَانِ تَكَالِيفِ الدِّينِ، وَفِي بَيَانِ  
الْوَعِيدِ الَّذِي قَرَّرْتُهُ حَتْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ، لَا تَبْدِيلَ لَهُ، فَلَا مَطْمَعَ  
لِأَحَدٍ بِأَنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ مَخْرَجًا، أَوْ مَعَاذِيرَ يَغْتَذِرُ بِهَا، أَوْ جَدَلِيَّاتٍ يَخَاصِمُ  
بِهَا، سِوَاءَ أَكَانَ مِنَ الْإِنْسِ أَمْ مِنَ الْجَنِّ.

وَفِي تَفْهِيزِ وَعِيدِي لَا أَظْلِمُ عِبِيدِي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ: لِمَاذَا جَاءَ فِي النَّصِّ اسْتِعْمَالُ «ظَلَامٍ» وَهُوَ مِنْ صِغِ  
الْمُبَالَغَةِ، وَنَفْيِ كَوْنِهِ ظَلَامًا لَا يَقْتَضِي نَفْيَ كَوْنِهِ ظَالِمًا؟!

أَقُولُ: جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَظْلِمُ مِثَالَ ذَرَّةٍ.

وقد أشارت عبارة «ظلام» هنا وفي أمثالها إلى معنى دقيق، وهو أن الله عز وجل لا يظلم عبده عند تنفيذ وعيده شيئاً، ولو ظلم كل واحد منهم أقل ظلم وهو المتفرد بالحكم، وعيده المستحقون للعقاب كثيرون لكان ظلاماً.

(١٣)

### التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السور وهو الآيات من (٣٠ - ٣٥)

قال الله عز وجل:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ نَبِيٍّ (٣١) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَزَاجٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥).

• قرأ نافع، وشعبة: ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بضمير الغائب.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بضمير المتكلم العظيم.

والقراءتان من قبيل التفنن البياني، فما قبل الآية يلائمه قراءة الجمهور: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ إذ قبلها مباشرة قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢٩).

أما قراءة نافع وشعبة فقد لوحظ فيها الحديث عن الله عز وجل بضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: قال الله عز وجل.

• قرأ ابن كثير: [هَذَا مَا يُوعَدُونَ] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [هَذَا مَا تُوْعَدُونَ] بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكامل بياني، فقراءة ابن كثير لوحظ فيها بيان الله غير

الموجه لخطاب المكلفين، وقراءة الجمهور خاطب الله بها المكلفين.

في هذا الدرس من دروس السورة بيان أَرْبَع لَقَطَاتٍ مختارات من أحداث يوم الدين، غير اللَّقَطَاتِ التي جاء بيائها في الدرسين السابع والثامن، وهي لَقَطَاتٌ مُنْتَزَعَاتٌ من شريط أَخْذَاتِ ذَلِكَ اليوم:

اللَّفْظَةُ الْبَيَانِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠).

هذه اللَّقْطَةُ مُرْتَبَةً تَرْتِيباً طَبِيعِيًّا على ما جاء في الدرس الثامن، من عَرْضِ اللَّقْطَةِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي فِيهَا الْأَمْرُ بِالْقَاءِ مُسْتَحَقِّي الْخُلُودِ فِي أَشَدِّ الْعَذَابِ مِنْ جَهَنَّمَ.

أي: وجرى تنفيذ أمر الله بِالْقَاءِ هُؤَلَاءِ، وجاء دَوْرُ سُؤَالِ جَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأَتْ، فقد سَبَقَ الْقَضَاءُ الرَّبَّانِي بِأَنْ يَمْلَأَ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

سؤال لجَهَنَّمَ وَجَوَابُ مِنْهَا، أسلوبٌ من التعبير فيه إبداعٌ قائم على خطاب جَهَنَّمَ، وهي غَيْرُ ذَاتِ حَيَاةٍ، لَكِنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُنْطِقُهَا، وهو الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

● يقولُ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ لجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأَتْ؟.

● فتقولُ جَهَنَّمَ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟

ويحتملُ أن يكون هذا القول تعبيراً عن لسان الحال، وهو أيضاً من فُتُونِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ.

ويدلُّ استعمال الفعل المضارع في: «نَقُولُ» وفي: «وَتَقُولُ» على أَنَّ هذا السُّؤَالَ وجوابه يتكرَّرَانِ ويتجدَّدَانِ بَعْدَ إلقاءِ فَوْجٍ فَفَوْجٍ في جَهَنَّمَ.

﴿مَزِيدٍ﴾: مُضَدَّرٌ مِمِّيٌّ بمعنى «زيادة» أي: هل من زيادة تُلْقَى فِي؟

«مِنْ» حرف جرّ زائدٍ للتوكيد، وهو هنا داخل على المبتدأ بعد «هل».

لقد كان من الممكن أن يكون الجواب: لَا لَمْ أَمْتَلِ، أو: مَا زَالَ يُوجد في اتساع لأفواج قادمة. أو نحو هذه التعبيرات. لكنّ هذه التعبيرات وأشباهها تعبيراتٌ تِلْقَائِيَّةٌ مباشرة، لَيْسَ فيها سُمُوٌ جماليّ، لَا في الصِّياغة، ولا في الفكرة.

أما التعبير القرآنيّ المختار، فقد كان جواب السؤال فيه، على طريقة الإجابة على السؤال بسؤال يتضمّن الجواب على قَدْرِ السؤال، وسؤالاً زائداً فوقه يتضمّن أفكاراً زائدة على الجواب المطلوب.

فقول جهنّم: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ يُشعر بأنّها تَطْلُبُ المزيد، إِذَنْ فهي لَمْ تَمْتَلِ. وَيُشعرُ بأنّها تتلَهّفُ للمزيد من الذين يُلقَوْنَ فيها، كجائع أو ظالمين لَمْ يَشْبِعْ من طعام أكله، أو شرابٍ شربه، فيقول بتلهّفٍ: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾. على هذا الوجه ينبغي أَنْ نفهم هذا السؤال، فهو المطابق لما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، أما المفهومات الأخرى فلا دليل عليها.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، أَنَّ النبي ﷺ قال:

«لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ، قَطُّ وَعِزَّتِكَ، وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ».

يُزَوَّى: أي: يُطَوَّى وَيُجَمَّع.

وفي رواية أخرى:

«لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطُّ، قَطُّ. بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ».

وَلَا يَزَالُ في الجنةِ فَضْلٌ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

وعند البخاري وأحمد وأبي يَغْلَى نحو ذلك، مع بَغْضٍ خِلَافٍ فِي التعبير.

الْلَقْطَةُ الْبَيَانِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

العَطْفُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنْ عَطْفِ الْجُمْلَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ بَيَانَ لِقَطَاتٍ مِنْ شَرِيطِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أَي: وَقُرِّبَتْ، فَالْإِزْلَافُ فِي اللُّغَةِ هُوَ التَّقْرِيبُ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّقْرِيبِ بِلُطْفٍ أَخْذًا مِنَ الِاسْتِعْمَالَاتِ.

يُقَالُ لُغَةً: زَلَفَ فُلَانٌ الشَّيْءَ وَأَزْلَفَهُ، أَي: قَرَّبَهُ، وَزَلَفَ فُلَانٌ إِلَى الشَّيْءِ وَازْدَلَفَ، أَي: دَنَا إِلَيْهِ وَقَرَّبَ مِنْهُ.

وَقَدْ دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ يُقَرَّبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جِهَةِ حَشَرِ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الدِّينِ تَكْرِيمًا لَهُمْ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ رَأْيَ عَيْنٍ.

وَلَمَّا كَانَ الْمَحْشَرُ عَلَى سَطْحِ أَرْضِنَا هَذِهِ كَمَا بَيَّنْتَ بَعْضَ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، وَدَلَالَاتِ بَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُذْنِبُ الْجَنَّةَ إِلَى جِهَةِ مَحْشَرِ الْمُتَّقِينَ حَتَّى تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُمْ، يَرَوْنَهَا، وَيَسْهَلُ عَلَيْهِمُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا مَجْتَازِينَ الصَّرَاطَ.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: أَي: وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ إِزْلَافًا غَيْرَ بَعِيدٍ، فَعِبَارَةُ «غَيْرَ بَعِيدٍ» نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ هُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ. وَلَمَّا كَانَ الْإِزْلَافُ تَقْرِيبًا مَكَانِيًّا صَحَّ تَنْزِيلُ الْإِزْلَافِ مَنْزِلَةً الْمَكَانِ الَّذِي قُرِّبَتْ الْجَنَّةُ إِلَيْهِ، وَوَضَفُهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ.

وَتَدُلُّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ تَصِلُ إِلَى مَكَانٍ غَيْرِ مُلَاصِقٍ لِلْأَرْضِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ نَسْبِيًّا عَنْهَا، فَالْمَكَانُ الَّذِي يُمَكِّنُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ يُسَمَّى

وسُهولة، ولو بوسيلةٍ من الوسائل لا يُعْتَبَرُ بعيداً، وقد صِرْنَا في هذا العصر الذي نعيشه، نستطيعُ أنْ نتصوّرَ أنَّ القَمَرَ قريب من الذين لديهم في الأرض الوسائل الموصلة إليه .

اللقطة البيانية الثالثة : دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عز وجل :

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ .

هذا نصٌّ مُقْتَطَعٌ من أحداث يوم الدين، قُدِّمَ بصيغته كما لو كان الحدث يجري الآن، وهذا الأسلوب من روائع المبتكرات القرآنية في البيان الكلامي .

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ الجنة التي صارت بإزلافها قريبة من رؤيتهم البصرية، وإذ يَرَوْنَ الجنة فقد يَرَوْنَ فيها بعض ما أعدَّ الله فيها من نعيم مقيم لأصحابها .

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمفرد المذكر مراعاةً للفظ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فهو ما كانوا يُوعَدُونَهُ في الدنيا بالكُتُبِ الربّانية، وعلى ألسنة المرسلين، واستعمل الفعل المضارع لأنَّ هذا الوعد قد كان متجدداً دواماً، وما زالوا يوعَدُونَهُ حتَّى دُخُولُهَا .

لكنه ليس وعداً عاماً لكل الناس، بل هو وعدٌ لكل من استجمع عدّة صفاتٍ جاء بيانها في هاتين الآيتين، وهي الصفات التالية :

الصفة الأولى : أَنَّهُ ﴿أَوَّابٌ﴾ وهو الرَّجَّاعُ إلى الله بالتوبة والندم، في فعلٍ «آبَ يَؤُوبُ» أي : رَجَعَ . ولفظ «أَوَّابٍ» على وزنٍ «فَعَّالٍ» من صيغ المبالغة، أي : هو كثير الرجوع إلى ربّه بالتوبة والندم والاستغفار، كلما بذرت منه بادرةً معصية . وهو أيضاً سريع الرجوع إلى ربّه، لا يتمادى في معاصيه .



**الصفة الثانية:** أَنَّهُ ﴿حَفِظَ﴾ أَي: كَثِيرُ المِرَاقَبَةِ لِأَعْمَالِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَأَمَرَ الله وَنَوَاهِيهِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهَا، وَكَثِيرُ الحِمَايَةِ لِنَفْسِهِ مِنْ مَزَالِقِ المَعَاصِي وَالْأَثَامِ وَالمُخَالَفَاتِ، وَكَثِيرُ العِنَايَةِ بِتَغْذِيَةِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ، بِمَا يُنْمِي فِيهَا الِارْتِقَاءَ فِي مَعَارِجِ الْقُرْبِ مِنْ الله جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَالسَّعَادَةَ بِعِبَادَتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ.

كُلُّ هَذِهِ المَعَانِي تَدْخُلُ فِي عَمُومِ دَلَالَةِ كَلِمَةِ ﴿حَفِظَ﴾.

فَالْحَفِظُ عَلَى مَالِهِ يَرِاقِبُهُ خَوْفَ العَوَارِضِ وَالجَوَائِحِ وَالمَكَارِهِ، وَيَحْمِيهِ وَيَعْتَنِي بِهِ بِالتَّنْمِيَةِ حَتَّى لَا تُفْنِيَهُ عَوَارِضُ الزَّمَانِ، وَمُفْنِيَاتُ الْأَحْدَاثِ مَعَ تَوَالِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ مَا وَلَمْ يَكُنْ حَفِظًا الحِفْظَ الْوَاجِبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ دُونَ سَابِقِ وَعْدٍ، أَوْ يَقَالُ: هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ دُونَ اسْتِحْقَاقِ عَذَابٍ قَبْلَهُ، جَمْعًا بَيْنَ النُّصُوصِ.

**الصفة الثالثة:** دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾. إِنَّهُ لَا يَخْشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِهِ صَحِيحُ الْإِيمَانِ.

**الخشية من الله:** خَوْفٌ مِنْ عِقَابِهِ مُصْحَبٌ بِتَعْظِيمِ وَإِجْلَالِ وَحُبِّ وَإِذْعَانٍ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالمُنَّةِ.

وَاخْتِيرَ اسْمُ الله هُنَا لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الخَشْيَةَ لَيْسَتْ خَشْيَةً مُلَاحِظًا فِيهَا صِفَةُ الْجَبَّارِ الْمُنتَقِمِ فَقَطْ، بَلْ هِيَ خَشْيَةٌ مُلَاحِظٌ فِيهَا صِفَةُ رَحْمَةِ الله الَّتِي يَشْمَلُ بِهَا عِبَادَهُ، وَيَمْنَحُهُمْ بِهَا فُيُوضَ عَطَائِهِ وَإِحْسَانَهُ.

وَالْخَشْيَةُ النَافِعَةُ هِيَ الخَشْيَةُ الَّتِي تَكُونُ مُقْتَرَنَةً بِالْغَيْبِ حَتَّى آخِرَ حَيَاةِ الْمَكْلَفِ، أَيْ بَغْيِبِ الرَّحْمَنِ عَنْ حَوَاسِّ الْعَبْدِ الَّذِي يَخْشَى رَبَّهُ، إِذْ تَكُونُ خَشْيَتُهُ نَابِعَةً مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ فِي عُمُقِ فُؤَادِهِ، مُلَاحِظًا عَذْلَهُ وَرَحْمَتَهُ مَعًا.

والنافع منها هو ما استمرَّ حتى يُذَرِكه الموت، ولو بدَأَتْ قبل الموت بقليل، بشرط أن لا يشهد من حقائق ما بعد الموت شيئاً، لأنَّ التوبة لا أثر لها عندئذ.

ولا يكون الإنسان أواباً وحفيظاً، ما لم يكن ممَّن حَشِيَ الرَّحْمَنُ بالغيب.

**الصفة الرابعة:** دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: وجاء إلى ربه بعد موته بقلب راجع إلى ربه، تائب من ذنوبه، مُسْتَغْفِرٍ خاضع خاشع.

**اللفظة البيانية الرابعة:** دلَّ عليها قول الله عز وجل: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ﴿٣٤﴾ لَمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾.

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾: عبارة مقتطعة مما سوف يقال لهم عند توجيههم لدخول الجنة، أي: ادخلوا الجنة مصحوبين بسلام.

**السلام:** يأتي في اللغة بمعنى الأمان، وبمعنى البراءة من العيوب، وبمعنى التحية. وكلُّ هذه المعاني يكون أهل الجنة مصحوبين بها دواماً فالأمان تامٌ في الجنة، والمطالب متحققة فيها، والبراءة من العيوب كالمرض والعرج وسائر العاهات والمنغصات، والعجز والكسل والأوجاع والآلام حتى فضلات الطعام والشراب، متحققة لكل المنعمين فيها شَبَاناً دواماً، ويقال لمن يدخلها: سلام عليكم طِبْتُمْ فادخلوها خالدين. وَيُلْقَوْنَ فِيهَا آناً فآناً تحيةً وسلاماً. وهذه المعاني قد دلَّت عليها نصوصٌ متعددة في القرآن والسنة، واختصرت هنا بعبارة: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾: أي: ذلك اليوم الذي سوف يدخل فيه أصحاب الجنة هو يوم الخلود الذي لا آخر له.

هذه العبارة يبدو أنها غير مُقْطَعَةٍ مِمَّا سَيُقَالُ لَهُمْ، فليست هي من

توابع: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْطَرٍ﴾ بل هي بيان لِمُتَلَقِّي البَيَانِ القرآني في الحياة الدنيا، ويُرجح هذا الفهم استعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، وعبارة: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥) أي: لأصحاب الجنة الذين سَوْفَ يقال لهم: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْطَرٍ﴾ كلُّ ما يَشَاءُونَ فيها دون استثناء، مهما انطلقت أمانيتهم تخيلاً وإسرافاً، فإذا انقطعت أمانيتهم أعطاهم الله مزيداً لم تَبْلُغْ إليه أوهامهم.

مَزِيد: مصدرٌ ميمي بمعنى «زيادة».

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَجَلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

ومن المزيد إكرامُ الله لهم بأن يَرَوْه رؤيةً يَحْصُلُ لهم بها سعادة تفوق كلَّ ما نالوه في الجنة من سعادات، كما ثبت في الصحيح أيضاً.

(١٤)

### التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيتان (٣٦ و ٣٧)

قال الله عز وجل:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْمُودٍ﴾ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ .

في الدرس الرابع جاء تلوِيحٌ بإنذار مُكْذِبِي الرُّسُولِ ﷺ، والمكذبين

يوم الدين، بسُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الإهلاك الجماعي للأمم التي تَصِلُ في كفرها وجرائمها وإفسادها في الأرض، إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح وأصحاب الرُّسِّ وشمود وعاذ وفرعون وإخوان لوط وأَصْحَابُ الْاَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّع. وهذا التَّلْوِيحُ جُزْءٌ من العلاج النَّفْسِيِّ لهم بالترهيب. واقتضى هذا العلاج استكمالاً، بإعطائهم جَزَعَةً علاجيةً أخرى في السورة نفسها، بَعْدَ فاصل اشتمل على إقناعات فكرية، وبياناتٍ قَدَمَتْ صُورَ لَقَطَاتٍ غَيْبِيَّةٍ، تتَّصِلُ بقانون الجزاء الربَّاني، ممَّا هو قائم في رحلة الابتلاء، ومما سيأتي بعدها، حتَّى البعث والحِساب وَفَضْلُ الْقَضَاءِ وتنفيذ الجزاء من حقائق مُسْتَقْبَلِيَّةٍ.

وجاء هذا الاستكمال لبعض عناصر الترهيب بالإهلال المعجل في الحياة الدنيا، مُشْتَمِلاً على تفصيلٍ لِبَعْضِ ما أُجْمِلَ في الْجَزَعَةِ الْعِلَاجِيَّةِ الأولى.

وفي هذا التفصيل جاء بيانُ كَثَرَةِ الْمُهْلَكِينَ من أهل القرون الأولى، وبيانُ أَنَّهُمْ أَشَدُّ بَطْشاً من المكذِّبين المعاصرين لتزليل القرآن، وبيانُ أَنَّ في عَرْضِ قِصَصِ الْمُهْلَكِينَ الأولين لِدِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد.

ومع غاية استكمال بعض عناصر علاج المكذِّبين، ففي هذا البيان طَمَآنَةٌ لِقَلْبِ الرُّسُولِ ﷺ وَقُلُوبِ الَّذِينَ آمَنُوا معه، بأنَّ نَصَرَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ قَادِمٌ لا محالة، كما نَصَرَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا معهم، مع أَنَّ الْمَكْذِبِينَ الأولين كانوا أَشَدُّ من المعاصرين لتزليل القرآن قُوَّةً وَبَاساً، حتَّى استطاعوا أَنْ يُتَّقَبُوا في البلادِ بحثاً عما يَطْلُبُونَ لدنياهم، فهذه الطمَآنَةُ غُنْصَرٌ عِلَاجِيٌّ لِلرُّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

فإلى تَدَبُّرِ فقراتِ هذا الدُّرس:

● قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾.

﴿كَمْ﴾ خبرية. وهي اسم يقع على العدد، وحين تكون خبرية تكون بمعنى: «عدد كثير» وهي كلمة مبهمة تميز باسم مجرور، ويجوز أن يدخل عليه حرف الجر «من» كما في هذه العبارة: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾.

والمعنى: قُرُونٌ كثيرةٌ أَهْلَكْتَ قَبْلَ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ السَّابِقِينَ.

﴿أَهْلَكْنَا﴾: أي: أَهْلَكْنَا إِهْلَاكَاً جَماعِيّاً عَقابِيّاً مَقترناً بتعذيب.

﴿مِنْ قَرْنٍ﴾: كلمة «قَرْن» تُطْلَقُ على أَهلِ زَمَانٍ واحدٍ، وتُطْلَقُ على زَمَنِ قَدْرِهِ مِئَةُ سَنَةٍ، وتُطْلَقُ على الدُّوَابِّ من الشعر، وعلى الخُصَلَةِ منه، وعلى القَرْنِ المعروف، وهو العظم الذي يَنْبُتُ في رُؤُوسِ الحَيوانات ذواتِ القُرُونِ.

والمقصود هُنا أَهلُ زَمَانٍ بَعَثَ اللَّهُ لَهُم رَسولاً فَكَذَّبُوهُ، وَكَذَّبُوا بِما جَاءَهُم بِهِ عَنِ رَبِّهِ.

● قول الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾:

أي: كان هؤلاء الأقوام المَهْلُكُونَ مِنَ القُرُونِ الأولى أَشَدَّ بَطْشاً مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبوكَ يَا مُحَمَّدٌ.

البَطْشُ: هو في اللُّغَةِ أَخْذُ الشَّيْءِ يُعْغِفُ وَقَسْوَةٌ. والبَأْسُ والقُوَّةُ. والتناوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصُّوْلَةِ. والأَخْذُ الشَّدِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُسَمَّى بَطْشاً. يقالُ لغة: بَطَشَ يَبْطِشُ وَيَبْطِشُ بَطْشاً.

● قول الله تعالى: ﴿فَقَبَّوْا فِي الْبَلَدِ﴾:

النَّقَبُ فِي اللُّغَةِ: الثَّقَبُ. يقالُ لغة: نَقَبَ الشَّيْءُ يَنْقُبُهُ، أي: ثَقَبَهُ. ومنه ثَقَبُ المسالِكِ فِي الصُّخُورِ والجِبَالِ.

والتَّنْقُبُ: الطريق، أو الطريق الضيق في الجبل.

ويقال: تَنَقَّبَ في الأرض إذا ذَهَبَ فيها.

والتَّنْقِيبُ: البحث عن الأشياء المخفية، كأنَّ الباحث عنها يَخْفِرُ ويثُقُبُ حتَّى يَصِلَ إليها.

فالمعنى يَدُورُ حَوْلَ اسْتِغْمَالِ أَهْلِ الْقُرُونِ الْمُهْلَكَةِ مِنْ كَفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولَى قُوَاهُمْ الْقَادِرَةَ عَلَى الْبَطْشِ فِي الْبَحْثِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَا يُرِيدُونَ فِي الْبِلَادِ.

● قول الله تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾!؟

خَبَرَ بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، لانتزاع الجواب من المقصودين بالخطاب، إِذْ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا جَوَاباً وَاحِداً، وهو: لم يكنْ لهم مَحِيصٌ.

وهذا من روائع الأساليب الإخبارية في فنون الأدب البياني.

﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾!؟: أي: هَلْ مِنْ مَحِيدٍ، وَمَغْدِلٍ، وَمَهْرَبٍ!؟

والمعنى: هَلْ كَانَ لِلْمُهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَسْبَابَ إِهْلَاكِهِمْ وَتَغْذِيهِمْ مِنْ مَّهْرَبٍ يَفْرُونَ إِلَيْهِ.

يقال لغة: حَاصَ فُلَانٌ عَنْ النَّازِلَةِ مَثَلًا يَحِيصُ حَيْصًا، وَمَحِيصًا، وَحَيْصَانًا، أي: حَادَ عَنْهَا، وَعَدَلَ، وَالْمَحِيصُ: الْمَحِيدُ، وَالْمَغْدِلُ، وَالْمَهْرَبُ.

«مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ لِلتَّوَكِيدِ، وَهُوَ دَاخِلٌ عَلَى الْمَبْتَدَأِ هُنَا بَعْدَ «هَلْ».

● قول الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧):

جملة مؤكدة بحرف التأكيد «إِنَّ» و«الجملة الاسمية» و«اللام المزحلقة» لأن المقصودين بالخطاب تَتَطَلَّبُ حالهم هذا التأكيد.

وجاء فيها استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد ﴿ذَلِكَ﴾ للدلالة على أن إهلاك كُفَّار القرون الأولى إهلاكاً جماعياً عقابياً أمرٌ عظيم رفيع الدلالة على عدل الله، وجليل حكمته، وكمال قدرته.

والمعنى: إِنَّ فِي ذَلِكَ الأَمْرِ العظيم، ذي الخطر الجسيم، الذي تحقَّق فيه إهلاك قُرُونٍ كثيرة، كَذَبَتْ رُسُلَ رَبِّهَا، وكَذَبَتْ ببلاغاتهم عنه، وكانوا أَشَدَّ بَطْشاً وَبَأْساً من صَنَادِيدِ مشركي مكة، الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ محمداً وكَذَّبُوا بيوم الدين، لَذِكْرَى.

الذِّكْرَى: اسمٌ للتذكير، ويأتي بمعنى التذكُّر.

ومعلوم أن إهلاك مُكَذِّبِي القرون الأولى قد جاءت به الأخبار فأَعْلَمَتْ به، وَبَقَاءُ نُصُوصِهَا مُتَدَاوِلَةٌ مُذَكَّرٌ به، وَأَثَارُ دِيَارِهِمْ شَوَاهِدٌ على إهلاكهم، فَهِيَ مُنْبِئَةٌ عَنْهُ أَوَّلًا، وَمُذَكِّرَةٌ به دَوَامًا.

وَمَنْ أَحْضَرَ فِي تَذْكِرِهِ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، هَزَّتْ قَلْبَهُ بِالْمَوْعِظَةِ، فَاتَّعَظَ، فَأَقْلَعَ عَنْ كُفْرِهِ وَتَكْذِيبِهِ، خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْمُعْجَلِ وَالْمُؤَجَّلِ.

وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ لِحَصُولِ هَذِهِ الذِّكْرَى، الْمُؤَثِّرَةِ اتِّعَاضًا وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَجُودُ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ لِلْإِنْسَانِ قَلْبٌ وَاعٍ مُتَدَبِّرٌ، حَرِيصٌ عَلَى اسْتِبْصَارِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، فَهَذَا الْإِنْسَانُ يَهْدِيهِ قَلْبُهُ الْوَاعِي الْمَتَفَكِّرُ الْمُتَدَبِّرُ، فَيَجْعَلُ سُنَنَ اللَّهِ حَاضِرَةً فِي تَذْكِرِهِ أَنَا فَأَنَا، وَبِذَلِكَ تَكُونُ وَاعِظَةٌ لَهُ أَنَا فَأَنَا.

وَالْمَرَادُ بِالْقَلْبِ غُمْقُ النَّفْسِ، حَيْثُ تُوجَدُ أَدَوَاتُ التَّفَكِيرِ وَالِاسْتِبْطَاطِ

وَالْفَهْم، وَمَشَاعِرُ الرَّغْبِ وَالرَّهَبِ الْوَاعِيَةِ عَنْ بَصِيرَةِ سَلِيمَةٍ، لَمْ تُفْسِدْهَا الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ وَزِينَاتُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا أَقْوَالُ الْمُضِلِّينَ الْمَزْخَرَفَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى تَزْيِيفِ الْحَقَائِقِ، وَصَنَاعَةِ الْأَكَاذِيبِ.

**الأمر الثاني:** أن يكون لذي الإنسان استِغْدَادٌ وَرَغْبَةٌ فِي أَنْ يُلْقَى سَمْعُهُ، لآيَاتِ التَّذْكِيرِ بِأَنْبَاءِ الْمَهْلِكِينَ السَّابِقِينَ فَيَتَفَهَّمَهَا بِإِمْعَانٍ، وَأَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ اسْتِغْدَادٌ وَرَغْبَةٌ فِي أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ لَشُهُودِ آثَارِ بِلَادِهِمِ وَالتَّبَصُّرِ بِهَا، وَإِذْرَاكِ أَسْبَابِ تَذْمِيرِهَا.

فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ بِكُلِّ حِسِّي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ نَفَذَ التَّأْثِيرَ إِلَى عُمَقِ قَلْبِهِ، فَكَانَتْ لَهُ ذِكْرَى وَاعِظَةٌ.

ونلاحظ هنا أن حاسَّتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ قَدْ يَقُومَانِ مَقَامَ الْقَلْبِ الْوَاعِيِ الْمَتَفَكِّرِ الْمَتَدَبِّرِ، وَيُظَلُّ الْقَلْبُ مُخْتَلًّا الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى فِي هَذَا.

**ألقى السَّمْعَ:** أي: وَجَّهَ كُلَّ سَمْعِهِ لَتَلْقَى بَيَانَاتِ آيَاتِ اللَّهِ بِإِمْعَانٍ بِشَأْنِ الْمَهْلِكِينَ السَّابِقِينَ.

**وهو شهيد:** أي: وهو مُعَايِنٌ آثَارَ الْمُهْلِكِينَ السَّابِقِينَ مُعَايَنَةً الْبَصِيرِ الْوَاعِي.



(١٥)

**التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس السورة  
وهو الآية (٣٨)**

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨)



﴿وَمَا مَسَّنَا﴾: الْمَسُّ أَخْفُ وَجُوهٌ وَضُولٌ سَطَحَ الشَّيْءُ إِلَى سَطْحِ الشَّيْءِ الْآخَرِ، كَمَسَّ ظَاهِرَ الْجِلْدِ بِظَاهِرِ جِلْدٍ آخَرَ، وَأَشَدُّ مِنْهُ التَّفْوُذُ إِلَى مَا تَحْتَ السَّطْحِ، وَكَلَّمَا زَادَ دُخُولُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ كَانَ أَشَدَّ، كَدُخُولِ السَّهْمِ فِي جَسَدِ الْمُصَابِ بِهِ.

﴿مِنْ لُغُوبٍ﴾: اللُّغُوبُ: التَّعَبُ والنَّصَبُ. و«مِنْ» حرف جَرٍّ زَائِدٌ جِيءَ بِهِ لِتَأْكِيدِ التَّنْصِيسِ عَلَى نَفْيِ كُلِّ تَعَبٍ.

كَيْفَ يَتَعَبُ رَبُّنَا وَمِنْ صِفَاتِهِ الثَّابِتَةِ لَهُ دَوَامًا، أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ؟!!!.

يُقَالُ لُغَةً: لَغَبَ وَلَغَبَ يَلْغَبُ وَيَلْغَبُ لَغْبًا وَلُغُوبًا، أَي: تَعَبَ وَكَلَّ، وَنَزَلَ بِهِ إِعْيَاءٌ لَمْ يَكُنْ.

أَي: وَمَا مَسَّنَا أَذْنَى مَسٍّ مِنْ تَعَبٍ أَوْ كَلَلٍ أَوْ إِعْيَاءٍ.

هَذِهِ الْآيَةُ دَرَسٌ إِنْحَاقِيٌّ نَزَلَ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ حِينَ أَثَارَ الْيَهُودُ مَقُولَتَهُمُ الْاِفْتِرَاطِيَّةَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الَّتِي زَعَمُوا فِيهَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ جَلَسَ يَسْتَرِيحُ يَوْمَ السَّبْتِ.

وَضُمَّ هَذَا الدَّرْسُ إِلَى سُورَةِ (ق) الْمَكِّيَّةِ مُرَاعَاةً لِلْمُنَاسَبَةِ الْفِكْرِيَّةِ، وَلَمْ يَنْزَلْ هَذَا الدَّرْسُ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ مَقُولَةٌ عَنِ اللَّهِ تَشْبَهُ هَذِهِ الْمَقُولَةِ الْيَهُودِيَّةِ.

وَوُضِعَتْ آيَةُ هَذَا الدَّرْسِ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الدَّرُوسِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ فِي السُّورَةِ عَلَى مُعَالَجَةِ الْمُصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ، لَثَلَا يَتَصَوَّرُ الْمُتَدَبِّرُ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنَّ مَقُولَةَ الْيَهُودِ الْاِفْتِرَاطِيَّةَ هِيَ إِحْدَى شَبَهَاتِ مُشْرِكِي مَكَّةَ.

إِنَّ شُبُهَةَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَعَبَ وَكَلَّ، بَعْدَ أَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بينهما في سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَأَنَّهُ جَلَسَ لِيَسْتَرِيحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، فَجَعَلَهُ مُقَدَّسًا، لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً عِنْدَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، فَلَمْ تَكُنِ الْحَاجَّةَ دَاعِيَةً لِإِنْزَالِ آيَةٍ هَذَا الدَّرْسِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِلْيَهُودِ فِيهِ مَوَاجِهَةٌ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَدَعَا الْيَهُودَ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، أَثَارَ الْيَهُودَ مَقُولَتَهُمُ الْإِفْتِرَافِيَّةَ عَلَى اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ هَذَا الدَّرْسِ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَمَرَ الْوَحْيُ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنْ يَضَعَهَا فِي سُورَةِ (ق) وَعَقِبَ الْآيَةِ (٣٧) مِنْهَا.

وَلَمْ يَجْعَلْهَا عَقِبَ: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لُبِّسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥) لِّئَلَّا يُفْهَمَ أَنَّهَا مَقُولَةٌ قَالَهَا عَرَبٌ مَكَّةَ تَأْثُرًا بِمَقَالَاتِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْهَا.

فَكَانَ تَأْخِيرَ مَوْضِعِهَا الَّذِي يُشَبِّهُ التَّعْقِيبَ وَالِاسْتِدْرَاكَ، دَلِيلًا عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَقُولَةً عَرَبِيَّةً، وَإِنَّمَا كَانَتْ مَقُولَةً يَهُودِيَّةً.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ (ق) مَدَنِيَّةٌ، أَمَّا سَائِرُ آيَاتِ السُّورَةِ فَمِنَ التَّنْزِيلِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ.

وَقَدْ دَسَّ الْيَهُودَ مَقَالَاتِهِمُ الْكَاذِبَةَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ، فِي أَوَّلِ الْإِصْحَاحِ الثَّانِي مِنْهُ، فَقَدْ جَاءَ فِيهِ:

«فَأَكْمَلْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكُلَّ جُنْدِهَآ. وَفَرَعْتُ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَّاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ. لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَّاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللَّهُ خَالِقًا».

لَقَدْ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُتَعَبُهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَحْتَاجَ

إلى الاستِراحة كما تحتاج مخلوقاته التي خلقها بصفات تحتاج معها إلى الاستِراحة إذا عملت عملاً فيه اجتهاد وكذب وكذ.

إنما أمره جلّ جلاله وعظم سلطانه: إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

ما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره فقامسوه على أنفسهم، وتعالى الله عما قالوا علواً كبيراً، وسبحانه عما يصفون.



(١٦)

### التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس السورة وهو الآيات من (٣٩ - ٤٥) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ۝٤٠ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ نَشَقُّقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾.

#### القراءات وتوجيهها:

● قرأ نافع، وابن كثير، وحمزة، وأبو جعفر، وخلف: ﴿وَأَدْبَرَ﴾ وإدبار السُّجُودِ بكسر همزة [إدبار] وهو مضدّر أذبر بمعنى ذهب وولى، أي: بعد انتهاء الصلاة، وهذا يعُم كل صلاة.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ بفتح همزة ﴿وَأَدْبَرَ﴾ وهو جمع "دبر" ودبر الشيء في اللغة عقبه ومؤخره، أي: في أعقاب الصلوات.

أُطْلِقَ لفظ «السُّجُودِ» وأُرِيدَ به الصلاة، لَأَنَّ السُّجُودَ أَكْبَرُ أَزْكَانِ الصَّلَاةِ الْعَمَلِيَّةِ، فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَمُؤَدِّي الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ. وَهُمَا تَفْنَنُ فِي التَّعْبِيرِ جَمِيلٌ.

● وَقَرَأْ نَافِعٌ، وَابْنُ كَثِيرٌ، وَابْنُ عَامِرٌ، وَأَبُو جَعْفَرٌ، وَيَعْقُوبُ:

﴿تَشَقَّقُ الْأَرْضُ﴾ بِتَشْدِيدِ «الشَّيْنِ» أَصْلُ الْكَلِمَةِ «تَشَقَّقُ» فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ بِالشَّيْنِ فَصَارَتْ شَيْئاً مُشَدَّدةً، وَهَذَا وَجْهٌ عَرَبِيٌّ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ، يُؤَكِّدُ مَعْنَى التَّكَلُّفِ فِي دَلَالَةِ صِيغَةِ «يَتَفَعَّلُ».

وَقَرَأَ بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ ﴿تَشَقَّقُ﴾ بِتَخْفِيفِ الشَّيْنِ، أَصْلُ الْفِعْلِ «تَتَشَقَّقُ» حَذَفَتِ التَّاءُ تَخْفِيفاً، وَإِشَارَةً إِلَى عَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّكَلُّفِ فِي الْحَدَثِ.

وَبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، فَبَعْضُ أَمَاكِنَ مِنَ الْأَرْضِ صُلْبَةٌ قَاسِيَةٌ، يَحْتَاجُ خُرُوجُ الْمَوْتَى مِنْهَا إِلَى أَنْ تَتَشَقَّقَ الْأَرْضُ عَنْهُمْ بِتَكَلُّفٍ وَشِدَّةٍ، فَجَاءَتْ قِرَاءَةُ ﴿تَشَقَّقُ﴾ دَالَّةً عَلَى هَذَا، فَالتَّكَلُّفُ مِنْ دَلَالَاتِ صِيغَةِ فِعْلٍ «تَفَعَّلَ يَتَفَعَّلُ» وَيَزِيدُ بِالْإِدْغَامِ.

وَبَعْضُ أَمَاكِنَ مِنَ الْأَرْضِ رَخْوَةٌ لَيِّنَةٌ، لَا يَحْتَاجُ خُرُوجُ الْمَوْتَى مِنْهَا عِنْدَ الْبَعْثِ إِلَّا أَنْ يَخْذُثَ فِيهَا تَشَقُّقٌ يَسِيرٌ لَا تَكَلُّفَ فِيهِ، فَجَاءَتْ قِرَاءَةُ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بِتَخْفِيفِ الشَّيْنِ وَحَذَفِ التَّاءِ دَالَّةً عَلَى هَذَا.

● كَلِمَةُ [يُنَادِي] جَمِيعُ الْقُرَّاءِ يَخْذِفُونَ فِي الْوَصْلِ يَاءَ الْفِعْلِ الْأَخِيرَةِ، لِالْتِقَاءِ السَّاكِنِينَ.

وَأَمَّا فِي الْوَقْفِ فَلِلْقُرَّاءِ فِيهَا وَجْهَانِ: الْإِثْبَاتُ وَالْحَذْفُ.

فَابْنُ كَثِيرٍ لَهُ فِيهَا الْوَجْهَانِ مَعاً. وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَلَهُ فِي الْوَقْفِ وَجْهٌ الْإِثْبَاتُ فَقَطْ، وَأَمَّا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشْرَةُ فَلَهُمْ فِي الْوَقْفِ وَجْهُ الْحَذْفِ فَقَطْ.

وهي وجوه من الأداء تَبَعَ فيها القُرَاءُ ما تَلَقَّوْهُ، إلى رُسُولِ اللَّهِ ﷺ، مُعَلِّمٍ نُطِقَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ.

● وكلمة [المنادي] للقراء في يائها وجهان: الإثبات والحذف.

أَمَّا نَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَأَبُو جَعْفَرٍ، فَقَدْ أَثْبَتُوا الْيَاءَ فِي الْوَصْلِ، وَحَذَفُوهَا فِي الْوَقْفِ، بِحَسَبِ مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ أَدَاءٍ.

وَأَمَّا ابْنُ كَثِيرٍ، وَيَعْقُوبُ، فَقَدْ أَثْبَتَا الْيَاءَ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ، بِحَسَبِ مَا تَلَقَّيَا مِنْ أَدَاءٍ.

● وَأَمَّا بَاقِي الْقُرَاءِ فَقَدْ حَذَفُوا الْيَاءَ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ بِحَسَبِ مَا تَلَقَّوْا مِنْ أَدَاءٍ.

● وعبارة: [وَعِيدِي] للقراء في ياء المتكلم منها وجهان: الإثبات والحذف، بحسب ما تَلَقَّيَ كُلُّ مِنْهُمْ.

فقراءة «وَرَشٍ» على إثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف.

وقراءة «يَعْقُوبُ» على إثبات الياء في حالتي الوصل والوقف.

وقراءة باقي القراء العشرة على حذف الياء مطلقاً وصلاً ووقفاً.

### التدبر:

هذا هو الدرس الأخير من دُرُوسِ السُّورَةِ، وهو يشتمل على معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيَّة والقلبيَّة في المقصد الأول، تجاه ما يلقاه من قومه الَّذِينَ كَذَّبُوهُ فِي بُيُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَكَذَّبُوا بِبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ.

ويشتمل في المقصد الثاني على تربية حَمَلَةِ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أُمَّتِهِ.

ويشتمل في المقصد الثالث على متابعة معالجة مُكَذِّبِي الرَّسُولِ،

والمكذّبين بيوم الدين، مع الإعراض عن مواجهتهم بالخطاب، إذ ظاهر الخطاب مُوجّه للرّسول ﷺ.

● قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

في هذه الجملة تربية من الله عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ، بأن يصبر على مقالات المكذّبين له من قومه، التي يتهمونه فيها، بالكذب في ادّعاءه أنّه نبيّ الله ورسوله، وفي قوله: إنّ القرآن الذي ينثّله عليهم هو من عند الله عزّ وجلّ، أمره الله بأن يبلغه للناس، وفي بياناته عن البعث ويوم الدين<sup>(١)</sup>.

ففي الصبر تدريب للإرادة النفسيّة، يُكسبها قوّة على تحمّل المكاره، ومواجهة الصّعوبات، ومقاومة هجمات المصارعين من المخالفين والأعداء، وقُدرة على عدم الاكتراث للمزعجات النفسيّة، وعدم المبالاة بالمشيرات الوافدات من الخارج.

إنّ الصّبر يُكتسب بالتّصبر، والحِلْم يُكتسب بالتّحلّم، والعِلْم يُكتسب بالتّعلّم، وكلّ ذلك على مقدار ما لدى الإنسان من قابليّة فطريّة للاكتساب، والناس متفاضلون فيما بينهم في قابليّات اكتساب الفضائل، والرّسول محمّد ﷺ أكمل الناس خلقاً وفطنةً وعقلاً، وأكثرهم قابليّة لاكتساب الفضائل والاستزادة منها، بحسب الفطرة الرّبانيّة التي فطره الله عليها.

والخطاب الموجّه للرّسول في هذا، مُوجّه تبعاً لحملّة رسالة الرّسول من أمّته، فهُم مأمورون بالصّبر، كلّما واجهوا ما يسوؤهم من الذين يؤدّون

(١) انظر «المقولة الثالثة» من «الفصل الأول» من «الباب الثاني» من كتاب «فقه الدعوة إلى الله» للمؤلف. وهي مقولة حول النصوص القرآنية الموجهة للرّسول، التي يأمره الله فيها بالصّبر، ففيها بيان شامل لكلّ النصوص الموزعة في السور بحسب نجوم التنزيل.

الرَّسَالَةَ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا لَهُمْ، دَعْوَةً إِلَى اللَّهِ، أَوْ نُصْحاً أَوْ إِرْشَاداً، أَوْ أَمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

إِنَّ الإرادة متى بَلَغَتْ من القوة مبلغ الصُّمود الحكيم، تحطَّمت على كتلتها الألماسية قُرُونُ أقوال مقاومي دعوة الحق، ومصارعيها، مهما كان فيها من شتائم واتهامات، وألوان هُزء وسُخرية.

● قول الله تعالى: ﴿وَسَيَحِبِّحَ مُحَمَّدٌ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنْ أَلَيْلٍ فَسَيَحِبُّهُ وَأَذْبَرَ الشُّجُورَ ۚ﴾.

بعد أن أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بالصَّبْر، وَيُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلَةٍ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَعْطَى اللَّهُ رَسُولَهُ وَمَنْ هُمْ مُلْحَقُونَ به، الدَّوَاءَ اليَوْمِيَّ الَّذِي يَسَاعِدُ عَلَى التَّحَلِّيِ بالصَّبْرِ، وَيُضَرِّفُ عَنِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ الْمَشَاعَرَ وَالْأَحَاسِيسِ وَالْأَفْكَارِ غَيْرِ السَّارَةِ، الَّتِي تُؤْلَمُ فِي الْعَادَةِ الصَّادِقَ حِينَما يُكَذِّبُ، وَالْأَمِينَ حِينَما يُخَوِّنُ، وَالْعَلِيمَ حِينَما يُجْهَلُ، وَالْهَادِيَ الْمَهْتَدِيَّ حِينَما يُضَلُّ، وَالذَّكِيَّ الْحَصِيفَ الْعَاقِلَ الرِّصِينَ حَامِلَ لِيَوَاءِ الْحَقِّ وَالِدَّاعِيَّ إِلَيْهِ، حِينَما يُتَّهَمُ بِالْجُنُونِ.

﴿وَسَيَحِبِّحَ مُحَمَّدٌ رَبِّكَ ۚ﴾: أَي: وَسَبِّحَ رَبِّكَ تَسْبِيحاً مُقْتَرِناً وَمُلْتَبِساً بِحَمْدِهِ، وَمَصَاحِباً لَهُ.

تسبيح الله: هو تَنْزِيهِه وتقديسه عن كلِّ ما لا يليق به جَلَّ جلاله، من صفات النقص التي تتنافى مع أزلّيته ووحْدانيّته، وكمالِ صفاته الوجودية فالتسبيح تمجيدٌ بالصفات السلبية، بخلاف «التَّوْقِير» فهو التمجيد بالصفات الوجودية.

والحمد لله: هو الثناء على الله بما هو له أَهْلٌ مِنْ صفاتِ كمالٍ، وبما هو مُنْزَعٌ عَنْهُ مِنْ صفاتِ نقص.

والباء في: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ معناها الملازمة والمصاحبة والمقارنة.

والعبارة التي يتحقق بها المأمور به من التسبيح المقرون بالحمد لها  
عدة صيغ:

● سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

● سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وهذه العبارة مختصرة من جُمْلَتَيْنِ  
تقديرهما: أَسَبِّحُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَأُحْمَدُ بِحَمْدِهِ.

وعبارة «سُبْحَانَ اللَّهِ» عبارة ارتضى الله لعباده أن يذكره بها في تنزيه  
ذاته وصفاته عما لا يليق به.

وهاتان عبارتان مأثورتان، ومن المأثور في التسبيح: «سُبْحَانَ رَبِّي -  
سبحان الله رَبَّ العرشِ عَمَّا يَصِفُونَ - سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ -  
سبحان الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ...» إلى غير ذلك من  
عبارات تتضمن تسبيح الله.

واختير من أسماءِ اللَّهِ اسْمُ «رَبِّ» في ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لآتِهِ  
الاسم الجامع لمعاني أسماءِ الله الحسنى ذات العلاقة بالخلائق.

وجاء في هذا العلاج التوصية باستعماله في جرعات يومية، بأوقات  
مبيّنة في النص، هي:

(١) ما قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وهو وقت صلاة الفجر.

(٢) ما قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وهو الوقت الذي جاء تحديده فيما بعد  
لصلاة العصر.

(٣) في وقتٍ ما من اللَّيْلِ.

(٤) عَقِبَ الصَّلَوَاتِ.

وقد أنزل الله هذا النص قبل فرض الصَّلوات الخمس، فالمراد بعبارة  
﴿وَأَذِّنْ لِلشُّجُودِ﴾ بَعْدَ الصَّلوات التي كان يُصَلِّيها الرَّسُول ﷺ قبل فرض



الصَّلَوَاتِ الخمس الذي كان في ليلة الإسراء، وكان يُصَلِّيها مثله من آمن به ودخل في الإسلام.

وعِلَاجُ النَّفْسِ بالتَّسْبِيحِ والذِّكْرِ لله عزَّ وجلَّ عِلَاجٌ عَظِيمٌ بالنَّسْبَةِ إلى المؤمنين، فهو مُهْدِيٌّ، وغذاءٌ لِلْجُمْلَةِ العَصِيَّةِ يَنْبَعثُ مِنْ عُمُقِ الْفَوَادِ، وصَارِفٌ لِلْفَكْرِ عن الاشتغال بما يُقْلِقُ وَيُخْزِنُ وَيُؤْلِمُ.

إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُمِدُّ الذَّاكِرِينَ له، الْمُسَبِّحِينَ بِحَمْدِهِ بِمَدَدٍ مِنْ لَدُنْهِ، يُرِيحُهُمْ وَيُسَعِدُهُمْ، ولا سيما إذا كانت العوارض المؤلمة عوارضَ نَفْسِيَّةٍ.

● قول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

ظاهر الخطاب في ﴿وَأَسْتَمِعْ﴾ مُوجَّهٌ لِلرُّسُولِ ﷺ، والمطلوبُ أَنْ يَسْمَعَهُ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ يَدُلُّ عَلَى لَقَطَاتٍ لَمْ يَأْتْ بَيَانُهَا فِيمَا سَبَقَ مِنْ أَخْدَاتٍ بَعَثَ الْخَلَائِقَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، للحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويبدو أَنَّ المقصودَ ضَمْنًا بِالْخَطَابِ بصيغة الأمر: ﴿وَأَسْتَمِعْ﴾ هو منكر البعث، وهو خطاب موجَّه لكل منكر على التناوب بأسلوب الخطاب الإفرادي، ولكنْ أَعْرَضَ اللهُ عَنْ مَوَاجَهَتِهِ بِالْخَطَابِ المباشر لعناده، ووجَّه الخطابَ لِلرُّسُولِ بقوة.

وهذا أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ عِلَاجِ الْمَكْذِبِينَ الَّذِينَ يَتَّهَمُونَ الرُّسُولَ بِأَنَّهُ يَقُولُ كَلَامًا غَيْرَ مَعْقُولٍ، وَيُخْبِرُ بِأَنْبَاءٍ غَيْرَ مُمْكِنَةِ الْحَصُولِ، فجاء توجيه الخطاب الرَّبَّانِيَّ لَهُ مُبَاشَرَةً، بصورة تُشْعِرُ الْمَكْذِبِينَ بِأَنَّ اللهَ يُرِيدُ تَثْبِيتَ رِسُولِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بيوم الدِّينِ، مهما واجَهَ مِنْ كِبَرَاءِ قَوْمِهِ مِنْ تَكْذِيبٍ، فعليه أَنْ لَا يَغْبَأَ بِاتِّهَامَاتِهِمْ وَشَتَائِمِهِمْ لَهُ.

أي: إِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْ صِنَاعَةِ النَّبَأِ، بل نَبَأُ يَوْمِ الْبَعْثِ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يُمَلَّى عَلَيْهِ تَنْزِيلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ بَارِئُهُ، وهذا

الخطابُ الرَّبَّانِيُّ يُوجِّهُ له بقوةً وشدةً، فهو المخاطبُ به أولاً، ويجب عليه أن يؤمن به قَبْلَ سائرِ المكلفين أن يُؤْمِنُوا به، ثم هو مكلفٌ أن يَدْعُو الناسَ إلى الإيمان به.

وهذا أسلوبٌ علاجيٌّ للإقناع بصِدْقِ الرسول ﷺ أكثرَ نفاذاً إلى عُقْرِ أَفئدةِ مُكذِّبيه، وإن أَصْرُوا على مَوقفهم عناداً ومكابرةً.

والمعنى الذي يُومئُ إليه هذا الأسلوبُ يمكن التعبير عنه بما يلي: استَمِعُوا أيُّها المكذَّبون، هذا رَسُولُنَا تُخاطبُهُ بهذا الخطابِ الجازم الحازم بشأنَ بَعْضِ أحداثِ يومِ الدين، تثبِيتاً له، بَعْدَ أن اتَّهَمْتُمُوهُ وَشَتَمْتُمُوهُ.

يُضَافُ إلى هذا أنَّ من أساليب خطابِ الأُمَّة خطابَ قائدها، أو إمامها أو رسولها.

فَخِطَابُ الله لرسوله في أمرٍ من أمورِ الدين العامة التي لا خُصوصِيَّةَ للرسول به، هو خطابٌ لكلِّ أُمَّةٍ دَعَوْتُهُ، مَنْ استجابَ وَمَنْ لم يستجب.

وقد جاء في هذا البيان الرَّبَّانِيُّ بيانٌ ثلاثة أحداثٍ متتالياتٍ من أحداثِ البعثِ إلى يومِ الحسابِ وفصلِ القضاء.

**الْحَدَّثُ الْأَوَّلُ:** نداءٌ يصدرُ من مكانٍ قريبٍ يناديه منادٍ بأمرِ الله، لِبَعْثِ الموتى إلى الحياة الأخرى، وهذا النداءُ يَصِلُ إلى كُلِّ مبعوثٍ.

فهل هو نَفْخُ الصُّورِ النفخة الثانية، أو هو نداءٌ يَخْذُثُ بَعْدَهَا؟ الله أَعْلَمُ، إذ لَيْسَ لدينا بيانٌ عن الرُّسُولِ ﷺ في هذا، والتَّصَرُّفُ يحتملُ الأمرين، دَلٌّ عليه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمَنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

**الحدث الثاني:** سماعُ كُلِّ الْمَبْعُوثِينَ صَنِحَةَ النداءِ بِالْحَقِّ، وهو الخروجُ من الأجداثِ، والتوجُّهُ لمحكمةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، دَلٌّ عليه: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وبهذا السَّماعِ يَحْيَوْنَ كما يَسْتَيْقِظُ النَّائمُ من نومه.

**الحدث الثالث:** استجابة المبعوثين للمطلوب منهم في النداء، إذ يَخْرُجُونَ من أجداثهم، ويتوجَّهُونَ لِمَا أُمِرُوا بأن يتوجَّهُوا له، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ بعد رحلة البرزخ بين الموت والبعث.

فالمعنى: يَوْمُ النِّدَاءِ، وَيَوْمُ سَمَاعِ الصَّيْحَةِ، هُوَ يَوْمُ الْخُرُوجِ، لملاقاة ظروف الحياة الأخرى. وبهذه المناسبة جاء البيان التالي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (٤٣).

في هذه الآية تذكير مع تأكيد مُشَدَّدٍ مقرون باستعمال ضمير المتكلم العظيم خمس مرّات، بَعْنُصْرَيْنِ من عناصر القاعدة الإيمانية:

**العنصر الأول:** أَنَّ المحيي والمميت هو الله وحده بعظمة ربوبيته، لا شريك له، فَمَنْ أَحْيَا أَوَّلًا ثُمَّ أَمَاتَ، فَلَا عَجَبَ أَنْ يُعِيدَ مِنْ أَمَاتِهِ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى، لِيَلَاقِيَ حَسَابَهُ، وجزاءه على ما قَدَّمَ في الحياة الأولى، الَّتِي كَانَتْ رَحَلَةً امتحانه.

**العنصر الثاني:** أَنَّ المصير بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدُّنْيَا، إِلَى الرَّبِّ الْخَالِقِ، الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ لِيَلْبُوهُمْ أَتْيُهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

هنا يردُّ سؤالٌ فلسفيٌّ عقليٌّ وهو: ما معنى كون المصير إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ، والكائنات جميعها خاضعة لسلطان ربوبيته دواماً في كُلِّ مراحل وجودها؟.

● ألسنا نحن الآن خاضعين لسلطان ربوبيته!!؟

● ألسنا في رحلة البرزخ خاضعين لسلطان ربوبيته!!؟

● وكذلك نحن يوم الحساب وفصل القضاء خاضعون لسلطان ربوبيته جَلَّ جلاله، وعظم سلطانه.

إِذَنْ فَمَا مَعْنَى الْمَصِيرِ إِلَيْهِ وَالْمَخْلُوقُ فِي كُلِّ مَرَاكِلِ وجوده حيّاً وميتاً خاضع لسلطان ربوبيته دواماً!!؟

## أقول:

لدى التأمل بتدبرٍ عميق نلاحظُ أَنَّ الممتَحِنين المكلَّفين في الحياة الدنيا، قد أعطاهم الله جلَّ جلاله حرِّيَّة الإرادة، التي يختارون بها ما يشاءون من طريق الخير، أو مسالك الشرِّ، وسخر لهم في ذواتهم وفي الكون من حولهم الأشياء، والقوى التي يُنقذون بها مراداتهم، ما لم تتعارض مع قضاء الله وقدره العام، فهم يشعرون بأنَّ مصائر مطالب نفوسهم بأيديهم.

لكنَّهم يوم الحساب وفضل القضاء لا تكون لهم حرِّيَّة اختيار، إذ كُلُّ ما يجري في ذلك اليوم خاضعٌ بالجبر لسُلطان ربوبيَّة الرَّبِّ جلَّ جلاله وعظُم سلطانه، وهذا مصير إليه وخده بَعْدَ رحلة التخيير والتسخير، وقد كان الممتَحِن في هذه الرحلة يختار لنفسه على ما يشاء، إذ جعل الله له ذلك، دون أن يتدخَّل بالجبر فيما منَحَه فيه التخيير.

إذن: فاللَّهُ وحده دون تدخُّل إرادة المخلوق يومئذٍ يكون المصير، على أنَّ المصير إلى الله وحده يبدأ منذ انتهاء رحلة الحياة الدنيا، وابتداء رحلة البرزخ بين الموت والبعث، لأنَّ بغضَّ الجزاء الجبري يبدأ عقب الموت مباشرة.

قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٤٤).

في هذه الآية إضافة بيان ثلاثة أحداث أخرى من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

**الحدث الأول:** تَشَقُّقُ الْأَرْضِ عَنِ الَّذِينَ كَانُوا مَوْتَى لِيَنْبُتُوا مِنْهَا كَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ فِي الْأَرْضِ، دَلٌّ على هذا الحدث: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ وسبق توجيه قراءتي: ﴿تَشَقُّقُ﴾ [تَشَقُّقُ].

**الحدث الثاني:** خُرُوجُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ سِرَاعًا، دون إبطاء في الزَّمن،

وهو يَدُلُّ على أَنَّ إِنْبَاتَهُمْ فِي الْأَرْضِ لِبَعْثِهِمْ لَا يَحْتَاجُ زَمَنًا طَوِيلًا لِتَتَكَامَلَ أَجْسَادُهُمْ فِيهِ، بَلْ هِيَ تَتَكَامَلُ بِسُرْعَةٍ، دَلٌّ عَلَى هَذَا الْحَدَثِ: ﴿سِرَاعًا﴾ أي: خارجين من الأرض سرعاً.

سِرَاعًا: جَمْعُ سَرِيعٍ، وَجَمْعُ سَرِيعَةٍ. يُقَالُ لُغَةً: سَرُعٌ يَسْرُعُ سَرَاعَةً وَسُرْعَةً وَسَرْعًا، أَيْ عَجَلًا، فَهُوَ سَرِيعٌ، وَهِيَ سَرِيعَةٌ، وَالْجَمْعُ لِهَمَا «سِرَاعٌ» وَجَاءَ اللَّفْظُ فِي النَّصِّ مَنْصُوبًا لِأَنَّهُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿عَنْهُمْ﴾ وَقَدْ يَدُلُّ هَذَا الْحَدَثُ عَلَى أَنَّ خَلْقَ أَجْسَادِهِمْ يَتَكَامَلُ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ الْأَرْوَاحُ إِلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ تَعُودُ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا.

الْحَدَثُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ يُخْشَرُونَ، أَيْ: يَجْمَعُونَ فِي الْمَحْشَرِ، الْمَخْصَصِ لِتَجْمِيعِهِمْ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ نَبَتْوا فِي الْأَمْكَنَةِ الَّتِي مَاتُوا فِيهَا، بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ بِعِيدِينَ عَنِ أَرْضِ الْمَحْشَرِ.

وَحَشَرُهُمْ يَكُونُ فِي مَكَانٍ جَامِعٍ بِحَسَبِ أَصْنَافِهِمْ وَزَمَرِهِمْ.

الْحَشَرُ فِي اللَّغَةِ: الْجَمْعُ وَالسُّوقُ. يُقَالُ: حَشَرَ الْأَمِيرُ جُنْدَهُ يَحْشَرُهُمْ وَيَحْشِرُهُمْ حَشْرًا، أَيْ: جَمَعَهُمْ وَسَاقَهُمْ.

وَيَوْمَ الْحَشْرِ، وَيَوْمَ الْمَحْشَرِ، هُوَ يَوْمُ جَمْعِ النَّاسِ وَسَوْقِهِمْ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبَعْدَهُمَا يَكُونُ تَنْفِيزُ الْجَزَاءِ.

دَلٌّ عَلَى حَدَثِ الْحَشْرِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وَالْمِشَارُ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَلِكَ﴾ مَطْوِيٌّ فِي النَّصِّ غَيْرُ مَذْكُورٍ، وَالتَّقْدِيرُ: يَوْمَ تَشَقُّقِ الْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا سِرَاعًا، وَيُخْشَرُونَ فِي الْأَرْضِ الْمَخْصَصَةِ لِلْحَشْرِ، ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ، وَمِثْلُ هَذَا الطَّيِّ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِيجَازِ الْمَعْرُوفِ وَالْمَتَكَرِّرِ فِي أَسَالِيهِ.

إِنَّ الْخَالِقَ الْقَادِرَ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنَ الْعَدَمِ، وَالْقَادِرَ عَلَى الْإِعَادَةِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْإِمَاتَةِ، قَادِرٌ عَلَى حَشْرِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ الْمَخْصَصَةِ لِجَمْعِ

الناس، توطئة لمحاسبتهم وفصل القضاء فيما بينهم، وهو حشرٌ يسيرٌ عليه.  
وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أَنَّ النَّاسَ يُخْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا (أي: غَيْرَ مَخْتُونِينَ).

روى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. قالت:  
قال رسول الله ﷺ:

«تُخْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا».

قالت: فقلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى  
بَعْضٍ، فَقَالَ:

«الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ».

● قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ  
بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

● ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: في هذه الجملة تسليّة وطمأنة من الله عزّ  
وجلّ، بعظمة ربوبيته - أخذاً من ضمير المتكلم العظيم - للرسول  
محمد ﷺ، بشأن مقالات كُبراء كفار قومه فيه، المؤذية لنفسه، بما فيها من  
اتهامات وشتائم له.

أي: نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْكَ وَمَنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِمَا يَقُولُونَ مِنْ مَقَالَاتٍ فِي  
تَكْذِيبِكَ وَاتِّهَامِكَ وَسِبَابِكَ.

وفي هذا كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ جَلُّ جَلَالِهِ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ سَيَنْتَصِرُ لَهُ مِنْهُمْ،  
وفيه أيضاً تهديدٌ ووعدٌ من الله لهم، فَلْيَتَرَقَّبُوا انتقام الله منهم إِذَا لَمْ يَتُوبُوا  
وَلَمْ يَقْلَعُوا عَنْ إِذَاءِ رَسُولِهِ، ومقابلته على دعوته لهم بما يكره.

● ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾: في هذه الجملة يُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
لرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولٌ يُبَلِّغُ النَّاسَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يَبْلَغَهُمْ إِيَّاهُ، وَأَنَّهُ

لَمْ يُكَلِّفْ أَنْ يُجْبِرَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَمَا هُوَ مُرْسَلٌ لِأَنْ يَكُونَ جَبَّارًا مُسْلِطًا عَلَيْهِمْ بِالْقَهْرِ، وَمُكْرِهَا لَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ.

أي: إنهم في رحلة امتحان، والامتحان من لوازمه العقلية التخيير، أما الجبر والإكراه والقهر فأمور تتناقض مع الامتحان والتخيير، ولو شاء الله جل جلاله ذلك لسلبهم التخيير، ولجعلهم مجبورين، وعندئذ فلا بد أن يكونوا جميعاً مطيعين له، لا يعضون الله فيما أمرهم به، ويفعلون دوماً ما يؤمرون، كالملائكة، لكنهم نوع آخر، إنهم مخلوقون للامتحان، فهم ذوو إرادات حرة تختار، دون جبر ولا إكراه.

● ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾: أي: وبما أنك لست عليهم بجبارٍ مُكْرِهٍ لهم على الإيمان والإسلام، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ بَلَّغْتَهُمْ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِأَنْ تُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَا أُنْزِلُنَاهُ عَلَيْكَ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ لِسُورَةِ (ق) فَإِنَّ وَظِيفَتَكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ الْمَعَانِدِينَ، هِيَ التَّذْكِيرُ بِمَا سَبَقَ أَنْ بَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ، وَهَذَا التَّذْكِيرُ تَوَجَّهَ فَقَطْ لِمَنْ لَمْ يَبْلُغُوا إِلَى حَالَةِ مِئْوُوسٍ مِنْهَا. أَمَّا الَّذِينَ بَلَّغُوا إِلَى حَالَةِ مِئْوُوسٍ مِنْهَا فَلَا تُضِغْ وَقْتُكَ وَجَهْدَكَ بِتَذْكِيرِهِمْ.

إِنَّ المِئْوُوسَ مَنْ اسْتَجَابَتْهُمْ لِدَعْوَتِكَ هُمُ الَّذِينَ تُذَكِّرُ مَنْ تَصَرَّفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ وَعِيدَ اللَّهِ بِالْعِقَابِ، بَلْ يَعَانِدُونَ وَيُكَابِرُونَ، وَأَنْتَ لَا تَرْجُو مُسْتَقْبَلًا أَنْ يَخْصُلَ لَدَيْهِمُ الْخَوْفُ مِنْ وَعِيدِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ.

هذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ فِعْلُ الْمَضَارِعِ ﴿يَخَافُ﴾ أي: تشعر بأنه يخاف الآن، أو ترجو أو تطمع بأن يخاف مستقبلاً، لأمارات خير تلاحظها فيه.

وبهذا انتهى تدبر السورة على ما فتح الله به.



## ملاحق لسورة (ق)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: الوصف بالبركة في القرآن المجيد.

(١٧)

## الملحق الأول

## مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (ق) بلاغيات متنوعة، فتح الله عليّ باستخراج ما يلي منها:  
أولاً:

الْقَسْمُ بما يضلح لأن يكون دليلاً على صحة المقسّم عليه وصدقه.

فقد جاء في صدر السورة القسم بالقرآن المجيد على أن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً، وعلى أن خبر البعث إلى يوم الدين حقٌ وصدق.

ومن المعلوم أن إعجاز القرآن في مبانيه وفي معانيه، دليل قاطع لدى من تلقاه بوعيٍ وتدبرٍ، على صدق كون محمدٍ نبياً ورسولاً مرسلًا من الله العزيز الحكيم، وعلى صدقه في كل ما يبلغه عن ربه، ومنه نبأ البعث بعد الموت إلى يوم الدين.

ثانياً:

الإيجاز البديع القائم على طي عبارات يمكن أن يدرك المتدبر دلالاتها بالاستنتاج، إذ تقتضيها المذكرات في النص، أو يتوصل إليها باللوازم الفكرية، أو بدلالة التقابل التكاملي في العبارة أو العبارات:

- فمن المطويات: حذف جواب القسم: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ وتقديره: إِنَّ محمداً لرسول الله حقاً وصدقاً، وهو صادق فيما بلغ عن ربه، ومنه نبأ البعث إلى يوم الدين بغد الموت.



● ومن المطويات: ولم يستفد المكذبون من دلالة إعجاز القرآن، ﴿بَلْ يَجْعَلُونَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾.

● ومن المطويات: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا﴾ ﴿سَوْفَ نُزْجِعُ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

● ومن المطويات: من شبه هؤلاء الكافرين لإنكار البعث، توهمهم أننا لا نعلم ما يتفرق في الأرض من رفات أجساد الموتى حتى نجتمعها ونعيد خلقها، والحق أننا ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

● ومن المطويات: إن منكري رسالة محمد من قومه ومنكري البعث، لم يكونوا باحثين عن الحق، ولا شاكين من غمق قلوبهم في صديق الرسول وصدق بلاغاته عن ربه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

● ومن المطويات: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ ﴿إِنَّ الْوَاقِعَ الْمَشَاهِدَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّا لَمْ نَعْجَزْ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، فقد أوجدناه، وما نزال دواماً نُهَيِّمُ عَلَيْهِ بِسُلْطَانِ رَبُّوبِيَّتِنَا﴾ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾.

● ومن المطويات: ومن شبههم التي جعلتهم يُنكرون الجزاء يوم الدين، توهمهم أننا لا نحيط علماً بكل أعمالهم، ولا سيما ما يستخفون به، وما تُكِنُّهُ صُدُورُهُمْ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ بِعِلْمِنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿فَنَحْنُ نَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ ﴿إِذْ يَتْلَى الْمُتْلَفَيْنِ﴾ ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿قَعِيدٍ﴾ ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ﴿وَمَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ﴾ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾.

● ومن المطويات: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ ﴿مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنَّ﴾ ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فاخصم الكافر وقرينه من شياطين الجن ﴿قَالَ﴾ ﴿اللَّهُ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾.

● ومن المطويات: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ وحين أنزلنا عليهم وسائل التعذيب والإهلاك ﴿هَلْ كَانَ لَهُمْ مِنْ مَخِيصٍ﴾.

● ومن المطويات: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ فيخرجون ﴿سِرَاعًا﴾ ونسوقهم ونجمعهم في الأرض المخصصة محشراً، مهما نأت عنه الأجداث التي كانوا فيها ف ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

### ثالثاً:

استعمال ضمير المتكلم العظيم في البيانات التي تتضمن التحدث عن ظاهرة من ظواهر ربوبية الله جلّ جلاله، وعظم سلطانه، نجد هذا فيما يلي:

﴿بَنَيْنَاهَا وَرَبَّنَاهَا﴾ و﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) و﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْدِرًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ و﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ و﴿أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ و﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ و﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ و﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ و﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ و﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ و﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (٤٣) و﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ و﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

### رابعاً:

تأكيد الخبر ببعض المؤكّدات، لأن مقتضى حال المقصودين بالخطاب يستدعي التأكيد، ونجد هذا فيما يلي:

(١) التأكيد بالقسم في عبارة: ﴿وَالْقُرْآنُ الْغَيْدِ﴾.

(٢) التأكيد بـ «قد» في عبارتي: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ و﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾.

- (٣) التأكيد بـ «لقد» في عبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وفي عبارة: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ وعبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾.
- (٤) التأكيد بالمؤكدات: «إِنَّ» والجملة الاسمية - واللام المرحلة «في عبارة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾.
- (٥) التأكيد بمؤكدين: «إِنَّ والجملة الاسمية، أو ضمير الفصل» في عبارة ﴿إِنَّا نَحْنُ مُعِيٌّ وَنُفِثُ﴾.
- (٦) التأكيد بحرف الجر الزائد «مِنْ» في عبارة: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِصٍ﴾ وعبارة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.
- خامساً:

تقديم الأحداث المستقبلية مُسْتَقْطَعَةٌ من وقائعها التي سوف تَحْدُثُ، كأنها أحداثٌ تَجْرِي الآن، أو كأنها أحداثٌ جَرَتْ فيما مضى، لتأكيد أنها ستَقَعُ حتماً، وهذا فنٌّ من مبتكرات الأساليب البيانية في القرآن المجيد<sup>(١)</sup>.

ونجد هذا الفن فيما يلي من السورة:

- (١) ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.
- (٢) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.
- (٣) ﴿وَحَمَّاتٌ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.
- (٤) ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.
- (٥) ﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.
- (٦) ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَفِينِ غَيْرَ مُبْعِدٍ﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ.

(١) انظر بيان هذا الفن في كتاب «البلاغة العربية» للمؤلف ج/٢ ص/٣٤٦.

(٧) ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَمٍ...﴾.

سادساً:

**التضمين:** وهو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعل الكلام بَعْدَهَا مبنياً على الكلمة غير المذكورة، كالتعديّة بالحرف المناسب لمعناها فتكون الجملة بهذا التضمين بَقْوَة جملتين، والعبارة بَقْوَة عبارتين، دلّ على إحداهما الكلمة المذكورة التي حُذِفَ ما يتعلّق بها، ويُقدَّرُ مَعْنَاهُ ذُهْنًا، ودلّ على الأخرى الكلمة التي جاءت بَعْدَهَا المتعلّقة بالكلمة المحذوفة الملاحظ معناها ذُهْنًا.

وهذا التضمين فنّ رفيع من فنون الإيجاز في البيان القرآني.

ونجد في سورة (ق) من هذا التضمين ما يلي:

(١) في عبارة: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَحِيدُ عنه نافرأ من كلّ بيان حوله.

(٢) في عبارة: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: لقد كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ غَارِقًا في متاع الحياة الدُّنْيَا، نافرأ مِنْ كُلِّ بلاغٍ ودليلٍ يتعلّق بيوم الدين، ومن كُلِّ تذكير يُذكرك به.

سابعاً:

**الكناية:** وهي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطب، للدلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يُشار به عادةً إليه، لما بينهما من الملابس بوجه من الوجوه.

ونجد الكناية في سورة (ق) فيما يلي:

(١) في عبارة: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ كناية عن عبارة: لم أُمْتَلِئْ، جواباً للسؤال: ﴿هَلِ امْتَلَأْتَ﴾.

(٢) في عبارة: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تَسْلِيَةً لِلرُّسُولِ تجاه ما يُلاقِيه من كبراء كُفَّارٍ قومِهِ من اتِّهَامَاتٍ وَشَتَائِمٍ، كناية عن وعد الله لرسوله بأنَّه سَيَنْصُرُهُ، وتهديد الله للَّذِينَ يُؤْذُونَ الرُّسُولَ بِأَقْوَالِهِمْ بأنَّه سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَيَنْصُرُ رُسُولَهُ.



(١٨)

## الملحق الثاني الوصف بالبركة في القرآن المجيد

### مقدمة

البركة في اللغة: هي النماء والزيادة، فمنها ما يكون في الحسيَّات، كالبركة في الطعام والشراب والأموال والذريَّة، ومنها ما يكون في المعنويَّات، كالبركة في العلم، والوقت، والفهم، والسعادة النفسية، وثواب العبادة ومضاعفة الأجر عليها، والبركة في إنجاز الأعمال، والبركة في معونة الله لعبده، وتوفيقه له، وتسديده في أموره، والبركة في مضاعفة الانتاج للأعمال.

رُوي عن ابن عباسٍ: أنَّ البركة هي الكثرة في كلِّ خير.  
والمُبَارَك: اسم مفعولٍ من فعل «بَارَكَهُ اللَّهُ» فهو مبارك، أي: موصوف بأنَّ الله قد مَنَحَهُ البركة، إذ جعله ذا نماءٍ وزيادة في خَيْرٍ ما، أو في خيراتٍ كثيرات.  
يقال لغةً: بَارَكَ اللَّهُ الشَّيْءَ، وَبَارَكَ فِيهِ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

### الموصوف بالبركة في القرآن المجيد:

(١) جاء في القرآن المجيد الوصف بالبركة العظمى التي لا تَحُدُّها تصوُّراتُ المخلوقات كُلِّها، لذات الله وصفاته الجليلة السَّنيَّة.

(٢) وجاء فيه وصف القرآن بأنه مبارك، أي: في ثراء معانيه، وفي تأثيراته النافعات، لتحقيق الخيرات الجسيمات، كالشفاء، والأمن، وحصول السكينة، وفتح أبواب الرزق والعلم، والتوفيق والخلاص من الشدائد، وغيرها.

(٣) وجاء فيه بيان أن الله عز وجل قد منح بعض عباده من الرسل وآلهم البركة، فجعلهم مباركين، تظهر آثار البركة فيهم، وفي تصرفاتهم وفي آثار أعمالهم، وفي إجراء المنافع والخيرات العظيمة، على ما يقولون وما يعملون، وفي حصول المنافع بتأثير ما جعل الله تبارك وتعالى في ذاتهم من قوى غير منظورة، ذات آثار تظهر في الأحياء وفي الأشياء.

(٤) وجاء فيه بيان أن الله تبارك وتعالى قد جعل البركة في الأرض كلها، وخص بعض أماكن منها فجعل فيها بركة مادية ومعنوية زائدة على ما في سائر الأرض، كالبركة في البيت الحرام ومكة كلها، والبركة في المسجد الأقصى وما حوله، والبركة في البقعة التي كلم الله عز وجل منها موسى عليه السلام تكليماً.

(٥) وجاء فيه بيان أن الله عز وجل نزل من السماء ماءً مباركاً، إذ جعل فيه بركة الإنبات والسقيا النافعة وخيرات كثيرات أخرى.

(٦) وجاء فيه بيان أن الله عز وجل قد جعل البركة العظيمة في ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر.

(٧) وجاء فيه بيان أن الله قد جعل شجرة الزيتون شجرة مباركة.

(٨) وجاء فيه بيان أن المؤمن إذا دخل بيتاً فسلم على نفسه، كان له ذلك تحية مباركة من الله، نافعة في الدنيا، ومأجورة من الله يوم الدين.

وهذه البيانات لا تقتضي أن البركة منحصرة، بما وصفه الله بالبركة، إنما تفيد التنويه بذكر من بارك الله فيهم، والتنبيه على الأشياء التي بارك الله بها، للانتفاع بما فيها من خيرات مباركات.

فالبركة قد يمنحها الله عز وجل لغير من جاء في القرآن بيان أن الله قد باركهم، أو منحهم من بركاته، وقد تكون موجودة في أماكن من الأرض، غير الأماكن التي جاء في القرآن بيان أن الله قد بارك فيها، وفي أزمان غير ليلة القدر التي خصها الله ببركة عظيمة. كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي غير الأشياء التي وصفها الله بأنها مباركة، كالبركة الموجودة في القمح، وفي الحبة السوداء.

وفيما يلي استعراض لما جاء في القرآن من نصوص البركة، مع بعض تدبر لها:

### أولاً

#### الوصف بالبركة العظمى لذات الله وصفاته

جاء في القرآن المجيد وصف ذات الله وصفاته بالبركة في تسعة نصوص، وبصيغة «تَبَارَكَ» أي: تنامي وتزايد وتعاضم بالإطلاق العام فوق كل ما يصفه الواصفون، وهو على وزن «تَفَاعَلَ» من البركة:

#### النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً للناس:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ يَطْبُؤُهُ حَيْثَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يُغْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ﴾ أي: يجعل دوماً النهار يستر الليل بضياء الشمس حول الكرة الأرضية. فالأصل في الكون الظلمة، فإذا جاء الضياء غشيها فسترها، وإذا ذهب الضياء عادت الأشياء إلى ظلمتها، أو مقدار ظلمتها التي كانت عليها.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: تَنَامَى وتَزَايَدَ وتَعَاضَمَ اللَّهُ رَبُّ العالمين، في ذاته وفي صفاته عَنْ كُلِّ تَصَوُّرَاتٍ كُلِّ خَلْقِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَنَامِيًّا وتَزَايَدًا لَا تَسْتَطِيعُ الْخَلَائِقُ تَصَوُّرَ حَدِّ لَهُ، مَهْمَا سَبَحَتْ أَوْ هَامَهُمْ فِي الْأَبْعَادِ الَّتِي لَا تَتَنَاهَى.

فمن آثار صفاته جلَّ جلاله هذه الظواهر الكونية العظمى الَّتِي نَبَّهَ عَلَيْهَا هَذَا النَّصُّ.

### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: إِنَّ الْفُرْقَانَ المجيد، الذي هو فرقان بين الحق والباطل، والخير والشر، والهُدَى والضلال، والمُعْجِزُ في مبانيه ومعانيه، لَا يُنَزِّلُهُ إِلَّا مَنْ تَبَارَكَ فَوْقَ كُلِّ تَصَوُّرَاتِ الْخَلَائِقِ فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ.

### النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، دَفْعاً لمقترحات كبراء مشركي مكة، أَنَّ الرُّسُولَ يَنْبَغِي أَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَثْرًا، أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا تُغْنِيهِ عَنِ الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ لَاكْتِسَابَ رِزْقِهِ:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾.

أي: تَبَارَكَ اللَّهُ فِي قُدْرَتِهِ الْقَادِرَةِ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ خَيْرًا مِمَّا اقترح المشركون أَنْ يَكُونَ لَكَ، إِلَّا أَنَّ حِكْمَتَهُ اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ فِي رِسَالَتِكَ، لِثَلَا تَكُونَ مِثْلَ مُلُوكِ الْأَرْضِ.

### النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً:



﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۖ﴾ (٦١).

أي: تنامي وتعظم وتزايد الله جلّ جلاله فوق كل تصوّر لصفات علمه وحكمته وقدرته التي كان من آثارها أن جعل في السماء بروجاً للنجوم والكواكب، فهي تنزل في بروجها بإتقان وإحكام. وجعل فيها لسكان الأرض شمساً ذات ضياءٍ حارٍّ كالسراج، وقمرًا باردًا عاكسًا للضوء بنور كاشفٍ للأشياء المظلمة.

### النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٤).

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: فتنامى وتزايد وتعظم ربّ العالمين، فوق كل تصوّر لصفات علمه وحكمته وقدرته ورحمته، التي كان من آثارها أن جعل لكم الأرض قراراً لا تتعرضون فيه لقلبي واضطراب في إقامتكم عليها، وجعل لكم السماء بناءً متماسكاً لا خلل فيه ولا فُروج، فلا يتهاوى عليكم من أجرامها العظمى ما يُبيدكم. وكرّمكم أيها الناس فصوّرکم فأحسن صوركم، وجعلكم في أحسن تقويم، ورحمكم فرزقكم من الطيبات.

### النص السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥).

أي: إِنَّ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِذْ هُوَ خَالِقُهُمَا، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ النَّاسُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَبَارَكَ فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ، فَوْقَ كُلِّ تَوْهُمٍ وَتَصَوُّرٍ لِلخَلَائِقِ عَنْهُمَا.

النص السابع:

قوله الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: إِنَّ خَالِقَ الْإِنْسَانَ فِي أُمْتِلَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ دَوَامًا، ضَمَّنَ هَذِهِ الْأَطْوَارَ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي هَذَا النَّصِّ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، مَتَزَايِدًا مَتَنَامِيًا مَتَعَاظِمًا فَوْقَ كُلِّ تَصَوُّرٍ عَظِيمٍ تَتَصَوَّرُهُ الْمَخْلُوقَاتُ مَهْمَا أَوْسَعُوا الْمَدَى.

### النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنَّجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

أي: تَنَامَى وَتَزَايَدَ وَتَعَاظَمَ فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ كُلُّهُ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِي الْأَكْوَانِ بِعِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وهذه الظواهر الكونية آيات على أَنَّ صِفَاتِهِ الْعَظِيمَاتِ الْجَلِيلَاتِ، لَا يَبْلُغُ إِلَى إِدْرَاكِ مَذَاهِبِ الْأَقْصَى أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

## النص التاسع:

قول الله عز وجل في آخر سورة (الرَّحْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول)  
التي اشتملت على عرض آيات كثيرات من آيات آلائه (أي: نعمه) العظيمة  
الكثيرة على عباده من الإنس والجن:

﴿نَبِّئَكَ أَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِ الْحَلَلِ وَالْأَكْرَامِ﴾ (٧٨).

أي: تعظم وتنمى وتزايد فوق كل تصور تتصوره المخلوقات كلها،  
وصف ربك، المشتمل على خصائص الربوبية المتعلقة بكل الكائنات، خلقاً  
وإمداداً وتصاريح بدءاً من إيجادها واستمراراً مع بقائها.

﴿يُذِي الْحَلَلِ وَالْأَكْرَامِ﴾: أي: المتصف بكمال الشرف والعظمة والرفعة  
والمجد والحسب، والمتصف بكمال الإكرام في عطايه وهباته، ومنحه  
وجوده وإحسانه.

## ثانياً

## وصف القرآن بأنه كتاب مبارك

وجاء وصف القرآن المجيد بأنه كتاب مبارك في أربعة نصوص قرآنية  
من التزيل المكي، وقد سبق في المقدمة بيان أظهر عناصر البركة التي  
جعلها الله عز وجل في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا  
من خلفه:

## النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) خطاباً  
لرسوله محمد ﷺ:

﴿كَتَبْنَا أَرْزَاقَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩).

في هذه الآية وصف الله عز وجل القرآن بأنه كتاب مبارك، ودل

قول الله تعالى: ﴿لِيَذَبَّ رَوْحًا عَيْنِي﴾ على أن المراد بالبركة هنا كثرة دلالات آياته على المعاني الوفيرة الغزيرة الفيضة، التي يتجدد عطاؤها كلما تعمق المتدبرون في استنباط المعاني واستخراجها من أعماق بحوره الزاخرة، فلا تنتهي عطاءاته الثرة، ولا تفنى عجائبه.

وتجدد مفهومات دلت عليها آيات قرآنية، باكتشاف الناس لحقائق من آيات الله التكوينية، في كونه الواسع الفسيح العظيم.

﴿لِيَذَبَّ رَوْحًا عَيْنِي﴾: أي: لِيَتَدَبَّرُوهَا باهتمام وتعمق أخذاً من إذغام التاء بالdal.

التدبر: هو التفكير الشامل المتبع، بدءاً من أوائل دلالات سطح النص القرآني، حتى آخر ما يمكن أن يُعطى من دلالات ومفومات، تدل عليها اللوازم الفكرية، أو ما يقتضيه النص من معاني مكملة، ويستطيع المتدبر أن يستخرجها من مطويات في النص غير مذكورات في اللفظ، ويستطيع أن يكتشفها من المثاني حينما ينسطها وينظر في أعماقها، فمن صفات القرآن المجيد أنه مثاني، أي: عباراته الملفوظة مكتوبة على الظاهر الذي يرى من المثاني، أما غير الملفوظة فهي في داخل الشنيات، وهي التي يحتاج استخراجها إلى تدبر بحثية، عميق التفكير والتأمل، ذي قدرة على الغوص والاستخراج المقرون بالدليل العقلي، أو النصي من نص آخر، يدل على ما استخرجه من عمق المثاني المطوية.

وأصل التدبر مأخوذ من النظر المستوعب للشيء حتى دبره، وأواخره، وعاقبته ببصيرة، حتى الأطراف البعيدة التي يدل عليها النص.

ومنه التدبير: وهو النظر في الأمور بدءاً من أوائلها، حتى أواخرها وعواقبها، ولهذا وصف الله عز وجل نفسه بأنه يُدبر الأمر في الكون كله، وبأنه يُدبر الأمر من السماء إلى الأرض.

ولكن لا يصل المتفكر إلى أواخر دلالات النص إلا إذا تسلسل مع الأفكار بدءاً من أوائلها، وتتبعاً لسائر فقراتها حتى أواخرها وأذبارها.

﴿وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: التذكُّر يأتي في المراحل اللاحقة لفهم، وأكمِّله التَّدبُّر.

فمن تلقى آيات القرآن المجيد، ففهمها فهماً سليماً مقبولاً، فالمطلوب منه أن يتذكَّرها عند كل مناسبة داعية لتذكُّرها، ليعمل بما تهذي إليه من سلوك ظاهر وباطن، ومن السلوك الباطن أعمال القلوب والنفوس وأجهزة التفكير والإدراك والفهم.

وهذا التذكُّر هو من صفات أولي الألباب، وهم أصحاب العقول الحصيفة الذِّكْاة، والإرادات العاقلة الرشيدة.

### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢).

فأضاف هذا النص إلى كونه كتاباً مباركاً، أنه مُصَدِّق ما أنزل الله عز وجل من كُتُب قَبْلَهُ لَمْ يَدْخُلْ فِيهَا تحريفٌ أو حَذْفٌ أو إضافة.

وأضاف أيضاً بيان أن وظيفة الرُّسُول أن يُبَلِّغَهُ، وأنَّ بَيِّنَتَهُ، وأخيراً أن يُنْذِرَ بِهِ الكافرين، بدءاً من سُكَّانِ أُمِّ الْقُرَى بَلَدِ الرُّسُول، فَمَنْ حَوْلَ أُمِّ الْقُرَى، في دوائر تَتَسَّعُ حَتَّى يَشْمَلَ ذَلِكَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ. فأم القرى مَرَكَزُ سَطْحِ الْأَرْضِ، وكُلُّ سَاكِنٍ فِي أَيْ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ يَدْخُلُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وأضاف هذا النص أيضاً بيان أن الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إيماناً صحيحاً

من أيّ ملّة سابقة لنزول القرآن، ويؤمنون بأنهم مدينون يوم الدين من قبل رب العالمين، فلا بُدَّ أن يؤمنوا بالقرآن، وأن يحافظوا على صلاتهم لربهم، إذ يجدون في الإيمان بالآخرة أقوى الدوافع والبواعث على الإيمان بهذا الكتاب المبارك، وعلى القيام بواجب عبادتهم لله بالصلاة في أدنى الحدود.

### النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النص إلى كون القرآن كتاباً مباركاً، أمر الناس باتّباعه اعتقاداً وعملاً، وبأن يتقوا عقاب مخالفتهم لأوامر ربهم ونواهيهم، جاعلين من دوافعهم رجاء أن يرحمهم ربهم بالمغفرة والتوبة، وبدخول جنة الخلد يوم الدين.

### النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) خطاباً لمنكري رسالة الرسول محمد ﷺ ومنكري كون القرآن منزلاً من عند الله مع كونه معجزاً، ومن إعجازه كونه مباركاً فياض المعاني:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾!؟

أي: أكذبتُم رسولي، واستكبرتُم عن الإيمان به واتّباعه، فأنتم بسبب ذلك منكرون أن يكون القرآن المجيد كتاباً منزلاً من ربكم، مع كونه معجزاً مباركاً في معانيه ثرّ العطاء العلمي، وافر الدلالات.

وسمّي الله عز وجل القرآن في هذه الآية ذكراً اعتباراً بالمطلوب الثالث من مطالب الله بالنسبة إليه، وذكر هذا المطلوب يدلّ باللزوم الذهني على المطلوبين الأوّل والثاني:

- فالمطلوب الأول: تَلَقَّيْهِ مِنَ الرَّسُولِ الَّذِي بَلَّغَهُ.
- والمطلوب الثاني: تَفَهَّمْهُ معانيه والتبصّر فيها.
- والمطلوب الثالث: تَذَكَّرْ ما جاء فيه عند كل مناسبة داعية لهذا التذكّر.
- فعند مواقيت الصلاة، يُطَلَّبُ تَذَكُّرُ ما فرض الله على عباده من صلوات.
- وعند وجود المال الذي تجب فيه الزكاة، يُطَلَّبُ تَذَكُّرُ ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الزكاة.
- وعند قدوم شهر رمضان، يُطَلَّبُ تَذَكُّرُ ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الصيام.
- وعند اندفاع النفس إلى ممارسة محرّم من المحرّمات، يُطَلَّبُ تَذَكُّرُ حُكْمِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ.
- وهكذا إلى سائر ما اشتمل عليه القرآن من عقائد، وشرائع، وأحكام سلوك ظاهر وباطن.

### ثالثاً

#### بيان أنّ الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين

البركة على نوح وعلى أمّ مَمْنُ معه.

جاء في القرآن المجيد بشأن نوح عليه السلام، وبشأن أمّ ستأتي من نَسْلِ الَّذِي مَعَهُ فِي الْفَلَكَ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قِيلَ يَنْتَحِ أَهْبِطْ إِسْلِمِ مِنَّا وَبَرَكَتٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ...﴾ (٤٨)

أبانت هذه الآية أَنَّ نوحاً عليه السَّلامَ لَمَّا انْتَهَتْ أَخْدَاثُ الطوفانِ، وَتَمَّ إغْرَاقُ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي الْأَرْضِ، وَتَوَقَّفَتْ سَفِينَتُهُ فِي مَوْقِفٍ مَا عَلَى الْجُودِيِّ<sup>(١)</sup>، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخَيًّا: اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا، أَي: اهْبِطْ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى الْأَرْضِ مَصْحُوباً بِسَلامٍ يُحِيطُ بِكَ بِأَمْرِ تَكْوِينِي مِنَّا.

﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾: واهْبِطْ مَصْحُوباً بِبَرَكَاتٍ كَثِيرَاتٍ تَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَّا، وَتَنْزِلُ عَلَى أُمَّمٍ سَتُوجَدُ فِي الْأَرْضِ مِنْ نَسْلِ مِنْ مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ، وَكَانَتِ الْأُمَّمُ الْبَاقِيَةُ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ ذُرِّيَّاتِ أَبْنَائِهِ، لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافَاتِ/٣٧ مَصْحُوفِ/٥٦ نَزُولِ):

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد ظهرت هذه البركات في الأنبياء والمرسلين والصالحين الذين انْحَدَرُوا مِنْ ذُرِّيَّاتِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ.

**البركة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته وعلى ابنه إسحاق.**

وقد جاء في القرآن بشأن إبراهيم عليه السلام وبشأن أهل بيته قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُود/١١ مَصْحُوفِ/٥٢ نَزُولِ) حكاية لقول الملائكة الَّذِينَ جَاءُوهُ بِالْبَشْرِىْ بَأْنَ امْرَأَتَهُ سَارَهُ سَتَحْمِلُ وَتَلِدُ وَهِيَ عَجُوزٌ:

﴿قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ بَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قال الملائكة لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام: رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ.

(١) الجودي: اسم جبل، ذكروا أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمَوْصِلِ، وَقِيلَ: كَلِمَةُ الْجُودِيِّ تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ.



فَإِنْ كَانَ هَذَا خَبَرًا، فَإِنَّهُمْ لَا يُخْبِرُونَ إِلَّا إِذَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ  
قَدْ أَفَاضَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رَحْمَاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ .

وَإِنْ كَانَ دُعَاءً فَإِنَّ دُعَاءَ الْمَلَائِكَةِ مُسْتَجَابٌ .

وجاء أيضاً بشأن إبراهيم وولده إسحاق عليهما السلام قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١١٨ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١١٩ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٢٢ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۝١٢٣﴾ .

فأبان هذا النص أن الله عز وجل قد بَارَكَ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ  
وَوَلَدِهِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَام

البركة على موسى عليه السلام .

وجاء في القرآن بشأن موسى عليه السلام وهو في رحلة العودة إلى  
مصر، ومعه أهله، قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨  
نزول):

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ۖ إِنِّي مَأْسَسْتُ نَارًا سَتَانِيكُمْ مِنْهَا بَخَيْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ  
لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾ .

﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ : أي : ناداه الله، و«أَنَّ»  
تفسيره إذ جاء ما بعدها مفسراً لمضمون النداء الذي فيه معنى القول دون  
لفظه .

﴿بُورِكَ﴾ أي : مُنِحَ الْبَرَكَةُ، والمُنِحُ للبركة هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا  
مَحَالَةَ .

﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الملائكة المقربين، وقد يكون جبريل أمين الوحي، وقد يكون غيره معه، والملائكة لا تتأثر أجسادهم النورانية بالنار، وهذه نارٌ، إلا أنها صافية من الأخلاط والشوائب، ولا أرى داعياً لتفسير النار هنا بالنور، على اعتبار أن موسى عليه السلام رآها ناراً وهي في حقيقتها نور، إذ لا دليل على هذا، والله عز وجل قد سمّاها ناراً، ولله حكّم في تصاريفه واختياراته.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: وهو موسى عليه السلام، وقد يكون معه طائفة من الملائكة لم يكن موسى يراهم، لأن موسى وخده كان إلى جانب النار، ولم يكن حولها، لكنه مع جمع من الملائكة يصلح أن يكونوا حولها. ولحكمه تثبيت فؤاد موسى وطمأنينه، أعلمه الله جل جلاله بأن في النار ملائكة، ومعه حول النار ملائكة.

وقد منح الله موسى عليه السلام البركة بمقتضى دلالة هذا النص، لأنه ممن كان حول النار.

وقد ظهرت البركة العظيمة التي أعطاها الله عز وجل لموسى عليه السلام في كل تاريخ حياته، منذ نشأته حتى وافته منيته، وكان من بركاته إجراء الآيات التسع العظيمة له، حتى فلق البحر له ولقومه وعبورهم، ونجاتهم، وإهلاك فرعون وملئه وجنوده.

البركة على عيسى عليه السلام.

وجاء في القرآن بشأن عيسى عليه السلام، قول الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) حكاية لما أنطقه الله به، وهو طفل رضيع حديث الولادة تحمله أمه:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۚ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٧﴾ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٨﴾ .

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله تبارك وتعالى قد أنطق عيسى عليه السلام، وهو طفل رضيع بأنّ الله قد جعله مباركاً في أيّ مكان هو كائن فيه .

وقد ظهر من بركاته عليه السلام آيات كثيرات، ومنها أنه كان يصنع من الطين كهَيْئَةَ الطَّيْرِ، فينفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله وأنه كان يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُخَيِّمُ الْمَوْتَى بإذن الله، إلى غير ذلك من آيات:

الأكمة: أي: الأعمى، ويطلق هذا اللفظ في اللغة على الأعشى أيضاً.

الرسول محمد ﷺ .

لم يأت في القرآن المجيد نصّ صريح بأنّ الله تبارك وتعالى قد منحه رسوله محمداً ﷺ البركة .

لكن تواطأت النصوص على أنّه سيّد ولد آدم، وأفضل عباد الله عند الله، وإمام المرسلين وسيدهم، وصاحب الشفاعة العظمى يوم الدين، وأتباعه من الناس هم الأكثر والأعظم بين أتباع الرسل، وأمر الله المؤمنين بأنّ يصلّوا عليه ويسلموا تسليماً، أمّا غيره من الرسل فقد جاء في القرآن بشأنهم الترغيب في السلام عليهم فقط، مثل قول الله عزّ وجل بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (الصفّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

وكلّ هذا يدلّ على أنّ نصيبه من بركات الله هو الأكثر والأجلّ، ولو لم يرز نصّ صريح بذلك، ويكفيه من البركة العظيمة أن الله جلّ جلاله أنزل عليه أعظم كتبه كتاباً مباركاً معجزاً، وأنّ الله أكرمه بالعروج به إلى

السموات حتى سِدْرَةِ المنتهى، وكانت حياته زاخرةً ببركات من الله عليه، ومنها أنه منحه الفتح المبين، وجعل له ولأئمة العزّ والمجد والتمكين.

### رابعاً

## بيان أن الله عزّ وجلّ قد بارك في كل الأرض

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/٤١ مصحف/٦١ نزول):

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَنَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُءُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

دلّ هذا النصّ على أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قد بَارَكَ في الأرض التي اختارها لسكْنَى الإنسان، الذي خَلَقَهُ اللهُ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَكَرَّمَهُ، إذ جعل فيها ما يُمِدُّ الأحياء عليها بأرزاقهم، ومطالب معاشهم، وحاجات مصالحهم، وزيناتهم، وقوّاتهم، وحاجات نفوسهم، مهما تكاثروا على ظَهرِها، إذا أَحْسَنَ النَّاسُ اسْتِغْلَالَهَا بِإِتْقَانٍ، وَأَحْسَنُوا الاستفادة ممّا وَهَبَهُمُ اللهُ من قُدْرَاتٍ فِكْرِيَّةٍ، وَطَاقَاتٍ جَسَدِيَّةٍ، وَمُسَخَّرَاتٍ كَوْنِيَّةٍ، في اسْتِثْبَاتٍ خَيْرَاتِها من خَزَائِنِها الكثيرة الوفيرة.

وقد جعل الله الأقوات في الأرض مساويةً لمطالب الناس منها، بشرط أن يَبْحَثُوا وَيَعْمَلُوا لاستخراجها. والسؤال هو الأمرُ الحاثُّ على القيام بكلّ خُطْوَةٍ فَخُطْوَةٍ من البحث والعمل والاستخراج، فجاء في النصّ التعبير بالسَّائِلِينَ للدلالة على كُلِّ الخطوات التي يَخْطُوها الْعَامِلُونَ للحصول على مطالبهم من الأقوات. وهذا من الإيجاز البديع في القرآن. وإدراك المطلوب يَعتَمِدُ على معرفة السلاسل السببية.

مثلاً: يسأل الإنسان من أين آكل؟ فيجيبه واقع الحال: من الأشجار المثمرة، والزروع التي تُنْبِتُ حَبَّ الحصيد، ومن الصيد.

فإذا خشي النفاذ سأل: ماذا أفعل للحصول على القوت؟ فيجيبه واقع الحال: احرق واثذر واشق. أو اعمل على تربية الحيوانات الداجنة. وهكذا كُلُّ مطلب لا يتحقق إلا بعمل، وكلَّ عَمَلٍ يبدأ بسؤالٍ ما، والسؤال يدفع إلى البحث ومعرفة الأسباب للوصول إلى المطلوب.

### خامساً

#### البركة الزائدة التي جعلها الله تبارك وتعالى لأمكنة خاصة

البركة في البيت الحرام بمكة:

لقد جعل الله عز وجل الكعبة البيت الحرام بمكة بيتاً مباركاً، وكان من الحكمة أنه أوَّل بيت وُضِعَ للناس.

قال الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومن بركات هذا البيت أن الصلاة في حرّمه بمئة ألف صلاة ثواباً من عند الله.

ومن بركاته الأمن العام في الحرم المكي<sup>(١)</sup>.

ومن بركاته أنه يُجَبَى له ثمراتُ كُلِّ شيء.

ومن بركاته أنه كان مؤلِّد خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

ومن بركاته أنه كان أوَّل مهابط وحي الله لرسوله محمد ﷺ، وأوَّل مهابط نزول سُورِ القرآن المجيد عليه، وهو أعظم كتب الله للناس أجمعين.

(١) انظر تفصيل هذا الأمن في الملحق الثاني من ملاحق تدبُّر سورة (التين/ ٩٥ مصحف/

ومن بركاته أنه قبله الناس جميعاً، ومحجُّ الناس جميعاً، بشرط أن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

ومن بركاته فيوضاتُ العطاء الربَّانيِّ لبعض عباد الله فيه، بعلومِ ربَّانيَّةٍ، وَإِكْرَامَاتٍ غِيِيَّةٍ ذَاتِ آثَارٍ مَشْهُودَةٍ.

إلى غير ذلك من بركات كثيرات.

**البركة في البقعة التي كلَّم الله عندها موسى عليه السلام:**

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) في الحديث عن موسى عليه السَّلام، ومقدمه إلى النار التي آنسها من جانب الطور الأيمن:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِصَّ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فوصف الله عزَّ وجلَّ هذه البُقعة بأنها مُبَارَكَةٌ، ومن البركة العظيمة التي جعلها الله لها أنها كانت مكاناً شريفاً يُكلَّم الله تبارك وتعالى عنده موسى عليه السَّلام تكليماً حقيقياً، على ما يليق بصفاته الجليلة وسلطانه العظيم، وكان هذا في طريق عودته إلى مصر بعد فراره منها.

وكان من آثار هذه البركة العظيمة، الألواح التعليمية التي آتاها الله موسى عليه السَّلام، فكانت جزءاً من كتاب التوراة الذي أنزله الله عليه، وكان هذا بعد الخروج من مصر ببني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده.

**البركة التي جعلها الله للمنزل الذي أنزل فيه نوحاً ومن معه بعد رحلة النجاة:**

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول) في حكاية خطابه لنوح عليه السلام قبل أن يركب السفينة:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّعَنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿

لقد علم الله عز وجل نوحاً أن يدعوه بهذا الدعاء، وفي هذا إشعار له بأنه سيستجيب له، فَيُنْزِلُهُ مُنْزَلًا مُبَارَكًا، وقد استجاب الله دعاءه.

وفي هذا تعليم للمسافرين في البحر أو في البر أو في الجو، أن يدعوه ربهم بأن يُنْزِلَهُمْ مُنْزَلًا مُبَارَكًا، فيه لهم خير غيبي ومشهود.

**البركة التي جعلها الله للمسجد الأقصى وما حوله:**

جاء في القرآن المجيد خمسة نصوص تدل على أن الله قد جعل مكان المسجد الأقصى، وما حوله من بلاد الشام، أرضاً مباركة ببركات حسية ومعنوية:

**النص الأول:**

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَنِي بَنرْكَنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانِ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٢٧) ﴿

والأرض التي بارك الله فيها وأورثها بني إسرائيل بغد موسى عليه السلام هي بلاد الشام، حول مكان المسجد الأقصى في القدس.

ثم لما عصوا وفسقوا وأشركوا وطغوا وبغوا سلط الله عليهم من سباهم ومزقهم، ومَلَكَ بِلَادَ الشَّامِ مَكَانَهُمْ.

ثم لما ظهر الإسلام كان المسلمون هم الوارثين، وانطبق عليهم وعد الله لإبراهيم عليه السلام، لأن رسول الله محمداً ﷺ من ذرية إبراهيم.

## النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: وباركنا فيه من باب أولى، لأنه هو المقصود الأول بالبركة.

والبركة التي جعلها الله في بلاد الشام حول المسجد الأقصى تشمل البركة المادية والمعنوية.

ومن آثار البركة المعنوية ما نبأ الله عز وجل في بلاد الشام من أنبياء، وما بعث فيها من رسل، وما أنزل فيها من كتب.

ومن آثار البركة المادية ما في زروعها وأشجارها وثمراتها من خيرات كثيرات.

## النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وهجرته من أرض العراق:

﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

ومعلوم أن هجرتهما كانت إلى أرض الشام، فهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

## النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أيضاً بشأن سليمان عليه السلام:



﴿وَسُلِّتَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١).

والمراد بالأرض التي بارك الله فيها هي بلاد الشام.  
النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في الحديث عن أهل سبأ في اليمن:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبِيلًا لِيَالِي وَإِيَّامًا آمِنِينَ﴾ (٨١).

أي: وجعل الله جل جلاله بين أهل سبأ في اليمن وبين بلاد الشام التي بارك فيها قرى ظاهرة، فإذا أرادوا السفر من بلادهم إلى بلاد الشام كان لهم مبيت في قرية، ومقيل في قرية أخرى.

### سادساً

#### البركة التي جعلها الله في زمان ليلة القدر

من الخواص الزمانية أن الله تبارك وتعالى قد جعل ليلة القدر ليلة مباركة، ومن وفرة بركات الله فيها أنها خير من ألف شهر، للذين يعبدون ربهم فيها، وأن الدعاء فيها مستجاب.

قال الله عز وجل في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حَمْدٌ لِلَّهِ وَلَكِنَّ الْكُتُبَ الْيُسْنَى﴾ (٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ (٣) ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (٤).

وجاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) بيان أن هذه الليلة هي ليلة القدر<sup>(١)</sup>.

(١) انظر ما سبق بيانه لدى تدبر سورة (القدر).

## سابعاً

## البركة التي جعلها الله في الماء الذي ينزله من السماء

جاء في القرآن المجيد بيان أن الماء الذي يُنزلُه الله تبارك وتعالى من السَّمَاءِ ماء مبارك في نصّين:

## النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩﴾.

وقد سبق التدبّر التحليلي لهذه الآية في موضعها من سورة (ق).

## النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾.

ومن البركات التي يَفْتَحُها الله على أهل القرى المؤمنين المتقين الماء المبارك الذي يُنزلُه لنفعهم ورزقهم من السماء، أي: من السحاب، وقد يكون مع الماء بركات أخرى من أشعة الشمس والغبار المنتشر الذي يكون مدداً لنباتات الأرض، ومن فوق ذلك كلّه مقادير اللّٰه لهم المشتملة على وفير من المنح والعطايا الربّانية التي يُفْضِي بها لهم.

## ثامناً

## البركة التي جعلها الله في شجرة الزيتون

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ أَلْمِصْبَاحُ فِي

زُجَّاجَةً الزَّجَاجَةِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوَرُّ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ .

لقد أبانت هذه الآية أن الله عز وجل قد جعل شجرة الزيتون شجرة مباركة، بما فيها من غذاء عظيم، ودهن نافع مفيد لا نظير له في كل الدهون والزيوت<sup>(١)</sup>.

### تاسعا

#### البركة التي جعلها الله في التحية التي يُسَلِّمُ المؤمن بها على نفسه إذا دخل بيتاً

قال الله عز وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ...﴾ .

أي: إذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، وإذا لم يكن فيها أحدٌ فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، الذين هم كأنفسكم، وهذه تحية من الله مباركة لكم.

وأخيراً: أكرّر أن هذه النصوص لا تُفيد حصر البركة بما جاء في القرآن وصفه بالبركة، بل فيها التوجيه للاستفادة من البركات التي جعلها الله فيها.



(١) انظر تحليل هذا النص في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف.



# سُورَةُ الْبَكْرَةِ

٩٠ مِصْفَاتٍ ٣٥ نَزُول



(١)

## نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدِ وَمَا  
 وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ  
 عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ  
 أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾  
 وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا  
 الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكٌ رَقَبَةٌ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾  
 يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَرْبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

٧٥ - • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، وأبو جعفر:

﴿أَيْحَسِبُ﴾ فيهما بفتح السين. وقرأ باقي القراء العشرة:

﴿أَيْحَسِبُ﴾ فيهما بكسر السين، والقراءتان وجهان غريبان لنطق الفعل المضارع. يقال لغة: حَسِبَ الشيءَ كذا يَحْسِبُهُ وَيَحْسِبُهُ، أي: تَوَهَّمُهُ، أَوْطَنُهُ ظَنًّا ضَعِيفًا.

٦ - • قرأ أبو جعفر: ﴿لُبَدًا﴾ بتشديد الباء المفتوحة.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿لُبَدًا﴾ بتخفيف الباء المفتوحة.

والقراءتان تَدْلَانِ على معنى الكثرة المجتمعة المتلبدة على بعضها.

١٣ و ١٤ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿فَكٌ رَقَبَةٌ أَوْ إِطْعَمٌ﴾ على أن ﴿فَكٌ﴾فعل ماضٍ، و﴿رَقَبَةٌ﴾ مفعول به و﴿إِطْعَمٌ﴾ فعل ماضٍ. وقرأ باقي القراء العشرة: [فَكٌ رَقَبَةٌ أَوْ إِطْعَامٌ] على أن [فَكٌ] مصدرٌ، و﴿رَقَبَةٌ﴾ مُضَافٌ إليه، و﴿إِطْعَامٌ﴾ مصدر أيضاً.

والقراءتان تَفْتُنُ في التعبير، ومؤداهما متماثل.

الْمِثْمَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ  
نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

٢٠ - • قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ بتحقيق  
الهمزة الساكنة بعد الميم، من فعل: أَصَدَّ الْبَابُ يُؤْصِدُهُ، أي: أغلقه، وقرأ  
باقي القراء العشرة: [مُؤَصَّدَةٌ] مِنْ فِعْلٍ أَزْصَدَ الْبَابُ يُؤْصِدُهُ أي أغلقه.  
فالقراءتان وجهان عربيان، والمعنى واحد.

(٢)

## موضوع السورة

يدور موضوع سورة «البلد» حول «الابتلاء» الذي هو الغاية من خلق  
الإنسان، والذي يستتبع باللزام العقلي التكليف، والمراقبة طوال مدة  
الابتلاء، ثم المحاسبة، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاءت هذه السورة بأسلوب غاية في الإيجاز، إلى حدٍّ شبيه بالطريقة  
الرمزية وليس منها، إذ يعتمد على اللوازم الفكرية الدقيقة جداً، التي  
تستدعيها ظاهرة كَوْنِ الإنسان مخلوقاً في كَبَدٍ، أي: في ظروف لا تُنال  
معايشه فيها إلاً بمشقة وشدة وضيق وكدح وكَدٍّ ونَصَبٍ، وكأن المقصود  
بالخطاب بها أذكياء المتدبرين والفلاسفة.

وهذه السورة تتابع استكمال الإقناع بقانون الجزاء الربّاني، الذي دار  
حوْلُهُ موضوعُ سُورَةِ (ق) وموضوع سورة (المرسلات) قبلها، وموضوع  
سورة (القيامة) وسُورٍ أخرى سبق نزولها.

إلا أن سورة (البلد) تُنبّه على فكرة فلسفية عميقة الدلالة، دلّ عليها  
قول الله عز وجل فيها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿١﴾.

هنا يتساءل المتفكر المتدبر: لماذا خلق الله العليم القدير الحكيم



الإنسانَ في كَبَدٍ ضِمْنِ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، مع أَنَّهُ قَدْ خَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، كما أَبَانَ لَنَا جَلَّ جَلَالُهُ فِي سُورَةِ (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول)؟! .

إِنَّ كَوْنَهُ مَخْلُوقًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ يَسْتَدْعِي أَنْ يَكُونَ مَسْكَنُهُ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ، فهذا المسكن هو الملائم لصفته هذه.

لكن لَمَّا جعله الرَّبُّ الخالق ضمن ظروف هذه الحياة التي يعيشها في كَبَدٍ، وهو الرَّبُّ العليم القدير الحكيم، فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لِحِكْمَةٍ جَلِيلَةٍ اقْتَضَتْهَا إِرَادَةُ الرَّبِّ الحكيم، الذي هو على كُلِّ شَيْءٍ قدير.

فما هي هذه الحكمة؟

ويَهْتَدِي المتفكر المتدبر إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ ذَاتُ زَمَنٍ قَصِيرٍ جَدًّا، كَزَمَنِ مَجْتَازِ جَسْرِ إِلَى دَارِ الْإِقَامَةِ الدَّائِمَةِ.

وهنا يَتَفَكَّرُ فِي هَذَا الْإِنْسَانَ وصفاته الَّتِي فَضَّلَهُ الرَّبُّ الخالق العليم الحكيم القدير بها، فَيُذَكِّرُ بِجَلَاءِ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ حُرُّ الْإِرَادَةِ، يَمْلِكُ قُدْرَاتٍ جَلِيلَةً مِنَ الْفَهْمِ، لا كِتْسَابِ الْعِلْمِ، وَقَدْ سَخَّرَ الْخَالِقُ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ مَسَخَّرَاتٍ يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِإِرَادَتِهِ، وَلَهُ أَهْوَاءُ وَشَهَوَاتٌ وَرَغَبَاتٌ، وَبِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَلْتَزِمَ سُلُوكَ طَرِيقِ الْخَيْرِ، أَوْ أَنْ يَسْلُكَ مَسَالِكَ الشَّرِّ، إِرْضَاءً لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِهِ.

عندئذٍ يَظْهَرُ لَهُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ ضِمْنِ ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ تَسْتَدْعِي أَنَّهُ الْآنَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانٍ، لا كَشْفِ اسْتِحْقَاقِهِ الْخُلُودِ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ، الْمَلَائِمَةِ لِكَوْنِهِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، أَوْ لا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ لاسْتِخْدَامِهِ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ فِي مَعْصِيَةِ خَالْقِهِ الْوَاهِبِ، وَجُحُودِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ لَهُ.

وَبَدَهِيَ أَنَّ الْامْتِحَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا فِي ظُرُوفٍ يُكَابِدُ فِيهَا الْمَمْتَحَنُ مَشَقَّاتٍ وَمَتَاعِبَ تَتَطَلَّبُ مِنْهُ إِرَادَةٌ وَاعِيَةٌ حَازِمَةٌ، وَصَبْرًا عَلَى تَحْمِلِهَا، وَعَلَيْهِ

في تحمُّل هذه المشقَّات والمتاعب أن يخالف أهواءه وشهواته ونزعاته ورغباته المخالفات لأوامر ربِّه ونواهيه في رحلة امتحانه القصيرة، لِيَنال السعادة الخالدة، في حياة أخرى سوف تتحقَّق يوم الدين.

وإلاَّ سقط في الامتحان وخاب وخسر.

وبعد هذا التَّنبية المشدَّد على هذه الظاهرة ذات الدلالة العميقة، التي يفهمها المتدبِّر المتعمِّق الحَصيف، جاء في السُّورة بيانُ صارِفَيْن من صوارِف النفس عن الإيمان بالجزاء الرِّبَّاني، ويوم الدين، لبعض المكذِبين به:

**الصارِف الأول:** اغترارُ المكذِّب بيوم الدين، إذا كان من أصحاب المال والأعوان والأنصار، بما لديه من قُوَّة، حتَّى يتوهَّم أنَّه محميٌّ بقوَّته فلا يَقدِّرُ عليه أحدٌ، فيَغفُلُ عن خالقه العليم الحكيم القدير، وواجهه تجاهه، ويغفُلُ عن قدرته على مجازاته بما يستحقُّ من عقاب، إذا كفر وعصى وكان من المجرمين.

**الصارِف الثاني:** توهُّمُ بغضِ المكذِبين بيوم الدين، أنَّه ليس عليه رقيب، إذا استخفى عن أعينِ الناس بجرائمه وشُروبه التي يرتكبها.

وهذا ناشئ عن سذاجةٍ وسطحيَّةٍ فكريَّةٍ يتوهَّم بها أن ما لا يشاهده ببصره من حوله، فهو غير موجود.

وجاء في السُّورة دفع هُذين الصَّارِفين ببيان أنَّ الخالقَ هو الذي مَنَحَ ذا القُوَّة ما لَدَيْهِ من قُوَّة، وما لَدَيْهِ من أسبابها، وهو الَّذي منح كُلَّ إنسان أدوات المعرفة، ووسيلة التعبير عنها، أفلا يكون سبحانه قادراً على عقابِ الكافر والعاصي بما يَسْتحقُّ من عقاب؟! أفلا يكون سبحانه عليمًا بكل ما يكسبُه عبده في رحلة امتحانهم؟!

وجاء في السُّورة بيان معرفة الإنسان بطريق الخير وطريق الشرِّ، بما

لديه من فطرة هادية، وبما أنزل الله على رسوله من رسالات، وبياناتٍ  
بمطلوب الله من عباده، في أوامره ونواهيه.

● وهُنَا يَسْأَلُ المتفكر: مَا هو مطلوبُ الله من عبده الْمُمتَحَن في  
رحلة امتحانه؟.

ويأتيه الجواب الربّاني: أَنْ يقتحم عقبة نفسه التي تسيطر عليها  
أهوائه، وشهواته، ورغباته من الحياة الدنيا.

● فإذا فهم هذا سأل: بمثل ماذا يكون اقتحام العقبة؟.

ويأتيه الجواب الربّاني: بعثق رقبة عبْدٍ من الرّق، وبإطعامِ الطعامِ في  
يومٍ ذي مسغبة (أي: ذي مجاعة) يتيماً ذا قرابةٍ ما، أو مسكيناً جائعاً شديد  
الفقر، وفي اختيار العتق والإطعام مراعاةً للمرحلة المكية التي نزلت فيها  
السورة، إذ كان توجيه الاهتمام فيها لمساعدة ذَوِي الضرورات والحاجات  
في المجتمع، والتحلي بفضائل الأخلاق، عقب الدعوة إلى الإيمان  
الصحيح.

● وبعد هذا يأتي السؤال التالي: وهل يكفي الإنسانُ أَنْ يعمل  
الحسَنَات، ويترك السيئات؟

ويأتي الجواب الربّاني: لا، إذ لا بُدَّ أَنْ يكون الإنسان من الَّذِينَ  
آمَنُوا بما أَمَرَ الله بالإيمان به، وتواصُوا بالصَّبْر، وتواصُوا بِالْمَرْحمة.

● وهنا يأتي السؤال التالي: فما هي النتيجة إذا فعل الإنسان ما هو  
مطلوبٌ منه؟.

ويأتي الجواب الربّاني: يَكُونُ من أصحاب الميمنة يوم الدين، وهم  
الذين يستحقُّون دخول الجنة دار النعيم.

● وبعده السؤال التالي: وما هي عقوبة من كفر بآياتِ رَبِّهِ؟

ويأتي الجواب الربّاني: أولئك أصحابُ المشأمة، عليهم نازَ مُؤَصَّدة. وبهذا يظهر ترابط عناصرِ فِقراتِ السّورة وآياتها ترابطاً فكرياً متيناً، وقد أوصل إلى هذا إبرازُ المطويات بين ثنايا فقراتها، استهداءً بإدراكِ اللّوازم الفكرية، وما تقتضيه العبارات المذكورة من تَتِمَّاتٍ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ إيجازاً، واعتماداً على تَدَبُّرِ أولي الألباب.



(٣)

### دروس السّورة

تشمّل هذه السّورة على ثلاثة دروس:

#### الدرس الأول:

درسٌ اشتمل على قَسَمٍ بِمُقَسَمٍ به ذي اقتضاءَيْن: أحدهما يستدعي القسم به، والآخر لا يستدعيه، فجاءَ قَسَمًا منفياً.

والمُقَسَمُ به: مكّة البلد الحرام، وكلُّ والدٍ وما وَلَدَ.

والمُقَسَمُ عليه: أَنَّ اللَّهَ قد خَلَقَ الإنسانَ في كبد، أي: في شدة وكذح ومكابدة ومشقة، ويلزم عن هذا عقلاً أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ مكلفٌ مسؤول ومُجَازَى.

وهو الآيات من (١ - ٤).

#### الدرس الثاني:

درس تضمّن بيان صارفين عن الإيمان بقانون الجزاء الربّاني، هما اغترار ذي القوّة بقوته، وتوهم ذي الغباء أَنَّ ما لا يُشَاهِدُهُ ببصره من حوله لا وجود له، مع التنبيه على فسادهما، وتضمّن بيان هداية الإنسان إلى

معرفة طريق الخير وطريق الشر، لِيُذَكِّرَ أَنَّهُ مَكْلَفٌ وَمَسْئُولٌ وَمُحَاسَبٌ وَمُجَازَى.

وهو الآيات من (٥ - ١٠).

### الدرس الثالث:

درس تضمن الإجابة على أسئلة مطوية يستثيرها ما جاء في الدرسين الأول والثاني.

وهو الآيات من (١١ - ٢٠).



(٤)

### التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ - ٤)

قال الله عز وجل:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿لَا أَقْسِمُ﴾: سبق في أول سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان الحكمة التي فتح الله بها عليّ من ذكر القسم وإدخال حرف النفي «لا» عليه.

وأعيد هنا ما سبق أن ذكرته هناك مع زيادة شرح وإيضاح، وبعض إضافات.

اختلفت أقوال المفسرين في القسم المسبوق بحرف النفي «لا» الوارد في القرآن المجيد ثماني مرات في سبع سور بصيغة ﴿لَا أَقْسِمُ﴾.

- فمن المفسرين من قال: «لَا» زائدة، والتقدير «أقسم».
- ومن المفسرين من قال: «لَا» نافية لكلام مُقَدَّرٍ، وليس النفي مسلطاً على القسم.
- ومنهم من قال غَيْرَ ذَلِكَ.

ولم أجد لأقوالهم في هذا مُسْتَنَدًا من بيان الرُّسُول ﷺ.

ولم يَنْقُلْ أَحَدٌ أَنَّ أَحَدًا من العرب الذين لم يَسْتَجِيبُوا لدعوة الرسول ﷺ اغْتَرَضَ على هذا الأسلوب البياني الذي يُذَكِّر فيه القسم مسبقاً بأداة النفي «لا» فدلَّ على أنهم لم يجدوا فيه شيئاً خارجاً عن أساليب البيان البليغ.

وقد سبَّرت بأناة معاني النصوص التي جاءت فيها صيغة ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ فظهر لي بفتح من الله الوهاب، أنها أسلوب مبتكر، أدرك قيمته فصحاء العرب ضمن ما أدركوا من عناصر إعجاز القرآن، فأخجموا عن معارضة سُور القرآن بِخُطْبٍ أو مَقَالَاتٍ أو رسائل أو غير ذلك، لشعورهم بالعجز عن أن يأتوا بمثله.

هذا الأسلوب البياني المبتكر ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ قد رُوِيَ فيه اقتضاءان مُتَعَارِضَانِ:

**الاقتضاء الأول:** يَسْتَدْعِي الْبَيَانَ الْبَلِيغَ مَعَ الْقَسَمِ الْمُؤَكَّدِ لِلْخَبَرِ الَّذِي هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، والذي قد يتأثر به أولو الألباب.

**الاقتضاء الثاني:** يَسْتَدْعِي الْبَيَانَ الْبَلِيغَ مَعَ، أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْقَسَمِ، بالنسبة إلى المقصودين بتوجيه الخطاب إِيَّانِ التَّنْزِيلِ.

فكان الحلُّ المبتكر في أساليب البيان القرآنية، مراعاة الاقتضاءَيْنِ المتعارضَيْنِ معاً، باختيار ذكر الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ بِهِ، مع سبقه بأداة النفي «لَا» وإتباعهما بِالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ.

فالوجه الذي اقتضى الْقَسَمَ رُوعِيَّ حالَهُ بِذِكْرِ الْقَسَمِ وَالْمُقَسَمِ بِهِ، تنبيهاً على ما في الْمُقَسَمِ بِهِ من تأكيد لِلْخَبَرِ الْمُقَسَمِ عَلَيْهِ، أو حُجَّةٍ هَادِيَةٍ إِلَى أَنَّ الْمَوْضُوعَ الَّذِي يُرَادُ تَأْكِيدَهُ حَقٌّ وَصَدَقَ.

والوجه الذي اقتضى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ هَذَا الْقَسَمِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَعْنِيِّينَ بِالْخَطَابِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، رُوعِيَّ حالَهُ بِنَفْيِ الْقَسَمِ.

● ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ ﴿﴾.

المراد بـ«الْبَلَدِ» مكة الْبَلَدُ الْحَرَامُ، حَرَسَهُ اللَّهُ وَزَادَهُ شَرَفًا. وجاء تعيينه باسم الإشارة «هَذَا» لتمييزه عن سائر بلاد الدنيا، التي يَصْحُحُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَفْظُ «الْبَلَدِ» وَلَمَّا كَانَتْ مَكَّةُ مَهْبِطَ وَخِي هَذِهِ السُّورَةِ كَانَ اسْمُ الْإِشَارَةِ «هَذَا» الَّذِي يُشَارُ بِهِ إِلَى الْقَرِيبِ هُوَ الْمَلَاتِمُ الَّذِي يُفِيدُ تَعْيِينَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ.

وكان أهل مَكَّةَ يؤمنون بِالْحُرْمَةِ الْعَظِيمَةِ لِبَلَدِهِمْ، وَلِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِيهَا، وَلَا سِوَا الْكَعْبَةِ الْمَشْرُفَةِ بَيْتِ اللَّهِ فِيهِ، إِلَى حَدِّ أَنَّهُمْ قَدْ يُقْسِمُونَ بِهِ عَلَى مَا ظَهَرَ لِي، لَتَوْثِيقِ أَخْبَارِهِمْ، وَوَعُودِهِمْ، وَعَهْودِهِمْ.

ومن تعظيمهم لِبَلَدِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ مِنْ دَخَلِهِ، وَلَا يَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ، وَلَا مَالَهُ، وَلَا عِرْضَهُ، وَقَدْ عَقَدُوا حِلْفَ الْفُضُولِ لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ، وَكَانَ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَانَ الرَّسُولُ قَدْ حَضَرَهُ قَبْلَ بَعْثَتِهِ.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ﴿٢﴾ : أَي: وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ بِضَمِيرِ «أَنْتَ» لغيره، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوَحَّى إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ كُبْرَاءَ مُشْرِكِي قَوْمِهِ جَلًّا، أَي: هَدَفًا، وَفِي هَذَا تَكْرِيمٌ وَتَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ. وجاء لفظ الْبَلَدِ هُنَا مَذْكَرًا، وَهُوَ أَحَدُ وَجْهَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ لَهُ، إِذْ يَجُوزُ أَنْ يُوْنَثَ.

﴿حِلُّ﴾ هذا اللفظ يأتي في اللُّغَةِ بمعنيين :

المعنى الأول: الغرض، أي الهدف الذي تُرْمَى إِلَيْهِ السَّهَامُ، يقال لُغَةً: اتَّخَذَهُ حِلًّا، أي: اتَّخَذَهُ غَرَضًا وَهَدَفًا يَرْمِي إِلَيْهِ سِهَامَهُ.

المعنى الثاني: الحِلُّ الحَلَالُ، يُقَالُ لُغَةً: هذا حِلٌّ لَكَ، أي: هذا حَلَالٌ لَكَ.

والمعنى الأول هو المعنى الملائم هنا، فكَبَارُ مُشْرِكِي قَوْمِ الرَّسُولِ فِي مَكَّةَ قَدْ اتَّخَذُوهُ هَدَفًا وَغَرَضًا يَرْمُونَ هِمَّ وَأَتْبَاعَهُمْ إِلَيْهِ سِهَامَ الْإِيذَاءِ وَالْاضْطِهَادِ، مُسْتَحِلِّينَ حُرْمَةَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، الَّذِي يَعْظُمُونَهُ، وَيَرَوْنَ حُرْمَةَ الْعَدَوَانِ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ أَحَدٍ مِنْ حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ أَوْ شَجَرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَمُخَالَفِينَ اعْتِقَادَهُمْ فِي حَرَمَتِهِ، وَوَجُوبَ تَأْمِينِ كُلِّ مَنْ فِيهِ، وَكُلِّ مَا فِيهِ، حَتَّى الدَّاخِلِ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَمُخَالَفِينَ مَبَادِيءَ جِلْفِ الْفُضُولِ، فَهَمُّ بِهِذَا قَدْ أَسْقَطُوا مِنْ نَفْسِهِمْ حُرْمَةَ هَذَا الْبَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيْهِمْ مِنْهَا مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَجْلِهِ، فَكَانَ الْمَلَأْتُ لِحَالِهِمْ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ :

أي: والحال: أَنْتَ مُتَّخَذٌ مِنْ كَفَّارِ قَوْمِكَ فِيهِ غَرَضًا لِسِهَامِ إِيْذَائِهِمْ وَاضْطِهَادِهِمْ، وَأَنْتَ رَسُولِي إِلَيْهِمْ وَإِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا الْبَيَانِ مِنَ التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ قَدْ اسْتَحَلُّوا حُرْمَةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ الَّذِي يَعْظُمُونَهُ، بِإِيْذَائِهِمْ وَعَدَوَانِهِمْ عَلَى رَسُولِ رَبِّهِمْ فِيهِ وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ فَاسْقَطُوا بِعَمَلِهِمْ حُرْمَةَ هَذَا الْبَلَدِ مِنْ قُلُوبِهِمْ.

وجاء في النَّصِّ تَكَرُّرَ عِبَارَةِ: ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، لِأَمْرَيْنِ:

الأول: التَّنَاسُقُ الْجَمَالِيُّ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ.



**الثاني:** التنبيه على أن المشركين استحلوا حرمة العظيمة لهذا البلد، بإيذاء رسول الله فيه، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه. فعبارة ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ في الآية الثانية تُشعر بعظم حُرْمَتِهِ، بَعْدَ تعيينه وتمييزه في الآية الأولى، فالمعنى: وأنت رسولي العظيم حلٌ بهذا البلد العظيم الذي لا يجوز أن يكون أحدٌ من الناس العاديين فيه حلاً. فكيف برسولي العظيم؟!

والخطاب في هاتين الآيتين مُوجَّهٌ للرُّسُولِ بصريح العبارة، لكن القضية التي يُراد تأكيدُها مَسْوَقةٌ لإقناع المكذابين بقانون الجزاء الربّاني، ويوم الدين، فهم المعنيون بمضمون الخطاب، وبما أن هؤلاء المعنيين إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قَدْ استحلوا حُرْمَةَ البلد الحرام، إِذْ جَعَلُوا رَسُولَ اللَّهِ فِيهِ حِلاً لَهُمْ، يُسَدِّدُونَ إِلَيْهِ سهام إيذاءاتهم، فالقسم بهذا البلد لا يؤثر في نفوسهم لتأكيد القضية المسوقة لإقناعهم، وهذا المعنى يلائمه أن لا يُقسم الله بهذا البلد. غير أن هذا البلد ذو حُرْمَةٍ عظيمة، فهو لهذه الحرمة يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَسِّمَ اللَّهُ بِهِ.

ففيه أوّل بيت وُضع للناس، وكانَ مَوْقعه أوّل ما بَرَدَ من قشرة الأرض على ما ورد في بعض الأخبار، وما من نبيٍّ إلّا حَجَّ إِلَيْهِ، وهو بلدٌ ذو حُرْمَةٍ عظيمة في نفوس العرب جميعاً، منذَ عَهْدِ رسول الله إسماعيل عليه السلام، ثم إن ذكريات بناء إبراهيم له مع ولده إسماعيل عليهما السلام بأمر الله، بَاقِيَةٌ متداولة في العرب عَبْرَ أَجْيَالِهِمْ.

ومراعاةً لاقتضاء القَسَمِ بهذا البلد وَعَدَمِ القَسَمِ به معاً، قال الله عز وجل ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ١ وأبان الله سبب هذا الإجراء بقوله خطاباً لرسوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢ وفي هذا تكريم عظيم للرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أي: ولو لم تكن حلاً بهذا البلد لكانت العبارة المناسبة: أَقْسِمُ بهذا البلد.

● ﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ٣ أي: وَكُلُّ وَالِدٍ، وَكُلُّ مَا وَلَدَهُ كُلُّ وَالِدٍ مِنْ أَنْسَالٍ، فِي كُلِّ الْأَحْيَاءِ الْمُتَوَالِدَةِ حَتَّى الْحَشَرَاتِ وَمَا دُونَهَا.

إنَّ ظاهرة الوالد وما وَلَدَ في عالم الأحياء من ظواهر خَلَقِ اللَّهِ العجيبة، التي تستحقُّ أَنْ يُقَسِّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بها، لتوجيه أنظار المخاطبين إلى دليلٍ من الأدلة على وجود الله وطائفةٍ من صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، ووجوب الإيمان به، ووجوب الإسلام له، ووجوب عبادته.

ودراسة هذه الظاهرة تحتاجُ باحثين من العلماء المتخصصين في دراسة الأحياء، وكيف تتكوَّن النُطفُ في الآباء، والبيضات في الأمهات، وكيف تتعقَّد الأجنة في الأرحام، وكيف تحضُل الأنسال.

(الواو) في: ﴿وَالِدٍ﴾ هي واو القسم، وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهاره، والتقدير: أَقْسِمُ أو أَخْلِفُ، ووالد وما ولد.

والمعنى العام: لا أَقْسِمُ بهذا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، أَقْسِمُ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، أوْ وَأَقْسِمُ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، على تقدير أنَّ المحذوف حرف العطف وفعل «أَقْسِمُ».

واختير لفظ: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ بدل لفظ: ومَوْلُود مُراعاة للنسَقِ اللَّفْظِي والتناظر في فواصل الآيات.

ولعلَّ في الجمع بين الْبَلَدِ الْحَرَامِ، ووالد وما وَلَدَ، إشارةً إلى أَنَّ هذا الْبَلَدَ أَوَّلُ أَرْضٍ ظَهَرَتْ عليها الحياة، وأول أرضٍ ظَهَرَتْ فيها السلالات الإنسانية، أليس فيها أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للناس؟!

● ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿١﴾:

﴿فِي كَبَدٍ﴾: الْكَبْدُ: الشَّدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ وَالضَّيْقُ وَمَعَانَاةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَوْ بَعْضُهُ.

وَمُكَابَدَةُ الْأَمْرِ: مَعَانَاةٌ مَشَقَّةٌ. يُقَالُ لُغَةً: كَابَدَ الْأَمْرَ، أَي: قَاسَى

شِدَّتُهُ وَمَشَقَّتُهُ. قال اللَّيْث: الرَّجُلُ يُكَابِدُ اللَّيْلَ، إِذَا رَكِبَ هَوْلَهُ وَصَعُوبَتَهُ. وَيُقَالُ: كَابَدَ الْأَمْرَ مَكَابِدَةً وَكِبَادًا، أَي: قَاسَاهُ. واسم الفاعل منه «كَابِدٌ» على غير قياس فِعْلُهُ.

ولفظ «الْإِنْسَانُ» عنوانٌ لكلِّ خصائصِهِ الَّتِي مَيَّزَهُ اللَّهُ بِهَا، وخصائصُ الإنسان وصفاته دليلٌ على الحكمة من خلقه في ظُروفِ الحياة الدُّنيا، وهي حكمة الامتحان، والامتحان يقتضي عقباتٍ يُطْلَبُ من الممتَحِنِ أَنْ يَفْتَحِهَا حتى يظفر بالنجاح الأسمى، أو بدرجَةٍ من درجات النجاح على مقدار ما افْتَحَمَ من عقباتٍ وَضِعَتْ له في امتحانه.

والامتحان يَسْتَلْزِمُ عَقْلًا حَسَابًا، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ الْجَزَاءِ، وَهَذَا يَأْخُذُ بِيَدِ الْمُتَفَكِّرِ الَّذِي يَتَنَقَّلُ مع اللّوْازِمِ الفِكْرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الدِّينِ.

وقد أُبْرَزَ النَّصُّ من ظروف الامتحان الَّتِي وَجَدَ الْإِنْسَانُ فِيهَا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فِي كَبَدٍ، فَالْكَبْدُ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ، مُنْذُ مِيلَادِهِ عَابِرًا رَحْلَةَ حَيَاتِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، حَتَّى وَفَاتِهِ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ مُضْطَرٌّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَنْ يَتَحَمَّلَ مُكَابِدَةَ الشَّدَائِدِ وَالْمَشَقَّاتِ، وَأَنْوَاعِ الضِّيقِ وَالْمَزْعِجَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ كَادِحًا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ، لِيَذْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ الْمَخَاطِرَ وَالْأَلَامَ، وَيَجْلِبَ لِنَفْسِهِ أَسْبَابَ الْعِيشِ، وَبِغَضِ اللَّذَاتِ، يَذْفَعُهُ حُلُو الْأَمَلِ فِي أَنْ يُحَقِّقَ لِنَفْسِهِ بِالْكَذْحِ الشَّدِيدِ مُخْتَلِفَ لَذَاتِ الْحَيَاةِ، وَأَنْوَاعَ مَتَاعِهَا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَلْتَهَبُ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ نَارُ الشَّوْقِ الْحَامِيَةِ، لَانْتِهَابِ اللَّذَاتِ، وَتَحْقِيقِ الرِّغْبَاتِ، طَمَعًا فِي الظَّفَرِ بِالسَّعَادَةِ الَّتِي لَا مَطْمَعٍ فِي الظَّفَرِ بِهَا فِي ظُروفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، دُونَ مُنْعَصَاتِ كَثِيرَاتٍ، وَمُكَدَّرَاتٍ وَمُفْلِقَاتٍ جَسِيمَاتٍ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَمِرُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى سِلْسِلَةٍ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَقَّاتِ  
الَّتِي يُعَانِيهَا وَيُكَابِدُهَا مُنْذُ نَشَأَتِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ.

وَمُكَابَدَةُ الْإِنْسَانِ مَقْرُونَةٌ بِكَذْحٍ لَا تَطُولُ الرَّاحَةُ بَعْدَهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ  
الْحَاجَةِ إِلَى التَّرْوُدِ بِطَاقَةِ لِكَذْحٍ آخَرَ.

وَالكَذْحُ هُوَ الْعَمَلُ بِتَكْلُفٍ وَمَشَقَّةٍ وَنَصِبٍ فِي كَسْبِ خَيْرٍ، أَوْ اكْتِسَابِ  
شَرٍّ.

لَقَدْ كَابَدَ الْإِنْسَانُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ كُلَّ عَقَبَةٍ حَوْلَهُ، حَتَّى صَارَ  
إِنْسَانًا فَعَرَفَ نَفْسَهُ.

كَابَدَتْ جُزْئِثُمَتَهُ الْأُولَى سِبَاقًا عَنِيفًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَلَائِكِينَ مِنْ أُمَثَالِهَا  
وَأَشْبَاهِهَا، حَتَّى اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَشُقَّ طَرِيقَهَا إِلَى الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَحِينَ تَطَوَّرَتْ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَخَلَقِهِ فَصَارَتْ جَنِينِ إِنْسَانٍ، كَابَدَتْ  
مَشَقَّاتِ السَّجْنِ الْمَخْدُودِ، وَالْقَيْدِ الْمَشْدُودِ، فِي بَطْنِ الْأُمِّ.

وَلَمَّا تَكَامَلَ الْجَنِينُ وَنَضَجَ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ أَنْ يَتَنَسَّمَ نَسِيمَ  
الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ، كَابَدَ مَشَقَّاتِ الثُّقُوزِ مِنَ الْمَضَاقِ الشَّدِيدَةِ عِنْدَ  
الْوِلَادَةِ.

وَمَا أَنْ دَبَّ عَلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ حَتَّى أَحَاطَتْ بِهِ مَشَقَّاتُ أَكْبَرِ حِجَمَاءَ،  
وَأَكْثَرِ عُدَدَاءَ، وَأَشَدُّ قَسْوَةٍ.

وَكَلَّمَا تَدَرَّجَ فِي أَطْوَارِ النُّمُو عَظُمَتْ أَمَامَهُ الْعُقَبَاتُ، وَتَطَلَّبَتْ مِنْهُ  
الْحَيَاةُ مُكَابَدَةَ أَعْظَمَ، لِتَحْصِيلِ الرِّزْقِ، وَدَفْعِ الْمَخَاطِرِ وَالْآلَامِ، وَلِلْمُسَابَقَةِ  
وَالْمُنَافَسَةِ مَعَ النَّظَرَاءِ، لِلْحُصُولِ عَلَى أَكْثَرِ نَصِيبٍ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَكَلَّمَا زَادَتْ لَدَيْهِ تَجَارِبُ الْكَذْحِ وَالْمُكَابَدَةِ فِي مُصَارَعَةِ مَشَقَّاتِ  
الْحَيَاةِ، وَاجْتِيَازِ عَقَبَاتِهَا، وَمُعَالَبَةِ كُلِّ مُعَارَضَةٍ أَوْ مُنَافَسَةٍ، ظَهَرَتْ فِي نَفْسِهِ

دوافع جديدة تُسوقه إلى مغامراتٍ جديدة، يُكابِد فيها آلاماً، فهو في تطلُّع مُستمرٍّ إلى الاستزادة، وكلُّما انتهى به كدُّه إلى جديد، ولذَّ له ذلك الجديد، نما في نفسه الحرص والطمع، فأخذ يُكابِد مشقَّاتٍ أخرى لتحصيل مطالبٍ أخرى للنفس، أو للفكر، أو للجسد، والعامل لدُنياه يكدُّ من أجل الدنيا، والعامل لآخرته يكدُّ من أجل الآخرة، وكلُّ منهما في مكابدة مستمرة، وكدح مُتتابع، وهما لا يتَّهيان إلا بموته.

هذه حقيقة مشهودة في السلوك الدائم للإنسان، وقد عبَّر عنها المعريُّ

بقوله:

تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَغْدَ جَبَّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ

إنَّ الإنسان حريصٌ على البقاء بدافعٍ فطريٍّ غَرَزَهُ اللهُ في أعماقه، فهو يتَحَمَّل من أجل ذلك أنواعاً من المكابدة والكدح الشاقَّين، للحصول على الرزق، وفي مكابدته وكدِّه يَضْطَرُّ بعقباتٍ كثيراتٍ، فإنَّ وصلَ إلى ما يُريد، كابَدَ مشقَّاتِ الحفظ والحماية من أيدي الظالمين، وإنَّ لم يصل إلى ما يريد، كابَدَ آلامَ الفَقْدِ والحرمان والخيبة.

هذا مثال، وفي حياة الإنسان أنواعٌ كثيرةٌ أخرى من المكابدات التي يُكابِدها، لتحقيق ما يتجدَّد في نفسه من رغبات: فلِلْحُبِّ مكابدةٌ وكدحٌ، ولِلْكَرَاهِيَةِ مكابدةٌ وكدحٌ، وفي الجودِ مكابدةٌ وكدحٌ، وفي الشحِّ مكابدةٌ، وفي الصُّبْرِ مكابدةٌ، وفي الضَّجَرِ مكابدةٌ، وفي الطمع مكابدةٌ، وفي القناعة مكابدةٌ، وفي طاعة الله والعمل بمراضيه، وفعل الخيرات، واجتناب المعاصي والمخالفات، مكابدةٌ وكدحٌ، وفي معصية الله، والعمل بمساخطه، وفعل الشرور، وارتكابِ المُوبقاتِ، لإرضاء الشهوات، مكابدةٌ وكدحٌ.

هكذا الحياة الدنيا للإنسان، تكادُ تكونُ مسالكها وطُرُقها مُكْتَظَّةً بما يَتَطَلَّبُ من سالكها مكابدةٌ وكدحاً لاجتياز عقباتها، كما قال الله عزَّ وجلَّ

في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

وكما قال عز وجل في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول)  
خطاباً للإنسان مؤمناً كان أم كافراً، تقياً كان أم فاجراً:

﴿يَتَأْتِيَكَ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (٦) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ  
بِإِيمَانِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) ﴿وَيَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ  
أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ (١٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي  
أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا﴾ (١٣) ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ (١٤) ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِم بَصِيرًا﴾ (١٥).

﴿يَدْعُوا ثُبُورًا﴾: أي: يَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يُهْلِكَهُ هَلَاكاً أَبَدِيًّا، إذ يكون له  
الموت راحة من العذاب.

﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ (١٤): أي: ظنُّوا أَن لَّنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ  
الموت.

إنَّ الإنسان لما كان في ظروف الحياة الدنيا ضِمنَ مُحِيطٍ به مِنَ الْكَبَدِ  
(=الشدة، والمشقة، والضيق، والمعاناة) كان بحاجةٍ إِلَى الْكَدْحِ (أي: إلى  
الكَدِّ وَالْعَمَلِ الشَّاقِّ بِنَصَبٍ وَصَبْرٍ عَلَى الْمَتَاعِ وَالْأَلَامِ) لتحقيقِ مطالبه  
العَاجِلَةِ وَالْأَجَلَةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فطالب الدنيا الذي لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا مَتَاعُهَا  
وَزِينَتُهَا وَالتَّفَاخُرُ وَالتَّكَاثُرُ مِنْهَا، يَكْدَحُ عَلَى مِقْدَارِ اسْتَطَاعَتِهِ لِلْوَصُولِ إِلَى  
مطالبه منها. وَطَالِبُ الْآخِرَةِ الذي جعل هدفه رضوانَ الله وَجَنَاتِ النِّعَمِ  
خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا، يَكْدَحُ عَلَى مِقْدَارِ اسْتَطَاعَتِهِ لِلْوَصُولِ إِلَى السَّعَادَةِ  
الْخَالِدَةِ.

وهنا وَبَعْدَ ظُهُورِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، يَتَسَاءَلُ الْمُتَفَكِّرُ الْمُتَدَبِّرُ: لِمَاذَا  
خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ ضِمنَ ظروفِ الحياة الدُّنْيَا فِي هَذَا الْكَبَدِ الْمُحِيطِ بِهِ،  
إِحَاطَةَ الْكُرَةِ الشَّامِلَةِ بِمَا فِي دَاخِلِهَا؟

ويستطيع بالتأمل المقرون بهذِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ، أَنْ يَعْرِفَ السَّبَبَ،

وهو أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مُّمْتَحَنٌ مُّبْتَلَىٰ فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، والابتلاء يقتضي التَّكْلِيفَ، ولا مَعْنَى للتكليف بدون مشقَّةٍ وَكَبَدٍ وَمُعَانَاةٍ، فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ ظروف الحياة الدُّنْيَا كَذَلِكَ، تُحِيطُ الْإِنْسَانُ بِالْكَبَدِ، كإحاطة الماء بالسَّمَكِ فِي الْبَحْرِ.

ولهذا فميادينُ الامتحاناتِ وَسَاحَاتُهَا لَا بُدَّ أَنْ تُبَيَّنَّ وَتُنشَرَ فِيهَا الْعَقَبَاتُ، وَالْمَقَارِزَاتُ، وَالْخُفَرُ، وَالْأَشْوَاكُ، وَالْمَخِيفَاتُ، وَالشَّدَائِدُ. إضافةً إِلَى مُرْضِيَّاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَمُحَقِّقَاتِ بَعْضِ اللَّذَاتِ الْمَمْنُوعَةِ الْمَحْرَمَةِ، وَبَعْضِ اللَّذَاتِ الْمَبَاحَاتِ.

وَالظَّفَرُ يَكُونُ بِاقْتِحَامِ الْعَقَبَاتِ وَاجْتِيَازِهَا، وَتَحْمُلِ الْمَكَابِدَةِ فِيهَا وَالْكَدَحِ، مَعَ كَرَاهِيَةِ النُّفُوسِ لَذَلِكَ، بِاجْتِنَابِ مُرْضِيَّاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَمُحَقِّقَاتِ اللَّذَاتِ الْمَحْرَمَاتِ، الْمُرِيئَاتِ لِلنُّفُوسِ، وَالْمُحِبَّاتِ لِدِينِهَا.

وبهذا الامتحانِ الصَّغْبِ عَلَى النُّفُوسِ يُكْتَشَفُ الْمُقْتَحِمُ الْكَيْسَ، الَّذِي يَجْتَازُ بِنَجَاحٍ، وَيَسْتَحِقُّ دَارَ الْكِرَامَةِ، وَمَقَامَ التَّكْرِيمِ، بِفَضْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي وَضَعَ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ. وَيُكْتَشَفُ الْعَاجِزُ الْمُرْتَكِسُ الَّذِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ، وَتَأْسِرُهُ شَهَوَاتُهُ، وَيَكُونُ كُلُّ هَمِّهِ مُتَعَلِّقًا بِرَغْبَاتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَيَجْتَازُ رَحْلَةَ امْتِحَانِهِ ظَالِمًا أَثِمًا، عَاصِيًا مُسْتَكْبِرًا عَلَى رَبِّهِ، وَمُتَمَرِّدًا عَلَى أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَتَنْتَهِي رَحْلَةُ امْتِحَانِهِ بِالْخِيبَةِ، مُبْعَدًا عَنْ دَارِ كِرَامَةِ الرَّحْمَنِ، وَمَقَامِ التَّكْرِيمِ عِنْدَهُ، وَمُسْتَحَقًّا الْعَذَابِ بِالْعَدْلِ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ.

ولو جعل الله الحياة الدُّنْيَا كُلَّهَا مَتَاعًا لَا كِبَدَ فِيهِ وَلَا كَذْحَ وَلَا مَتَاعِبَ وَلَا عَقَبَاتَ، لَمَا كَانَتْ صَالِحَةً لِامْتِحَانِ الْإِنْسَانِ فِيهَا.

فَوَاقِعُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِمَا فِيهَا مِنْ كَبَدٍ وَكَذْحٍ عَلَى تَجْدِينَ (أَي: طَرِيقَيْنِ) نَجْدٍ الْخَيْرِ وَنَجْدٍ الشَّرِّ، هُوَ مِنْ كِمَالِ الْحَكْمَةِ لِلْغَايَةِ مِنْ خَلْقِ

الإنسان مُزَوِّدًا بخصائصه التي جعله الله بها في أحسن تقويم، وهي قُدْرَاتُ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ وَالتَّفَكُّرِ، وَحُرِّيَّةُ الْإِرَادَةِ، وَغَرَائِزُ النَفْسِ، وَمَشَاعِرُهَا، وَعَوَاطِفُهَا، وَأَهْوَاؤها وشهواتها، وَالْحِسُّ الْوَجْدَانِيُّ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِالْمَسْخَرَاتِ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ.

وكلمة «الإنسان» المخلوق في كبد عنوانٍ لكلِّ خصائصه التي أشار إليها قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وفصلتها بَيِّنَاتٌ أُخْرَى تَعْلُقُ بخصائص الإنسان التَّكْلِيفِيَّةِ.

وَالْمَتَعَمِّقُ فِي حِكْمَةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، لَا بُدَّ أَنْ يُذَكِّرَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدْ أَعَدَّ لَهُ الْمَسْكَنَ الْخَالِدَ الْمَلَائِمَ لِهَذَا التَّفْضِيلِ الْعَظِيمِ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ.

وَحِينَ يَسْمَعُ أَخْبَارَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ، وَمُلْكٍ عَظِيمٍ، وَأَنَّهَا ذَاتُ مَرَاتِبٍ وَدَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، يُذَكِّرُ أَنَّ هَذِهِ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَسْكَنُ الْخَالِدُ الْمَلَائِمَ لَهُ، وَأَنَّ مَرَاتِبَهَا وَدَرَجَاتِهَا الْمُتَفَاضِلَاتِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اسْتِحْقَاقُهَا بِأَسْبَابٍ مِنَ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ ذَا إِرَادَةٍ حُرَّةٍ مَعَ خَصَائِصِهِ النَّفْسِيَّةِ الْآخَرَى، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ لَا يَسْتَحِقَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ لِيُنْعَمَ بِهَذَا الْمَسْكَنِ الْخَالِدِ الْعَظِيمِ، إِلَّا إِذَا آمَنَ بِرَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ وَهَيَّأَ لَهُ دَارَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ. وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَيْضًا أَنْ لَا يَسْتَحِقَّ مَرْتَبَةً أَوْ دَرَجَةً مُرْتَقِيَةً مِنْ مَرَاتِبِهَا أَوْ دَرَجَاتِهَا الْمُتَفَاضِلَاتِ، إِلَّا بِأَسْبَابٍ مِنْهُ تَجْعَلُهُ يَسْتَحِقُّهَا بِفَضْلِ الْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ.

وهنا تظهر لذي البصيرة فضائل الأعمال الظاهرة والباطنة، التي يَبْتَغِي الْإِنْسَانُ بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى مَا يُحِبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِبَادِهِ، وَيَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِرْتِقَاءِ فِي الْمَرَاتِبِ وَالدرجات، عَلَى مَقْدَارِ



ما اختار في الامتحان، وهذا الاستحقاق مُسْتَنَدٌ إِلَى وَعْدِ اللَّهِ الْكَرِيمِ  
المَقْرُونِ بوضعه موضع الامتحان في الحياة الدنيا.

أَمَّا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ جُحُودًا، وَاسْتَكْبَرَ عَنِ الْخُضُوعِ لَهُ بِإِعْلَانِ الْإِسْلَامِ  
لَهُ، وَإِعْلَانِ الطَّاعَةِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَالْحِكْمَةُ الَّتِي تَقْتَضِي الْعَدْلَ، أَنْ يَعامِلَهُ  
بَارئُهُ وَالْمَنَعَمَ عَلَيْهِ طَوَالَ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ بِالطَّرْدِ مِنْ مَجَالَاتِ رَحْمَتِهِ يَوْمَ  
الدين، وَبِإِدْخَالِهِ دَارِ الْعَذَابِ الَّتِي اعْتَدَاهَا لِلْكَافِرِ وَالْمُجْرِمِينَ، وَالْعَاصِينَ  
الْمُسْرِفِينَ فِي مَعَاصِيهِمْ، بِشَرَطِ إِعْلَامِهِ وَإِنْذَارِهِ بِذَلِكَ وَهُوَ فِي رَحْلَةِ  
امْتِحَانِهِ.

إِنَّ مَنْ كَانَ مِنْ هَذَا الْفَرِيقِ الْكَافِرِ الْجَاوِدِ الْمُجْرِمِ، أَوْ الْمَتَمَادِي فِي  
ارْتِكَابِ الْكِبَائِرِ الْكُبْرَى، قَدْ كَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِقًّا لِلتَّفْضِيلِ  
الَّذِي فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ.

وهنا تظهر لذي البصيرة رذائل الأعمال الظاهرة والباطنة، التي  
تُسَخِّطُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَكُونُ عَلَى مَا يَجْلُبُ مَقْتَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ عَلَى عِبَادِهِ.  
وعلى مقدارها يستحق الانحطاط والتسفل في منازل الجحيم ودركاتها، حَتَّى  
يَصِلَ بَغْضُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.



(٥)

**التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة**

**وهو الآيات من (٥ - ١٠)**

قال الله عز وجل:

﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۚ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۚ﴾ (٥) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ  
يَرَهُ أَحَدٌ ۚ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (٩) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) .

● ﴿يَحْسَبُ﴾ في الآية (٥) وفي الآية (٧) فيها قراءتان، إحداها بفتح السين، والأخرى بكسرها.

فقرأ بفتح السين، ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.  
وقرأ باقي القراء العشرة بكسر السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الفعل المضارع، أما الماضي «حَسِبَ» فبكسر السين فقط بمعنى ظنَّ ظناً تَوْهَمِيّاً ضعيفاً، فهذه المادة اللغوية لم تستعمل في القرآن إلا بمعنى الظنّ الضعيف التوهمي المرفوض، والتصورات الباطلات المخالفات للحقيقة.

● ﴿لُبْدًا﴾ فيها قراءتان، إحداها بتخفيف الباء المفتوحة، وهي قراءة معظم القراء العشرة، والأخرى بتشديد الباء المفتوحة، وهي قراءة أبي جعفر.

والمعنى: أَهْلَكْتُ فَأَفْنَيْتُ بِالْإِنْفَاقِ مَالاً كَثِيراً فِي إِعْدَادِ الْقَوَى مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْعِتَادِ، فَأَنَا بِهَا عَزِيزٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَغْلِبَنِي وَيُعَذِّبَنِي.  
يُقَالُ لُغَةً: مَالٌ لُبْدٌ، أَي: كَثِيرٌ جَمٌّ لَا يُخَافُ فَنَآؤَهُ، كَأَنَّهُ التَّبَدُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

وقراءة أبي جعفر: [لُبْدًا]: هِيَ جَمْعُ «لَابِدٌ» أَي: كَثِيرٌ مُتَلَبِّدٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. وَالْجَمْعُ يَدُلُّ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَابِدٌ كَثِيرٌ.

وبين القراءتين تكامل قائم على التوزيع، فبعض ذوي العزة يقول: أَهْلَكْتُ مَالاً كَثِيراً مُتَلَبِّداً بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وبعض ذوي العزة يقول: أَهْلَكْتُ أَمْوَالاً كَثِيراً مُتَنَوِّعَةً، كُلُّ نَوْعٍ مُتَلَبِّدٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

تمهيد:

في هذا الدرس إلماخ شبيه بالرمز إلى بعض الأوهام التي تسيطر على

أقسام متفرقة من الذين لا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرّبّانيّ، إذ تحجّبهم أوهامهم عن إدراك براهين هذا الإيمان.

والإلماح إلى هذه الأوهام من المنهج الرّبّانيّ القائم على التتبّع التفصيليّ الدقيق للموضوع الواحد، إذ تكون عناصره مُوزَّعة في عددٍ من سور القرآن المجيد.

والتتبّع هنا أَلْمَحَ أو أشار إلى ثلاثة تَوْهُمَاتٍ تُوجَدُ مُوزَّعةً في أصنافٍ من الناس.

(١) فأصحاب القوّة والعزّة والجبروت في الأرض، يَطْغَى على تصوراتهم أَنَّهُمْ بَلَّغُوا من القوّة الغالبة مبلغاً يحميهم من أن يَقْدِرَ عَلَيْهِمْ في دوائر نفوذهم أَحَدٌ فَيَغْلِبَهُمْ، وينالُهُمْ بَشَرٌ أو بِسُوءٍ، كَبَغْضِ ذَوِي القوّة العزيزة في مَكَّةَ إِبَّانَ التنزيل، وَكَفِرْعَوْنَ وَنُمرُودَ والأَكاسِرَةِ والقيَاصِرَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ.

هذا صنف من الناس حين يَشْعُرُ بأنّه عزيزٌ لا يُغْلَبُ، يَذْكُرُ متفاخراً أَنَّهُ قد أَتَفَقَ مالاً كثيراً مُتَلَبِّداً بعضه على بعض، أو أنواعاً من الأموال كُلِّ نَوْعٍ منها كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضه على بعض، حتّى جَمَعَ حوله من الأنصار والعتاد ما يحميه مستقبلاً من أيّة قُوّةٍ تُواجهُهُ لِتَغْلِبَهُ وتَسْلُطَ عليه، وتُصِيبَهُ بَشَرٌ أو سُوءٌ.

وهذا التوهم يَنْتَفِخُ في نَفْسِهِ انتفاخاً فاسداً، حتّى يَطْغَى على مراكز البصيرة فيها، وعندئذٍ لا يُبْصِرُ آيَاتِ الله في كونه، ولا يَسْمَعُ البيانات المنزلات من لَدُنْهِ، ولا تَعْمَلُ موازينه الفكرية فيما خُلِقَتْ له، حتّى يُمَيِّزَ الحقَّ من الباطل، والخيرَ من الشرِّ. فيَنسَى خالقه الَّذي خَلَقَ السماوات والأرض، وخالقَ كُلِّ القُوَى، وأنّه هو الَّذي مَنَحَهُ القوّة، ويسرَّ لَهُ سُبُلَ جَمْعِهَا، وأنّه هو الَّذي سَيُهْلِكُهُ مع الهالكين، فَمِنْ أعجب العجب أن يدفَعَهُ

غُرُورُهُ فَيَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ قَائِلًا: لَنْ يَقْدِرَ عَلَيَّ أَحَدٌ، وَيَقُولَ مُتَفَاخِرًا: لَقَدْ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبْدًا، إِنَّهُ غُرُورٌ يُوصِلُ أَصْحَابَهُ إِلَى جُنُودِ الْعِظَمَةِ<sup>(١)</sup>.

ولمّا كان هذا التوهم غير ذي قيمة فكرية صالحة للردّ عليها، لم يشتمل النصّ على عبارة تُشِيرُ إلى إسقاطه، فكَم من دُولٍ عظمى سلفت في تاريخ الناس، دَمَرَهَا اللَّهُ بِكُفْرِهَا وَفُجُورِهَا، وظلمها وطُغْيَانِهَا فِي الْأَرْضِ، بل اقتصر على بيان توهم المعبر عن غروره منهم.

● ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبْدًا ﴿٦﴾ ﴿٥﴾

(٢) وأصحابُ الغباءِ الحُسيُّونَ الحمقى الذين يتوهمون أنّ حواسِّهم المحدودةَ الضَّئيلةَ تُحِيطُ بِكُلِّ ما حولهم، يتوهمون أنّ قبائحهم وشُرورهم التي استخفّوا بها عن أغنيّ الناس، لم يَرها أَحَدٌ ممّا وَرَاءَ المنظورِ بأعينهم، وكذلك ما يُضْمِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ نِيَّاتٍ سَيِّئَاتٍ.

أي: فاللَّهُ وملائكته لا يَعْلَمُونَ بما فَعَلُوا فِي الْمَاضِي، ولا بما يَفْعَلُونَ فِي الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ، مِنْ خَبَائِثٍ وَجَرَائِمٍ، وظلم وعدوان، وبغْيٍ وَطُغْيَانٍ، وَفُجُورٍ وَعِصْيَانٍ، ولا يَشْهَدُونَ بما عَلمُوا مِنْ أحوالِهِمْ.

وهذا التوهم يجعلُهم يَجْحَدُونَ قانونَ الجزاءِ الرِّبَّانِيَّ، فلا حسابَ، ولا قضاءَ، ولا جزاءَ، ويؤمّ الدينَ أَمْرًا باطلًا لا صِحَّةَ لَهُ، في تصوراتهم المَعْتَمِدَةِ عَلَى الْعَمَى فِي بَصَائِرِهِمْ.

وإسقاطُ هذا التَّوَهُّمِ يَكُونُ بِإِرْجَاعِ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِخَالِقِهِ، الَّذِي جَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ يَرَى بِهِمَا، وجعلَ لَهُ فَمًا ذَا لِسَانٍ وَشَفَتَيْنِ يَنْطِقُ بِهِ.

(١) ومن الأمثلة المعاصرة لهؤلاء المغترّين دُولٌ عظمى تَمْلِكُ الْقُوَى الذَّرِيَّةَ وَالْهَيْدْرُوجِيَّةَ ذاتِ التدميرِ الشاملِ، وتتفاخرُ بِمِيزَانِيَّاتِهَا الضخمةِ المخصصةِ لْجِيُوشِهَا وَأَعْدَتِهَا، وترزَعُ أَنَّهُ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

وجاء هذا الإسقاط بأسلوب طرح سؤال على أهل العقل والرُّشد، ومن شأن هذا السؤال أن يَسْتَدْعِي إجابةً تُوصِلُ لوازمها الفكرية إلى إقامة الحجّة عليه، وإثبات نقيض توهمه، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ .

والجواب التلقائي يكون بكلمة «بلى» فقد جعل الله له عَيْنَيْنِ يَرَى بهما، ضَمَنَ حُدُودَ الْقُدْرَةِ على الرؤية التي منحها الله إيَّاهَا، وجعل له فَمًا ذا لِسَانٍ وَشَفَتَيْنِ، فهو ينطق به، ويُعَبِّرُ به عَمَّا يَعْلَمُ، في حُدُودِ اللُّغَةِ الَّتِي تَعْلَمُ رُمُوزَهَا الْكَلَامِيَّةَ.

أي: فَهَلْ يَمْنَحُهُ اللَّهُ الْخَالِقُ أدوات الإبصار، ويكون هو سبحانه فاقد البصر، وهل يَمْنَحُهُ الْإِنْبَارَ ولا يَمْنَحُ مَنْ يُرَاقِبُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أدواتِ إبصارٍ تَرَى أَعْمَالَهُ؟!

وهل يَمْنَحُهُ الْخَالِقُ فَمًا يَنْطِقُ به، ويكون هو سبحانه فاقد صفة الكلام، التي بها يُنَاقِشُهُ الْحَسَابُ، وَيُفْصِلُ الْقَضَاءَ بِشَأْنَهُ؟!!

وهل يمنحه الْخَالِقُ صفة النُّطْقِ الذي يُعَبِّرُ به عَمَّا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَعَانِي، ولا يَمْنَحُ مَنْ يَرَاقِبُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْقُدْرَةَ عَلَى النُّطْقِ والتعبير، حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِ بِمَا اكْتَسَبَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ؟!!

إِنَّ هَذَا لِأَمْرٍ لَا يَقْبَلُهُ مِنْ لَدَيْهِ مَقْدَارٌ قَلِيلٌ مِنَ الْفَهْمِ السَّوِيِّ الصَّحِيحِ، فَضْلًا عَنْ إِنْسَانٍ فَضَّلَهُ اللَّهُ بِأَدَوَاتِ الْعِلْمِ واكتساب المعرفة، وَجَعَلَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

ويمكن أن نستفيد من هذا الاستفهام المطروح حول قضيتي الرؤية والنُّطْقِ، نظيراً مَحْذُوفاً بِشَأْنِ قَضِيَّةِ الْقُوَّةِ، الَّتِي هِيَ الْقَضِيَّةُ الْأُولَى، فَيُقَالُ بِجَانِبِهَا: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ قُوَّةً فِي جِسْمِهِ؟!! أَلَمْ نُسَخِّرْ لَهُ الْأَشْيَاءَ فِي ذَاتِهِ وَمِنْ حَوْلِهِ، حَتَّى صَارَ بِهَا عَزِيزاً ضَمِنَ دَائِرَتَهُ؟!! أَلَمْ نَمْنَحْهُ ذَلِكَ وَنَحْنُ لَا نَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ، وَمُعَاقَبَتِهِ عَلَى جَرَائِمِهِ؟!! .

وفي طرح مثل هذه الاستفهامات تأنيبٌ لهذا الأحمق المغرور على تَوَهَّمَاتِهِ الحمقاوات.

(٣) ومن الناس فريقٌ يتوهَّمُونَ أَنَّ التَّمَكِينَ من سُلُوك طريق الخير وطَرِيق الشرِّ هو بمثابة إباحة سُلُوكِهِمَا، دون مسؤولية ولا حسابٍ ولا جزاء، فصاحب القدرة أو الحيلة هو المؤهل للظفر بالحظِّ الأكبر من مطالب نفسه وجَسَدِهِ.

ويأتي دَفْعُ تَوَهُّمِ هَؤُلَاءِ ببيانِ أَنَّ الخَالِقَ العظيم قد دَلَّهم عَلَى طَرِيقَي الخير والشرِّ، وأَعْلَمَهُم بِأَنَّ طريقَ الخير حَسَنٌ ونافعٌ مُفيد، وبأنَّ عواقبه سعيدة، وبأنَّ طريقَ الشرِّ قبيحٌ وضارٌّ، وبأنَّ عَوَاقِبَهُ وخيمة، وهذه الدَّلَالَةُ مغرورةٌ في فِطْرِ نُفُوسِهِمْ، وفيما وهَبَهُم الله من قدرات فهم وإِذْرَاكِ واستِنْبَاط.

ثُمَّ أَبَانَ لَهُمْ بما أنزل على عباده من شرائع الدين وأَحْكَامِهِ طَرِيقَي الخير والشرِّ، وأَعْلَمَهُم بِأَنَّ من سَلَكَ طريقَ الخير أَرْضَى بِسُلُوكِهِ رَبَّهُ، ونال الأَجَرَ العظيم والثوابَ الجزيلَ يَوْمَ الدِّين من فضله، مع ما قد يَمُنُّهُ من بغضِ ثوابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، وأَعْلَمَهُم بِأَنَّ مَنْ سَلَكَ طريقَ الشرِّ أَسْخَطَ بِسُلُوكِهِ رَبَّهُ، واستحقَّ به عقَابَ الله وعذابه على ما اكتسب من آثام، وحَمَلَ من أوزارٍ في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

وجاءت الإشارة إلى دفع تَوَهُّمِ هَؤُلَاءِ هذا الفريق من النَّاسِ في قول الله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس بشأن كُلِّ قَرْدٍ لَدَيْهِ هذا التوهم:

● ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠):

أي: وَهَدَيْنَاهُ طَرِيقَ الْحَقِّ والخير، وطَرِيقَ الْبَاطِلِ والشرِّ. التَّجْدُ: في اللُّغَةِ المرتَفِعُ من الْأَرْض، فالمراد: وَهَدَيْنَاهُ الطَّرِيقَيْنِ المَرْتَفِعَيْنِ الواضِحَيْنِ الْبَيِّنَيْنِ، فَكَلِمَةُ «التَّجْدَيْنِ» صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ محذوف، تَقْدِيرُهُ «الطَّرِيقَيْنِ» وقد

نابت الصِّفَةُ عَنِ الْمُوصُوفِ بِهَا، فاستُغْنِيَ بِعِبَارَةِ «التَّجْدِينَ». وهذا الوصف يُشْعِرُ بِأَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَاضِحٌ جَلِيٌّ، وبأنَّ طَرِيقَ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ.

وقد يَدُلُّ ارتفاعهما على حاجة سالك كُلِّ منهما إلى كدحٍ ومكابدة. أما طريق الحق والخير فهو مَخْفُوفٌ بالمكارة، على مراحلِهِ طَوَالِ عُمُرِ سَالِكِهِ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِهِ، لِيُظْفَرَ فِي نَهَايَةِ الْمَسِيرَةِ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ، وَالتَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَالمُجْدِ الْعَظِيمِ، وقد انبثت في هذا الطريق عقباتٌ ابتلائيةٌ يَطَالِبُ سَالِكَهُ بِاقْتِحَامِهَا، لِيُظْفَرَ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ.

وأما طريق الباطل والشر فهو مَخْفُوفٌ بالشهواتِ والأهواءِ والمغرياتِ والمزالقِ، وَغَايَتُهُ عَذَابٌ وَشَقَاءٌ، وَخِيبةٌ دائمة، وَحَسْرَةٌ وَنَدَمٌ.

وفي بيانِ هِدَايَتِهِ إِلَى هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ إِشَارَةٌ إِلَى الْغَايَةِ مِنْ خَلْقِهِ، إِذْ هُوَ مُزَوَّدٌ بِقُدْرَاتٍ عَلَى الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وبأدواتِ إحساسٍ توصله إِلَى مَشَاهِدَةِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، وَبِقُدْرَاتٍ فِكْرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَمَشَاعِرَ وَجْدَانِيَّةٍ يُذَكِّرُ بِهَا الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالصَّلَاحَ وَالْفُسَادَ، وَالنَّافِعَ وَالضَّارَّ، وَالْمُؤَلِّمَ وَالسَّارَّ، إِلَى سَائِرِ مَا فِي نَجْدِي الْحَيَاةِ الْمُتَضَادِّينَ، مع ما هو مزوَّدٌ به مِنْ إِرَادَةِ حُرَّةٍ فِي اخْتِيَارَاتِهَا.

هذه الغاية من خلقه هي ابتلاؤه وامتحانُه فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَشَفُ اخْتِيَارَاتِهِ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، الَّتِي يَسْتَخْدِمُ بِهَا مَسْحَرَاتِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ.

وَإِذْ جَعَلَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقًا مَمْتَحَنًا فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَجَعَلَهُ لِذَلِكَ مُحَاطًا بِالْوَسَائِلِ الَّتِي تَسْتَدْعِي مِنْهُ أَنْ يَكَابِدَ فِي حَيَاتِهِ أَلْوَانَ الْمَشَقَّاتِ وَالْمَتَاعِبِ، وَأَنْ يَكُونَ كَادِحًا عَامِلًا كَادًا. فَقَدْ جَعَلَهُ مُمَكِّنًا مِنْ أَنْ يَسْلُكَ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ نَجْدَ الْخَيْرِ، ذِي النِّهَايَةِ الْمُسْعِدَةِ لَهُ، وَأَنْ يَسْلُكَ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ نَجْدَ الشَّرِّ، ذِي النِّهَايَةِ الْمَشْقِيَّةِ لَهُ.

ولهذا كان كلُّ جزءٍ من أجزاء مَيَادِينِ وَسَاحَاتِ امتحانه في الحياة الدُّنْيَا، المَادِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ، الجَسَدِيَّةِ والنَفْسِيَّةِ، ذا طَرِيقَيْنِ نَجْدَيْنِ واضِحَيْنِ جَلِيَّيْنِ، والسَّالِكُ في أيِّ واحدٍ مِنْهُمَا لا يَتَحَقَّقُ له العبورُ إِلَّا بِمُكَابَدَةٍ وَكَذَحٍ.

إِنَّ كَوْنَ الإنسانِ مَخْلُوقاً في كَبَدٍ، وهو ما أَبَانَهُ الدرسُ الأوَّلُ من دروسِ السُّورَةِ بصورةٍ مُؤَكَّدَةٍ جَدًّا، يَدُلُّ ذَوِي الأَلْبَابِ على أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مَمْتَحَنٌ في ظُرُوفِ هذه الحياةِ الدُّنْيَا، وهذه القَضِيَّةُ ذاتُ لوازمٍ فِكْرِيَّةٍ كَثِيرَةٍ.

● فمن لوازمها أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَزُوداً بِكُلِّ الخَصَائِصِ الَّتِي تُؤْهِلُهُ لِأَنْ يَكُونَ مَخْلُوقاً مَمْتَحَنًا، وقد جاءَ هذا مَفْصَلاً في عَدَدٍ من سُورِ القرآنِ المَجِيدِ.

● ومن لوازمها أَنْ يُبَيَّنَ له ما يُطَلَّبُ مِنْهُ في رَحَلَةِ امتحانه أَنْ يَعْمَلَهُ، مَتَحَمُّلاً مُكَابِدَةَ عَمَلِهِ، وما يُطَلَّبُ مِنْهُ في رَحَلَةِ امتحانه أَنْ يَتْرَكَهُ أَوْ يَجْتَنِبَهُ، مَتَحَمُّلاً مُكَابِدَةَ تَرْكِه أَوْ اجْتِنَابِهِ.

وقد جاءَ التَّنْبِيهُ على هذا في قولِ الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠):

أي: أَبْنَا لَهُ مَا يُطَلَّبُ مِنْهُ أَنْ يَعْمَلَهُ، وما يُطَلَّبُ مِنْهُ أَنْ يَتْرَكَهُ أَوْ يَجْتَنِبَهُ، بالكتبِ المَنْزَلَةِ، وببِلاغاتِ المَرْسَلِينَ، وببصيرةِ العَقْلِ، وبالحسِّ الوجودانيِّ، وهو واعِظُ اللَّهِ في قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ.

الحديث عن نوع الإنسان في هذه السُّورَةِ مع إرادة العموم أو إرادة الخصوص:

جاءَ الحديث عن نوع الإنسان في هذه السُّورَةِ بقولِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (١) والمرادُ كُلُّ فَرْدٍ من أَفْراده، إِذِ الواقعُ يؤيِّدُ



هذا العموم. وَبَعْدَهُ جاء الحديث عنه بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾﴾ والمراد خصوصُ الكفرة من أهل العِزَّة والجَبْرُوتِ في الأرض، المغرورون بقواتهم الغالبة لمنافسيهم ممن حولهم من الناس، بدليل أَنَّ الواقع يكشف أن من يَتَوَهُّمُ هذا التوهُّمَ فريقٌ من أهلِ العِزَّة والجبروتِ في الأرض، وهؤلاء قَلَّةٌ، لكن لو ملك كثيرٌ من الضعفاء مثل هذه القوة لَسَيَطِرَ عليهم هذا التوهُّم. وبعد هذا جاء الحديث عن الإنسان أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ والمراد خصوصُ الكَفَرَةِ المَادِّيَّينَ الْحَسِيِّينَ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وجودَ غَيْرِ ما يَرَوْنَ في مَدَى رُؤْيَيْهِمْ، مع أَنَّ الوسائل العلمية تُكشِفُ لهم حيناً فحيناً وجودَ أشياء كانت خفيةً عليهم، وهي ضمن مَدَى رُؤْيَيْهِم المباشرة، أو مع استعمال ما كانوا يملكون من مُكَبَّرَاتٍ وَمَجَاهِرٍ.

فما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول:

إنَّه أسلوبٌ تَرْبَوِيٌّ يستعمله العظماء، وكُبراء الأَقْوَامِ، إِذْ يُخَاطَبُونَ جميع الأفراد خطاباً عاماً بقضايا تَشْمَلُهُمْ جميعاً، ثُمَّ يُوجِّهُونَ التَّلْوِيمَ لِعَيْنِ مُعَيَّنٍ فِيهِمْ بِأَسْلُوبٍ عَامٍّ أَيْضاً، والمقصودُون المَوْجَّهُ لهم الكلام هم الْفَرِيقُ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ التَّلْوِيمَ، لا جَمِيعُ الْأَفْرَادِ.

ونظيره: أن يقول الأبُّ لأولاده وقد جَمَعَهُمْ لتأديبِهِمْ: أَنتُمْ جميعاً أولادي، رَبِّيتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِجَهْدِي، وعاطفتي، وحناني، ومالي، وكذبي، وسَهْرِي.

أَيَحْسَبُ وَلَدِي الَّذِي هُوَ فَلَذَةُ كَبْدِي أَنِّي أَكْرَهُهُ، وَأَنِّي لَسْتُ حَرِيصاً عَلَى سَعَادَتِهِ، وَأَنِّي لَا أَوْثِرُ سَعَادَتَهُ عَلَى سَعَادَتِي!!

مع أنَّ المقصود بالكلام واحدٌ منهم بعَيْنِهِ، لكن لم يُخَصَّه بخطاب، لِيَدَعَ له مجالاً للتخلُّص من أوهامه، دُونَ تشهير به.

والحديث عن الإنسان في القرآن بِصِفَاتٍ هي في قِسْمٍ من نَوْعِهِ، لا في كلِّ نوعه، هو من أسلوب التعميم أو الإطلاق الذي يُرادُّ به بغضُّ الأفراد لا جميع الأفراد، لغرضٍ بلاغيٍّ أو تَرْبَوِيٍّ.

ومن الأغراض البلاغِيَّةُ إرادةُ الكَثْرَةِ الَّتِي تُنَاسِبُهَا المبالغة بالتعميم أو بالإطلاق.

ومن الأغراض إرادة أنَّ الظاهرة عامَّةٌ في النوع أو غالبيةٌ إذا تُرِكَ كُلُّ فردٍ منهم لِنَفْسِهِ، دون مُعَدِّلٍ ومُقَوِّمٍ إيمانيٍّ إسلاميٍّ، قاعدتهُ الإيمانُ بالله وباليوم الآخر، والخشيةُ من الله عزَّ وجلَّ، واتباعُ شريعتهِ ومُناهجِهِ لعباده، والإسلامُ له.

ومن الأغراض التربويَّةُ مُدَاراةُ مشاعرِ الثُّقُوسِ، بِعَدَمِ جَرْحِهَا بالتشهير، وباستثارة حماسِهَا الذاتيَّةِ لِسُلُوكِ سبيلِ الاستقامة الواضِحِ، دون حاجةٍ إلى تأنيبٍ مباشرٍ، أو سَوْقٍ بعُنفٍ.

ومن الأغراض جعلُ النصِّ صالحاً للانطباق على كلِّ من يَتَّصِفُ بالصفة المذمومة فيه مهما توالَّتِ العصور، وتتابعتِ الأجيال من الناس.

ومن الأغراض الإشعارُ بأنَّ الإنسان بحاجةٌ إلى الدين الذي يهديه للتي هي أقوم، ويؤثِّرُ على نَفْسِهِ من مِخْوَرِي مطامعها ومخاوفِهَا، بالتَّزْغِيبِ وبالتَّرهيبِ، فلو تُرِكَ لِنَفْسِهِ دون إرسالِ رُسُلٍ وإنزالِ كُتُبٍ، لكانَ أَغْلَبُ أفرادِهِ كَفَّارِينَ مُجْرِمِينَ طُغَاءَ بُعَاةٍ مُفْسِدِينَ في الأرض.



(٦)

## التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (١١ - ٢٠) آخر السورة

قال الله عز وجل :

﴿فَلَا أَفْنَحَمُ الْعَقَبَةَ ۚ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ (١٢) فَكَّ رَقَبَةٍ ۚ (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ (١٤) بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ ۚ (١٥) أَوْ وَسَّكَيْنَا ذَا مَقَرَبَةٍ ۚ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۚ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْمَنَةِ ۚ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِلُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمُنْمَنَةِ ۚ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ (٢٠)﴾ .

● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: [فَكَّ رَقَبَةً \* أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ]. على أن «فَكَّ» فعلٌ ماضٍ، و«رَقَبَةً» مفعولٌ به. و«أَطْعَمَ» فعلٌ ماضٍ.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَكَّ رَقَبَةٍ ۚ (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ (١٤)﴾ على أن لفظة «فَكَّ» مَضَر، ولفظة «رَقَبَةٍ» مضافٌ إليه ولفظة «إِطْعَمْتُ» مَضَرٌ أيضاً.

والقراءتان من قبيل التَّفَقُّنِ في التعبير، ومؤداهما متماثل.

● قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ بتحقيق الهمزة الساكنة بعد الميم، من فعل «أَصَدَّ» بالهمز.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مُؤَصَّدَةٌ] من فعل «أَوْصَدَ» بالواو.

يقال لغة: أَصَدَ البابَ يُؤَصِّدُهُ، وَأَوْصَدَهُ يَوْصِدُهُ إِيصَاداً، أي: أغلقه.

تمهيد:

إنَّ من لوازم كون الإنسان مخلوقاً في كَبَدٍ ضمن ظروف الحياة الدنيا، أن يكون مُمْتَحَناً فيها، وإنَّ من لوازم الامتحان في رحلة الإنسان في هذه

الحياة الدنيا، ذاتِ الكَبَدِ لجميع أفرادِهِ، أن يكون المطلوبُ منه اقتحامَ عَقَبَاتٍ يَرَى اقْتِحَامَهَا مِنَ الْمَكَارِهِ، وَالْإِحْجَامِ عَنْ سُلُوكِ سُبُلٍ يَرَى فِي سُلُوكِهَا إِرْضَاءَ أَهْوَاءِ وَشَهَوَاتِهِ، وَتَحْقِيقَ لَذَاتٍ وَرَغَبَاتٍ مُزَيَّنَاتٍ لِلنَّفُوسِ، فَهِيَ تَنْدَفِعُ نَحْوَهَا بِقُوَّةٍ، وَهَذَا الْإِحْجَامُ مِنَ الْمَكَارِهِ أَيْضاً.

وَكُلٌّ مِنَ الْاِقْتِحَامِ وَالْإِحْجَامِ يُقْصَدُ بِهِ ابْتِغَاءُ طَاعَةِ اللَّهِ الرَّبِّ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْمُجَازِي، السَّمِيعِ الْبَصِيرِ الْقَدِيرِ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِلْإِبْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَالْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَى.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ الْامْتِحَانِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ. إِذِ الْامْتِحَانُ بَدُونِ جَزَاءٍ مَسْبُوقٍ بِحِسَابٍ وَفَضْلٍ قَضَاءٍ عِبَتْ، وَعَمَلٌ بَاطِلٌ لَا جَدْوَى مِنْهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَنَزَّ عَنْهُ الرَّبُّ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ، ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْعَظْمَى، جَلَّ جَلَالُهُ.

فَالْقَسَمُ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ، مَرْكَزِ نَشْأَةِ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ، مَعَ الْقِسْمِ بِظَاهِرَةِ خَلْقِ الْحَيَاةِ ضِمْنَ سَنَةِ التَّنَاسُلِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْإِدَّ وَمَا وَلَدَ، فِي كُلِّ سَلَالَتِ الْأَحْيَاءِ الْمَشْهُودَةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَمِنْهُمْ السَّلَالَةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي بَدَأَتْ بِخَلْقِ آدَمَ، عَلَى الْغَايَةِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، الَّتِي عُبِّرَ عَنْهَا بِبَغْضِ لَوَازِمِهَا، وَهِيَ كَوْنُ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقاً فِي كَبَدٍ، وَمَا اسْتَدْعَاهُ هَذَا الْإِلْزَامُ مِنْ لَوَازِمِ أُخْرَى فِي سِلْسِلَةِ مَتَمَاسِكَةِ الْحَلَقَاتِ، كُلُّ ذَلِكَ قَدْ أَوْصَلَ إِلَى السُّؤَالِ عَنِ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَعَنِ الْمَصِيرِ الْجَزَائِيِّ الْمُعَدَّ لَهُ.

وَقَدْ جَاءَ الدَّرْسُ الثَّلَاثُ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ مُتَضَمِّناً بَيَانَ الْمَطْلُوبِ الْاِعْتِقَادِيِّ، وَأُمُثْلَةً مِنَ الْمَطْلُوبِ السُّلُوكِيِّ فِي رِحْلَةِ الْامْتِحَانِ، وَبَيَانَ الْمَصِيرِ الْجَزَائِيِّ الْمُعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَالْمَصِيرِ الْجَزَائِيِّ الْمُعَدَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ.

● قول الله تَعَالَى: ﴿فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ١١.

**الافتحام:** هو الدخول بشجاعةٍ وجُرأةٍ في الأمور والمواضع الصَّعبة الشاقة، كارتقاء العقبات، والقفز لاجتياز المهاوي الخطرة، والمعتراضات العسيرات.

يقال لغة: اقتحم الرَّجُل الأمر العظيم، وأَفْتَحَمَ الفارسُ فَرَسَهُ النَّهْرَ، إذا أَدْخَلَهُ فيه مع خطورته، ويقال: أَفْتَحَمَ السَّجِينُ السَّوْرَ، أي: هَجَمَ لاجتيازه بقوة. وهكذا.

وشأن العقبات الصَّعبة أَنْ تُفْتَحَمَ اقتحاماً.

**والعقبة:** هي مرقى صعبٌ من الجبال، وطريقٌ في الجبل وغرٌّ، وجمعها عقبات، وعِقَابٌ.

وهكذا التكاليف العمليَّة في رحلة الامتحان عبر الحياة الدُّنيا.

وقد أخبر الله عزَّ وجلَّ عن الإنسان الذي تحدَّث عنه السورة، سواءً أكان مغروراً بعزَّته، أم قابعاً بغيبائه في حدود محسوساته، أم يحسبُ أنَّ التمكين من سلوك طريق الخير أو طريق الشرِّ بمثابة الإباحة العامة، بأنَّه لم يُحقِّقْ أَقْلٌ مِقْدَارٍ من المطلوب منه في رحلة ابتلائه في الحياة الدنيا، فلا هو أَفْتَحَمَ فَسَلَّكَ نَجْدَ الحقِّ والخير، ولا هو أَحْجَمَ عن سلوك نَجْدِ الباطل والشرِّ، بل اتَّبَعَ أهواءه، وشهواته، وسَلَّكَ سُبُلَ الضلالة والشرِّ.

﴿فَلَا﴾: الفاء حرف عطف فيه معنى الترتيب والتعقيب على هداية

الإنسان المتحدِّث عنه في السورة النَّجْدَيْنِ. و[لَا] حرف نفْيٍ إذا دَخَلَ على الفعل الماضي لنفيه، وجب عند علماء العربية تكرارها، بعطف جملةٍ منفِيةٍ بحرف «لَا» على جُمْلَتِهَا، مثل: لَا أَكَلْتُ وَلَا شَرِبْتُ، ومثل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا

صَلَّى﴾ ٢١.

فكيف نوجه عدم تكرارها هنا في قول الله عز وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ

الْعَقَبَةَ﴾؟

قال أهل التفسير: هو على تقدير جملة محذوفة، أي: فلا آمن ولا اقتحم العقبة.

أقول: لما كان المطلوب منه بالنسبة إلى التَّجْدِينَ أَنْ يَقْتَحِمَ عَقَبَةَ نَجْدِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَأَنْ يُخْجِمَ عَنْ سُلُوكِ نَجْدِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ لِهَذَا أَنْ تُقَدَّرَ الْمَحْذُوفُ كَمَا يَلِي: فَلَا اقْتَحَمَ عَقَبَةَ نَجْدِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَلَا أَخْجِمَ عَنْ سُلُوكِ نَجْدِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ.

والمعنى: فلا فعل ما أمره الله به، فاقْتَحِمَ بِذَلِكَ عَقَبَةَ نَفْسِهِ، وَمَا يَشُقُّ عَلَيْهَا مِنْ مَكَارِهِ، وَلَا تَرَكَ مَا نَهَاؤُ اللَّهِ عَنْهُ، فَأَحْجَمَ عَنْ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِهِ وَشَهَوَاتِهِ الْجَامِحَاتِ الْجَانِحَاتِ، الَّتِي تَغْرُهُ بِزِينَاتِهَا وَحَلَاوَةِ لَذَاتِهَا، وَهِيَ تَهْوِي بِهِ إِلَى شِقَائِهِ الْأَبَدِيِّ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ مَنْ لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ لِاقْتِحَامِ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ، الَّتِي تَجْعَلُهُ يَسْلُكُ صَاعِدًا إِلَى سَعَادَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزَلِقَ فِي الْمَسَالِكِ الْهَابِطَةِ إِلَى السَّعِيرِ، وَبَشَسَ الْمَصِيرِ.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ «مَا» اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ عَنْ غَيْرِ الْعَاقِلِ، وَعَنْ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمَاهِيَّتِهِ، وَهُوَ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأٌ، وَجُمْلَةُ «أَدْرَاكَ» فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرٌ. وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ يُرَادُّ بِهِ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ الْقِرْآنِيَّةِ التَّعْظِيمُ وَالتَّعْجِيبُ، فَهِيَ مِنْ صَيَغِ التَّعْجِيبِ الْقِرْآنِيَّةِ الْمُبْتَكِرَةِ، ضَمَّنَ أَصُولَ وَقَوَاعِدَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

﴿مَا الْعَقَبَةُ﴾: جملة مؤلفة من مبتدأ هو «مَا» وخبر هو «العقبة».

وجملة «ما العقبة» في محل نصبٍ على أنها مفعولٌ به ثانٍ للفعل في عبارة

«أَذْرَاكَ». أي: وَمَا أَعْمَلَكَ مَقْدَارَ اقْتِحَامِكَ الْعُقْبَةَ عِنْدَ رَبِّكَ؟! فَأَنْتَ لَا تَذَرِي مَقْدَارَ ثَوَابِ اقْتِحَامِهَا عِنْدَ اللَّهِ.

والمعنى: أعظم بأمر هذه العقبة النفسية، وأمر اقْتِحَامِهَا عِنْدَ اللَّهِ، إعْظَاماً لَا تَصِلُ إِلَيْهِ دِرَايَتُكَ مَهْمَا فَكَّرْتَ، وانطلقت مع تصوُّراتِكَ إِلَى أُبْعَدِ مَا لَدَيْهَا مِنْ مَدَى تَصِلُ إِلَيْهِ، وإِعْظَامُهَا إِنَّمَا هُوَ إعْظَامُ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ الْجَلِيلِ الَّذِي يَظْفَرُ بِهِ مَقْتَحِمُهَا عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

وبَعْدَ هَذَا التَّعْظِيمِ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْعُقْبَةِ النَّفْسِيَّةِ، أَي: مِنْ شَأْنِ اقْتِحَامِهَا الَّذِي يَنْتَضِمُّ التَّشْوِيقُ إِلَى هَذَا الْاِقْتِحَامِ، ضَرْبَ اللَّهْ عَزَّ وَجَلَّ أُمُثَلَةً مِنْ عُنَاصِرِهَا الْمُبَيِّنَةِ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ.

● قول الله تعالى: ﴿فَكَ رَقَبَةً ۝١٣﴾:

أي: تَخْلِيصُ الرَّقِيقِ أَوْ الرَّقِيقَةِ مِنْ إِسَارِ الرُّقِّ، وَيَكُونُ هَذَا التَّخْلِيصُ بِالْإِعْتِاقِ، أَوْ بِالمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ.

تقول لغة: فَكَ الرَّقَبَةُ يَفْكُهَا فَكًّا، إِذَا أَعْتَقَهَا، أَوْ أَعَانَ عَلَى عِتْقِهَا. وَأَضْلُ الْفَكَ الْفَضْلُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتْرَابَطَيْنِ، وَتَخْلِيصُ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْآخَرِ.

وَأُطْلِقَ عَلَى عِتْقِ الرَّقِيقِ عِبَارَةُ فَكَ الرَّقَبَةِ، لِأَنَّ الْأَسِيرَ حِينَ يُؤَسَّرُ لِيُسْتَرْقَ، تُرَبِّطُ رَقَبَتَهُ، أَوْ تُغْلُ عُنُقَهُ، وَيُسَاقُ بِذَلِكَ أَوْ يُقَادُ وَيُسْتَرْقُ، فَجَاءَتْ الْكُنَايَةُ عَنْ عِتْقِ الرَّقِيقِ بِفَكَ الرَّقَبَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُعْتَقُ الرَّقَبَةُ إِلَّا مَنْ يَقْتَحِمُ عُقْبَةً مِنْ عُقْبَاتِ نَفْسِهِ، بِحَسَبِ قِيَمَةِ الرَّقِيقِ الْمَالِيَةِ، أَوْ بِحَسَبِ تَعَلُّقِ مَالِكِهِ بِهِ، وَعِتْقُ الرَّقِيقِ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْبِرِّ.

وَنُلاحِظُ أَنَّ الْإِسْلَامَ مِنْذُ أَوَائِلِ نُصُوصِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ، قَدْ حَثَّ

على عتقِ الأرقاء، وهذا يدلُّ على جِزْص الإسلام على تحرير الناس من العبودية للعباد.

إنَّ عَتَقَ الرَّقِيقِ إِحْيَاءَ لِحَرِيَّةِ إِنْسَانٍ مَاتَتْ بِالْاِسْتِزْقَاقِ، وإحياء لكرامته، وهما من أفضل العناصر التي يمتاز بها الإنسان، بَعْدَ قُدْرَاتِ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ والانتفاع من المسخرات له في ذاته وفي الكون من حوله.

● قول الله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾: أي: في يَوْمٍ ذِي مَجَاعَةٍ عَامَّةٍ.

المَسْغَبَةُ: الجوع، يُقَالُ لَغَةً: سَغِبَ يَسْغَبُ، وَسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْبًا، وَسَعَبًا، وَسَعَابَةً، وَسُغُوبًا، وَمَسْغَبَةً.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾: الْيَتِيمُ: يُطْلَقُ فِي اللَّغَةِ عَلَى الصَّغِيرِ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، فَإِذَا بَلَغَ الْحُلُمَ زَالَ عَنْهُ اسْمُ الْيَتِيمِ، وَيُجْمَعُ «يَتِيمًا» عَلَى «أَيَّامٍ» وَ«يَتَامَى».

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: أي: صَاحِبَ قَرَابَةٍ، وَهِيَ قَرَابَةُ النَّسَبِ.

﴿أَوْ مَسْكِينًا﴾: الْمَسْكِينُ هُوَ مَنْ تَبَدُّو عَلَيْهِ عِلَامَاتُ الْفَقْرِ، وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ فَقِيرٍ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِ، هَذَا مَا تَحَقَّقَ لَدَيْهِ بَعْدَ اسْتِقْرَاءِ النُّصُوصِ وَسَبَرِ مَعَانِيهَا.

﴿ذَا مَتْرَبٍ﴾: الْمَتْرَبَةُ فِي اللَّغَةِ الْفَقْرُ، أَي: ذَا فَقْرٍ حَقِيقِيٍّ، وَهَذَا وَضْفٌ تَقْيِيدِيٌّ لِعُمُومِ لَفْظِ: ﴿مَسْكِينًا﴾. وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْوَضْفُ التَّقْيِيدِيّ لإخراج المتظاهرين بالمسكنة، وهو غير ذي فقرٍ حَقِيقِيٍّ، والغرض من إخراجهِ رِعَايَةَ حَقِّ الْفُقَرَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ فِي يَوْمٍ ذِي مَجَاعَةٍ عَامَّةٍ، إِذْ إِطْعَامُ الْمَسَاكِينِ الْمَتَظَاهِرِينَ بِالْفَقْرِ فِي أَيَّامِ الْمَجَاعَاتِ وَهُمْ فِي حَقِيقَةِ أَحْوَالِهِمْ غَيْرِ



فُقَرَاءَ، يُقَوِّتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ سَدَّ حَاجَاتِهِمْ، أَوْ ضَرُورَاتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ.

فَالْحَالُ فِي أَيَّامِ الْمَجَاعَاتِ لَيْسَتْ كَالْحَالِ فِي الْأَيَّامِ الْأُخْرَى، إِنَّ أَيَّامَ الْمَجَاعَاتِ يَجِبُ فِيهَا التَّحَرُّيُّ عَنِ الْفُقَرَاءِ حَقِيقَةً، حَتَّى لَا يَأْكُلَ الْمَسَاكِينُ الْمَتَظَاهِرُونَ بِالْفَقْرِ وَهُمْ غَيْرُ فُقَرَاءِ طَعَامَهُمُ الَّذِي يُبْذَلُ لِسَدِّ حَاجَاتِهِمْ، أَوْ ضَرُورَاتِهِمْ.

وَجَاءَ ذِكْرُ الْمَسْكِينِ ذِي الْمَتْرَبَةِ فِي هَذَا النَّصِّ، دُونَ ذِكْرِ الْفَقِيرِ الْمُتَعَفِّفِ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِنْحَافًا، لِأَنَّ أَيَّامَ الْمَجَاعَاتِ أَيَّامُ مُخْرَجَاتٍ، تَجْعَلُ الْفُقَرَاءَ الْمُتَعَفِّفِينَ يَتَحَوَّلُونَ إِلَى مَسَاكِينٍ يُظْهِرُونَ حَاجَاتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ، فَلَا يَبْقَى مُتَعَفِّفُونَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، لِأَنَّ الضَّرُورَةَ فِيهَا تَغْرِضُ الْأَنْفُسَ إِلَى الْمَوْتِ مِنَ الْجُوعِ، وَلَا يَفْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَى الرِّضَا بِشُظْفِ الْعِيشِ.

وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالذِّكْرِ لَدَى عَرْضِ بَعْضِ عُنَاوَرِ اقْتِحَامِ الْعُقْبَةِ النَّفْسِيَّةِ الْمُبْنِيَّةِ عَلَى الْقَاعَدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، مِنْ فُضَائِلِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تُرْضِيهِ جَلَّ جَلَالُهُ، عِثَقَ الرِّقَابِ، وَإِطْعَامَ الْيَتَامَى مِنَ الْأَقْرَبِينَ، وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْفُقَرَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ، فِي أَيَّامِ الْمَجَاعَاتِ، اهْتِمَامًا بِالتَّوْجِيهِ لِلْفُضَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَظْمَى ذَوَاتِ الْأَوْلِيَايَاتِ فِي تَدْرِجِ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَذَهْنِ الْمُتَدَبِّرِ يَضُمُّ إِلَى هَذِهِ الْفُضَائِلِ سَائِرَ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ<sup>(١)</sup>.

فَالرَّحْمَةُ بِالْبَائِسِينَ وَالضُّعْفَاءِ وَذَوِي الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ، وَالْعُطْفُ عَلَيْهِمْ وَمُسَاعَدَتُهُمْ، وَرَفْعُ الْبُؤْسِ وَالضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ عَنْهُمْ، بَعْدَ الْإِيمَانِ وَآثَارِهِ الْمُبَاشَرَةِ مَعَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، تَقَعُ فِي أَوَّلِيَّاتِ مُطَالِبِ الرَّبِّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

(١) وَطَيَّ سَائِرَ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ بَعْدَ ذِكْرِهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ بَدِيعِ الْإِيجَازِ الْقِرَآئِيِّ، الَّذِي يُدْرِكُهُ الْمُتَدَبِّرُونَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ الدَّقِيقِ الْعَمِيقِ.

وتخصيص التوجيه لإطعام ذوي المسغبة من اليتامى الأقربين، والفقراء الحقيقيين ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، في يومٍ ذي مجاعةٍ عامّةٍ، يُلاحظُ فيه أمران:

**الأمر الأول:** أَنَّ الْأَنْفُسَ فِي أَيَّامِ الْمَجَاعَاتِ تَكُونُ أَكْثَرَ شُحًا بِالطَّعَامِ مِنْ سَائِرِ الْأَيَّامِ، لِحَاجَةِ الْمَطْعِمِ إِلَيْهِ، أَوْ شِدَّةِ تَعَلُّقِ نَفْسِهِ بِهِ، خَوْفَ حَاجَتِهِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ لَهُ، إِذْ هُوَ قُوْتُ الْبَقَاءِ فِي الْحَيَاةِ، فَتَعَظُمُ بِذَلِكَ عَقَبَةُ النَّفْسِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ اقْتِحَامًا، فَيَكُونُ الْإِطْعَامُ أَدَلَّ عَلَى ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَدَلَّ عَلَى قُوَّةِ تَأْثِيرِ الرَّحْمَةِ فِي قَلْبِ الْمَطْعِمِ عَلَى سُلُوكِهِ.

**الأمر الثاني:** أَنَّ حَاجَةَ الْبُؤْسَاءِ فِي أَيَّامِ الْمَجَاعَاتِ أَشَدُّ وَأَقْسَى أَلَمًا عَلَى نَفُوسِهِمْ، إِذْ إِنَّهُمْ قَدْ لَا يَجِدُونَ بَقَايَا فَضَلَاتِ الْأَطْعَمَةِ الَّتِي يَزْمِي بِهَا النَّاسُ عَادَةً، وَلَوْ كَانُوا بُخْلَاءَ لَا يَنْذِلُونَ لَذَوِي الْحَاجَاتِ.

فكُلُّ إِنْسَانٍ يَكُونُ شَدِيدَ الْحَرَصِ عَلَى مَا لَدَيْهِ مِنْ طَعَامٍ، حَتَّى إِنَّهُ يَدَّخِرُ فَضْلَاتِ طَعَامِهِ، وَكَسَرَ الْخُبْزِ الَّتِي تَزِيدُ عَنْ حَاجَتِهِ مِنْ وَجَبَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ.

ومعظم الناس يتسارعون في أَيَّامِ الْمَجَاعَاتِ إِلَى ادِّخَارِ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَاتِهِمْ كَثِيرًا إِلَى عِدَّةِ شُهُورٍ، فَيُخَذِّثُونَ بِادِّخَارَاتِهِمْ الضَّائِقَةَ فِي أَرْزَاقِ النَّاسِ الْيَوْمِيَّةِ، الَّتِي تَكْفِيهِمْ لَوْلَا الْادِّخَارَاتِ الَّتِي لَا ضَرُورَةَ لَهَا، وَالِدَافِعِ لِحَايَازَتِهَا خَوْفُ حَدُوثِ النِّقْصِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

والمقصود بالإطعام بذلُ الطعام ابتغاء وجهِ الله ونيل رضوانه، سواء أكان على سبيل الزكاة الواجبة، أم على سبيل البرِّ، أم على سبيل الإحسان.

وجاء التوجيه للاعتناء بإطعام اليتيم ذي المقربة، لأنَّ هذا اليتيم أحقُّ من غيره، إِذْ اجْتَمَعَ فِيهِ سَبَابُ مُرَجَّحَانِ:

السبب الأول: الْيَتِيمُ، وهو الأمر الذي يَفْقِدُ به اليتيم مُعِيلَهُ الحاني عليه.

السبب الثاني: القرابة النسبية، ومعلومٌ من قواعد الدين ووصاياه الاجتماعية أَنَّ الأقربين أَوْلَى بالبرِّ والإحسان.

ولمَّا كان التوجيهُ مُخَصَّصاً للإطعام في يوم المجاعة، كان من الحكمة تحميلُ الأقربين مسؤوليةَ إطعام اليتامى من ذوي قُرْبَاهُمْ، توزيعاً للمسؤولية، وتحديداً لها، وحتى لا يضيع الأيتام في غُموم المجتمع، وهم ضعفاء لا يستطيعون مع الكبار أخذَ حظوظهم، التي يَسُدُّون بها ضرورات معيشتهم.

● قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۖ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف يدلُّ على الترتيب مع التراخي، والترتيب والتراخي هُنَا يُلاحظ فيهما تتبُّع سائر العناصر غير المذكورة في النصِّ، والتي تشتمل عليها أحكام السلوك الإسلامي المطلوب في اقتحام عقبة النفس، ويتنقَّلُ المُتَّبِعُ فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصل إلى سُوقِهَا، ثم أخيراً إلى جَذْرِهَا الذي تتمدَّد أجزاءه وعناصره الإيمانية داخل عُمُقِ الْفُؤَادِ، في حركة فكرية متتابعة الخطوات.

وهذا أحد الأساليب البيانية البديعة في القرآن، التي تعتمد البدء في البحث الفكري من الفروع الظاهرة، فأصولها، فأصول أصولها، ثم إلى الجذور، فعُمُقِ الجذور.

ومن أساليبه البيانية أيضاً، البَدْءُ من عُمُقِ الجذور، فإلى الجذور، فإلى السُّوقِ، ثُمَّ إلى فروع الفروع.

والترتيب مع التراخي في سلاسل الأفكار، يُشبه الترتيب مع التراخي في الأجزاء الزمنية، وفي المراحل المكانية.

وقد دلَّ استعمال فعل ﴿كَانَ﴾ دون فعل «يكون» للدلالة على وجوب سَبْقِ وجود الجماعة المؤمنة، التي يتواصَل أفرادها بالصَّبْرِ والمرَحمة، وهذا المقتحم لعقبة نفسه واحدٌ منهم.

فمع إرشاد الآية إلى لزوم تتبُّع الخطوات الفكرية للتكاليف الدينية، التي يحتاج الالتزام بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات توصل أخيراً وبصورة متلاحية نسبياً إلى الجذور، فإنَّ الآية تدلُّ بإرشادها هذا على أنَّ اقتحام عقبة النفس، بأداء التكاليف الدينية العمليَّة، والإحجام عن نجد الشرِّ بالكفِّ عن المحرِّمات الدينية، لا بُدَّ أن يكونا مسبوقين بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقى على وحدة إيمانية، وتتواصَل بالصَّبْرِ، وتتواصَل بالمرَحمة.

● أمَّا الإيمان فهو القاعدة العظمى للدين، وكلُّ عَمَلٍ صالح من غيرِ إيمان، لا أَجَرَ له عند الله يومَ الدين، وثوابه قاصر على مَنَافِعِ ينالها العاملُ في الحياة الدنيا.

● وأمَّا التَّواصِي بالصَّبْرِ فهو رُكْنٌ عظيم من أركان تماسكِ الجماعة المؤمنة، لأنَّ الصَّبْرَ هو طاقةُ التحمُّل التي يحتاج إليها كلُّ إنسانٍ دواماً في عَمَلِيَّتي الاقتحام والإحجام، وتحتاج إليها الجماعة المؤمنة لدى بنائها في تحمُّل أذى أعدائها، واضطهاد طغاة الكفرة ذوي العزة والجبروت.

● وأمَّا التواصي بالمرحمة (= بالرحمة) فهو رُكْنٌ عظيم آخر من أركان تماسكِ الجماعة المؤمنة، لأنَّ التراحم بين المؤمنين أعظم وشيجة تربط بين أفرادهم، ولأنَّ الرحمة أعظم شحنة قوَّة دافعة لفعل المعروف، وإقامة المجتمع الإسلامي المتعاون السعيد، الذي يكون بمثابة الجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسَّهر.

وسبق في سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) بيان رُكْنٍ ثالث

من أركان تماسك الجماعة المؤمنة، وهو ركنُ التواصي بالحق، لأنه يحفظ لها التزامها بالقاعدة الإيمانية القائمة على الحق، ويجعل الحق في كل الأمور أساس مفهوماتها، وأساس أحكامها بالعدل.

● قول الله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُتَابِعَنَّاهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل الذين آمنوا وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة، وأبان أن من شأنهم في السلوك أن يقتحموا عقبة نفوسهم، ويسلكوا نجد الحق والخير، ويخرجوا عن سلوك نجد الباطل والشر، كان من الحكمة بيان عاقبتهم الحسنى، وبيان عاقبة الكافرين المكذبين بآيات الله، الذين يسلكون مسالك الضلال والشر ومغصية الله بارئهم وربهم الذي لا رب في الوجود غيره، ولا إله بحق سواه.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: أي: الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، اختير في الإشارة إليهم اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارتفاع منزلتهم، وعلو مقامهم عند ربهم.

[أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ] أي: الذين لهم اليمين، والذين يأخذون كُتُب أعمالهم التي عملوها في الحياة الدنيا بأيمانهم يوم الدين.

الْمَيْمَنَةُ: تأتي في اللغة بمعنيين:

● فتأتي بمعنى اليمين، الذي هو ضد الشؤم.

● وتأتي بمعنى جهة اليمين.

وحمل كلمة: «الْمَيْمَنَةُ» على معنيها هو الأحق بالتدبر، فكلاهما حق، ومنطبق على الواقع.

وكلمة: «أَصْحَاب» هي جمع «صاحب» وهذا جمع «صاحب» وتجمع «أصحاب» على «أصاحب» من صيغ منتهى الجموع.

الصاحب: في اللغة هو المعاشر المخالط المرافق. وقد حصل توسُّع في استعمال كلمة «صاحب» وكلمة «أصحاب» فتستعملان للدلالة على مطلق الملازمة، أو الاقتران، أو الحلول في المكان، أو الانتماء إليه، أو الانتماء إلى أي شيء، أو لتملك الشيء، أو لحيازته، وتطلقان على أي علاقة بين شيئين.

وافتَصَرَ النَّصُّ على ذِكْرِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْمِيْمَةِ، دُونَ التَّضْرِيحِ بِمَا يُصِيبُونَهُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ التَّقَابُلِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ أَنَّ أَصْحَابَ الْمَشَاةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ.

● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾: يتحدثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن نفسه بضمير المتكلم العظيم، لأنَّ آيَاتِهِ في كونه، وآيَاتِهِ المنزلاتِ على رُسوله، آياتٌ عظيماتٌ جَلِيلَاتٌ جَدًّا، لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ عَظِيمٍ جَلِيلٍ، هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا عَظَمَتَهَا، وَفَهِمُوا دِلَالَاتَهَا، ثُمَّ جَحَدُوهَا كِبَرًا، أَوْ رَغْبَةً فِي الْفُجُورِ وَاتِّبَاعًا لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَاعْتِرَارًا بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ﴾ (١٩): فَرَّقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الصُّيغَةِ الْبَيَانِيَّةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَيْهِمُ الْبَعِيدِينَ لِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا قَالَ تَعَالَى بِشَأْنِهِمْ ﴿هُمْ﴾ بِالضَّمِيرِ الْعَامِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ دَلَالَةٌ خَاصَّةٌ.

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ﴾: أي: هم أصحابُ الشُّؤْمِ الَّذِي يُلَازِمُهُمْ، وَهُمْ أَصْحَابُ الشَّمَالِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ صُحُفَ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَمَائِلِهِمْ، أَوْ بِشَمَائِلِهِمْ وَمِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ إِذَا كَانُوا مِنْ غَلَاةِ الْمَجْرِمِينَ.

المشامة: تأتي في اللغة بمعنيين:

- فتأتي بمعنى الشُّؤْم، الذي هو ضِدُّ اليُمْن.
- وتأتي بمعنى جهة الشُّمال.
- ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ﴿٢٠﴾ و[مُؤَصَّدَةٌ] في القراءة الأخرى.

أي: تَتَابَعُ عليهم، أو تُسَلِّطُ عليهم، أنواع عذابِ نارٍ في دار عذاب مغلقة، وهي دار تَعْذِيبِ الكفرة المجرمين يوم الدين، والعُصَاةِ المسرفين على أنفسهم.

مُؤَصَّدَةٌ: أي: مغلقةٌ عليهم، فلا مَخْرَجَ لهم منها، وَوُصِفَتْ كلمة «نار» بأنها مؤصدة، على سبيل المجاز المرسل، إذ المراد أن دار التعذيب بالنار هي المؤصدة، وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل، ولو كان المراد بلفظ «نار» دار العذاب لكان التعبير الملائم أن يقال: في نارٍ مؤصدة.



(٧)

### لطيفة تربوية

(١) تحدّث الله عزّ وجل بشأن المكذب بيوم الدين لإقناعه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) بأسلوب الحديث مع المخاطب، فقال تبارك وتعالى فيها موجّهاً له الخطاب:

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْدِّينِ﴾ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخٰكِمِينَ﴾ ﴿٨﴾.

(٢) ثم تحدّث عن المكذب بيوم الدين بأسلوب الحديث عن الإنسان بوجه عام، في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ ﴿٣﴾ - ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ﴿٥﴾  
يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٦﴾.

(٣) ثُمَّ وَاجَهَ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ فِي سُورَةِ (الْمُرْسَلَاتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) فجاء فيها:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٌ ﴿٧﴾﴾ - ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

(٤) ثُمَّ تَحَدَّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِينَ، فِي سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) إِعْرَاضاً عَنْ مُوَاجَهَتِهِم بِالْخُطَابِ، فَجَاءَ فِيهَا:

﴿بَلْ عَجِبُوا ﴿٥﴾﴾ - ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴿٦﴾﴾ - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ .

(٥) ثُمَّ تَحَدَّثَ عَنِ الْمَكْذِبِ بِيَوْمِ الدِّينِ الْمُنْكَرَ لَهُ، بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ إِعْرَاضاً عَنْ مُوَاجَهَتِهِ بِالْخُطَابِ، فِيمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ (الْبَلَدِ/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

وَلَا يَخْفَى مَا فِي أَسْلُوبِ مُوَاجَهَةِ الْمَكْذِبِ بِيَوْمِ الدِّينِ فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى، مِنْ تَكْرِيمٍ وَتَأْنِيسٍ، ثُمَّ مَا فِي أَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَكْذِبِينَ الْغَائِبِينَ بِالْجَمْعِ، أَوِ الْمَكْذِبِ الْغَائِبِ بِالْإِفْرَادِ، مِنْ حِكْمٍ تَرْبُويَّةٍ جَلِيلَةٍ يُذَكِّرُهَا أَهْلُ الْفِطْنَةِ.



(٨)

### نظرة عامة إلى ما اشتملت عليه السورة

إِنَّ كَوْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةً مُكَابَدَةً، يُكَابِدُ فِيهَا الْإِنْسَانُ مِنْذُ مِيلَادِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ، دَلِيلٌ - بَعْدَ الْإِيمَانِ بِالرَّبِّ الْخَالِقِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ عَلَى تَنْفِيزِ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ - عَلَى أَنَّ طُرُوفَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَيْسَتْ كُلُّ شَيْءٍ فِي خُطَّةِ تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ وَخَلْقِهِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، بَلْ هِيَ مَرَحَلَةٌ امْتِحَانٍ، وَحَكْمَةٌ



الحكيم العليم القدير تستلزم حتماً أن يكون بَعْدَهَا حَيَاةٌ حِسَابٍ وَفَضْلُ قَضَاءٍ وتنفيذ جزاء، وَإِلَّا كَانَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا عِبَثًا وَبَاطِلًا، وَقَدْ تَنَزَّهَ الرَّبُّ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ عَنِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ.

هذا ما أشار إليه قول الله عز وجل في السُّورَةِ بَعْدَ الْقَسَمِ:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

وَسَبَقَ أَنْ قَالَ فِي سُورَةِ (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

أي: وإذا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَفِي كَبَدٍ، فَهُوَ فِي رَحْلَةٍ امْتِحَانٍ حَتْمًا.

ولو كانت الحياة الدنيا هي الغاية النهائية من خلق الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، لَكَانَتْ الْحِكْمَةُ تَسْتَدْعِي أَنْ تُخْلَقَ لَهُ ظُرُوفُ حَيَاةٍ سَعِيدَةٍ لَا كَبَدَ فِيهَا وَلَا كَذْحَ، كَحَيَاةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فِي الْجَنَّةِ، فَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَتَلَامَّ مَعَ خَلْقِهِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

وهكذا كَانَ الْإِنْسَانَانِ الْأَوَّلَانِ (آدم وَزَوْجُهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) فِي أَوَّلِ الْخَلْقِ، فَلَمَّا عَصَيَا بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَا عَنْ الْأَكْلِ مِنْهَا أُخْرِجَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَوُضِعَا هُمَا وَذُرِّيَّاتُهُمَا فِي حَيَاةِ الْكَذْحِ وَالْمُكَابَدَةِ لِلْإِبْتِلَاءِ، فَمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ اسْتَحَقَّ الْجَنَّةَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

لَكِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ قَدْ ظَهَرَ مِنْ أَفْرَادِهِ فَرِيقٌ كَفَرَ بِحُكْمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، فَجَحَدَ الْإِبْتِلَاءَ وَالْحِسَابَ وَفَضَلَ الْقَضَاءَ وَالْجَزَاءَ، وَأَتَكَرَّ يَوْمَ الدِّينِ، وَقَالَ: لَا بَعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَكَذَّبَ بَيُّومَ الدِّينِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ فَرِيقٌ نَفَخَ الْغُرُورُ فِي رُؤُسِهِمْ وَصُدُّوهُمْ رِيحًا غَلِيظَةً مُنْتَنَةً سَائِمَةً، فَطَلَبُوا الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، فَانْطَلَقُوا يَجْمَعُونَ الْأَمْوَالَ وَيَنْفَقُونَهَا إِنْفَاقًا

مُسْتَهْلِكًا لَهَا، فِي إِعْدَادِ الْقَوَى الَّتِي تَجْعَلُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَقْوِيَاءَ أَعْزَاءَ غَلَّابِينَ لِمُنَافِسِهِمْ، أَوْ تَجْعَلُهُمْ يَتَصَوَّرُونَ ذَلِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا فِي الْحَقِيقَةِ كَمَا تَصَوَّرُوا.

وَالوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ حِينَ يَتَمَلَّكُهُ الْغُرُورُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي تُشْعِرُهُ بِالتَّفُوقِ عَلَى مُنَافِسِيهِ مِنَ النَّاسِ، يَزِيدُ انْتِفَاحًا وَغُرُورًا، فَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ قُوَّةٌ غَيْبِيَّةٌ عَنِ عَالَمِ الْمَشْهُودِ تَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا فِي الْحَالِ، وَلَا فِي الْإِسْتِقْبَالِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ فَرِيقٌ حَسَبِيَّونَ مَادِّيُّونَ أَغْبِيَاءَ، يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا لَا يُحْسِنُونَ بِهِ فِي مَدَى إِخْسَاسَاتِهِمْ، لَا وُجُودَ لَهُ، فَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ وَنِيَّاتُهُمْ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، فَلَا مُحَاسِبَ لَهُمْ، وَلَا مُجَازِيَ لَهُمْ، مَهْمَا طَعَوْا وَبَغَوْا وَظَلَمُوا وَأَجْرَمُوا وَتَجَبَّرُوا.

فَالوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَسَبِيِّينَ الْحَقِيقِيِّينَ يُغْشِي الْغُرُورُ عَلَى بَصِيرَتِهِ وَبَصَرِهِ، فَيَتَوَهَّمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَمْ يَرَهُ، وَلَمْ يَرَ طَغْيَانَهُ وَظُلْمَهُ، وَفَوَاجِشَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا اسْتَخْفَى ضِمْنَ مَخَابِئِهِ، وَمَارَسَ فِي حُجُبِهَا قَبَائِحَهُ وَرذَائِلَهُ وَفَوَاحِشَهُ وَشُرُورَهُ وَخُبَائِثَهُ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يَرَهُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ.

وَتَوَهَّمُهُ هَذَا يَجْعَلُهُ مَطْمَئِنًّا آمِنًا مِنْ حِسَابٍ، وَفَضْلَ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيزٍ جَزَاءٍ، فَهُوَ غَيْرُ مُتَابِعٍ بِعِقَابٍ مِنْ قُوَّةٍ قَاهِرَةٍ، هِيَ قُوَّةُ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ.

هَذَا هُوَ تَوَهُّمُ الْمَادِّيِّينَ الْحَسَبِيِّينَ الْحَقِيقِيِّينَ مِنْ أَهْلِ الْغُرُورِ، الَّذِينَ لَا يَتَفَكَّرُونَ بِدَلَائِلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِي مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِمْ.

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ لَهُ عَيْنَيْنِ يَرَى بِهِمَا، فَأَعْطَاهُ طَرَفًا مِنْ كَمَالِ مُشَاهَدَةِ الْأَشْيَاءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا يَرَاهُ، وَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ نَفْسُهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَلَائِكَةً يَر\_اقِبُونَ الْإِنْسَانَ وَيَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ، يَرَوْنَهُ مِنْ

حيث لا يراهم، ويسجّلون عليه أقواله، وأعماله الظاهرة والباطنة، ونيّاته.

وإنّ الذي خلّق له لساناً وشفّتين للنطق والتعبير عمّا في نفسه وفكره، برموز الكلمات، والمجادلة والدفاع عن نفسه، ومحاسبة من هم تحت سلطانه، على أعمالهم ومخالفاتهم له، لا بُدّ أن يكون هو سبحانه مُحَاسِباً لعباده على ما يَكْسِبُونَ في الحياة الدنيا، إذ خلقهم جلّ جلاله فيها عابرين رحلة امتحان، وهو سبحانه قادرٌ على أن يخلّق مراقبين له، يعلمون ما يفعل، وهو لا يراهم، فإذا دُعُوا يوم الدين للشهادة عليه بما اكتسب في الحياة الدنيا، قدّموا شهاداتهم عن مشاهداتهم، فانضمت شهاداتهم إلى أدلّة إدانته بجرائمه.

وجاء ذكر اللسان عنواناً للحروف التي يكون للسان تأثير ما فيها، وجاء ذكر الشفتين عنواناً للحروف الشفوية، وللحرف التي يكون للشفتين تأثير ما فيها، واكتفى النصّ بذكر اللسان والشفّتين، ليستكمل الذهن سائر الحروف كحروف الحلق.

وإنّ الرّبّ الذي خلق للإنسان جهاز التفكير والعلم والتذكّر وإدراك المعارف، وخلّق له الوسائل التي يكتسب بها المعارف والعلوم، وبعث له الرّسل، وأنزل له الكتب والبيانات التي تُبَيِّن له الغاية من خلقه في الحياة الدنيا، وتبيّن له مسؤوليته فيها، وما هو المطلوب منه أن يعملهُ، وما هو المطلوب منه أن يتركهُ أو يجتنبه، فهذه بذلك النّجدين: أي: الطريقين الواضحين الجليين، طريق الحق والخير والنفع والصّلاح. وطريق الباطل والشرّ والضّر والفساد، لتكون أمامه فرصة أن يرى الحقّ حقّاً فيؤمن به ويستمسك بأسبابه، ويرى الخير والنفع والصّلاح فيعمل بما تهدي إليه. وأن يرى الباطل باطلاً فيكفر به ويجتنبه، ويجتنب كلّ ما يوصل إليه، ويرى الشرّ والضّر والفساد، فيجتنبها ويجاهد لمقاومتها.

كلُّ ذلك ضمن حدود استطاعته فِعْلاً أو تركاً.

إِنَّ الرَّبَّ الَّذِي خَلَقَ لَهُ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِحُكْمَتِهِ قَدْ خَلَقَهُ لِيَمْتَحِنَهُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وحكمة الامتحان تَسْتَتِيعُ حَتْمًا الْحِسَابَ، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزَ الْجَزَاءِ، فِي خُطَّةِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ.

ولولا هذه الغاية لكان أمر الخلق عبثاً وباطلاً، وقد تنزه الرَّبُّ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ عَنِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ.

ولما كانت ظروف الحياة الدنيا غَيْرَ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى مَرْحَلَةِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، إِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ الدِّينِ، فَإِنَّ مَنْطِقَ الْعَقْلِ الْمُسْتَنْدِ إِلَى حِكْمَةِ الرَّبِّ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ، يَقْضِي بِأَنَّهُ لَا بُدَّ حَتْمًا مِنْ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَى، يَتِمُّ بِهَا الْجَزَاءُ الْأَوْفَى، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ تَكُونُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاسْتِكْمَالِ ظُرُوفِ الْإِمْتِحَانِ فِيهَا.

وقد اقتضت الحكمة العظيمة، أن يكون الموت والفناء هو البرزخ الفاصل بين حياة الابتلاء، وحياة الحسابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

هذه العناصر الفكرية قد دلت عليها السورة بعبارات موجزات، تستدعي لوازم فكرية كثيرة، وهذه العبارات الموجزات هي بمثابة مفاتيح لأبواب وراءها جَمٌّ غفير من المعاني التي تُوصِلُ إِلَيْهَا سلاسل فكرية مترابطة.

وحين يُذَرِّكُ المتدبر لهذا البيان العجيب، ذي الدلالات الدقيقة العميقة، الذي اشتملت عليه سورة (البلد) تتولد لديه فناعة تامة بأن القرآن المجيد، حين يُوجِّهُ بيانه شطر أئمة الكفر، فينسِفُ أوهامهم نَسْفًا، وَيَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ الْإِقْتِنَاعَ الضَّمْنِيَّ لِاتِّبَاعِهِمُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَقَالَاتٌ تُعَرِّضُ لِإِسْقَاطِهَا، وَلِيَّانِ فسادها، إِنَّمَا يُرَدِّدُونَ مَقَالَاتِ أَيْمَتِهِمْ، فَإِذَا

سَقَطَتْ مَقَالَاتُ الْأَنْثَمَةِ وَأَوْهَامُهُمْ، لَمْ يَبْقَ لِلْأَتْبَاعِ شَيْءٌ يَغْرُهُمْ، وَيُغْرِهُمْ  
بِالتَّزَامِ الْبَاطِلِ.

وَتَمَّ بَعُونَ اللَّهِ وَتَوَفَّقَهُ وَفَتْحَهُ تَدَبَّرَ سُورَةَ (الْبَلَدِ)



### ملاحق لتدبر سورة البلد

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين  
وأصحاب الشمال.

(٩)

### الملحق الأول

#### حول بلاغيات في السورة

سورة البلد تكاد تكون رمزية في دلالاتها العميقة، واللوازم الفكرية  
التي تستدعيها وتقتضيها عباراتها، فهي غاية في الإيجاز.

ومن البلاغيات التي يسهل استخراجها من السورة ما يلي:

(١) القسم المنفي بحرف «لا» مع ذكر المقسم به والمقسم عليه،  
وهذا من المبتكرات البلاغية القرآنية، القائم على مراعاة اقتضائين:

● أحدهما يقتضي أَنَّ الْقَسَمَ ذو فائدة تأكيدية بالنسبة إلى بعض  
المتلقين المعاصرين لتنزيل القرآن، أو الذين سيأتون بعدهم.

● والآخر يقتضي أَنَّ الْقَسَمَ غير ذي فائدة تأكيدية بالنسبة إلى  
المقصودين الأولين بالخطاب إبان التنزيل.

فكان الحلُّ القرآنيَّ البديع بإيراد القسم والمقسم به، ونفي القسم  
بحرف «لا» فقال الله عز وجل: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

(٢) الكناية عن أشياء بذكر بَعْض لوازمها، ومنها في السورة:

● ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (١): أي: هو مخلوق مُمْتَحَنٌ في ظروف الحياة الدنيا، ولولا ذلك لكانت الجنة هي الدار الملائمة لخلقه في أحسن تقويم.

والامتحان له لوازم عقلية يقتضيها كون الربّ عليمًا حكيمًا قديرًا، إذ يلزم عن الامتحان الحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء، ولا بُدَّ أن يكون هذا في حياة أُخْرَى غير هذه الحياة.

● ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠): أي: ليعْرِفَ أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ في ظروف الحياة الدنيا، فمن عرف طريق الحق والخير، وعرف طريق الباطل والشر، وأدرك أَنَّهُ مُمَكَّنٌ من سلوك ما يختار منهما، أدرك عن طريق اللزوم العقلي أَنَّهُ في ظروف امتحان.

فهداية الإنسان النجدين كناية عن هذه اللوازم الفكرية.

(٣) الإيجاز بذكر بعض فقراتٍ من الأفكار التي يُرادُ الإغلام بها، وترك المتدبّر يستخرج الأفكار التي لم يأت في النصّ التصريح بها، ومن هذا الإيجاز في السورة:

● ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ (٦): أي: أَفْنَيْتُ مَا لَا كَثِيرًا في جمع الجنود والقوّى العسكرية الحربية والعتاد اللازم، حتّى صرْتُ عزيزاً لا يَقْدِرُ عليّ أَحَدٌ من مُنَافِسِيّ في دوائر سلطاني.

● الاقتصار على العتق والإطعام من أمثلة اقتحام عقبة النفس، وترك المتدبّر يقيس عليها سائر تكاليف الدين، ممّا يَجِبُ على الإنسان الممْتَحَنِ في ظروف الحياة الدنيا أَنْ يَفْعَلَهُ، وممّا يَجِبُ عليه أَنْ يَتْرُكَه.

● ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨): أي: الَّذِينَ يُجَاوِزُونَ بَجَنَاتِ التَّعِيمِ يوم الدين، بدليل التقابل بينهم وَبَيْنَ أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ بِشَأْنِهِمْ: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (٢٠).

● ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : أي: من الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بالإيمان به .

(٤) الاستعارة: ونجدها في إطلاق لفظ: ﴿التَّجَدِّيْنَ﴾ - التَّجَدُّ هو ما ارتفع من الأرض وكان واضحاً - على ما يكونُ الإنسانُ ممكِّناً مِنْهُ، من سلوكٍ ظاهر وباطن، خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ في أزمان حياته طوال رِحْلَةِ امتحانه .

ونجدها في إطلاق لفظ ﴿الْعَقَبَةَ﴾ - وهي المرقى الصَّغْبُ في الجبل ونحوه - على الموانع في داخل نفس الإنسان، الَّتِي يَغْسُرُ على الإنسان أن يتخطاها بإرادة حازمة، وَيَسْلُكُ في حياته على غَيْرِ مَطْلُوبَاتِهَا .

ونجدها في إطلاق [الافْتِحَام] - وهو الدُّخُولُ بشجاعة وجرأة في المواضع الصَّعْبَةِ الشَّاقَّةِ، كافتحام صفوف الأعداء في القتال - على مخالفة الأهواء والشهوات ورَغَبَاتِ النفس التي فيها معصيةٌ لله عزَّ وجل، بالتزام العمل بطاعته ومراضيه ابتغاء وجهه الكريم .

وهذه الاستعارات المتتابعاتُ مُتَلَاثِمَاتٌ يُرْشِّحُ بعضها بعضاً، أي: يقوى جانب الاستعارة فيها .

ويقابل الترشيح التجريدُ، وهو ذكر ما يلائم المستعار له .

(٥) المجاز المرسل: ونجده في إطلاق الحال وإرادة المحل، في عبارة ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (٢٠) فقد جاء فيها وصف كلمة «نار» بأنها مؤصَّدة، مع أن المؤصَّدَ المغلق دار التعذيب بالنار، إذ المراد بكلمة: «نار» هنا مَا يُطْلَقُ عليه نارٌ في اللغة، لا دار التعذيب بها، ودارُ التعذيب هي محلٌّ لهذه النار، والاسم العلم على دار التعذيب يوم الدين هو لفظ «النَّار» مُعَرَّفَةً، لا لفظ «نار» نكرة، والمعنى: عليهم مؤصَّدة أبوابُ دارِها يوم الدين .



(١٠)

## الملحق الثاني

## ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال

وصف الله عز وجل في القرآن المجيد المؤمنين بأنهم أصحاب اليمين، ولو كانوا عصاةً ويستحقون التطهير بالعذاب قبل دخول الجنة، لأنهم يأخذون صُحف أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

ووصف الكافرين بأنهم أصحاب الشمال، ولو كانت لهم أعمال نافعة في الحياة الدنيا، إذ لم يكن الباعث إلى قيامهم بها إيماناً بالله واليوم الآخر، فشرط النجاة من الخلود في العذاب والظفر بالجنة يوم الدين، الإيمان الصحيح بالرب الخالق، وبما أوجب على عباده أن يؤمنوا به.

وقد جاء في القرآن المجيد بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال عدة نصوص، وفيما يلي استعراضها مع نظرات تدبرية حولها، مقتصر على النصوص التي جاء فيها التصريح بأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، دون عموم أصحاب الجنة وأصحاب النار:

## النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمِئْمَنَةِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا تَتَأَنَّاسُ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۚ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ ﴿٢٠﴾﴾.

وقد سبق تدبر هذا النص مع تدبر دروس السورة، على مقدار أوعيتنا الفكرية.





## النص الثاني:

ما جاء بشأنهم في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) فقد جاء فيها قول الله عز وجل:

﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾ .

المَيْمَنَةُ: تأتي بمعنى اليُمْن الذي هو ضدُّ الشُّؤْم . وتأتي بمعنى جهة اليمين .

المَشْأَمَةُ: تأتي بمعنى الشُّؤْم الذي هو ضدُّ اليُمْن . وتأتي بمعنى جهة الشمال .

«أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» مبتدأ ومضاف إليه، وجملة «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» في محل خبر. «ما» اسم استفهام جيء به للتعجب من أمرِ ثوابهم العظيم في جنات النعيم يوم الدين .

ونظير هذا: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾ إِلَّا أَنَّ التَّعْجِيبَ مَوْجَّهَ لاختيارهم ما يوصلهم إلى عذاب جهنم الخالد .

وبعد هاتين الآيتين ذكر الله عز وجل في السورة السابقين السابقين، ووصفهم بأنهم المقربون، وأبان أنهم ثلَّةٌ من الأولين، وقليلٌ من الآخرين، وقَدَّمَ صُورًا من ثوابهم في جنات النعيم .

وبعد ذلك ذكر الله عز وجل بتفصيل بعض ثواب أصحاب اليمين، وأعقبه بتفصيل بعض عذاب أصحاب الشمال، فقال عز وجل في السورة:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٧٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٧٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٨١﴾ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٨٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٨٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٨٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٨٥﴾ فَبَعَلْنَهُمْ آجِارًا ﴿٨٦﴾ عُرًّا أَرْابًا ﴿٨٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَأَصْحَابُ

الشِّمَالِ مَا أَصْحَبَ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ .

وجاء فيها أيضاً بشأن شديدي الضلال والتكذيب والعناد من أصحاب الشمال، قول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ إِنَّمَا أَنبَأَ الْمَصَالُونَ الْكَاذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كُؤُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالِقُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرَبَ الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ .

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في جنة انبثت فيها أشجار السدر، وهي أشجار النبق. مخضود: أي: منزوع شوكه، فلا شوك في أغصان وفروع هذا الصنف من شجر السدر في الجنة، على خلاف أشباهها من أشجار الدنيا، ومع الفرق العظيم بين أشجار الجنة وأشجار الدنيا.

﴿وُطِّلِحَ مَمْضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: الطَّلح: نوع من الشجر العظام. ويُطْلَقُ على الموز أيضاً.

مَمْضُود: أي: مَمْضُوم متراكب بغضه فوق بعض باتساق، وإتقان رفيع، ونظام بديع، وهذا ينطبق على ثمر شجر الموز.

﴿وُظِّلِ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظل دائم لا تتسّخه شمس، وهذا وصف جنات النعيم، إذ هي ظلّ، لا غلَس مُظْلِمٌ، ولا ضِحّ تُضْرِبُهُ أشعة الشمس.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾: أي: وماء يُصَبُّ من أعلى إلى أسفل، كالسلاّات، وهذا أجمل ما يكون عليه الماء.

﴿وَفَنَكِهِمْ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾: لَا مَقْطُوعَةٍ: أي: لا يأتي عليها وقت تنقطع فيه، إذ مَوَاسِمُها دائمة، وأشجارها ذات إنتاج لا ينقطع في زمن من الأزمان.

وَلَا مَمْنُوعَةٌ: أي: وَلَا يَمْنَعُ من تناولها والأكل منها مانعٌ ما، فهي مَبْذُولَةٌ دواماً لأهل الجنة أصحاب اليمين.

﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ (٣٤): أي: وَحَشَايَا مَرْفُوعَةٍ عَلَى أَسْرَةٍ.

وَإِكْتَفَى النِّصَّ بِذِكْرِ الْفُرُشِ الْمَرْفُوعَةِ عَنِ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِ الزَّوْجَاتِ، مِنَ الْحُورِ الْعِينِ اللَّوَاتِي يَنْتَظِرْنَ أَزْوَاجَهُنَّ عَلَيْهَا، اسْتِغْنَاءً بِذِكْرِ الشَّيْءِ عَنْ ذِكْرِ مَا يُرَافِقُهُ أَوْ يَكُونُ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنَ الْأَدَبِ الْجَمِيلِ، وَالْبَلَاغَةِ الرَّفِيعَةِ.

وَدَلَّ عَلَى هَذَا الْاسْتِغْنَاءِ فِي اللَّفْظِ مَعَ إِرَادَةِ الْمَعْنَى إِعَادَةُ الضَّمِيرِ عَلَى الْفُرُشِ الْمَرْفُوعَةِ، كَأَنَّهَا الْحُورُ الْعِينِ أَنْفُسُهُنَّ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ (٣٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦): أي: إِنِشَاءً خَاصًّا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَأَرَى أَنَّ هَذَا الْأَسْلُوبَ مِنَ التَّعْبِيرِ، يَدْخُلُ فِي الْبَدِيعَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي يَسْمِيهَا عُلَمَاءُ الْبَدِيعِ الْاسْتِخْدَامَ، مَعَ بَعْضِ تَعْدِيلٍ فِي تَعْرِيفِهِمْ لِلْاسْتِخْدَامِ.

وَقَدْ دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَمْرَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ خَلَقَهُنَّ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْبَغْثِ لِإِنِشَاءِ خُلُقِنَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ هُنَّ مَخْلُوقَاتٌ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مِنْذُ خَلَقَهُنَّ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ خَلَقَهُنَّ قَدْ تَمَّ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِنِشَاءِ الْمَتَدَرِّجِ حَتَّى بَلَغْنَ النُّضْجَ الْإِنْتَوِي.

﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦): أَبْكَارًا: جَمْعُ بَكْرٍ، وَهِيَ الْعِذْرَاءُ الَّتِي لَمْ تُعَاشِرْ ذَكَرًا، فَعُذِرَتْهَا مَا تَزَالُ عَلَى أَصْلِ خَلْقِهَا.

وَجَاءَ وَصَفَهُنَّ فِي سُورَةِ (الرَّحْمَنِ/ ٥٥ مَصْحَف/ ٩٧ نَزُول) بِأَنَّهُنَّ لَمْ يَطْمِئِنَّ قَبْلَ أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ، فَقَالَ تَعَالَى فِيهَا:

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٧٤).

الطَّمْتُ: جَمَاعٌ تَفَضُّ بِهِ بَكَارَةُ الْبَكْرِ، وَتَحْصُلُ بِهِ التَّدْمِيمَةُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْحَائِضِ: طَامَتْ.

﴿عُرُبًا﴾: عُرُب جمع «عَرُوب» وهي المتَحَبِّبَةُ إلى زوجها، وقيل: العاشقة له.

﴿أَتْرَابًا﴾: جمع «تَرَب» والأتراب هُنَّ الأقرانُ في السَّن، أعمارُهُنَّ واحدة. وهذا يدلُّ على أَنَّ إنشاءَهُنَّ قد كان في وقتٍ واحد، أو أن تطوُّر تناميَهُنَّ في الجنَّة يتوقَّف عند سِنِّ نُضْجِهِنَّ، فيظلَّلْنَ دواماً على أحسن ما تكونُ عليه الزوجاتُ حيويَّةً وأنوثةً وتحبُّباً للأزواج.

﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٢٨): أي: هُنَّ مُخَصَّصاتٌ لأصحابِ الْيَمِينِ، الَّذِينَ يأخذون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤١﴾: أي: أصحاب اليمين هم ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ قَبْلَ بَغْثَةِ مُحَمَّد ﷺ، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ الَّذِينَ يكونون من أصحاب اليمين بعد بعثته.

الثُلَّة: الجماعةُ من الناس.

ودلَّ التأكيد في لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ على أنهم جماعة ليست بالكثيرة، وهذا ما دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ صراحةً في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٣).

﴿وَتِلْكَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (٤١) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾: «أَصْحَابُ الشِّمَالِ» مبتدأ ومضاف إليه، وجملة «مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ» في محلِّ خبر. «مَا» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أمرهم في رحلة امتحانهم، إذ اختاروا فيها ما يوصلُهُم إلى عذاب أليم دائم في دار العذاب يوم الدين.

﴿فِي سُومٍ﴾: السُّومُ الرِّيحُ الشديدة الحرِّ اللَّافحة التي تَنفُذُ في مَسَامِ الجلد. أي: في جهنَّم التي يَلْفَحُهُمْ فيها سُمومٌ مَتَّاع.

﴿وَحَمِيرٌ﴾: أي: وفي ماءٍ شديد الحرارة، يشربون منه.

﴿وَوَلَّيْ مِّن يَّحْمُومٍ﴾ (٤٣): أي: ويكونون في جهنم مُنْعَمِسِينَ في ظلِّ دُخانٍ شديد السَّواد والحرارة.

اليَحْمُومُ: هو في اللُّغة الدُّخان، والأسودُّ من كلِّ شيءٍ. ودلَّ على حرارته أنَّه دُخان نارٍ مصحوبٌ بشَرَرٍ كالْقَصْرِ، كأنه جمالَةٌ صفراء، وهو جاء بيانه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزَّ وجلَّ فيها خطاباً للمكذِّبين بيوم الدين:

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) .

﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (٤٤): أي: هذا الظلُّ من الدُّخانِ الأسودِ لَيْسَ ظِلًّا بَارِداً، بل هو ظلٌّ حَارٌّ. وَلَيْسَ ظِلًّا كَرِيماً، كالظِّلِّ الَّذِي يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ. أو أنَّ اليَحْمُومَ ليس بارداً ولا كريماً، ونفي كونه كريماً هو نفيٌّ لكلِّ صفةٍ حسنة عنه، فلا هو حَسَنُ المنظر، ولا هو طَيِّبُ الرائحة، ولا هو وافيٌّ من سوء أو أذى.

وخصَّ الله عزَّ وجلَّ في السُّورة الغَلَاة في ضلالهم وتكذيبهم بقوله:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الضَّالِّينَ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٥١) لِأَكُلُوا مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ (٥٢) فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ (٥٣) فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْغَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُوا شَرِبَ أَلِيمٍ (٥٥) هَذَا تَزُومٌ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) .

شَجَرَةُ الزُّقُومِ: شجرة خبيثةٌ تَنْبُثُ في أَصْلِ الجحيم، جعلها الله عزَّ وجلَّ بعَذْلِهِ طَعَامَ الْإِثْمِ شديد ارتكاب الآثام في دار العذاب يوم الدين.

إنَّ الضَّالِّينَ الْمُكْذِبِينَ يَشْتَدُّ جُوعُهُمْ فِي جَهَنَّمَ، فَتُلْجِئُهُمُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرٍ مِنْ صِنْفِ شَجَرِ الزُّقُومِ، فَيَمْلَأُونَ مِمَّا يَأْكُلُونَ بُطُونَهُمْ،

فَيَسْتَدْ ظَمُّهُمْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ الْخَبِيثِ، فَيَبْحَثُونَ عَنْ شَرَابٍ، فَلَا يَجِدُونَ إِلَّا حَمِيمًا (=ماءٌ شديد الحرارة) فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ كَثِيرًا، دُونَ أَنْ يُخْدِثَ لَهُمْ رِيًّا، هَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَشْرَبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤﴾ ﴿فَشْرَبُوا شَرَبَ الْهِيمِ ٥٥﴾ .

﴿عَلَيْهِ﴾: أي: على ما أَكَلُوا مِنْ شَجَرِ الزُّقُومِ، بِسَبَبِ مَا أَحْدَثَ لَهُمْ مِنْ ظَمًا شَدِيدٍ، فَهُمْ يَلْجَأُونَ إِلَى إِطْفَاءِ لَهَيْبِ ظَمِّهِمْ بِأَيِّ مَاءٍ يَجِدُونَهُ، وَلَا يَجِدُونَ إِلَّا مَاءً حَمِيمًا شَدِيدَ الْحَرَارَةِ.

﴿فَشْرَبُوا شَرَبَ الْهِيمِ ٥٥﴾: أي: فشاربون مثل شُرْبِ الْإِبِلِ الْهِيمِ، وَهِيَ الَّتِي يُصِيبُهَا دَاءُ الْهَيْامِ، فَهِيَ لَا تَرَوِي مِمَّا شَرِبَتْ. يُقَالُ: بَعِيرٌ أَهِيمٌ، وَنَاقَةٌ هَيْمَاءٌ، وَإِبِلٌ هِيمٌ.

﴿هَذَا نُزِّلَتْكُمْ يَوْمَ الدِّينِ ٥٦﴾: أي: هَذَا الْقِرَى الَّذِي يُقَدَّمُ إِلَيْهِمْ فِي مَكَانِ إِقَامَتِهِمْ الدَّائِمَةِ يَوْمَ الدِّينِ. وَيُطْلَقُ النَّزْلُ عَلَى مَكَانِ الضِّيَافَةِ، وَاسْتِعْمَالِهِ هُنَا فِيهِ مَعْنَى التَّهَكُّمِ بِهِمْ، إِذْ هُوَ مَكَانُ سِجْنِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ، وَطَعَامِهِمْ الَّذِي يَزِيدُ مِنْ عَذَابِهِمْ.

النَّزْلُ وَالنُّزْلُ: مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لَضَيْفِهِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ. فَلَا نَ حَسَنُ النَّزْلِ: أَيِ حَسَنِ الضِّيَافَةِ.

● ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَيْضًا بِشَأْنِ شَجَرَةِ الزُّقُومِ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مَصْحَف/ ٥٦ نَزُول) بَعْدَ وَصْفِ بَعْضِ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ:

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ٦٣ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥ ﴿فَاتَّخَذُوا مِنْهَا لَذًا لَاطُونَ ٦٦﴾ مِنْهَا الْبَطُونَ ٦٦ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ٦٨﴾ .

شَجَرَةُ الرَّقُومِ: هي في الدنيا شجرة من أَخْبَثِ الشَّجَرِ الْمَرِّ، تَنْبُثُ بِتِهَامَةٍ، وهي في الآخِرَةِ من أَخْبَثِ أصنافِ الأشجارِ المخصصة لطعامِ المعدِّينِ في جَهَنَّمَ، وهي تَنْبُثُ في أَضَلِّ الجحيمِ، أي: في قَعْرِ جَهَنَّمَ.

وقد جعلها الله عزَّ وجلَّ في جهنَّمَ شَجَرَةً يأكلُ منها الظالمون مُلْجِئِينَ، فإذا أَكَلُوا مِنْهَا وَمَلَّؤُوا بُطُونَهُمْ صارَ ما أَكَلُوهُ يَغْلِي في بُطُونِهِمْ كَغَلْيَانِ الماءِ الشديدِ الحرارة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٣): أي: عذاباً يذوقُونَ شِدَّةَ حرارته في بُطُونِهِمْ، مثل عذابِ حَرِيقِ النار.

أضَلُّ الفتنَةِ في اللُّغَةِ الإحراق، قال الخليل: الْفِتْنُ الإحراق. ولَمَّا كان الصائغُ يَغْرِضُ الذَّهَبَ ونحوه على النار ليختَبِرَ جودته، وَيَمْتَحِنَ أوصافه، صارَ كُلُّ امْتِحَانٍ واختِبَارٍ كاشِفٍ فِتْنَةً، والأصل في معنى الكلمة الإحراق.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤): أي: يَنْبُثُ هذا النوع من الشجرِ في قَعْرِ الجحيمِ، ومنه تخرج، ثم تمتدُّ فروعُ أشجاره وأغصانه مرتفعةً إلى بعضِ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ السُّفْلَى.

الْجَحِيمُ: اسم من أسماء دارِ العذابِ يومَ الدين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٥): طَلْعُهَا: أي: مَا يُؤْكَلُ مِنْ ثَمَرِهَا أَوْ وَرَقِهَا. أَصْلُ الطَّلْعِ: غلافٌ يشبهُ الكوزَ، يفتح عن حَبٍّ مَنْضُودٍ، فيه مَادَّةٌ إخصابِ النخلة.

وهذا الطَّلْعُ الذي يُؤْكَلُ من شجرِ الرَّقُومِ ذو منظرٍ كريهٍ، كَأَنَّهُ رُءُوسُ صِنْفٍ من الحياتِ تُسَمَّى الشياطينَ، واحداً شيطان، وهذا الصَّنْفُ ذوُ غُزْفٍ قبيحٍ.

أو تشبيه لهذا الطلع بما يتخيل الناس من منظر كريحه شديد القبح لرؤوس شياطين الجن.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَمَالًا مِّنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٦٦): أي: فإنهم ملجؤون للأكل من هذه الشجرة إجماعاً ذاتياً، وهذا يدل على أنهم يشتد بهم الجوع الذي يرونه أشد عليهم من ملء بطونهم منها، مع ما فيه من تغذٍ شديد لهم، هو نوع من عذاب الحريق الداخلي.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَاكِبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٧): وبغد أن يملؤوا بطونهم من طلعها، وتمر مدة يتفاعل ما أكلوه منها بالهواضم، وتلتهب بطونهم بما يشبه الحريق بالنار، يشتد طمؤهم، فيسعون إلى مصادر المياه للشرب، فلا يجدون إلا ماءً حميماً شديد الحرارة، فيجدون الشرب منه أهون عليهم من حرارة ما في بطونهم، فيخلطون الطعام الناري بالماء الحميم.

الشوب: في اللغة هو الخلط، والشائبة واحدة الشوائب، وهي الأقدار والأدناس، أي: هو سائل من الشوائب مخلوط بماء حار.

الحميم: الماء الحار.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨): أي: إنهم يكونون أولاً في سواء الجحيم، أي: في وسط الجحيم، كما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) نفسها بشأن مكان عذاب المكذب بيوم الدين:

﴿فَأُطْلِعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٥٥): أي: في وسط الجحيم.

فيشتد بهم الجوع فيهبطون إلى قعر الجحيم ليأكلوا من طلع شجر الرقوم، فيأكلون ويملؤون بطونهم، ثم يشربون من مصادر المياه الحارة في الجحيم، ثم يرجعون إلى منازلهم في سواء الجحيم.



رَحْلَةً إِلَى الْقَعْرِ لِلْأَكْلِ، ثُمَّ رَحْلَةً إِلَى مَصَادِرِ الْمِيَاهِ الْحَارَّةِ لِلشَّرْبِ، ثُمَّ رَجْعَةً إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ، عَذَابٌ فَعَذَابٌ فَعَذَابٌ، وَهَذَا حَالُهُمْ عَلَى التَّدَاوُلِ.

● ثم أنزل الله عز وجل بشأن شجرة الزقوم في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بشأن شجرة الزقوم ثلاث دلالات:

**الدلالة الأولى:** أَنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ هِيَ طَعَامُ الْأَثِيمِ، أي: هِيَ الطَّعَامُ الْوَحِيدُ لِلْأَثِيمِ، فَلَا طَعَامَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، أَخْذًا مِنْ تَعْرِيفِ طَرْفِي الْإِسْنَادِ، إِذِ الْمُضَافُ إِلَى مَعْرَفٍ يَكْتَسِبُ مِنْهُ التَّعْرِيفَ.

**الأثيم:** هُوَ الْمُسْرِفُ الْغَالِي فِي ارْتِكَابِ الْآثَامِ. **والإثم:** هُوَ الذَّنْبُ. **فالأثيم:** هُوَ الْمُبَالِغُ فِي ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَمَنْ كُنْ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ، وَطَعَامُ الضَّالِّينَ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَالْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَمَنْ كُونَهَا عَذَابًا لِلظَّالِمِينَ بِحَرِيقٍ فِي بَطُونِهِمْ، نَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَثِيمِ، الْكَافِرَ الْفَاجِرَ الْمَخْلَدَ فِي عَذَابِ النَّارِ. لَفْظُ «أَثِيمٌ» مِنْ صَيَغِ الْمُبَالِغَةِ وَالتَّكْثِيرِ.

**الدلالة الثانية:** أَنَّ مَا يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُومِ شَيْءٌ كَالْمُهْلِ. **المُهْلُ:** الْقَطْرَانُ، وَدُزْدِيُّ الزَّيْتِ، أَيْ عَكْرُهُ الَّذِي يَتَرَسَّبُ فِي قَاعِ آنِيَتِهِ. وَالنَّحَاسُ الْمَذَابُ. وَالْقَيْحُ وَالصَّدِيدُ.

**الدلالة الثالثة:** أَنَّ مَا يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُومِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ، أَيْ: كَغَلِيِّ الْمَاءِ الَّذِي يُسَخَّنُ بِالنَّارِ حَتَّى يَغْلِي مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِهِ، وَيَتَصَاعَدُ مِنْهُ الْبَخَارُ.



## النص الثالث:

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَمْرِهُمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ بِمِثْلِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْقَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ (٧٢)﴾.

فأضاف هذا النص بيان أن أصحاب اليمين يؤثنون كتبهم بأيمانهم، وأنهم يقرؤونها، فلا يجدون أنهم قد ظلموا من أعمالهم الصالحة فيها فتيلًا.

فتيلًا: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الذي يكون في شق النواة.

إنهم يومئذ يتذكرون كل أعمالهم التي عملوها في الحياة الدنيا، فيطابقون بين ما تذكروا وبين ما يقرؤون في كتبهم، فيجدون أنهم لم يظلموا مقدار فتيل.

وقد جاء التصريح بأن الإنسان يتذكر يوم الدين كل ما عمل في الحياة الدنيا، في قول الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۝ (٣٥)﴾.

ولم يأت في هذا النص التصريح بأن أصحاب الشمال يأخذون كتب أعمالهم بشمائلهم، أو من وراء ظهورهم، وإنما جاء فيه بيان أنهم يكونون عُمياً يوم الدين كما كانوا عُمياً في الحياة الدنيا، ويكونون أضل سبيلاً، فقال تعالى فيه:

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ (٧٢)﴾.

أَعْمَى: أي: كافرأ ضالاً بكُفْرِهِ عن سَبِيلِ سعادته العاجلة والآجلة.  
فالمعنى: ومن كان في هذه الحياة الدنيا كافرأ ضالاً بكُفْرِهِ عن سَبِيلِ سعادته، باختياره الحرّ، فهو في الآخِرَةِ محكومٌ عليه بأنّه أَعْمَى، أي: كافر، وهو يَوْمئِذٍ أَضَلُّ سَبِيلاً، لأنّه لا يستطيع يَوْمئِذٍ أن يتدارك أمره، فقد انتهى زمن الامتحان، فلا حيلة له في أن يهتدي إلى سَبِيلِ سعادته في جنّات النعيم، بينما كان في الحياة الدنيا قادراً على أن يتدارك أمره بالإيمان والعمل الصالح قَبْلَ أن تأتيه ساعة الموت، فهو في الآخرة أَضَلُّ سَبِيلاً، إذ لا يجد لنفسه طريقاً يَسْلُكُهُ إلّا طريق جهنّم خالداً فيها، كما قال الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لَهُمْ فِيهِمْ طَرِيقًا ﴿١١٨﴾  
إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٩﴾﴾.



#### النص الرابع:

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول الله عز وجل:

﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ رُوِّ فِي عُنُقِهِ وَنُخِّجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

جاء في هذا النص تشبيه ما يَكْسِبُهُ الإنسان بإرادته في الحياة الدنيا بالطائر، فقَبْلَ أن يَكْسِبَ كَسْبَهُ وَيَعْمَلَ عَمَلَهُ الإراديّ يكونُ حَبِيباً في داخل نفسه، ويَكُونُ الإنسان مالكاَ لَهُ، وقادراً على ضَبْطِهِ، وغير مسؤول عنه، فإذا عمل عمله وكسب كَسْبَهُ الإراديّ الظاهر أو الباطن، طارَ من مَحْبِسِهِ، وأفلتَ من يَدِهِ، وصارَ الإنسان عاجزاً عن إرجاعِهِ إلى حَظِيرَتِهِ، ويَكُونُ عندئذٍ أَسِيراً لَهُ، إذ يجعلُ الله عز وجل ما يَكْسِبُهُ الإنسان بمثابة الأَسيرِ له بطَوْقٍ أو حَبْلٍ في عُنُقِهِ، يُسألُ عَنْهُ يَوْمَ الدين.

﴿الزَّيْمَةُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾: أي: جعلنا مسؤوليته عن عمله وكسبه الإرادي ملازمة عنقه، كملازمة حبل الأسير لعنق الأسير، حتى يتم حسابه وفضل القضاء بشأنه يوم الدين.

فلفظ «طائر» مُستعارٌ للدلالة على ما يكسبه الإنسان بإرادته في الحياة، وهذه الاستعارة البديعة قائمة على تشبيه ما يعملُه الإنسان بإرادته بإطلاق الطائر من مخبئه إلى الجو، وعندئذٍ تتعلّق به المسؤولية عن إطلاقه، وهذه المسؤولية أسيرة له حتى يتمّ حسابه وفضل القضاء بشأنه.

ولما كان العنق هو المكان المفضل لربط الأسير حتى لا يفلت من أسره، جاء التعبير به للدلالة على مناط المسؤولية عن السلوك الإرادي في الإنسان.

﴿فِي عُنُقِهِ﴾ جاء استعمال حَرْفِ «في» للدلالة على دخول حبل المسؤولية في داخل مناط المسؤولية فيه.

﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾: هذا الكتاب هو صحيفة كسبه الذي أطلق كل واحدٍ منه بإرادته من حظيرته، فطار ولم يستطع أن يُرجعه، ولكن ألزّمه الله المسؤولية عنه، لأنه قد كان في رحلة امتحان، وأمر الملكين الملازمين له بتسجيلها، لعرضها عليه يوم الدين، فهو يلقي هذا الكتاب منشوراً غير مطوي.

وتكفي صحيفة يضم الإنسان عليها كفه لتسجيل صورة تامة عن كل حياته في رحلة امتحانه، ويُعطى يومئذٍ القُدرة على قراءة ما في صحيفته مهما كانت وسيلة تسجيلها مضغوطة، وبصره يومئذٍ يكون حديداً.

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾: أي: يُقال له يوم القيامة هذا كتابك في يدك فاقرأه، وحاسب نفسك على ذنوبك ومعاصيك وجرائمك ومخالفاتك لأوامر ربك ونواهيه.

وَكَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ الْمَجْرَدَةِ عَنْ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالرَّغَبَاتِ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَاسِبًا دَقِيقَ الْحِسَابِ، وَكَفَىٰ بِنَفْسِكَ قَاضِيًا عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ، وَحَاكِمًا عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ مِنْ جَزَاءٍ.

كَفَىٰ بِنَفْسِكَ: الباء حرف جرّ زائد للتوكيد، ونفسك فاعل لفعل «كَفَىٰ».



#### النص الخامس:

ما جاء بشأنهم في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) فقد جاء فيها قول الله عز وجل:

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۖ﴾ (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ﴾ (٤٩).

● ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: أي: وعرض الناس في يوم الحشر على ربك أيها المتلقّي أو التالي لهذه الآيات عرضاً صفاً، أي: بصفوفٍ مُنْتَظِمَةٍ، لا بطريقة عشوائية أو فوضوية.

● ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: يقول الله عز وجل لهم بضمير المتكلم العظيم يومئذٍ، وهم في المحشر، لقد بعثناكم بعد موتكم وفناء أجسادكم، بخلقٍ جديدٍ، وجئتمونا تآمّي الخلق كما خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾: هذا خطابٌ يُوجَّهُ لِمَنْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُكَذِّبُونَ بِنَبَأِ الْبَغْثِ وَيَوْمَ الدِّينِ. أي: لم تكونوا تُصَدِّقُونَ

بَأْتِي سَوْفَ أُنْعَثُكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَحَاسِبُكُمْ، وَأَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، وَأُجَازِيكُمْ عَلَى اخْتِيَارَاتِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا لِهَذَا كُلِّهِ، أَي: لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ زَمَانًا وَلَا مَكَانًا نَحْقُقُ فِيهَا مَاسَبَقَ أَنْ وَعَدْنَاكُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الموعد: يطلَقُ على الوعد، وعلى مكانه، وعلى زمانه.

● ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أَي: وَوُضِعَ بِأَمْرِ اللَّهِ جَنْسُ الْكِتَابِ إِذْ يُطْلَبُ مِنْ كُلِّ مَنْ كَانَ مَسْئُولًا عَنْ أَعْمَالِهِ وَأَنْوَاعِ كَسْبِهِ فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِهِ، أَنْ يَقْرَأَ صَحِيفَةً مَا كَسَبَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ، بَعْدَ أَنْ تَسَلَّمَهُ مَشُورًا، وَقِيلَ لَهُ: اقْرَأْ كِتَابَكَ.

وَعَقِبَ وَضْعِ الْكِتَابِ تَرَى أَيُّهَا الرَّائِي أَيَّا كُنْتَ زُمْرَ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ أَي: خَائِفِينَ، مِمَّا فِيهِ مِنْ تَسْجِيلٍ كَامِلٍ لِحَرَائِمِهِمْ، وَهَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْحِشْرِ.

المُجْرِمُونَ: هُمُ أَصْحَابُ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، فِي الْمَصْطَلَحِ الْقُرْآنِيِّ.

● ﴿وَيَقُولُونَ يَوَلِّينَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾:

﴿يَوَلِّينَا﴾: الْوَيْلُ: فِي اللَّغَةِ كَلِمَةُ عَذَابٍ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي التَّنْذِيرِ، وَالتَّفْجِيعِ، وَالتَّوَجُّعِ. وَعِبَارَةُ ﴿يَوَلِّينَا﴾ هُنَا عِبَارَةٌ يَنْدُبُ فِيهَا الْمُجْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيُغْلِثُونَ بِهَا تَوَجُّعَهُمْ وَتَفْجِيعَهُمْ خَوْفًا مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ فِي جَهَنَّمَ بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَالْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، وَسَوْقِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمْرًا.

﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾: اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ دَقَّتِ الْبَالِغَةُ غَايَةَ الْمَتَابَعَةِ فِي تَسْجِيلِ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ.

﴿لَا يُغَادِرُ﴾: أَي: كَانَ لَا يَتْرُكُ.

﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: جاء تقديم الصَّغِيرَةِ على الكَبِيرَةِ، جرياً على عادة العرب في مثل هذا التعبير، واهتماماً بِذِكْرِ ما قَدْ يتهاون الناس بتسجيله عادةً، قَبْلَ ذِكْرِ ما لا يتهاوون بتسجيله ممَّا يُهمُّهم تسجيله، وتَسْجِيلُ الأشياءِ الصغيرة هو الذي يَجْذِبُ الانتباهَ أولاً.

﴿إِلَّا أَحْصَنِهَا﴾: أي: إِلَّا سَجَّلَهَا للمحاسبة عليها، وحَفِظَهَا، يُقَالُ: لُغَةً: أَحْصَى الشيءَ، أي: عَرَفَ مقداره، وأَحْصَى الْكِتَابَ، أي: حَفِظَ جميع ما فيه.

● ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾: أي: وَوَجَدُوا كُلَّ مَا عَمِلُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ إِرَادِيَّةٍ هُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهَا، حَاضِرًا أَمَامَهُمْ فِي صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ، بِالصُّورَةِ، وَالصُّوْتِ، وَالْغَايَاتِ وَالنِّيَّاتِ، وَكُلِّ مَا يُرَافِقُهَا مِنْ حَرَكَاتٍ نَفْسِهِمُ الْإِرَادِيَّةِ.

● ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾: أي: وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي لِهَذَا الْبَيَانِ أَحَدًا فِي الْمَحَاسِبَةِ، أَوْ فِي فَضْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، أَوْ فِي الْجَزَاءِ، فَلَا يَجْزِيهِ عَلَى عَمَلٍ مَا ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ لَا يُغْتَبَرُ مَسْئُولًا عَنْهُ، مِنْ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَلَا يَنْقُصُهُ مِمَّا عَمِلَ مِنْ صَالِحَاتٍ ابْتِغَاءً وَجْهِهِ شَيْئًا. وَلَا يُحْمَلُ نَفْسًا وَزَرَ نَفْسٍ أُخْرَى، وَمِيزَانُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ بِالْغِ الدَّقَّةِ، وَيَغْفُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ كَثِيرٍ.



### النص السادس:

مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْحَاقَّةِ/ ٦٩ مِصْحَف/ ٧٨ نَزُول) فَقَدْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَوْمَذِ تُنْفِثُ السَّحَابَ لَا تَخَفَى مِنْكَ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْلَهُ بِسَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي

جَنَّةٍ عَلَيْهِ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ  
 الْآلِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَنَبَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَرَأْتِ كِنْيَةً ﴿٢٥﴾ وَلَوْ أَدْرِمَا  
 حِسَابِي يَلَيِّنَهَا كَانَتِ الْقَاصِيَةَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٧﴾ هَلْكَ عَنِّي  
 سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٢٩﴾ تَرُ الْجَحِيمَ صَلْوَهُ ﴿٣٠﴾ تَرُ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا  
 فَاسْلُكُوهُ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ  
 ﴿٣٣﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَبِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلٍ ﴿٣٥﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا  
 الْخَاطِثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ .

الهاء في: [كِتَابَتُهُ - حِسَابَتُهُ - مَالِيَّةُ - سُلْطَانِيَّةُ] هي هاء السكت

أضاف هذا النص على ما جاء في النصوص السابقة ما يلي:

(١) أن من كان من أصحاب اليمين فأوتي كتابه بيمينه، فإنه يكون شديد الفرح بما قرأ في كتابه، ومن شدة فرجه يقول لمعارفه وأصحابه أو لمن حوله في الموقف:

• ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَةَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿هَآؤُمُ﴾: أي: خُذُوا. «هَآ» اسم فعل أمر بمعنى: «خُذْ». وهو يستعمل مقصوداً «هَآ» وممدوداً «هَاءً» فيقال: هَآءِ يَا رَجُلُ، وهَآؤُمَا يَا رَجُلَانِ، وهَآؤُمُ يَا رَجُلَا، وهَآءِ يَا امْرَأَةً بكسر الهمزة، وهَآئِيَا يَا امْرَأَتَانِ، وهَآؤُنَّ يَا نِسَوَةٌ.

وقد توضع كاف الخطاب بدل الهمزة، فيقال: هَاكَ وَهَآكَ وَهَآكُمَا وَهَآكُمُ وَهَآكُنَّ... وفيها لغات أخرى.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَةَ﴾ ﴿٢٥﴾: أي: كان عندي احتمالان:

• احتمال أن يدخلني الله عز وجل الجنة بعفوه دون حساب.

• واحتمال أن يحاسبني حساباً يسيراً. وكنت ظننت أنني مُلاقٍ



حِسَابِي الَّذِي أَنْتَظَرُهُ فِي مَوْقِفِي هَذَا، مَعَ وَجُودِ رَجَاءٍ بِأَنْ يُدْخِلَنِي اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، إِذْ كَانَ مُؤْمِنًا وَمَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَحْمِلُ بَعْضَ الْأَوْزَارِ.

فَالظَّنُّ الْوَاردُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ اللَّغَوِيَّةُ، وَلَيْسَ بِمَعْنَى الْيَقِينِ. وَأَنْصَرَفَ ذَهْنُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ عَنْ تَصَوُّرِ الْإِحْتِمَالِ الْأَوَّلِ، فَحَمَلُوا الظَّنَّ هُنَا عَلَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ، بَلْ هُوَ مِنَ الظَّنِّ الرَّاجِحِ الَّذِي يُقَابِلُهُ إِحْتِمَالٌ آخَرُ مَرْجُوحٌ.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

عِيشَةٌ: مُضَدَّرٌ مِنْ مَصَادِرِ فِعْلِ «عَاشَ». تَقُولُ لُغَةً: عَاشَ يَعِيشُ عِيشًا، وَمَعَاشًا، وَمَعِيشَةً وَعِيشَةً. وَهِيَ بِمَعْنَى الْحَيَاةِ.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾: أَي: فَهُوَ فِي حَيَاةٍ رَاضٍ بِهَا كُلُّ الرِّضَا، جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَضُفَّ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ بِأَنْ عِيشَتُهُ رَاضِيَةٌ، وَالْأَصْلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّاظِي بِهَا، فَأُسْنِدَ الرِّضَا إِلَى الْعِيشَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ فِي الْإِسْنَادِ، وَيُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ «الْمَجَازَ الْعَقْلِيَّ» وَهُوَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إِلَى غَيْرِ مَا هُوَ لَهُ فِي اعْتِقَادِ الْمُتَكَلِّمِ. وَالْمَلَابَسَةُ الَّتِي سَوَّغَتْ هَذَا الْمَجَازَ كَوْنُ الْمُؤْمِنِ هُوَ صَاحِبُ هَذِهِ الْعِيشَةِ، فَهِيَ جُزْءٌ مِنْ ذَاتِهِ.

وَالْغَرَضُ الْبَيَانِيُّ الْإِشْعَارُ بِمَصَاحِبَةِ الرِّضَا لِكُلِّ أَجْزَاءِ عِيشَةِ الْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ، فَلَا يُوجَدُ جُزْءٌ مِنْهَا وَلَا عُنْصُرٌ مِنْ عُنَاصِرِهَا خَالِيًا مِنَ الرِّضَا، وَهَذَا الْمَعْنَى لَا تُؤَدِّيهِ عِبَارَةٌ: فَهُوَ رَاضٍ عَنْ عِيشَتِهِ.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: أَي: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةِ الْمَكَانِ، عَالِيَةِ الْمَنْزِلَةِ، وَعَالِيَةِ الصِّفَاتِ، عَالِيَةٍ كُلُّ نَعِيمٍ يَكُونُ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: الْقُطُوفُ: جَمْعُ الْقِطْفِ، وَهُوَ يُقْطَفُ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ سَاعَةً قُطْفَهُ. وَالْقِطْفُ: عِنَقُودُ الْعَنْبِ يُقْطَفُ مِنْ شَجَرَتِهِ.

دَانِيَةً: أي: قَرِيبَةً، يَتَنَاوَلُهَا أَهْلُ دَارِ النِّعَمِ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ أَشْجَارِهَا فِي كُلِّ أَوْضَاعِهِمْ بَدُونَ مَشَقَّةٍ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢٤) ﴿

أي: يُقَالُ لَهُمْ تَكْرِيماً وَتَرْحِيباً وَدُعَاءٌ طَيِّباً: كُلُوا مِنْ مَا كَلِ الْجَنَّةِ وَاشْرَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ شَرَابِهَا الطَّيِّبِ النَّفِيسِ هَنِيئاً.

﴿هَنِيئًا﴾: أي: سَائِغاً لَذِيذاً. يُقَالُ لُغَةً: هَنَيْءُ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ يَهْنَأُ هَنَأً وَهَنَاءً، أُنِي: سَاعَ وَلَذً.

﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمْتُمْ مِنْ إِيْمَانٍ صَحِيحٍ صَادِقٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ كُنْتُمْ تَبْتَغُونَ بِهِ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَثَوَابَهُ، فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ، حِينَ كُنْتُمْ فِي رَحْلَةِ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

يُوجَّهُ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُحْيَوْنَهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَيُكْرِمُونَهُمْ، بِأَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَقَدْ يَأْتِيهِمْ هَذَا الْخَطَابُ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، تَكْرِيماً لَهُمْ وَإِسْعَاداً.

● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾: أي: فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيهَا.

● ﴿فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأَوْتُ كِتَابِي وَلَرَأَوْتُ مَا حِسَابِي﴾ (٢٦) يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٩) ﴿.

مَقَالَاتٌ يَقُولُهَا وَيُكْرِّرُهَا مَنْ أُوتِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ، قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ لِأَنَّهُ يَغْلَمُ سَاعَتَيْدُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَتَسَلَّمَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ.

فَهُوَ يَتِمَتَّى أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ كَمَا كَانَ فِي الْبَرْزَخِ وَلَمْ يُنْعَثْ، وَيَتِمَتَّى أَنْ تَكُونَ مَوْتُهُ الَّتِي مَاتَهَا هِيَ الْقَاضِيَةُ عَلَى وَجُودِهِ كُلِّهِ إِلَى الْأَبَدِ.

دَلٌّ عَلَى هَذَا مَا أَبَانَ النَّصُّ أَنَّهُ يَقُولُهُ مَكْرَراً لَهُ: ﴿يَلَيْتَنِي لَرَأَوْتُ كِتَابِي وَلَرَأَوْتُ مَا حِسَابِي﴾ (٢٦) يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧) ﴿.

● ﴿يَلْتَنِي لَمْ أُوْتْ كِتَابِيَّةً﴾: «يا» حرف نداء، داخلٌ على عبارة التَّمتِّي «لَيْتَنِي» فأَيُّ شيءٍ ينادي؟

قالوا: المنادَى محذوف تَقْدِيرُهُ نحو: يَا رَبَّ.

وقيل: هو نداءٌ للكلام الدالُّ على التمتي، بتزليل الكلمة منزلة العاقل الذي يُطلَبُ حُضُورُهُ، لأنَّ الحاجة تدعو إليه في حالة الندامة.

وقيل: هو حرف تَنْبِيهِ.

أقول:

حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أشبهُ بأن يكون حرف نُذْبَةٍ وَتَحَسُّرٍ وتَفْجُعٍ وَتَوَجُّعٍ، على تقدير أن جملة «لَيْتَنِي لَمْ أُوْتْ كِتَابِيَّةً» واقعة موقع عبارة «مُصِيبَتِي الْعَظِيمُ فِي يَأْسِي مِنْ نَجَاتِي» ولم يذكر المفسرون ولا النحاة مثل هذا. أو تَكُونُ العبارة على تقدير: «يا أُمْنِيَّتِي التي لا سبيل إلى الحصول عليها».

● ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةً﴾ (٢٦): قالوا «ما» اسم استفهام وهو مبتدأ وخبره حسابي والهاء للسكت عند الوقوف. وفعل «لَمْ أَذِرْ» معلقٌ عن العمل لأنَّ الاستفهام له الصدارة.

أقول: أليس الأولى أن نعتبر «ما» قد تجرّدت عن الاستفهام، واقتصرَتْ دَلَالَتُهَا على الماهية، فيكون المعنى: ولم أَذِرْ حَقِيقَةَ حِسَابِيَّةً، فهذا هو المتبادر من معنى العبارة.

● ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتْ أَلْفَاظِيَّةً﴾ (٢٧): تحليل عبارة ﴿يَلَيْتَهَا﴾ نظير ماسبق آنفاً في [يَلَيْتَنِي]. والضمير في [لَيْتَهَا] يعودُ على مَلْحُوظٍ ذَهِنًا، وهي حالة الموت التي كَانَ فيها بين الموت والبعث، أو حالة إنْهَاءِ الحَيَاةِ الأولى.

﴿كَانَتْ أَلْفَاظِيَّةً﴾: أي: يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْمُنْهِيَّةَ وَجُودِي كُلَّهُ إِلَى الْأَبَدِ.

القضاء في اللغة: إمضاء الشيء وإتمامه وإنهاءه. والقاضية هي المنهية.

● ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٧٨): أي: ما أغنى مالي الذي كان لي في الدنيا شيئاً، فصرف العذاب والعقاب هذا اليوم عني.

أصل معنى «أغناه» كفاه، والكفاية عند الحاجة إلى ما يدفع المكروه تتضمن معنى الصّرف، فيُعْذِي تَعْدِيته.

فالمعنى: ما أغناني مالي شيئاً فصرف عني شيئاً من العذاب والعقاب يقول هذا القول مَنْ كان ذا غنى بأمواله في الحياة الدنيا.

● ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي﴾: أي: هلك بالفناء سلطاني الذي كان لي في الدنيا، وابتعد عني إلى العدم بُعداً أبدياً.

ضَمَّنَ فَعْلُ «هَلَكَ» مَعْنَى فِعْلٍ «ابْتَعَدَ» فَعْدِي تَعْدِيته، فَأَعْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جَمَلَتَيْنِ.

يَقُولُ هَذَا الْقَوْلُ مَنْ كَانَ ذَا سُلْطَانٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ لَئِيحِمَّ صَلْوُهُ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢).

● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٠): الغُلُّ: طوقٌ من حديد أو جلد، يُجعل في عنق الأسير أو يده، أو تجمعمان وتطوقان بالغُلِّ: فَغُلُّوهُ: أي: فاجعلوا الغُلَّ في عنقه أو في يده أو فيها معاً، يقال لَعَنَ: غَلَّه يَغْلُهُ.

هذا الخطاب يُوجَّهُ لملائكة التعذيب المكلفين أَنْ يقوموا به، بعد صدور الحكم عليه بأنَّه من أهل الخلود في جهنم.

● ﴿ثُمَّ لَئِيحِمَّ صَلْوُهُ﴾ (٣١): أي: ثُمَّ أَدْخِلُوهُ جَهَنَّمَ لِيَصْلَى نَارَهَا، أي: لِيُعَذَّبَ بالاحتراق بلهبها وبجمرها.

يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بِهَا، إِذَا اخْتَرَقَ بِتَسْلِيْطٍ مَا دَّتْهَا عَلَى جَسَدِهِ، وَيُقَالُ: أَضْلَاهُ النَّارَ، وَأَضْلَاهُ بِهَا وَفِيهَا، وَصَلَّاهُ، أَي: أَدْخَلَهُ النَّارَ لِيَخْتَرِقَ بِهَا.

● ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْأَلُوهُ﴾ (٣٢):

﴿فَاسْأَلُوهُ﴾: أَي: فَأَدْخِلُوهُ، يُقَالُ لُغَةً: سَلَكَ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ، أَي: أَدْخَلَهُ فِيهِ وَجَعَلَهُ يَغْبُرُهُ.

وباستطاعتنا تصوير هذه السِّلْسِلَةِ التي يُعَذَّبُ بِهَا مَنْ يُكَرَّهُ عَلَى سُلُوكِهَا مِنْ أَصْحَابِ الشَّمَالِ، بِأَنَّهَا دَوَائِرُ تُضَمُّ وَتُبْسَطُ بِرَوَابِطٍ بَيْنَهَا، مَعَ تَجْوِيفٍ دَاخِلِهَا قَابِلٍ لِأَنْ يَسْلُكَهُ عَابِرٌ فِيهِ، وَعُبُورُ تَجْوِيفِ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْ مُجَرَّدِ الدُّخُولِ فِي لَهَبِ النَّارِ، أَوْ التَّقَلُّبِ عَلَى جَمَرِهَا.

● ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: أَي: طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا. يُقَالُ لُغَةً: ذَرَعَ الشَّيْءُ يَذَرَعُهُ ذِرَاعًا، إِذَا قَاسَ طَوْلَهُ بِالذَّرَاعِ. وَلَا يُهِمُّ الْمَتَدَبِّرُ أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ طُولِ الذَّرَاعِ، فَهَذَا أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ.

● ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ ﴿٣٤﴾.

جاء هذا البيان إجابةً على سؤالٍ مطوَّيٍّ مفاده: لِمَ هذا التعذيب الشديد له؟! فجاء الجواب:

● ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣): أَي: فَقَدْ كَانَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ يَجْحَدُ وَجُودَ اللَّهِ رَبِّهِ. أَوْ يَحْجِدُ صِفَاتِهِ الْعَظْمَى وَأَسْمَاءَهُ الْحَسَنَى، أَوْ يَجْحَدُ بَغَضَهَا، مُشْرِكًا بِرُبُوبِيَّتِهِ أَوْ بِالْهَيْئَةِ، أَوْ لَا يُؤْمِنُ بِرُسُلِهِ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَبْلَاغَتِهِمْ عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

وجاء لفظ ﴿الْعَظِيمِ﴾ للإشارة إلى أَنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ فِي آثَارِهِ فِي كَوْنِهِ مَا كَانَ مِنْهُ صَغِيرًا أَمْ كَبِيرًا، فَلَا عُذْرَ لِمَنْ آتَاهُ رَبُّهُ أَدَوَاتٍ

الإحساس والتفكير في أَنَّ يَجْعَدَ مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَ الْكَوْنَ مِنْ حَوْلِهِ، وَلَا سِيَمَا بَعْدَ بَعَثِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ.

● ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣٤): أي: وَكَانَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ غَيْرَ ذِي رَحْمَةٍ بِالضَّعْفَاءِ وَالْبُؤْسَاءِ، بَلْ كَانَ قَاسِيَا الْقَلْبِ، فَلَا يَتَحَرَّكُ لِسَانُهُ بِتَوَجُّهِهِ حَضُّ عَلَى إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ الْجَائِعِ حَقِيقَةً بِسَبَبِ فَقْرِهِ الشَّدِيدِ. الْحَضُّ عَلَى الْأَمْرِ: الْحَثُّ عَلَيْهِ وَطَلْبُهُ بِشِدَّةٍ وَالْحَاحُ.

● ﴿فَلَيْسَ لَهُ أَلْوَمٌ هَهُنَا حَمِيمٌ﴾ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلَيْنِ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧).  
الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيُوَدُّكَ، فَهُوَ يَنْصُرُكَ وَيُدَافِعُ عَنْكَ، كَمَا تَنْصُرُهُ وَتُدَافِعُ عَنْهُ.

غَسْلَيْنِ: يَعْجِبْنِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ يَنْبُتُ فِي جَهَنَّمَ.

قال مجاهد: هو طعامٌ من طعام أهل النار.

وقال الضَّحَّاك: هو شجر في النار.

وهذا التفسير يَتَسَقُّ مَعَ أَنْوَاعِ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ، بِحَسَبِ دَرَكَاتِهِمْ فِي الْعَذَابِ، فَأَشَدُّهُمْ عَذَاباً يَكُونُ طَعَامُهُمْ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. وَالْأَخْفُ عَذَاباً يَكُونُ طَعَامُهُمْ مِنْ «غَسْلَيْنِ» وَالْأَخْفُ مِنْهُمَا يَكُونُ طَعَامُهُمْ مِنْ ضَرِيعٍ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ.

وَيُلَاحَظُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي وَضْفِ «غَسْلَيْنِ» نَظِيرُ مَا جَاءَ فِي وَضْفِ مَا يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، مِنْ أَنَّهُ كَالْمَهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ، وَأَنَّهُ طَعَامُ الْأَثِيمِ.

وَأَمَّا الضَّرِيعُ، فَقَدْ جَاءَ وَضْفُهُ فِي سُورَةِ (الْغَاشِيَةِ) بِأَنَّهُ لَا يُسْمِنُ وَلَا يَغْنِي مِنَ الْجُوعِ، فَهُوَ أَهْوَنُ أَطْعَمَةِ جَهَنَّمَ تَعْذِيباً لِأَكْلِهَا.

وَالْمَعْنَى: فَلَيْسَ لِمَنْ أَخَذَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ يَوْمَ الدِّينِ قَرِيبٌ يَنْصُرُهُ، أَوْ

يَوَدُّهُ، وليس له طَعَامٌ إِلَّا من نوع شجرٍ في دار العذاب يُقَالُ له: «غَسِيلِينَ» وهذا الطعام لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِثُونَ.

**الْخَاطِثِيُّ:** مُرْتَكِبُ الذَّنْبِ مطلقاً، ولكن من حَكَمَ اللَّهُ عليه يوم الدين بأنه خَاطِثٌ، ولم يَشْمَلْهُ بَعْفٌ وَلَا مَغْفِرَةٌ وَلَا تَخْفِيفٌ، فهو من مستحقي الخلود في عذاب النار، وَيَكُونُ طعامه فيها من غَسِيلِينَ، وهو وَسْطُ أَشَدِّ من الضريع، وأخف من شجرة الرُّقُوم، أخذاً مِنْ سباقات النصوص وسياقاتها، ومن التكامل فيما بينهما. كما ظهر لي أنفاً.



### النَّصُّ السَّامِعُ:

ما جاء في سُورَةِ (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) فقد جاء فيها بالنسبة إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قول الله عز وجلّ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِإِيمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

أضاف هذا النص على النصوص التي سَبَقَتْ النُّظْرَاتُ التَّدْبِيرِيَّةُ حَوْلَهَا،

ما يلي:

(١) أَنْ من يُؤْتَى كتابه بيمينه يوم العرض للحساب وفصل القضاء، يَنْتَظِرُ مُدَّةً في الموقف، ثم يحَاسَبُ حساباً يَسِيرًا، بِدَلِيلِ قول الله عز وجلّ في النَّصِّ:

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾: فكلمة سَوْفَ تَدُلُّ على مرور مُدَّةٍ طويلة بين استلامه كتابه، وبين محاسبته حساباً يَسِيرًا.

(٢) وَأَنَّهُ يَنْقَلِبُ مِنْ مَوْقِفٍ حَسَابِهِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، إِلَى أَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ مَسْرُورًا.

يَنْقَلِبُ: أي: يَذْهَبُ وَيَنْصَرِفُ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى: يَرْجِعُ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا.

وَالْمُرَادُ بِأَهْلِهِ زَوْجَاتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَسَائِرُ أَهْلِهِ فِي الدُّنْيَا إِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

مَسْرُورًا: أي: بِمَا ظَفِرَ بِهِ مِنْ ثَوَابٍ عَظِيمٍ وَأَجْرٍ جَسِيمٍ.  
وَقَدْ أَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ هَذَا الْحِسَابَ الْيَسِيرَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعَرْضِ الَّذِي لَا تَكُونُ مَعَهُ مُنَاقَشَةٌ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِبَ».

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَفَلَيْسَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟! قَالَ:

«لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِبَ».

(٣) أَنَّ مَنْ يُؤْتَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَيَكُونُ هَذَا بِجَعْلِ يَدِهِ الْيُمْنَى مَغْلُولَةً مَعَ الْغُلِّ الَّذِي فِي عُنُقِهِ، وَبِشَدِيدَةِ الْيُسْرِى إِلَى جِهَةِ ظَهْرِهِ، وَيُنَاولُ كِتَابَهُ بِهَا، فَإِنَّهُ يَنْتَظِرُ مُدَّةً فِي الْمَوْقِفِ، ثُمَّ يُحَاسِبُ حِسَابًا عَسِيرًا، فَيُنَاقِشُ الْحِسَابَ عَلَى كُفْرِهِ وَجَرَائِمِهِ، وَيَقْضِي اللَّهُ بِشَأْنِهِ، وَيُضْطَرُّ الْحَكْمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ عَلَى سَبِيلِ التَّمَنِّي.



﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١): أي: فهو ينتظر طويلاً، ثم يجري حسابه، وفضل القضاء في شأنه، فيدعو على نفسه بالشبور.

الثُّبُور: هو الهلاك، إنه يتمنى حينئذ أن يموت موتاً أبدياً، فيصير تراباً، لكنه لا مَوْتَ لأهل النار، ولا لأهل الجنة بعد البعث، فيومُ الدين هو يومُ الخلود.

﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (١٢): أي: يَدْخُلُ جهنمَ، ذَائِقاً فيها عذابَ الحَرِيقِ. ﴿يَصْلَى﴾: أي: يَدْخُلُ وَيَخْتَرِقُ ليدوق عذاب حريق النار.

السَّعِير: لَهَبُ النار. أي: يَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَبٍ مُنْتَشِرٍ وَمُسَلِّطٍ عليه.

وقرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، والكسائي: ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (١٢) أي: وَيَدْخُلُ بإكراهٍ وَعُنفٍ في دار العذاب، وَيُحَرِّقُ بالسَّعِيرِ.

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، لأنَّهُ إذا أُدْخِلَ بعُنفٍ مُكْرَهًا، دَخَلَهَا وَهُوَ كَارِهٌ، ويضيف الفعل المضعف معنى شدة التعذيب لكبراء الكفرة المجرمين الطغاة البغاة.

(٤) بيان أن من يُؤْتَى كتابه بِشِمَالِهِ قد كان في الحياة الدنيا مَسْرُوراً ضَمَّنَ أَهْلِهِ، غَافِلاً عَنِ أَمْرِ آخِرَتِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا﴾ (١٣) مستغرقاً فيما هو فيه، غَيْرَ مُهْتَمٍّ بالعمل لما ينجيه وَيُسْعِدُهُ في آخِرَتِهِ، يَتَقَلَّبُ في نعم الله عليه، وهو كافرٌ به، غير معترف بمسؤوليته تجاهه.

(٥) بيان أنه ظَنَّ حينَ كان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، أنه لَنْ يرجع إلى الحياة بعد مَوْتِهِ وفناء جسده: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَنْ يَحْجُوزَ﴾ (١٤).

أي: إنه ظَنَّ ظَنًّا تَوْهُمِيًّا أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إلى الحياة بعد الموت، للحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿يَحْجُوزُ﴾: أي: يرجع. تقول لغة: حَارَ يَحْجُوزُ حَوْراً، أي: رَجَعَ. والمَحَارُ: الرُّجُوع.

فهو إذن كافرٌ بالله، وكافرٌ بيوم الدين، وبِطَرٍ مُتَفَاخِرٍ مَسْرُورٍ بما يمارِسُ في الحياة الدنيا من آثامٍ وَسَيِّئَاتٍ وَذُنُوبٍ.

ومن استعراض النصوص التي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن المجيد، ينكشف لنا أنَّ أهل الجنة في الجنة على مراتب ودرجات متفاوتات، فمنهم المقربون، مُحْسِنُونَ وأبرار على درجاتهم. ومنهم المتقون على درجاتهم. وأنَّ أهل النار في النار على منازل ودرجات، وأشدُّهم عذاباً من كان منزله في الدرك الأسفل من النار.

أمَّا النصوص التي جاء فيها الحديث عن أهل الجنة وأهل النار فكثيرة جداً، وقد اقتصرنا هنا على النصوص التي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فقط.

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرَّبَ إليها من قول أو عمل، ونعوذُ بك من النار وما قرَّبَ إليها من قول أو عمل.



# سُورَةُ الطَّاسِرِ

٨٦ مَصحف ٣٦ نزول



## (١)

## نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾  
 إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾  
 خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ  
 عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا  
 نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ  
 لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلُ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيدُ  
 كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمُ رُؤُودُ

٤ - • قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَمَّا] بتخفيف الميم.

﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى «إلا» فهو حرف استثناء.

و [لَمَّا] بالتخفيف، اللام في لما هي لام الابتداء المزحلقة إلى الخبر. و «ما» جيء به للتأكيد، فهو حرف زائد للتأكيد.

والقراءتان تشتملان على أسلوبين من أساليب تأكيد الخبر، أحدهما عن طريق النفي والاستثناء، والآخر عن طريق أدوات التوكيد.

## (٢)

## مما ورد في الحديث بشأن سورة الطارق

(١) من الروايات الواردة بشأن تلويح الرسول ﷺ معاذاً رضي الله

عنه على إطالته الصلاة وهو إمام بالناس، ما رواه النسائي بسنده عن جابر قال:

صَلَّى مُعَاذُ الْمَغْرِبِ فَقَرَأَ الْبَقْرَةَ وَالنِّسَاءَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْتَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَنَحْوَهَا؟».

(٢) وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ الْآخِرَةَ ذَاتَ الْبُرُوجِ، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ».



(٣)

### موضوع السورة

يَدُورُ مَوْضُوعُ هَذِهِ السُّورَةِ حَوْلَ تَأْكِيدِ ثَلَاثِ قَضَايَا مِنْ قَضَايَا قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعْضِ مَقْتَضِيَّاتِهِ السَّابِقَةِ لَهُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهَذَا التَّأْكِيدُ مَقْرُونٌ بِأَدَلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَامَّةٍ. وَأُلْحِقَ بِهَذِهِ الْقَضَايَا بَيَانٌ مُؤَكَّدٌ بِالْقَسَمِ يَتَضَمَّنُ أَنَّ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي غَيْرِهَا مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ مِنْ أَحَادِيثَ عَنِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّينِ، إِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ حَقٌّ وَجِدٌّ وَفَضْلٌ، لَا تَلَاعَبَ فِيهِ وَلَا هَزْلَ. وَأُتْبِعَ ذَلِكَ بَيَانٍ مَوْقِفِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ مِنَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدَعْوَتِهِ إِبَّانَ نَزُولِ السُّورَةِ، وَبَيَانِ التَّدْبِيرِ الرَّبَّانِيِّ الْمَقَابِلَ لَهُ، وَبَيَانِ الْمَوْقِفِ الَّذِي يَنْبَغِي لِلرَّسُولِ أَنْ يُوَاجِهَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَتِهِ، وَمَعَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

■ فالقضايا الثلاث المتعلقة بقانون الجزاء الربَّاني يوم الدين ومقتضياته

من قبله، هي ما يلي:

**القضية الأولى:** تأكيد أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَمْتَحَنَ الْمَكْلَفَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُرَاقَبٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، فِيهَا تَسْجِيلٌ كَامِلٌ، يَحْفَظُ حِفْظًا دَقِيقًا كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ سُلُوكٍ إِرَادِيٍّ، هُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾ .

**القضية الثانية:** تأكيد أنَّ الله عزَّ وجلَّ قادرٌ على إزجاء الإنسان إلى الحياة بعدَ موتهِ وفناءِ جسدهِ، لمحاسبته، وفضل القضاءِ بشأنه، ومُجازاته، بالعدل أو بالفضل، وهذا التأكيد موجَّهٌ لمنكري البعث، أو الشاكِّين فيه، دلٌّ على هذه القضية قول الله عز وجلَّ في السُّورة:

﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجِيمٍ لَقَادِرٌ ۝﴾ .

**القضية الثالثة:** بيان أنَّ الإنسانَ حينَ تُكشَفُ سرائره، وهي نيَّاته من أعماله الظَّاهرة والباطنة، لدى محاسبته ومجازاته يومَ الدين، يَكُونُ عاجزاً عن أن يدفعَ عن نفسه شيئاً من عقاب الله عزَّ وجلَّ له، إذا قضى اللهُ عليه بالعقاب، وأنَّه يومئذٍ لا تَكُونُ لَهُ قُوَّةٌ ما يَدفعُ بها عن نفسه شيئاً من العذاب، ولا يَكُونُ لَهُ أيُّ ناصرٍ ينصُرُهُ فيدفعُ عنه من عذاب الله شيئاً، دلٌّ على هذه القضية قول الله عزَّ وجلَّ في السُّورة:

﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ۝﴾ فَا لَمْ يَنْفَعَهُ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ ۝﴾ .

■ وأما البيانُ الَّذي يتضمَّن تأكيد أن الأحاديث المتعلقة بالجزاء الرُّبَّاني يومَ الدين، في هذه السُّورة وفي غيرها، قولُ حقٍّ وصِدقٍ وجَدُّ وفضلٌ قاطعٌ مُميِّزٌ للحقيقة، لا تَلَّاعَبَ فيه ولا هزل، فدلَّ عليه قولُ الله عزَّ وجلَّ في السُّورة:

﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٌ ۝﴾ .

■ وأما موقفُ كُبراءِ مُشركي مَكَّةَ إبانَ نُزولِ السُّورة، وهو موقفُ الإغداداتِ الكيديَّةِ ضدَّ الرُّسولِ ﷺ، وضدَّ الذين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وضدَّ انتشار دعوته، فدلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ في السُّورة:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝﴾ .

■ وَأَمَّا التَّدْبِيرُ الرَّبَّانِيُّ الْمَقَابِلُ لَكَيْدِهِمْ، فَذَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦)

■ وَأَمَّا الْمَوْقِفُ الَّذِي يَنْبَغِي لِلرَّسُولِ ﷺ أَنْ يُوَاجِهَهُمْ بِهِ، وَمَعَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، فَهُوَ مَوْقِفُ التَّمَهِّلِ وَالْإِنْتِظَارِ وَعَدَمِ التَّعَجُّلِ بِاتِّخَاذِ أَيْ مَوْقِفٍ تَصَادُمِيٍّ مَعَ مَنْ يَكِيدُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ تَأْكِيدِيَّةٍ غَايَةٍ فِي الْإِلْزَامِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ تَارِيخِ الدَّعْوَةِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي آخِرِ السُّورَةِ:

﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُوِيَ﴾ (١٧)

وهكذا فالسورة ذات موضوع واحدٍ متعاقبٍ الفقرات.



(٤)

### دروس السورة

بعد اكتشاف موضوع سورة (الطارق) الَّذِي سَبَقَ بَيَانَهُ، بِاسْتِطَاعَةِ الْمُتَدَبِّرِ الْمُتَأَنِّي أَنْ يُحَدِّدَ دُرُوسَهَا فِي مَفَاصِلٍ وَاضِحَةٍ مِنْهَا، وَهِيَ لَدَى التَّأَمُّلِ أَرْبَعَةُ دُرُوسٍ:

#### الدرس الأول:

دَرْسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى قَسَمٍ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ النُّجُومِ الشَّوَاقِبِ الَّتِي تَصِلُ أَضْوَاؤها إِلَى الْأَرْضِ، عَلَى أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ مُمْتَحَنَةٍ مُكَلَّفَةٍ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُرَاقَبَةً مُرَاقَبَةً تَامَّةً، تُسَجَّلُ عَلَيْهَا فِيهَا مَكْتَسَبَاتُهَا الْإِرَادِيَّةُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، وَمِنْهَا سِرَائِرُهَا، كَالنِّيَّاتِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَكْتَسَبَاتٍ إِرَادِيَّةٍ.



وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِلْتِزَامَ بِالْمَرَاقِبَةِ النَّامَةِ مَعَ تَسْجِيلِ كُلِّ الْمَكْتَسَبَاتِ الْإِرَادِيَّةِ، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً سَوَاقٍ وَلَوَاحِقَ، فَمِنْ السَّوَابِقِ كَوْنُ النَّفْسِ مَخْلُوقاً مَمْتَحِناً مُبْتَلًى فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمِنْ اللَّوَابِقِ كَوْنُ هَذَا الْمَخْلُوقِ مَبْعُوثاً لِحَيَاةٍ أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ فِي رَحْلَةِ الْإِبْتِلَاءِ.

وهو الآيات من (١ - ٤).

### الدرس الثاني:

درسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى لَفْتِ أَنْظَارِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِنَبَأِ الْبَعْثِ، وَإِرْجَاعِ الْمَيِّتِ الْفَانِي لِلْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، إِلَى دَلِيلِ التَّنْصُوتِ بَيْنَ الْإِعَادَةِ وَالْبَدْءِ، وَذَلِكَ بِتَوْجِيهِ أَنْظَارِهِمْ لَوَاقِعِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

والمعنى: أَنَّ إِعَادَةَ خَلْقِهِ مِنَ التَّرَابِ بَعْدَ أَنْ كَانَ وَاقِعاً مُشْهُوداً، أَهْوَنُ مِنْ بَدْءِ خَلْقِهِ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، يَرْجِعُ إِلَى سِلْسَلَةِ تَطَوُّرِيَّةٍ، مِنْ حَلَقَاتِهَا الطِّينِ، الَّذِي هُوَ تَرَابٌ وَمَاءٌ.

وهو الآيات من (٥ - ١٠).

### الدرس الثالث:

درسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى قَسَمِ آخِرِ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ النَّافِعِ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ، وَمَا فِي هَذَا مِنْ اتِّقَانٍ تَامٍ، وَإِحْكَامٍ عَجِيبٍ، وَتَنْظِيمٍ رَائِعٍ، وَقَسَمِ آخَرَ بِالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (= الشَّقِّ) وَمَا فِي تَنْظِيمِ عَمَلِيَّاتِ الصَّدْعِ فِيهَا مِنْ اتِّقَانٍ وَإِحْكَامٍ مُذهِشَيْنِ، وَمَا فِيهِ مِنْ نَفْعٍ عَظِيمٍ لِلْعِبَادِ السَّاكِنِينَ عَلَيْهَا، إِذْ يَكُونُ بِهِ إنبَاتُ النَّبَاتِ، وَتَفْجِيرُ الْعَيُونِ، وَإِجْرَاءُ الْأَنْهَارِ، وَإِخْرَاجُ كُنُوزِ الْأَرْضِ مِنْ مَعَادِنٍ وَغَيْرِهَا.

على أَنَّ أُنْبَاءَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ وَلَوَازِمُهُ السَّابِقَةُ لَهُ، قَوْلُ حَقٍّ وَصِدْقٍ،

لَا بَاطِلَ فِيهِ وَلَا كَذِبَ، وَقَوْلُ جَدٍّ، لَا تَهْوِيلَ فِيهِ وَلَا هَزْلَ وَلَا لَعِبَ.  
وهو الآيات من (١١ - ١٤).

### الدرس الرابع:

درس يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كُبراء مشركي مكة  
إِبَّانُ نُزُولِ سُورَةِ (الطارق) وهو موقف الكَيْدِ الشَّدِيدِ ضِدَّ الرُّسُولِ وَرِسَالَتِهِ،  
وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَالْكَيْدُ يُطْلَقُ عَلَى الْحَرْبِ، وَإِعْدَادِ الْوَسَائِلِ  
لَهَا، وَاتِّخَاذِ الْأَعْمَالِ وَالتَّدْبِيرَاتِ الْحَرِيَّةِ الْمُخْتَلَفَةِ.

وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى هَذَا الْمَوْقِفِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَنَقَّلُوا فِي الْمَرَاكِحِ تَنَقُّلاً تَشَدُّدِيًّا،  
مِنْ مَرَحَلَةِ الْإِعْرَاضِ، إِلَى مَرَحَلَةِ الْإِذْبَارِ، فَمَرَحَلَةِ إِعْلَانِ الْخُصُومَةِ، فَمَرَحَلَةِ  
الْعِدَاءِ، فَمَرَحَلَةِ الْإِيذَاءِ وَالْمُضَايِقَةِ، فَمَرَحَلَةِ الْمَحَاصِرَةِ وَالْإِضْرَارِ، فَمَرَحَلَةِ  
الْإِضْطِهَادِ الْمَوْجَّهِ ضِدَّ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَرَحَلَةِ الْإِعْدَادَاتِ الْكَيْدِيَّةِ الْحَرِيَّةِ.

ويشتمل على بيان التدبير الربَّاني لإحباط كيدهم، وبيان الموقف الذي  
ينبغي للرسول أَنْ يَتَّخِذَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاتَّبَعُوهُ فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ،  
وهو موقف التمهُّل والانتظار وعدم التعجُّل باتخاذ أيِّ موقفٍ تَصَادُمِيٍّ مَعَ  
الْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا يَسْتَدْعِي شِخْنَةً كَبِيرَةً مِنَ الصَّبْرِ.



(٥)

### التدبر التحليلي للدرس الأول من دُرُوسِ السورة

وهو الآيات من (١ - ٤)

قال الله عزَّ وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ التَّجَمُّ الثَّقُوبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا  
عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴿٤﴾

يُقَسِّمُ رَبُّنَا بِالسَّمَاءِ، وبالنجم الثاقب الذي يظهر فيها، أي: بجنس النجم الشامل لكل النجوم التي تُرى في السماء، بالنسبة إلى سُكَّان الأرض، على أنه ما من نفسٍ خَلَقَهَا لِيَبْلُوهَا إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ يُخَصِّي عَلَيْهَا ما تكسب بإرادتها، والعبارة تشمل كل نفس، وكل ما يضرُّ عنها. ووصف الله جنس النجم الذي يظهر لسُكَّانِ الأرض في السَّمَاءِ بوصفين:

**الوصف الأول:** أَنَّهُ الطَّارِقُ دَوَامًا، وَعَظَمَ مِنْ شَأْنِهِ بعبارة التعجيب القرآنية فقال بشأْنِهِ: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ ۖ﴾. الطارق: هو الذي يأتي لَيْلًا.

**الوصف الثاني:** أَنَّهُ الثَّاقِبُ، أي: المضيء الذي يَظْهَرُ ضَوْؤُهُ كَأَنَّهُ خَارِقٌ ثَقْبًا فِي السَّمَاءِ، دون أن يكون له انتشارٌ ضوئي شامل.

### الشرح التحليلي:

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو هي «واو القسم» وهو من حروف الجر، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهاره، والتقدير: أقسم أو أحلف والسماء.

**السَّمَاءُ:** تُطْلَقُ لغة على كل ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العلو من فعل: سما يسمو سُمُوًا فهو سام، أي: ارتفع وعلا ارتفاعاً ماديًّا أو معنويًّا، وسماء كل شيء أعلاه، والغلاف الغازي المحيط بالأرض يدخل فيما يُطْلَقُ عليه لغة لفظ «سما».

والمراد بالسماء هنا السَّمَاءُ البعيدة التي تَظْهَرُ فيها النُّجُوم الثواقب، بدليل اقتران القسم بها بالقسم بالطَّارِق الذي هو النُّجْمُ الثاقب.

﴿وَالطَّارِقِ﴾: وهذا قَسَمٌ بالطَّارِقِ. وكلمة «طارق» اسم فاعل من فعل: طَرَقَ يَطْرُقُ طُرُوقًا، أي: جاء لَيْلًا، فهو طارق.

وَكُلُّ آتٍ لَيْلًا يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ: طَارِقٌ، وجمعه: «طَوَارِقُ» وَقَدْ يُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى أَطْرَاقٍ.

وجاء في الحديث أَنَّ الرسول ﷺ نهى المسافرَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرِهِ عَنْ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ طُرُوقًا، أَي: عَنْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ لَيْلًا، وكان الرسول ﷺ لا يفعل ذلك.

ولَمَّا كانت النجومُ الثواقِبُ في السماءِ إِنَّمَا تَظْهَرُ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ لَيْلًا، وكان هذا دأبها في كُلِّ لَيْلَةٍ، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَضْفُ الطَارِقِ.

وَإِذْ كَانَتْ «ال» فِي الطَارِقِ لِلْجِنْسِ، كَانَ لَفْظُ «الطَّارِقِ» يَعُمُّ كُلَّ نَجْمٍ يَرَى لَيْلًا فِي السَّمَاءِ، فَالتقدير: أَفْسِمُ وَالنُّجُومِ الطَوَارِقِ لَيْلًا.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ يُعْظَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي تُرَى فِي اللَّيْلِ، وَهِيَ الْعِبَارَةُ الْمَتَكَرِّرَةُ لِلتَّعْجِيبِ وَالتَّعْظِيمِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

أَي: أَعْظَمَ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ أَيَّا كُنْتَ بِأَمْرِ هَذَا الطَّارِقِ الَّذِي هُوَ النُّجْمُ الثَّاقِبُ، إِعْظَامًا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ دِرَايَتُكَ مَهْمَا عَظُمَتْ مَنَاطِيرُكَ، وَوَسَائِلُكَ الَّتِي تَرْصُدُ بِهَا مُشَاهَدَةَ هَذِهِ النُّجُومِ، مَتَّبِعًا دِرَاسَتَهَا.

وقد سبق شَرْحُ هَذِهِ الصِّيغَةِ الْقِرَائِيَّةِ الْمُبْتَكِرَةِ فِي التَّعْجِيبِ وَالتَّعْظِيمِ، وَتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهَا بِمَقْتَضَى الْقَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَفِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ تَشْوِيقٌ لِلْمَعْرِفَةِ، فَتَأْتِي الْإِجَابَةُ عَلَى مَوَاقِعِ الشُّوقِ لَهَا. وَلَمَّا كَانَ الطَّارِقُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ آتٍ بِاللَّيْلِ، وَجَاءَ الِاسْتِفْهَامُ عَنْهُ لِتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ الْمُرَادِ بِهِ.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾: فَسَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْمُرَادَ بِالطَّارِقِ

الذي أَقْسَمَ به، أي: هُوَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ، وَدَلَّتِ القُرَّائِنُ عَلَى أَنَّ المَرَادَ جَنْسُ النِّجْمِ الثَّاقِبِ إِذْ «ال» لِإِرَادَةِ الْجَنْسِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ النُّجُومِ الَّتِي يَرَاهَا الرَّاوُون لَيْلًا، وَهُمْ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَالسَّمَاءِ وَالنُّجُومِ الثَّاقِبِ فِيهَا.

وَلَمَّا كَانَ مِنَ النُّجُومِ نَجُومٌ بَعِيدَةٌ جَدًّا فِي أَبْعَادِ السَّمَاءِ السَّحِيقَةِ، وَهِيَ لَا تُرَى بِالنُّسْبَةِ إِلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ، اقْتَصَرَتِ السُّورَةُ فِي لَفْتِ نَظَرِ الْإِنْسَانِ عَلَى مَا يَرَاهُ مِنْهَا لَيْلًا، فَهِيَ الَّتِي تَطْرُقُ لَيْلًا.

النَّجْمُ: خَبَرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: هُوَ النَّجْمُ، الثَّاقِبُ: نَعْتُ لِلنَّجْمِ.

الثَّاقِبُ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَيْنِ: بِمَعْنَى «مُضِيٍّ» وَبِمَعْنَى «مُحْدِثٍ لِلثَّقْبِ» الثَّقْبُ: هُوَ الْخَرَقُ النَّافِذُ فِي الشَّيْءِ حَتَّى غَايَةِ الْوَجْهِ الْآخِرِ لَهُ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ مَعْنَى الْإِضَاءَةِ لِكَلِمَةِ «الثَّاقِبِ» يَرَادُ بِهِ إِضَاءَةٌ نَافِذَةٌ كَالْخَرَقِ، وَلَيْسَ لَهَا انْتِشَارٌ وَاسِعٌ.

وَيُقَالُ لُغَةً: زَنْدٌ ثَاقِبٌ، وَهُوَ الَّذِي إِذَا قُدِحَ ظَهَرَتْ نَارُهُ عَلَى شَكْلِ شَرَارَاتِ ذَاتِ إِضَاءَةٍ ثَاقِبَةٍ دُونَ انْتِشَارٍ لَهَا.

فَمَعْنَى «ثَاقِبٍ» يَدُورُ لُغَةً حَوْلَ مَا يَثْقُبُ الشَّيْءَ ثَقْبًا خَارِقًا لَهُ، وَالْإِضَاءَةُ الَّتِي لَا انْتِشَارَ لَهَا، فَهِيَ تُشَبِّهُ الثَّقْبَ فِي سِتَارَةِ سُودَاءٍ. وَالْمَثْقُوبُ بِأَضْوَاءِ النُّجُومِ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مَصْحَف/ ٥٦ نَزُول) الشَّهَابَ الَّذِي يُتَّبَعُ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَحَاوِلُ أَنْ يَسْتَرْقِ السَّمْعَ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِأَنَّهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ، فَقَالَ تَعَالَى فِيهَا:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

وفي وصف النجوم في السماء بأنها مُضيئةٌ إضاءةٌ تُشبه الأضواء التي تظهر نافذةً من ثُقوبٍ في ستارة سوداء، إشارةً إلى ما فيها من منافع لسُكَّانِ الأرض، إذ تهديهم مواقعها إلى طُرقاتهم في ظُلُماتِ البرِّ والبحر.

والقسَمُ بالسماءِ وبالنجوم الثواقب فيها، قَسَمَ بآيةٍ عظيمةٍ كبرى من آيات الله في كونه، وهي آيةٌ تدلُّ على أنَّ علمه مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ، وأنَّ إرادته في الخلقِ والتَّدبيرِ إرادةٌ حَكيمَةٌ جليلة، وأنَّ قُدْرَتَهُ عظيمةٌ لا يُعْجزُها شيءٌ تتعلَّقُ بإيجاده إرادته، صغيراً كان أم كبيراً.

إنَّ السماءَ والنجوم فيها، والتي تُعْتَبَرُ الأرضُ كُلُّها بالنُسْبةِ إليها بمثابة رَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ بالنُسْبةِ إلى سائر الأرض، ويذكر علماء الفلك أنَّ بعض النجوم في السماء التي نراها بمقدار عَيْنٍ صغيرة، أَكْبَرُ من الأرض بمَلَّايين المرَّات، وإنَّما صَغُرَها في أعْيُننا بُعْدُها عَنَّا. والنجومُ في السماء ذواتُ حَرَكَاتٍ ومَسِيراتٍ وأفلاكٍ عجيبات في إتقانها وإحكامها.

فَمِنْ الحِكْمَةِ أن يُقَسَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا للتَّنْبِيهِ على ما فيها من دَلالاتٍ على عظمة الرَّبِّ الخالقِ العليمِ الحكيمِ القدير.

وقد جيء بهذا الْقَسَمِ لتأكيدِ خَبَرٍ عن بَعْضِ تَذِيبَاتِهِ الصَّغِيرَةِ الهَيِّنَةِ بالنُسْبةِ إلى خَلْقِهِ السَّمَاءِ والنجومِ الَّتِي لا تَسْتَطِيعُ الخلائقُ حصرها، ولا إدراكَ أبعادها، وإلى تدبيره حَرَكَاتِها ومَسِيرَاتِها وتأثيراتها في هذا الكون العظيم.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾

وفي القراءة الأخرى [لَمَّا].

هَذَا هو المَقْسَمُ عليه المَوْكَّدُ بِالْقَسَمِ. أي: ما مِنْ نَفْسٍ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ عَلَيْهَا حَافِظًا يَحْفَظُ مَا يَصُدُرُ عَنْهَا مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ وَحَرَكَاتٍ نَفْسِيَّةٍ وَفَكْرِيَّةٍ وَقَلْبِيَّةٍ وَنَبَاتٍ، ولا يَكُونُ حَافِظًا إِلَّا إِذَا كَانَ مُرَاقِبًا دَوَامًا، مُشَاهِدًا

لِكُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ حِفْظُهُ أَفَيَعِجُزُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ الْعَظِيمَةَ، وَخَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ الْمَدِيشَةَ بِتَكْوِينِهَا وَأَعْدَادِهَا وَإِتْقَانِ مَسِيرَاتِهَا وَحَرَكَاتِهَا فِي أَفْلَاكِهَا، عَنْ أَنْ يَجْعَلَ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ حَافِظًا مُرَاقِبًا، يُسَجِّلُ عَلَيْهَا كُلَّ مَا يَخْدُثُ فِيهَا وَكُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا؟!

تَعَالَى اللَّهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا غُلُوءًا كَبِيرًا، وَالشَّاكُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْخَبَرِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَالْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ الْمُقَسِّمِ بِهِ وَالْمُقَسِّمِ عَلَيْهِ هِيَ التَّشْبِيهِ، فَالسَّمَاءُ مُحِيطَةٌ بِالْأَرْضِ، وَالنُّجُومُ فِيهَا كَثِيرَةٌ نَافِذَةٌ عِيُونُهَا مِنْ ثُقُوبِ سِتَارَةِ اللَّيْلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَكُلُّ نَفْسٍ مُحَاطَةٌ بِالْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ، وَعَلَيْهَا أَيْضًا مُرَاقِبٌ ثَاقِبٌ لِحَجْبِهَا، يَرِاقِبُهَا فِي خَلَوَاتِهَا، حَتَّى دَاخِلَ سِرَائِرِهَا مِنْ نِيَّاتٍ وَمَكْنُونَاتٍ مُضْمَرَاتٍ فِي صُدُورِهَا، وَالتِّي سَوْفَ تُكْشَفُ يَوْمَ الْحِسَابِ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ.

وَذَلَّتْ عِبَارَةٌ ﴿عَلَيْهَا﴾ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِكَلِمَةِ ﴿حَافِظٌ﴾ ﴿مُرَاقِبٌ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ وَمُسَجِّلُهَا، إِعْدَادًا لِلْحِسَابِ، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذَ الْجَزَاءِ، إِذْ هِيَ الْقَضِيَّةُ الَّتِي جِيءَ بِالْقِسْمِ لِتَأْكِيدِهَا، وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةُ ﴿حَافِظٌ﴾ صَالِحَةً لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى حِفْظِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْمُؤْذِيَّاتِ، إِلَّا مَا فِيهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى يُنَاسِبُهُ عِبَارَةٌ: «لَهَا» لَا عِبَارَةٌ: ﴿عَلَيْهَا﴾.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾: أَيُّ: مَا كُلُّ نَفْسٍ «إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ، مِثْلُ «مَا».

﴿لَهَا عَلَيَّ حَافِظٌ﴾: ﴿لَهَا﴾ أَدَاةُ اسْتِثْنَاءٍ بِمَعْنَى «إِلَّا».

وَالنَّفْيُ وَالِاسْتِثْنَاءُ يَفِيدُ الْحَصْرَ وَالْقَصْرَ، وَهُوَ مِنْ قَصْرِ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ، وَهُوَ هُنَا قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، لِأَنَّ الْمُقْصُودِينَ بِالْخُطَابِ مُنْكَرُوا وَجُودِ مُرَاقَبَةٍ دَائِمَةٍ لِأَعْمَالِ النَّاسِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، أَوِ الشَّاكُونَ فِيهَا، فَجَاءَ الْقَصْرُ لِرَدِّ تَوَهُّمِهِمْ.

وعلى قراءة [لَمَّا] تَكُونُ ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقل، وتكون اللام في [لَمَّا] هي اللام المرحلة إلى الخبر، وتسمى هنا اللام الفارقة، لأنها فارقة بين «إِنْ» المخففة من الثقل، عن «إِنْ» النافية.

قالوا: و «ما» في [لَمَّا] زائدة للتأكيد. أقول: ما المانع أن يكون لفظ «ما» هنا اسماً نكرة، وهو مفسر بما قبله، ويكون المعنى: إن كل نفس لنفس عليها حافظ.

ففي القراءتين أسلوبان من أساليب تأكيد الخبر، أحدهما عن طريق النفي والاستثناء، والآخر عن طريق أدوات التأكيد (إن - والجملة الاسمية - واللام المرحلة).

### الأسلوب القرآني في تأكيد الأخبار الغيبية:

يُستفاد من أسلوب التأكيد القرآني في هذا الدرس وفي غيره من سور القرآن، أن البيان حينما يكون متعلقاً بخبر غيبي، لا سبيل إلى علم المقصودين بالخطاب به المنكرين له إلا عن طريق الخبر، فإن الخبر يأتي مقترناً بالمؤكدات الخبرية، وأعلاها القسم.

ويأتي التصرف الرباني الحكيم فيما يصلح لأن يُقسم الله به، باختيار القسم بما يتضمن نوع حجة تتصل بالقضية التي يؤكدها الله عز وجل بالقسم، أو بماله بها مناسبة ما، ولو كانت على سبيل التشبيه أو التنظير لتقريب المُقسم عليه إلى أفهام المقصودين بالخطاب، وليقيسوا ما يجحدونه من غيبي، على ما لا يقدرون على جحوده وإنكاره من مشهود.

ومن هذا القبيل القسم بالسَّماء والطَّارق، على وجود حافظ له مُشاهدة دائمة على كل نفس خلقها الله، فهو مراقب لها دوماً، ويسجل كل ما يصدُر عنها من أنواع وأفراد سلوك إرادتي، جسدي، أو فكري، أو قلبي، أو نفسي.



والمُنَاسِبَةُ هُنَا هِيَ تَشْبِيهِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مَثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، بِالسَّمَاءِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَرْضِ، وَتَشْبِيهِ الرُّقَبَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِالنُّجُومِ الثَّوَابِقِ.

**الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل:**

المتدبر المتأنّي المتتبع للموضوعات القرآنية يلاحظ أنّ الموضوع القرآني الواحد، ذا العناصر والأجزاء المتعددة، لا يأتي القرآن بكلّ عناصره وأجزائه في درس واحد من دروس التنزيل، بل يلاحظ أنّ هذه العناصر والأجزاء المتعددة، مفصلة وموزعة في دروس متعددة، ضمن عدد من سور القرآن غالباً، وتأتي على مراحل في نجوم التنزيل، وما يأتي من هذه العناصر في درس من دروس التنزيل يأتي مقترناً ببعض الحجج التي من شأنها أن تُقنع طالب الحق، إذا كانت القضية ممّا يمكن إثباته عن طريق العقل أو شواهد الحسّ.

أما إذا كانت القضية من الأمور الغيبية الخبرية التي ليس لها حُجَج عقلية مباشرة، فيأتي الإخبار بها مقترناً بالمؤكدات التي تعارف الناس على تأكيد أخبارهم بها، وأعلاها القسّم، وأحكم الأقسام ما له صلةً بكمال المقسّم صاحب الخبر، وله مناسبةً تصلُّه بالمقسّم عليه، كالقسّم الذي تدبرناه في هذا الدرس من دروس سورة (الطارق).

وهذا الأسلوب القرآني الذي نلاحظه من تتبّع دروس التنزيل وفق ترتيب التّزويل، يُعلِّمنا منهجاً تربوياً وتعليمياً ملائماً للطبائع البشرية. ويدلُّنا ضمناً على أنّه هو المنهج الأحكم والأقوم، إذ اختاره الله لنفسه في تعليمه عناصر دينه الذي اصطفاه للناس، وفي تربيته لمتلقّي هذه الدروس، ومعالجته أصنافهم المختلفة، بالإقناع الذي يتتبع الأجزاء والعناصر الفكرية،

للموضوع الكلّي الواحد، فيُحيطُ كلُّ جُزءٍ منها بما مِنْ شأنه أن يوصلَ العُمقَ الفكريّ والنَّفسيّ إلى الاقتناع، إذا كان الإنسانُ المتلقّي مُستَعِدًّا استعداداً إرادياً للتعرف على الحقّ، وقَبُوله متى ظَهَرَ له، والإيمان به متى اقتنع به.

أما إذا كان المتلقّي صاحبَ هوى، أو متصلّبَ الفكر عند سوابق عقائد، أو مستكبراً، أو ذا عِلَّةٍ أخرى من عِلَلِ النفس، فإنّه أحدُ شَخْصَيْنِ:

● إمّا أن يكون غير مُستَعِدٍّ لقَبُولِ الحقّ والالتزام به، ولو ظهر له، وعَرَفَ أنّه حقٌّ.

● وإمّا أن يكون غير مُستَعِدٍّ ابتداءً لأن يفتَحَ نوافذَ فكره ونَفْسِه وقلبه، للتعرف على الحقّ، واستقبالِ أنواره، رضاً بما هو فيه من أدناسٍ فكريةٍ ونَفْسِيَّةٍ، وتوهّماً منه أن ما هو عليه هو الحقّ، فهو لا يُريد أن يُجهدَ ذِهنَهُ بالتفكيرِ في غَيْرِهِ، ولا يُريدُ أن يغيّرَ ما هو عليه من مألوفٍ فكريّ، أو مألوفٍ نَفْسِيّ، أو مألوفٍ سلوكيّ، مهما كان الأمرُ الذي يُدعى إليه هو الأمر الذي يجب عقلاً الإيمان به، والعملُ بمقتضاه.

أما الفريق الأول: فهو فريقُ معانِدٍ مكابِرٍ، أفرادُهُ ساقِطون في دركةٍ من غضبِ الله عليهم، تجعلُهُم في أسفل سافلين من دَرَكَاتِ الجحيم.

وأما الفريق الآخر: فهو فريقُ استَحَبَّ العَمَى على الهدى، وطَمَسَ بإرادته ما وهبَهُ رَبُّه الخالق الحكيم من أدواتٍ إدراكٍ يستطيع أن يَعْرِفَ بها الحقّ والباطل، والخير والشرّ، والحسن من السلوك والقبیح منه، والصّلاح والفساد، والنقص والكمال.

وأفراد هذا الفريق لا يسمَحون للمعرفة الحقّ أن تنفذ إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم، فهم رافضون للمعرفة، راضون بالجهالة والعمى، لا

معاندون للحقّ بعد معرفته، وهم ساقطون في دركة الضالّين ضلّالاً إرادياً، ويحمِلُون تَبِعَةَ ضلالهم عن الحق والخير والهدى.

إنّ أفراد هذا الفريق قدّ أَلْعَوْا من إنسانيتهم أهمّ عناصرِ كمالها، فَجَعَلُوا أنفسهم بإراداتهم كالأنعام، بل أضلّ سبيلاً.

إنّ الأنعام لم تَوْث أدوات الإدراك التي وهبها الله للناس، فهي لا تُسأل عما ليس لديها أدواته، أمّا هؤلاء فقدّ أوتوها وعطّلوها، وأصرّوا على تعطيلها، رضاً بما هم فيه من مُشَارَكَةِ حيوانيّة للأنعام.

هذا ما يتعلّق بوسائل الإقناع الفكريّ.

### العلاج النفسي بالترغيب والترهيب:

وأما ما يتعلّق بمعالجة النفوس بالترغيب والترهيب، فقضيّة تَرْبِوِيَّة تُشبه الغِذاء اليوميّ، لذلك نلاحظ في نجوم التنزيل القرآني، أنّها لا تَحُلُو في الغالب من صُورِ التَّربِيب والترهيب، بألوان مختلفة، وأساليب مُتَنَوِّعة، وتصاريِف عجيبة، لا تدعُ احتمالاً مما يُمكن أن يكون له تأثيرٌ ما إلّا استخدمته، وهي تُشبهُ صُنُوفَ المطاعم والمشارب التي يتناولها الناس، والمقصودُ الغذائيّ واحد.

فيقتطع النّجم القرآني المنزّلُ فِكْرَةً من جُمْلَةِ الأفكار الكلية عن الثواب والعقاب، أو مَشْهُداً مِنْ مَشَاهِدِهِ الَّتِي سَوْفَ تَحْدُثُ حتماً، فَيَغْرِضُهَا، تَرْغِيباً فَتَرْهِيباً، أو تَرْهِيباً فَتَرْغِيباً.

وحين نجمع هذه الأفكار الجزئية، وهذِهِ الصُّوَرُ والمشاهد، نستطيع تَصَوُّرَ كَامِلِ عناصر الموضوع الفِكْرِيّ، وكَامِلِ المشاهد.

فما أبدع القرآن المجيد، وما أبدعَ بياناته التعليميّة والتربويّة.



(٦)

## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ - ١٠)

قال الله عز وجل:

﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ .

تمهيد:

في هذا الدرس أمرٌ جازمٌ للإنسان المُنكر للبعث، أو الشاك فيه، تَوْهُماً منه أن إعادة الموتى إلى الحياة بعد الفناء أمرٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ عليه، بأن ينظرَ نظراً متفكراً مُتدبراً، في حَلَقَةٍ من حلقاتِ سِلْسِلَةِ نَشْأَتِهِ، وهي حَلَقَةُ الماء الدافق، التي قَذَفَهَا أَبُوهُ مَنِيًّا، خارجاً من بين الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ، ولم يَكُنْ شيئاً مذكوراً قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ اللهُ بدءاً من الماء والتراب، حتَّى صَيَّرَهُ رَبُّهُ غِذاءً، ثم صَيَّرَهُ دَمًا، ثُمَّ صَيَّرَهُ مَنِيًّا في داخل جسم أبيه، ثم قَذَفَهُ أَبُوهُ لِيَنْمُوَ إنساناً في مُسْتَوْدَعِ أُمِّهِ، حَلَقَاتٍ عَجِيبَاتٍ في سلسلة أطوار خَلْقِهِ، تُدْهِشُ كُلَّ بَاحِثٍ عَالِمٍ مُتَفَكِّرٍ.

أفيليقُ بإنسانٍ مُتَفَكِّرٍ مُتدبرٍ عاقلٍ، يَنْظُرُ في أطوار نشأته وعجائب خَلْقِ اللهِ له، أن يَسْتَبْعِدَ أو يُنْكِرَ إعادة الله له إلى الحياة، بعد أن يَرْجِعَ إلى مَا كَانَ عليه، وواضحٌ في تصوُّراتِ الناس أن إعادة خَلْقِ الشَّيْءِ على مِثَالِ سَبَقٍ، أَهْوَنُ مِنْ بَدْئِهِ على غير مِثَالٍ سَبَقٍ!؟.

إنَّ مُتَفَكِّراً مُتَأَمِّلاً عَاقِلاً لَا يَلِيقُ بِذَكَائِهِ وَفَهْمِهِ وَفُطْنَتِهِ، أن يَسْتَبْعِدَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ، وَيُخْرِجَهَا عَنْ دَائِرَةِ الْإِمْكَانِ.

وَإِذَا آمَنَ بِالرَّبِّ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُثَبِّتَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَيُنْصَرِّهَا بِمَا يَمْلِكُ مِنْ حُجَّةٍ، لَا أَنْ يَجْحَدَهَا، وَيَكْذِبَ الْأَخْبَارَ

الواردة بإثباتها، والتي جاءت بها الأديان الربانية الحق، ونطقَ بها بلاغاً عن الله رُسُلُ الله الصادقون، المؤيدون منه بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

● ﴿يَنْظُرِ الْإِنْسَنُ﴾: أمرٌ للإنسان المنكر للبعث أو الشاك فيه، بأن ينظرَ نظرَ تفكيرٍ وتدبرٍ وتحليلٍ للظواهر والبواطن وأسبابهما.

أي: إن كان لدى هذا الإنسان شُبُهَات، حَوْلَ كون البعث من الأمور الممكنة التي تخضعُ لسلطانِ قُدْرَةِ الله عزَّ وجلَّ، وتوهّمات تجعله يُستبعدُ إمكانَ إحياءِ الموتى بعد فناء أجسادهم، فليَنظُرْ مِمَّ خُلِقَ.

● ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟: في هذه العبارة توجيه لهذا الإنسان أن يسألَ نفسه هذا السؤال، فهو يَهْدِيهِ إلى التأمل في أصلِ نشأته، التي تُقْنِعُهُ بِقُدْرَةِ الله على رَجْعِهِ إلى الحياة بعدَ إمَاتِهِ وإِفْنَائِهِ.

والسؤال عن الأشياء وحقائقها هو مفتاحُ كُلِّ بحثٍ علمي، وكلُّ إجابة صحيحة تجزّ إلى سؤال جديد، حتّى تنتهي سلسلة الأسباب إلى السببِ الأولِ الفعال بإرادته على مقتضى حِكْمَتِهِ.

﴿مِمَّ﴾ «من» حرفُ جرٍّ «مَا» اسم استفهام حذف الألف منه حسب القاعدة الإملائية إذا كان متصلاً بحرف جرٍّ.

● ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾: في هذه العبارة تذكير للإنسان بما يضلح جواباً على السؤال: [مِمَّ خُلِقَ]؟

واختيرَ في هذا التذكير من مراحِلِ نشأته مَرَحَلَةُ المَاءِ الدَافِقِ، وهي مَرَحَلَةُ وَسَطَى من مراحل أطوار خَلْقِهِ، وهذه المرحلة معروفة لكل إنسان بلغ الحُلم.

الماء الدافِق: هو مَنِي الذَكَر الذي يَخْرُجُ مُنْصَبّاً مَقْدُوفاً، بموجات من

الصَّبُّ مُتَّبَاعَةٌ، وَسَمَاءُ اللَّهِ مَاءٌ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْمِيَاهِ ذَوَاتِ الْخِلَاطِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ فِي نصوصٍ أُخْرَى اسْمُهُ الْمَعْرُوفُ، وَهُوَ كَلِمَةُ «مَنِي».

دَافِقٌ: قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الدَّفَقُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: صَبُّ الْمَاءِ، وَفَعَلَ «دَفَقَ» مُتَعَدِّ.

وَقَالَ الْفَيْرُوزِي: «دَفَقَ» مُتَعَدٌّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ اللَّغَةِ يَرَوْنَ جَوَازَ اسْتِعْمَالِهِ لِإِزْمًا.

وَبِنَاءٌ عَلَى اعْتِبَارِ فِعْلِ «دَفَقَ» فِعْلًا مُتَعَدِّيًا ذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ إِلَى تَأْوِيلِ كَلِمَةِ «دَافِقٍ» وَجَعَلَهَا بِمَعْنَى: «مَدْفُوقٌ» وَدَخَلَ هَذَا فِيمَا يَسْمَى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَعَانِي بِالْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ.

وَيُرَى سَبِيحُهُ أَنَّهُ بِمَعْنَى «ذِي دَفَقٍ» كَقَوْلِ الْعَرَبِ «لَابِنٌ» أَيُّ: ذُو لَبَنٍ، وَ «تَامِرٌ» أَيُّ: ذُو تَمَرٍ.

أَمَّا عَلَى رَأْيِ مَنْ يَرَى مِنَ اللَّغَوِيِّينَ أَنَّ فِعْلَ دَفَقَ يَسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًا وَيَسْتَعْمَلُ لِإِزْمًا أَيْضًا، فَكَلِمَةُ «دَافِقٍ» اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْإِزْمِ، بِمَعْنَى يَتَدَفَّقُ، وَبِنَاءٌ عَلَى هَذَا فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّأْوِيلِ.

● ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾: أَبَانَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ أَنَّ الْمَاءَ الدَّافِقَ (= الْمَنِي) الَّذِي يَقْدَفُهُ الذَّكَرُ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانٍ مَا بَيْنَ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

الصُّلْبُ: هُوَ الْعَمُودُ الْفِقْرِيُّ، وَهُوَ الْفِقَرَاتُ الْعَظْمِيَّةُ فِي الظَّهْرِ، مِنْ لَدُنِ الْكَاهِلِ إِلَى عَجَبِ الذَّنْبِ. وَجَمْعُ «صُلْبٍ» أَضْلَابٌ، وَأَصْلُبٌ.

التَّرَائِبُ: هِيَ عِظَامُ الصَّدْرِ، وَأَعْلَاهَا مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ مِنَ الصَّدْرِ. الْوَاحِدَةُ مِنْهَا: «تَرِيَّةٌ».

أما كون الماء الدافق يخرج من بين الصُّلب والتراتب، فهو من الخَفَايا العلمية الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ من الكنوز القرآنيَّة المدَّخِرة، لتَكُون إعجازاً عِلْمِيّاً فيه، يُكْتَشَفُ حين يَتَوَصَّل الباحثون العِلْمِيّون إلى حقيقته التكوينيَّة في الواقع.

وقد وقع كثير من المفسرين الأقدمين في الخطأ لدى تفسير هذه العبارة، فقالوا: من صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَاتِبِ الْمَرْأَةِ، إذ لم تَكُنِ الحقيقة العلمية معلومةً لهم، حَتَّى يُفَسِّرُوا النَّصَّ بها، وإن كان المنهج العملي يقضي بأن نقول فيما نجهل حقيقته: اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده. وغايَةُ مَا يُمْكِنُ قَوْلُهُ فِيمَا نَجْهَلُ حَقِيقَتَهُ طَرْحُ الاحتمالات الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَدُلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ دُونَ جَزْمِ بواحد منها، وتركُ التَّخْدِيدِ لما تثبته الحقائق العلمية الَّتِي تُكْتَشَفُ بالوسائل الإنسانية.

فالله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ في كتابه كُنُوزاً إعجازيَّةً ادَّخَرَهَا للعصور المستقبلية الَّتِي تَأْتِي بَعْدَ عَظَرِ التَّنْزِيلِ، وهي تُكْتَشَفُ تَباعاً مع تَقَدُّمِ المعارف الإنسانية، الَّتِي يُلْهِمُ اللَّهُ النَّاسَ البحث عنها، والوُصُولُ إلى معرفة حقيقتها، ولو كانوا من الكافرين به.

وهذا من البيان الرَّبَّانِي الذي ذكره اللَّهُ لرسوله في قوله في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ تُرْبَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ .

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَكْفَّلَ بِبَيَانِ خَفَايَا الْقُرْآنِ العلمية على التراخي، الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ حَزْفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾.

أما مُقَرَّرَاتُ البحث العلميِّ حول كَوْنِ المَاءِ الدافقِ، وهو مَبْنِيٌّ الذِّكْر، يَخْرُجُ من بين الصُّلب والتراتب، فلا أُرِيدُ أَنْ أَتَطَفَّلَ عَلَى مَا لَيْسَ لي فيه

اختصاص، ولكن أثقل ما كتبه باحث عالم مُسلِّم طيب ذو اختصاص في هذا الفن. إنَّه الدكتور «محمد علي البار» فهو يقول في كتابه «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» جَزَاهُ اللهُ خيراً وأحسَنَ إليه: ما يلي<sup>(١)</sup>:

«تقول الآية الكريمة: إِنَّ المَاءَ الدافِقَ يخرج من بين الصُّلْبِ والترائب.

ونحن قد قلنا: إِنَّ هذا الماء (المني) إنما يتكوَّنُ في الخصية ومُلْحَقَاتِهَا، كما تتكوَّنُ البَيضة في المبيض لدى المرأة.

فكَيْفَ تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية؟

إِنَّ الخصية والمبيض إنما يتكوَّنانِ من الحَدَبَةِ التناسليَّةِ بَيْنَ صُلْبِ الجَينِ وترائبه.

والصُّلْبُ هو العَمُودُ الفِقْرِيّ. والترائبُ هي الأضلاع (أي: أضلاع الصِّدر).

وتتكوَّنُ الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط، أي: بين الصُّلْبِ والترائب. ثم تنزل الخصية تدريجياً حتَّى تَصِلَ إلى كيس الصَّفَن (خارج الجسم) في أواخر الشهر السَّابع من الحمل. بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة، ولا يَنْزِلُ أسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ.

ومَعَ هذا فَإِنَّ تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللِّمَف تَبْقَى من حيث أضلُّها، أي: من بين الصُّلْبِ والترائب.

فَشِرْيَانُ الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأَبْهَر (الأَوْزْطِي البطني) من بين الصُّلْبِ والترائب، كما أَنَّ وريدَ الخصية يَصُبُّ في المنطقة نفسها.

(١) انظر الفصل السابع (النطفة) ولا سيما الصفحات من (١١٤) إلى آخر الفصل.



يَصُبُّ الْوَرِيدَ الْأَيْسَرَ فِي الْوَرِيدِ الْكُلُويِّ الْأَيْسَرَ، بينما يَصُبُّ وَرِيدَ  
الْخَصِيَّةِ الْأَيْمَنِ فِي الْوَرِيدِ الْأَجُوفِ السُّفْلِيِّ.

وكذلك أوردَ الْمَبِيضَ وَشَرِيانَهَا تَصُبُّ فِي الْمُنْطَقَةِ نَفْسَهَا، أي: بين  
الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

وَالْأَعْصَابُ الْمُغْذِيَّةُ لِلْخَصِيَّةِ أَوِ الْمَبِيضِ تَأْتِي مِنَ الْمَجْمُوعَةِ الْعَصَبِيَّةِ  
الْمَوْجُودَةِ تَحْتَ الْمَعِدَةِ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

وكذلك الْأَوْعِيَةُ اللَّمْفَاوِيَّةُ تَصُبُّ فِي الْمُنْطَقَةِ نَفْسَهَا، أي: بين الصُّلْبِ  
والتَّرَائِبِ.

فَهَلْ يَبْقَى بَعْدَ هَذَا شَكٌّ فِي أَنَّ الْخَصِيَّةَ أَوِ الْمَبِيضَ إِنَّمَا يَأْخُذَانِ  
تَغْذِيَّتَهُمَا وَدِمَاءَهُمَا وَأَعْصَابَهُمَا مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ؟؟!

فَالْحَيَوَانَاتُ الْمَنْوِيَّةُ لَدَى الرَّجُلِ، أَوِ الْبَيْضَةُ لَدَى الْمَرْأَةِ، إِنَّمَا تَسْتَقِي  
مَوَادَّ تَكْوِينِهَا مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، كَمَا أَنَّ مُنْشَأَهَا وَمَبْدَأُهَا هُوَ مِنْ بَيْنِ  
الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِعْجَازٌ كَامِلٌ، إِذْ تَقُولُ: ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ وَلَمْ  
تَقُلْ مِنْ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. فَكَلِمَةُ ﴿بَيْنَ﴾ لَيْسَتْ بِلَاغِيَّةٍ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا  
تُعْطِي الدَّقَّةَ الْعِلْمِيَّةَ الْمَتَنَاهِيَّةَ.

**أقول:**

بعد هذا التحقيق العلمي الذي يَكْشِفُ التَّوَافُقَ الْكَامِلَ بَيْنَ مَا جَاءَ فِي  
الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَمَا تُقَرِّرُهُ الدِّرَاسَاتُ الْعِلْمِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، حَوْلَ كَوْنِ الْمَاءِ  
الدَّافِقِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، لَا بُدَّ أَنْ تَدْفَعَنَا الدَّوَافِعُ الْإِيمَانِيَّةُ  
إِلَى الْخُضُوعِ الْكَامِلِ لَجَلَالِ اللَّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وَالْإِذْعَانِ الْكَامِلِ إِلَى أَنَّ  
الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ كَلَامُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ. إِنَّهُ لِكِتَابٌ

عزیز لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه، تنزیل من حکیم حمید.  
وما علی المتدبرین إلا أن یحسنوا تدبره، أو یتریثوا حتی ُهیئَ اللہ  
تبارک وتعالی وسائل بیان ما جهلوا أو خفی علیهم أو اشتبه علیهم منه، فقد  
تکفل جلّ وعلا ببیانه، كما ذکر فی قرآنه.

● ﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ الضمیر یعود علی الربّ الخالق المفهوم ذهنًا من عبارة:  
﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ ففعل «خُلِقَ» المبني علی ما لم یسم فاعله،  
یتضمّن الدلالة علی خالق، وهو الربّ جلّ جلاله الذي لا خالق فی الوجود  
للكائنات غیره، ولا ربّ سواه.

﴿عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾: أي: علی إرجاعه إلی الحیاة بعد إماتته وإفناء  
جسده لقادر.

جاءت جملة ﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ مؤكّدة بمؤكدات ثلاثة (إنّ -  
والجملة الإسمیة - واللام المرحقة إلی الخبر) وفيها توجيه الاهتمام للمقدور  
علیه وهو الرجوع بتقدیمه علی عامله [قادر].

یقال لغة: رَجَعَ بمعنى انصَرَفَ، علی أنّ الفعل لازم.

ویقال لغة: رَجَعَهُ بمعنى أعاده، علی أنّ الفعل متعَدّ.

ویقال فی مضدّهما: «رجع» والمراد بالرجع فی الآیة الإرجاع علی  
التعدية، من رَجَعَهُ یَرْجِعُهُ رَجْعًا.

وجاءت هذه الآیة بمثابة نتیجة عقلیة للدلیل الذي تضمّنه قول الله عزّ  
وجلّ قبلها: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ یَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ  
الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾.

أي: هذه الظاهرة الكونیة المتكررة المشهودة تقدّم إقناعاً من وجهین:

**الوجه الأول:** أَنَّ الخالق الذي قَدَّرَ على خَلْق الإنسان المكتمل في أَحْسَنِ تقويم، من مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ من بين الصُّلْبِ والترائب، قَادِرٌ على إعادته إلى الحياة بعد إِمَاتِهِ وإِفْنَاءِ جَسَدِهِ، كيف يَشَاءُ وعلى ما يَشَاءُ، وفي أَيِّ زَمَنِ يَشَاءُ، وفي أَيِّ مَكَانٍ يَشَاءُ، فخرِيطَةُ بِنَائِهِ معلومةٌ ومَوْجُودَةٌ لَدَيْهِ، وَتَوَاتُّهُ مَحْفُوظَةٌ، وفيها كُلُّ صفاته الجسدية والنفسية، وفيها سِجْلُ حَيَاتِهِ منذ نَشَأَتِهِ حَتَّى مِمَاتِهِ.

إِنَّ هذه الحُجَّةَ حُجَّةً بُرْهَانِيَّةً دافعةً لِكُلِّ تَوَهَّمَاتِ السُّفَهَاءِ، ناقصي العُقُولِ، الَّذِينَ تَغْلِبُهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ وشهواتُهُمْ، فَتَطَّعَى على مراكز التَّفْكِيرِ السليم لَدَيْهِمْ، وَعَلَى موازِينِ الْعَقْلِ الصحيح الذي جَعَلَهُ اللَّهُ في فطرتهم، فتجعلهم يَسْتَبْعِدُونَ الإِعادة إلى الحياة بعد الموت والفناء، على الرُّغْمِ من مشاهداتهم المتكرراتِ لَخَلْقِ الإنسان من مَاءٍ دافِقٍ.

**الوجه الثاني:** أَنَّ من أخبر بِحَقِيقَةِ علمية، وهي هُنَا كَوْنُ الماء الدافِقِ يَخْرُجُ من بين الصُّلْبِ والترائب، على مَا سَبَقَ تحليله، وهذه الحقيقة لم تُعْرَفْ للباحثين العلميين إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ الخبر بها بما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، لا بُدَّ أَنْ يكون صادقاً حتماً في كُلِّ ما أخبر به من أخبار عمَّا مضى وعمَّا سيأتي، ومن الْأَخْبَارِ خَبَرُ البعث إلى الحياة بَعْدَ الموت والفناء، وأخبار يوم الدين المعدُّ للحساب، وَفَضْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء، وما في الدار الآخرة من مراتب ودرجاتِ جَنَّاتِ النعيم، ومنازل ودركاتِ الجحيم.

إِنَّهُ جَلَّ جلاله واضِعُ خُطَّةِ التكوين، وَمُقَدِّرُ مقادير كُلِّ شَيْءٍ، والقادر على خلق ما يَشَاءُ، وهو العليم الحكيم، وَهُوَ الْمُخْبِرُ جَلَّ جلالُهُ بما قَدَّرَهُ وقضاه، وسوف يخلقه في الأجل المحدد له.

وهذا الوجه يفهم ضمناً وباللُزوم الذهني، من الرِّبْط بين الخبر، والأمر بالنظر في قضيةٍ أُخْرَى خَبَرِيَّةٍ هي من دقائق الإعجاز العلمي في

القرآن، ولا يُخْبِرُ عنها بِصِدْقٍ إِلَّا الْعَلِيمُ بِهَا، وهو واضعُ خُطَّتِهَا، وخالِقُهَا، وواضِعُ خُطَّةِ الوجود كُلِّهِ، ويَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ في أَجَلِهِ المَحْدَدِ لَهُ.

● ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ٩:

﴿تَبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ وتُظْهَرُ، أَضْلُ الابتلاء الاختبار للكشف، وإِذْ حَصَلَ الاختيارُ في الحياة الدنيا، فَإِنَّهُ لم يَبْقَ في الآخِرَةِ إِلَّا الكَشْفُ.

رُوي عن ابن عمر: يُبْدِي اللَّهُ يوم القيامة كُلَّ سِرٍّ مِنْهَا، فيَكُونُ زِيناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه.

﴿السَّرَائِرُ﴾: جمع «السِّريرة» وهي ما يَكْتُمُهُ الإنسانُ ويخفيه في نفسه، ومَعْلُومٌ أَنَّ النِّيَّاتِ من وراء الأعمال سرائر، وثبت في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

وإنما تُبْلَى السَّرَائِرُ لِأَنَّ الحِسابَ يوم الدين يجري على النِّيَّاتِ من وراء الأعمال.

هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ٩ هي جُزْءُ قَضِيَّةٍ، فَأَيْنَ جُزْؤُهَا الْآخَرُ؟ هَلْ نَجْعَلُهُ تَابِعاً لِلآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَائِدٌ﴾ ٨ فنَقْصُرُ من أبعاد هذه الآية، وَنَنْقُصُ من دَلَالَتِهَا الكَلِمَةِ، فَتَجْعَلُ هذه الْقُدْرَةَ خَاصَّةً بِالْإِرْجَاعِ يَوْمَ الدِّينِ، مع أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ خُطَّتُهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَتْ الإِرْجَاعَ الْعَامَ لِلْمَوْتِ أَمراً مُوجِلاً إِلَى يوم القيامة، أَمَّا الإِرْجَاعُ الْخَاصُّ فَقَدْ أَجْرَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلأُلُوفِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ ديارهم حَدَرَ الموت، إِذْ أَمَاتَهُمْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، وَأَجْرَاهُ لِلْعُزَيْرِ، وَجَعَلَهُ آيَةً لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، إِذْ كَانَ يُخَيِّي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ.

أَمْ نَجْعَلُهُ مُرْتَبِطاً بِمَا بَعْدَهُ، وهو قول الله عز وجل:

● ﴿فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٠)؟ وبالتأمل يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مُرْتَّبٌ تَرْتِيباً فِكْرىً عَلَى قَضِيَّةٍ تَامَّةٍ ذَلِكَ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩) وَلَا يَنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّرْتِيبُ عَلَى جُزْءٍ قَضِيَّةٍ.

إذن: فَكَيْفَ نَسْتَكْمِلُ الْقَضِيَّةَ الَّتِي دَلَّ عَلَى جُزْءٍ مِنْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩)؟.

وبقليل من التفكير نُذْرِكُ أَنَّ جُزْءَ الْقَضِيَّةِ الْآخِرَ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ السَّبَاقُ وَالسِّيَاقُ، وَفَقَّ الْأَسْلُوبَ الْقِرَآئِي فِي اعْتِمَادِ الْحَذْفِ الْمَلَاخِظِ ذَهْنًا، لِكُلِّ مَا يُمَكِّنُ إِدْرَاكَهُ، وَلَا يَشْتَبِهَ فِيهِ الْمَرَادُ.

وباستطاعتنا تقدير المحذوفات الملاحظات ذَهْنًا عَلَى الْوَجْهِ التَّالِي:

﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَكَبٍ لَوَّاهٍ﴾ (٨) وَإِنَّهُ لَمَبْعُوثٌ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَفَنَاءِ جَسَدِهِ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩) وَحِينَ يُجَازَى عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ كِبَائِرٍ وَجَرَائِمٍ وَمَعَاصِيٍّ وَمُنْكَرَاتٍ ﴿فَا لَمْ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ مَا، مَهْمَا كَانَتْ قَلِيلَةً ضَخِيمَةً، يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ مَا اسْتَحَقَّ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْمُقْضِي عَلَيْهِ بِهِ، وَلَا شَيْئًا مِنْهُ ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَنْصُرُهُ، فَيَدْفَعُ عَنْهُ الْحُكْمَ بِالْعِقَابِ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْمُقْضِي عَلَيْهِ بِهِ.

﴿فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٠): «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٌ جِيءَ بِهِ لِلتَّنْصِيفِ عَلَى إِرَادَةِ الْعُمُومِ الْمُسْتَغْرَقِ لِكُلِّ أَفْرَادِ الْقُوَّةِ وَعَنَاصِرِهَا، وَلِكُلِّ نَاصِرٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَنْصُرَهُ.

مَنْ هَذَا الَّذِي يَمْلِكُ قُوَّةً يُغَالِبُ بِهَا قُوَّةَ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وَلَا سِوَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ لَا قُوَّةَ لَهَا وَلَا سُلْطَانَ، تَأْتِي مَغْلُوبَةً الْقُوَى، تَتَرَقَّبُ حُكْمَ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ الدِّيَّانِ؟!.

يَوْمَ يَأْتِي كُلُّ إِنْسَانٍ فَرْدًا لَا نَصِيرَ لَهُ وَلَا مُعِين، وَلَا خَلٌّ وَلَا خَدِين،  
وَلَيْسَ لَهُ شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُ إِلَّا مَنْ أْذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا؟!

وقد قال الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَلْبَتِهِ (٣٦) وَبَيْنِهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ .

وقال تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ .



(٧)

### التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (١١ - ١٤)

قال الله عز وجل:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ (١٤)﴾ .

تمهيد:

في هذا الدرس قَسَمَ بظاهريَّتين كونيَّتين مُترابطتين، لتحقيق غاية في الحياة الدنيا على الأرض، تتصل بحياة الأحياء فيها، وهما من آيات الله الكونية الدالات على علمه وحكمته وكمال قدرته، ورحمته بعباده، على قضيتين فكريَّتين مُترابطتين أيضاً، ذواتي مضمون يؤكد خبراً يتعلّق بالحياة الأخرى، التي يتحقّق فيها ثمرّة الامتحان في الحياة الدنيا، وهي الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

**الظاهرة الأولى:** السَّمَاءُ القَرِيبَةُ ذَاتُ الرَّجْعِ، وَهِيَ غَيْرُ السَّمَاءِ البَعِيدَةِ ذَاتِ التُّجُومِ الثَّوَابِقِ.

● ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾: إِنَّ السَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ هِيَ فِي أَقْوَى الأُمَارَاتِ الهَادِيَاتِ لِلْمُتَدَبِّرِ، الْغَلَافُ الْغَازِيُّ الْمَحِيطُ بِالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَدَى خَاضِعٌ لْجَازِبِيَّةِ الْأَرْضِ حَوْلَهَا، وَقَدْ عَرَفْنَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ أَنَّ السَّمَاءَ تَطْلُقُ لُغَةً عَلَى كُلِّ مَا ارْتَفَعَ وَعَلَا.

ونتساءل عن السَّبَبِ الدَّاعِي لِوُضُفِ هَذِهِ السَّمَاءِ الْقَرِيبَةِ مِنَّا بِأَنَّهَا ذَاتُ الرَّجْعِ، أَي: ذَاتُ الْإِرْجَاعِ، مِنْ فِعْلٍ: رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعًا.

■ وَتَجِبُنَا الظَّاهِرَةُ الْمُتَكَرِّرَةُ الَّتِي أَذْرَكُهَا الْأَقْدَمُونَ، وَهِيَ ظَاهِرَةُ تَبَخُّرِ الْمِيَاهِ وَتَصَاعُودِهَا إِلَى طَبَقَاتٍ مَا مِنْ الْغَلَافِ الْغَازِيِ حَوْلَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الَّذِي تَتَكَوَّنُ مِنْهُ السَّمَاءُ الْقَرِيبَةُ الْمُلْتَصِقَةُ بِهَا، ضَمِنَ سُنَنِ وَأَسْبَابٍ مُخَكَّمَةٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ مَطْرًا، مَاءً حُلُوءًا، أَوْ ثَلْجًا، أَوْ بَرْدًا، لِسُقْيَا النَّاسِ وَالدَّوَابِّ، وَلِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، مِنَ الْبُزُورِ وَالْجُذُورِ الْمُنْبَثَةِ فِيهَا.

فَهَذِهِ السَّمَاءُ الْقَرِيبَةُ ذَاتُ رَجْعٍ لَمَّا يَصْعَدُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَخَارِ الْمَاءِ.

■ وَكُلُّ النَّاسِ يُلَاحِظُونَ أَنَّ أَيْ شَيْءٍ يَصْعَدُ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَلَاصِقَةِ لَهَا بِقُوَّةٍ مَا، دُونَ أَنْ يَنْفِذَ وَيَكُونَ بَعِيدًا عَنْهَا فِي الْفَضَاءِ الْكَوْنِيِّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْأَرْضِ مَتَى تَلَاشَتْ الْقُوَّةُ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَصْعَدُ فِيهَا، وَقَدْ عَرَفَ الْبَاحِثُونَ الْعَلَمِيُّونَ سَبَبَ ذَلِكَ، مِنْذُ أَدْرَكُوا قَانُونَ الْجَازِبِيَّةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ.

فَهَذِهِ السَّمَاءُ الْقَرِيبَةُ ذَاتُ رَجْعٍ لِكُلِّ مَا يَصْعَدُ فِيهَا مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ هُوَ يَرْجِعُ إِلَيْهَا بِقُوَّةِ جَازِبِيَّةِ الْأَرْضِ لَهُ، وَعَدَمِ إِمْسَاكِ هَذِهِ السَّمَاءِ لَهُ، مَا لَمْ

تكن القُوَّة الدافعة عظيمةً جدًّا إلى حدِّ إخراج المقذوف الصاعد من الغلاف الغازي كُلِّه، إلى الفَرَاغ الكوني بعيداً عن جاذبيَّة الأرض.

■ وذكر العلماء الكونيُّون أنَّ الأشعة الضوئية التي تلامِسُ الغلاف الغازيَّ حول الأرض، والذي هو السماء القريبة الملاصقة لها، تنشطر إلى ثلاثة أقسام:

(١) فقسِّمُ قليل يسمح هذا الغلاف بعُبوْره ومروره حتَّى يَنفُذَ منه، ويَصِلَ الى الأرض إذ فيه نفع وفائدة لِلأَرْضِ ونباتاتها وسُكَّانها.

(٢) وقسم آخر يمتصُّه هذا الغلاف، ويستفيد منه حرارة نافعة، يَصِلُ أثرها إلى الأرض بتصاريفَ مختلفة، ومنها تحريك الرياح.

(٣) وقسم ثالث تردُّه هذه السَّماء، وتُرْجِعُه، فلا تَسْمَحُ له بالمرور، ولا تمتصُّه.

وهذا القسم الذي ينالُه الرُّجْعُ قسِّمٌ ضارٌّ مؤذٍ، وإذا كثرت نسبته أَهْلَكَ سُكَّانَ الأرض ونباتاتها.

وقد أحكم الخالق العظيم بقضائه وَقَدَرِه صُنْعَ هذا الغلاف، لإرجاع المؤذيات والضَّارَاتِ من الأشعَّة الكونية القادمة في اتِّجَاهِ الأرض إلى الفَرَاغ الكوني.

وبهذا يَظْهَرُ لنا نوعٌ من الرُّجْعِ لم يَكُنْ معروفاً للناس، لَوَلَا الدِّرَاسَاتُ العلميَّة الإنسانيَّةُ الَّتِي أَثْبَتَتْ.

فهي إذن ثلاث صُور من الرُّجْعِ الَّذِي تتصَفُّ بِهِ السَّماءُ القريبة من الأرض، والملاصِقَةُ والمحيطَةُ بها، وهو الغلاف الغازي حَوْلها.

■ رجع المطر.



■ ورجع كُلُّ ما يَضَعِد من الأرض بقوة زائدة على قوة جاذبيتها، إليها بعدَ تلاشي أثر القوة الدافعة.

■ وَرَجِعُ قِسْمِ الأشعة الكونية المؤذية والضارة بعدم السماح لها بالنفوذ في الغلاف الجوّي إلى الأرض.

وبهذا يظهر لنا أَنَّ من الحكمة البيانية الربّانية أَنْ يُقَسِّمَ رَبُّنَا جَلَّ جلاله بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، لِأَنَّ صِفَتَهَا هَذِهِ تَدُلُّ على شمول علم الله كُلِّ شيءٍ، وتَدُلُّ على جليل حَكَمَتِهِ، وعظيم قدرته وإتقانه لخلقه، وَفِيضِ إنعامه على عبادِهِ سُكَّانِ الأرض.

وقد بدأ الناس يُفْسِدُونَ بما كَسَبُوا هذا الغلاف الحافظ الواقِي، ذا الرَّجْعِ.

الرَّجْعُ: مَضَرٌ فِعْلِي: «رَجَعَ» اللازم، و «رَجَعَ» المتعدي.

تقول لغة: رَجَعَ هو يَرْجِعُ، وتقول: رَجَعْتُهُ أَرْجِعُهُ، رَجَعَا وَرُجُوعاً وَرَجَعِي وَرُجْعَاناً وَمَرْجِعاً.

ويقال في لُغَةِ هُذَيْلٍ: أَرْجَعَهُ يُرْجِعُهُ.

● ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (١٢):

الصَّدْعُ في اللُّغَةِ: الشَّقُّ في الشيء الصُّلْبِ، كالحَجَرِ والحائط والزجاج. وكذلك الشَّقُّ في الأرض.

يُقَالُ لغة: صَدَعَ الشيءَ يَصْدَعُهُ صَدْعاً، وَصَدَعَهُ تَصْدِيعاً. فَانْصَدَعَ وَتَصَدَّعَ. أَي: شَقَّه فَانْشَقَّ.

وَيُطْلَقُ الصَّدْعُ على نبات الأرض، لِأَنَّهُ يَصْدَعُهَا، أَي: يَشَقُّهَا لِيُخْرِجَ إلى الثَّورِ والهَوَاءِ، فهي تَنْصَدِعُ به.

ويقال تَصَدَّعَتِ الأرض بالنباتات، أَي: تَشَقَّقَتْ.

وَيُقْسِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: بِالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ، لَأَنَّهَا آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ  
كَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ.

يَنْزِلُ مَاءُ الْمَطَرِ، فَيَتَغَلَّغُلُ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، فَيَخْتَلِطُ بِهِ نَبَاتُ  
الْأَرْضِ، فَيُضْدَعُهَا، وَيَتَمَوُّ أَشْجَاراً وَنَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَثِمَرَاتٍ نَافِعَاتٍ.

ولا أرى مانعاً من تعميم دلالة كلمة (الصَّدْع) ليشمل كُلَّ صَدْعٍ نافعٍ،  
كَالتَّصْدَعَاتِ الْبَرَكَاتِيَّةِ، الَّتِي يَكُونُ بِهَا إِخْرَاجُ بَعْضِ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَمَعَادِينِهَا،  
وَيَكُونُ بِهَا إِمْدَادُ قِشْرَةِ الْأَرْضِ بِعُنَاصِرٍ جَدِيدَةٍ فَقَدَتْهَا عَبْرَ الْقُرُونِ بِمَا  
اسْتَهْلَكَتُهُ مِنْهَا النَبَاتَاتُ الْمُخْتَلِفَاتُ، وَكَالتَّصْدَعَاتِ الَّتِي تَتَفَجَّرُ بِهَا الْعُيُونُ  
وَالْيَنَابِيعُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تَجْرِي أَنَهَاراً، وَكَالتَّصْدَعَاتِ الَّتِي تَمْتَلِئُ بِالمِياهِ فَتَكُونُ  
بِحَاراً أَوْ بُحَيْرَاتٍ، وَكَالتَّصْدَعَاتِ الَّتِي تَتَفَجَّرُ مِنْهَا ذَاتِبَاتٌ تَدُلُّ أَهْلَ الْبَحْثِ  
الْعِلْمِيِّ عَلَى مَا فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، وَمِنْهَا تَصْدَعَاتٌ تُشَقُّ بِهَا طُرُقُ بَرِّيَّةٍ  
وَبَحْرِيَّةٍ لِلسَّالِكِينَ، وَتَتَفَصَّلُ بِهَا قَارَاتٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

غَيْرَ أَنَّ الْمُنَاسَبَةَ بَيْنَ الْقَسَمِ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، وَالْقَسَمِ بِالْأَرْضِ  
ذَاتِ الصَّدْعِ تُوجِّهُ التَّنَظَّرَ بِالدرْجَةِ الْأُولَى، لِلشُّقْيَا الَّتِي تَحْدُثُ بِالرَّجْعِ الَّذِي  
هُوَ الْمَطَرُ الَّذِي نَتَجَّ عَنْ تَجَمُّعِ بخَارِ الْمَاءِ سُحُباً، وَلِلصَّدْعِ الَّذِي يُخْذِثُهُ  
النَّبَاتُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ بُرُوزِهِ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَى سَطْحِهَا.

وَبَعْدَ الْقَسَمِ بِهَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ،  
ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْمُقْسِمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى:

● ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِنَّهُ﴾: الضمير يعودُ على قول الله تعالى في الدرس الأول: ﴿إِنْ  
كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿١﴾﴾ وقوله تعالى في الدرس الثاني: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ  
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وبِالْآخِرَى يَعُودُ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْهُمَا مِنْ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ  
وَالْفَنَاءِ حَقٌّ، لِيَوْمِ الدِّينِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْحِسَابُ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَالْجَزَاءِ

بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، فِي الْجَنَّةِ دَارَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ فِي النَّارِ دَارَ عَذَابِ  
الْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ الْأَبَدِيِّ، وَتَغْذِيبِ الْعَصَاةِ الْمَذْنِبِينَ عَلَى مَقَادِيرِ  
اسْتِحْقَاقَاتِهِمْ لِلْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ، لَتَطْهِيْرَهُمْ قَبْلَ نَقْلِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ دَارِ نَعِيمِ  
الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ.

﴿لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾: أَضْلُ الْفَضْلِ الْبُعْدُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وَالْحَاجِزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ،  
وَقَطْعُ الشَّيْءِ إِلَى شَيْئَيْنِ وَإِحْدَاثُ بُعْدٍ بَيْنَهُمَا.

وَاسْتُعْمِلَ الْفَضْلُ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ، وَمِنْهُ: يَوْمُ الْفَضْلِ، أَيِ:  
يَوْمُ الْفَضْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَالْمُتَّقُونَ يُفْضَلُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ،  
وَمُسْتَحِقُّو الْعَذَابِ يُفْضَلُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَكَاتِهِمْ.  
وَيُقَالُ لُغَةً: فَضَلَ الْأَمْرَ، أَيِ: قَضَاهُ وَأَبْرَمَهُ وَبَتَّهُ.

وَالْآيَاتُ الْمَفْصَّلَاتُ هِيَ ذَوَاتُ الْبَيَانَاتِ الْكَاشِفَاتِ لِأَجْزَاءِ الْمَوْضُوعِ  
وَعُنَاصِرِهِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا الْقَوْلُ فَضْلًا فَهُوَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ، لَيْسَ بِغَامُضٍ وَلَا بِمَلْتَبِسٍ  
بِغَيْرِهِ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْقَاطِعُ الْفَاصِلُ الْمُبْرَمُ.

وَلَمَّا كَانَتْ عِبَارَةٌ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾ (١٣) رُبَّمَا تُحْمَلُ دَلَالَتُهَا عَلَى  
مُجَرَّدِ الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ وَعَدَمِ الْتِبَاسِ الْمَضْمُونِ الْفِكْرِيِّ بِغَيْرِهِ، دُونَ الدَّلَالَةِ  
عَلَى جِدِّيَّةِ إِرَادَةِ التَّنْفِيزِ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ إِبْتَاتَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَيْسَ  
بِالْهَزْلِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

● ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١٤): أَيِ: هُوَ جَدُّ وَحَقٌّ، وَلَيْسَ قَوْلًا هَزْلِيًّا  
تَمَثِيلِيًّا، لِلتَّضْوِيرِ الْأَدَبِيِّ، أَوْ لِمَجَرَّدِ التَّخْوِيفِ وَالْإِرْهَابِ، دُونَ قَصْدِ وَقُوعِ  
الْمَضْمُونِ فِعْلًا.

الْهَزْلُ فِي اللُّغَةِ: ضِدُّ الْجَدِّ، أَيِ: فَهَذَا الْقَوْلُ جَدُّ يُبَيِّنُ قَضِيَّةَ حَقِيقَةٍ

سَوْفَ تَقَعُ حَتْمًا لَا مَحَالَةَ، متى حَانَ أَجَلُ وقوعها المقرّر بقضاء الله وقدره.

أما المناسبةُ بَيَّنَّ الْمُقَسِّمَ به والمُقَسِّمَ عليه فَمِنْ وَجْهَيْنِ: لفظية ومعنوية:

● أما اللفظية: فَمَلَّاحَظَةُ في كَلِمَةِ: ﴿الرَّجِّعِ﴾ إِذْ هِيَ مُنَاسِبَةٌ لِلْمُقَسِّمِ عليه وهو الرُّجُوعُ إلى الحياة بَعْدَ الموتِ وفناءِ الأجساد. ومَلَّاحَظَةُ في كَلِمَةِ ﴿الصَّنْعِ﴾ وهو الشَّقُّ، إِذْ هُوَ مُنَاسِبٌ لِلْمُقَسِّمِ عليه، فالْمُبْعُوثُونَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ فَيُخْرَجُونَ سِرَاعًا قَائِمِينَ، وَيَنْبُتُونَ فِي الْأَرْضِ كَالنَّبَاتِ.

● وأما المعنوية: فَمَلَّاحَظَةُ فيما يَتَضَمَّنُهُ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ المَيِّتَةِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، وَمَا يَكُونُ لَدَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى مِنْ إِنْبَاتِهِمْ بِمَاءٍ خَاصٍّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَيُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ ذَا الْفِكْرَ الْبَصِيرَ يَقِيسُ الْبُعْثَ غَيْرَ الْمَشْهُودِ عَلَى إِحْيَاءِ النَّبَاتِ الْمُتَكَرِّرِ فِي عَالَمِ الشُّهُودِ، وَهَذِهِ مِنَ الْحُجَجِ الْقَرَأْنِيَّةِ الْقَوِيَّةِ عَلَى الْبُعْثِ.



(٨)

**التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة**

**وهو الآيات من (١٥ - ١٧)**

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوبًا ۖ (١٧)﴾.

هَذَا هُوَ الدَّرْسُ الْأَخِيرُ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ. وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى بَيَانِ الْمَوْقِفِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ كِبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ

موقف الكَيْدِ الشديد ضدَّ الرُّسُولِ ﷺ، وضدَّ رسالته، وضدَّ الَّذِينَ آمَنُوا به واتبعوه.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّاني لاحتباط كَيْدِهِمْ، وبيان الموقف الذي ينبغي للرُّسُولِ ﷺ أن يتَّخذه هو والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ في تلك المرحلة من تاريخ دعوته.

● ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥): الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يَعُودُ على من اشتمَلَتِ السُّورَةُ على تأكيد أنباء يوم الدِّين لهم بِالْقَسَمِ بآيَاتٍ من آيَاتِ اللَّهِ في كونهم، لَأَنَّهُمْ مُكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ، وَقَدْ وَصَلُوا إِلَى طَوْرِ اتِّخَاذِ الْمَكَائِدِ وَتَذْيِيرِهَا، ضِدَّ الرُّسُولِ وَدَعْوَتِهِ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ.

إِنَّهُمْ لَمْ يُذَكِّرُوا فِي السُّورَةِ صَرَاحَةً، لَكِنَّ آيَاتِهَا ظَاهِرَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِمْ.

ومن الذي يُدَبِّرُ الْمَكَائِدَ ضِدَّ الرُّسُولِ وَدَعْوَتِهِ غَيْرُ الْكَافِرِينَ بِالرُّسُولِ وَرِسَالَتِهِ، وَالْمُكَذِّبِينَ بِنَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ وَمَا فِيهِ، وَهُمْ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ نَزُولِ السُّورَةِ!؟

إِنَّ الطَّوْرَ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ هُوَ الْعَمَلُ الْمُتَتَابِعُ فِي تَذْيِيرِ الْمَكَائِدِ الَّتِي يَسْتَطِيعُونَ إِعْدَادَهَا، بَعْدَ أَنْ يَتَّسِعُوا مِنْ إِيقَافِ امْتِدَادِ دَعْوَةِ الرُّسُولِ ﷺ، وَإِيقَافِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَتَكَاثُرِ الدَّاخِلِينَ فِيهِ بِإِيمَانٍ صَادِقٍ، بِالْوَسَائِلِ الْخَفِيفَةِ الدَّعَائِيَّةِ وَالتَّنْفِيرِيَّةِ مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، وَالِاضْطِهَادِيَّةِ لَضَعْفِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِوَسَائِلِ الْاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَّةِ، وَالِاتِّهَامَاتِ الْبَاطِلَاتِ، وَصِنَاعَةِ الْأَكَاذِبِ.

الْكَيْدُ فِي اللُّغَةِ: يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّدْبِيرِ الْخَفِيِّ أَوِ الظَّاهِرِ، بِحَقِّ أَوْ بِبَاطِلٍ، وَفِيهِ مَكْرُوهُ لِمَنْ ذُبِرَ ضِدَّهُ. وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَزْبِ وَإِعْدَادِ وَسَائِلِهَا. وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاِحْتِيَالِ وَالِاجْتِهَادِ. وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى كُلِّ تَذْيِيرٍ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ النَّصْرَ أَوِ النِّجَاةَ.

فَمَاذَةٌ كَذَّ يَكِيدُ كَيْدًا تَدُورُ حَوْلَ اتِّخَاذِ أَعْمَالٍ وَتَدْبِيرَاتٍ تُوقِعُ الْمُقْصُودِينَ بِالْكِيدِ بِمَا يَكْرَهُونَ، حَتَّى الْهَلَاكِ.

وَيَكُونُ الْكَيْدُ فِي الشَّرِّ، مِثْلَ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ضِدَّ الْحَقِّ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ. وَيَكُونُ فِي الْخَيْرِ، مِثْلَ كَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ لِإِحْبَاطِ مَكَايِدِ الْكَافِرِينَ، وَرَدُّ سَهَامِهِمْ إِلَى نَحْوَرِهِمْ.

وَمِنَ الْكِيدِ فِي الْخَيْرِ كَيْدُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، لِنُصْرَةِ رُسُولِهِ، وَنُصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ.

إِنَّ الْكَافِرِينَ يَكِيدُونَ فِي الشَّرِّ، لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بِمَكَايِدِهِمْ لِإِذْحَاصِ الْحَقِّ، وَإِقَامَةِ الْبَاطِلِ فِي الْأَرْضِ.

وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَكِيدُونَ فِي الْخَيْرِ، لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بِمَكَايِدِهِمُ الشَّرِيفَةِ، لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَنُصْرَتِهِ، وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ وَإِزْهَاقِهِ.

وَدَلَّ فِعْلُ الْمَضَارِعِ ﴿يَكِيدُونَ﴾ عَلَى أَنَّ قَادَةَ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ، كَانُوا يَعْمَلُونَ بَحْرَكَةٍ تَتَابُعِيَّةٍ فِي تَدْبِيرِ الْمَكَايِدِ الْعَظِيمَةِ ضِدَّ الرُّسُولِ وَدَعْوَتِهِ، فَفِعْلُ الْمَضَارِعِ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْعَمَلِ الْمَتَّبَاعِ، وَجَاءَ تَأْكِيدُهُ بِالْمُضَدِّ الَّذِي هُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ ﴿١٥﴾﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ الْكِيدِ الَّذِي يَكِيدُونَهُ، أَيْ: يَكِيدُونَ كَيْدًا كَثِيرًا وَعَظِيمًا وَذَا خَطَرٍ كَبِيرٍ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَذَا الطَّوْرَ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ قَادَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ فِي مَكَّةَ، يُخِيطُهُ اللَّهُ بِكَيْدٍ مُتَّبَاعٍ يَجْعَلُهُ مَزْدُودًا عَلَى مُدْبِرِيهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

● ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ ﴿١٦﴾﴾: وَمَعْلُومٌ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّ كَيْدَ اللَّهِ غَالِبٌ وَمَخِيطُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ، أَيْ: وَأَكِيدُ عَلَى سَبِيلِ التَّتَابُعِ كَيْدًا أُخِيطُ بِهِ وَأَفْسِدُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ، أَعْدَاءِ رُسُولِي وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَأَعْدَاءَ دِينِي الَّذِي حَمَلْتُ رُسُولِي وَالَّذِي آمَنُوا بِهِ أَغْبَاءَ تَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، فَأَنَا أَتَابِعُ كُلَّ حَرَكَةِ كَيْدٍ شَدِيدٍ مِنْهُمْ بِكَيْدٍ شَدِيدٍ غَالِبٍ لَهُ.

وَالْعَرَضُ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ طَمَآنَةُ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، أَنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُخِيطُ مَكَائِدِ أَعْدَائِهِمْ، وَلِقَاءُ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ فِي قُلُوبِ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَأَنْصَارِهِمْ وَجُنُودِهِمْ، إِذْ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثَّرَ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ أَنَّ اللَّهَ خَازِلُهُمْ، وَمُخِيطُ مَكَائِدِهِمْ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرٌ عِنَادِيٌّ جُحُودِيٌّ، وَلَيْسَ كُفْرٌ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، فَقَدْ عَلِمُوا بِأَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَلَكِنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَإِثَارًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فهم إِذَنْ يُذَرِّكُونَ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَعْنَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ. ودلَّ قول الله عز وجل: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ﴿١٦﴾ في مُقَابِلِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ على أَنَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ يُعَامِلُ عِبَادَهُ فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ هَذِهِ الَّتِي يَعِيشُونَهَا ضِمْنَ قَانُونِ قُذْرَاتِهِمِ الْمَمْنُوحَاتِ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا يُعَامِلُهُمْ بِمُقْتَضَى قُذْرَتِهِ الْكَلِيَّةِ.

إِنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ الْكَلِيَّةَ، لَا تَحْتَاجُ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَكِيدَ كَيْدًا كَبِيرًا، ضِدَّ كَيْدِ أَعْدَاءِ رَسُولِهِ وَدِينِهِ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ «يَكُونُ» بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، وَلَوْ كَانَ أَمْرُ التَّكْوِينِ مُوَجَّهًا لِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَوْ لِإِزَالَتِهِمَا مِنَ الْوُجُودِ.

لَكِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُنَنًا فِي كَوْنِهِ يُعَامِلُ عِبَادَهُ بِمُقْتَضَاهَا، وَهُمْ فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ.

فَيُوهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ وَيُخِيطُهُ بِمُقْتَضَاهَا، وَيَكِيدُ لَصَالِحِ أَوْلِيَائِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَخْبَابِهِ بِمُقْتَضَاهَا، وَيَنْصُرُهُمْ بِمُقْتَضَاهَا، وَلَا يَتَدَخَّلُ بِالْخَوَارِقِ الْعَظْمَى إِلَّا نَادِرًا، وَيَقْدِرُ مَخْدُودًا.

وَحِينَ أَيْدِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةٍ بَذَرَ بِالْآلِفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَبَانَ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا بُشْرَى لَهُمْ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِهِ، وَلِيَقْطَعَ طَرَفًا

من الَّذِينَ كَفَرُوا، أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ، وَلَمْ يُعْطِ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ صَلاَحِيَّةً أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ أَعْطَاهُمْ لِأَبَادُوا الْكَافِرِينَ بِأَقْصَرِ زَمَنٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَمَدَّ اللَّهُ بِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرِ، وَخَطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١١٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١١٧﴾ .

وبعد أن طمأن الله رسوله والذين آمنوا به وأتبعوه بأنهم مؤيدون بنصره، أمر الله رسوله ﷺ ويلحق به الذين آمنوا به وأتبعوه، بأن يمهّل الكافرين فلا يقاومهم، ولا يحاربهم، ولا يتخذ الوسائل لمقاومتهم ومحاربتهم، بل يضبر وليضبط نفسه، حتى يأذن الله له، ومن خلال سلاسل الأحداث، يكتسب المؤمنون خبرات بشأن المراحل التي ترتقي فيها تدبيراتهم، للوصول إلى مرحلة المواجهة الحربية الظاهرة، ضمن الأنظمة السببية، لأطوار المجتمعات البشرية.

فقال الله عزَّ وجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ:

• ﴿مَهْلٍ وَأَمْهَلٍ أَلْكَافِرِينَ أَهْمَهُمْ رُؤْدًا ١١٧﴾ :

مَهْلٍ وَأَمْهَلٍ: أنظر، وترفق، وأجل. أي فانظر الكافرين، وترفق بهم، وأجلهم.

جاء توجيه الأمر بالإنظار والترفق والتأجيل بالفعل المضعّف والفعل المهموز، توكيداً وتحذيراً من المخالفة.

رُؤْدًا: بمعنى أمهل، وفي هذه العبارة زيادة في التوكيد والتحذير من المخالفة.

ثلاث عبارات متتابعات والمعنى واحد، وفي ظني أننا لا نجد في القرآن المجيد تأكيداً على أمر واحد مثل هذا التأكيد الذي يوحى بالتحذير من المخالفة، والغرض تحذير المؤمنين من التعجل في اتخاذ وسائل



انتقاميَّة، توقُّعُهُمْ في ورطاتٍ يَكُونُونَ فيها من الفاشلين، أو الخائبين، والزامهم بالصَّبْر، انتظاراً لما يقضيه الله من أمر، فالوقت إِبَان نزول السُّورة لا يَصِحُّ فيه القيام بمواجهاتٍ انتقاميَّة، إذ المسلمون يَوْمِيذٍ لا يَمْلِكُونَ من سُنَنِ الأسباب القدرات الكافيات لمواجهة قُوَى مشركي مكة، وخَوْضُ المسلمين حِينِيذٍ معارك قتالية معهم عَمَلِيَّة انتحاريَّة لم يأذن الله بها.

كلمة ﴿رُؤَيْدًا﴾ هي مُصَغَّر «إزواد» مصدر فعلٍ «أَزَوْدُ يُرَوِّدُ إِزْوَادًا» وهو بمعنى «أَمْهَل».

فكلمة ﴿رُؤَيْدًا﴾ بمعنى «أَمْهَل» وهي مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوف تقديره: أَرَوِّدُ رُؤَيْدًا، أي: أَمْهَلُ إِمْهَالًا.

تقول: رُؤَيْدًا بَكَرًا، أي: أَمْهَلُ بَكَرًا إِمْهَالًا. صَغَّرُوا الْمَصْدَرَ بعد حَذْفِ زَوَائِدِهِ، وأَقَامُوهُ مقامَ فِعْلِهِ.

بهذه الآية تنتهي السورة:

﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْنَأَهُمْ رُؤَيْدًا﴾ (١٧).

فما أعجب هذا الإلزام بالصَّبْر على الكافرين، وإنظارهم والترقُّق بهم، وعَدَمِ اتِّخَاذِ وسائلٍ غُفٍ وشِدَّةٍ وانتقامٍ معهم، على الرُّغْمِ من شِدَّةِ أذاهم ومُعَادَاتِهِم للرسول ودعوته، واضطهادهم لضعفاء المؤمنين.

إنَّ حكمة الله عزَّ وجلَّ قَضَتْ بأن لا تكون عُمْدَةُ الأُمَّةِ الإسلاميَّة على الخوارق والمعجزات، وإنما شَاءَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ تكون عُمْدَتُهُمْ على الأسباب الكونيَّة الخاضِعَةِ لِسُنَنِ اللَّهِ الدَّائِمَةِ، المضْحُوكةِ بالمعونات المحذُودات التي يَجْعَلُهَا اللَّهُ للمؤمنين بمقتضى هذه السُنَنِ، وأعطى اللَّهُ عزَّ وجلَّ الَّذِينَ آمَنُوا الوَعْدَ بأنَّ يُمِدَّهُمْ بها.

وَقَدْ تَمَّ تَدَبُّرُ السُّورة بما فتح الله به،  
وبما أَمَدَّ من معونة وتوفيق.



## ملاحق لسورة الطارق

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: حول بَيَانِ بعضِ أطوارِ خَلْقِ الإنسانِ في القرآن.

الملحق الثالث: حول كون الإنسان مُرَاقِباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر.

الملحق الرابع: حول كلمة يوم في القرآن مراداً بها يومُ الحياة الأخرى.

(٩)

## الملحق الأول

### مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (الطارق) اختيارات بلاغية عَدِيدَة أذكر منها ما يلي:

(١) الْقَسَمُ بِآيَاتِ رَبَّانِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ عَلَى حَقِيقَةٍ غَيْبِيَّةٍ خَبَرِيَّةٍ غَيْرِ مُشْهُودَةٍ لتوكيدها، وهذا في الآيات من (١ - ٤).

وَالْقَسَمُ بِآيَاتِ رَبَّانِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، لتوكيد أَنَّ نَبَأَ يَوْمِ الدِّينِ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَجِدُّ لَا هَزْلَ فِيهِ وَلَا عَبَثَ وَلَا تَهْوِيلَ، وهذا في الآيات من (١١ - ١٤).

والمقصودون بإيراد كُلِّ مِنَ الْقَسَمَيْنِ، الْكَافِرُونَ وَالشَّاكُونَ بحقائق يوم الدين، وما يقتضيه ذلك اليوم من مُرَاقَبَةٍ وتسجيلٍ غَيْبِيِّنَ في الحياة الدُّنْيَا.

(٢) إيرادُ دليلِ الحسِّ ذِي اللِّوَازِمِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، الَّتِي تُثَبِّتُ صِدْقَ الْخَبَرِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَدِيعِ «الْمَذْهَبَ الْكَلَامِيَّ» أَي: عَلَى طَرِيقَةِ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ فِي إيرادِ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، لِإثباتِ قَضَايَاهُمْ.

وهذا في الآيات من (٥ - ٨).

(٣) التوكيد بأدوات التوكيد وأساليبه في اللغة العربية:

أ - بالنفي والاستثناء المفيد للتوكيد والحصر، في ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۖ﴾ (٤): أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

ب - بالمؤكدات: (إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المرحلة) في: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۖ﴾ (٨) وفي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (١٣).

وبالمؤكدات: (إِنَّ - والجملة الاسمية - والمفعول المطلق) في: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥).

ج - التوكيد مع التَّنْصِيبِ على العموم الشامل، بحرف الجر الزائد «مِنْ» في: ﴿فَمَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٠).

د - التوكيد بعبارات متتابعات ذوات دلالة واحدة في: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهَا رَوْبًا﴾ (١٧).

(٤) الإيجاز بالحذف في: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾

فَمَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾:

والتقدير: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (٨) وَإِنَّهُ لَمَبْعُوثٌ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ مَوْتِهِ

وفناء جَسَدِهِ للحساب، وفضل القضاء وتنفيذ الجزاء ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩) فَمَا لَمْ ﴿يَوْمَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ﴾ (١٠) قُوَّةٍ ﴿تَدْفَعُ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَتَنْفِذِهِ﴾ (١٠) وَلَا نَاصِرٍ ﴿يَنْصُرُهُ بِأَيِّ شَيْءٍ، فَيُخَفِّفُ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ الْقَضَاءِ، أَوْ مِنْ الْجَزَاءِ.



(١٠)

### الملحق الثاني

### حول بيان بغضِ أطوارِ خَلْقِ الإنسانِ في القرآن

ضمن مَنهج القرآن في تجزئة الأفكار حول موضوع واحد، وتوزيع

البيانات حولها على نصوص متعددة منه، أتابع تدبر النصوص الواردة بشأن

توجيه الفكر للنظر في أطوار خَلْقِ الإنسان في القرآن.

## النص الأول :

قول الله عز وجل في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) مُبَيَّنًا ما جاء في صُحُفِ مُوسَى وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، بشأنِ خَلْقِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ إِذَا قَدَفَهَا سَالِكَةً طَرِيقَهَا إِلَى رَحِمِ الْمَرْأَةِ:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۖ (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۚ (٤٦)﴾

فأوردَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ هَذَا الْبَيَانَ حِكَايَةً لِمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامَ.

وفي هذا البيان توجيه للتفكير في قِصَّةٍ واحدة من قضايا الْخَلْقِ الرَّبَّانِي من أطوار خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وهي أَنَّ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى من المواليد يَتَكَوَّنَانِ مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ، بَعْدَ أَنْ تُمْنَى فِي مَهَبَلِ الْمَرْأَةِ، إِذْ تَأْخُذُ النُّطْفَةُ طَرِيقَهَا لِلْقَاحِ الْبَيْضَةِ الَّتِي يَخْرِجُهَا مَبِيضُ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الدَّوْرَةِ الشَّهْرِيَّةِ، وَفِي الْأَوَاسِطِ مَا بَيْنَ بَدْءِ الْحَيْضِ حَتَّى آخِرِ مُدَّةِ الطَّهْرِ.

وهذه حقيقة أثبتها العلم المعاصر، فنُطْفَةُ الرَّجُلِ هي الحاملة للقاحات الذكورة والأنوثة، وَبَيْضَةُ الْمَرْأَةِ حَيَادِيَّةٌ، صَالِحَةٌ لاسْتِقْبَالِ لِقَاحِ الذَّكَرِ مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ، أَوْ لِقَاحِ الْأُنْثَى، وَهَذَا اللَّقَاحُ حَيَوِينٌ صَغِيرٌ جَدًّا، مُذَكَّرٌ أَوْ مُؤَنَّثٌ.

## النص الثاني :

قول الله عز وجل في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَسَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجِيَ الْوَلَدَ (٤٠)﴾

فجاء فيه بَيَانٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْتَسَى، وَبَعْدَهُ يُطَوَّرُهُ اللَّهُ

إِلَى عَلَقَةٍ فَخَلَقَ سَوِيًّا، وَأَنَّ مَنِىِّ الذَّكَرِ يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى،  
بِأَسْلُوبِ الاستفهام لانتزاع الجواب من المقصود بالخطاب، ولإقناعه بأنَّ يَوْمَ  
الدين حقٌّ، إذ إنكاره قائم على استبعاد الإحياء بغد الإماتة والإفناء، لكنَّ  
الدَّلِيلَ العقليَّ يثبت أنَّ الَّذِي بَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ مَنِىٍّ يُمْنَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ  
يُحْيِيَ الْمَوْتَى.

وأضاف البيان هنا أنَّ هذه النطفة مرَّتْ عَلَيْهَا مُدَّةٌ بَعْدَ التلقيح فَكَانَتْ  
عَلَقَةً، فَتَبِعَهَا خَلْقٌ فَتَسْوِيَةٌ. وأكَّد أنَّ خَلْقَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى يكون من النطفة  
التي يَقْذِفُهَا الذَّكَرُ.

### النَّصُّ الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول)  
خطاباً للناس:

﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِلَى قَدَرٍ  
مَّعْلُومٍ ﴿٢٧﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

فأضاف هذا النصَّ أنَّ النطفة الْحَاوِيَّةَ لِلْقَاحِ مَوْجُودَةٌ ضَمَّنَ مَاءٍ مَّهِينٍ،  
أَي: ضَمَّنَ مَاءٍ قَلِيلٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ.

وأضاف أيضاً من أجزاء الموضوع أنَّ الله عزَّ وجلَّ جَعَلَهُ فِي قَرَارٍ  
مَّكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مُّحَدَّدٍ فِي حُطَّةِ التَّكْوِينِ، أَي: جَعَلَهُ بَعْدَ اللَّقَاحِ عَالِقاً فِي  
مَكَانٍ اسْتِقْرَارٍ مَلَاتِمَ لِحَفْظِهِ فِي رَحِمِ الْأُمِّ، حَتَّى يَسْتَكْمِلَ نُضْجَهُ، وَيُولِّدَ  
طِفْلاً مُسْتَوْفِياً كَامِلاً شُرُوطَ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ.

كُلُّ ذَلِكَ ضَمَّنَ مَقَادِيرَ تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ.

أَمَّا الْعَرَضُ الدينيُّ من هذا البيان حول الواقع التكويني، فَهُوَ رِبْطُ  
الظَّاهِرَاتِ الكونية بِذَلَالَاتِهَا الْهَادِيَاتِ إِلَى صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ، وَالْهَادِيَاتِ

أَيْضاً إِلَى أَنَّ الْخَالِقَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِهَا دُونَ مِثَالِ سَبَقٍ، قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ أَمْثَالِهَا، وَقَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهَا إِلَى الْوُجُودِ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَعَلَى إِعَادَتِهَا إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ إِمَاتَتِهَا وَإِفْنَائِهَا، وَبِذَلِكَ تَنْدَفِعُ أَوْهَامُ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، إِذَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ قَائِماً عَلَى شُبُهَاتٍ.

#### النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) خطاباً للإنسان المكذب بيوم الدين استبعاداً لقضية الإحياء بعد الموت:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾.

فأضاف هذا البيان وصفين للماء الذي يخلق الله منه الإنسان:

**الوصف الأول:** أَنَّهُ مَاءٌ دَافِقٌ، أَي: يَخْرُجُ دَفْقاً، عَلَى طَرِيقَةِ الْقَذْفِ الْمَوْجِيِّ الْمَتَدَافِعِ، لَا عَلَى طَرِيقَةِ السَّيْلَانِ، وَلَا عَلَى طَرِيقَةِ الرَّشْحِ.

**الوصف الثاني:** أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

وقد سبق خلال تدبر هذه السورة شَرْحُ هذه الحقيقة العلمية التي أثبتتها الدراسات العلمية المعاصرة، فأبانت التطابق بين البيان القرآني، والحقائق العلمية حول هذا الموضوع.

وقد جاء أسلوب البيان في هذا النص على طريقة الأمر الجازم الحازم، بالنظر في هذه الظاهرة من ظواهر الخلق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ والمراد النَّظَرُ التَّفَكُّرِيُّ، بَعْدَ أَنْ تَدَرَّجَ الْبَيَانُ، مِنْ مُجَرَّدِ الْخَبَرِ حِكَايَةً لَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، إِلَى لَفْتِ النَّظَرِ بِطَرِيقَةِ الاسْتِفْهَامِ الرَّقِيقِ دُونَ مُوَاجَهَةِ: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُفُوسٌ مِّنْ مَّيِّ يُمَتَّى ﴿٣٧﴾﴾ فَإِلَى الشَّدِّ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، بِطَرِيقَةِ الاسْتِفْهَامِ الْعَنِيفِ الَّذِي فِيهِ مَعْنَى التَّلْوِيمِ، مَعَ الْمَوَاجَهَةِ بِالْخُطَابِ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

## النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) خطاباً للمكذبين للرَّسُول ﷺ، والمكذبين بيوم الدين، بَعْدَ تقديم مَشْهَدٍ مُقْتَطَعٍ من مشاهد عذابهم في الجحيم يوم الدين:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

فأضاف هذا النصُّ أَنَّ المنيَّ الَّذِي يُمْنِيهِ النَّاسُ شهوةً، وتُخْلَقُ منه السُّلَالَةُ البشريَّةُ، لَا يَخْلُقُ النَّاسُ منه شيئاً، بل اللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق له .

وفي التوجيه الاستفهامي في هذا النصِّ معنَى التوبيخ والتقريع، ومعنى التعجيز والتحذير .

## النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) متحدثاً عن بعض صفاته جلَّ جلاله، وبعض ظواهر خلقه:

﴿ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ .

جاء هذا النصُّ ختاماً للنصوص القرآنيَّة التي تحدَّثت عن بعض أطوار خلق الإنسان، بَعْدَ أَنْ وَصَلَ البَيَانُ القرآنيُّ إلى ذِرْوَةِ الإقْنَاعِ الكلاميِّ الحارِّ العنيف، فكان من الحكمة ختم الموضوع ببيانِ خَبَرِيٍّ هادِيٍّ بارِدٍ شَبِيهِه بالبيان الذي بدأت به النُّصوص بحسَبِ تَرْتِيبِ التُّزُولِ .

وأضاف هذا النصُّ بياناً أَنَّ الجَرْثُومَةَ الصُّغْرَى التي يُنْشِئُ اللهُ عزَّ وجلَّ

الإنسان منها، بَعْدَ أَنْ بَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ الْأُولَ مِنْ طِينٍ (ماءٍ وَتَرَابٍ) وبعد  
أَنْ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَهُ، يَسْتَلُّهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ اسْتِلَالًا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.

أي: تُنَزَّعُ انْتِزَاعًا بِرَفَقٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، هو النطفة المنيوية.  
وَأَيُّ رَفَقٍ عَجِيبٍ هَذَا الرَّفَقُ الَّذِي يُنْتَزَعُ بِهِ الْحَيَوِيُّونَ الْمَنَوِيُّ، الْمَلْفُوحُ  
لِبُيْنِصَةِ الْأَنْثَى مِنْ دَاخِلِ النُّطْفَةِ، وَتُتْرَكُ نُظْرَاؤُهُ الَّتِي قَدْ تَصِلُ أَعْدَادُهَا إِلَى  
نحو مئتي مليون.

ما أعجب صُنْعَ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ؟! وما أدقَّ بياناته التكامليَّة  
وَأَحْكَمُهَا؟!

وبهذا تَمَّ عَقْدُ الْمَوْضُوعِ وَإِقْفَالُهُ عِنْدَ نُقْطَةٍ هَادِئَةٍ مِثْلِ النُّقْطَةِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا.  
هذه النصوص كلها تَدُورُ حَوْلَ حَلْقَةٍ وَسَطَى مِنْ سِلْسِلَةِ الْأَطْوَارِ الَّتِي  
يَمُرُّ بِهَا خَلْقُ الْإِنْسَانِ مَرَحَلَةً فَمَرَحَلَةً، وهذه الحلقة قد سبقتها حلقات،  
وَيَأْتِي بَعْدَهَا حَلَقَاتٌ، وقد جاء في القرآن بيانات موزَّعاتٌ فيه حول معالم  
بَارِزَةٍ مِنْهَا، وَطُوِيَتْ أَطْوَارٌ خَفِيَّةٌ عَلَى النَّاسِ تَقَعُ بَيْنَهَا، اكْتِفَاءً بِذِكْرِ  
الظَّاهِرَاتِ، لِأَنَّ الْفِكْرَ الْعِلْمِيَّ يَسْتَطِيعُ اسْتِدْعَاءَ بَعْضِ مَا لَمْ يُذَكَّرْ صَرَاحَةً،  
ثُمَّ يَكُونُ لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ التَّجْرِبِيِّ أَدْوَارٌ مُهِمَّةٌ فِي اكْتِشَافِ عَجَائِبِ صُنْعِ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ، فِي الْأَطْوَارِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُ اكْتِشَافُهَا إِلَى أَجْهَازٍ وَأَدْوَاتٍ  
ووسائل، لَا يَصِلُ النَّاسُ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ تَطَوُّرَاتٍ حَضَارِيَّةٍ وَاسِعَةٍ، فِي أَحْقَابِ  
زَمَنِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

ومن المعالم البارزة التي جاءت في القرآن موزَّعةً حول أطوار خلق  
الإنسان المعالم التالية:

### الْمَعْلَمُ الْأَوَّلُ:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَكُلَّ دَابَّةٍ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مَاءٍ، دَلٌّ عَلَى هَذَا الْمَعْلَمِ  
قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):



﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

### المعلم الثاني:

خَلَقَ الإنسان من تراب، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

### المعلم الثالث:

خَلَقَ الإنسان من طين، أي: من مزيج من ماء وتراب، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

### المعلم الرابع:

مَرْحَلَةُ الطِّينِ اللَّازِبِ، أي: الطِّينِ اللَّزِجِ اللَّاصِقِ، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿...إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾﴾.

### المعلم الخامس:

مَرْحَلَةُ الْحَمِّ الْمُسْتُونِ، الَّذِي أَخَذَ يَتَحَوَّلُ إِلَى صَلْصَالٍ، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٦٦﴾﴾.

الْحَمَأُ: هو الطِّينُ الْأَسْوَدُ الْمُتَيْنِ .

المُسْتُون: أي: المَصَوَّر المصقول المملس .

الصَّلْصَال: الطين اليابس الذي إِذَا نُقِرَ بشيءٍ أُعْطِيَ صَوْتاً فيه تَرْجِيع .

المَعْلَم السَّادِس:

مرحلة الصَّلْصَالِ الذي صَارَ كالفَخَّارِ، دَلَّ على هذا المَعْلَم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرَّخْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤﴾ .

المعلم السابع:

مرحلة ظهور الإنسان الأول الذي خلقَ الله عزَّ وجلَّ منه زَوْجَه، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۖ... ۝١١﴾ .

المعلم الثامن:

مرحلة التغذية من نبات الأرض، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ .

المعلم التاسع:

مرحلة التُّطْفَةِ الْأُمْشَاجِ، أي: ذاتِ العناصر المختلفة المختلطة، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ .

### المعلم العاشر:

مرحلة الماء الدافق الذي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ .

وقد سبق شرح هذا النص باستفاضة لدى تدبر السورة.

### المعلم الحادي عشر:

مرحلة تحديد الذكورة والأنوثة عِنْدَ اللَّقَاحِ، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٤٥ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۝٤٦﴾ .

وقد سبق تدبر هذا النص، وتحليل ما جاء فيه، وما دَلَّ عليه من دلالات.

### المعلم الثاني عشر:

مرحلة العلقه في بطن الأم، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ .

### المعلم الثالث عشر:

ظاهرة التقدير الحكيم تكويناً مِنَ النُّطْفَةِ، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدْ رَمُوا ۝١٩﴾ .

## المعلم الرابع عشر:

مَرْحَلَةٌ جَعَلَهُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، دَلٌّ عَلَى  
هَذَا الْمَعْلَمِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣  
نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ  
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

## المعلم الخامس عشر:

ظَاهِرَةٌ تَحْسِينِ صُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَجَعَلَ كُلَّ فَرْدٍ بِصُورَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ، دَلٌّ  
عَلَى هَذَا الْمَعْلَمِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨  
نزول):

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

## المعلم السادس عشر:

ظَاهِرَةٌ الْمَضْغَةِ الْمُخَلَّقَةِ وَغَيْرِ الْمُخَلَّقَةِ، مَعَ بَيَانِ الْفَوَاصِلِ الزَّمَنِيَّةِ  
الْمَتَرَاخِيَةِ بَيْنَ بَعْضِ الْمَرَاهِلِ الْبَارِزَةِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَمَرْحَلَةُ الطُّفُولَةِ،  
وَمَرْحَلَةُ الرَّدِّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاهِلِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي  
سُورَةِ (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّنْ  
نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي  
الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ  
وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّؤْتِرُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ  
عِلْمِ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ  
كُلِّ رَوْحٍ بَهيج ﴿٥﴾﴾.

وأضافت سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مرحلة الشَّيْخوخة بقول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بيانٌ يُشير إلى أطوار الشيخوخة وما بعدها حتى أرذل العمر، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

نُنَكِّسْهُ: أي: نَجْعَلُهُ متنازلاً شيئاً فشيئاً حتى يكون أعلاه هابطاً إلى مستوى أسفله، على عكس نشأته الأولى، إذ يكون فيها متصاعداً شيئاً فشيئاً حتى يبلغ أشده.

### المعلم السابع عشر:

ظاهرة الترتيب مع التراخي النسبي أو مع التعقيب النسبي، بين آخر بغض المراحل السابقة وأول تالياتها، مع إضافة ذكر معالم لم تذكر في نصوص أخرى، جاء هذا في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْوِطْأَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

السُّلَالَةُ: ما استُئِلَّ مِنَ الشَّيْءِ وَانْتَزَعَ بَرَقاً، كانتزاع الشَّعْرَةِ من العجين اللَّين الطَّرِي. وهكذا تُسْتَلُّ أغذية النباتات من الطين، وعناصر بناء الأجساد من الأغذية، وعناصر النطفة المنوية من الجسد.

الْعَلَقَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الدَّمِ الغليظ المتماسك.

المعلم الثامن عشر:

ظاهرة جعل الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، دَلٌّ عليها قول الله عز وجل  
في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤)

المعلم التاسع عشر:

تَسْوِيَةِ الْإِنْسَانِ، وَنَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ، وَخَلْقُ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَفُؤَادِهِ، دَلٌّ  
على هذه الأمور قول الله عز وجل في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥  
نزول):

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ  
نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ  
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) .

المعلم العشرون:

بَيَانُ أَنَّ الْأَطْوَارَ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا خَلْقُ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِعَمَلِيَّاتٍ خَلْقٍ  
متتابع لا بالتلقائية السببية. مع التنبيه على الظلمات الثلاث التي يَكُونُ فيها  
الجنينُ وهو في بطن أمه، دَلٌّ على هذه الحقائق قول الله عز وجل في  
سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿...يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ  
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٦) .

المعلم الحادي والعشرون:

ظاهرة الفرق الشاسع بين طَوَرَيْنِ متباعدَيْنِ: النُّطْفَةُ، وَالْخَصِيمُ الْمَبِينُ  
المعبر عما في نفسه، دَلٌّ على هذه الظاهر قول الله عز وجل في سورة  
(يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧).

وقول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٤).

الخصيم: المخاصم المجادل المنازع لنفسه أو لغيره بحق أو بباطل في خصومة بين فريقين.

### المعلم الثاني والعشرون:

آية التزاوج بين الذكور والإناث، دل على هذا المعلم قول الله عز وجل في سورة (الزوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ عَائِلَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١).

وبعد ذكر هذه المعالم الدالة على خلق الإنسان ضمن سلسلة أطوار، يحتاج شرحها إلى سفر كامل، أقول:

لقد كان نوح عليه السلام حكيماً فيلسوفاً إذ قال لقومه كما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤).

أي: ما لكم لا تخافون عظمة الله، ولا تترقبون عذله وعقابه الحكيم، إذا أنتم أضرتهم على الكفر ومعاداة الحق، وأنتم تلاحظون خلق الله لكم في أطوار مسيرة حياة كل واحد منكم؟!.



(١١)

## الملحق الثالث

## حول كون الإنسان مراقباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر

لدينا قضيتان:

**القضية الأولى:** كَوْنُ الإنسان في حياة الابتلاء مُرَاقِباً دَوَاماً، عَلَيْهِ حَفَظَةٌ يَغْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ، وَيُسَجِّلُونَهُ، وَيَحْفَظُونَهُ، حَتَّى يَشْهَدُوا بِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

**القضية الثانية:** كَوْنُ الإنسان مُحَفُوظاً بِعِنَايَةِ اللَّهِ وَحَفَظِهِ، مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَخَاطِرٍ وَمَهْلِكَاتٍ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يَحْفَظُهُ بِأَمْرِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَى وَفْقِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فِيهِ.

■ **أما القضية الأولى:** فنلاحظُ فيها، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَ أَنْ يُسَمِّيَ الْمُرَاقِبَ الْعَالَمَ الْمُسَجِّلَ الْحَافِظَ لِمَا سَجَّلَ مِنْ كَسْبِ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِ، وَالشَّاهِدَ بِهِ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ بِأَحَدِ أَوْصَافِهِ، وَهُوَ وَصَفُ «حَافِظٍ» لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ حَافِظاً أَنْ يَكُونَ مُرَاقِباً وَعَالِماً وَمُسَجِّلاً، فَاسْتَعْنَى بِوَصْفِ «حَافِظٍ» عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ اللَّوَاظِمِ.

وَعُلِمَ الْعَرَضُ مِنْ هَذَا الْحَفَظِ، وَهُوَ الْإِعْدَادُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَقْدِيمِ مَا أَعَدَّ، وَالشَّهَادَةَ بِهِ، مِنَ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مُمْتَحَنٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمُحَاسَبٌ عَلَى مَا كَسَبَ فِيهَا، وَيُقَضَّى لَهُ أَوْ عَلَيْهِ عَلَى وَفْقِ مَا كَسَبَ.

ثُمَّ يُجَازَى عَلَى وَفْقِ الْقَضَاءِ، وَعُلِمَ أَيْضاً مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحَفَظَةَ يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ بِمَا حَفِظُوا عَلَى الْإِنْسَانِ، مِنْ مَكْتَسَبَاتٍ إِرَادِيَّةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَأَتَابِعُ اسْتِغْرَاضَ نُّصُوصِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّدْبِيرِ فِيمَا يَلِي:



## النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَوْبٍ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فقد أبان هذا النص أن الله عز وجل عليمٌ دوماً بكل شيء من سلوك الإنسان، حتى ما تُوَسْوِسُ به نفسه. وأنه جل جلاله جعل عليه ملكين رقيبين، يتلقيان ما يصدر عنه، بالتسجيل والحفظ، فما يعمل من عمل وما يلفظ من قول إلا تم تسجيله وحفظه من قبل رقيب من الملائكة عتيد شديد تام الاستعداد للقيام بوظيفته.

وقد سبق تدبر هذا النص لدى تدبر سورة (ق).

## النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

وقد سبق تدبر هذه الآية، خلال تدبر هذه السورة على ما فتح الله

به.

## النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْغَايُ قَوْعَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مُحَاطٌ بِالْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ، وَوَاقِعٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الرَّبِّ الْقَاهِرِ.

وَدَلَّ أَيْضاً عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُرْسِلُ عَلَى عِبَادِهِ حَفَظَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقُومُونَ بِوُظُفَةِ الْمِرَاقَبَةِ وَالتَّسْجِيلِ وَالْحِفْظِ، مَعَ عِلْمِ كُلِّ مِنْهُمْ بِمَا يُسَجَّلُ وَيَحْفَظُ لِيَشْهَدَ بِهِ يَوْمَ الدِّينِ، أَخْذاً مِنْ دَلَالَةِ نَصِّ آخَرِ.

﴿مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾: أي: ما كَسَبْتُمْ مِنْ كَسْبٍ إِرَادِيٍّ، وَذَكَرَ النَّهَارَ لِلْأَشْعَارِ بِأَنَّ النَّهَارَ لِلْعَمَلِ، وَاللَّيْلُ لِلرَّاحَةِ، أَمَا عِلْمُ اللَّهِ فَهُوَ شَامِلٌ لِمَا يَكْسِبُ النَّاسُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَمَا جَاءَ فِي نصوصٍ أُخْرَى.

#### النَّصُّ الرَّابِعُ:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْإِنْفِطَارِ/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فَأُضَافَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ الْحَافِظِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كِرَامٌ، أَي: يُسْرِعُونَ فِي تَسْجِيلِ الْحَسَنَاتِ، وَقَدْ يَتِمَّهَلُونَ فِي تَسْجِيلِ السَّيِّئَاتِ، رَجَاءً تَوْبَةِ الْمَذْنِبِ وَاسْتِغْفَارِهِ.

وَأُضَافَ أَنَّهُمْ كَاتِبُونَ، أَي: فَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ، وَيَكْتُبُونَ مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ كَسْبِ الْإِنْسَانِ الْإِرَادِيِّ.

وَأُضَافَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ الْمِرَاقِبُونَ، أَي: فَلَيْسُوا مُجَرَّدَ أَدَوَاتٍ تَسْجِيلٍ لَا تَعْلَمُ مَا تُسَجِّلُ، بَلْ هُمْ يَعْلَمُونَ مَا يُسَجَّلُونَ، لِأَنَّهُمْ يُسَجَّلُونَ النِّيَّاتُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَيُسَجَّلُونَ مَا تُكِنُّهُ الصُّدُورُ.

● وَأَمَّا كَوْنُ الْإِنْسَانِ مُرَاقَباً مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ الْعَلِيمِ فَبَيَّانُهُ قَدْ جَاءَ فِي عِدَّةِ نصوصٍ، مِنْهَا النُّصوصُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي تُثَبِّتُ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ،

ومنها ما جاء في النص السابق من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي النص السابق من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) ومنها النصوص التالية:

### النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لما قاله هود عليه السلام لقومه:

﴿إِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِۦ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: إن ربي مهين من ومسيطر بسلطانه على كل شيء، وهو حفيظ لكل ما يجري فيه أو منه أو عليه، ومنه حفظ ما تكسبون في رحلة امتحانكم.

### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٢١﴾﴾.

### النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿١﴾﴾.

### النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

■ وأما القضية الثانية: وهي كون الإنسان محفوظاً بعناية الله وحفظه

مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَخَاطِرَ وَمُهْلِكَاتٍ، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الرَّعْدِ/ ١٣ مَصْحَفٍ/ ٩٦ نَزُولٍ):

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ... ﴿١١﴾﴾.

﴿لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ﴾: أي: للإنسان مُعَقِّبَاتٍ، وهم جماعات من الملائكة يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَقُومُوا فِي النَّاسِ بِمَا كُلَّفَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنْ وُظَائِفٍ، وَمِنْهَا حِفْظُ كُلِّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَحِيطُ بِهِ مِنْ مَخَاطِرٍ.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ...».

وَمِنْ وُظَائِفِ هَؤُلَاءِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (١١) مِنْ سُورَةِ (الرَّعْدِ) مِنْ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ كُلَّ إِنْسَانٍ بِأَمْرِ اللَّهِ، مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ خَفِيٍّ أَوْ ظَاهِرٍ، وَمِنْ أَذَى كُلِّ ذِي أَذَى فِي خِصْمِ هَذَا الْكَوْنِ الْمَشْحُونِ بِالْمَخَاطِرِ، فَلَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْهَا شَيْءٌ، إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ بِإِذْنِهِ.



(١٢)

### الملحق الرابع

### كلمة يوم في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرى

جاءت تَسْمِيَةُ يَوْمِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بِأَسْمَاءٍ كَثِيرَةٍ مُشْتَقَّةٍ مِنْ أَوْصَافِهِ أَوْ مِمَّا يَجْرِي فِيهِ.

وَأَسْتَعْرِضُ مِنْهَا فِي هَذَا الْمَلْحَقِ مَا جَاءَ مِضَافاً إِلَيْهِ كَلِمَةُ «يَوْمٌ». وبعده أَسْتَعْرِضُ النصوص التي جاء فيها بيانٌ لبغض ما يجري في هذا اليوم.

■ أَمَّا مَا جَاءَ مِضَافاً إِلَيْهِ كَلِمَةُ يَوْمٌ، ففيمّا يلي:

(١) فَمَنْ كُنَ هَذَا الْيَوْمَ آخِرَ الْيَوْمَيْنِ الْمُقَرَّرَيْنِ لَامْتِحَانِ الْمَكْلُفِينَ وَحِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ، سَمَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «الْيَوْمَ الْآخِرَ».

ونجد هذه التسمية في (٢٦) نَصًّا قُرْآنِيًّا.

(٢) وَمَنْ كُنَ الْيَوْمَ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الدِّينُ (أَي: الْجَزَاءُ) سَمَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الدِّينِ».

ونجد هذه التسمية في (١٣) نَصًّا قُرْآنِيًّا.

(٣) وَمَنْ كُنَ الْيَوْمَ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ الْمَوْتَى إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ سَمَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ونجد هذه التسمية في (٧٠) نَصًّا قُرْآنِيًّا.

(٤) وَمَنْ كُنَ الْيَوْمَ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ الْخَلَائِقُ مِنْ أَجْدَادِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، سَمَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْبَعْثِ».

ونجد هذه التسمية في نَصِّينِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ بِعِبَارَةٍ: «يَوْمَ يُبْعَثُونَ» سِتَّ مَرَّاتٍ.

(٥) وَمَنْ كُنَ الْيَوْمَ الَّذِي يَحَاسِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الْعِبَادَ عَلَى مَا كَسَبُوا فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِهِمْ، سَمَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْحِسَابِ».

ونجد هذه التسمية في (٤) نصوص قرآنية.

(٦) وَمَنْ كُنَ الْيَوْمَ الَّذِي يَفْصِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حُكْمَهُ فِي

المَمْتَحَنِينَ في الحياة الدنيا من عباده، سَمَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْفُضْلِ».

ونجد هذه التسمية في (٦) نصوص قرآنية.

(٧) ومن كونه اليوم الذي تتلاقى فيه الخلائق أولها وآخرها، ظالمها ومظلومها، مشهودها وغير مشهودها، سَمَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ التَّلَاقِ».

ونجد هذه التسمية في الآية (١٥) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٨) وَمَنْ كُونِ وَقَائِعِهِ وَأَحْدَاثِهِ قَرِيبَةً بِالْقِيَاسِ عَلَى سَلَفٍ مِنْ عُمْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، وقريبة بالنسبة إلى إحساس الخلائق بين الموت والبعث، إِذْ يُلْغَى مِنْ إِدْرَاكِهِمُ الْإِحْسَاسَ بِمَرُورِ الزَّمَنِ، سَمَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ «يَوْمَ الْأَزْفَةِ».

الآزفة: هي القرية لغة.

ونجد هذه التسمية في الآية (١٨) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٩) ومن كونه يوماً يكثر فيه التنادي بين الخلائق، سَمَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ التَّنَادِ».

ونجد هذه التسمية في الآية (٣٢) من سورة (غافر/ ٤٠).

(١٠) ومن كونه يوماً تُجْمَعُ فيه الخلائق، سَمَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْجَمْعِ».

ونجد هذه التسمية في نصين من القرآن الكريم.

(١١) ومن كونه يوماً يخرج فيه الناس من الأجداث إلى ربهم ينسلون، سَمَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْخُرُوجِ».

ونجد هذه التسمية في الآية (٤٣) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٢) ومن كونه اليوم الذي يتحقق فيه وعيدُ الله للكافرين المكذبين

بما جاءهم به رسول الله ﷺ، سَمَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ الْوَعِيدِ».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢٠) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٣) ومن كونه اليوم الذي وَعَدَ اللهُ عباده، سَمَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

«الْيَوْمَ الْمَوْعُودِ».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢) من سورة (البروج/ ٨٥).

(١٤) ومن كونه اليوم الَّذِي يَخْسَرُ فِيهِ الْكَافِرُونَ والعصاة منازلهم ومراتبهم الَّتِي كَانَتْ مُعَدَّةً لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَكَانُوا يَسْتَحَقُّونَهَا لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَطَاعُوا، فَيَقَعُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي عَذَّبُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، إِذْ يُورِثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ مراتبهم ومنازلهم فيها، سَمَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ التَّعَابِنِ» أي: هُوَ يَوْمٌ يَخْسَرُ فِيهِ الْكَافِرُونَ خُسْرَانًا عَظِيمًا، وَيَرْبَحُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ رِبْحًا عَظِيمًا.

ونجد هذه التسمية في الآية (٩) من سورة (التغابن/ ٦٤).

■ وَأَمَّا النصوص الَّتِي جَاءَ فِيهَا بَيَانٌ لِبَعْضِ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْيَوْمِ،

ففيما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَصِّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا...﴾ (٣٠).

(٢) قول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (١١٦).

(٣) قول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ (١١٩).

(٤) قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢) أيضاً:

﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ (١١٩)

(٥) قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ...﴾ (٧٣)

(٦) قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا...﴾ (١٧٨)

(٧) قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)

بشأن المنافقين:

﴿فَأَعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ...﴾ (٧٧)

(٨) قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (١١٣)

(٩) قول الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿... مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾ (٣١)

(١٠) قول الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول)

حكاية لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١)

(١١) قول الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول)

أيضاً:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢)



(١٢) قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤

نزول):

﴿... وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ﴾ (١٠٠)

(١٣) قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾ (٨٤)

وقوله تعالى فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ...﴾ (٨٩)

(١٤) قول الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنِ وَفْدًا ۖ﴾ (٨٥) ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۖ﴾ (٨٦)

(١٥) قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ﴾ (٢٧)

(١٦) قول الله عز وجل في سورة (الزوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۖ﴾ (٥٥)

(١٧) قول الله عز وجل في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿كَفَيْكَ نَنْقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ﴾ (١٧)

(١٨) قول الله عز وجل في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِرِ وَمِثَاقُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ﴾ (٧)

وقوله فيها حكاية لقول الأبرار:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَبُوسًا قَطْرِيرًا﴾ (١٠).

(١٩) قول الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرَّةُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ ﴿٣٧﴾ .

(٢٠) قول الله عز وجل في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩).

وسبق تدبر هذه الآية لدى تدبر سورة (الطارق).

والحمد لله رب العالمين



# سُورَةُ الْقَمَرِ

٥٤ مصحف ٣٧ نزول

سورة (القمر) سورة مكية كلها. وقيل: إلا الآيات (٤٤) و (٤٥) و (٤٦) لكن جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّ الآية: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ﴾ (٤٦) قد أُنزِلَتْ فِي مكة، وهي جاريةٌ تلعب.

وعلى هذا فالمدني منها إنَّ صَحَّ مُقْتَصِرٌ عَلَى قول الله عز وجل فيها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (٤٤) سَيَهْرَمُ الْبَطْمَعُ وَيَوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥).





(١)

## نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا  
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ  
وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا  
فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾  
فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشَعًا

- ٣ - • قرأ أبو جعفر: [مُسْتَقَرٌّ] بالجر.  
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ بالرفع.  
قراءة الجمهور واضحة فمستقرٌّ خبر «كل».  
وقراءة أبي جعفر تحتاج تأويلاً، ومنها أن خبر «كل» مطويٌّ مقدَّرٌ ذهنًا،  
والمعنى: وكلُّ أمرٍ مُسْتَقَرٌّ بالقضاء حاصل لا محالة في أجله.  
٥ - • قرأ يعقوب: [فَمَا تُغْنِي] بإثبات الياء في الوقف.  
وقرأ الباقيون بحذفها في الوصل والوقف.  
٦ - • قرأ ورش، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [الدَّاعِي] بإثبات الياء في الوصل فقط.  
وقرأ البرقي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.  
وقرأ باقي القراء العشرة بحذفها في الحالين.  
٦ - • قرأ ابن كثير: ﴿نُّكْرٍ﴾ بإسكان الكاف. وقرأ باقي القراء العشرة: [نُّكْرٍ]  
بضمها.  
٧ - • قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿خُشَعًا﴾ جَمْع  
«خاشع».

أَبْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ  
إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ  
قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي  
مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا  
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى  
ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِرِ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِاعَيْنِنَا جِزَاءَ لِمَنِ كَانَ كُفْرَ ﴿١٤﴾  
وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ  
﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَبَتْ  
عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا  
فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ  
﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ

- =  
وقرأ باقي القراء العشرة: [خَاشِعًا] على الأفراد، تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.  
والقراءتان وجهان عربيان جائزان، وكلاهما فصيح لأن «خُشْعًا» جمع تكسير.  
٨ - • قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [إِلَى الدَّاعِي] بإثبات الياء وصلًا.  
وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.  
وقرأ باقي القراء العشرة بحذفها في الحالين.  
١١ - • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر ويعقوب: ﴿فَفَتَحْنَا﴾ بتشديد التاء.  
وقرأ باقي القراء العشرة: [فَفَتَحْنَا] بتخفيف التاء.  
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هما على التوزيع في الأزمنة والأمكنة.  
فالمبالغة تناسب قسماً من الحدث، والقراءة الأخرى تناسب قسماً آخر من الحدث.  
١٢ - قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [عُيُونًا] بكسر العين.  
وقرأ باقي القراء العشرة بضمها. والقراءتان وجهان عربيان.  
١٦، ١٨، ٢١ - أثبت الياء في كلمة [وَنُذِرِي] في المواضع الستة من السورة: وزش  
وضلاً، ويعقوب في الوصل والوقف.

مِنْ مُذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَجِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْهَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَبَيْنَهُمْ أَنْ أَلْمَاءَ قَسَمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَطَعَانِي فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخَضَّبِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ بَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٩﴾

= وحذفها باقي القراء العشرة، في الحاليين.

وهي وجوه عربية في النطق جائزة.

٢٦ - • قرأ ابنُ عامرٍ، وحمزة: «سَيَعْلَمُونَ» بقاء المخاطبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: «سَيَعْلَمُونَ» بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

فقد خاطبهم الله عن طريق رسولهم بقوله: «سَيَعْلَمُونَ».

وخاطب رسولهم صالحاً والذين آمنوا به بقوله: «سَيَعْلَمُونَ».

٣٠، ٣٧، ٣٩ - أثبت الباء في كلمة [وَنُذْرِي] في المواضع الستة من السورة: وزش

وضلاً، وَيَعْقُوبُ في الوصل والوقف.

وحذفها باقي القراء العشرة، في الحاليين.

وهي وجوه عربية في النطق جائزة.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ  
 التَّنْذِرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْنَدِرٍ ﴿٤٢﴾  
 أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ  
 نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَرْجِعُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ  
 السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ  
 وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ  
 ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ  
 كَلَمَجٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ  
 مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ  
 وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ  
 صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدِرٍ ﴿٥٥﴾

(٢)

### مما ورد في السنة بشأن سورة (القمر)

روى الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وأهل السنن عن أبي واقد الليثي قال :

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدِ بِقَافٍ وَاقْتَرَبَتْ .»

أي : كان يقرأ في عيدي الفطر والأضحى بسورة (ق) وسورة (القمر)  
 المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ .





(٣)

## سبب نزول السورة

سأل أهل مكة النبي ﷺ آيةً تُثبِتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَأَشَارَ بِأصْبَعِهِ إِلَى الْقَمَرِ فِي لَيْلَةٍ كَانَ فِيهَا بَدْرًا، فَأَنْشَقَّ شَقْنَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا جَبَلَ حَرَاءَ بَيْنَ الشَّقْنَيْنِ، فَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ: «اشْهَدُوا اشْهَدُوا».

فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، وَقَالُوا: إِنْ كَانَ سَحَرْنَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَاسْأَلُوا الْمَسَافِرِينَ، وَحِينَ قَدِمَ الْمَسَافِرُونَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ سَأَلُوهُمْ، فَقَالُوا رَأَيْنَا أَنَّ الْقَمَرَ قَدْ انْشَقَّ.

وَأَصْرَ قَادَةُ مُشْرِكِي مَكَّةَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ قَوِيٌّ، بَلَغَ مِنْ قُوَّتِهِ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَى النَّاسِ خَارِجَ حُدُودِ مَكَّةَ الْبَعِيدِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ عَنْهَا.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُورَةَ (القمر) لِمُعَالَجَةِ مَوْقِفِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ عِقَابٍ شَامِلٍ، كَمَا حَصَلَ لِمُجْرِمِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ.

وَرَوَايَاتُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ آيَةً لِلرَّسُولِ ﷺ، فِي أَوَاسِطِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ مِنْ تَارِيخِ بَعَثَتِهِ بَلَغَتْ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ.

وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ذِكْرُ طَائِفَةٍ مِنْهَا لَدَى تَدْبِيرِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَالْأَنْشَقَّ الْقَمَرَ﴾.



(٤)

## موضوع السورة

يَدُورُ مَوْضُوعُ سورة (القمر) حول بيان الموقف العناديِّ المَكابِرِ الَّذِي وَقَفَهُ قَادَةُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، مِنْ آيَةِ انشِقَاقِ الْقَمَرِ الْعَظِيمَةِ، بَعْدَ أَنْ طَلَبُوا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ آيَةً مَادِّيَّةً كُبْرَى تُثَبِّتُ صِحَّةَ نُبُوتِهِ، وَصِدْقَ رِسَالَتِهِ، وَبَيَانَ مَوْقِفِهِمُ الْعَنَادِيِّ مِنَ الْأَنْبَاءِ الزَّاجِرَةِ، الَّتِي سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَوْجِيهَهَا لَهُمْ. وَبَيَانَ الْمَوْقِفِ الَّذِي يُوصِي اللَّهُ رَسُولُهُ بِأَنْ يَتَّخِذَهُ مَعَهُمْ، بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا غَالِبًا، وَهُوَ التَّوَلَّى عَنْهُمْ، بِإِدَارَةِ ظَهَرِهِ إِلَيْهِمْ، وَالِاشْتِغَالَ بِآخَرِينَ لَمْ يَبْلُغُوا بَعْدُ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ مِنْ عِنَادٍ وَمَكَابِرَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَمُعَادَاةٍ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ.

وبعد هذا تشتمل السورة على معالجتهم ومعالجة أمثالهم، بالترهيب، وبالبيان الإقناعي، وبالترغيب.

فجاء فيها الترهيب بإيجاز من بعض أهوال يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وبعده جاء التحذير من إنزال العقاب المهلك إهلاكاً عاماً في الدنيا، بِأَسْلُوبِ عَرْضِ مَوْجِزَاتٍ مِنْ قِصَصِ بَعْضِ الْمَهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولَى، فِي خَمْسِ فُقَرَاتٍ، تَنَاطَلَتْ بِإِيجَازٍ:

إِهْلَاكَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِهْلَاكَ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِهْلَاكَ ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِهْلَاكَ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودَهُمْ.

مع المعالجة بالإقناع لكفار قريش، بأنهم ليسوا عند الله خيراً من المهلكين الأولين.

وبعده جاءت طمأنة الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ جَمَعَ كُفَّارُ مَكَّةَ سِيَهْزَمُونَ فِي مَعَارِكٍ قِتَالِيَّةٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ آيَتَيْنِ أُضِيفَتَا إِلَى

سورة (القمر) كما ذكر مُقاتل من المفسرين، وهما عند الجمهور من التنزيل المكي مع تنزيل آيات السورة، وهما:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْصَرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ سُبْحَٰنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كِبَارُهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ جَلِيلٌ عَلِيمٌ ﴿٤٦﴾

وبعد هذا البيان جاء التهيب بتقديم لقطة مخيفة من عذاب المجرمين في النار يوم الدين، وهو مقرون ببيان أن كل شيء قد خلقه الله جلّ جلاله بقدر، وأن نفاذ أمره يكون مثل لمنح بالبصر، وأن أفعال الناس مسجلة عليهم صغارها وكبارها، أي: فهم سيحاسبون عليها.

وأخيراً جاء ترغيب الذين آمنوا واتقوا بأنهم سوف يكونون يوم الدين في جنّات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وبهذا ظهرت لنا وخدة موضوع السورة متماسكة العناصر، متعانة الفقرات، بديعة الترابط.



(٥)

### دُرُوسُ السُّورَةِ

تشمّل سورة (القمر) على خمسة دروس متعانة حول موضوع واحد كما سبق بيّانه.

#### الدرس الأول:

درس يشتمل على بيان موقف أئمة الكفر والشرك في مكة إبان تنزيل السورة، بعد طلبهم آية حسية كبرى، فأشار الرسول ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فانشق نصفين متباعدين، وبيان موقفهم من الأنبياء الزواجر التي أنزلها الله عز وجل في نجوم التنزيل، قبل إنزال سورة (القمر).

فموقفهم قد كان موقف المكابرة والعناد والإصرار على الكفر،

زاعمين أَنَّ الرُّسُولَ ﷺ سَحَرَهُمْ، مع الاستمرار على موقفِ العِدَاءِ وتدبيرِ  
المكاييد التي جاء بَيَانُهَا في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

ويشتمل أيضاً على بَيَانِ الموقف الَّذِي يُوصِي الله عَزَّ وَجَلَّ رُسُولَهُ بِأَنْ  
يَتَّخِذَهُ مَعَهُمْ، وهو التَّوَلَّى عَنْهُمْ بِإِدَارَةِ ظَهْرِهِ إِلَيْهِمْ، لِيَتَابَعَ بِذَلِكَ جَهْدَهُ  
واجتهاده لدعوة آخرين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوس منها.

وهو الآيات من (١ - ٥ وعبرة: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ من الآية ٦).

### الدرس الثاني:

يشتمل على تَرْهيبٍ بإيجاز من بعض أهوال يوم القيامة وهو من:  
﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ (٦) وحتى غاية الآية (٨).

### الدرس الثالث:

يشتمل على تحذير الكفرة المعاندين المصيرين على رفض الحق،  
وعلى اتباع الباطل، من إنزال العقاب المهلك لهم إهلاكاً عاماً في الدنيا،  
إِذَا وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةِ استحقاقهم هذا الإهلاك العام، بِإِسْلُوبِ عَرْضِ  
موجزاتٍ من قِصَصِ بعض المهلكين السَّابِقِينَ من كُفَّارِ القُرُونِ الأولى،  
وجاء هذا الدَّرْسُ مُفَصَّلاً إلى خمس فقرات:

الفقرة الأولى موجزُ قِصَّةِ إهلاك قوم النَّبِيِّ الرَّسُولِ نوح عليه السلام.

الفقرة الثانية: موجزُ قِصَّةِ إهلاك «عَادٍ» قومِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ هود عليه  
السلام.

الفقرة الثالثة: موجزُ قِصَّةِ إهلاك «ثمود» قومِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صالح عليه  
السلام.

الفقرة الرابعة: موجزُ قِصَّةِ إهلاك قومِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ لُوطٍ عليه السَّلام.

الفقرة الخامسة: لمحةٌ من إهلاك فرعون وآله وجنوده.

وهو الآيات من (٩ - ٤٢).

#### الدرس الرابع :

يشتمل على معالجة معاندي كُفَّار قريش باقناعهم بأنهم ليسوا عند الله خيراً من المهلكين الأولين، الذين أَهْلَكُوا بسبب كُفْرِهِمْ وعنادهم وطغيانهم. ويشتمل على طَمَآنَةِ الرَّسُولِ ﷺ والذين آمَنُوا به وَاتَّبَعُوهُ، بأنَّ جَمَعَ قادة كُفَّارِ مَكَّة سَيُهْزَمُونَ في معارك قتالية مستقبلية قادمة، وَيَبَيِّنُ أَنَّ السَّاعَةَ موعِد تعذيبهم العذاب الأكبر والأشدَّ من الهزائم التي سَتَلْحَقُ بهم، ومن القَتْلِ التي يُقْتَلُ به صناديدهم وعُتَاتُهُمْ.

وهو الآيات من (٤٣ - ٤٦).

#### الدرس الخامس :

● يشتمل على بَيَانِ تَرْهِيْبِيٍّ بِأَسْلُوبِ تَقْدِيمِ لِقِطْعَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ مَخِيفَةٍ من عذاب المجرمين في النَّارِ يوم الدِّينِ، وهذا البيان مقرون بما يلي:

(١) ببيانِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قد خلقه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَدَرٍ، وهذا القدر يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَخْضَعُ لِلتَّقْدِيرِ في الْكَمِّ وَالْكِيفِ وَالزَّمَنِ وسائر الأشياء القابلة لأن تكون ذات مقادير.

(٢) وبيانِ أَنَّ نَفَاذَ أَمْرِ اللَّهِ يَكُونُ مِثْلَ لَمْحٍ بِالْبَصَرِ.

(٣) وبيانِ أَنَّ أفعالَ العباد الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مَسْجُودَةٌ عَلَيْهِمْ صِغَارَهَا وَكِبَارَهَا، أَي: وَالْمَكْلُوفُونَ مِنْهُمْ سَوْفَ يَحَاسِبُونَ عَلَيْهَا.

● ويشتمل على بيانِ تَرْغِيْبِيٍّ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقُوا، بأنهم سيكونون منعمين يوم الدِّينِ في جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ، في مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ، في مقابل الْبَيَانِ التَّرْهِيْبِيِّ لِلْمَجْرِمِينَ.

وهو الآيات من (٤٧ - ٥٥ آخر السورة).



(٦)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة  
وهو الآيات من (١ - ٥ مع عبارة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ من الآية ٦)  
قال الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِجٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّذَرُّ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

• قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ بالرفع، على أنه خبر [كل].

وقرأ أبو جعفر: [مُسْتَقَرٌّ] بالجر، وهذه القراءة تحتاج إلى تأويل، وأحسن التأويلات فيما أرى أن يكون خبر [كل] مطوياً مقدراً ذهنياً، والمعنى: وكل أمر مستقر بالقضاء غير منسوخ حاصل لا محالة في أجله.

• قرأ جمهور القراء العشرة ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف تخفيفاً، وهو من اللهجات العربية الإيجازية.

وقرأ يعقوب بإثبات الياء في الوقف [فَمَا تُغْنِي] على الأصل دون حذف.

والقراءتان من التيسير على الناطقين، وهما تدخلان في الأحرف السبعة التيسيرية، على الناطقين العرب بحسب لهجاتهم.

• قول الله تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾.

اقتربت: أي: دنا وقت وقوعها، يقال لغة: اقترب الوعد، أي: دنا

وَقُتُّ وَقُوعِهِ. واقترب القوم: أي: دنا بعضهم من بعض.

**السَّاعَة:** جزءٌ من أجزاء الوقت، وإن قلَّ. وأطلقت في الاصطلاح الديني على الوقت الذي قضى الله عزَّ وجلَّ أن يُنْهِيَ به ظروف هذه الحياة الدنيا وأنظمتها، وعلى الوقت الذي يبعث الله فيه الموتى إلى الحياة الأخرى، والقرائن تُبَيِّنُ المراد، وتُطْلَقُ في القرآن أيضاً على وفق المعنى اللغوي، ولكن منكَرَةً دُونَ تعريف.

**وَانْشَقَّ:** أي: وانصدع. فابْتَعَدَ قِسْمٌ مِنْهُ عن قِسْمٍ آخَرَ.

في هذه الآية بيانٌ قضيتين:

**القضية الأولى:** اقترابُ السَّاعَةِ، التي تأتي بَعْدَهَا أحداثُ يَوْمِ القيامة، وما فيه من حساب، وَفَضْلُ قَضَاءٍ، وتنفيذِ جزاء.

**القضية الثانية:** انشقاق القمر آيةً حِسِّيَّةً كُبْرَى للنبيِّ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهي دالَّةٌ على أَنَّهُ نبيُّ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، وَأَنَّهُ رُسُولُهُ الْأَمِينُ، فَهُوَ يُبَلِّغُ عَنْهُ مَا يَأْمُرُهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلْعَالَمِينَ.

وجاءت القضية الثانية هذه بمثابة البرهان على صدق القضية الأولى، قضية السَّاعَةِ الْمُسْتَتَبِعَةِ لِبَعْثِ الْمَوْتَى إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى التي يكون فيها الحسابُ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وتنفيذُ الجزاء، بالنسبة إلى الَّذِينَ وَضِعُوا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

فَحَبَّرَ السَّاعَةَ وَحَبَّرَ اقْتِرَابَهَا بِالنَّظَرِ إِلَى بَدْءِ نَشْأَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وبالقِياس على الزَّمَنِ الذي مضى منها، يَشْهَدُ لَصِدْقِهِ وَصِحَّتِهِ إِجْرَاءَ مُعْجَزَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ لِمُبَلِّغِ هَذَا الْخَبَرِ عَنْ رَبِّهِ، لِأَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ فِي السَّمَاءِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْعَلَهُ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا أَجْرَاهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ مِنْ غَيْبَاتٍ.

## شرح القضية الأولى:

إِنَّ جُمْلَةً ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ﴿خَبَرَ عَنْ أَمْرِ غَيْبِي بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُذَرِّكُوا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْخَبَرُ، لَا عَنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ الْمَجْرَدِ، وَلَا عَنْ طَرِيقِ الدَّلَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْكُونِيَّةِ، وَظَاهِرَاتِ الْأَشْيَاءِ وَأَمَارَاتِهَا.

لَكِنَّ حَادِثَةً انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي السَّمَاءِ، الَّتِي وَقَعَتْ بِحُضُورِ طَالِبِي آيَةِ كِبَرِي مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، فَأَجْرَاهَا لَهُمْ بِإِشَارَةِ إِلَى الْقَمَرِ بِأَصْبَعِهِ، تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقًا.

إِنَّهَا قَضِيَّةٌ حِسِّيَّةٌ مَشْهُودَةٌ، ذَاتُ دَلَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ مُلْزِمَةٍ لِدَوِي الْعُقُولِ الْمُتَنَصِّفَةِ، بِأَنَّ مَنْ أَجْرَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ نَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، فَمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَقًّا وَصِدْقًا، وَمِنَ الْإِخْبَارِ بِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ.

فَذَكَرَ الْقَضِيَّتَيْنِ مُقْتَرِنَتَيْنِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بَيَانًا يَتَضَمَّنُ الْخَبَرَ وَالذَّلِيلَ عَلَى صِدْقِهِ، وَهَذَا الْأَسْلُوبُ الْقُرْآنِيُّ هُوَ مِنْ رَوَائِعِ الْإِيْجَازِ فِي الْاسْتِدْلَالِ الْقَائِمِ عَلَى عَرْضِ الْقَضِيَّةِ، وَعَرْضُ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهَا، مُقْتَرِنَيْنِ، دُونَ التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَيْهَا. كَمَنْ يَتَحَدَّى الْمَصَارِعِينَ وَيَأْتِي إِلَى جِدَارٍ لَمْ يَسْتَطِعْ إِمَالَتَهُ عَدَدَ مِنْهُمْ، فَيَدْفَعُهُ بِيَدِهِ فَيُسْقِطُهُ.

## قضية الساعة واقتربها:

لَقَدْ أَخْفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ عَنْ كُلِّ خَلْقِهِ، فَهِيَ لَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً بِصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ، وَقَدْ ثَقُلَ عِلْمُ وَقْتِ حُدُوثِهَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَإِذْ أَخْفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعِلْمَ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ عَنْ كُلِّ خَلْقِهِ، حَتَّى عَنْ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ قُرْبِ وَقُوعِهَا أَوْ بُعْدِهِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُذَرِّكَ



ما لَمْ يَأْتِنَا الْوَحْيُ عَنِ الرَّبِّ الَّذِي قَضَىٰ وَقَدَّرَ، ببيان يَدُلُّ عليه.

وقد أخبرنا الله عزَّ وجلَّ في قرآنه باقترابها، وبلغنا ذلك نبيُّه ورسوله المؤيد من قبله بالمعجزات والآيات الباهرات، ومنها معجزة انشقاق القمر، فوجب التسليم بصحة الخبر وصدقه.

والغرض من الإعلام باقتراب الساعة التخفيف من استبعاد وقوعها، أو استبعاد وقت وقوعها الذي يُولد في النفوس الغفلة عنها، اشتغالاً واهتماماً بالقضايا القريبة المستعجلة من أمور الحياة الدنيا، مع بيان حقيقة من الحقائق المستقبلية التي لا تُعلم إلا عن طريق الوحي الرباني، لخدمة أغراض الدين.

وَيَسْأَلُ سَائِلٌ مَا الْمُرَادُ بِالسَّاعَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ؟﴾

فأقول: يُمكنُ أن يكون المرادُ بها ساعة إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، وهذا الإنهاء يستلزم عقلاً الإعلام باقتراب ساعة القيامة، والبعث للحياة الأخرى، التي يكون فيها الحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء، إذ يوم البعث والحساب وما يجري فيه هو المقصود ببيان اقترابه فيه تتحقق الغاية من الامتحان في رحلة الحياة الدنيا.

وَيُمْكِنُ أن يكون المرادُ بها ساعة القيامة والبعث، وهذا يتضمن الإعلام باقتراب ساعة إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، الذي هو مقدمة من مقدمات الإعداد الكوني لظروف الحياة الأخرى.

وجاء النَّصُّ مُطْلَقاً لأنَّ كُلاً من المعنيين صالح ومستلزم للمعنى الآخر، وهذا من بديع الإطلاقات القرآنية، التي تستفاد منها عدة معانٍ صالحة ومُرادة.

والمراد باقترابها الاقتراب النسبي الذي يلاحظ فيه عُمرُ الحياة الدنيا مُنذُ بدء الحياة على الأرض حتى إنهاؤها، فإذا بقي الربع أو الخمس أو

السُّدُسُ أو أَقْلُ من ذلك مهما بلغ من القرون، فَإِنَّ المَرْتَقَبَ بَعْدَهُ أَجَلٌ قريب بالنسبة إلى ما مَضَى من الحياة على الأرض.

### نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة:

النص الأول: ما جاء في أول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزل) وهو ما تدبرناه آنفاً.

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزل) بشأن منكري البعث:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ \* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لِّئِنَّكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، أي: فسيُحَرِّكُونَهَا حركة المُسْتَبْعِدِ المتعجب المنكر.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: أرجو وأترقب أن يكون قريباً وهو تعبير مضمونه الجزم، وظاهره الرجاء والترقب للأمر القريب لأن المحادثة مع منكري البعث إنكاراً كلياً، وهم يُمَاجِحُونَ في السؤال عن وقته بِشَكْلِ مُحَدَّدٍ، وقد أخفاه الله عز وجل عن كل عباده في الأرض وفي السماوات.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، أي: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ لِمَحْكَمَةِ الْعَدْلِ فتستجيبون لدعوته وتحضرون للحساب، وأنتم لا تملكون غير ذلك يَوْمَئِذٍ، وَتَجْعَلُونَ استجابتكم لربكم مَقْرُونَةً بِحَمْدِهِ والثناء عليه لعله يخفف عنكم.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لِّئِنَّكُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: وحين تُبْعَثُونَ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ مَا

لَبِثْتُمْ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِلَّا زَمَنًا قَلِيلًا، كَسَاعَةِ مِنْ نَهَارٍ، لَأَنَّ الْمَوْتَى يُلْعَنُ مِنْ نُفُوسِهِمُ الْإِحْسَاسُ بِمَرُورِ الزَّمَنِ، فَالْلَحْظَةُ وَمِليَارَاتُ السِّنِينَ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ سَوَاءٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي عَهْدِ آدَمَ وَمَنْ مَاتَ آخِرَ النَّاسِ، يَكُونُ إِحْسَاسُهُمَا بِمَا مَضَى مِنَ الزَّمَنِ سَوَاءً.

النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢

نزول):

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، أي: أنزل الكتاب مشتملاً على قسمين، فما فيه من أخبار وأنباء فهي حق مطابق للواقع، وأنزل الميزان، فما فيه من تشريعات وأحكام وتكاليف فهي قائمة على العدل، وجاء التعبير عن العدل بالميزان، لأن الميزان رمز العدل، الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه.

وهذه العبارة داخلة في عموم قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦

مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؟ جاء التعبير هنا عن اقتراب الساعة بأسلوب طرح احتمال قريبها، الذي يراود به الإعلام بقربها بأسلوب فني أدبي، مقدّم بصيغة سؤال.

أي: وأي شيء يجعلك تظن أن الساعة غير واقعة أيها المكذب بها، أو أنها بعيدة الوقوع، إنك لا تملك أي دليل، وإذا كان الأمر كذلك فلاحتمالات سواء بالنسبة إليك، ومن البصيرة العقلية الاحترازية أن تضع

نُضِبَ عَيْنِكَ اِحْتِمَالَ قُرْبِ وَقُوعِهَا لِتَتَّخِذَ حِذْرَكَ، وتبادِرَ إلى ما يَقيِّكَ من عذابِ الله الذي يُمكن أن يَواجِهَكَ بَعْدَهَا، إذا قَدُمْتَ أو أَخَرْتَ ما يُفْضِي بِكَ إِلَيْهِ.

وهذا الأسلوب الاستفهامي التعجيبى أسلوبٌ بارِعٌ بَدِيعٌ من طُرُقِ الإقناعِ بِتَوْقِي عقابِ الله يَوْمَ الدين.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يَسْتَعْجِلُ وَقُوعَ السَّاعَةِ مُسْتَهِينِينَ بِهَا وبِأَنْبَاءِ قِيَامِهَا، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا. فاستعجالهم أسلوبٌ من أساليبِ الجدلِ الكلامي.

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿أَلَا﴾ ألا أداة استفتاح وتنبية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ﴾، أي: إِنَّ الَّذِينَ يجادلون بشأن قيام الساعة شاكِّين أو مشكِّين بها، ورافضين الإيمان بها.

المماراة: المجادلة القائمة على المخالفة والالتواء عن الحق. يقال لغة: مَارَى فُلَانٌ فُلَانًا يُماريه، أي: ناظره وجادله. وخالفَهُ وتَلَوَّى عليه.

﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، أي: لَوَاقِعُونَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ عن مَوْقعِ الحق.

النص الرابع: قول الله عز وجل في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بشأن العذاب الواقع للكافرين يَوْمَ الدين:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) ، أي: إِنَّ بَعْضَ الْكَافِرِينَ يَرَوْنَ عَذَابَ يَوْمِ الدِّينِ أَمْرًا بَعِيدًا عَلَى فَرَضِ أَنَّهُ حَقٌّ، فَيَبْنِي زَمَنَ وَجُودِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَمَنَ حُصُولِهِ يَوْمَ الدِّينِ إِنَّ صَحَّ الْخَبَرُ بِهِ، قُرُونًا، وَأَحْقَابًا طَوِيلَةً جَدًّا.

لكن الله بِجَلَالِ رُبُوبِيَّتِهِ وَبِعِلْمِهِ الشَّامِلِ يَرَاهُ قَرِيبًا، إِذْ لَيْسَ بَيْنَ الْمَوْتِ

والبعث الذي يَحْصُلُ فيه هذا العذاب إلا فاصل البرزخ، وهذا الفاصل بالنسبة إلى إحساس نفوس الموتى قليل جداً، إنهم حين يُبْعَثُونَ يُقَدَّرُونَ أنَّهم لم يَلْبَثُوا بَيْنَ الموت والبَعْثِ إلا عَشِيَّةً أو ضَحَاها، أي: كَنُومَةٍ في الضُحَى، أو نومة في العَشِيِّ، والحقُّ أنَّ العِبْرَةَ بإحساس النفوس لا بِطُولِ الزَّمنِ خارجِ إحساسِها.

النص الخامس: قول الله عز وجل في سورة (النبا/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) خطاباً للكافرين.

﴿إِنَّا أَنْزَرْنَكُمْ عَبْدًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٤١).

فأبانت هذه الآية أنَّ العَذَابَ الذي يُوجَّهه الله عز وجل للإنذار به لِلْكَافِرِينَ سَيَكُونُ قَرِيبًا بِالنَّسْبَةِ إلى إحساساتهم، لأنهم لَا يَشْعُرُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَّا بِسُرْعَةٍ ملاقاتهم له يوم الدين، غير الَّذِي يُلَاقُونَهُ مِنْ عَذَابٍ نَفْسِيٍّ فِي مَدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي لَا يَشْعُرُونَ بِمُرُورِ الزَّمنِ فيها.

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يَنْظُرُ بِعَيْنَيْهِ مَا كَسَبَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ كَسْبٍ إِرَادِيٍّ، يُغَرِّضُ عَلَيْهِ فِيهِ شَرِيْطٌ كَامِلٌ بِالصُّورَةِ وَالصَّوْتِ وَالنِّيَّاتِ وَحَرَكَاتِ النَّفْسِ كُلِّهَا.

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، أي: ويقول الكافر متمنياً أن يكون مثل البهائم الَّتِي يَقُولُ اللهُ عز وجل لها: كوني تراباً، فتكون بَعْدَ أَنْ يَفْتَقَصَ لِلْمَظْلُومَاتِ مِنْهَا مِنْ ظَالِمَاتِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

النص السادس: قول الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزولاً) خطاباً لرسوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٢).

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾، أي: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ وَقْتِ وَقُوعِهَا.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ مَا عَلَّمْتُ وَقْتُ وَقُوعِهَا عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ، فَهُوَ وَخَدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ الْعَلِيمُ بِوَقْتِ وَقُوعِهَا.

﴿وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، أي: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْسَّائِلِ الَّذِي يَسْأَلُكَ عَنِ وَقْتِ وَقُوعِ السَّاعَةِ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا.

وشرح هذه العبارة وتحليلها سبقَ لَدَى شَرْحِ شَبِيهَاتِهَا أَنْفَاءً فِي النَّصِّ الثالث من هذه النصوص.



أما قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَحِيًّا أَمَدًا﴾ (٢٥).

وقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله أيضاً في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول)،

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩).

أي: فَإِنْ أَصْرُوا عَلَىٰ إِدَارَةِ ظُهُورِهِمْ لِدَعْوَتِكَ يَا مُحَمَّدُ، وَالِابْتِعَادِ عَنْهَا ابْتِعَاداً كُلِّيًّا، فَقُلْ لَهُمْ: أَذَنْتُكُمْ، أي: أَعْلَمْتُكُمْ إِعْلَاماً عَلَىٰ سَوَاءٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، بِأَنَّ الْحَالَةَ بَيْنَنَا حَالَةُ حَزَبٍ، لَا حَالَةَ سِلْمٍ، وَاعْلَمُوا بِأَنَّكُمْ سَتَهْزَمُونَ، وَمَا أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ مِنْ هَزِيمَتِكُمْ.

فهذان النَّصَّانِ متعلقان بما وُعدوا من عقاب معجل في الحياة الدنيا.



### ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة:

١ - روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ».

وَرَوَى البخاري ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد مثله.

كَهَاتَيْنِ: أي، كالفَرْقِ ما بين الإصبع السَّبَابَةِ والإصبع الوسطى، فما بقي من الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها، كالفاضل من الوسطى بالنسبة إلى السَّبَابَةِ.

قال راوي الحديث عن قتادة عن أنس، وسمعتُ قَتَادَةَ يَقُولُ في قصصه: «كَفَضْلِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى» فلا أدري أذكره عن أنس أو قاله قتادة<sup>(١)</sup>.

٢ - وروى الترمذي عن الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَادٍ، عن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقْتُ هَذِهِ هَذِهِ وَأَشَارَ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى».

٣ - وروى البيهقي في شُعَبِ الْإِيمَانِ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

«مَثَلُ هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، فَبَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ، فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ».



### شرح القضية الثانية (وهي انشقاق القمر):

إنَّ جملة ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ خَبَرٌ عن أمرٍ وَقَعَ وشَهِدَهُ طَالِبُوا آيَةِ حَسِيَّةٍ من الرُّسُولِ ﷺ، فَأَجْرَى اللهُ آيَةَ انشقاقِ الْقَمَرِ الْعَظَمِيِّ، وشَهِدَهَا مُسَافِرُونَ

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥٠٩.

(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥١٥.

كانُوا خَارِجَ مَكَّةَ فِي أَسْفَارِهِمُ الْبَعِيدَةِ، وَشَهِدَهَا مِنْ شَهِدَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .  
وَالْأَضْلُ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَا يُصَارُ إِلَى تَأْوِيلِهِ إِلَّا إِذَا ثَبَتَ  
خِلَافَ ذَلِكَ .

وما جاء في الأحاديث المروية الصحيحة يُثَبَّتُ بِبَيِّنٍ أَنَّ الْقَمَرَ قَدْ  
انْشَقَّ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِذْ طَلَبَ كُبْرَاءُ قَوْمِهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَآيَةٍ حَسِيَّةٍ، فَجَاءَهُمْ  
بِهَا، إِذْ أَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ أَمَامَ طَالِبِي الْآيَةِ مِنْهُ، فَاِنْشَقَّ نِصْفَيْنِ، فَكَانَ فِلْقَتَيْنِ،  
فِلْقَةٌ ظَهَرَتْ أَمَامَ الْجَبَلِ، وَفِلْقَةٌ ظَهَرَتْ وَرَاءَهُ، وَظَهَرَ الْجَبَلُ بَيْنَ الْفِلْقَتَيْنِ .

قال كثيرٌ من مُتَتَّبِعِي الرِّوَايَاتِ: إِنَّ خَبَرَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ لِلرَّسُولِ ﷺ  
مُتَوَاتِرٌ، فَهُوَ أَمْرٌ قَدْ وَقَعَ يَقِينًا .

ومن الروايات الواردة بشأن انشقاقه ما يلي :

١ - رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ  
بَيْنَهُمَا<sup>(١)</sup> .

٢ - وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى  
عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشْهَدُوا»<sup>(٢)</sup> .

٣ - وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً،  
فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ: «أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» ﴿١﴾ .

٤ - وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ  
عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ عَلَى هَذَا

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٤ .

(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٥ .



الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ. فَقَالُوا: إِنْ كَانَ سَحَرَنَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ.

٥ - وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ﴾ قال: قد مضى ذلك، كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، انشَقَّ الْقَمَرُ حَتَّى رَأَوْا شِقَّتَيْهِ.

٦ - وروى البيهقي عن عبد الله بن عمر في قول الله عز وجل: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ ۚ﴾ قال: وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، انشَقَّ فِلَقَتَيْنِ، فِلَقَةٌ مِنْ دُونِ الْجَبَلِ، وفِلَقَةٌ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»،

وهكذا رواه مسلم والترمذي من طريق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد.

٧ - وعند البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: انشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سِحْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ. قال: فَقَالُوا: انظُرُوا مَا يَأْتِيكُمْ بِهِ السُّفَّارُ<sup>(١)</sup>، فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، قال: فَجَاءَ السُّفَّارُ، فَقَالُوا ذَلِكَ.

٨ - وروى البيهقي عن مسروق عن عبد الله، قال: انشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ حَتَّى صَارَ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: أَهْلَ مَكَّةَ، هَذَا سِحْرُ سَحْرَكُمُ بِهِ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ<sup>(٢)</sup>، انظُرُوا السُّفَّارَ، فَإِنْ كَانُوا رَأَوْا مَا رَأَيْتُمْ فَقَدْ صَدَقَ، وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَرَوْا مِثْلَ مَا رَأَيْتُمْ فَهُوَ سِحْرُ سَحْرَكُمُ بِهِ.

(١) السُّفَّارُ: المسافرون.

(٢) ابن أبي كبشة: يعنون محمداً نسبةً إلى أبيه من الرضاعة، زوج مرضعته حليلة.

قَالَ: فِسْئِلَ السَّفَارِ. قَالَ: وَقَدِمُوا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَقَالُوا: رَأَيْنَا.

٩ - وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: انشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ بَيْنِ فُرَجَتَيْ الْقَمَرِ حِينَ انشَقَّ.

فهل بعد هذه الروايات الثابتات من أسانيد مختلفة مجالاً لتشكك بغرض المتشككين الذين يحاولون تأويل النص القرآني، وحمله على أنه خبر عما سيحدث مستقبلاً عند قيام الساعة، أو قبيلها.

### خطأ ابن كيسان:

زعم ابن كيسان أن قول الله عز وجل: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ على التقديم والتأخير، وأن الأصل انشَقَّ الْقَمَرُ وافتربت الساعة، متوهماً أن انشقاق القمر سابق لاقتراب الساعة.

لقد ظن أن اقتراب الساعة هو وقوعها، فوقع في الخطأ، مع أن اقتراب الساعة شيء، ووقوع الساعة شيء آخر، فاقترب الساعة حاصل قبل انشقاق القمر حتماً.



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.

بعد الإعلام بالقضية الأولى، والتنبه على القضية الثانية، أبان الله عز وجل أن من صفات المكذبين بالحق، الكافرين به كُفراً إرادياً. بتأثير عوامل نفسية غير منطقية ولا عقلية، أن لا يوجهوا أنظارهم لرؤية الآيات الدالات على صدق الرسول، وصدق ما جاء به عن ربه، إلا على سبيل النذرة، دل على هذا استعمال حرف الشرط [إن] دون حرف الشرط «إذا».

والسبب في نذرة توجيههم أنظارهم لآيات الله اتباعهم لأهواء نفوسهم وشهواتها، ونوازعها واستجابتهم لنوازغ الشياطين، وهذه عوارض مرضية

تُغْشِي أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ، أَوْ تُغْمِيهَا فِهِمْ لَا يَرَوْنَ آيَاتِ اللَّهِ.

وإن يَرَوْهَا عَلَى سَبِيلِ الثُّدْرَةِ، وَذَلِكَ حِينَ تَكُونُ حِسِيَّةً وَظَاهِرَةً لِلْجَمِيعِ، فَلَا يُنْكِرُهَا إِلَّا أَغْمَى أَصَمُّ، فَإِنَّهُمْ يُغْرِضُونَ عَنْهَا، فَيُغْطُونَهَا عَارِضُهُمْ، وَهُوَ جَانِبُهُمْ، وَلَا يُوَاجِهُونَهَا، ثُمَّ يُوجِّهُونَ النَّاسَ لِلتَّشْكِيكِ فِيهَا، فَيَصِفُونَهَا بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ كَوْنِهَا آيَةً حَقِيقَةً، تَحْمِلُ دَلِيلًا بُرْهَانِيًّا عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ فِي رِسَالَتِهِ، وَفِيمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، كَأَن يَصِفُوهَا بِأَنَّهَا عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ السُّحْرِ، أَوْ أَثَرٌ مِنْ آثَارِهِ.

ففي شأن أئمة الكفر من مشركي قريش، الذين لم يَسْتَفِيدُوا مِنْ معجزة انشقاق القمر لرسول الله ﷺ، وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ آيَةِ آيَةِ يَرَوْنَهَا، لِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ عَنْ تَصْمِيمِ إِرَادِيٍّ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ مُسْتَفِيدُونَ دَاخِلِيًّا مِنْ صِدْقِهِ، وَصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، إِذْ تُفُوسُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ نَافِرَةً، أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ.

فالمعنى: لَقَدْ رَأَوْا آيَةَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، فَأَعْرَضُوا وَقَالُوا: سَحَرَكُمُ مُحَمَّدٌ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا.

وإن يَرَوْا مُسْتَقْبَلًا عَلَى سَبِيلِ الثُّدْرَةِ آيَةً مَا، مَعَ التَّشْكِيكِ فِي أَنَّ يُوجِّهُوا أَنْظَارَهُمْ وَعُقُولَهُمْ لَهَا، يُغْرِضُوا عَنْهَا، وَيَقُولُوا مِثْلَ مَا قَالُوا فِي آيَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، سَحَرَكُمُ مُحَمَّدٌ.

وبالتأمل نلاحظُ أَنَّ بَيْنَ الْآيَةِ الْأُولَى: وَالْآيَةِ الثَّانِيَةِ. كَلَامًا مَطْوِيًّا مُقَدَّرًا، يُمَكِّنُ اسْتِنْبَاطَهُ بِاللَّوْازِمِ الدَّهْنِيَّةِ، وَتَقْدِيرُهُ كَمَا يَلِي:

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، فَأَعْرَضَ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ فِي مَكَّةَ عَنْ آيَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَقَالُوا: هَذَا سِحْرٌ، وَهُوَ دِيْدُنُهُمْ مَعَ كُلِّ آيَةٍ سَيَرُونَهَا، إِنَّ سَمَحُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِأَن يَرَوْهَا، أَوْ غَلَبَتْهُمْ الْآيَةُ بِاعْتِبَارِهَا حِسِيَّةً أَوْ عَقْلِيَّةً قَاهِرَةً، وَإِنْ شَأْنُهُمْ أَنَّ يُغْرِضُوا غَيْرَ مُبَالِغِينَ بِدَلَالَاتِ آيَاتِ اللَّهِ الْمُقْنَعَاتِ مَنْ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِقَبُولِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ.

**الإعراض:** إعطاء الجانب، وهو منزلةٌ وَسَطَى بَيْنَ الإقبالِ والإدبار، غَرْضُ الشيء في اللُّغة، جانبه، وعارضا الإنسان صفحتا خديّه.

**مُسْتَمِرٌّ:** جاء في تفسير هذه الكلمة، أنها بمعنى: «ذاهب» أي: يَمُرُّ وَيَمْضِي، فلا يبقى، شأنه كشأنِ كُلِّ أعمالِ السَّحَرَةِ.

وجاء في تفسيرها، أنها بمعنى: «شديد قوي» اشتقاقاً من المِرَّةِ وَهِيَ في اللُّغة القُوَّة والشَّدَّة.

وتأتي هذه الكلمة في اللُّغة، بمعنى: «مُعْتَاد متكرر على طريقة وَاحِدَةٍ» وهذا المعنى أَلَصَقُ المعاني بمفهوم النصّ فيما أرى، بَعْدَ أَنْ اكْتَشَفْنَا ما فيه من مطوّيات.

على أَنَّ المعانيَ الثلاثةَ كُلُّها مِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَدَّثَ به أئمةُ الكُفْرِ والشَّرِكِ هؤلاء، ويكون الأمرُ على التوزيع فيما بينهم.

وقد يكون من التدبُّر الأمثل حَمْلُ اللفظ على هذه المعاني كُلِّها، فبعضهم يزعمه سحراً يَمُرُّ وَيَمْضِي، وبعضهم يراه شديداً قوياً، وبعضهم يزعمُ أنه من الأمور المعتادة المتكررة التي يأتي بِمِثْلِها السَّحَرَةُ.

وقد عرفنا أَنَّ من أساليب القرآن الإيجازية استعمال اللفظ الواحد في معانيه المتعددة، إذا كانت قابلةً للاجتماع بوجهٍ من الوجوه، إذ لا تنافر بينها ولا تضاد. وهذا من عوامل وفرة المعاني في القرآن المجيد، ومن عناصر الإعجاز فيه.



قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۝٣﴾ أي: أَعْرَضُوا عن آية انشقاق القمر ودلالاتها، وكان عليهم أن يستفيدوا منها الدلالة على أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حقاً وصدقاً وَأَنَّ ما جاء به

عن ربّه بلاغٌ حقٌّ وصدق، ولكنّهم كذّبوا رَسولَ الله محمّداً، وكذّبوا ببلاغاته عن ربّه، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفضوا اتباع الرّسول فيما جاءهم به. وإذ رفضوا اتباع الرّسول على صراط الحق والخير والهدى والفضيلة، لم يكن لهم إلا أن يتبعوا أهواءهم، لأنّهم ما داموا أحياء في هذه الحياة الدّينا فلا بُدَّ أن يتحرّكوا في اتّجاه ما، فإذا لم يتحرّكوا متّبعين الرّسول على صراط الله، فلا بُدَّ أن يتحرّكوا متّبعين أهواءهم، أمّا السّكون بلا حرّكة فهي طبيعة الموتى.

هذا ما دلّ عليه قوله تعالى؛ ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. أي: ولو صدّقوا بأنّ محمّداً رسول الله، وصدّقوا بما جاءهم به عن ربّه، لا تتبعوه، وسلّكوا صراط الله المستقيم.

واتّباع الأهواء يشمّل اتّباعها في القضايا الفكرية، واتّباعها في القضايا الاعتقادية، واتّباعها في القضايا النفسية، واتّباعها في القضايا العاطفية، واتّباعها في القضايا السلوكية في مختلف شؤون الحياة.

وبما أنّ أهواء النّاس لا تتطابق غالباً، فلا بُدَّ أن يكون متّبعو أهوائهم في أمرٍ مَرِيجٍ مختلط من أمورٍ غير متجانسة، ولا متوافقة، كما قال تعالى فيما سبق أنّ أنزل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

فتكامل النّصان في الدلالة، والمعنى: وكذّبوا بالحقّ لما جاءهم واتبّعوا أهواءهم فهم في أمرٍ مَرِيجٍ.

قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

مُسْتَقَرٌّ: أي: ثابتٌ مُتِمَكِّنٌ، لا شيء يُغيّره عن ثباته، ولا شيء يُزِلُّه، يقال لُغَةً: استقرّ الشيء، أي: ثبت وتمكّن. واستقرّ بالمكان، أي:

تمكَّن فيه وثبت. مُسْتَقَرٌّ: اسم فاعل من استقر بمعنى ثبت وتمكن وقر في مكانه.

فما المراد بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

أقول: إذا خَرَجَتْ شِرْذِمَةٌ قليلة من الشعب على نظام الدولة القويّة، وَجَحَدَتْ سُلْطَتَهَا، وَاتَّبَعَتْ أهواءها، وقد رَتَّبَت الدولة لِمَحَاسِبِهَا وَمُعَاقِبَتِهَا يَوْمًا مُّحَدَّدًا لَمْ يَحِنْ حِينُهُ بَعْدُ، وَتَرَكَّتْ لَهَا فُرْصَةُ التَّوْبَةِ وَإِصْلَاحِ شُؤْنِهَا وَطَاعَةِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِهَا.

وهذه الشِرْذِمَةُ في خروجها على الدولة ونظامها لا تُؤثِّرُ على شيء من أمور الدولة المستقرّة الثابتة، ولا تُضَرُّ بِأَعْمَالِهَا إِلَّا أَنْفُسَهَا. ولا إشعار هذه الشِرْذِمَةُ المتمردة بَعْدَ تَأْثِيرِ تَمَرُّدِهَا على شيء من أنظمة الدَّوْلَةِ وَأُمُورِهَا الثابتة المستقرّة، قال الرئيس: إِنَّ شِرْذِمَةً جَحَدَتْ دَوْلَتَنَا، وَكَذَّبَتْ مَبْعُوثِينَا، وَبَلَغَاتِنَا، وَاتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهَا، فَلْتَعْلَمَنَّ أَنَّ دَوْلَتَنَا وَأَنْظَمَتَنَا وَكُلَّ أُمُورِنَا مُسْتَقَرَّةٌ مَحْمِيَّةٌ، لا يُؤثِّرُ على شيء منها أي خارج على نظامنا، ومُتَمَرِّدٌ على طَاعَتِنَا، وَحِينَ يَأْتِي وَفَتْ الحِساب والعقاب فَإِنَّا نَأْتِي بِكُلِّ خارجٍ منهم مَكْبَلًا بِالْحَدِيدِ مَسُوقًا، لِيَلْقَى جَزَاءَهُ، وهو لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْلِتَ مِنَّا.

أليس هذا الكلام مُنَاطَرًا لقول الله عز وجل بشأن الكافرين المعاندين ﴿وَكَذَّبُوا وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝ ٣٣﴾؟؟

إننا نفهم من هذا القول، أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ وَاتِّبَاعَهُمْ لِأَهْوَائِهِمْ لا يُغَيِّرُ من أنظمة الكون وقوانينه المستقرّة الثابتة شيئاً، ولا يُخْرِجُ شيئاً من مُسْتَقَرَّاتِ أُمُورِ الله عن استقراره، فلنْ يَضُرُّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَضُرُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، فكلُّ أَمْرٍ لله في كَوْنِهِ ثابت مُسْتَقَرٌّ، لا يُقْلِقُهُ ولا يُغَيِّرُهُ تَكْذِيبُ الْمَكْذِبِينَ، ولا تَمَرُّدُ الْمُتَمَرِّدِينَ. ولا اتِّبَاعُهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، مهما اجتمعوا لذلك وَحَشَدُوا كُلَّ قَوَاهِمِ.

إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا شَيْئاً مِنْ قَوَانِينِ الْكَوْنِ وَأَنْظِمَتِهِ، فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكُلُّ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ مُسْتَقَرٌّ، فَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً.

إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَمْنَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، لِأَنَّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَكُلُّ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ مُسْتَقَرٌّ، فَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً.

إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَمْنَعُوا ظُهُورَ دِينِ اللَّهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَكُلُّ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ مُسْتَقَرٌّ، فَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً.

إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَظْفَرُوا بِالْإِنْتِصَارِ أَخيراً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، فَقَدْ قَضَى اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَكُلُّ أَمْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ مُسْتَقَرٌّ فَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً.

وهكذا إلى سائر القضايا التي هي من أَمْرِ اللَّهِ في ظاهراتِ الْكَوْنِ، أو في قانون الاجتماع البشري، أو في تاريخ الناس مما هو من أوامر الله فيهم.

المكذبون الذين اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَعَصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً:  
فالذين كَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ لَا يَضُرُّونَ اللَّهَ شَيْئاً، وكذلك عصاة المؤمنين، وقد جاء التصريح بهذا المعنى في عدة نصوص قرآنية:

### النص الأول:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿فَإِنْ قَوْلُوا فَقَدْ أبلغتكم مَا أُرسلتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَنَخِلُفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿فَإِنْ قَوْلُوا﴾ : أي: فإن تتولوا مُدبرين .

إنَّ رَبِّي مُهَيِّمٌ بِسُلْطَانِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وهو عظيم الحفظ لكل شيء في ملكوت السماوات والأرض، فلا تَسْتَطِيعُونَ تغيير أي شيء من قوانينه، وأنظمته، وسُنَّته .

### النص الثاني:

قول الله عزَّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ .

### النص الثالث:

قول الله عزَّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً خطاباً لرسوله ﷺ بشأن المنافقين أو المرتدين :

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ .

### النص الرابع:

قول الله عزَّ وجل في سورة (مُحَمَّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ .



﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾: أي: ووقفوا موقف المحاربين الأعداء، في شقٍّ مُقابلٍ لشيءه، يُدَبِّرون المكايد ويمكرون.

﴿وَسَيَحِطُّ أَعْمَلَهُمْ﴾: أي: وسيبطل الله أعمالهم التي يُعِدُّونها ويكيدونها ضدَّ الرسول والذين آمنوا به واتبعوه.

### النص الخامس:

قوله الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً للذين آمنوا مُحذِراً لهم من التخلف عن الخروج إلى القتال ناصرين لرسوله، إذا أمروا بالخروج أمر إلزام:

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩).



قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (٤) **حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ** فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ (٥).

أي: وأؤكد أن المتحدث عنهم وهم كبراء كفار قريش إبان تنزيل السورة جاءهم من أخبار الأولين وقصصهم ما يكفي لازدجارهم عن كفرهم وعنادهم ومعاداة الرسول والذين آمنوا به واتبعوه، وازدجارهم عن اتباعهم أهواءهم.

فعل «جاء» يُستعمل لازماً، فتقول: جاء الرجلُ. ويستعمل مُتَعَدِّياً، فتقول: جاء النبا الرجلُ.

تقول: جاء يجيء جئاً، ومَجِيئاً، وجَيْئَةً، أي: أتى.

وتقول: جاءه يجيئه، بمعنى: جاء إليه.

وتقول: جاء بالشيء، أي: أتى به وأخضره.

والفعل في الآية هنا على التعدية.

﴿مَنْ الْأَنْبَاءُ﴾: الأنباء جَمْعُ «النَّبَأ» وهو الخبر، واشتقاقه من نَبَأ الشيء، إذا ارتفع وظهر، ففي الأنباء من عُموم الأخبار ما يُلَفِتُ الأنظار إليها، لارتفاع مضامينها، ولأهميتها، وكذلك أخبار الأولين التي جاءت في القرآن، فهي دَوَاتُ بُرُوزٍ وأهميّة، لما فيها من عِبَرٍ وعظايتٍ جليات.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: أي: ما فيه ازْدِجَار، على أَنَّ «مُزْدَجَرًا» مُصْدَر ميمي، وهذا أَحْسَنُ الوجوه، وأبعدها عن التكلّف، والمعنى ما فيه كَفٌّ وامتناع، فعله «ازْتَجَرَ» على وزن «افْتَعَلَ» مطاوع فعل: «زَجَرُهُ» وهو مثل «انزَجَرَ» في المعنى، تقول: زَجَرْتُهُ فانزَجَرَ، وازْتَجَرَ، وتَقَلَّبُ تاء «افتعل» دالاً، بَعْدَ الزاي، والدال، والدال، وبهذا صار فعل «ازْتَجَرَ» بصيغه «ازْدَجَرَ» والمصدر الميمي منه مُزْدَجَر.

الزجر: الكَفُّ، والمنع، والنهي، والنَهْرُ.

والازْدِجَارُ: الامتناع والامْتِثَالُ للزواجر.

﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾: بدل من «ما» في عبارة: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. أي: إيرادُ أنباءِ الأولين التي فيها مُزْدَجَرٌ لِمَنْ يتلقاها بوغي وعقلٍ ورُشْدٍ، هو من أساليب الدَّعْوَةِ والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحكيمة جداً، فهي في الحقيقة حكمةٌ بِالِغَةِ غاية ما يُمكنُ اتخاذه من أساليب حكيمة، تَدَوَّرُ على مِخْوَرِي الرَّغْبِ والرَّهَبِ في النفوس، لِمَا فيها من إثارةِ الخَوْفِ في عُمقِ النفسِ إثارةٌ تَجْعَلُ العاقلَ الرّشيدَ يَزْدَجِرُ.

فمن كَانَ لَدَيْهِ استعدادٌ ما للتأثر بما يُحَرِّكُ في النفس مركز الخوف لديها، وَسَمِعَ أنباءَ الأولين، وما جرى لهم من عقوبات ربّانيةٍ أَهْلَكَتْهُمْ إهلاكاً عامّاً، لاقُوا فيه عذاباً أليماً، بسبب كِبَرِهِم وعنادهم وكُفْرِهِم وطغيانهم، فلا بُدَّ أَنْ يَزْدَجِرَ عن كُفْرِهِ وطغيانه، وَيُقْلِعَ عن عناده وكِبَرِهِ.

**الحكمة في الأمور<sup>(١)</sup>:** وضعُ الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو مَعْرِفةً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُور السُّلوك الإرادي.

وتكون الحكمةُ باختيار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها من كُلِّ ذلك، لِمَا تُخْتَارُ له.

والله جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه، أحكَمُ الحاكمين، وأحكمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحكمته بالغَةُ الغاية دوماً في كُلِّ شيء.

**والحكيم:** هو الَّذي يَضَعُ الأشياء في مواضعها، وَيَخْتَارُ أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفَةِ، لما يُعْطِي أحسنَ نتيجة.

والسَّبب في كَوْنِ عَرْضِ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ، للاتعاظ والاعتبار بما جَرَى لهم بمقتضى سُنَنِ الله في عبادِهِ، حِكْمَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ بالغَةِ، أَنَّ مُعْظَمَ النَّاسِ يَضْعُفُ عندهم تأثير الإقناع الفِكْرِيّ وخِذِهِ، وَيَضْعُفُ عندهم تأثير التَّغْيِيبِ والترهيب عن طريق الكلمة والوَعْدِ والوَعِيدِ فقط، حَتَّى إِذَا شَاهَدُوا الْعَوَاقِبَ فِي غَيْرِهِمْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَشَاهِدَةُ لِلْعَوَاقِبِ بالغَةِ في التأثير بهم غاية ما يُمكنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ تَوْجِيهَ تَرْبَوِيٍّ، وَلَيْسَ فَوْقَهُ مِنْ وَسِيلَةٍ إِلَّا أَنْزَالُ الْعِقَابِ الفِعْلِيِّ، أو تقديم الثواب الفِعْلِيِّ، لِمَنْ يُرَادُ إِقْنَاعُهُ.

لَكِنْ هَذَا يَتَنَافَى مع حكمة الابتلاء لتحقيق الحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَالْجَزَاءِ، بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِهِ كُلِّهَا، وَهُوَ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي الْخُطَّةِ أَصْلًا.

فثبتَ أَنَّ عَرْضَ قِصَصِ الْمَهْلَكِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى القائمةِ شواهدِها في آثار دِيَارِهِمْ حِكْمَةٌ بالغَةٌ حَقًّا، أَي: بالغَةٌ غَايَةً ما يُمكنُ اتِّخَاذُهُ مِنْ وَسَائِلَ إِقْنَاعِيَّةٍ تَرْبَوِيَّةٍ ذاتِ تَأْثِيرٍ فِي الثُّفُوسِ المستعدة للتأثر بالمخيفات.

أَمَّا الْعُقُوبَاتُ الْجَزَائِيَّةُ التَّربَوِيَّةُ الَّتِي يُنْزِلُهَا اللَّهُ بِالْعَصَاةِ الْمُعَانِدِينَ، دُونَ

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر) حول الحكمة في القرآن المجيد.

إِهْلَاكِ عَامٍ، كَأَنْوَاعِ الرَّجْزِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَيَّامَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ وَمُتَابِعِيهِمْ فِي مِصْرَ، فَهِيَ تَدْخُلُ فِي قَائِمَةِ وَسَائِلِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، لِكَيْتَهَا تُصَنَّفُ ضِمْنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ، لَا ضِمْنَ الْوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِيَّةِ الْبَيَانِيَّةِ، فَتِلْكَ لَهَا تَصْنِيفٌ خَاصٌّ، فَيُظَلُّ عَرْضُ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ الَّتِي تُقَدَّمُ لِلْمُخَاطَبِينَ بِمَضَامِينِهَا عِبْرًا وَعِظَاتٍ، فِي مَجَالِ التَّوْجِيهِ وَالتَّضْحِيقِ الْبَيَانِيِّ حِكْمَةً بَالِغَةً.

وهذه القصص تُقَدَّمُ إِنْذَارًا بِالنَّظِيرِ مُفْرَوْنًا بِشَاهِدٍ تَارِيخِيٍّ مَأْخُوذٍ مِنَ الْوَاقِعِ، وَمَعَهُ أُدْلَةٌ إِثْبَاتِهِ، فَهَلْ فَوْقَ هَذَا وَسِيلَةٌ إِقْنَاعِيَّةٌ؟!.

لَكِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، مِنْ كِبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ الْقَوْلِيَّةِ، وَلَا بِعَرْضِ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ فِيمَا سَبَقَ إِنْزَالَهُ مِنْ سُورٍ، وَهِيَ السُّورَةُ التَّالِيَةُ:

● (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).

● (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).

● (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).

● (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول).

● (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول).

● (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وبياناً لعدم انتفاعهم بعرض طائفةٍ من قصص الأولين في هذه السُّورِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾: أَي: فَلَيْسَ لِلنُّذُرِ مَعَ وَفَرَّتْهَا غَنَاءٌ عِنْدَ هَؤُلَاءِ.

عبارة: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ تدلُّ على كلامٍ مطوَّيٍّ، والمعنى: فما

أُغْنَتْ هَؤُلَاءِ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ مِنْ نُذُرٍ، وَقَدْ كَشَفُوا عَنْ عِنَادٍ وَإِصْرَارٍ عَلَى الْبَاطِلِ شَدِيدَيْنِ، وَلَا تُغْنِيهِمْ مَعَهُمَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ النُّذُرُ، مَهْمَا كَانَ شَأْنُهَا، وَمَهْمَا كَانَ إِزْهَابُهَا وَتَخْوِيفُهَا، فَدَلَّ تَعْرِيفُ النُّذُرِ بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ الْكَمَالِيَّةِ، عَلَى كَمَالِ هَذِهِ النُّذُرِ بِبُلُوغِهَا غَايَةَ الْإِرْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ.

ومعنى: ﴿فَمَا تُغْنِي﴾ فَمَا تَكْفِي وَمَا تَنْفَعُ، يُقَالُ لَعَةً: أَغْنَى الشَّيْءُ إِذَا كَفَى وَيُقَالُ: مَا يُغْنِي عَنْكَ هَذَا، أَي: مَا يُجْزِي عَنْكَ وَمَا يَنْفَعُكَ.

﴿النُّذُرُ﴾: جمع «النَّذِير» وهو يأتي اسماً للإِنْذَارِ مُصْدَر «أَنْذَرَ» وَيَأْتِي بِمَعْنَى «الْمُنْذِر».

الإِنْذَارُ: هو الإخبار بالعواقب غير السَّارَّةِ، التي فيها شرٌّ، أو ضُرٌّ.

الْمُنْذِرُ: هو المخبر بالعواقب غير السَّارَّةِ.

وَإِذَا حَمَلْنَا لَفْظَ ﴿النُّذُرُ﴾ عَلَى مَعْنَيْنِهِ، طَبَقًا لِأَسْلُوبِ الْقُرْآنِ فِي اسْتِخْدَامِ اللَّفْظِ ذِي الْمَعْنَايِ الْمُتَعَدِّدَةِ فِي مَعَانِيهِ، مَا لَمْ تَكُنْ مُتَعَارِضَةً لَا تَجْتَمِعُ، كَانَ الْمُرَادُ: فَمَا تُغْنِي هَؤُلَاءِ الْإِنْذَارَاتُ وَلَا الْمُنْذِرُونَ، وَهَذَا مِنْ عَوَامِلِ وَفَرَةِ الْمَعْنَايِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

● قول الله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هَذِهِ آخِرُ فَقَرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ هَذَا الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، أَي: فَأَذِرْ وَجْهَكَ عَنْ هَؤُلَاءِ، وَوَلِّهِمْ دُبْرَكَ، وَأَنْصَرِفْ إِلَى دَعْوَةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُّوْسٍ مِنْهَا كَحَالَتِهِمْ.

التَّوَلَّى: أَمَرَ أَشَدَّ مِنَ الْإِعْرَاضِ فَلَا يُفَسَّرُ بِهِ، إِنَّهُ إِعْطَاءُ الدُّبْرِ، وَالْإِنْصِرَافُ لَشَأْنٍ آخَرَ، أَمَّا الْإِعْرَاضُ فَهُوَ إِعْطَاءُ عَارِضَةِ الْوَجْهِ، وَهِيَ صَفْحَةُ الْخَدِّ، وَالْمُرَادُ بِالْإِعْرَاضِ إِعْطَاءَ الْجَانِبِ دُونَ مُوَاجَهَةِ، أَمَّا التَّوَلَّى فَيَكُونُ بِإِدَارَةِ الظَّهْرِ لِلْمَتَوَلَّى عَنْهُ، وَإِعْطَائِهِ الدُّبْرَ مَعَ الْإِنْصِرَافِ.

فالإعراض وَسَطٌ بين المواجهة والتولي.

وَإِذْ انْكَشَفَ أَنَّ الْمَعْنِيِّينَ مِنْ كِبَرَاءِ كَفَّارِ قَرِيشٍ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مِئُوسٍ مِنْهَا، إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ، لِيَنْصَرِفَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَيُوجِّهَ جَهْدَهُ وَاجْتِهَادَهُ لِأَخْرِيَيْنَ يُزَجِّى أَنْ يُوجَدَ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَجِيبُ.

إِنَّ حَالَ هَؤُلَاءِ قَدْ تَصَلَّبَ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي صَارُوا فِيهِ قَوْمًا مِئُوسًا مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، فَقَدْ ظَهَرَ بِالْامْتِحَانِ وَالتَّجَرُّبَةِ، أَنَّهُمْ كَفَرُوا مُعَانِدُونَ مَكَابِرُونَ مُصِرُّونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ، مَهْمَا ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ يَا مُحَمَّدٌ، لَا مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَمِنْ الْخَيْرِ لَكَ، وَمِنْ تَوْفِيرِ الْجَهْدِ، وَعَدَمِ ضِيَاعِ الْوَقْتِ سُدًى، فِي مُتَابَعَةِ اجْتِنَابِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، أَنْ تَتَوَلَّى عَنْهُمْ مُذْبِرًا، وَتَنْصَرِفَ إِلَى مُجَاهَدَةِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَنْكَشِفْ بَعْدُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا انْكَشَفَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ.

وهذا التولي هُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي سُلُوكِ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ أَذْبَرَ وَانْصَرَفَ مُسْتَعْرِقًا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، وَمُعَانِدًا مَكَابِرًا.

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مِئُوسٍ مِنْهَا إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ النِّجْمِ/ ٥٣ مَصْحَفِ/ ٢٣ نَزُولِ) أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْإِعْرَاضِ فَقَطُّ عَمَّنْ تَوَلَّى، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا:

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾.

أي: أَعْطِ عَارِضَكَ فَقَطْ لِمَنْ أَعْطَاكَ ظَهْرَهُ وَتَوَلَّى، أَمَا مِنْ عَائِدٍ وَكَابِرٍ وَأَظْهَرَ عِدَاءً وَمُشَاقَّةً، وَوَصَلَ إِلَى حَالَةِ تَدْبِيرِ الْمَكَائِدِ، فَتَوَلَّى عَنْهُ.

وَمِنْ هَذَا التَّوْجِيهِ الْقُرْآنِيِّ: نَسْتَفِيدُ أَنَّ مَوْقِفَ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعَ غَيْرِ الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِ مَوْقِفًا مَتَوَسِّطًا لَا مَوْقِفًا مَكَافَأًا، يُقَابِلُ فِيهِ الْمَوْقِفَ بِنَظِيرِهِ تَمَامًا.

فلا يُقَابِلُ الْمُتَوَلَّى المَذْبِرَ بالتوَلَّى والإدبار، بل بِنِصْفِ هذا المقدار، والنصف هو الإعراض.

ولا يقابل الكافرين المكابرين المعاندين المكايدين، الذين دخلوا مرحلة المضايقة والأذى، وممارسة صُورٍ أُولَى من المقاومة وتدبير المكايد، بمثل أعمالهم، بل يقابلهم بالتوَلَّى والإدبار فقط، أو مع الانصراف عنهم، للاشتغال بقومٍ مطموعٍ في استجابتهم، لم تَصِلْ تجربتهم إلى مرحلة اليأس من استجابتهم.

وهكذا تعطينا دقائق البيانِ القرآني مَا ينبغي للدُّعَاةِ أَنْ يتحلَّوْا به، وما هو المطلوبُ منهم من سلوكٍ في سبيل الدُّعَاةِ إلى سبيل رَبِّهم.

وهذا من الحكمة التي أمر الله عزَّ وجل بها في الدعوة.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الأول من دروس سورة (القمر) وقد اشتمل على البيانات التالية:

(١) بيان أن عتاة مشركي مكة إِبَّان تنزيل السورة، قد وصلوا إلى مرحلة الأعراض عن آيَةٍ آيَةٍ يَرَوْنَهَا، وَعَدَمِ التأثير بها، والإصرار على موقفهم العِنَادِي المتعنت، واصفين الآيات العظمى بأنها سِحْرٌ مستمر.

(٢) بيان موقفهم من الرسول ورسالته، وهو موقف المَصِرِّ على التكذيب والعناد والمكابرة.

(٣) بيان موقفهم الحركي في تصرفاتهم، وهو اتباعهم أهواءهم المختلفة.

(٤) بيان أَنَّ اتِّباعهم أهواءَهُمْ لا يؤثر على أيِّ أمرٍ من أمور الله في كونه، فكلُّ أمرٍ مُستقرٌّ على فوق النظام الرِّبَّانِي، وهم لا يَضُرُّون إلَّا أنفسهم.

(٥) بيان أن موقفهم تجاه أعظم الزواجر البيانية البالغة، هو موقف متبلّد جسّ الخوف من العواقب الوخيمة المهلكة، التي أنزلها الله بكفار القرون الأولى.

(٦) بيان الموقف الذي ينبغي أن يُعَامِلَهُمُ الرّسول به وهو موقف التّوليّ عنهم للانصراف إلى مجاهدة غيرهم من الذين لم يصلّوا إلى حالة مَيُؤُوس منها.



(٧)

### التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو من (بعض الآية ٦ - ٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ ٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ  
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

● قرأ وزش، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي] بإثبات الياء في الوصل فقط. وقرأ البزي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.  
وقرأ باقي القراء العشرة بحذفها في الحالين ﴿الدَّاعِ﴾.

وهي وجوه عربية جائزة في النطق.

● وقرأ ابن كثير: [نُكْرٍ] بإسكان الكاف. وقرأ باقي القراء العشرة: [نُكْرٍ] بضم الكاف، وهما وجهان جائزان لغة والإسكان تخفيف.

● وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر ﴿خُشْعًا﴾ جمع «خاشع».



وقرأ باقي القراء العشرة: [خَاشِعًا] على الأفراد تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.

والقراءتان وجهان عريّان جائزان، وكلاهما فصيح، لأنَّ خُشْعًا جمع تكسير، بخلاف خاشعين، فلو جاءت القراءة خاشعين أبصارهم، لكان ينبغي حملها على لغة أكلوني البراغيث.

لكن جاءت ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾. والمعنى على القراءتين واحد.

**تمهيد:**

في هذا الدرس ذكر خمس لَقَطَاتٍ تَصْويرِيَّةَ بَيَانِيَّةَ تَصَوُّرٍ مقاطع من أحداثِ يومِ البعث، للحساب، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ:

**اللَّقْطَةُ الْأُولَى:**

دَعْوَةُ الدَّاعِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ النَّاسِ الْمَبْعُوثِينَ مِنْ أَجْدَائِهِمْ إِلَى شَيْءٍ شَدِيدٍ عَظِيمٍ، هُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ لِلْمَحَاكِمَةِ، وَفَضْلُ الْأَحْكَامِ، بِالِاسْتِنَادِ إِلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ أَوْ أَخْرَوْا.

**اللَّقْطَةُ الثَّانِيَّةُ:**

مَشْهَدُ خُشُوعِ أَبْصَارِ أَهْلِ الْحَشْرِ، خَاشِعِ الْبَصَرِ: هُوَ الَّذِي يَزْمِي بِبَصَرِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَخْفِضُ طَرْفَهُ.

**اللَّقْطَةُ الثَّالِثَةُ:**

خُرُوجُ الْمَبْعُوثِينَ مِنْ قُبُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِيرٌ.

**اللَّقْطَةُ الرَّابِعَةُ:**

إِقْبَالُ الْمَبْعُوثِينَ شَطْرَ مَكَانِ الدَّاعِي، يَغْدُونَ مُسْرِعِينَ خَائِفِينَ، يَمْدُونَ أَعْنَاقَهُمْ، وَيَخْفِضُونَ رُؤُسَهُمْ، وَيَنْظُرُونَ بَانْكَسَارٍ وَذُلٍّ وَخُشُوعٍ.

## اللقطة الخامسة:

تَزِيدُ الْكَافِرِينَ قَوْلَهُمْ: «هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ». أي: يَوْمٌ صَغْبٌ شَدِيدٌ، والمرادُ شِدَّةٌ ما فيه من مخاوف على الكافرين.

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُيسِّرُ اللَّهُ لَهُمْ أمور هذا اليوم، فهم لا يقولون: هذا يومٌ عَسِيرٌ.



● قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾.

أي: «أذكُر» أيُّها المتلقِّي لهذا البيان، بمعنى: ضَعِه في ذاكَرَتِكَ لتستحضرَه حيناً فحيناً مَا حَيَّيْتُ: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي مِنَ الملائكة بَعْدَ البعث، إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ شَدِيدٍ صَغْبٍ.

إِنَّ هذا الداعي مِنَ الملائكة الذي يصيح صيحةً واحدةً، يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى مَوْقِفِ الحِساب، وَفَضْلِ القِضاء، وَيَأْتِي بَعْدَهُمَا تَنْفِيذُ الجِزاء.

إِنَّهُ لَمَوْقِفٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ، عَظِيمُ المِخاطِرِ، تَرْجَفُ مِنْ هَوْلِهِ القُلُوبُ، إِلَّا مَنْ طَمَأَنَّهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ مِنَ الناجين مِنَ العذاب.

﴿إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾: قال أهل اللُّغة: التُّكْرُ والتُّكْرُ بضم الكاف وإسكانها، هُوَ الأمرُ الشَّدِيدُ الصَّغْبُ.

وموقف الحِساب لَفَضْلِ الحِكم يوم الدِّين، شَيْءٌ صَغْبٌ شَدِيدٌ على الكافِرِينَ والعُصاةِ المُسْرِفينَ على أَنفُسِهِمْ، وَمِنَ الحَقِّ أَنْ يُقالَ بِشَأْنِهِ شَيْءٌ نُكْرٌ.

وَيَدُلُّنا على أَنَّ دَعْوَةَ الدَّاعِي هَذِهِ تَكُونُ بَعْدَ البَغْثِ وَضَفَّ اللهُ عِزَّ وَجَلِّ لِحِظَاتِ البعث، بِأَنَّها لِحِظَاتٌ يَخْرُجُ فِيها النَّاسُ أَحْيَاءً فَإِذا هُمْ قِيامٌ

يَنْظُرُونَ، فَيَنْسِلُونَ، أي: يُسْرِعُونَ في اتِّجَاهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، كأنهم يُوفَضُّونَ (أي: يُسْرِعُونَ) سَعِيًّا إِلَى نُصْبٍ فِي أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ، كما كان المشركون في الدنيا يُوفَضُّونَ إِلَى مَعْبُودَاتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَانِ عِنْدَ الْمَخَافِ الْتِي لَا يَمْلِكُونَ دَفْعَهَا، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْوَصْفُ فِي عِدَّةِ نصوص:

● ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾: أي: من رُقَادِنَا، أو من مكان رُقَادِنَا. الرُّقَاد: التَّوْم.

ويمكن أن تكون الصيحة التي جاءت في هذا النص هي صيحة الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ.

● وفي سورة الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ سَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

فَالخُرُوجُ مِنْ حَالَةِ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ، فَالْوُقُوفُ وَالنَّظَرُ بِدَهْشَةٍ، كحَالَةِ الْمُسْتَقِظِ مِنْ نَوْمٍ يَجِدُ نَفْسَهُ فِي أَرْضٍ لَا عَهْدَ لَهُ بِهَا، أُمُورٌ سَابِقَةٌ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي، إِلَى الْأَمْرِ الْخَطِيرِ الصَّغْبِ الشَّدِيدِ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ.

● وفي سورة المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفَضُّونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿مِنْ الْأَجْدَاثِ﴾: أَجْدَاثُ: جمع «جَدَث» وهو القبر.

﴿كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفُضُونَ﴾: النُّصْبُ: حجارة كان المشركون يذبحون ذبائحهم عليها، وكل ما عُدَّ من دون الله من أصنام، قيل هو مفرد، وقيل: هو جمع.

● يُؤْفُضُونَ: يسرعون. والمعنى: كأنهم يُسرِعُونَ إلى معبودات مختلفات من الأصنام، في أماكن شتى، فكل فريق يسعى مُسرِعاً إلى جهة هائماً، لا يَدْرِي إلى أين يَسْعَى من فَرْطِ الدهشة والخوف.

وهذا يكون سابقاً لدعوة الداعي إلى شيء نُكِرَ، لأنهم إذا صاح بهم الداعي صيحة واحدة كانوا جميعاً عند ربهم مُخَضَّرِينَ.

﴿خُشَعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: مُنْكَسِرَةً يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ ذَلَّتِهِمْ، وَأَجْفَانُهُمْ مُنْخَفِضَةً.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ وَتَغْلُو حَوَاسَهُمْ ذِلَّةٌ.

فَدَلَّتْ هذه النُّصُوصُ بما تَضَمَّنَتْه من مفهومات، على أَنَّ دَعْوَةَ الداعي إلى شيء نُكِرَ تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ وَإِسْرَاعِ الْمَبْعُوثِينَ إِلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مِنْ دَهْشَتِهِمْ وَحَيْرَتِهِمْ فِي أَرْضِ الْقِيَامَةِ.



قول الله تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾.

﴿خُشَعًا﴾: جَمْعُ «خَاشِعٍ» وهو من يَزْمِي بَبْصَرِهِ نَحْوَ الْأَرْضِ، وَيَغْضُ طَرَفَهُ. وَيَقَالُ: خَشَعَ بَصَرُ الرَّجُلِ، يَخْشَعُ خُشُوعًا، أي: انْكَسَرَ.

وسبق توجيه قراءة [خَاشِعًا].

والمعنى: ضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي يَوْمَ يَدْعُ الداعي مَدْعُودِينَ مِنَ الْمَبْعُوثِينَ خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ، وليس هكذا يَكُونُ كُلُّ الْمَبْعُوثِينَ، بل يَكُونُ لِلْخَائِفِينَ مِنَ الْمَصِيرِ التَّعْيِيسُ.

خُشَعًا: مفعول به لفعل [يَذْعُو] وَنُزِّلَ ﴿خُشَعًا﴾ أو [خَاشِعًا] الوصف منزلة الموصوفين به، اكتفاء بالصفة.

﴿أَبْصَرُهُمْ﴾: فاعل لـ ﴿خُشَعًا﴾ أو [خَاشِعًا] إذ هو يعمل عمل فعله.  
﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾: الأظهر من جهة المعنى أن تكون هذه العبارة على الاستئناف، أي: هؤلاء الخائفون الخاشعة أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ مُنْتَشِرٌ.

جاء وصفهم بالجراد إشارة إلى أن نَوَيَاتِ أجسادهم في مدافنهم تَفْقَسُ عنهم، فينبُتُونَ ويكبرُونَ، ويخرجون، كما يخرجُ الجراد وينتشر، بعد أن تفقس عنه بيوضه.

إِنَّهُمْ حِينَ يُبْعَثُونَ، فَيَكُونُونَ قِيَامًا يَنْظُرُونَ، فيُسْرِعُونَ هائمين مُنْتَشِرِينَ في مختلف الاتجاهات، يكونون عند خروجهم من قبورهم مثل الجراد المنتشر الطائش.

وبعد أن يَنْتَشِرُوا وَيَتَوَرَّعُوا في الجهات، تَكُونُ لِقطة مَشْهَدِهِم كالفراش المبثوث، وهو ما جاء بيانه في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

وتجري الأحداث سَرِيعَاتٍ مُتَتَابِعَاتٍ حَتَّى كَأَنَّهُا تَحْدُثُ فِي وَفٍ واحد، دَلٌّ على هذا سَوْقُ الْجُمْلَةِ دُونَ حَرْفِ عطف، بينها.

● قول الله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾: أي: فإذا سَمِعُوا صيحة الداعي تَوَجَّهُوا له، وَأَسْرَعُوا إلى جهته يَغْدُونَ، بذلٌ وخضوع، يَمْدُونَ أعناقهم، ويخفضون رُؤُوسهم، وَيَنْظُرُونَ بَانِكِسَارٍ نَحْوِ الْأَرْضِ، وَيَغْضُونَ من أجفانهم.

مُهْطِعٌ: اسم فاعل من فعل «أَهْطَعَ» وجاء في معنى هذا الفعل عند

أهل اللغة: «أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ بَبَصَرِهِ فَلَمْ يَرْفَعْهُ - نَظَرَ فِي ذَلِكَ وَخُشُوعٌ - أَقْبَلَ مُسْرِعاً خَائِفاً - مَدَّ عُنُقَهُ وَصَوَّبَ رَأْسَهُ، أَي: خَفَضَهُ وَأَمَالَه - أَسْرَعَ فِي الْعَدُوِّ».

وكل هذه المعاني صالحة لتفسير: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ بها.

● قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾: أي: يُرَدِّدُ الكافرون قولَهُمْ: هذا يَوْمٌ عَسِيرٌ، أخذاً من الفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ الدال على التكرير المتجدد.

كلمة ﴿عَسِيرٌ﴾ مثل كَلِمَةِ «عَسِير» أي: هذا يَوْمٌ شَدِيدٌ صَغْبٌ على الكافرين.

ومن بيان أنها مقولة الكافرين عَلَى وجه التحديد، نفهم أَنَّ الدِّينَ آمَنُوا في الحياة الدنيا وَمَاتُوا على الإيمان لا يقولونها، لِأَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا عُصَاةً فَقَدْ ضَمِنُوا الجنة بوعد الله، ولو بعد أَنْ ينالوا ما يستحقُّون من عذاب على كبائرهم، ويطمعون في أَنْ يغفر الله لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ، أو أَنْ يخفَّفَ من عذابهم الذي يستحقُّونه بحَسَبِ ذُنُوبِهِمْ وَأَثَامِهِمْ.

يضاف إلى هذا أَنَّ الله جَلَّ جلاله وعَظَمَتْ رَحْمَتُهُ، يُيسِّرُ على المؤمنين أَمْرَ هذا اليوم العسير العَصِيب، وَهُمْ يَشْعُرُونَ بهذا منذ سَاعَةِ بَعْثِهِمْ.

ودلَّ على أَنَّ هذا اليومَ عَسِيرٌ على الكافرين فقط، قول الله عز وجل في سورة (المذثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۖ (٧) فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ يَسِيرٌ (١٠)﴾.

أي: أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُيسِّرُهُ اللهُ لَهُمْ.

وقول الله عز وجل في سورة (الْفُرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ .

### نظرة عامة حول هذا الدرس:

نلاحظ في هذا الدرس الثاني من دروس سورة (القمر) أن الله عز وجل قَدَّمَ لَنَا لِقَاطٍ مِنْ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْبَعْثِ .

● فَهْمٌ يَخْرُجُونَ مِنْ مَدَافِنِهِمْ كَالْجَرَادِ الَّتِي تَفْقِسُ عَنْهُ بَيُوضُهُ، وَيُسْرِعُونَ مُتَّشِرِينَ هَائِمِينَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ .

● وَحِينَ يَسْمَعُونَ الدَّاعِيَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَدْعُوهُمْ، يُسْرِعُونَ مُهْطِعِينَ، مُقْبِلِينَ شَطْرَ الْجَهَةِ الَّتِي دَعَاهُمْ إِلَيْهَا، خَاشِعَةً أَبْصَارَهُمْ مِنْ كَسْرِ أَجْفَانِهِمْ، يَزُمُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى جَهَةِ أَرْضِ الْمَحْشَرِ تَذُلًّا وَخُضُوعًا، وَيَخَافُونَ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، إِذْ هُمْ مَدْعُوُونَ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ شَدِيدٍ صَغْبٍ عَسِيرٍ .

● وَهُمْ فِي سَعِيهِمْ إِلَى الْجَهَةِ الَّتِي دَعَاهُمْ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا يُرَدُّونَ: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ .

وهذه اللَّقَاطُ الَّتِي أَبْرَزَهَا هَذَا الدَّرْسُ، قَدْ أَلْمَحَتْ إِلَى مَطَوِيَّاتٍ فِيمَا بَيْنَهَا، وَقَدْ اسْتَطَعْنَا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ اكْتِشَافَ بَعْضِهَا .

هذه اللَّقَاطُ هِيَ بِمِثَابَةِ مَنْ لَدَيْهِ شَرِيطُ صُورٍ مُشَاهِدٍ، فَشَتَّى بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَ فِي مَكَانِ الْإِرَاءَةِ الظَّاهِرَةِ مَقَاطِعَ مُنْتَقِيَّاتٍ، وَطَوَى فِي الْأَثْنَاءِ مَقَاطِعَ كَثِيرَةً، بَعْضُهَا يُمَكِّنُ الْاسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْرُوضِ مِنَ الشَّرِيطِ لِلنَّظَرِ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا يَضَعُ الْاسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ، لَكِنَّ نُصُوصًا أُخْرَى فِي الْقُرْآنِ قَدْ كَشَفَتْهُ، فَعَرَضَتْ مَقَاطِعَ أُخْرَى مُنْتَقِيَّاتٍ، وَطَوَتْ بَيْنَ الْمَثَانِي مَقَاطِعَ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ النُّصُوصَ الْمُتَعَدِّدَةَ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَهَا

تأليفاً مُتَلَائِماً، أمكنه أن يَمُدَّ من شَرِيْطِ المَشْهَدِ الطَّوِيلِ، ما يُحْسِنُ به التَّأْلِيفَ التَّنَابُعِيَّ بَيْنَ اللَّقَطَاتِ المَعْرُوضَاتِ فِي الإِرَاءَاتِ الْمُتَعَدِّدَاتِ المَوْزَعَاتِ فِي السُّورِ.

عندئذٍ يراها متكاملاتٍ غَيْرِ مُتَنَاقِضَاتٍ وَلَا مُتَعَارِضَاتٍ. وهذا الأسلوبُ القرآنيُّ هو من عناصر العُمُقِ فيه، ومن عناصر الإعجاز البديع، إذ هو كِتَابٌ حَقٌّ لَا يَأْتِيهِ الباطلُ من بين يَدَيْهِ وَلَا من خلفه، تنزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

ولعلَّنَا بهذا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ مَعْنَى وَضْفِ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ مِثْلَانِي، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزُّمَرِ/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣).

وبهذا نُنْتَهِي من تدبُّرِ الدرس الثاني على قدر الاستطاعة من دروس سورة القمر، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.



(٨)

### التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٩ - ٤٢) وفيه خمس فقرات

تمهيد:

هذا الدرس يشتمل على الإقناع بقانون الجزاء الربَّاني، والإنذار به، عن طريق عرض أمثلة تاريخية، من عقوبات الله العظمى، بالإهلال العام الشامل، لأقوام من كبار مجرمي الأمم السابقة. الذين كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا بِالْأَنْذَرِ الَّتِي أَنْذَرُوهُمْ بِهَا تَبْلِيغاً عن الله رَبِّهِمْ جَلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطَانُهُ.



وقد جاء عرض هذه الأمثلة في هذه السورة مصحوباً بموجزاتٍ من قِصصِهِمْ مع رُسُلِ رَبِّهِمْ، تحقيقاً لَهَدَفِ التذكير بتكذيب الأولين بالندر، وابتعاداً عن التكرار التطابقي، بتوزيع لقطاتٍ مختلفاتٍ من قِصصِ الأمم المهلكة، على جملة من سُور القرآن المجيد، بمناسباتٍ تستدعي التذكير بعقاب الله لهم، مع اختيار اللقطات الملائمات للأحوال التي وصل إليها القوم الذين كان التنزيل يُعالِجُهُمْ بالدرَجَةِ الأولى، وَيَرْسُمُ الله عز وجلّ لنا بذلك منهج العلاج الأحسن والأقوم للذين نوجّه لهم أساليب الدّعوة إلى سبيل ربّنا، ومنهاج دينه القويم.

واشتمل هذا الدرس على خمس فقرات سبق ذكرها لدى بيان دُروس السورة، وهي تتعلّق بموجزاتٍ من إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط عليهم السلام، والفقرة الخامسة تتعلّق بإهلاك فرعون وآله وجنوده، وهم بَعْضُ قَوْمِ مُوسَى وهارون عليهما السلام.

وبِفَنِيَّةٍ بديعة فصل الله عز وجل بين الفقرات بآية:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝١٧﴾

فجاءت مُكرَّرَةً أَرْبَعَ مَرَّاتٍ للإشارة إلى أنّه دُرُسٌ واحدٌ من خمس فقرات، وقد فضله الله عز وجل تيسيراً للذكر على طريقة الله في القرآن الذي يَسِّرُهُ كُلُّهُ للذكر.

### أولاً: الفقرة الأولى إهلاك قوم نوح عليه السلام الآيات من (٩ - ١٧)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا

فَالْنَفَىٰ أَلَمَاءٌ عَلَىٰ أَمْرِ قَدْ قُدِّرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلَتْهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّىٰ بِأَعْيُنِنَا  
جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي  
وَنَذِيرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ﴿١٧﴾ ❖

● قرأ ابنُ عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [فَفَتَحْنَا] بتشديد التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَفَتَحْنَا﴾ بتخفيف التاء.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، إذ هُما على التوزيع في الأزمنة والأمكنة، فالمبالغة التي دلَّ عليها التشديد تناسب قِسْماً من الحَدَث، والقراءة الأخرى بالتخفيف تناسب قِسْماً آخر من الحدث.

● وقرأ ابن كثير، وابنُ ذكوان، وشعبة، وحمزة [عِيُوناً] بِكَسْرِ الْعَيْنِ.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عِيُوناً﴾ بضم العين.

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائزان.

● أثبت الياء في الوصل من كلمة: ﴿وَنَذِيرٍ﴾ وَزَشْ، فقال في الوصل [فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي وَلَقَدْ يَسَّرْنَا].

وأثبت هذه الياء في الوصل والوقف، يعقوب فقرأ في الحالين: [وَنَذِيرِي] وحذَفَ هَذِهِ الْيَاءَ فِي الْحَالَيْنِ باقي القراء العشرة.

وإثبات ياء المتكلم وحذفها في التثنية وجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائزان، وَيَكْثُرُ في القرآن حذفها للإيجاز، ولدواعٍ جماليةٍ في اللفظ.

هذه الفقرة تُقدِّمُ بإيجازٍ بَيَانَ بعضِ مَشَاهِدٍ من أحداثِ إهلاكِ الله لِقَوْمِ نُوحٍ عليه السَّلامِ بالإغراقِ الشَّامِلِ الرَّهيبِ.

وقبل هذه الفقرة بشأن قوم نوح عليه السلام، جاء نَصَانِ مقتضبان:

النص الأول: قول الله عز وجل في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣

نزول):

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ .

النص الثاني: قَوْلُ اللَّهِ عز وجل في سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤

نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ ثَبَّاجٍ كُلُّ كَذَّابٍ الرَّسُلَ فَقَوْ وَعِيدٍ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: فحق ما أُنذَرْتُهُمْ بِهِ مِنْ وَعِيدٍ بِالْإِهْلَاكِ فَأَهْلَكْتُهُمْ .

ومَا جَاءَ فِي سُورَةِ (القمر) قَدْ جَاءَ مَبْنِيًّا عَلَى الْبَيِّنَاتِ السَّابِقِينَ فِي

نجوم التنزيل، الَّذِينَ جَاءَ فِي سورتَي: (النجم) و (ق).

● قول الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ : أي: كَذَّبَتْ قَبْلَ

كبراء مشركي قريش المعاندين المكابرين المصرين على كُفْرِهِمْ، قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام .

هذه الجملة قد جاءت في النص الذي في سورة (ق) لكن لم يأت

في سورة (ق) بيان أي تفصيلٍ عن تكذيب قوم نوح عليه السلام، فجاءت

سورة (القمر) تُعْطِي شَيْئاً مِنَ التَّفْصِيلِ، إِذْ جَاءَ فِيهَا:

● قول الله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْثُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾﴾ .

فجاء في هذا النص بيان ثلاث قضايا مفرعة بالفاء لتفصيل البيان

المجمل في: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ :

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ : أي:

فَكَذَّبُوهُ فِي أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ بَلَاغَاتٍ عَنْ

رَبِّهِ، وَكَذَّبُوا بِالْوَعِيدِ الَّذِي أُنْذِرُهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

وَشَرَّفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نوحاً بقوله: ﴿عَبَدْنَا﴾ فأبان بهذا أَنَّ نوحاً عليه السلام قد كان متحققاً بعبوديَّته الصَّادِقة لعظَمة رُبوبيَّة الله جلَّ جلاله.

القضيةُ الثَّانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تعالى: [وَقَالُوا مَجْنُونٌ] أي: وقال قومه الذين كذبوه: هذا رجلٌ مَجْنُونٌ، مريضٌ بداء الجنون.

هذا الاتهام بالجنون ذريعةٌ يُلجأُ إليها كُبراءُ كُفَّارِ قومِ كُلِّ رَسولٍ، حينما تَدْمَعُهُمُ الحججُ البرهانية، ولا يَجِدُونَ حُجْجاً صحيحةً يَدْفَعُونَ بها حجج رُسُلِهِمُ العقليةَ المنطقية، وَيَخْرِصُونَ على أَنَّ يَسْتَرُوا عَجْزَهُمْ عن أَتْبَاعِهِمْ من عَامَّةِ قَوْمِهِمْ، فَيُطْلِقُونَ على رُسُولِهِمْ عبارة: مجنون. وتُرَدِّدُها جماهيرهم تَزِيداً ببغائياً، ظانين أَنَّ رُسُولَهُمُ الذي يدعُوهم إلى الإيمان بربِّهم ونَبذِ الشُّرَكِيَّاتِ الَّتِي كان عليها آبائهم وأجدادهم، والبُعْدُ عن السُّلُوكِيَّاتِ الَّتِي فيها ظلمٌ وعُدوان، وبغيٌ وطغيانٌ، وفُخْشٌ وخُسران، هو مجنونٌ فعلاً كما قال لهم قادتُهُمْ وأئِمَّتُهُمْ.

والإتهامُ بالجنونِ شتيمةٌ يُلجأُ إليها كُلُّ مُفْتَرٍ مُراوِغٍ مُجرِمٍ مخاصمٍ بُفْجور، لا يَمْلِكُ قُدْرَةً على مِقَارَعَةِ الحِجَّةِ بالحِجَّةِ المِكَافَةِ، والمنطقِ العقلِيِّ بمنطِقِ عَقْلِيٍّ مثله.

القضيةُ الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَذْجِرَ﴾ أي: ومنَعَ من مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ إلى رَبِّهِ، وانْتَهَرَ بعُنْفٍ مصحوبٍ بتهديد.

وقد دَلَّ على تَهْدِيدِهِ بالقتل رجماً بالحجارة، قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الشُّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن نوحٍ عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١١٦): أي: لَنَرْجُمَنَّكَ أَنْتَ وَمَنْ آمَنَ بِكَ وَاتَّبَعَكَ.

وكان هذا الزَّجْرُ المصحوبُ بالتَّهْدِيدِ بالرجم، في أواخرِ حياةِ نوحٍ مع كُفَّارِ قَوْمِهِ، قَبْلَ إهلاكِهِمْ بِالغَرَقِ الذي جاءهم به الطوفان.

الرَّجَرُ فِي اللُّغَةِ: المنعُ والنهي والانتِهَارُ، وازْدَجَرَهُ، أي: أسرف واشتدَّ عليه في ذلك، أضل فعل «ازْدَجَرَ» هو «ازْتَجَرَ» على وزن «افتعل» من فعل «رَجَرَ». قُلِبَتِ التاء دالاً لوقوعها بعد الزاي، وهو قياس مطرِد في صيغة «افتعل» ممّا فاء كلمة الفعل فيه: «زاي - أو دال - أو ذال».

### هل كان نوح عليه السلام أول رسل الله للناس؟

للعلماء في هذه المسألة رأيان:

● فالذين يرون أنّ نوحاً عليه السلام أول الرسل، أخذوا بظاهر حديث الشفاعة يؤوّلون التّصوُّص التي تدلُّ على خلاف هذا الرأي تأويلات لا يخلو بعضها من التعسف.

وحديث الشفاعة عند البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه في بعض رواياته قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فيقولون: أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ اللَّهَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ويقول: اثْنُوا نُوحاً أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، اثْنُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، فَيَأْتُونَهُ، فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، اثْنُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، اثْنُوا عِيسَى، فَيَأْتُونَهُ، فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، اثْنُوا مُحَمَّدًا - ﷺ - فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَقَالُ لِي: ازْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُغْطَهُ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَاذْفَعْ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحْدُثُ لِي حَدّاً...» إلى آخر الحديث.

وجاء في روايات أخرى عند البخاري ومسلم ليس فيها أن نوحاً عليه السلام أول رسول بعثه الله .

● والذين يرون أن نوحاً عليه السلام ليس أول رسول بعثه الله للناس يستدلون بقول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧).

فهذا النص يدل دلالة ظاهرة على أن قوم نوح كذبوا رسلاً، لا رسلاً واحداً، وإخراج هذا النص القرآني عن ظاهره، يحتاج إلى تأويل متكلف، وأهون منه تأويل ما جاء في بعض روايات حديث الشفاعة .

فروايات أحاديث الشفاعة لم تذكر من الرسل إلا أولي العزم العظام، (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام) ويمكن حمل عبارة: «اثتوا نوحاً أول رسول بعثه الله» في بعض الروايات، على أنه أول الرسل العظام من أولي العزم، بدليل أن الرسل كثيرون. ولم يجز التوجيه في كل روايات الحديث لغير أولي العزم من الرسل.

وبقي بهذا قول الله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ على ظاهره، ونفهم منه أن قوم نوح قد تتابعت عليهم رسل وأنبياء متعبدون، وكان نوح عليه السلام آخرهم، أو كان مع نوح في مراحل دعوته الأولى لقومه رسل، كما كان هارون مع موسى عليهما السلام، وقضى هؤلاء الرسل آجالهم، وبقي نوح عليه السلام في قومه حتى الطوفان، فما بعده، وهو الذي خصه الله عز وجل بالذكر.

ويرجح هذا الفهم أن إدريس عليه السلام (= خنوخ وعرب أخنوخ) من المرسلين، وأنه كان قبل نوح عليهما السلام عند أكثر العلماء المحققين .

وَيُرْجَحُ هَذَا الْفَهْمُ أَيْضاً أَنَّهُ قَدْ ثَبَّتَ فِي نصوص القرآن المجيد، أَنَّهُ ما من أُمَّةٍ في تَارِيخِ النَّاسِ إِلَّا جَاءَهَا نَبِيٌّ رَسُولٌ أَمَرَهَا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ الطَّاعُوتِ، وَحَذَرَهَا وَأَنْذَرَهَا بِعَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، مع احتمال معاقبتها بعذابٍ مُهْلِكٍ في الدُّنْيَا، إِذَا قَضَتْ حُكْمَهُ اللَّهُ بِإِبَادَتِهِمْ.

● فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤).

أي: وَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ إِلَّا مَضَى فِيهَا نَبِيٌّ رَسُولٌ بَعَثَهُ اللَّهُ مُبَلِّغًا مَطْلُوبَهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمَمْتَحِنِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمُبَشِّرًا لِمَنْ اسْتَجَابَ وَأَطَاعَ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ، وَمُنْذِرًا لِمَنْ أَبَى وَعَصَى بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ مَنْ جَاءَ قَبْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأُمَمِ.

● وقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (التَّحْلُ/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٦).

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾: أي: فَمِنْهُمْ مَنْ حَكَّمَ اللَّهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ، بِالِاسْتِنَادِ إِلَى مَا قَدَّمَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾: أي: وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ وَثَبَّتْ عَلَيْهِ عَقُوبَةُ ضَلَالَتِهِ الْمُعْجَلَةِ، إِضَافَةً إِلَى عُقُوبَتِهِ الْمُؤَجَّلَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، بِالِاسْتِنَادِ إِلَى مَا قَدَّمَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ مِنْ كُفْرٍ وَعُصْيَانٍ، وَبَغْيٍ وَعُدْوَانٍ، وَتَكْذِيبِ لِرُسُلِ الْمَلِكِ الدِّيَانِ.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾: أي: مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ

الأولى، فَأَنَارُ إِهْلَاكِهِمْ وَتَدْمِيرُ دِيَارِهِمْ بَاقِيَةٌ تَدُلُّ عَلَى انْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ بِالْإِهْلَالِ الشَّامِلِ.



● قول الله عز وجل: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ (١١).

أي: فدعا نوح عليه السلام عَقِبَ زَجْرِهِ بِشِدَّةٍ، وَتَهْدِيدِهِ بِالْقَتْلِ رَجْماً بالحجارة إِذَا لَمْ يَكْفُفْ عَنْ مُجَاهَدَتِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ، وَكَانَ قَدْ صَبَرَ عَلَيْهِمْ صَبْرًا طَوِيلًا جَدًّا قُرُونًا مُتَتَابِعَةً بَلَغَتْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ جَادُّونَ فِيمَا هَدَّوْهُ بِهِ، دَعَا رَبَّهُ بِأَنِّي مَغْلُوبٌ فِي دَعْوَتِي لِقَوْمِي، لَمْ أَظْفَرْ مِنْهُمْ بِمُسْتَجِيبِينَ لِلَّذِينَ الَّذِي أَمَرْتَنِي يَا رَبِّ بِأَنْ أُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ غَيْرَ الْقِلَّةِ الْقَلِيلَةِ جَدًّا، وَمَغْلُوبٌ فِي مَجَالِ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِي، إِذْ رَجَرْتَنِي كِبَرَاءَ قَوْمِي بِشِدَّةٍ عَنِ الْاسْتِمْرَارِ فِي دَعْوَتِي، وَهُمْ أَصْحَابُ قُوَّةٍ لَا أَمْلِكُ بِقَوَائِي التَّغْلِبَ عَلَيْهَا، أَوْ مُقَاوَمَتَهَا، فَانْتَصِرَ يَا رَبِّ لِدِينِكَ وَلِرَسُولِكَ.

وَطَوَى النَّصْرَ أَخْدَانًا كَثِيرَةً لَمْ يَأْتِ فِيهِ ذِكْرُهَا، مِنْهَا أَمْرُ اللَّهِ لَهُ بِأَنْ يَضَعَ الْفُلْكَ، وَمِنْهَا سُخْرِيَةٌ مَلَأَ قَوْمَهُ مِنْهُ كُلَّمَا مَرُّوا عَلَيْهِ وَهُوَ يَضَعُهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْدَاثٍ<sup>(١)</sup> إِذْ افْتَضَّتْ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ التَّرْبَوِيَّةُ تَوْزِيعَ لِقَطَاتِ قِصَّتِهِ عَلَى مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَإِنْزَالَهَا مِنْجَمَةً عَلَى مَرَاكِلِ مِنْ سَيْرِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِقَوْمِهِ.

وفي هذا تعليم للدعاة إلى دين الله كَيْفَ يُبَلِّغُونَ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُونَ، وَكَيْفَ يُرَبُّونَ.

● قول الله عز وجل: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (١١) وَفَجَرْنَا

(١) انظر كتاب «نوح عليه السلام وقومه في القرآن» للمؤلف وهو يشتمل على كل النصوص القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع مع نظرات تدبرية تكاملية.



الْأَرْضَ عَمُونًا فَأَلْقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾  
تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنِ كَانَ كُفْرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ  
كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ .

في هذا النص بيانٌ تسع قضايا أوجزت الحدث العظيم، الذي أغرق الله عز وجل به كفار قوم نوح عليه السلام، إيجازاً فنياً بديعاً، مع التنبية على العبرة الجليلة التي يجب أن ينتفع بها كفار القرون اللاحقة، فيتعظوا بها، ويخموا أنفسهم من أمثالها بالإيمان والعمل الصالح، وأتباع الرسول فيما جاء به عن ربه.

تحدث الله في هذا النص بضمير المتكلم العظيم، الدال على عزة ربوبيته، وسلطان جبروته وقهره.

**القضية الأولى:** دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾: مُنْهَمِرٍ: أي: مَنْصَبٌ بِشِدَّةٍ وَتَتَابَعٍ.

أي: استجبنا لدعاء نوح، فأَجَرَيْنَا الأحداث التي أغرقنا بها كفار قومه، ونَصَرْنَاهُ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِتَدْبِيرِنَا الْحَكِيمِ، وَعِنَايَتِنَا الْمُرَافَقَةِ لكل صغيرة وكبيرة، بَدْءاً مِنْ أَمْرِنَا لَهُ بِأَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ، حَتَّى غَايَةِ رِحْلَتِهِ الْبَحْرِيَّةِ وَرُسُو الْفُلْكِ، وَهَبُوطِ رِكَابِهِ عَلَى أَرْضٍ طَيِّبَةٍ مُبَارَكَةٍ، وَقَدْ تَمَّ إِغْرَاقُ الْكَافِرِينَ.

وجاء التعبير البديع عن إنزال الأمطار الغزيرة بعبارة: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾: فدل هذا التعبير على أَنَّ السَّمَاءَ كَانَتْ بِمِثَابَةِ خَزَانٍ عَظِيمٍ، مَلِيءٍ بِالْمَاءِ الْمِثَابَةِ فِي سَعَتِهِ وَكَثْرَةِ الْمَاءِ فِيهِ بِبَحْرِ وَاسِعٍ كَبِيرٍ عَلَى قَدْرِ السَّمَاءِ، وَلِهَذَا الْخَزَانُ أَبْوَابٌ مُوزَّعَةٌ عَلَى سَاحَةِ السَّمَاءِ.

وفتح الله جلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، هَذِهِ الْأَبْوَابَ الْكَثِيرَةَ الْمُنْتَشِرَةَ

كَعُيُونِ الْغُرَابِيلِ، فَاِنَّهَمَرَتِ الْمِيَاهُ عَلَى مَقَادِيرِهَا، مُنْصَبَةً كَأَنَّهَا شَلَالَاتٌ مُوزَّعَاتٌ تَوْزِيعاً مُنْتَظِماً عَلَى مَوَاقِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ.

إنها لَصُورَةٌ تَمَثِيلِيَّةٌ رَائِعَةٌ، تُقَدِّمُ بِصِدْقٍ فَنِّي مَا يَشْعُرُ بِهِ مُشَاهِدُ الْمَشْهَدِ بَعِيداً عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي دَاخِلِهِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾: فَجَّرَ الشَّيْءُ: أَي: جَعَلَ الشَّيْءَ يَنْبَعِثُ مِنَ الْبَاطِنِ إِلَى الظَّاهِرِ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ. فَتَفْجِيرُ عُيُونِ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ، جَعْلُ الْمَاءِ يَخْرُجُ مِنْ ثُقُوبِ الْأَرْضِ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، فَيَذْفَعُ كُلُّ تَالٍ مِنْهُ السَّابِقَ لَهُ دَفْعاً قَوِيّاً، مَا دَامَتِ الدَّفَقَاتُ الْمَائِيَّةُ تَخْرُجُ مِنَ الثُّقُوبِ وَالشُّقُوقِ بَتَّابِعٍ.

والتعميم في إسناد التفجير إلى كُلِّ الْأَرْضِ، يُوجِي فِي دَلَالَتِهِ الْأُولَى، بِأَنَّ سَطْحَ الْأَرْضِ كُلَّهُ قَدْ تَفَجَّرَ مَاءً، وَجَاءَ لَفْظُ «عُيُونًا» عَقِبَهُ تَمَيِّزاً، فَحَدَّدَ الصُّورَةَ الَّتِي تَمَّ تَفْجِيرُ الْأَرْضِ عَلَى وَفْقِهَا، وَهِيَ صُورَةُ عُيُونٍ مَائِيَّةٍ مُتَفَجِّرَةٍ مُوزَّعَةٍ عَلَى كُلِّ مَسَاحَةِ الْأَرْضِ، كَعُيُونِ الْغُرَابِيلِ، وَالْغَرَضُ الدَّلَالَةُ عَلَى كَثَرَةِ الْعُيُونِ الْمُتَفَجِّرَةِ، الَّتِي يَتَخَيَّلُ مَعَهَا النَّازِرُ أَنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا تَحَوَّلَتْ عُيُوناً مَائِيَّةً مُتَلَاصِقَةً تَتَفَجَّرُ.

وَلَا أَحِبُّ هُنَا مُتَابَعَةَ النَحْوِيِّينَ فِي قَوْلِهِمْ: أَي: وَفَجَّرْنَا عُيُونِ الْأَرْضِ، فَقَوْلُهُمْ هَذَا يُلْغِي دَلَالََةَ الصُّورَةِ الْبَلَاغِيَةِ الْأَدْبِيَّةِ الرَّائِعَةِ، وَيَجْعَلُ التَّعْبِيرَ صِيغَةً مِنْ صِيغِ تَحْوِيلِ الْمَفْعُولِ بِهِ إِلَى تَمَيِّزٍ. مَعَ أَنَّ الْعِبَارَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ كُلَّ مَوْقِعٍ فِي الْأَرْضِ عَيْناً تَتَفَجَّرُ مَاءً مُتَدَفِّقاً، لَا أَنَّهُ جَعَلَ الْعُيُونِ الَّتِي فِيهَا تَتَفَجَّرُ وَتَتَدَفَّقُ، وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الدَّلَالَتَيْنِ، وَهَذَا الْفَرْقُ يَدْرِكُهُ أَصْحَابُ الْحَسَنِ الْأَدْبِيِّ الرَّفِيعِ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ فَهْمِ الْجُمْلَةِ وَفَقِ اسْلُوبِ التَّضْمِينِ، الَّذِي يَكُونُ تَأْوِيلُهَا مَعَهُ كَمَا يَلِي: وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عَلَى امْتِدَادِ سَطُوحِهَا، فَجَعَلْنَاهَا عُيُوناً مَائِيَّةً مُتَدَفِّقَةً.

ولا مانع أيضاً من اعتبار «عيوناً» نائباً مناب مفعول مُطلق مبيّن لنوعه،  
والتقدير: وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ تَفْجِيرًا عَيُونًا، أي: فَنَوَّعُ التَّفْجِيرَ كَانَ بِبَعْثِ  
العيون المتدفقة، ونظيره: خَطَّتْ الْقُمَاشُ سِراويل، وَقَطَّعْتُ اللَّحْمَ إِرْبًا إِرْبًا.  
ولا شك أن إبقاء النَّصِّ مُوحياً بدلالته الأدبية البلاغية الرائعة خَيْرٌ من  
التأويل الذي يُلغِي منه هذه الدلالة.

**القضية الثالثة:** دلّ عليها قول الله عز وجل: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۖ﴾ (١٧): أي: فالتقى دون تراخ في الزمن الماءان: الماء المنهمر من  
السّماء، والماء المتفجر عيوناً من الأرض، على أمرٍ من أمورِ اللَّهِ  
الحكيمة، قَدْ قُضِيَ بقضاء اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ قُدِرَ بتقديره لكل عناصره  
وصفاته.

وجاء الاستغناء بلفظ الأمر عن القضاء، لأنّ الله عز وجل لا يأمرُ بأمرٍ  
إيجادٍ أو إعدامٍ إلّا إذا قضاؤه وَبَتَّ القرار به، فالأمرُ بقول: «كُنْ» من العزيز  
القهار، تابعٌ للقضاء، وقضاء الله جلّ جلاله مُسْبِقٌ بتقديره لكل صغيرٍ  
وكبيرٍ ممّا قضاؤه وَفَقَ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ.

فاقتضت الحكمة البيانية الإغلامَ بأنّه قَدْ قُدِرَ، وجاء ختم الجملة  
بعبارة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ منظاراً لرؤوس الآيات في هذه الفقرة، وبفتية رائعة، فيها  
إيجازٌ وإبداع، وَوَقَعَ مُحَبَّبٌ على الأسماع.

وجاء فعل ﴿قُدِرَ﴾ مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله إيجازاً، للعلم به بداهةً،  
إذ لا أحد يُقَدِّرُ مثل هذه المقادير إلّا اللَّهُ عز وجل. وجاء مؤكداً بلفظ  
﴿قَدْ﴾ الدالّ على تحقق ثبوت الخبر الذي تضمّنه البيان، لرفع توهم أن ما  
حَدَّثَ ظاهرةً من الظواهر الكونية الطبيعية، كما يزعم الدهريون الطبيعيون.  
أي: نُوَكِّدُ لَكُمْ أَنَّ انْهِمَارَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، وَتَفْجَرُهُ مِنَ الْأَرْضِ عَيُونًا أَمْرٌ  
قَدْ قُدِرَ بالتقدير الدقيق الحكيم الشامل لكل الدقائق والتفاصيل، قَبْلَ الْأَمْرِ

به إيجاداً، وَقَبْلَ قَضَائِهِ وَإِمَاضَائِهِ، وظاهرٌ أَنَّ خبراً من هذا القبيل يحتاج تأكيداً، لدفع الأوهام والشُّكوك.

فما هي الغاية من الأمر العظيم الذي قَدْ قُدِرَ والتَّقَى الماء على تَحْقِيقِهَا؟

إِنَّ الذَّهْنَ لَيَسْتَدْعِيهَا بِدَاهَةِ، ولو لم تُذَكَّرْ في النصِّ، إِنَّهَا إِهْلَالُ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، وَرَجَرُوهُ، وَتَوَعَّدُوهُ بِأَنْ يَرْجُمُوهُ إِذَا لَمْ يَكُفَّ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى دِينِ رَبِّهِ مُجَاهِداً مُجَادِلاً.

وفي عبارة: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ من إبداع وفنيته مَا يُبَيِّرُ قِمَّةَ الْعَجَبِ، إِذْ لَمْ يَأْتِ التَّعْبِيرُ عَنْ أَهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ بِالْأَسْلُوبِ الْمُبَاشَرِ، بَلْ بِالرَّمْزِ وَالْإِشَارَةِ وَاللَّمَحِ، وَاقْتَضَى التَّغْيِيرَ بِإِنْهَامِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، وَتَفْجِيرِهِ مِنَ الْأَرْضِ عُيُوناً، اسْتِذْعَاءً لِلتَّسَاوُلِ عَنِ الرَّابِطِ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ، وَالتَّسَاوُلِ عَنِ الْغَايَةِ مِنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ الْبَيَانُ عَلَى مِقْدَارِ تَشَوُّفِ نَفْسِ الْمُتَلَقِّي وَتَسَاوُلِهَا، أَيْ: إِنَّ التَّقَاءَ الْمَاءِ الْمُنْهَمَرِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْمَاءِ الْمَتَفَجِّرِ مِنَ الْأَرْضِ، قَدْ كَانَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، فَهُمَا آيَتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ التَّقَاتِ عَلَى تَحْقِيقِ أَمْرِ مِنْ أُمُورِ اللَّهِ قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ، وَأَنْجَزَ تَنْفِيزَهُ بِالتَّكْوِينِ.

أما بيان هذا الأمر فلا لزوم للتصريح به:

● أَلَمْ يَدْعُ نُوحٌ رَبَّهُ، أَتَيْ مَغْلُوبٌ فَانْتَصَرَ، وَقَدْ انْتَصَرَ اللَّهُ لَهُ، فَعَلَى مَنْ يَنْتَصِرُ؟ وَمَاذَا يُحَقِّقُ فِي هَذَا الْإِنْتِصَارِ، إِذَا مَلَأَ الْأَرْضَ مَاءً بِمَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَبِمَا فَجَّرَ مِنَ الْأَرْضِ؟

لَا شَكَّ أَنَّهُ إِهْلَاكُ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا وَطَغَوْا، بِالطُّوفَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ مُغْرَقِينَ.

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ۖ﴾ (١٣): أَيْ: وَحَمَلْنَاهُ لِتُنْجِيهِ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ عَلَى مَرْكَبَةٍ بِخَرِيَةٍ تَطْفُو عَلَى الْمَاءِ، وَتَجْرِي فِيهِ.

وَلَمْ يَأْتِ التَّغْيِيرُ عَنْ هَذِهِ الْمَرْكَبَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي هَذَا التَّصَرُّ بِاسْمِ السَّفِينَةِ، أَوْ الْفُلِّكِ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ الْكِنَايَةُ عَنْهَا بِذِكْرِ الْأَشْيَاءِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي صُنِعَتْ مِنْهَا، وَهِيَ الْأَلْوَحُ الْخَشَبِيَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا نُوحٌ النِّجَارُ الْمَاهِرُ بِنَفْسِهِ، مَتَّبِعاً إِرْشَادَاتِ الْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ لَهُ، وَالذُّسْرُ.

الذُّسْرُ: هِيَ الْمَسَامِيرُ الَّتِي تُثَبَّتُ بِهَا الْأَلْوَحُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَهِيَ أَيْضاً الْخِيوطُ وَالْجِبَالُ اللَّيْفِيَّةُ الَّتِي تُشَدُّ بِهَا الْأَلْوَحُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ. وَقَدْ يُصَاحَبُ ذَلِكَ غَمْسُ الْأَلْوَحِ وَالذُّسْرُ بِمَا يَمْنَعُ تَسَرُّبَ الْمَاءِ إِلَى دَاخِلِ السَّفِينَةِ، وَلَا يَنْتَحِلُ بِالْمَاءِ كَالزَّرْفِ وَنَحْوِهِ.

وَمِنَ الْإِلْمَاحِ الْبَلَاغِيِّ الْبَدِيعِ الْكِنَايَةُ عَنِ الشَّيْءِ بِذِكْرِ بَعْضِ الْمَوَادِّ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا، فَهَذِهِ الْكِنَايَةُ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يُرْضِي وَيُمْتَعِ ذُكَاءُ أَصْحَابِ الذُّوقِ الْأَدَبِيِّ الرَّفِيعِ.

القضية الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا...﴾: أَي: وَهَذِهِ الْمَرْكَبَةُ الَّتِي حَمَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ عَلَيْهَا، ذَاتُ الْأَلْوَحِ وَالذُّسْرِ، مِنْ صِفَاتِهَا السَّبَبِيَّةِ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْمَاءِ، وَمِنْ صِفَاتِهَا الْمَحَاطَةِ بِعَيْنَاتِنَا - عَلَى الرُّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا عَمَلاً بِدَائِيّاً فِي صِنَاعَةِ الْفُلِّكِ يَحْمِلُهَا بَحْرٌ مِنَ الْمَاءِ عَظِيمٍ مُتَلَاطِمُ الْأَمْوَاجِ - أَنَّهَا تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا، أَي: تَجْرِي مَحْفُوفَةً بِأَكْمَلِ الْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ وَالْحِمَايَةِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَضُرُّهَا أَوْ يُؤْذِيهَا، أَوْ يُعَرِّضُ رَاكِبِيهَا لِأَيِّ خَطَرٍ أَوْ ضَرَرٍ.

إِنَّ الْعَيْنَ فِيمَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَرْقَى وَاللَّطْفُ حَاسَةً تُحْفَظُ مِنْ أَقَلِّ الْأَفْذَاءِ وَأَصْغَرِهَا، وَهِيَ أَكْمَلُ حَاسَةٍ لِلْمِرَاقَبَةِ تُحِيطُ إِحَاطَةً شَامِلَةً بِمَا تَرَاقِبُهُ لِحِفْظِهِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْكَبَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَجْرِي بِأَعْيُنِ اللَّهِ الرَّبِّ الْقَدِيرِ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا فِي غَايَةِ الْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ وَالْحِمَايَةِ وَالْمِرَاقَبَةِ التَّامَّةِ لِكُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهَا عَلَى تَوَالِي اللَّحْظَاتِ، وَأَصْغَرِ الْأَجْزَاءِ الزَّمَنِيَّةِ.

**القضية السادسة:** دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ﴿١٤﴾ في هذه العبارة إضافة بيان يَدُلُّ على الغاية الجزائية من هذا الاهتمام الشديد بحفظ سفينة نوح عليه السلام كُلُّ هذا الحفظ، إِنَّهَا مكافأته بثوابٍ معجَّلٍ له ولمن معه في الحياة الدنيا، جزاء كَوْنِهِ جاهد في الله حَقَّ جهاده في دعوته إلى الله، فَكُفِرَ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ.

**كُفِرَ:** أي: جُحِدَ وكُذِبَ.

لم يأت في هذه العبارة: جزاء لِثُوح، وإنما جاء فيها: جزاء لمن كَانَ كُفِرَ، لبيان أَنَّ الجزاء لوحظ فيه كونه كُفِرَ، أي: أَمَا صَلَاحَاتُهُ الأُخْرَى وَمُجَاهَدَاتُهُ من أجل رَبِّهِ فجزاءُها فوقَ ذَلِكَ يَوْمَ الجزاء الأكبر، وقد تكون عبارة ﴿لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ تَعُمُّ من رَكِبَ معه في السفينة، وهم الَّذِينَ آمَنُوا به، فقد كانوا دَعَاةً إِلَى اللَّهِ مَعَهُ، وَكُفِرُوا مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ أَيْضاً، وتعرَّضُوا للزَّجْرِ والتهديد بالزَّجْمِ أَيْضاً.

**القضية السابعة:** دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾: أي: وَلَقَدْ تَرَكْنَا فُلْكَ نُوحِ آيَةً، بَاقِيَةً زَمَناً طويلاً من بَعْدِهِ، لتكون علامة على حادثة الطوفان، ومذكِّرةً بقصة نوح عليه السَّلام وقَوْمِهِ، وشاهداً على عقاب الله عزَّ وجلَّ للمكذِّبين الظالمين الطُّغاة، وعِبْرَةً لِمَن يَعتَبِر، وذكرى لِمَن يَذْكُر.

جاء في صحيح البخاري، قال قتادة: بَقِيَتْ بَقَايا السفينة على الجودي، حَتَّى نَظَرَتْهَا أوائل هذه الأمة.

وقد رأى هذه الآية من رآها، وَسَمِعَ بها مَنْ سَمِعَ، وَظَلَّتْ الأُمَمُ تتوارث خبر طوفان نوح عليه السلام.

وهذه العبارة: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ مع دلالتها على ما تقدَّم شرحه فهي أيضاً كناية عن وصولها إلى مستقرِّ ملائم، ونزولِ نوح عليه السَّلام

منها إلى أرضٍ جافّةٍ صالحة، ونزول مَنْ كانوا معه، وإنزَالِهِم الحيوانات التي كانت في السفينة لتجد أزواقها في نباتات الأرض، وليَبْدُوا حياة استقرارٍ على اليابسة.

هذا المطوِيُّ المدلّول عليه بالكِنَايَةِ في هذه السورة، قد جاء التصريح به في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السِّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٥).

القضية الثامنة: دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟: يدلُّ هذا التّساؤلُ البديعُ على الغرضِ الدينيِّ مِنْ تَرْكِ سفينة نوح عليه السّلام آيةً باقيةً أزماناً طويلاً، شَهِدَتْهَا فيها أَجْيَالٌ مُتَّابِعَةٌ من بعده. وهو أن تكون للآذكار، أي: للتذكّر الآخذ بيد المتذكّر للاعتاظ، إذا كان لديه استعدادٌ للاعتاظ الإراديَّ ورغبةً فيه. مع ما في هذا التّساؤلِ من حُضْ عَى الآذكار والاعتبارِ بما جَرَى لقوم نوح عليه السلام، وقد جاء هذا الحُضْ بأسلوب الاستفهام. ومع ما فيه أيضاً من إشعارٍ بقلّة المدكّرين، لأنّ السُّؤالَ يَسْأَلُ عن واحدٍ مُدَكِّرٍ يَعتَبَرُ بما جرى للأولين من عقابِ رَبّانِي.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟ «هل» حرف استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن التصديق الإيجابي (أي: عن وقوعِ النُّسْبَةِ بين المُسْنَدِ والمُسْنَدِ إِلَيْهِ). «مِنْ» حرف جرّ زائدٌ جيءَ به للتّخصيصِ على الاستغراقِ الشاملِ لكلِّ أفرادِ العامِ «مُدَكِّرٍ» مُبْتَدَأٌ مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ محلاً، والخبرُ محذوفٌ مقدّرٌ ذهنياً، أي: فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ مَوْجُودٌ؟

لفظ «مُدَكِّرٍ» أَصْلُهُ «مُذَكِّرٍ» من فعل «أَذَكَّرَ» على وزن افتعل، وَقُلِبَتْ التّاءُ دالاً إذ جاء قبلها ذالٌ، وهذا قياسٌ مُطَرِّدٌ، ثُمَّ قُلِبَتْ الدالُ دالاً وَأُذْغِمَتْ بالدالِ بَعْدَهَا، فصار الفعل «أَذَكَّرَ» واسمُ الفاعلِ مِنْهُ «مُدَكِّرٍ». وأصلُ فعل «أَذَكَّرَ» ذَكَرَ، أَضِيفَتْ إِلَيْهِ تاء «افْتَعَلَ».

القضية التاسعة: دل عليها قول الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾؟  
 أي: فعلى أية حال كان عَذَابِي لكُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ؟ وعلى أية حال  
 كَانَتْ نُذْرِي لِقَوْمِ نُوحٍ؟  
 نُذْرِي: أي: إنذاراتي التي بَلَّغَهُمْ إياها رسولي نوح. الإنذار: الإعلام  
 والإخبار بعواقب غير سارة.

في هذه الجملة سؤال ينتزعُ الجواب انتزاعاً من كل ذي فكر عادي  
 يفهم المسائل السهلة، دون حاجة إلى روية وتأمل فيقول:  
 ● لَقَدْ كَانَ الْعَذَابُ عَذَاباً شَدِيداً مَخِيفاً، يُثِيرُ الرُّهْبَ وَالْأَتْعَاضَ  
 وَالْأَذْكَارَ.

● ولقد كانت النُّذُرُ الَّتِي أَنْذَرَ اللَّهُ بِهَا قَوْمَ نُوحٍ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِمْ  
 نُذُراً صادقةً، حَقَّقَ الْوَاقِعَ الثَّابِتُ فِي التَّارِيخِ مَا جَاءَ فِيهَا بِلا نُقْصَانٍ، وَظَلَّتْ  
 آيَتُهُ بَاقِيَةً حَقَباً كَثِيرَةً وَشَهِدَتْهَا أَجْيَالٌ فَأَجْيَالٌ مِنَ النَّاسِ.

فما أَبْدَعَ هَذَا الْإِيجَازَ وَمَا أَحْكَمَهُ!! وَمَا أَغْرَزَهُ دَلَالَاتٍ وَأَوْفَاهُ  
 بِالْمَقْصُودِ مِنَ الْبَيَانِ فِي الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا سُورَةُ الْقَمَرِ!!

● قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟  
 التيسير: التسهيل والتخفيف.

لِلذِّكْرِ: أي: للحفظ والتذكُّر، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَةٍ لِتَذَكُّرِ مَا يُلَاقِيهِ  
 الْمُنَاسَبَةُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ.

وقد جعل الله عز وجل هذه الآية فاصلاً يَتَكَرَّرُ بِفَنِيَّةٍ بَيَانِيَّةٍ أَدْبِيَّةٍ، دَالاً  
 بِهَذَا الصَّنِيعِ عَلَى أَنَّ تَوْزِيعَ لَقَطَاتِ مُخْتَلِفَاتٍ مِنْ قِصَصِ الْمُهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ  
 عَلَى نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَبِمُنَاسَبَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، لَهُ حِكْمٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْهَا تَيْسِيرُ الْقُرْآنِ  
 لِلْحِفْظِ وَالذِّكْرِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يُهْمُّهُمْ أَنْ يَحْفَظُوهُ، وَيُرْتَلُوهُ، وَيَتَذَكَّرُوهُ.



ولا يخفى ما في هذا من دعوة لحفظ القرآن وتذّبره وتذكّره، والاتعاظ بمواعظه، والاعتبار بعبره، وتفهم دلالاته، والعمل بوصاياه، بأداء ما أوجب الله على عباده، واجتناب ما نهاهم عن فعله أو عن الاقتراب منه.

ومن تيسير الله عز وجل القرآن للذكر سلاسة آياته، وحسن انتقاء كلماته، وإتقان تراكيبه، وما فيه من صور بيانية رائعة، تثبت في الذاكرة لحسنها وإبداعها، وما فيه من كنيات بعيدات عن التعبير المباشر، وما فيه من مطويات مختلفات العمق، التي يحتاج استخراجها إلى مقادير من ذكاء المتلقين، فمنها ما يُستخرج بالذكاء القليل، ومنها عميق يتطلّب ذكاء من مستوى ذكاء العباقة، وما فيه أيضاً من إعجاز بلاغيّ فريد مُعجِب، تغشقه النفوس، وتلتقطه بلهفة، وتحفظه.

وكلّ ذي حس أدبيّ يُذكر أنّ النصوص الأدبيّة الرّفيعة المثيرة للإعجاب، تتعلّق بها النفوس والقلوب، فتحفظها، وتردّها، وتتذكّرها حيناً فحيناً.

ومن هذا كانت الأمثال الدارجة أكثر النصوص ثباتاً في ذاكرة الناس، وكذلك روائع أبيات الشعر، وروائع قصائده، وجمل الحكيم البديعة المحرّرة.



### ثانياً: الفقرة الثانية

#### موجز إهلاك عاد قوم النبي الرسول هود عليه السلام

الآيات من (١٨ - ٢٢)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرَ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

● أثبت ياء المتكلم في كلمة: ﴿وَنُذِرْ﴾ في الآيتين (١٨) و (٢١) وزش في حالة الوصل ويعقوب في حالتي الوصل والوقف. وحذفها في الحالين باقي القراء العشرة، وهي وجوه عربية جائزة، والياء في حالة الحذف مقدرة ذهنًا، وفي حذفها إيجاز وجمال في النطق، ولا سيما إذا اقتضاه تناظر رؤوس الآيات.

### تمهيد:

هذا النص رابع نص نزل بشأن عاد قوم هود عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) ثم ما جاء في سورة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) ثم ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وجاء في هذه النصوص تدرج ارتقائي تكاملي في البيان، يحسب المناسبات الداعيات، دون تكرار في العناصر، باستثناء ما يقتضيه الربط والتوجيه للغة والاعتبار، فالتوجيه للغة والاعتبار هو بمثابة الجزعات الدوائية التي يستدعيها العلاج الدعوي التربوي.

وفي هذا النص الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيان موجز جدًا لوسيلة إهلاكهم، مع إلماح خاطف لمشهد إهلاكهم، بإبراز لفظة تصويرية منه، تكرر طوال يوم نحس مستمر عليهم. فبعد عبارة العنوان ﴿كَذَّبَتْ عادٌ﴾ التي لا بد منها مدخلًا للحديث عن إهلاك القوم، جاء البيان الموجز الذي سبقت الإشارة إليه.

«عادٌ» أمة من العرب البائدة، مُسمَّاة باسم جدّها «عاد» وهو من سلالة سام بن نوح عليه السلام. وكانوا يسكنون الأحقاف. وهي أرض من جنوب شبه الجزيرة العربية، تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، وهي مُطلَّة على البحر يقال لها الشَّحْر، واسمُ واديهم «مُغيث».

بِقَنِيَّةٍ بَدِيعَةٍ جَاءَ الْبَيَانُ الْمَوْجِزُ عَنْ إِهْلَاكِ عَادٍ مَخْضُورًا بِحَاصِرَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ، كَقَوْسَيْنِ نَضَعُهُمَا فِي كِتَابَاتِنَا الْمَعَاصِرَةِ لِلتَّمْيِيزِ وَالتَّنْبِيهِ وَلَفَتْ النِّظَرَ، لِكِنَّ أَقْوَاسَنَا خُطُوطَ رَمْزِيَّةٍ لَا مَعْنَى لَهَا فِي ذَوَاتِهَا، أَمَّا الْحَاصِرَانِ الْمُتَمَاثِلَانِ فِي هَذَا الْبَيَانِ الْمَوْجِزِ فَقَدْ جَاءَا فِي جُمْلَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَنْتَزِعُ الْاعْتِرَافَ بِصِغَتِهَا الْاسْتِفْهَامِيَّةِ، وَتُوجِّهُ لِلْعِظَةِ وَالْاعْتِبَارِ وَالْإِذْكَارِ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾؟ قَبْلَ عَرْضِ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ مِنْ مَشْهَدِ إِهْلَاكِهِنَّ، وَبَعْدَ عَرْضِهَا، فَمَا كَانَ قَبْلَ عَرْضِهَا فَهُوَ تَوَاطُؤُهُ لِتَقْدِيمِ الْجَوَابِ، وَيتبعه بيان كيف كان العذاب وكيف كانت عاقبة النذر، وما كان بعده فهو لانتزاع الجواب من المتلقي، وهذا الاستفهام استفهام تقريرِي يُوجِّهُ لانتزاع الاعتراف بعظمَةِ الْعَذَابِ، وَصِدْقِ أَنْبَاءِ النُّذُورِ، (أي: الْإِنذَارَاتِ).

والمعنى: فعلى أي حالٍ كَانَ عَذَابِي لِقَوْمِ عَادٍ؟ وعلى أي حالٍ كانت نُذْرِي لِقَوْمِ عَادٍ؟

وقد سبق آنفاً تحليلُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ.

وبين هاذَيْنِ الْحَاصِرَيْنِ جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

جاء تأكيدُ هَذَا النَّبَأِ بِمُؤَكِّدَيْنِ: «إِنَّ» وَالْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْخُطَابِ الْمَكْذُوبِ.

الرَّيْحُ الصَّرْصَرُ: هِيَ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الْبُرُودَةِ، الْقُوَّةُ السَّرِيعَةُ، الَّتِي تَضْطَرِّدُ بِالْأَشْيَاءِ، فَتَنْطَلِقُ بِهَا أَصْوَاتٌ يَتَوَاتَرُ فِيهَا مَا يُشْبِهُ حَرْفِي الضَّادِ وَالرَّاءِ، فَسُمِّيَتْ صَرْصَرًا.

فِي يَوْمٍ نَحْسٍ: أي: فِي يَوْمٍ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَعَذَابٍ وَشِدَّةٍ وَآلَامٍ،

ولإضافة «يَوْم» إلى «نَحْس» على معنى الاختصاص، والمعنى: في يوم اختَصَّ بالنَّحْسِ المنصَّب على عادِ قَوْمِ هُودٍ عليه السَّلامَ إذْ كَذَّبُوا رُسُولَ رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن رَبِّهِ، وظَلَمُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا.

فوسيلةُ تَغْذِيبٍ وإهلاك عادٍ كانتِ الرِّيحُ الصَّرْصَرُ.

مُسْتَمِرٌّ: أي: شَدِيدٌ قَوِيٌّ، ومُتَكَرِّرٌ في نوازلِ النَّحْسِ بَتَّائِعٍ وَتَلَّاحِقٍ، حَتَّى تَحَقِّقَ إِهْلَاكَ الْقَوْمِ جَمِيعاً.

جاء في هذا النصُّ بيانُ أنَّ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ تَتَابَعَتْ على عادٍ في يومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، للإشارة إلى أنَّ إهلاكَهُمْ قَدْ تَمَّ في هَذَا اليومِ.

لَكِنَّ الرِّيحَ وَأَسْبَابَ النَّحْسِ لم تَنْتَهِ في هذا اليوم بل بَقِيَتْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً، دَلَّ على هذا قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

وقد جاء هذا التكميل البياني وفق أسلوب التدرُّج البياني في النصوص القرآنية والتكامل في توصيل المعلومات المراد ببيانها.

﴿تَزِعُ النَّاسَ﴾: أي: تَقْتُلُهُمْ اقْتِلَاعاً بِشِدَّةٍ، مهما استمسكوا بثوابت في الأرض. فإذا نَزَعَتْهُمْ وَرَفَعَتْهُمْ طَرَحَتْهُمْ صَرْعَى، أي: هَلَكَى مَقْتُولِينَ مَطْرُوحِينَ.

﴿كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾: أي: فيكونونَ بَعْدَ انتزاعهم ورفعهم وطَرْحِهِمْ وإهلاكهم وتناثرهم صَرْعَى، كَالنَّحْلِ إِذَا قُلِعَتْ مِنْ جُذُورِهَا، وَطَرِحَتْ أَرْضاً، وَعَدَّتْ عَلَيْهَا الْأَوَاكِلُ فَأَكَلَتْ بُطُونُهَا فَجَوْفَتْهَا.

﴿أَعْجَازُ﴾: جَمْعُ «عَجَز» وهو مؤخر الشيء وأسفله، وأعْجَازُ النَّخْلِ هي أصول شَجَرِ النَّخْلِ.

﴿مُنْقَعِرٍ﴾: أي: مُنْقَلِعٍ من أصوله، ومُنْقَلِبٍ مطروح على الأرض، ويأتي لفظ «مُنْقَعِرٍ» بمعنى قَدْ أُخْرِجَ ما في بَطْنِهِ، فَهُوَ مَنْزُوعُ الجوف.

وَصِفَ النخلُ هنا بالتذكير ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ ووصف في سورة (الحاقة) بالتأنيث ﴿خَاوِيَةٍ﴾ لأن لفظ النخل اسم جنس، يصح فيه التذكير والتأنيث، فالتذكير يلاحظ فيه اللفظ، والتأنيث يلاحظ فيه المعنى.

قول الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٢١) قد سبق تحليل هذه العبارة.

قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ﴾ (٢٢).

سبق تَدَبُّرُ هَذَا النَّصِّ فِي آخِرِ مَوْجِزِ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.



### ثالثاً: الفقرة الثالثة

**موجز إهلاك قوم النبي الرسول صالح عليه السلام**

**الآيات من (٢٣ - ٣٢)**

قال الله عز وجل:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِّنَ الْكَذَّابِ الْآخِرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَنَنفُثُ لَهُمْ فَارْتَفَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ ﴿٢٧﴾ وَنَبْنِئُهُمُ أَنْ الْمَاءِ فِيسَمُهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَّا صَاحِبَهُمْ فَفَعَلْنَاهُ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ ﴿٣٢﴾.

● قرأ ابن عامر وحمزة: [سَتَعْلَمُونَ] بقاء المخاطبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكاملاً في الأداء البياني، فقراءة الجمهور تتحدث عن كُفَّار «ثمود» الغائبين خطاباً لرُسُولِهِم وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

وقراءة ابن عامر وحمزة تخاطب كُفَّار ثمود خطاباً مباشراً، وفيها حكاية لما وقع.

وكلا الأمرين مَقْصُودَانِ في البيان.

● وكلمة: ﴿وَنَذِرُ﴾ في الآية رقم (٣٠) فيها القراءات السابقات في

أمثالها من السورة بالنسبة إلى إثبات ياء المتكلم أو حذفها.

#### تمهيد:

هذا رابع نص نزل بشأن ثمود قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها بشأنهم وشأن عاد وفرعون ويلحق به قومه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

ثم ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها بشأن إهلاك الله أمماً سابقة:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثُمُودًا مَّا أَتَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

ثم ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عز وجل فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُجِّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

وقد سبق تدبر هذه النصوص خلال تدبر سورها.

وقد جاء في هذه النصوص تدرج ارتقائي تكاملي في البيان بحسب المناسبات الداعيات، وقد جاء البيان مجزأً متكاملًا لا مكرراً.

في هذا النص الرابع من سورة (القمر/ ٥٤/ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء تفصيل موجز لقصة ثمود التي انتهت بإهلاكهم بالصيحة، وفيها لقطات مُنتقيات تشتمل على بيان تكذيبهم رسول ربهم، وتكذيبهم بما جاءهم به عن الله، وعلى بيان ذريعتهم التي تذرّعوا بها، لرفض الإيمان الذي دعاهم إليه رسولهم صالح عليه السلام، ورفض اتباعه في طاعة الله، وفي الإسلام له، وعلى بيان امتحانهم بالآية التي طلبوها، وهي آية الناقة، وعلى بيان عقربهم لها، وعلى بيان إهلاك الله لهم بالصيحة.

### موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام:

ذكروا أن كبراء ثمود اجتمعوا يوماً في ناديتهم، فجاءهم نبي الله ورسوله صالح عليه السلام، فدعاهم إلى سبيل ربهم، ووعظهم، وذكرهم بأنباء المهلكين من قبلهم، قوم نوح، وعاد قوم هود.

وقال لجماهيرهم: اتقوا الله وأطيعون، ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فقالوا له: ما أنت إلا بشر مثلنا، فأتينا بآية إن كنت من الصادقين.

وقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة، وأشاروا إلى صخرة معينة لديهم، وحددوا له أوصافها التي طلبوا أن تكون متصفة بها،

وَشَدَّدُوا مُتَعَتِّينَ فِي بَيَانِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا، وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ حُبْلَى عُسْرَاءَ<sup>(١)</sup> طويلة.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَجَبْتُكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ، وَفَقَّ الْأَوْصَافِ الَّتِي وَصَفْتُمْ، أَتُؤْمِنُونَ بِأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، وَتُصَدِّقُونِي فِيمَا أُرْسِلْتُ بِهِ؟؟.

قالوا: نعم.

فَأَخَذَ عُھُودَهُمْ وَمَوَاقِيْعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ قَامَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُصَلَّاهُ، فَصَلَّى لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا.

فَأَمَرَ اللَّهُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ الَّتِي عَيْنُوهَا أَنْ تَنْفَطِرَ عَنْ نَاقَةٍ عَظِيمَةٍ عُسْرَاءَ<sup>(١)</sup> مُتَصِفَةً بِالصِّفَاتِ الَّتِي طَلَبَهَا الْقَوْمُ.

فَلَمَّا عَايَنُوهَا قَدْ انْفَطَرَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ، وَجَاءَتْ عَلَى وَفْقِ الْأَوْصَافِ الَّتِي طَلَبُوهَا دَهْشُوا، إِذْ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اسْتَجَابَ لِدَعَاءِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَثَبَتْ لَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّهِمْ حَقًّا وَصِدْقًا.

فَأَمَّنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

وَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ أَلَيْمٌ، فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ.

وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ مَاءَكُمْ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا، فَلَهَا شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ، لَا تَسْتَقُونُ أَنْتُمْ فِيهِ، وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، لَا تَأْتِيكُمْ فِيهِ فَتُشَارِكُكُمْ سُقْيَاكُمْ.

(١) عُسْرَاءُ: أَي: حُبْلَى مَضَى عَلَى حِفْلِهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ.



فقد جعل الله جلَّت قدرته وعظمت حكمته هذه الناقة التي أخرجها لهم على وفق ما طلبوا، فثنت لهم، أي: امتحاناً كاشفاً لما في نفوسهم، فجعل لها فيهم شروطاً:

الشرط الأول: أن تترك سائمة تأكل من أرض الله كما تشاء، فهي ناقة الله.

الشرط الثاني: أن الماء الذي يشربون منه في ديارهم قسمة بينهم وبينها، فهم لا يشاركونها في نوبتها، وهي لا تشاركهم في نوبتهم.

الشرط الثالث: أن لا يمسوها بسوء، فإذا فعلوا أهلكهم الله بعذاب يوم عظيم في الحياة الدنيا، دون إمهال إلى يوم الدين مع ما سوف يلاقون من عذاب خالد يوم الدين.

وهذا شأن الخوارق التي يُرسلها الله وفق طلب الأقسام، بخلاف الآيات التي يؤيد الله بها رسله على ما يشاء هو، دون تحديد تعيّن من القوم.

فلما عقروا الناقة أهلكهم الله بالصيحة المقترنة بالرجفة وبالصاعقة.

وعند المؤرخين في قصتهم تفصيلات، أرجو أن أذكرها في موضع آخر من عرض لقطات من قصتهم في القرآن المجيد.



التدبر التحليلي للنص.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣).

﴿ثَمُودُ﴾: قوم من العرب البائدة، يُنسبون إلى أحد أجدادهم «ثمود» نَشَؤُوا وَتَكَاثَرُوا بَعْدَ «عَادٍ». وكانوا خلفاء في أرض العرب من بعد قوم عاد الذي أهلكوا. ورُبُّما كان الذين آمنوا بهود عليه السلام، ونَجَّوْا من الهلاك معه أجداداً لهم، أو من أجدادهم، وقد تكون ثمود هي عاداً الأخرى، إذ قوم هود هم عاد الأولى.

وتمود هم قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكانوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ، وهو بَيْنَ الْحِجَازِ وَتَبُوكَ، وَتُعْرَفُ مَسَاكِنُهُمْ بِمَدَائِنِ صَالِحٍ، وَأَثَارُهُمْ فِيهَا ظَاهِرَةٌ حَتَّى الْآنَ، يَزُورُهَا مُحِبُّو زِيَارَةِ الْأَثَارِ.

ولفظ «ثمود» اسم جمع لجماعة من الناس، فيجوز في العربية تذكيره وتأنيسه، كَنُظَرَاتِهِ، وقد كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ تَأْنِيسُهُ، وجاء مصروفاً وممنوعاً من الصرف.

﴿يَا نُذِرٌ﴾ النُّذْرُ هنا جمع «النذير» الذي هو اسم مَصْدَرٍ فعل «أَنْذَرُ يُنْذِرُ إِنْذَاراً». فالمعنى: كَذَّبُوا بِالْإِنْذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهِيَ إِذِنْ إِنْذَارَاتٍ مُتَعَدَّدَاتٍ أَنْذَرَهُمْ إِيَّاهَا عَاجِلَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَآجِلَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَلَا يَصِحُّ هُنَا حَمْلُ النُّذْرِ عَلَى الرُّسُلِ الْمُنْذِرِينَ، لِأَنَّ الْإِسْتِقْرَاءَ لِلِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ دَلٌّ عَلَى أَنَّ التَّكْذِيبَ إِذَا كَانَ لِمُبَلِّغِ الْخَبَرِ أَوْ الْبَيَانِ تَعَدَّى الْفِعْلَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ دُونَ وَسَاطَةِ حَرْفٍ جَرٍّ، أَمَّا إِذَا كَانَ لِلْخَبَرِ أَوْ لِلْبَيَانِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ يَتَعَدَّى إِلَيْهِ بِحَرْفِ الْبَاءِ. مثل: ﴿كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ - ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وَلَمَّا كَانَتْ الْإِنْذَارَاتُ لَا تُوجِّهُ إِلَّا بَعْدَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَأَرْكَانِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ، كَانَ ذِكْرُ النُّذْرِ هُنَا دَالاً عَلَى أَنَّ طَرِيقَ الزُّرُومِ الذَّهْنِيِّ عَلَى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَذَّبُوا بِرِسَالَتِهِ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَأَخِيرًا كَذَّبُوا بِإِنْذَارَاتِهِ.

فَكَانَ مِنَ الْإِيجَازِ الْبَدِيعِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى بَيَانِ تَكْذِيبِهِمْ بِإِنْذَارَاتِ رَسُولِهِمْ، لَمَّا فِيهِ مِنْ دَلَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِمَا تَقْتَضِي دَعَوَاتُ الْمُرْسَلِينَ بَيَانَهُ قَبْلَ إِخْبَارِهِمْ بِالْإِنْذَارَاتِ، وَإِذْ كَذَّبُوا بِإِنْذَارَاتِ الرَّسُولِ فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ لُزُوماً، وَكَذَّبُوا بِكُلِّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

● قول الله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلًا وَجِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ (٢٤)

أَلْفِئَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ .

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَلْخِيصٌ لِّأَرْبَعِ مَقَالَاتٍ قَالَهَا كُفْرَاءُ كُفَّارِ ثَمُودَ، وَرَدَّدَتْهَا جَمَاهِيرُهُمْ التَّابِعُونَ لَهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ دَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَيْهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُغْلِبِينَ بِهَا اسْتِكْبَارَهُمْ عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ.

وجاء عطفُ مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الذي يدلُّ على الترتيب مع التعقيب، نظراً إلى أوَّلِ مراحلِ تكذيبهم لرسولهم، لا إلى مرحلة تكذيبهم بالنَّذْرِ الَّتِي أُنذِرُهُمْ بِهَا، إِذْ إِنَّ ذِكْرَ النَّذْرِ قَدْ دَلَّ عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ مَرَاهِلٍ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ.

● فَهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ مُنْذُ أُبْلِغَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَهُ نَبِيًّا، وَبَعَثَهُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، فَاقْتَضَتْ دَقَّةُ الْبَيَانِ أَنْ يَكُونَ الْعُطْفُ بِحَرْفِ «الفاء» الدَّالَّةَ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ، وَهَذَا التَّكْذِيبُ قَدْ جَرَّ سِلْسِلَةَ تَكْذِيبَاتٍ كَانَتْ الْحَلْقَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْهَا تَكْذِيبَهُمْ بِالنَّذْرِ.

وفيما يلي مُتَابَعَةُ تَحْلِيلِيَّةٍ تَدْبِيرِيَّةٍ لِّلْمَقَالَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي قَالُوهَا:

**المقالة الأولى:** دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَبَشِّرْكَ مَتَا وَاحِدًا نَّبَّعُهُ﴾؟! استفهامٌ تَعْجِيزِيٌّ اسْتِنكَارِيٌّ، يَنْبُغُ عَنْ مُنْتَفِخِ الْكِبَرِ فِي صَدُورِهِمْ، إِنَّهُمْ يُغْلَتُونَ بِهَذَا رَفْضِهِمْ لِاتِّبَاعِ رَسُولٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ بِجَمَاعَةٍ، أَي: فَكَيْفَ يَتَلَاءَمُ مَعَ مَكَانَتِهِمْ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْزِلَتِهِمْ الرَّفِيعَةِ، أَنْ يَتَّبِعُوا بَشَرًا مِنْهُمْ وَاحِدًا يَزْعُمُ لَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ.

فَهُمْ يَرْفُضُونَ أَوَّلًا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنَ الْبَشَرِ. وَعَلَى فَرَضِ قَبُولِهِمْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْبَشَرِ، فَإِنَّهُمْ يَرْفُضُونَ أَنْ يَكُونَ شَخْصًا وَاحِدًا، لَيْسَ مَعَهُ رَسُولٌ آخَرُ أَوْ عَدَدٌ مِنَ الرُّسُلِ.

﴿أَبَشِّرْكَ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْإِشْتَغَالِ، أَي: أَنْتَبِعْ بَشَرًا وَاحِدًا حَالَةً كَوْنُهُ مَتَا، أَي: مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ نَبَّعُهُ.

**المقالة الثانية:** دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾.

بهذه العبارة أكدوا زاعمين أنهم إذا اتبعوا بشراً واحداً من البشر، فإنهم يكونون إذاً لفي ضلال في مسيرتهم في حياتهم، وفي جنون في عقولهم وأفكارهم، وهذا أعظم ما قدموه من ذريعة، لتزيين نفرتهم واستنكافهم عن اتباع رسولهم.

﴿إِذَا﴾ حرف يدل على المفاجأة في الحال، ويختص بالجملة الإسمية، ولا يحتاج إلى جواب، ولا يقع في ابتداء الكلام.

﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾: أي: لفي جهل وضياح، وبُعْد عما هو حق وخير ورشد.

﴿وَسُعْرٍ﴾: أي: وفي جنون، فالسعر يأتي في اللغة بمعنى الجنون، ويصف العرب الناقة الهوجاء بأنها مسعورة، كأن بها جنونا.

ويظهر أن هذه المقالة صادرة عن كبراء ثمود، ليصدوا بها جماهيرهم عن اتباع رسولهم، أي: فمن اتبعه وهو بشر واحد منهم كان منغمساً في جهل وضياح، وكان منغمساً في جنون، ومعلوم أن الأتباع يرون قادتهم أهل عقل ورشد وحسن فهم للأمور، وإدراك للحق والباطل، والخير والشر.

دلّ حرف «في» على أن الضلال والسعر يكون بمثابة ظرف محيط بمن اتبع بشراً واحداً منهم.

ويلاحظ أنهم أكدوا مقالتهم هذه بالمؤكدات التالية: «إِنَّ - والجملة الإسمية - واللام المزحلقة» ليقبل كلامهم أتباعهم، وليشعروهم بأنهم مؤمنون بما يقولون، غير شاكين، ولا ظانين، وهذا منهم مبالغة في المكر ومعاندة الحق.

المقالة الثالثة: دلت عليها عبارة: ﴿أَلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ؟!!﴾.

وفي هذه العبارة استفهام تعجبي إنكاري أيضاً، وهي تدل على

إنكارهم الشَّدِيدُ أَنْ يَكُونََ هَذَا الواحد منهم، وهو صالحٌ عليه السلام، مُخْتَاراً اختياراً خاصاً مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِلنُّبُوَّةِ وَالرُّسَالَةِ، ولإِلْقَاءِ الذِّكْرِ عليه، وهو الكتاب الرِّبَّانِيّ، المطلوبُ منهم أَنْ يَتَلَقَّوْهُ وَيَتَفَهَّمُوْهُ دَلَالَتِهِ، ويحفظُوهُ، وَيَذْكُرُوْهُ أوامره ونواهيه ووَصَاياه عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعيات، ليعملوا بها.

ولا يخفى على المتدبِّر أَنَّهُ قد حصل الاستِغْنَاءُ ببيان إلقاء الذِّكر عليه، عن التصريح بالتعجب من اختياره للنُّبُوَّةِ وَالرُّسَالَةِ، نظراً إلى أَنَّهُ لا يُلْقَى الذِّكْرُ الرِّبَّانِيُّ عليه، إِلَّا بَعْدَ اصطِفائه بالنُّبُوَّةِ وَالرُّسَالَةِ.

وهذا الاستفهام التعجُّبِيّ الإنكاريُّ من قادة ثمود، الدَّالُّ على معنى إنكار نبوّته ورسالته، يتضمَّنُ إشعاراً بأنَّ غَيْرَهُ من كِبَرَاءِ قَوْمِهِ أَحَقُّ مِنْهُ بذلك، فليس من المعقول أن يختاره الله بالخصوص من بَيْنِ مَنْ هُمْ أَحَقُّ بِذَلِكَ من قومه، في رَعْمِهِمْ ومفاهيمهم الطَّبَقِيَّةِ الاستكْبَارِيَّةِ.

إِنَّ تَصَوُّرَاتِهِمُ الباطِلَاتِ في حدود مفهوماتهم المرتبَّطَاتِ باعتبارِ دنيوية، تَجْعَلُ حَقَّ الامتياز في القوم لأهل المال، أو أصحاب العُزْوَةِ والجنود والأنصار، أو أَرْبَابِ الْأَنْسَابِ والأُمَجَادِ والمفاخر المتوارثَةِ في الأعراق وفي الأسر، وهذه كُلُّهَا تصوُّراتٌ ومفهوماتٌ باطلات لا وزن لها في ميزان الحقيقة.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَنْظُرُ إلى هذه الاعتبارات الَّتِي لا ترفع في الحقيقة قيمة الإنسان عنده، إِنَّمَا يَنْظُرُ جَلَّ جَلَالُهُ إلى قِيَمِ الفضائل الدَّائِيَّةِ، والفضائل الإِرَادِيَّةِ في التِّزَامِ الْحَقِّ وسلوك سبيل الْهُدَى والخير والكمال، في الإنسان الذي يَضْطَفِيهِ لنبوّته ورسالته، وهو جَلَّ جَلَالُهُ أعلم بعباده وما في قُلُوبِهِمْ مما يُؤْهِلُهُمْ للاصطفاء، أو لا يُؤْهِلُهُمْ له، كما قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ (١٢٢).

ودلّ فعل ﴿أَلْفَى﴾ على أنّ الكتاب الذي أنزل على صالح عليه السلام قد أنزل عليه جملة واحدة، فالإلقاء فيه معنى الطرح بمرّة واحدة، بخلاف معنى الإنزال، والتنزيل، فلا يدلّان على معنى الإلقاء جملة واحدة.

ومادة «الإلقاء» في القرآن قد استعملت وهي تُشعرُ بمعنى الطرح جملة واحدة في نصوص متعدّدة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لموسى بما امتنّ به عليه وهو طفل يجري به التابوت على شاطئ النيل:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَنْ أَقْرِضِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْرِضِهِ فِي آلِيهِ ۖ فَلْيَقْرِضْهُ آلِيهِمْ بِالْأَسَاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُمْ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابَةً مِّنِي وَلِئَصْنَعَ عَلَىٰ عَيْتِكَ ۖ﴾ (٣٩).

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن مباراته مع سحرة فرعون:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ۚ﴾ (٤٣) ﴿فَالْقُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فَرَعُونَ ۖ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۚ﴾ (٤٤) ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۚ﴾ (٤٥) ﴿فَالْقَىٰ السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ۚ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ﴾ (٤٨).

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۚ﴾ (١٢).

ومن الظاهر أنّ كلّ من يُلقى الله في قلبه الرُّعب يُلقى فيه دفعة واحدة.

وَإِذْ أَنْكَرَ كُبْرَاءُ كُفَّارٍ ثَمُودَ أَنْ يَكُونَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا رَسُولًا  
مختاراً من الله، قامت في أذهانهم احتمالات أخرى، تُبَعِّدُ عنه أن يكون  
كذاباً، لكنَّهُمْ رَفَضُوا هَذِهِ الاحتمالاتَ حَتَّى لَا تَخِفَّ عَدَاوَتُهُ وَالْحَقُّ عَلَيْهِ  
فِي نَفُوسِ أَتْبَاعِهِمْ، فقالوا: لَا عُذْرَ لَهُ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ مُسْتَكْبِرٌ يُرِيدُ الْعُلُوَّ فِي  
الْأَرْضِ، ومنازعة الكُبراءِ مَكَانَاتِهِمْ، وهذا ما دَلَّتْ عليهم مقالتهُم الرابعة.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾.

طوى النَّصَّ ما قام في أذهان كبراء كُفارِ ثمود، من احتمال أن يكون  
مَعذُوراً في ادِّعاء أَنَّهُ نَبِيٌّ رَسُولٌ، كَأَن يَكُونَ قَدْ تَهَيَّأَ لَهُ ذَلِكَ، أو أَثَرَتْ عَلَيْهِ  
الجن، أو أَثَرَتْ عَلَيْهِ أَعْمَالُ سِحْرِيَّةٍ، لكنَّهُمْ رَفَضُوا التَّصْرِيحَ بِهَا، وَرَفَضُوهَا  
جَمَلَةً وَتَفْصِيلاً بِدَلَالَةِ حَرْفِ «بَلْ».

أي: لَا عُذْرَ لَهُ فِيمَا ادَّعَاهُ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ.

﴿كَذَّابٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كاذب» إِنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَن  
يَقُولُوا هُوَ كاذب، بَلْ اتَّهَمُوهُ بِأَشْنَعِ دَرَكَاتِ الكَذِبِ، مع أَنَّهُمْ ما عَرَفُوهُ فِي  
حَيَاتِهِ مَعَهُمْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ إِلَّا صَادِقاً أَمِيناً.

﴿أَشِرُّ﴾: أي: مُسْتَكْبِرٌ بَطَرٌ، يُقَالُ لُغَةً: أَشِرَّ فُلَانٌ أَشْرًا فَهُوَ أَشِرُّ،  
أي: بَطَرٌ وَاسْتَكْبَرٌ، وَمُرَادُهُمْ اتِّهَامُهُ بِأَن ادَّعَاهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ نَابِغٌ مِنْ كِبَرِهِ  
فِي نَفْسِهِ، وَرَغْبَتِهِ فِي أَنْ تَكُونَ لَهُ السِّيَادَةُ فِي قَوْمِهِ، وَأَن تَكُونَ لَهُ الْقِيَادَةُ  
وَالرِّيَاسَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، فَلَا هُوَ صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ،  
وَلَا هُوَ مَعذُورٌ بِادِّعَائِهِ، عَلَى احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ قَدْ جَرَتْ لَهُ أُمُورٌ وَرُؤَى  
أَوْهَمَتْهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، كَالَّذِي يَأْتِيهِ رَئْيٌ مِنَ الْجِنِّ، فَيُخْبِرُهُ بِأَشْيَاءَ، يَزْعُمُ  
لَهُ فِيهَا أَنَّهَا مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ.

لكنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ هُمُ الْكَذَّابُونَ الْأَشِرُّونَ، كَذَّابُونَ فِي إِيهَامِهِمْ  
وَتَزْوِيرِهِمْ عَلَى جَمَاهِيرِهِمْ، بِأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، مع اقْتِنَاعِهِمْ فِي  
أَعْمَاقِ نَفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ وَلَيْسَ بِكَاذِبٍ.

وَأَشْرُونِ، أَي: مستكبرونَ بِطُرُونِ، يُرِيدُونَ بِتَكْذِيبِهِ وَرَفْضِ اتِّبَاعِهِ، وَتَحْرِيسِ جَمَاهِيرِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَالتَّوَلَّيْ عَنْهُ، الْمَحَافَظَةَ عَلَى رَعَامَاتِهِمْ وَرِيَاسَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَعَلَى مَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يَخْشَوْنَ فَوَاتَهَا إِذَا آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَهَذَا مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِبَّانَ الْحَدَثِ:

● ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ﴾ ﴿٢٦﴾.

وَخَاطَبَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ لَهُمْ إِبَّانَ الْحَدَثِ:

● ﴿سَتَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ﴾.

كما جاء في القراءة الأخرى المتواترة.

وفي هذا البيان، إيماءٌ لحالةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وحالةٍ من كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَزَعَمَ أَنَّهُ طَالِبُ زَعَامَةٍ، فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخَاطِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا خَاطَبَ بِهِ ثَمُودًا قَوْمَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد جِيءَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مُقْتَطَعَةً مُخْتَزَلَةً مِنْ فَضْلِ مِنْ فُضُولِ قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ ثَمُودَ، وَمُوجَّهَةً كَأَنَّ الْحَدَّثَ يَجْرِي اللَّانَ.

وهذا الأسلوبُ من مبتكرات القرآن المجيد.

وجاءت كلمة ﴿غَدًا﴾ فيها دالَّةٌ عَلَى الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ حِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ عِقَابُ اللَّهِ، وَيَنْصُرُ اللَّهُ رَسُولَهُ، وَعَلَى يَوْمِ الدِّينِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا يَوْمٌ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ يَوْمٌ بَعْدَهُ، فَهُوَ الْغَدُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى يَوْمِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● قول الله تعالى حكاية لقوله لصالح عليه السلام مُقْتَطَعاً من الحدث الذي جرى في زمانه:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَّةً لَهُمْ فَازْتَجَبْتُمْ وَأَصْطَرِ﴾ ﴿٢٧﴾.



سيأتي إن شاء الله عَرَضُ قِصَّةِ الناقة التي أرسلها الله آيةً لَهُمْ بناءً على طلبهم بعد تحليل النص، وجاء تعريف الناقة بـ (ال) الْعَهْدِيَّة، للإشارة إلى شروطهم التي وضعوها لها.

﴿فَنَنْتَهُ لَهُمْ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً، فقد طَلَبُوا معجزة الناقة فأجرها الله عزَّ وجل لصالح عليه السلام آيةً تشهد له بأنه نبيُّ الله ورسوله حقاً، وهي مع ذلك امتحان لقومه بشروط حياتها فيهم، إذ تعنتوا بتحديدها، وتحديد أوصافها، ومكان خروجها من صخرة معينة.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانتظرهم، واجعلهم تحت مراقبتك وملاحظتك لما سيكون منهم، كالحارس الذي يرعى ما يحرسه بمراقبته وحفظه، يقال لغة رقبه: أي: انتظره - لاحظه - حرسه - حفظه ..

وفي هذه الصيغة التي أضيفت إليها تاء الافتعال التوجيه للعناية التامة بتكليف الانتظار مع المراقبة وشدة الملاحظة، دون استعجال. ارتَقِبْ: على وزن «افتعل» من فعل: «رَقَبَ» قبل الزيادة.

﴿وَاصْطَبِرْ﴾: من فعل «اضْطَبِرَ» اضتبر، بإضافة تاء افتعل لفعل «صَبَرَ» ثم قلبت التاء طاءً لتتلاءم مع الصاد.

أي: واضْطَبِرْ بتكليف ومجاهدة لنفسك على أذاهم وكُفْرٍ مَنْ أَصَرَ على الكُفْرِ مِنْهُمْ، ولا تَسْتَغْجِلْ لهم أي أمر، إِنَّهُمْ سيضيقون دُزْعاً بامتحانهم بالناقة المعجزة ضمن الشروط التي وُضِعَتْ لهم، وسيَعْمَلُونَ مَا يُسَبِّبُ إهلاكهم إهلاكاً عاماً شاملاً، على وفق الوَعِيد الذي أَعْلِمُوا به.

● قول الله تعالى حِكَايَةً لقوله أيضاً لصالح عليه السلام مُقْتَطَعاً من الحدث الذي جرى في زمانه:

﴿وَيَنْتَهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾.

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ هَذَا لِرَسُولِهِمُ الشَّرْطَ الْقَاسِي فِي امْتِحَانِهِمْ بِمَعْجَزَةِ النَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَيْثُوهَا، وَوَفَّقَ الصِّفَاتِ الَّتِي حَدَّدُوهَا.

﴿وَيَنْتَهُمُ﴾ : أَي: وَخَبَّرَهُمْ بِهَذَا الْخَبَرِ الْبَارِزِ ذِي الشَّأْنِ الشَّدِيدِ عَلَيْهِمْ.

﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ : أَي: مَقْسُومٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاقَةِ الْمَعْجَزَةِ عَلَى نِصْفَيْنِ، وَالْمَرَادُ بِالْمَاءِ مَاءُ الشُّرْبِ الَّذِي تَشْرَبُ مِنْهُ قَبِيلَةُ ثَمُودَ كُلُّهَا فِي مَوْطِنِ إِقَامَتِهِمْ.

يُقَالُ لُغَةً: اقْتَسَمَ الرَّجُلَانِ الشَّيْءَ بَيْنَهُمَا اقْتِسَامًا، أَي: أَخَذَ كُلُّ مِثْلِهِمَا نَصِيبَهُ مِنْهُ. وَالْقِسْمَةُ: اسْمٌ مِنْ اقْتِسَامِ الشَّيْءِ، وَتُطْلَقُ الْقِسْمَةُ عَلَى النَّصِيبِ. ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُخْتَصَرٌ﴾ : الشَّرْبُ: بِكسر الشين، نَوْبَةُ الْإِسْتِقَاءِ مِنَ الْمَاءِ. وَالنَّصِيبُ الْمُعَيَّنُ لِلشَّارِبِ مِنْهُ.

مُخْتَصَرٌ: أَي: يَخْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبَتُهُ، أَوْ يَحْضُرُهُ مُسْتَحَقُّهُ دُونَ مَنْ لَأَحَقُّ لَهُ فِيهِ، وَجَاءَتْ صِيغَةُ «مُخْتَصَرٌ» مِنْ احْتَضَرَ عَلَى وَزْنِ «افْعَلْ» الدَّالُّ عَلَى التَّكْلِفِ وَالْمُبَالَغَةِ، لِتَدَلُّ عَلَى أَنَّهُ يُلْزَمُ ضَبْطُ مَوَاعِيدِ حُضُورِهِمْ وَحُضُورِ النَّاقَةِ لَوُرُودِ الْمَاءِ بِانْتِظَامٍ دُونَ اخْتِلَافٍ وَلَا عُدْوَانٍ.

وَمَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فِي هَذَا النَّصِّ جَاءَ بَيَانُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الْمَوْزَعَةِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

● فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩) قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ﴿٧٣﴾﴾.

فأضاف هذا النص بيان شَرَطٍ آخر من شروط استجابة الله لهم في آية الناقة التي طَلَبُوها، وهو أن تأْكُلَ من أرض الله على ما تشاء، وأن لا يَمَسَّهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ، فإذا مَسَّوها بِسُوءٍ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

● وفي سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عز وجل  
ضِمْنَ عَرْضِ لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقومه ثمود:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾: أي: لها شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ من ماءِ ثمود، وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ آخر معلوم، على سبيل المهايأة اليومية فأضاف هذا النص بيان المراد بكون الماء قِسْمَةً بَيْنَهُمْ، الذي جاء في سورة (القمر). التي نتدبرها.

وأضاف هذا النص بيان أن إجراء آية الناقة قد كان استجابة لطلبهم آية.

قالوا: وكانت هذه الناقة تَرْعَى حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ أَرْضِ ثمود، وَتَرِدُ الماءَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وكأنت إذا وَرَدَتِ الماءَ تَشْرَبُهُ كُلَّهُ في يومها، وكانوا يأخذون حاجتهم من الماء في يَوْمِهِمْ لِعَدِهِمْ.

قيل: وكانوا يَشْرَبُونَ جميعاً من لبنها كِفَايَتَهُمْ، واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿فَادْعُوا صَاحِبَكُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

على الرُّغْمِ مِنْ آيَةِ النَاقَةِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ صَالِحٍ، على وَفْقِ طَلَبِ قَوْمِهِ، فَإِنَّ مَعْظَمَ قَوْمِهِ ثمود لم يُؤْمِنُوا وَأَصْرُوا على كُفْرِهِمْ وعنادهم، لكنَّهُمْ كانوا بالنسبة إلى ناقة الله على حذر، فالتزموا بِمُرَاعَاةِ

شُرُوطِهَا حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ، فَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهَا، غَيْرَ أَنَّ كِبَرَاءَهُمْ خَافُوا أَنْ يَبَاشِرُوا عَقْرَهَا بِأَنْفُسِهِمْ، فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ، وَهُوَ أَشْقَاهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ/ ٩١ مَصْحَف/ ٢٦ نَزُول) بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

قيل: واسمُ أَشْقَى ثمود: «قَدَارُ بْنُ سَالِفٍ».

وقد سبقَ تدبُّرُ هذا النصِّ ضمن تدبُّرِ سورة (الشَّمْسِ).

وَأَشْقَى «ثمود» هو الذي جاء التعبير عنه في سورة (القمر) بعبارة ﴿صَاحِبُهُمْ﴾ للإشارة إلى أن كُفَّارَ ثمود كُلَّهُمْ أَشْقِيَاءُ، إِلَّا أَنَّ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ مِنْهُمْ قَدْ كَانَ أَشْقَاهُمْ، وَكَانَ هَذَا أَخْبَثَ تَسْعَةَ رَهْطِ أَشْقِيَاءَ مِنْ ثُمُودَ، وَهُوَ قَائِدُهُمْ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ قَوْمِهِمْ سَفَاهَةً، وَجَزَاءً عَلَى الشَّرِّ وَارْتِكَابِ كِبَائِرِ الْإِثْمِ.

وَنَسْتَفِيدُ مِنْ عِبَارَةِ ﴿صَاحِبُهُمْ﴾ أَنَّ الصُّحْبَةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالمُشَارَكَةِ فِي جَمَلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَدَلٌّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مَصْحَف/ ٤٨ نَزُول) عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَشْقَى وَرَهْطُهُ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوا صَالِحًا وَأَهْلَهُ بَيِّنَاتًا، بَعْدَ أَنْ عَقَرَ قَائِدُهُمُ النَّاقَةَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا ضَمِنَ عَرْضَ لِقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ ثُمُودَ:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فَاُنْظُرْ

كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَغْتَ يَوْمَهُمْ حَاوِيَةً يَمَّا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا آلَ إِبْرَهِيمَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٥٣﴾ .

● ﴿فَعَطَّيْنَاهُمَا فَعَقَّرَ﴾ : يُقَالُ لُغَةً: تَعَطَّى الرَّجُلُ، أَي: قَامَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى الشَّيْءِ لِيَأْخُذَهُ.

ويقال: تَعَطَّى الشَّيْءُ، أَي: تَنَاوَلَهُ. وَتَعَطَّى الْأَمْرُ أَي: رَكِبَهُ.

فَعَقَّرَ: أَي: فَعَقَّرَ النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةً لِّصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَجَعَلَهَا فِتْنَةً، أَي: امْتِحَانًا كَاشِفًا لِكُفَّارِ قَوْمِهِ.

العَقْرُ فِي اللُّغَةِ: يَأْتِي بِمَعْنَى قَطْعٍ إِحْدَى قَوَائِمِ الْبَعِيرِ لِيَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَتِمَكَّنُ الْعَاقِرُ مِنْ ذَبْحِهِ، وَيُقَالُ: عَقَرَ الْحَيَوَانَ، إِذَا ذَبَحَهُ.

وَيُمْكِنُ تَصْوِيرُ مَا قَامَ بِهِ قُدَارٌ، أَشْقَى ثَمُودَ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَعَطَّيْنَاهُمَا فَعَقَّرَ﴾ أَنَّ هَذَا الْأَشْقَى أَسْرَعَ عَقْبَ مَنَادَةِ قَوْمِهِ لَهُ مُحَرِّضِينَ إِلَيْهِ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ النَّاقَةِ، فَتَنَاوَلُوا سِلَاحَهُ بِخَفَّةٍ، وَأَقْبَلَ مُتَبَاسِلًا يَمْشِي عَلَى رُؤُوسِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ، مَاذَا يَدِيهِ بِسِلَاحِهِ إِلَى الْأَعْلَى، وَأَقْبَلَ بِجُرْأَةٍ إِلَى النَّاقَةِ، فَعَقَّرَهَا أَوَّلًا حَتَّى سَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ، وَعَقَّرَهَا ثَانِيًا فَذَبَحَهَا.

فَمَا أَبْدَعَ هَذَا التَّصْوِيرَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ بِإِيْجَازٍ جَمِيلٍ عِبَارَةُ ﴿فَعَطَّيْنَاهُمَا فَعَقَّرَ﴾ .

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٣٩) ؟.

سَبَقَ تَدْبِيرُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ، إِذْ جَاءَ نَظِيرُهَا فِي مَوْجِزِ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَوْجِزِ إِهْلَاكِ عَادَ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَفِي كَلِمَةِ ﴿النُّذُرُ﴾ الْقُرْءَاتُ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا فِي النَّظَائِرِ بِشَأْنِ إِثْبَاتِ بَيِّنَاتِ الْمَتَكَلِّمِ أَوْ حَذْفِهَا.

● قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخْطِرِ﴾ (٣١).

في هذه الآية جواب السؤال الذي تضمنته الآية السابقة، وهي عبارة مؤكدة بـ (إِنَّ)، والجملة الإسمية جاء فيها استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدلالة على عزة الربوبية، وسُلطان الجبار القاهر فوق عباده، الذي هو على ما يشاء قدير.

﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: أي: صوتاً عظيماً واحداً، كافياً للإهلاك والإبادة.

﴿فَكَانُوا﴾: أي: فَكَانَ كُفَّارُ ثُمُودَ.

﴿كَهَشِيمِ الْحَخْطِرِ﴾: الهشيمُ في اللغة: يأتي للدلالة على عدة معانٍ:

● يأتي بمعنى المَهْشُومِ المتكسّر من النباتات والأشجار وغيرها من الأشياء.

● ويأتي بمعنى الشجرة البالية، التي يأخذها الحاطب كيف يشاء.

● ويأتي بمعنى اليبس من كلّ شيء، ولا سيما الأشجار والنباتات.

المحتظر: هو الذي يُريد أن يَضْنَعَ حَظِيرَةَ لِمَاشِيَتِهِ، فيَجْمَعُ أَعْوَاداً، وأشجاراً يابسةً قَدِيمَةً، وأشواكاً من الهشيم، وَيَجْعَلُهَا أَكْوَاماً، لِيُقِيمَ مِنْهَا السِّيَاحَ حَوْلَ حَظِيرَتِهِ.

شبه الله عز وجل قتلَى ثُمُودَ بَعْدَ إهلاكهم بِأَكْوَامٍ من الهشيم التي يجمعها المحتظر لإقامة حظيرته.

وهذه الصيحة الصَّوتِيَّةُ قَدْ كَانَتْ مَصْحُوبَةً بِالرَّجْفَةِ الَّتِي تَزَلْزَلَتْ بِهَا الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَمَصْحُوبَةً بِصَاعِقَةٍ عَذَابٍ عَظِيمَةٍ:

دَلَّ عَلَى الرَّجْفَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/

٣٩ نزول): بِشَأْنِهِمْ:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (٧٨).

ودلّ على الصاعقة قول الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول): بشأنهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧).

﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾: الهون: الذلّ، والخزي، وهو مصدر «هَانَ، يَهُونُ، هُونًا، وهَوَانًا، ومَهَانَةً» فهو من قبيل الوصف بالمصدر على التأويل بمشتق، أي: العذاب المهين، أو هو بدلٌ من العذاب، فيكون المعنى: فأخذتهم صاعقة العذاب، وهي أيضاً صاعقة الهون، أي: صاعقة الذلّ والخزي.

وانتهى الأمر بطحنهم وتَسْوِيَةِ الأرض فوقهم، كما جاء في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقال تعالى فيها بشأنهم مع رسولهم وناقة الله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُمَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمُ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٤).

يقال لغة: دَمْدَمَ الْقَوْمَ، وَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ، أي: طَحَنَهُمْ مُهْلِكًا لَهُمْ. ويقال: دَمْدَمَ عَلَيْهِ الْقَبْرُ أَوْ الْأَرْضُ، أي: أَطْبَقَهُ عَلَيْهِ، وَسَوَّى الْأَرْضَ فَوْقَهُ.

● قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا الْفَرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ (٣٦):

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلكين الأولين المختارين للذكر في هذه السورة، والتي تكررت أربع مرّات، وقد سبق تدبرها في آخر فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام على قدر أوعيتنا الفكرية.



## رابعاً: الفقرة الرابعة

## موجز إهلاك قوم النبي الرسول لوط عليه السلام

(الآيات من ٣٣ - ٤٠)

قال الله عز وجل:

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ۖ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ مِمَّا يُسْحَرُونَ ۚ نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۖ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ۖ وَلَقَدْ رَزَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۖ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۖ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۖ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ۖ﴾

● في كلمة: ﴿النُّذُرُ﴾ في الموضعينِ القراءاتُ التي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلم أو حذفها.

هذا النصّ هو ثاني نَصّ نزل بشأن قوم لوط عليه السلام، بحسب ترتيب النزول، فقد سبقه ما جاء في سورة (ق/ ٥٥ مصحف/ ٣٤ نزول).

فقد ذُكِرُوا فيها بعنوان «إخوان لوط» ضمن مجموعةٍ ممّن كَذَبَ الرُّسُلَ فحقّ عليهم وعيد الله.

## لَمَحَظَةٌ عَنْ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ:

لوط عليه السلام هو ابنُ أخِي إبراهيم عليه السلام، فلوّط هو ابنُ هَارَانَ، وهاران أخو إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد كان لوط قبل نُبوّته من المؤمنين، آمن بعمّه إبراهيم، وهاجر معه حتّى استقرّ في أرضِ فلسطين من بلاد الشام.

ثمّ أَمَرَ إبراهيم عليه السلام ابنَ أخيه لوطاً، أن يَنزَحَ بما يَمْلِكُ من أموال عن مَواطنِ إقامته مع عمّه، ويذهبَ إلى أرضِ الغُورِ، المعروف بِغُورِ



زُغَرَ، فَارْتَحَلَ وَأَقَامَ بِمَدِينَةٍ سُدُومَ مِنْ ذَلِكَ الْعَوْرِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ تَتَّبِعُهَا عِدَّةٌ قُرَى، هِيَ: «صَبْعَةٌ - عَمْرَةَ - أَذْمَا - صَبُؤِيم - بَالِغ».

وَسُدُومَ وَقَرَاهَا كَانَتْ فِي مَكَانِ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ الْمَعْرُوفِ الْآنَ فِي الْأَزْدَنْ.

فَنَزَلَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَرْضِ سُدُومَ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهَا نَسَبٌ.

وَاصْطَفَاهُ اللَّهُ بِالنَّبَوَّةِ، وَأَرْسَلَهُ رَسُولًا إِلَى أَهْلِ مَدِينَةِ سُدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنْ قُرَاهَا. وَكَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ، وَأَكْثَرِهِمْ كُفْرًا وَظُلْمًا، كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ، يَعْمَلُونَ الْخَبَائِثَ، وَيَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، وَيَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ الْمُنْكَرَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ.

فَدَعَاهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَفَوَاحِشِهِمْ وَمُنْكَرَاتِهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِ اللَّهِ وَقَطْعِ سَبِيلِ الْمَسَافِرِينَ، فَكَذَّبُوهُ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ.

فَأَنْذَرَهُمْ عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَمَعَجَلَ نِقْمَتِهِ، فَكَذَّبُوا بِالْأَنْذَرِ، أَيْ بِالْإِنْذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا.

وَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِمْ مَوَاعِظَهُ، وَنُصَحَهُ لَهُمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَخْرِجُوا لُوطًا وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ أَرْضِكُمْ، إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ كِبَرَاءُ قَوْمِهِ: لَيْتَنِي لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرَجِينَ، ثُمَّ قَالُوا لِعَامَّتِهِمْ: أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ.

وَوَضَعَ كِبَرَاءُ قَوْمِهِ عَلَيْهِ عِزْلًا اجْتِمَاعِيًّا، فَنَهَوْهُ عَنْ أَنْ يَلْتَقِيَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، مِنْ قَوْمِهِمْ وَمِنْ خَارِجِ قَوْمِهِمْ.

ولَمَّا صَارَ اخْتِيَارُهُمْ بِإِرَادَاتِهِمْ سَبِيلَ الْهُدَى أَمْرًا مَيُوسًا مِنْهُ، فَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِهِ، وَعَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهِمْ، قَضَى جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا عَامًّا.

فَبَعَثَ اللَّهُ مِنْ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يُعَذِّبُهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ وَيَقْلِبُ بِلَادَهُمْ عَالِيَهَا سَافِلَهَا. وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَمُرُّوا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَبْشَرِينَ إِيَّاهُ بِاسْحَاقَ مِنْ زَوْجَتِهِ الْعَاقِرِ سَارَةَ، وَمُبَيِّنِينَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ سَيُضْلِحُهَا لِلْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ، وَمُبَلِّغِينَ إِيَّاهُ بِمَا كَلَّفَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنْ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطَ، بِاعْتِبَارِهِ شَيْخَ النَّبُوَّةِ وَالرُّسَالَةِ فِي زَمَانِهِ، وَبِاعْتِبَارِ لُوطَ مُوجَهًا بِقِيَادَتِهِ إِلَى أَهْلِ سَدُومَ. وَحَاوَلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ إِمْهَالَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: يَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ.

وَكَانَ الْمَلَائِكَةُ قَدْ جَاءُوا إِبْرَاهِيمَ بِصُورَةِ ضُيُوفٍ، وَلَمَّا لَمْ يَمْدُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ طَعَامٍ، أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، عِنْدَئِذٍ كَشَفُوا لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ، وَبَشَّرُوهُ وَبَلَّغُوا.

ثُمَّ ذَهَبُوا إِلَى لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَنْزِلِهِ فِي سَدُومَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، وَكَانُوا عَلَى صُورِ شَبَابٍ مُزْدِ حِسَانٍ، فَرَحَّبَ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِمْ، وَعَلِمَ كِبَرَاءَ قَوْمِهِ بِأَنَّ لُوطًا اسْتِصْفَا شَبَابًا مُزْدًا حِسَانًا، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ: أَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ.

وَأَرَادُوا الدُّخُولَ عَنُودَةً إِلَى دَارِهِ لِاِغْتِصَابِ ضُيُوفِهِ، وَمِمَارَسَةِ الْفَاحِشَةِ بِهِمْ، فَحَاوَلَ مِنْعَهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ.

عِنْدَئِذٍ قَالَ لَهُ ضُيُوفُهُ: إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ أَرْسَلْنَا لِإِهْلَاكِ قَوْمِكَ وَرَمَوْا فِي وُجُوهِ الْمُحْتَشِدِينَ عَلَى بَابِ دَارِهِ مَا أَخْرَقَ عَيُونَهُمْ، وَطَمَسَ أَبْصَارَهُمْ، فَانْكَفَّوْا عَنْ دَارِهِ يَذُوقُونَ عَذَابَ حَزَقِ الْعَيُونِ وَالْوُجُوهِ.

وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ لِلْوَطِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ إِهْلَاكَ الْقَوْمِ الْعَامَّ سَيَكُونُ عِنْدَ

الصُّبْح، وَقَدْ قَضَى اللَّهُ بِأَنْ يَنْجِيكَ وَأَهْلَكَ مِمَّا سَيَنْزِلُ بِقَوْمِكَ، إِلَّا أَمْرَاتُكَ، فَإِنَّهَا سَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُشَاعِيَةً لَهُمْ عَلَيَّ جَرَائِمِهِمْ.

وَلَمَّا دَنَا الْوَقْتُ قَالُوا لَهُ: اخْرُجْ أَنْتَ وَأَهْلُكَ قَبْلَ الصُّبْحِ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، وَابْتَغِ عَنْ كُلِّ حُدُودٍ أَرْضِيهِمْ، فَإِنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ عِنْدَ الصُّبْحِ، فَخَرَجَ بِأَهْلِهِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ وَسَائِلَ الْإِهْلَاكِ الْعَامَ بِقَوْمِهِ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ حَاصِبًا مِنَ السَّمَاءِ، وَأَمْطَرَهُمْ بِحِجَارَةٍ مُخْرِقَةٍ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، وَأَذَاقَهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا، دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، وَقَلَبَ أَرْضَهُمْ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَدَفَنَهُمْ فِي بَاطِنِهَا، فَهُمْ وَبِلَادُهُمْ فِي قَاعِ الْبَخْرِ الْمَيِّتِ.

وَأُنَجَّى اللَّهُ لُوطًا وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مَعَ الْهَالِكِينَ.

### التدبر التحليلي للنص:

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ (٣٣).

﴿قَوْمٌ﴾: لفظ يُطْلَقُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ يَقُومُونَ لَهَا.

﴿بِالَّذِي﴾: هُنَا جَمْعُ «النَّذِيرِ» الَّذِي هُوَ مُضَدُّ فِعْلٍ «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذَارًا» أَي: كَذَّبُوا بِالْإِنْذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا رَسُولُهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَهِيَ إِنْذَارَاتٌ مُتَعَدَّدَاتٌ أَنْذَرَهُمْ بِإِيَّاهَا، عَاجِلَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَآجِلَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٣٤).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾: جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، إِشْعَارًا بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ، وَسُلْطَانِ جَبْرُوتِهِ وَقَهْرِهِ، إِذِ الْمَوْضُوعُ يَتَعَلَّقُ بِإِهْلَاكِ الْمَجْرِمِينَ، وَهُمْ قَوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإرسال: هو التوجيه لأداء مهمة ما بتؤدة وترقي وأناة وتعقل وحكمة.

﴿حَاصِبًا﴾: أي: ريحاً شديدة بلغت شدتها أن تحمل الحصباء من الأرض، وهي الحجارة الصغيرة. وترفعها في الجو، ثم تهوي بها حاصبةً، أي: رامية ما تقع عليه من أحياء وأشياء، فهي من صور العذاب التي يُرسلها الله على من يريد تعذيبهم وإهلاكهم. وقد وصف الله هذا الحاصب بأنه عذاب، أي: وسيلة عذاب، كما جاء في الآية (٣٩) من هذا النص.

وجاء في نصوص أخرى وصف هذا الحاصب بأنه مطر من حجارة من سجيل منضود (أي: من طين متحجر مجتمع متسق) وقد يكون للنار أثر في تحجره. وجاء وصف هذه الحجارة بأنها مسومة عند الله، أي: معلمه بعلامات خاصة تميزها عما سواها.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾: أي: إلا لوطاً عليه السلام وآله، فقد نجاهم الله عز وجل بوقت السحر، إذ صبّح الله القوم بالعذاب فأنزل عليهم وسائله بعد الصبح.

### كلمتا أهل وآل في دلالات النصوص القرآنية:

ولم تدخل زوجة لوط عليه السلام في هذا الاستثناء، وإن كانت من أهله، لأنها في المفهوم الديني ليست من آله، إذ كلمة (آل) لا تستعمل غالباً إلا في أشرف القوم، ولما كانت امرأة لوط كافرة، لم تستحق أن تكون مكتسبة شرف لوط والتابعين له، فلم يُنظر في هذا النص إلى استثنائها من آله الناجين، إذ هي في الحقيقة لا يصح أن تكون من آله.

لكن جاء استثناءها من عموم أهله، في نصوص (الأعراف) و(الشعراء) و(النمل) و(هود) و(الصافات) و(العنكبوت) إذ ذكر في هذه النصوص لفظ «أهل» لا لفظ «آل». وقد دللنا هذا الاستعمال القرآني على أن الكفرة من أهل النبي لا ينبغي أن يدخلوا في عموم آله بحسب المفهوم

الديني، وإن كانوا يَدْخُلُونَ في عُمومِ أهله، باعتبار النسب أو المصاهرة دون ملاحظة الشرف والمشاركة في الفضيلة الدينية.

ولمَّا قَطَعَ ابْنُ نُوحٍ عليه السَّلام، الذي دعاه أبوه للركوب في السفينة صِلَتِ النسبَةُ بأبيه بكفره، إذ عَلِمَ الابن أن الرُّكُوبَ في السفينة شَرْطُهُ الإيمان، قال: سأوي إلى جَبَلٍ يَغْصِمُنِي من الماء، فهو بِكُفْرِهِ قَدْ قَطَعَ صِلَتَهُ النِّسْبَةَ، فكان من المغرقين، ولم يكن نوح عليه السَّلام يَعْلَمُ أَنَّ ابْنَهُ هذا كان من الكافرين، وكان الله عزَّ وجلَّ قَدْ وَعَدَهُ بِأَنْ يُنْجِيَهُ وَأَهْلَهُ، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ وَلَانَّ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) فقال الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي: فَهُوَ بِكُفْرِهِ وَسُلُوكِهِ عَمَلٌ غير صالح، فهو ليس من أَهْلِكَ الذين وَعَدْتُكَ بِأَنْ أَنْجِيَهُمْ مَعَكَ.

أما ما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزل) في الآيتين (٥٩ - ٦٠) من استثناء امرأة لوط من عموم آلِه فهو جارٍ على مفهوم الناس الذين لا ينظرون إلى المفهوم الديني الأحقِّ بالاعتبار، كما جاء استعمال الآل بالنسبة إلى أهل فرعون، مجارة لمفاهيم الناس.

وبهذه النظرة الشاملة أدركنا التكامل في الأداء البياني القرآني بشأن كلمة الآل، استعمالاً وتوجيهاً إلى ما هو الأحقُّ بالاعتبار.

وذكر الله عزَّ وجلَّ في النص الذي نتدبره من سورة (القمر) آل لوط، ولم يذكر لوطاً نفسه، لأنَّ لوطاً عليه السلام يُفْهَمُ باللُّزوم العقلي أنَّ الله قد أَنْجَاه، إذ هو الأحقُّ والأوَّلَى بالنَّجاة، فدلَّ هذا الصنيع القرآني على أنَّ من الأدلة في أساليب الكلام ما يُسْتَدَلُّ عليه بأنَّه هو الأوَّلَى بالأمرِ ممَّنْ ذُكِرَ، أو ممَّا ذُكِرَ بصريح العبارة.

● قول الله تعالى: ﴿رِئَمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ يَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٢٥).

أبان الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنَّ نِجاة آل لوط من العذاب الذي

قَضَاهُ عَلَى كُفَّارِ قَوْمِهِ قَدْ كَانَ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِهِ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهَا قَدْ كَانَتْ جَزَاءً مُعْجَلًا أَثَابَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، اسْتِنْبَاطاً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ وهذه الجملة تدلُّ على أَنَّ مَنْ سَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْزِيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا جَزَاءً مُعْجَلًا كُلَّ مَنْ شَكَرَ، بِمَا تَقْضِي بِهِ حِكْمَتُهُ مِنْ جَزَاءٍ يَسُرُّ الشَّاكِرِينَ.

والمعنى: نَجِيتَنَا آلَ لُوطٍ نَجَاةً نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وهذه النعمة جاريةٌ وَفْقَ سُنَّتِنَا لِعِبَادِنَا الشَّاكِرِينَ.

ولا يخفى الغرض من استعمال ضمير المتكلم العظيم هنا الدال على جلال الربوبية.

الشُّكْرُ: مُقَابِلَةُ إِنْعَامِ الْمُنْعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ، أَوْ أَيْ شَيْءٍ، وَقَدْ يَشْمَلُ الْقَوْلَ الَّذِي يُرْضِي الْمُنْعِمَ، وَتَخْتَصُّ عِبَارَاتُ تَمْجِيدِ الْمُنْعِمِ بِعَنْوَانِ «الْحَمْدِ» أَوْ «الثَّنَاءِ» أَوْ «الْمَدْحِ».

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ جيء بها لتأكيد مَضْمُونِ الجملة بعدها وتحقيقه.

﴿أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾: أي: أَخْبَرَ لُوطٌ قَوْمَهُ بِأَنَّنَا سَنَبْطِشُ بِهِمْ بَطْشَةً انتِقَامَ كُفْرِهِمْ، إِذَا لَمْ يُقْلِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَبَغْيٍ وَفُحْشٍ كَانُوا فِيهِ مِنَ الْمُسْرِفِينَ السَّابِقِينَ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ، بِمَجَانَةٍ وَمُجَاهَرَةٍ وَوَقَاحَةٍ بِالْغَةِ الْغَايَةِ.

البَطْشَةُ: هِيَ الْمَرَّةُ مِنَ الْبَطْشِ، وَالْبَطْشُ الْأَخْذُ بِقُوَّةٍ وَعُنفٍ وَشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَةِ. السَّطْوُ فِي سُرْعَةٍ.

يُقَالُ لُغَةً: بَطَشَ بِالشَّيْءِ، إِذَا أَمْسَكَهُ بِقُوَّةٍ، وَيُقَالُ: بَطَشَ عَلَيْهِ، إِذَا سَطَا فِي سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ.

ومعلومٌ أَنَّ بَطْشَةَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ.

﴿فَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: أي: فكذبوا بالنُّذُرِ، أي: بالإنذارات التي كرَّرها عليهم لوط عليه السَّلام. فَسَّرَ الْفَرَاءَ التَّمارِي بالتكذيب في قوله تعالى: ﴿يَأَيَّ آلَاءِ رَبِّكَ نَسَآئِي﴾ (٥٥) وهذا المعنى هو الملائم هنا فيما أرى، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال بشأنهم في أول النص: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ (٣٣).

التَّمارِي: يأتي في اللَّغَةِ بمعنى المجادلة، ويأتي بمعنى التَّشْكُّكِ. والمجادلة تُشْعِرُ بالتكذيب، فهم قد كذبوا بالنُّذُرِ وجادلوا لوطاً عليه السَّلام بشأنها.

● قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ (٣٧).

﴿رَاودُوهُ﴾: تأتي المراودة في اللَّغَةِ بمعنى المخادعة والمراوغة، وتأتي بمعنى طَلَبِ الْفُجُورِ والفاحشة، يقال لغة: رَاوَدَ المرأةَ. أي: طَلَبَ أَنْ يَفْجُرَ بها.

فكَبَّرَاءُ قَوْمِ لُوطٍ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَفْجُرُوا بِضَيْفِهِ الشَّبابِ الْحَسَنِ. فمعنى ﴿رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾: طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْلِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ضَيْفِهِ، وَيُمْكِّنَهُمْ مِنْ أَنْ يَفْجُرُوا بِهِمْ، وَأَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ طَرِيقِهِمْ، لِيَصِلُوا إِلَى مَا يَبْتَغُونَ فِي ضَيْفِهِ.

كلمة «ضَيْفٍ» يستوى فيها المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر والمؤنث، وَيُخْمَلُ لَفْظُهَا فِي كُلِّ اسْتِعْمَالٍ عَلَى مَا يُنَاسِبُهُ.

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾: أي: فأغْمَيْنَاهُمْ. أصل الطَّمَسِ، المَخُوءُ والإزالة. يقال لغة: طَمَسَتِ الرِّيحُ الْأَثَرَ، أي: أزالته وَمَحَّته.

وَطَمَسَ الْعَيْنُ الكواكب، أي: حَجَبَ ضَوْءَهَا. ويقال: طَمَسَ عَيْنَهُ وَطَمَسَ عَلَى عَيْنِهِ، أي: أَعْمَاهَا.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾: هذا ما قاله أمر الله التكويني، الذي دلّهم عليه واقع حالهم عند طمس أعينهم، وإذاقتهم آلام الطمس بمواد حارقة، إذ شعروا بصحة النذر التي أنذرهم بها رسولهم لوط عليه السلام، وقال كل واحد منهم في نفسه: صدق لوط، وصدقت النذر التي بلغها عن ربه، وها نحن نذوق عذاب الله وعاقبة نذره.

لما جاءت الملائكة المأمورون بإهلاك قوم لوط، وإنزال العذاب بهم، وقلب أرضهم عاليها سافلها، جاءوا إلى لوط عليه السلام بصور شباب مُزْدِحْسَان، فلم يعرفهم لوط أنهم رسل من الملائكة، فخاف عليهم من قومه أن يتغوا فيهم الفاحشة، فسيء بهم، وضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يوم عصيب.

وعلم قومه بضيقه، فجاء كبارهم إليه يهرعون، يتغون الفاحشة الشاذة عن سواء الفطرة، فحاول لوط عليه السلام دفع قومه عن ضيقه بما يملك من وسائل، وصار المحاصرون لداره من قومه يُنازعونه ويدافعونه، ليدخلوا إلى داره عنوة، عندئذ كشف الرسل من الملائكة للوط حقيقتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢):

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِاهْلِكَ يقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرناك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح اليس الصبح يقرب ﴿٨١﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴿٨٢﴾ مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعيد ﴿٨٣﴾﴾.

لقد كان الوقت ليلاً، وكان قومه الطغاة الفاسقون يريدون اقتحام بابه، ليصلوا إلى ضيقه داخل داره، فنالهم من الله عذاب طمس العيون.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾.



﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة تأكيد وتحقيق للخبر الذي تَضَمَّنَتْهُ الجملة.

﴿صَبَحَهُمْ﴾: جاءَهُمْ في وقت الصُّبْح، وهو أوَّل النهار عند الصُّبْح.

﴿بُكْرَةً﴾: البُكْرَةُ هِيَ أوَّل النَّهَارِ إلى طُلُوع الشمس.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾: أي: عَذَابٌ ثَابِتٌ مُّتَمَكِّنٌ تَمَكَّنَا تَامًا من الَّذِينَ نَزَلَ بِهِمْ، فَهُوَ غير متقطع، وَلَا تَخَفُ شِدَّتُهُ، وَلَا يَتَذَبَذَبُ بَيْنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ.

يقال لغة: استقرَّ بالمكان، أي: تَمَكَّنَ فِيهِ وَسَكَنَ وَثَبَتَ.

دَلَّتْ هذه العبارة على أَنَّ العَذَابَ الذي نَزَلَ بِهِمْ بَدَأَ عِنْدَ طُلُوع الصُّبْح، وَاسْتَمَرَّ مُسْتَقَرًّا يَذُقُونَهُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ حَتَّى الْإِشْرَاقَ، لِأَنَّ الصَّيْحَةَ الَّتِي أَهْلَكْتَهُمْ قَدْ أَخَذَتْهُمْ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحجر/١٥/ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

● ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾: سبق تدبُّرُ هذه العبارة، والتعبير بها هُنَا يُؤَكِّدُ أَنَّهُمْ ذَاقُوا الْعَذَابَ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، كَمَا ذَاقَ الْعَذَابَ الَّذِينَ طُمِسَتْ عُيُونُهُمْ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَهْلَكَتْهُمْ، وَدَمَّرَتْ دِيَارَهُمْ، وَجَاءَتِ الرَّجْفَةُ، وَالصَّاعِقَةُ، وَالتَّفْجِيرَاتُ الَّتِي جَعَلَتْ بِلَادَهُمْ عَلَيْهَا سَافِلَهَا.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤١﴾﴾.

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلكين الأولين، المختارين للذكر في هذه السورة، والتي تَكَرَّرَتْ فِيهَا أَرْبَعُ مَرَّاتٍ، وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُهَا بِتَوْشِعٍ فِي آخِرِ فُقْرَةِ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى مَقَادِيرِ أَوْعَيْتِنَا الْفِكْرِيَّةِ.



## خامساً: الفقرة الخامسة موجز مختزل بشأن إهلاك فرعون وآله

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

تمهيد:

قصة فرعون وآله مع موسى وهارون عليهما السلام قصة طويلة جداً، وقد جاءت موزعة في القرآن بنصوص متعددة من سوره، والغرض المناسب لحال كفار قريش إبان تنزيل هذه السورة التي نتدبرها، هو عرض لفظة تكذيب فرعون وآله بالثذر المتعددة التي أُنذِرهم بها موسى وهارون عليهما السلام، لمعالجة كفار قريش في قضية تكذيبهم بالثذر التي أُنذِرهم بها رسول الله ﷺ.

وهذا يدلنا على أنَّ من أساليب العلاج الدعوي للكافرين تجزئة عناصر العلاج، بتجزئة القضايا الكبرى التي يعالجها الداعي، إلى قضايا صغرى، ومعالجة كل واحدة منها معالجة خاصة بها، ولو كانت من الأصول الاعتقادية الجذور، مع لزوم التقيد بالتدرج، والأخذ بالأولويات، بالبداية بما هو الأولي في ترتيب البناء الفكري، أو بما هو الأولي بأن يُبدأ به من وسائل العلاج، وهكذا بالتصاعد المتدرج، حتى الفروع وفروع الفروع تسلسلاً مع الشجرة الفكرية، وتسلسلاً ارتقائياً مع الوسائل العلاجية.

إنَّ تصديق المدعوين بالثذر الربانية التي يُبلِّغها الرسول عن ربه، من الأصول الاعتقادية، وهو جزئية من جزئيات وجوب التصديق بكل ما يُبلِّغ عن ربه، والتكذيب بها يوقع في الكفر لا محالة، والكفر جزاؤه الخلود في النار يوم الدين.

لكنَّ معالجة هذه الجزئية تأتي بعد معالجة الإيمان بالله وبصفاته،

وبوحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وبَعَدَ معالِجَة صِحَّة رسالة الرُّسُول، وبَعَدَ معالِجَة الإيمان بيوم الدين.

فالإنذار بالعقاب المُعَجَّل في الدنيا، من الجزئيات العقديّة المتأخّرة في تدرُّج البناء الفكري، عن القُضَايا التي سبق ذكرها.

ونُلاحظُ أن السُّور السَّابِقة لسُورَة (القمر) في ترتيب النزول، قد نزل فيها التَّلْويح والتَّصْريح بالعقوبات المُعَجَّلَات إنذاراً للكافرين، ثم كان من المناسب في العلاج إِبَانَة نُزول سورة (القمر) أن تكون هذه السُّورة مُشْتَمِلَةً على معالِجَة جُزْئِيَّة تَكْذِيب كُفْرَاءِ كُفَّارِ قريشٍ بالنُّذْر التي أُنْذِرَهُمْ بها رُسُول الله مُحَمَّد ﷺ.

وأفضَلُ علاج يُؤثّر فيمَنْ لَدَيْهِ استعدادٌ إِرَادِيٌّ للتأثّر هو عَرَضُ أمْثَلَةٍ مِنَ الواقع، تَشْتَمِلُ عَلَى تَكْذِيب الأُمَم بِنُّذْر رُسُلِهِمْ، فَكَانَتْ عَوَاقِبُ تَكْذِيبِهِمْ بِهَا أَنْ تَمَّ تَحَقُّقُ مَا أُخْبِرَ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ إِنْذَارَاتٍ بِعُقُوبَاتٍ مُعَجَّلَاتٍ فِي الدُّنْيَا، كَانَ بِهَا تَغْذِيبُ الأَقْوَامِ وإِهْلَاكُهُمْ.

فالعناية في سورة (القمر) قد كانت مُوجَّهَةً لِعَرَضِ فِقَرَاتٍ مِنْ إِهْلَاكِ بَعْضِ المَكْذِبِينَ الأوَّلِينَ بالنُّذْر، مع ما جاء فيها من ذكر مرافقاتٍ تدعو الحِكْمَة البَيَانِيَّة والعِلَاجِيَّة أَنْ تُذَكَّرَ فِيهَا.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة فيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة بعدها.

﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾: «النُّذْرُ»: فَاعِلُ «جاء» و«آلَ فِرْعَوْنَ» مَفْعُولٌ بِهِ مُقَدَّمٌ عَلَى الفاعل، والغَرَضُ البلاغي من هذا التقديم توجيهُ اهْتِمَامِ المتلقِّي للمتحدِّثِ عَنْهُمْ ضِمْنَ المَكْذِبِينَ الأوَّلِينَ بالنُّذْر، فالتكذيب بالنُّذْر عنوان عَرَفَ مُنْذُ بيان تَكْذِيب قَوْمِ نوحٍ بالنُّذْر، فَتَنَفَّسَ المتلقِّينَ تَطَلُّعٌ مَعَ كُلِّ فِقْرَةٍ لِلْمَكْذِبِينَ، فَهَمَّ الأوَّلَى بالتقديم في العبارات المسوقات لبيان إهلاكهم.

مع ما في تأخير كلمة ﴿النَّذْرُ﴾ من مُراعاة نَسَقِ رؤوس الآيات وتَنَاطُرِها.

إِنَّ فِرْعَوْنَ هُوَ رَأْسُ آلِهِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَاءَتْهُ النَّذْرُ، وَقَدْ دَلَّ الْفِكْرُ عَلَى دُخُولِهِ فِي مَنْ جَاءَهُمُ النَّذْرُ، إِذْ هُوَ أَوَّلَاهُمْ بِالْإِنذَارِ، وَقَدْ عَلَّمَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ مِنَ التَّعْبِيرِ، أَنَّ مِنَ الْبَيَانِ الرَّفِيعِ حَذْفَ مَا يُفْهَمُ أَنَّهُ مَشْمُولٌ بِحُكْمِ الْقَضِيَّةِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

﴿النَّذْرُ﴾: هي الإنذارات بعقوبات اللَّهِ الْمُعْجَلَاتِ فِي الدُّنْيَا، وَالْمُؤَجَّلَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ ﴿٤٢﴾﴾.

ذَكَرَ آلَ فِرْعَوْنَ يَسْتَتَبِعُ جُنُودَهُمْ، وَكُلَّ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ فِي عَقَائِدِهِمْ وَمَبَادِئِهِمْ وَاتِّجَاهَاتِهِمْ وَقَرَارَاتِهِمْ، وَيَقَعُ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ فِرْعَوْنَ نَفْسَهُ، لِأَنَّ مَا يَقُولُهُ فِرْعَوْنَ قَدْ كَانَ يَقُولُهُ كُلُّ آلِهِ، وَكُلُّ شَعْبِهِ، بِاسْتِثْنَاءِ الْقِلَّةِ النَّادِرَةِ، كَزَوْجَةِ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ.

فَكُلُّ شَعْبٍ مُضِرِّ الْخَاضِعِينَ بِالْوَلَاءِ التَّامِّ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ، قَدْ كَانُوا يَقُولُونَ مِثْلَ مَقَالَةِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَجْمُوعِهَا تَسْعُ آيَاتٍ كُبْرَى، إِلَّا أَنَّ الَّذِينَ أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْبَحْرِ هُمُ فِرْعَوْنُ وَآلُهُ وَجُنُودُهُمُ الَّذِينَ جَنَّدُوهُمْ لِمُتَابَعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حِينَ أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ مِصْرَ، وَيَتَوَجَّهَ بِهِمْ شَطْرَ سِينَاءَ، فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فِي فِلَسْطِينَ، إِنَّ أَطَاعُوا التَّوَجِيهَ.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾: أَي: كَذَّبَ فِرْعَوْنُ وَآلُهُ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَعْبِ مِصْرَ، بِالْآيَاتِ الْعَظِيمِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ فِي مِصْرَ بِعَظَمَةِ رَبِّيَّتِهِ الَّتِي يَنَاسِبُهَا ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، عَلَى يَدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَزِيرِهِ أَخِيهِ هَارُونَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وتكذيبُ المكذِبين هؤلاء بكلِّ آياتِ الرَّبِّ الجليل العظيم، الَّتِي أجزاها اللهُ تأييداً لصدق موسى وهارون، بأنَّهما نبيَّان ورَسُولان لله الرَّبِّ الخالق جلَّ جلاله، لَيْسَ إنْكَاراً لَوْجُودِ أَعْيَانِهَا، فقد كانت أعيانُها حقائقَ مَشْهُودَةً للجميع، إِنَّمَا كَذَّبُوا بِكُونِهَا آياتِ رَبَّانِيَّةٍ يُؤَيِّدُ اللهُ بها رَسُولَينِ مُوسَى وَهَارُونَ.

وهذه الآياتُ قَدْ كانت أيضاً بمثابةِ إنذاراتٍ بِعَذَابٍ شاملٍ مُهِلِكٍ، لأنَّها كانت مُخِيفَاتٍ، ومُشْتَمِلَاتٍ على إنذاراتٍ غَيْرِ مُهِلِكَاتٍ إِهْلَاكاً عاماً شاملاً.

والآيات التي كَذَّبُوا بها هي بَعْضُ الآياتِ التَّسْعِ الَّتِي أعطاهَا اللهُ عَزَّ وجلَّ لموسى عليه السَّلام، وقد جاء تفصيلُها مُوزَّعاً في سُورٍ متعدِّدةٍ من القرآنِ المجيد.

الآياتُ الَّتِي آتاها اللهُ عَزَّ وجلَّ لموسى عليه السَّلام:

الآية الأولى: انْقِلَابُ عَصَاهُ حَيَّةً مُخِيفَةً تَسْعَى، ثُمَّ ابْتِلَاعُهَا حَبَالِ سَحَرَةٍ فِرْعَوْنَ وَعَصِيَّتِهِمْ.

وتكذيبهم بهذه الآية، قَدْ كان بإنْكَارٍ أَنْ تكون آيَةً رَبَّانِيَّةً، وبإدعاءِ أَنَّها عَمَلٌ من أعمالِ السَّحر، الذي اشتهرت به مصر في أَيَّامِ الفراعنة.

الآية الثانية: أَنْ يُدْخَلَ مُوسَى عليه السَّلامُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، فَيُخْرِجَها بَيَضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، تَتَلَأَلُوْا نوراً.

وتكذيبهم بهذه الآية قد كان بإدعاءِ أَنَّها عَمَلٌ مِنْ أعمالِ السَّحر أيضاً.

الآية الثالثة: آيَةُ «الرَّجْزِ» وهو العذاب، فقد ابتلاهم اللهُ عَزَّ وجلَّ بأنواعٍ عامَّةٍ من الرَّجْزِ، وكان كُلُّ واحدٍ مِنْها مَسْبُوقاً بِإِنْذَارٍ من موسى عليه السَّلام، وهي ما يلي

(١) رَجَزُ سَنَوَاتِ الْجَذَبِ وَالْقَحْطِ، وكان ذلك بسبب قلة مياه النيل، وانحباس أمطار السماء عن أرض مصر.

(٢) رَجَزُ نَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وكان ذلك بسبب ما يُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهَا من جوائح وآفات.

(٣) رَجَزُ الطُّوفَانِ، وكان ذلك بسبب ارتفاع فيضان النيل ارتفاعاً أثَلَفَ الزُّرُوعَ وَهَدَمَ المساكن، أو بسبب أمطارٍ غزيرةٍ نَشَأَ ذلك عنها.

(٤) رَجَزُ الْجَرَادِ، وكان ذلك بإرسال جيوش الجراد الجَرَّارَةِ المتكاثرة، التي لا تمرُّ على زرع أو ثمر أو شَجَرٍ أو أيِّ رزقٍ إِلَّا أَكَلَتْهُ.

(٥) رَجَزُ الْقُمَّلِ، وهو نوعٌ من الحشرات الصغيرة، اللَّوَاتِي تُقَضُّ مضاجعَ الناسِ إِذَا انْتَشَرَتْ فيهم.

قيل: هو كبارُ القراد. وقيل: هو صغار الجراد. وقيل: هو البقُّ. وقيل: هو حَشْرَةٌ تَغْمِسُ نَفْسَهَا فِي جِلْدِ الْإِنْسَانِ وَتَأْكُلُ مِنْهُ وَتَتَوَالَدُ، ويكون ظهرها مُسَاوِيّاً بعد انعماسها لِسَطْحِ جِلْدِ الْإِنْسَانِ، وقيل غير ذلك.

(٦) رَجَزُ الضَّفَادِعِ، وكان من أمرها أَنَّهَا كَثُرَتْ عندهم كَثْرَةً نَغَصَتْ عليهم مَعِيشَتَهُمْ، فَكَانَتْ تَسْقُطُ فِي أَطْعِمَتِهِمْ، وَفُرْشِهِمْ، وَمَلَابِسِهِمْ.

(٧) رَجَزُ الدَّمِ، وكان ذلك باستحالة الماء لأهل مصر دماً، أو مختلطاً بالدَّمِ. وقيل: سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرُّعَافَ. وقيل: أُصِيبُوا بِوَبَاءِ الدُّمْلِ، حَتَّى فُشِيَ فِي النَّاسِ وَفِي الْبَهَائِمِ.

وتكذيبهم بهذه الأنواع من الرّجَزِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ قد كان بادعاء أَنَّهَا ظَوَاهِرُ طَبِيعِيَّةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ الْكَوْنِ، وَلَيْسَتْ آثَارَ قَصْدِ رَبَّانِي يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ، وَيُنذِرُ بِهَا فِرْعَوْنَ وَآلَهُ وَجُنُودَهُمَا بِعَذَابٍ مُهِلِكٍ شَامِلٍ.

أَمَّا بَقِيَّةُ الْآيَاتِ التُّسْعِ، فقد أجراها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام،  
 بدءاً من يوم عبور الْبَحْرِ وإغراقِ فِرْعَوْنَ وآله وجنودهما، وما بَعْدَ خُرُوجِهِ  
 من البحر مع بني إسرائيل ناجين إلى صحراء سيناء.  
 ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْنًا مِّنْهُم مَّقْتَدِرٍ﴾: استُعْمِلَ أَخْذُ اللَّهِ لِلنَّاسِ فِي الْقُرْآنِ كُنَايَةً  
 عن الانتقام مِنْهُمْ بِعَذَابٍ مُّهِلِكَ.

الأضْلُ في الأخذ تناوُل الشيء والقبْضُ عليه وحيَازَتُهُ، وَيَحْمِلُ الأخْذُ  
 أحياناً معنى مَا يُؤْخَذُ له الشيء، فأخذ المذنب يحْمِلُ معنى مُعَاقَبَتِهِ بِذُنْبِهِ،  
 ولو لم يحْصُلْ أَخْذٌ جَسَدِيّ.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلم العظيم لأنّ الحدثَ الَّذِي  
 أَنْجَى الله عزّ وجلّ به موسى وبني إسرائيل، وَأَغْرَقَ بِهِ فِرْعَوْنَ وآله وجنودهما،  
 قد كان حَدَثًا عَظِيمًا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا الرَّبُّ الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ الْمُقْتَدِرُ الْعَزِيزُ.  
 ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾: مَفْعُولٌ مُّطْلَقٌ مُّبَيَّنٌ لِنَوْعِ الأخْذِ بِإِضَافَتِهِ إِلَى  
 اسْمَيْنِ من أسماء الله الحسنى، هما: عزيز، ومقتدر.  
 الْعَزِيزُ: هو القوي الغالب الذي لا يُغْلَبُ.

المُقْتَدِرُ: هو ذو القدرة البالغة الغاية، فَصِيغَةُ «المُقْتَدِرِ» أَبْلَغُ من صيغة  
 «القَادِرِ» أَخْذًا من زيادة المبنى الَّتِي تَدُلُّ على زيَاة المعنى.

وَقَدْ كَانَ أَخْذُ الله لَهُمْ بِمُعْجِزَةٍ فَلَقِيَ الْبَحْرَ لِمُوسَى عَلَيْهِ، وَدُخُولِ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ عَابِرِينَ سَالِمِينَ مِنْ مَكَانِ الْفَرَقِ، وَاتِّبَاعِ فِرْعَوْنَ وآله وَجُنُودِهِمْ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي عَبَرُوا مِنْهُ، وَلَمَّا نَجَا بَنُو إِسْرَائِيلَ وَخَرَجُوا مِنَ  
 الْبَحْرِ عَنْ آخِرِهِمْ، وَتَوَسَّطَ فِرْعَوْنَ وآله وَجُنُودُهُمْ طَرِيقَ الْعُبُورِ، أَمَرَ اللَّهُ  
 الْبَحْرَ أَنْ يَنْضَمَّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، فَأَهْلَكَهُمْ اللهُ جَمِيعًا، بِسُلْطَانِ عِزَّتِهِ  
 وَاقْتِدَارِهِ، فَكَانُوا غَرَقَى هَلَكَى، وَأَخَذَ اللهُ جَسَدَ فِرْعَوْنَ إِلَى الشَّاطِئِ، لِيَكُونَ  
 عِبْرَةً لِمَنْ يَتَّبِعُ مِنْ جَبَابِرَةِ الْأَرْضِ، كَمَا جَاءَ فِي نَصِّ آخِرِ.



## (٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع من ذرّوس السّورة وهو الآيات من (٤٣ - ٤٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوَّلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمُرٌ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

تمهيد:

بعد أن جاء في السّورة عرض أمثلة خمسة من المكذّبين بالنّذر، من كفّار القرون الأولى، وكيف أهلكهم الله جلّت قدرته وعظّم سلطانه، إهلاكاً شاملاً، بعذله وحكمته، فحقّق فيهم نذره الّتي بلّغهم إيّاها رُسُله، وأنزل بهم ما كانوا به يكدّبون، وفي هذا العرض بيانٌ للّذين كذّبوا بالنّذر الّتي أنذَرَهُمْ بها رسول الله مُحَمَّدٌ ﷺ، وفي مقدّمتهم كُبراء قُرَيْش، بأنّهم إذا أصروا على موقف التّكذيب الّذي اختاروه لأنفسهم، جعلوا أنفُسَهم عُزْضةً لأنّ يُجْري الله فيهم سُنَّتَهُ الّتي سَبَقَ أن أجراها في أمثالهم من أهل القرون الأولى، فُسُنَّتُهُ الله في عباده واحدة، وبهذا المفهوم يكون الخطابُ مُوجَّهاً بالقصدِ الأوّل للمكذّبين بنُذر الرسول إيّان تنزيل سورة (القمر) ثمّ لكلّ مَنْ يَكْذِبُ مِنْ بَعْدِهِمْ حتّى انتهاء مدّة امتحان الناس في الأرض.

● ﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوَّلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾!؟ .

سؤالان يوجّههُما الرّبّ جلّت قدرته وعظّم سلطانه للمكذّبين المعاصرين للتّنزيل، فَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وهذان السؤالان مبنيان على قاعدةٍ أساسيّة: هي أنّ سُنَّةَ الله في عباده واحدة، إذ كلّهُمْ خَلَقَهُ وصنّعتُهُ وعيَّده، وكلّ الممتَحَنين من خلقه في الحياة الدنيا على سواء، يخضعون لسُنَّةِ رَبّانيّةٍ واحدة، فلا فَضْلَ لِفرِيقٍ منهم على فريقٍ آخَرَ بَعْضُهم، أو لَوْن، أو لَعْنَة، أو أرض، أو مساكن ومنازل، أو أعراق



أو أنساب، إنما يكون التفاضل فيما بينهم بالأعمال الاختيارية المكتسبة، من أعمال قلبية ونفسية وفكرية، وأعمال ظاهرة بالجوارح تُعبّر عن الإرادات في داخل النفس، وتُعبّر عن الغايات والمقاصد والنّيات، وتُترجم العقائد والمفاهيم الراسخات، أو تكون آثاراً لفضائل الأخلاق ورذائلها بأعمال إرادية.

وبناءً على أن سنة الله في جميع خلقه واحدة، كان من الإلزام في مناظرتهم طرح هذين السؤالين عليهم:

**السؤال الأول:** ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ؟﴾!

أي: أكفاركُم أيها المكذبون بالثّذر التي أنذركُم بها مُحَمَّد بن عبد الله، رسول الله إليكم، خيرٌ من كفار أهل القرون الأولى، الذين كذبوا رسل ربهم، وكذبوا بالثّذر التي أنذروهم بها بلاغاً عن ربهم، وأصرّوا على كفرهم وظلمهم وطغيانهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأهلكهم إهلاكاً عاماً شاملاً، حينما كانت أحوالهم الميؤوس منها تستدعي تعذيبهم بالعدل، وإبادتهم حسماً لشُرورهم وطغيانهم.

فماذا يجيب المطروح عليهم هذا السؤال؟

فإن قالوا: نعم كفارنا خيرٌ من كفار القرون الأولى الذين أهلكهم الله إهلاكاً عاماً.

قل لهم: بماذا؟

فإن قالوا: بالعزق، أو باللّغة، أو باللّون، أو بكونهم سُكَّانَ البلد الحرام، أو بكونهم ذُرِّيَّةَ النبي الرّسول إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، أو بغير ذلك.

كان الجواب المفجّم لهم: إن مُهلِكِي القرون الأولى، كلهم بشرٌ

مِثْلَكُمْ آبُوهُمْ آدَمَ وَأُمُّهُمْ حَوَاءَ، وَالَّذِينَ نَسُوا بَعْدَ نوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُمْ ذُرِّيَّةُ نوحَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَهُوَ رَسُولٌ مِنْ أُولَى الْعِزْمِ، وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ سَامِيونَ وَعَرَبٌ مِثْلَكُمْ وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ.

وَإِذْ قَدْ اشْتَرَكْتُمْ مَعَهُمْ فِي صِفَةِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَنْ رَبِّهِ، فَلَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فَسُنَّةُ اللَّهِ فِيهِمْ هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِيكُمْ. وهذا جوابٌ مُسَكِّتٌ مُفْجِحٌ دَائِمٌ، لَا يَجِدُونَ مِنْ مُحَاصَرَتِهِ لَهُمْ مَهْرَبًا.

وَبُسْقُوطُ احْتِمَالِ كَوْنِهِمْ خَيْرًا مِنْ كَفَارِ الْقُرُونِ الْأُولَى، يَأْتِي السُّؤَالُ الثَّانِي، لِإِسْقَاطِ الْاحْتِمَالِ الْآخِرِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ احْتِمَالٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ بَرَاءَةٌ خَاصَّةٌ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ.

السُّؤَالُ الثَّانِي: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟﴾!

أَي: بَلْ أَلَّكُمْ بَيَانُ بَرَاءَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِذَا كَفَرْتُمْ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَكَذَّبْتُمْ بِالنَّذْرِ؟!.

أَوْ: أَلَّكُمْ بَيَانُ بَرَاءَةٍ مِنَ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ مِنَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟!

وَيُشْتَرَطُ فِي بَيَانِ الْبَرَاءَةِ إِذَا ادَّعَيْتُمُوهُ، أَنْ يَكُونَ فِي أَيِّ كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ الرَّيَاسِيَّةِ السَّابِقَةِ، الْمَنْزِلَةُ عَلَى رُسُلِهِ السَّابِقِينَ.

إِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْتُوا بِبَيَانٍ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمَنْزِلَةِ يُثْبِتُ بَرَاءَتَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِذَا كَفَرُوا. أَوْ يُثْبِتُ إِعْفَاءَهُمْ مِنَ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ إِعْفَاءَهُمْ مِنَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الْبَرَاءَةُ فِي اللَّغَةِ: هِيَ الْخِلَاصُ وَالسَّلَامَةُ، وَالْمَرَادُ الْخِلَاصُ وَالْإِعْفَاءُ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالْجَزَاءِ.

**الرُّبْرُ:** جمع «الرُّبُور» وهو الكتاب المزبور، يقال لغة: رُبِرَ الكاتب الكتابَ، أي: كتبه، أو أتقن كتابته فهو مَرْبُورٌ وَرَبُورٌ.

وكلمة ﴿أَمْ﴾ هُنَا هي: «أم المنقطعة» وهي بمعنى «بل» وهذه تتضمن استفهاماً مُسْتَأْنَفاً بَعْدَ كَلَامٍ يَتَقَدَّمُهَا.

والمعنى: أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكُمْ؟! بل أَلْكُمْ براءةٌ في الرُّبْرِ؟!!

فالكلام جارٍ على طَرَحِ استفهامٍ حَوْلَ قَضِيَّةٍ، فالإضرابُ عنه وطرح استفهامٍ آخرٍ حَوْلَ قَضِيَّةٍ أُخْرَى، ضمن الموضوع نفسه.

فماذا يُجِيبُونَ عَلَى هذا السؤال الثاني؟

إِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَدَّعُوا وَيُثْبِتُوا ادِّعَاءَهُمْ، بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَحَهُمْ بَرَاءةً مِنْ عَذَابِهِ، أَوْ بَرَاءةً مِنَ التَّكْلِيفِ الدِّينِيِّ، أَوْ بَرَاءةً مِنَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَبَدَهِىَ أَنَّهُمْ لَوْ ادَّعَوْا هَذِهِ الْبَرَاءةَ، فَإِنَّ ادِّعَاءَهُمْ لَهَا لَا يَكُونُ صَحِيحاً، مَا لَمْ يَكُنِ النَّصُّ الْمَثْبُتُ لَهَا مُنْزَلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ الثَّابِتَةِ بَيِّقِينَ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يُثْبِتُوا ذَلِكَ، فَكُلُّ الْكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُنْزَلَةِ، تُثْبِتُ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً مَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، وَالْمَمْتَحِنُ لَهُمْ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ جَلَّ جَلَالُهُ.

والامتحان يتناول قضيتين كُبْرَيَيْنِ:

**القضية الأولى:** الإيمان بما أَوْجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِيمَانَ بِهِ، الشَّامِلُ لِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ وفروعها وتفصيلاتها على ما أنزل على رسوله.

**القضية الثانية:** الإسلام لله في أوامره ونواهيه وأحكام شريعته ومنهاجه لعباده، وطاعته، وشكره بالعبادات التي شَرَعَهَا لَهُمْ.

فلا أحدَ من الناس معفيٌ من مسؤولية هذا الامتحان، إذا كان مُستَوْفياً  
شُرُوطَهُ، وهي الشروط الالزامية لتوجيه التكاليف الاعتقادية، والفكرية،  
والنفسية، والجسدية، من كلِّ عَمَلٍ إِرَادِيٍّ بَاطِنٍ أو ظَاهِرٍ.

إِذَنْ: فلا براءة لهم في الزُّبُرِ من مسؤولية التكاليف الدينية، ولا براءة  
لهم من الجزاء بالعدل، على عدم التزامهم بمسؤولياتهم الدينية فعلاً أو  
تَرْكاً.

وَإِذْ ثَبَّتَ أَنَّهُ لَا امْتِيَازَ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِخَيْرِيَّةٍ خَاصَّةٍ  
عند الله، تَجَعَّلَهُمْ فَوْقَ الْمَسْئُولِيَّاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَإِذْ ثَبَّتَ أَنَّهُ لَا بَرَاءَةَ لَهُمْ  
فِي الزُّبُرِ، فَقَدْ فَقَدُوا كُلَّ مَهْرَبٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يُمَكِّنُ أَنْ  
يَتَصَوَّرُوا أَنَّ يَكُونُ لَهُمْ مَهْرَباً.

وبعد هذا فما الذي يَجَعِّلُهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وتكذيبهم بالنُّذُرِ،  
والحالُ أَنَّهُمْ مُحَاصِرُونَ بِمَا لَا مَهْرَبَ لَهُمْ مِنْهُ؟.

مثلُ هذه المحاصرة الفكرية كافية لإقناع مَنْ يُرِيدُ الاقْتِنَاعَ، وإِلْزَامَ  
وإفحام المكابرين، وكشفِ عنادِ المعاندين، وبيانِ ضعفِ عقولهم وضآلتها،  
وَضَعْفِ إِرَادَاتِهِمْ أَمَامَ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَكِبَرِهِمْ وَغُرُورِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، تَأَثُّراً  
بِأَوْهَامِهِمْ ومفهوماتهم السَّخِيفَاتِ.

فَلْيَرْتَقِبُوا عِقَابَ اللَّهِ لَهُمْ إِذَا لَمْ يَتُوبُوا، أَسُوءَ بِمَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ عَذَابَهُ  
وعقابه من مجرمي القرون الأولى.

وَقَدْ نَزَلَ فَعَلًا بِمَجْرِمِهِمْ فِيمَا بَعْدُ، مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ وَعِقَابٍ،  
بحكمة الله العليم العزيز المقتدر، حينما نَصَرَ اللَّهُ رُسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي  
المواجهات القتالية التي أظفر الله بها أوليائه على أعدائه.

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾

﴿أَمْرٌ﴾ مثل سابقتها في الآية (٤٣).

﴿جَمِيعٌ﴾: اسْمٌ للجماعة المجتمعة على أمرٍ واحد، المتماسكة في وَحْدَةٍ.

والجَمِيعُ: المَجْمَعُ، يُقال: حيٌّ جميع، وقَوْمٌ جَمِيع، أي: مجتمعون مُتَماسِكُون، مُتَّحِدُو الرَّأْيِ والهدف، مترابطو القوى.

وَيُؤَلِّونَ الدُّبُرَ: أي: وَيَجْعَلُونَ مُحارِبِيهِمْ من المسلمين يَلُونْ أَذْبَارَهُمْ، أي: يَتَّبِعُونَهَا قَتْلًا وَأَسْرًا.

والمعنى: بل أيقول قادة وأئمة الكُفْرِ في قُرَيْشٍ نَحْنُ كَتَلَةٌ وَاحِدَةٌ مجتمعون مُتَماسِكُون، مُتَّحِدُو الرَّأْيِ والهدف، أَقْوِيَاء، فإذا اجتمعنا وحاربنا مُحَمَّدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا معه، فلا بُدَّ أَنْ نَنْتَصِرَ.

وَيُطَمِّئُنَ اللَّهُ الْعَزِيزَ الْقَهَّارَ، الَّذِي بِيَدِهِ النَّصْرُ، وهو على ما يشاء قَدِير، رُسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الْجَمْعَ الَّذِي يَجْمَعُهُ مَشْرُكُو مَكَّةَ لِحَرْبِهِمْ، سَيُهْزَمُونَ، وَسَيُؤَلِّونَ الْأَذْبَارَ، أي: وسيجعلون المسلمين يَلُونْ مُتَابِعِينَ أَذْبَارَهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا.

الدُّبُرُ: الظُّهُرُ، ومن كلِّ شَيْءٍ عَقِبُهُ وَمُؤَخَّرُهُ، وهواسم جنسٍ إفرادي، يَصْدُقُ على القليل والكثير، فَيُؤَلِّونَ الدُّبُرَ، مثل يُؤَلِّونَ الْأَذْبَارَ في الدَّلَالَةِ، وفيه معنى أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ جَمِيعاً في الفرار والإذبار، كَأَنَّ لَهُمْ دُبُرًا وَاحِدًا.

وجاء وصف «جميع» بكلمة «مُنْتَصِرٍ» على الإفراد مراعاة للفظ «جميع» وإن كان معناه جمعاً غير مفرد، ومثل هذا مما يجوز فيه الوجهان.

منتصر: اسم فاعل من فِعْلٍ «انْتَصَرَ يَنْتَصِرُ» فهو مثل الفعل المضارع في الدَّلَالَةِ على الْحَالِ والاستِقبال، والمراد هُنَا الدَّلَالَةُ على الاستقبال، ونظيرُهُ، كثير في القرآن.

وأبان الله عز وجل بقوله: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ﴾ أنهم سيكونون جمعاً ولا يكونون جميعاً، لأنهم عندئذ لا يكونون على رأي واحد، ولا على هدف واحد، ولا على قلب واحد، فالجمع يُطلق على أي عدد مجتمع، ولو كانت أفرادها متنافرة، وليس بينهم جامعة تربطهم بقوة.

يقال لغة: هُزِمَ العدو، أي: كُسِرَتْ شوكتُهُ وغُلِبَ.

وإذا صحَّ أنَّ هاتين الآيتين (٤٤ - ٤٥) من التنزيل المدني، فإنَّ ضمَّهما إلى سورة (القمر) يُشعر بأنَّ كبراء مشركي مكة جعلوا يُردِّدون قولهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ قبيل نزول هذه السورة، وأخَّرَ الله عز وجل إنزالَ البيانِ حولها، وبِشارةِ الرُّسول والمؤمنين بالنصر إلى العهد المدني، أخذاً بِحِكْمَةِ كِتْمَانِ التَّدْبِيرَاتِ الْحَرْبِيَّةِ، إذ إنَّ سماعَ المشركين في العهد المكي قول الله عز وجل: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٤٥﴾ قد يُشعرهم بأنَّ خطةَ الرُّسولِ تَعْتَمِدُ على تَدْبِيرِ أُمُورٍ حَرْبِيَّةٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ، ويجري الإعداد لها سراً، فيعملون على مبادرتهم بحزب الرسول والمؤمنين، قبل أن يُعدُّوا لحزبهم ما يلزم من إعدادات.

ويظهر أنَّ نزولَهما في العهد المدني قد كَانَ قَبْلَ غَزْوَةِ بَذْرِ الْكُبْرَى فَقَدْ صَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْعَرِيشِ يَوْمَ بَذْرِ، وَهُوَ يَثِيبُ فِي الدَّرْعِ وَيَقُولُ: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾.

وأما ما روي عن مقاتل من أنَّ الآية (٤٦) من التنزيل المدني أيضاً مع الآيتين (٤٤ و ٤٥) فَمُعَارَضٌ بما صحَّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

● روى البخاري بسنده عن يُوْسُفَ بْنِ مَاهَكَ، قال: «إني عند عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: وَيَحْكُ، وَمَا يَضُرُّكَ؟»

قال: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرْنِي مُضَحِّفَكَ.

قالت: لِمَ؟

قال: لَعَلِّي أُؤَلِّفَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ<sup>(١)</sup>.

قالت: وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأَتْ قَبْلَ، إِنَّمَا أُنْزِلَ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمَفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ، نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنِّي لَجَارِيَةُ الْعَبْ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾<sup>(٢)</sup> وَمَا أُنْزِلَتْ سُورَةُ (البقرة) و (النساء) إِلَّا وَأَنَا عَنْده.

قال: فَأَخْرَجْتَ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلْتَ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ<sup>(٢)</sup>.

فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنَ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ.

● وقد روى أهل السير والمغازي، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، اشْتَدَّ فِي دَعَائِهِ لِرَبِّهِ فِي الْعَرِيشِ الَّذِي نُصِبَ لَهُ، وَجَعَلَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدَهُ مِنَ النَّصْرِ، وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا».

وبالغ الرسول ﷺ فِي الْإِبْتِهَالِ، وَمَدَّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ، وَأَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَعْضُ مَنَا شَدَّتْكَ رَبِّكَ،

(١) أي: غير مؤلف السور، ويظهر أن هذا كان قبل أن يرسل عثمان المصاحف الموحدة إلى الآفاق، كما قال ابن كثير.

(٢) ربما تكون قد أمَلْتَ عليه أوائل آي السور، وأواخرها، للفضل بين كل سورة وأُتِي تليها بحسب مَضَحِّفِهَا تَلْبِيَةً لطلبه.

فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ لِّكَ مَا وَعَدَكَ، حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ،  
وَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِيهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن وَّرَائِهِ.

وَحَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَفَقَةً وَهُوَ فِي الْعَرِيشِ<sup>(١)</sup>، ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: «أَبْشِرْ  
يَا أبا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانٍ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى نَتِيبَاهُ  
التَّنْفَعُ<sup>(٢)</sup>».

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْعَرِيشِ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْمُقَاتِلِينَ، وَجَعَلَ يَثْبُ  
فِي الدَّزَعِ وَيَقُولُ: ﴿سَيِّهْرُمُ لَجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ﴾ ٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ  
أَذَى وَأَمْرٌ ٤٦ ﴿﴾.

● وروى البخاري بسنده عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ خرج من  
العريش يوم بدر، وهو يثب في الدزع، ويقول: ﴿سَيِّهْرُمُ لَجَمْعُ وَيُولُونَ  
الدُّبُرُ﴾ ٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ٤٦ ﴿﴾<sup>(٣)</sup>.

قال ابن حجر في الفتح: وقد روى عبد الرزاق عن مغمّر، عن  
أيوب، عن عكرمة: أن عمر قال: لما نزلت: ﴿سَيِّهْرُمُ لَجَمْعُ وَيُولُونَ  
الدُّبُرُ﴾ ٤٥ جَعَلْتُ أَقُولُ: أَيُّ جَمْعٍ يَهْزَمُ؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، رَأَيْتُ  
النَّبِيَّ ﷺ، يَثْبُ فِي الدَّزَعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيِّهْرُمُ لَجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرُ﴾ ٤٥ ﴿﴾.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ قَبْلَ مَوْعِدَةِ بَدْرٍ، وَقَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَيْهَا، فَهِيَ  
مَدَنِيَّةٌ فِيمَا يَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَكَانَتْ مِنْ بَشَائِرِ مَا سَيَحْدُثُ مِنْ نَصْرِ الرَّسُولِ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ، قَبْلَ مَوْعِدَةِ بَدْرٍ حَتْمًا.

● قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ٤٦﴾.

(١) أي: نام نومةً يسيرةً.

(٢) التَّنْفَعُ: أي: الغبار.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر، الحديثان: (٤٨٧٥ - ٤٨٧٧).



[بل السَّاعَةَ مَوْعُدُهُمْ]: أي: سَاعَةُ البعث للحساب، وَفَضْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿أَذْهَى﴾: أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ من الداهية، وهي الأمر المنكَرُ العظيم من الشدائد، والنوائب، والمصائب.

يقال لغة: ذَهَتْ دَاهِيَةٌ ذَهْيَاءً وَذَهَوَاءً.

﴿وَأَمْرٌ﴾: أي: أَشَدُّ مَرَارَةً، يقال لغة: مَرَّ الشَّيْءُ يَمُرُّ مَرَارَةً، وأفعل التفضيل منه «أَمَرٌ».

وأي شيء أَشَدُّ مَرَارَةً على الكافرين من عذاب يَوْمِ الدِّينِ؟! وأي دَاهِيَةٍ أَذْهَى مِنْهُ؟!

والمعنى: لا نَضَرُ لَهُمْ في الدنيا، بَلْ هم سَيُهْزَمُونَ وَيُغْلَبُونَ، ولا نَجاة لهم في الآخرة، بل هم سوف يُعَذَّبُونَ عَذَابًا أَلِيمًا خالداً، في جَهَنَّمَ وَيَبْسُ المصير، وهذا سَوْفَ يكون أَشَدَّ وآلَمَ وأَقْسَى وأَشَدَّ مَرَارَةً من هزيمتهم يَوْمَ غَزْوَةِ بَذَر.



(١٠)

### التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس الشورة وهو الآيات من (٤٧ - ٥٥) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهم ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْتَّافِينَ فِي جَهَنَّمَ وَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾.

## تمهيد :

هذا آخر دَرَسٍ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، وهو دَرَسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى كَلِّيَّاتٍ ومفهُوماتٍ عَامَّاتٍ، مِنْ قَضَايَا القَاعِدَةِ الإِيْمَانِيَّةِ فِي الدِّينِ الْمَنْزَلِ مِنْ لَدُن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهَذِهِ الْكَلِّيَّاتُ وَالْمَفْهُوماتُ حَقَائِقٌ لَا نَقْضَ لَهَا، وَلَهَا ارْتِبَاطٌ فِكْرِيٌّ تَأْصِيلِيٌّ بِمَا جَاءَ فِي دُرُوسِ السُّورَةِ قَبْلَ هَذَا الدَّرَسِ الْآخِرِ، فَمَا جَاءَ فِي هَذَا الدَّرَسِ هُوَ بِمِثَابَةِ الْحَصِيلَةِ الْخَتَامِيَّةِ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَقْدَمَ فِي مَوَادِّ دُسْتُورِيَّةٍ، فَمَا أَحْكَمَ الْقُرْآنَ وَأَبْلَغَهُ.

● ففي هذا الدرس بيان عاقبة المجرمين والمتقين يوم الدين مع عرض لقطة من عذاب المجرمين في دار العذاب، مَقْرُونَةٌ بِحِكَايَةِ مَا يُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ، مُقْتَطَعاً مِنَ الْخَدَثِ نَفْسِهِ، وَمَذْكُوراً ضِمْنَ هَذَا الدَّرْسِ كَأَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ الْآنَ، وَمَعَ عَرْضِ لِقْطَةٍ مِنْ نَعِيمِ الْمُتَّقِينَ فِي دَارِ النَّعِيمِ، مَقْرُونَةٌ بِتَكْرِيمٍ مِنَ الرَّبِّ الْكَرِيمِ الْمَلِكِ الْمُقْتَدِرِ.

● وفي هذا الدرس حُكْمٌ عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِأَنَّهُمْ يَتَخَبَّطُونَ فِي ضَلَالٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِأَنَّهُمْ فِي جُنُونٍ يُشْبِهُ جُنُونَ الثَّوْقِ الْمَسْعُورَةِ الْهَوْجَاءِ.

● وفي هذا الدرس بَيَانُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ فِي الْوُجُودِ أَوْ قَضَى بِأَن يَخْلُقَهُ، فَهُوَ مَسْبُوقٌ بِقَدَرٍ، أَيْ: بِتَقْدِيرٍ شَامِلٍ مُحَدَّدٍ لِكُلِّ الْمَقَادِيرِ فِي الذَّوَاتِ وَالصِّفَاتِ، وَالْأَمَكِنَةِ وَالْأَوْقَاتِ، لِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي الْوُجُودِ، مَا مَضَى، وَمَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَمَا هُوَ آتٍ.

وبهذا التَّقْدِيرِ الْحَكِيمِ يَنَالُ الْمُعَذَّبُونَ عَذَابَهُمْ فِي النَّارِ، ضِمْنَ نِظَامٍ غَيْرِ نِظَامِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَقْدِيرِ الْمَقَادِيرِ فِيهَا، فَالَّذِينَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ يُعَذَّبُونَ دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِلْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، لِأَنَّ مَقَادِيرَ يَوْمِ الدِّينِ غَيْرُ مَقَادِيرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَوَاتِ الْمُعَذِّبِينَ تَتَلَاَمُ مَقَادِيرُهَا مَعَ مَقَادِيرِ الْعَذَابِ فِي الْجَحِيمِ.

وبهذا التقدير الحكيم ينال المنعمون أنواع نعيمهم في الجنة خالدين، ضمن نظام غير نظام الحياة الدنيا وتقدير المقادير فيها، فأنواع السعادات والذات العظيمة الخالدات، تتطلب مقادير في ذوات المنعمين غير المقادير التي كانوا عليها في الحياة الدنيا، لتكون إحساساتها ملائمة للذات العظيمة الخالدات، وأن تكون غير عرضة للأغراض والأمراض والآلام والموت والفناء، فمقادير يوم الدين غير مقادير الحياة الدنيا.

● وفي هذا الدرس بيان أن أمر التكوين الرباني إنما هو كلمة واحدة يتم بها تكوين المقضي المقدر، بزمن مباشر لها، كلمح بالبصر فيما يدركه الناس من تنفيذ إرادة الرؤية بحركة اللمح البصري.

● وفي هذا الدرس تذكير المجرمين الذين ما زالوا على قيد الحياة، بإهلاك الله أمثالهم في القرون السالفات، وفي هذا التذكير تنبيه ضمني على سنة الله الثابتة في عبادته، أولهم وآخرهم، فليتذكروا، وليتعتظوا.

● وفي هذا الدرس بيان أن أعمال العباد الظاهرة والباطنة مسجلة في كتب ملائكة المراقبة والتسجيل.

أي: فهي سوف تعرض عليهم يوم الدين، وسوف يحاسبون عليها، وسوف تكون قرارات الجزاء بمقتضاها، ضمن مبدأي العدل، والفضل، وبالفضل يعفو الله عن كثير من الذنوب، ويغفر كثيراً منها.

● وفي هذا الدرس بيان أن كل صغير وكبير في الوجود، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، أو سوف يكون، كله مستطر، أي: مكتوب كتابة راسخة ثابتة، لا تتأكل، ولا تتعرض لما يئلفها، إلا بأمر الله جل جلاله في المحو والإثبات، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وهو علمه جل جلاله.

التدبر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧).

سبق في السّورة أنّ ثمودَ قومَ النّبِيِّ الرّسولِ صالحٍ عليه السّلام، قالوا بشأنِ رُسُولِهِم:

﴿أَبَشِّرْ مَنَا وَوَحِدًا نَنْتَعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾﴾ .

أي: إنّنا إذا اتّبَعْنَا بَشَرًا مَنَا واحداً وهو «صالح» فإنّنا نتخبّطُ في ضلالٍ من أمرنا غيرِ مهديّين، وتكونُ أذهاننا وأذمِغتنا مغمُوسَةً في جُنُونٍ يجعلُنا نتصرّفُ في حياتنا على غيرِ هدى، كتصرّفِ النّاقَةِ المسعُورةِ الهوجاءِ .

فقال الله عزّ وجلّ بَعْدَ عَرَضِ إهلاكِ طائفةٍ من المجرمين الأوّلين، الَّذِينَ كَذَبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكذّبوا بِنُذْرِهِمْ، وبما جاءوا به بلاغاً عن الله عزّ وجلّ ومنهم ثمود:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾﴾ :

أي: إنّ الَّذِينَ كَذَبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكذّبوا بما بلّغُوهم إِيَّاه من النُّذُرِ، هم المنغمِسُونَ في ضلالٍ وَسُعْرٍ (أي: وجُنُون). .

وهم بتكذيبهم ومعاندتهم الحقّ الذي جاءهم من رَبِّهِمْ صاروا مُجْرِمِينَ .

المجرم في اللّغة: فاعل الجُزْمِ ومُزْتَكِبُهُ، وهو المتعدّي بذنبٍ كبير، والجُزْمُ: التّعدي بغير حقّ .

وجاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقَابِلاً للمسلمين، ووصفاً للكافرين الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ في الدّنيا، ووصفاً للمعذّبين في النار عذاباً خالداً .

ولدى تتبّع النُّصوص نلاحظ أنّ المجرمَ في لسان الشرع، يُطلقُ على الكافر، كما أنّ كُلَّ كافرٍ يُطلقُ عليه أنّه مُجرم، بدءاً من المشركين، حتّى أخسّ دَرَكَاتِ الكافرين، وهم أهل الدّركِ الأسفل من النار .

أليس الذي يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لعقابِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ في الدنيا، ولِلْخُلُودِ في النارِ دارِ العذابِ يومَ الدينِ، مُنْغَمِساً في الضَّلَالِ والضياعِ والتخبُّطِ على غيرِ هُدى؟!!

أليس مُنْغَمَسَ الفكرِ والرأيِ وأدواتِ الإدراكِ لديه في جنونٍ، يَصْرِفُهُ عن إدراكِ الحقِّ.

كَلِمَةُ «سُعْر، وَسُعْر» بضمِّ العينِ وإسكانها تأتي في اللُّغَةِ بمعنى: «الجنون» كما سبق بيَّانه في تدبُّرِ الآيةِ (٢٤) من السورة.

وبهذا المعنى فسَّرَ أبو عليٍّ الفارسيُّ عبارة ﴿وَسُعْرٍ﴾ في قولِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ (٤٧) وَلَيْسَتْ الكلمةُ جَمْعَ «سَعِير» بمعنى النارِ.

أقول:

ما قاله «أبو عليٍّ الفارسيُّ» صَحِيحٌ، وهو الذي يُنَاسِبُ معنى الآية، ولا سيما أنَّ أَمْرَ عَذَابِهِمْ في الآخِرَةِ، قَدْ نُصِّ علىه في الآيةِ التالية، ومن أسْلُوبِ القرآنِ أنْ يُضَيَّفَ المعاني تَأْسِيساً، ولا يُكْرِّرها تأكيداً.

ويأتي السُّعْرُ في اللُّغَةِ بمعنى العَنَاءِ والعذابِ، ويأتي بِمَعْنَى الشَّهْوَةِ مع الجوعِ.

وهذان المعنيان يُوافِقَانِ حالَ المجرمين في الدنيا، فهم في عَنَاءٍ نَفْسِيٍّ دائمٍ، وفي شَهْوَةِ وَجُوعٍ لِمَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ في عذابِ نَفْسِيٍّ تَتَوَاتَرُ عَلَيْهِمْ لَفَحَاتُ آلامه.

فَتَحْمَلُ كَلِمَةُ «سُعْر» في هذه الآيةِ على كُلِّ هَذِهِ المعاني، وهذه المعاني قَدْ تُوْجَدُ مجتمعةً عندَ بَعْضِ المجرمين، وقد تُوْجَدُ مُوزَّعةً على أفرادهم، بِحَسَبِ حالةِ كُلِّ مِنْهُمْ.

● قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿يُسْحَبُونَ﴾: السَّحَبُ: جَرُّ الشيء على الأرض، يقال لغةً: سَحَبَ الشيءَ يَسْحَبُهُ سَحْبًا، أي: جَرَّهُ على الأرض، فانسَحَبَ، أي: فأنَجَرَ على وجه الأرض.

ومنه سَحَبُ البساط، إذ يكون بجَرِّه على وجه الأرض مبسوطاً والمعنى أن المجرمين يوم الدين يُسْحَبُونَ في النار دار العذاب يومئذٍ على وجوههم، زيادةً في تعذيبهم الذي يتجدد بالسَّحَب، وإهانةً وتحقيراً لهم، لأنهم في مُدَّة امتحانهم في الحياة الدنيا ولَّوْا ظُهُورَهُمْ، لدعوة رُسُل ربهم، ولم يستجيبوا لها جُحوداً واستكباراً، وعَادَوْها وقاوموها، وحاربوها، وأرادوا نُصْرَةَ الباطل وإزهاق الحقِّ الربَّاني.

والسَّحَبُ على الوجوه يقتضي جَمْع الأيدي والأزْجَلِ من وراء، ورفعها حتَّى تبقى الوجوه والصُّدُورُ والبُطُون على الأرض.

﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾: أي: وَيُقَالُ لهم وهم يُسْحَبُونَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ بلسان الحال وبلسان المقال: ﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾: أي: ذوقوا آلام مَسِّ حَرَارَةِ ما تُسْحَبُونَ عليه من أرضٍ «سَقَر».

هذه العبارة مقتطعة من الحدث المستقبلي الذي سوف يكون حتماً، ومقدَّمةً في النص، كأن المجرمين يخاطبون بها الآن، وهذا من الإبداعات القرآنية التي لم تكن معروفة عند البلغاء، ويُقدَّرُ النحاة لمثل هذه العبارة فعلاً على الوجه التالي: أي: يقال لهم يومئذٍ: ذُقُوا مَسَّ سَقَر. وأرى أن مثل هذا التقدير يُضعف من قيمة إبداع الاقتطاع والمفاجأة به.

﴿مَسَّ﴾: المسُّ في اللغة إصاق الجسم بالجسم مع حركة.

﴿سَقَرٍ﴾: اسمٌ علم من أسماء جهنم دار عذاب المجرمين يوم الدين، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

ومادة هذه الكلمة في اللغة تدور حول معنيين:

المعنى الأول: البُعد، ومعلوم أن جهنم عميقة جداً، بعيدة الغور.

المعنى الثاني: شدة الحرارة، وكذلك حال جهنم.

يقال لغة: سَقَرَ الشيءُ يَسْقُرُ سَقْرًا، أي: بُعد.

ويقال: سَقَرَتِ النَّارُ أو الشَّمْسُ فلانًا، أي: لَوَحَتْ جِلْدُهُ، وَغَيَّرَتْ لَوْنَهُ، وَأَذَتْهُ وَالْمَتَهُ بِحَرِّهَا.

فاشتقت كلمة «سَقَرَ» علماً على جهنم من هذه المادة اللغوية.

وَيَسْحَبُ وُجُوهَ الْمَجْرِمِينَ عَلَى أَرْضٍ صُلْبَةٍ حَارَّةٍ مِنْ أَرْضِ جَهَنَّمَ يَخْذُتْ تَمَاسُّ يَكْوِي وَجُوهَهُمْ بِالْحَرَارَةِ، فَيَذْوَقُونَ لَذْعَهَا ذَا الْإِيلَامِ الشَّدِيدِ.

وقد استُغْمِلَ الذَّوْقُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لِكُلِّ مَا يُحَسُّ بِهِ دَوُو الْأَحْسَاسِ مِنَ آلَامٍ وَلَذَاتٍ ظَاهِرَاتٍ وَبَاطِنَاتٍ.

وأصل الذَّوْقِ فِي اللَّغَةِ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ ذَوْقِ طُعُومِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، ثُمَّ عُمِّمَ عَلَى الْإِحْسَاسِ بِمَا يَلْذُ وَيُتَمَتَّعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِحْسَاسُ بِمَا يُؤْلَمُ أَوْ تَنْفَرُ مِنْهُ النُّفُوسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الْمَوْتِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ فِي سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

هذه الآية قد قَدِّمَتْ لِقِطْعَةٍ مِنْ صُورِ عَذَابِ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي سَقَرٍ. وَصَلَّتْهَا وَاضِحَةً بِدُرُوسِ السُّورَةِ، إِذْ بَدَأَتْ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْأَنْذَرِ الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ ضَرَبَتْ أَمْثِلَةً مِنَ الْمَجْرِمِينَ السَّابِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى، وَكَيْفَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ عِقَابَهُ الْمَعْجَلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا بُدَّ مِنْ عَرْضِ صُورِ مِنْ عَذَابِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ لِيَتَكَامَلَ الْمَوْضُوعُ تَكَامُلًا مَلَأَمًا لِلْإِقْنَاعِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩):

يتحدث الله عز وجل في هذه الآية بضمير المتكلم العظيم، لأنَّ أَعْمَالَ الْخَلْقِ الْمَقْدَرِ بِغَايَةِ التَّقْدِيرِ الْحَكِيمِ، لَا يَعْمَلُهَا إِلَّا الرَّبُّ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ، الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ.

أي: إِنَّا بِكَمَالٍ وَعَظَمَةِ صِفَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ قَدْ خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، أي: بِتَحْدِيدٍ تَمَّ فِيهِ تَقْدِيرُ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مِنْ ذَاتِ وَصِفَاتٍ، وَمَكَانٍ وَجُودٍ وَزَمَانِهِ، وَكُلُّ مَا يَخْضَعُ لِتَقْدِيرِ أَجْزَائِهِ.

إنَّ التَّكْوِينَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِعِلْمٍ شَامِلٍ، وَتَقْدِيرٍ كَامِلٍ، لِكُلِّ جُزْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ الَّتِي تَحْتَاجُ تَحْدِيدًا، وَيَعْدُهُ يَتِمُّ الْقَضَاءُ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَرَارِ بِالتَّكْوِينِ، ثُمَّ يَكُونُ الْخَلْقُ فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمَحْدَدَيْنِ، بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ: «كُنْ» فَهُوَ «يَكُونُ» عَلَى وَقْفِ الْمَقَادِيرِ الَّتِي قَضَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْقَضِيَّةُ الَّتِي أَبَانَتهَا هَذِهِ الْآيَةُ لَهَا صِلَةٌ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ حَكِيمٍ، مِنَ الرَّبِّ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ، حَتَّى عَدَدُ قَطْرَاتِ الْمَاءِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ نَبَعَتْ مِنَ الْأَرْضِ فِي طُوفَانِ نُوحٍ، وَحَتَّى عَدَدُ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَمْطَرَهَا اللَّهُ عَلَى قَوْمِ لُوطَ، وَحَتَّى كُلُّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الرِّيحِ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بِهَا عَادًا، وَحَتَّى مِقْدَارُ قُوَّةِ الصَّيْحَةِ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بِهَا ثَمُودَ قَوْمِ الرُّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَدْ يَخْطُرُ فِي بَعْضِ أَذْهَانِ الْمُتَلَقِّينَ سُؤَالٌ حَوْلَ سَخْبِ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَاضْبَعِينَ فِي تَصَوُّرِهِمْ نِظَامَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَنِظَامَ مَقَادِيرِهَا، فَجَاءَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) إِلَى أَنَّ مَقَادِيرَ نِظَامِ يَوْمِ الدِّينِ، مُخْتَلِفَةٌ عَنْ مَقَادِيرِ نِظَامِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا يُقَاسُ مَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى تَحْدِيدِ الْمَقَادِيرِ.



● قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً كَلَمْجٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: وما أمرنا التَّكْوِينِيَّ في إيجاد الأشياء أو إعدامها، الذي يسبقه قَدْرُ فقضاء، إِلَّا كَلِمَةً واحدة، وهي كلمة: «كُنْ» كما جاء بيانه في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾﴾.

فإذا قال الله عزَّ وجلَّ لما أَرَادَ تَكْوِينَهُ: ﴿كُنْ﴾ كان المراد على ما قضاء، ووفق مقاديره، دُونَ فَاصِلٍ زمنيٍّ، بل يُوجَدُ بَعْدَ أَمْرِ التَّكْوِينِ كَلَمْجٍ بِالْبَصَرِ لِمُرِيدِ هذا اللَّمَجِ.

والتشبيه بَلَمْجِ الْبَصَرِ تشبيهٌ تقريبيٌّ، لتعريفنا كَيْفَ يَكُونُ إيجاد المَكُونَاتِ مَهْمَا عَظُمَتْ عَقِبَ أَمْرِ التَّكْوِينِ فوراً.

فقد جاء في نصٍّ آخَرَ بيانُ أَنَّ المَكُونَاتِ تُوجَدُ بعدَ أَمْرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ بِأَقْرَبِ من لَمَجِ الْبَصَرِ، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْجِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: وما أَمْرُ وُجُودِ السَّاعَةِ بَعْدَ أَمْرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ، سواءً أكانت سَاعَةً إِنِّهَاءٍ نِظَامِ يَوْمِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، أم كانت سَاعَةً إِيجَادِ نِظَامِ اليَوْمِ الْآخِرِ وَبَعَثِ الْأَحْيَاءِ بعدَ الموتِ، إِلَّا كَلَمْجِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ من سُرْعَةِ لَمَجِ الْبَصَرِ لِمَنْ تَوَجَّهَ إِرَادَتُهُ لِأَنَّهُ يَلْمَحُ بَبَصَرِهِ.

وصلة هذه الآية (٥٠) بما سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي دُرُوسِ سورة (القمر) تَابِعُ لِصِلَةِ الْآيَةِ (٤٩) الَّتِي قَبْلَهَا، وَالَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا.

وفي هذه الآية (٥٠) الإِعْلَامُ بِأَنَّ السَّاعَةَ الْمَقْدَرَةُ الْمُقَضِّيَّةُ بِالْقَضَاءِ

الْمُبْرَم، لَا تَحْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التَّكْوِينِ الَّذِي تَخْدُثُ بِهِ فَوْرًا. وَبِأَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، وَكُلَّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي كَانَ بِهَا إِهْلَاكُ الْمَكْذِبِينَ بِالنُّذْرِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولَى، لَمْ تَحْتَاجْ أَكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التَّكْوِينِ، فَكَانَتْ بَعْدَهُ فَوْرًا حَسَبَ مَقَادِيرِ ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَأَزْمِنَتِهَا وَأَمَكِيَّتِهَا.

وهكذا كُلُّ أوامر الله التكوينية المسبوقة بِقَدَرِهِ فَقَضَائِهِ، فَلْيَحْذَرِ الْمَكْذِبُونَ الْمُعَانِدُونَ، أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا أَصَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾ (٥١)؟!

الكلام في السورة يدور حول المكذبين بالنُّذْرِ التي أُنْذِرَ بها مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ الْمُقْصُودِينَ هُمْ مُعَاصِرُو التَّنْزِيلِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ كُبْرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ أَصْرَوْا عَلَى الْعِنَادِ وَرَفَضُوا الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ.

على أَنَّ السُّورَةَ تُعَالِجُ كُلَّ الْمَكْذِبِينَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وفي هذه الآية يخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ الْمَكْذِبِينَ بِالنُّذْرِ خطاباً مباشراً، فيقول لهم مُؤَكِّداً بِعِبَارَةٍ: «لَقَدْ»: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾.

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: أَشْيَاعٌ: جَمْعُ «شَيْعٍ» وَمُفْرَدُهَا «شَيْعَةٌ» فَأَشْيَاعُ جَمْعُ جَمْعٍ، وَتُطْلَقُ الْأَشْيَاعُ عَلَى الْأَشْبَاهِ وَالْأَمْثَالِ.

الشَّيْعَةُ: الْقَوْمُ أَوْ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي يَجْتَمِعُونَ عَلَى أَمْرٍ مَا. وَكُلُّ قَوْمٍ أَوْ جَمَاعَةٍ لَهُمْ أَمْرٌ وَاحِدٌ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهِ، أَوْ لَهُمْ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ وَاحِدَةٌ يَتَّبِعُونَهَا، وَلَوْ لَمْ يُنَاصِرْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا فِي زَمَنِ وَاحِدٍ.

فَاللَّاحِقُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَذْهَبِ السَّابِقِينَ هُمْ مِنْ شِيعَتِهِمْ، وَالسَّابِقُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَذْهَبِ الْآخِقِينَ هُمْ مِنْ شِيعَتِهِمْ أَيْضاً.

والشَّيْعَةُ فِي الْغَالِبِ يُنَاصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِيمَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ.

وَيُشِيرُ لَفْظُ ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ بِالْجَمْعِ إِلَى أَنَّ كَفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولَى كَانُوا مُخْتَلَفِي الْمَذَاهِبِ الْكُفْرِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ مَجْتَمِعُونَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالنَّذْرِ<sup>(١)</sup>.

وَالْمَعْنَى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَمْثَالَكُمْ وَأَشْبَاهَكُمْ الَّذِينَ تَجْتَمِعُونَ مَعَهُمْ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ فِي التَّكْذِيبِ بِالنَّذْرِ، الَّتِي جَاءَتْهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ، عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ.

وَبِمَا أَنَّ سُنَّتَنَا فِي عِبَادِنَا السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ وَاحِدَةٌ، فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى مِثْلِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الْمَهْلُكُونَ السَّابِقُونَ مِنْ كُفْرٍ وَطُغْيَانٍ، وَظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، فَإِنَّا سَنُنْزِلُ بِكُمْ إِهْلَاكًا عَامًا شَامِلًا، مُمَازِلًا لِمَا أَنْزَلْنَاهُ بِالْمُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ.

● ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾: أَي: فَهَلْ مِنْ مَذْكُرٍ يَضَعُ فِي ذَاكِرَتِهِ سُنَّتَنَا هَذِهِ فِي عِبَادِنَا، لَتَكُونَ وَاعِظَةً لَهُ، فَيَجْتَنِبُ مَا يَجْعَلُهُ مِنَ الْمَجْرِمِينَ، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ الْعَامَّ الْمَعْجَلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ الْعَذَابَ الْأَبَدِيَّ الْخَالِدَ يَوْمَ الدِّينِ فِي سَقَرٍ.

اسْتَعْمَلِ الْاسْتِفْهَامَ فِي الْحُضِّ وَالْحَثِّ عَلَى التَّذَكُّرِ الدَّافِعِ إِلَى الْإِعْتِبَارِ وَالِاتِّعَازِ.

إِنَّ وَضْعَ الْفِكْرَةِ ذَاتِ التَّأْثِيرِ النَّفْسِ فِي الذَّاكِرَةِ حَيَّةً دَوَامًا، أَوْ مُتَنَاقِبَةً أَنَا فَنَاءً، أَوْ أَنَا ثُمَّ أَنَا، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَهَا مُتَتَابِعَةً الطَّرَاقِ عَلَى عُودِ التَّخْرِيطِ فِي النَّفْسِ، وَبِهَذَا التَّتَابُعِ التَّخْرِيطِي يُتَجَّهُ ذُو الْإِرَادَةِ الْوَاعِيَةِ الْعَاقِلَةِ إِلَى تَحْقِيقِ مَا يَنْفَعُهُ مِمَّا آمَنَ بِمَنْفَعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا يَضُرُّهُ مِمَّا آمَنَ بِمَضَرَّتِهِ، وَهَكَذَا يَكُونُ الْإِعْتِبَارُ وَالِاتِّعَازُ.

(١) فما أبدع الدقة في البيان القرآني، والقرآن حينما يتحدث عن فِرَقِ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ، يَأْتِي بِلَفْظِ «شِيعٍ» وَحِينَئِذَا يَتَحَدَّثُ عَنْ فِرْقَةٍ مُعَيَّنَةٍ ذَاتِ مَذْهَبٍ وَاحِدٍ يَأْتِي بِالْمُفْرَدِ «شِيعَةً».

**مُدَّكِرٌ** : أصلها مُذْتَكِرٌ، من صيغة «أذْتَكَّرَ» على وزنِ «افتعل» تحويلاً من فعل «ذَكَرَ». وقلبت التاء دالاً بَعْدَ الذَّالِ، ثم قلبت الذال دالاً، فصارت دالاً مُشَدَّدَةً «أذْكَرَ» واسم الفاعل منه «مُدَّكِرٌ».

● قول الله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ :

أي : وكلُّ شَيْءٍ فَعَلَهُ الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، للحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين، مكتوبٌ ومُسَجَّلٌ في الزُّبُرِ.

**الزُّبُرُ** : هي الكتب، جمع «زبور» وهو الكتاب المزبور.

والمراد بالزُّبُرِ هنا صُحُفٌ ملائكة تسجيل أعمال العباد وكتبهم.

وقد صَرَّحَ هذا النُّصُّ بالأفعال، وبما أن القول فعلٌ من أفعال اللسان، فهو يَدْخُلُ في عموم الأفعال.

وسبق أن جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) التصريح بتسجيل الأقوال، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها :

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ۝٨﴾ .

والتصريح بسجيل الأقوال يتضمَّنُ بالزُّبُرِ الذهنيَّ تسجيلَ سائر الأفعال، لأنَّ الأفعالَ ذات الآثار الماديَّة، أدلُّ في ظروف الحياة الدنيا على توجُّه الإرادة الموضوعية موضع الاختبار، من الأقوال التي هي أفعال في اللسان معبرَاتٌ عن معاني قد يكون اللسان فيها صادقاً وقد يكون غير صادق، على أنَّ الأعمال ذات الآثار الماديَّة قد يَدْخُلُ فيها النفاق أيضاً، ولكن بصورة أقل من الأقوال.

وبعد تنزيل سُورَةِ (القمر) أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ بيانات أخرى بشأن كتب تسجيل أعمال العباد، فيها تفصيلات مُكَمَّلَاتٌ لِمَا أنزل اللهُ في سُورَتِي (ق)

و (القمر) ومنها قول الله عز وجل في سُورَةِ (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ :

﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلِيرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ : أي: جَعَلْنَا كُلَّ عَمَلِهِ وَكَسْبِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ الطَّائِرِ الَّتِي يَطِيرُ مِنْ قَفْصِهِ، مُعَلَّقًا بِمَنَاطِ الْمَسْئُولِيَّةِ لَدَيْهِ، الْمَعْبَرِ عَنْهُ بِالْعُنُقِ، فَهُوَ يَوْمَ الدِّينِ مَسْئُولٌ عَنْهُ وَمَحَاسَبٌ عَلَيْهِ.

وارتباط قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢) بما جاء في دروس السُّورَةِ، أَنَّ الْمَكْذِبِينَ بِالْثُّدْرِ، قَدْ يَقَعُ فِي تَوَهْمِهِمْ أَنَّ أَفْعَالَهُمُ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا تُنْسَى فَلَا يُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يُجَازَوْنَ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَيَانِيَّةِ التَّصْرِيحُ فِي الدَّرْسِ الْآخِرِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ بِإِرَادَاتِهِمْ مِنْ أَفْعَالٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ، مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ فِي الْكُتُبِ الْمَخْصُصَةِ لِتَسْجِيلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ جَمِيعًا، فَلَا يَظُنُّ ظَانٌّ مِنْهُمْ أَنَّ أَفْعَالَهُ مَتْرُوكَةٌ مَنْسِيَّةٌ، لَيْسَ وَرَاءَهَا حِسَابٌ، وَفَضْلُ قِضَاءٍ، وَتَنْفِيزُ جَزَاءٍ.

● قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ (٥٣) :

﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ : أي: مَكْتُوبٌ مُسَجَّلٌ تَسْجِيلًا ثَابِتًا، لَا يَتَعَرَّضُ لِلتَّأْكُلِ وَالْمَحْوِ مَهْمَا تَطَاوَلَتِ الْأَزْمَانُ.

والمعنى: أَنَّ كُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي الْوُجُودِ، مَا كَانَ وَمَضَى، وَمَا هُوَ كَائِنٌ الْآنَ، وَمَا سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَكْتُوبٌ مُسَجَّلٌ مُسْتَطَرٌّ.

السَّطْرُ فِي اللُّغَةِ: الْخَطُّ وَالْكِتَابَةُ، وَهُوَ مُصَدَّرُ سَطَرَ الْكِتَابِ يَسْطُرُهُ سَطْرًا، أَي: خَطَّهُ وَكَتَبَهُ.

ويقالُ في التوكيد: سَطَرَه، أي: كتبه بعناية.

ويقال عند شدة العناية المصحوبة بتكَلَّف استَطَر الكتاب، ومنه اسم المفعول: «مُسْتَطَر».

والغرض بيانُ ثباتِ المُسْتَطَرِّ عند الله، وَعَدَمَ تعرُّضِهِ للتآكل والمحو. ولَمَّا كانت الأمور الصغيرة مما يتهاون الناس به في حياتهم، جاءتِ البيانات القرآنية منبِّهَةً على الصغير قبل الكبير، لتَدُلُّ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ لَدَيْهِ تَهَاوُنٌ بِشَيْءٍ في كونه، فكلُّ صغير وكُلُّ كبير مشْمُولٌ بالتقدير والقضاء، والإيجاد والإعدام، بِنِسْبَةِ واحدة من العناية.

وما دَلَّتْ عليه هذه الآيةُ بعمومِها، قد جاء تفصيلُهُ في عدةِ نصوصٍ قرآنية، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجل في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿إِنَّمَا لَقَرْنًا كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾.

(٣) وقول الله عزَّ وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

(٤) وقول الله عزَّ وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

(٥) وقول الله عزَّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠٦﴾﴾.

(٦) وقول الله عز وجل في سُورَةِ (سَبَأَ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

هذا الكتاب المبين هو اللُّوح المحفوظ، وهو كتاب علم الله الشامل كل شيء.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾:

في مقابل بيان لقطعة من عذاب المجرمين يوم الدين، اقتضى البيان الحكيم تقديم لقطعة من نعيم المتقين، وفق المنهج القرآني الذي يُشبع الترهيب بالترغيب، والعكس، فما اقتضى السياق ذكره أولاً منهما، فالآخر يأتي بعده، لأن الموعظة الحسنة ترغيب وترهيب، على مِخْوَرِي الرِّغْبِ والرَّهَبِ في النفس، وهما في النَّفْس مُتَلَازِمَانِ.

وإذا كان العقاب الربَّاني قائماً على صفة العَدَلِ، فالثواب الربَّاني قائم على صفات الفضل والجود واليمن والكرم.

وكما جاء تأكيد عقاب المجرمين بمؤكدتين: «إِنَّ - والجملة الاسمية» جاء تأكيد ثواب المتقين بهذين المؤكدين أيضاً، مراعاة لحال المخاطبين في الأمرين، وليتَّسِقَ البيانان في نَسَقٍ متماثل متكافئ، وهما حاصران للدرس الأخير من دروس السورة، ببيان صورة من صور عقاب المجرمين في أوله، وبيان صورة من صور ثواب المتقين في آخره.

[المتقون]: هم أهل مَرْتَبَةِ التقوى، وهذه المرتبة ذات درجات متفاوتات كثيرة.

وأدنى درجاتها دَرَجَةُ الإيمان والبراءة من الشُّرْكَ، الذي هو أخف

دَرَكَاتِ الْكُفْرِ وَأَهْوُنُهَا، وَأَخْسُ مِنْهُ إنْكَارُ وَجُودِ رَبِّ خَالِقٍ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ.

وبالبراءة من الشرك يَحْمِي الْمُتَّقِي نَفْسَهُ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ.

وَتَرْتَقِي دَرَجَاتُ الْمُتَّقِينَ، وَأَعْلَاهَا دَرَجَةُ تَأْدِيَةِ كُلِّ الْوَاجِبَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَتَرْكُ كُلِّ الْمَحْرَمَاتِ الدِّينِيَّةِ.

وفوق مرتبة المتقين تأتي مرتبة الأبرار، وهم الذين يتوسعون في أَعْمَالِ الْبِرِّ مِنَ الْمُنْدُوبَاتِ وَالنَّوَافِلِ، ولهذه المرتبة درجات متفاضلات كثيرات.

وفوق مرتبة الأبرار تأتي مرتبة المحسنين، وهي ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وقد عَرَّفَ الرَّسُولُ ﷺ الْإِحْسَانَ بِقَوْلِهِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» فالإحسان حالة كَيْفِيَّةٌ تَكْمُنُ بِإِتْقَانِ الْعِبَادَةِ مَعَ كَمَالِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِيهَا.

وَكُلٌّ مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ وَزِيَادَةً، وَالذَّرَجَةُ الْأَدْنَى شَرْطٌ طَبِيعِيٌّ لِلذَّرَجَةِ الْأَعْلَى، فَلَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْأَبْرَارِ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَلَا يَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَحَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ غَالِبًا.

فَالْجَمِيعُ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْمُتَّقِينَ، فَالْثَوَابُ الْمَذْكُورُ فِي النَّصِّ وَغَدُّ لَهُمْ بِهِ جَمِيعًا.

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: الْجَنَّاتُ جَمْعُ «جَنَّةٍ» وَهِيَ مَا يَحْتَوِي عَلَى أَشْجَارٍ وَثَمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَنْهَارٍ وَقُصُورٍ، وَكُلِّ مَا يُمْتِعُ النَّفْسَ وَالْحَوَاسَّ.

ودار النعيم يوم الدين فيها جَنَّاتٌ مُتَعَدِّدَاتٌ، وَيَجْمَعُهَا جَمِيعًا اسْمُ



«جَنَّةٌ» باعتبار أنها كُلُّهَا بِمِثَابَةِ دَارٍ لِلنَّعِيمِ، كَشَأْنِ دَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ أَرْضٍ وَسَمَاوَاتٍ.

وهذه الجنة الجامعة العامة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

﴿وَنَهْرٍ﴾ يقال لغة: نَهَرٌ وَنَهَرٌ بِإِسْكَانِ الْهَاءِ وَفَتْحِهَا، وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ، وَهُوَ مَجْرَى الْمَاءِ الْمُنْخَفِضِ عَنْ سَطْحِ الْأَرْضِ، وَجَمْعُهُ «أَنْهَارٌ» وَ«نُهُرٌ» وَ«نُهُورٌ».

ويقال لغة: نَهَرَ الْمَاءُ، إِذَا جَرَى فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ لِنَفْسِهِ نَهْرًا، وَتَقُولُ: نَهَرْتُ النَّهْرَ، إِذَا حَفَرْتَهُ.

قال الفراء: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ معناه أَنْهَارٌ، أَي: أُطْلِقَ الْمَفْرُودُ وَأُرِيدَ بِهِ الْجِنْسُ، فَيَشْمَلُ كُلَّ الْأَنْهَارِ الَّتِي فِي الْجَنَّةِ.

وجاء في نصوص كثيرة جداً في القرآن الكريم وَصَفُ الْجَنَّةِ بِأَنَّ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) قول الله عز وجل في وصف الجنة:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ... ﴿١٥﴾﴾.

وقد يكون النَّهْرُ الْمُرَادُ فِي سُورَةِ (القمر) نَهْرًا عَظِيمًا يَمُرُّ فِي جَمِيعِ الْجَنَّاتِ عَلَى تَعَدُّدِهَا، وَهُوَ غَيْرُ الْأَنْهَارِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي سَائِرِ النُّصُوصِ، فَهِيَ مَوْزَعَةٌ فِي الْجَنَّاتِ دُونَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَارًّا فِيهَا جَمِيعِهَا.

• ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ﴾ (٥٥).

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾: المقْعَدُ: هو مكان القعود. أي: في مكان إقامة مُطْمَئِنَّةٍ مُرِيحَةٍ لَا عَنَاءَ فِيهَا.

يقول العرب: رَجُلٌ صِدْقٍ، أي: رَجُلٌ نِعَمَ هُوَ رَجُلًا، وامرأةٌ صِدْقٍ، أي: امرأةٌ نِعَمَتْ هي امرأةٌ.

فهي صيغة من صَيَغِ الثناء والمدح، فعبرة ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ على هذا هي بمعنى: في مقْعَدٍ نِعَمَ هو مقْعَدًا.

وهذا التعبير هو من إضافة الموصوف إلى صفته، وأضله: رَجُلٌ صِدْقٍ، وامرأةٌ صِدْقٍ، ومَقْعَدٌ صِدْقٍ، وَقَدَمٌ صِدْقٍ.

أي قد حَقَّقَ الموصوف في الواقع كُلَّ مَا يُطَلَّبُ مِنْ كمال صفاته، فاستحقَّ الثناء والمدح، بما يَدُلُّ على كمال المطابقة بينه وبين الصُّورة المثلى لنوعه، وذلك هو الصُّدْقُ حَقًّا، إذ لم يَكْذِبْ في واقِعِهِ أَنْ يُطَابِقَ بين الاسم وكَمَالِ المسمَّى.

● ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾:

﴿مَلِكٍ﴾ من صَيَغِ المبالغة لمالك، ولفظ «مَلِكٍ» على وزنِ «فَعِيلٍ»، ونظيرُهُ «مَلِكٌ» على وزنِ «فَعِلٍ». ومعنى المليك والمَلِك: المتصرف بالأمر والنهي في عبادته، وهو المالك لكل شيء.

﴿مُقْتَدِرٍ﴾ هُوَ من أَسْمَاءِ الله الحسنى، أي: ذو القدرة الكاملة. والمُقْتَدِرُ أَبْلَغُ من القادر أَخْذًا من زيادة المبنى.

وجاء هذا الاسم أيضاً في قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾..

سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة.

جاء الحديث عن ثواب المتقين في (نجوم التنزيل قبل سورة القمر) في ست سُور، كما يلي:

(١) قول الله عز وجل في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢)﴾ .

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ .

فأبان هذا النص أن جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، قد جعلها الله ثواب المتقين، أي: فمن فوقهم من الأبرار والمحسنين.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَتَابَعَهَا أَلْفُ الْمَطْمِئَةِ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخُلِي جَنِّي (٣٠)﴾ .

فأبان هذا النص أن نفوس أصحاب الجنة تكون مطمئة، وراضية بما هي فيه من نعيم، ومرضية من قبل ربها.

(٤) وقول الله عز وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)﴾ .

فجاء في هذا النص شرح للمتقين، بأنهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجاء فيه بيان أن جَنَّاتِ النعيم تجري من تحتها الأنهار، وأن أصحابها فيها قد فازوا فوزاً كبيراً.

(٥) وقول الله عز وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣

نزول):

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاحٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

فأضاف هذا البيان أشياء لم تأت في النصوص السابقة، وهي واضحة .

(٦) وقول الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٥ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ .

وفي هذا البيان تفصيلات لم تذكر في النصوص السابقة .

فإذا أضفنا إليها ما جاء في آخر سورة (القمر) التي سبق تدبرها بما فتح الله وهو قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ .

ونظرنا إليها نظرة تدبرية متأنية، وجدناها متكاملة الدلائل فيما بينها، غير مكررات، وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد .

وبهذا تم تدبر سورة (القمر) على ما فتح الله وألهم وأمد بعونه وتوفيقه، والحمد لله على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه .



### ملاحق لسورة القمر

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة .

الملحق الثاني: حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله .

الملحق الثالث: حول الحكمة في القرآن المجيد .

## (١١) الملحق الأول

## مستخرجات بلاغية من سورة القمر

تشتمل سورة (القمر) على جماليات وروائع بلاغية متعددة، أقدم منها في هذا الملحق المستخرجات التالية:

أولاً:

آيات سورة (القمر) مُقَدَّرَةٌ بِكَلِمَاتِهَا وَفَوَاصِلِهَا عِنْدَ رُؤُوسِ الْآيَاتِ مِنْهَا تَقْدِيرًا حَكِيمًا بَدِيعًا، فِيهِ سَلَاسَةٌ جَمِيلَةٌ فِي الْأَسْمَاعِ، فَلَا تَجْدُ فِيهَا كَلِمَةً غَيْرَ مُحْتَلَّةٍ مَوْقِعَهَا الْجَمِيلَ فِي اللَّفْظِ، وَغَيْرَ مُحْتَلَّةٍ مَوْقِعَهَا الْجَمِيلَ فِي النَّفْسِ، مَعَ كَمَالِ الدَّقَّةِ فِي أَدَاءِ الْمَعَانِي.

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تُشَبِّهُ السَّجْعَ، إِذْ جَاءَتْ رُؤُوسُ آيَاتِهَا عَلَى حَرْفِ الرَّاءِ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَنْزِلُ إِلَى مُسْتَوَى سَجْعِ أَكْثَرِ فَصَحَاءِ الْعَرَبِ، وَلَا تُشَبِّهُ سَجْعَ الْكُفَّانِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَهِيَ نَمَطٌ قَرِيدٌ بَدِيعٌ مِنَ التَّسْجِيعِ، الَّذِي لَا حِشْوَ فِيهِ وَلَا لَعْوُ، وَلَيْسَ فِيهِ اسْتِدْعَاءُ كَلِمَاتٍ بِمَعَانِيهَا اسْتِدْعَاءُ يَخْسُنُ الْاسْتِغْنَاءُ عَنْهُ.

ثانياً:

وفي السُّورَةِ إِيْجَازُ الْقِصْرِ، وَإِيْجَازُ الْحَذْفِ:

فَمِنْ إِيْجَازِ الْقِصْرِ مَا يَلِي:

(١) كَلِمَةٌ: «مُسْتَمِرٌّ» مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (٢) فِيهَا إِيْجَازُ الْقِصْرِ، لِدَلَالَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى الْمُرُورِ وَالْمُضِيِّ، وَعَلَى الْعَادَةِ الْمَتَكَرِّرَةِ، وَلِدَلَالَتِهَا عَلَى الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ الْهَرَمَةِ وَهِيَ الْقُوَّةُ، كَمَا سَبَقَ فِي التَّدْبِيرِ.

(٢) وَكَلِمَةٌ: السَّاعَةُ الصَّالِحَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى سَاعَةِ الْبَعْثِ.

(٣) وَجُمْلَةُ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ من الْجُمْلِ الْكَلِيَّةِ الْعَامَّةِ، التي تَشْمَلُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ اللَّهِ وَقَوَائِينِهِ وَأَنْظُمَتِهِ فِي الوجود، وَبَيَانٍ أَنَّهُ مُسْتَقَرٌّ لَا يَتَأَثَّرُ بِكُفْرِ الْكَافِرِينَ، وَلَا تَكْذِيبِ الْمَكْذِبِينَ، وَلَا مَعَانِدَةِ الْمَعَانِدِينَ، وَلَا جَبَرُوتِ الْجَبَّارِينَ، فَهَذِهِ الْكَلِيَّةُ مِنْ إِيْجَازِ الْقِصْرِ.

ومعظم الكليات الكبرى في هذه السورة من إيجاز القصر، إذ كان من الممكن صياغة عبارات أطول منها دون حشو، وعبارات أخرى فيها إطناب. وفي السورة من إيجاز القصر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ وليس من الإطناب تفصيل «شيء» إلى «صغير وكبير» لأن الغرض في البيان دفع توهم التهاون بكتابة الصغير.

وتوجد أمثلة أخرى من إيجاز القصر في السورة تركتها لاستخراج دارسها بتدبر.

ومن إيجاز الحذف ما يلي:

(١) عبارة: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ وعبارة: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ٤٨﴾.

والمحذوف فيها فعل «اذكر» العامل في الظرف «يَوْمَ».

(٢) وعبارة: ﴿... أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: بل ألكم بيان براءة في الزُّبُرِ، أو صك براءة في الزُّبُرِ من التكاليف الدينية، أو من الامتحان في الحياة الدنيا.

(٣) عبارة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالِ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ٤١﴾ أي: ولقد جاء فرعون وآله وأتباعهم النذر.

(٤) عبارة: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ ٥٥﴾ أي: عند هؤلاء المعنيين بالخطاب.

وفي السورة مطويات كثيرات لم تذكر بصريح العبارة جاء بيانها في تدبر السورة، وفيها من إيجاز الحذف أمثلة أخرى تركتها لاستخراج دارسها بتدبر.

### ثالثاً:

التشبيه المرسل المجمل في قول الله تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (٧) وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠):

● أما كَوْنُ التشبيه فيهما مُرْسَلًا فَلِذِكْرِ أداة التشبيه.

● وأما كَوْنُهُ فيهما مُجْمَلًا، فَلِعَدَمِ ذِكْرِ وَجْهِ الشَّبَه.

والغرض من التشبيه فيهما تَقْرِيبُ صورة الحدث بِصُورَةٍ مشهودة بِالْحِسِّ.

### رابعاً:

استقطاع التَّصَوُّصِ من أزمانها الماضية أو المستقبلية، وعَرْضُهَا بِالْفَاضِلِهَا دُونَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ كَذَا فِيمَا مَضَى، أَوْ أَنَّهُ سَيَكُونُ كَذَا فِيمَا سَيَأْتِي، أَوْ سَوْفَ يَكُونُ.

ونجدُ هذا الفنَّ البديعَ في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكَذَابِ الْآيُتُ﴾ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَيَنْتَهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ .

ونجده في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ﴾ (٣٧) ونظيرها في الآية (٣٩).

وفي قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) .

## خامساً:

خروج الاستفهام عن أصل دلالته، للدلالة على معاني أخرى:  
فجاء الاستفهام مستخدماً للدلالة على الإنكار في النصوص التالية:  
(١) في قوله تعالى: ﴿أَشْرَكَ مِنَّا وَاحِدًا نَنبَعُهُ...﴾ (٢٤)؟.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿أَتُفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا...﴾ (٢٥)؟.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿أَكْفَاؤُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣)؟.

## سادساً:

استخدام ضمير المتكلم العظيم في كثير من آيات السورة، لأنّ البيان الوارد في السياق يشتمل على أعمال خلق لا يفعلها إلا من له الربوبية العظمى القادرة على كل شيء، مثل: [فَفَتَحْنَا - وَفَجَرْنَا - وَحَمَلْنَاهُ - إِنَّا أَرْسَلْنَا - وَلَقَدْ يَسْرُنَا - كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا - بَطَشْتْنَا - وَمَا أَمْرُنَا].

## سابعاً:

تأكيد بغض الجمل ببغض المؤكّدات، لأنّ أحوال المقصودين بالبيان تقتضي تأكيد البيانات الواردة في السياق لهم.

● فجاء التأكيد بعبارة [لَقَدْ] في السورة عدّة مرّات.

● وجاء التأكيد بمؤكّدتين: «إِنَّ والجملة الاسمية» في عدّة مواضع من

السورة.

## ثامناً:

الابتعاد عن التعبير المباشر باستخدام الكنايات، والإشارات اللمحيّة، في عدّة مواضع جاء شرحها خلال تدبر السورة.

إلى غير هذه العناصر البلاغية ممّا يُمكن استخراجه بالتأمل من السورة.





(١٢)

## الملحق الثاني

## حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله

تحدّث القرآن المجيد حول موضوع إعراض الكافرين المعاندين المكابرين الذين يستكبرون في الأرض، ويتَّبِعُونَ أهواءهم وشهواتهم، ونزعاتهم، ويستجيبون لنزغات الشياطين، عن آيات الله الكونية وآياته الإعجازية، وآياته البَيِّنَاتِ المنزلة، وآياته الجزائية، في نُصُوصٍ متعدّدة موزعة في طائفة من سُورِهِ.

وأتابع في هذا الملحق استعراضها بشيءٍ من التدبر:

## النص الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن أئمة الكفر والشرك في مكة، إبان نزول السورة، وبمناسبة ذكر آية انشقاق القمر للرّسول محمد ﷺ:

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۖ﴾.

وقد سبق تدبر هذا النصّ، ضمن الدراسة التدرّجية لهذه السورة.

## النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مُبَيَّنًا ما قاله آل فِرْعَوْنَ لموسى عليه السّلام، بعد أن أخذهم الله بالسنين المجديّة، ونقص من الثمرات، لعلهم يتذكّرون:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۖ﴾.

وفي التعقيب على قولهم هذا كان الإجراء الرّبّاني ما أبانه اللّهُ عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

فَقَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا لكُفَّارِ قريش المعاندين المستكبرين، ولكل أمثالهم المعاصرين والآتين في العصور اللاحقة، ما فيه عبرة وعِظَةٌ بما كان من الذين سَلَفُوا من كُفَّارِ القرون الأولى، وبما أنزل الله بهم من عقاب.

### النص الثالث:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً مُبَيَّنًا بَعْضَ مَا كَتَبَهُ فِي الْأَلْوَحِ الَّتِي آتَاهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿سَاصِرِفُ عَنْ ءَايَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذا النصَّ أَنَّ مِنَ الْقَوَانِينِ وَالسُّنَنِ الْعَامَّةِ الَّتِي فَطَّرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، أَنَّ مَنْ تَكَبَّرَ في الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، طَمَسَ كِبْرَهُ عَلَى بَصِيرَتِهِ، فَجَعَلَهُ يَنْصَرِفُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَبِهَذَا الانصرافِ عن آيَاتِ اللَّهِ وَعَدَمِ التَّأَثُّرِ بِهَا والاستفادة من دلالاتها، يكون من شأنه أَنَّهُ إِنْ يَرُكُلُ آيَةً لَا يُؤْمِنُ بِهَا، وَأَنَّهُ إِنْ يَرِ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذْهُ سَبِيلًا، وَأَنَّهُ إِنْ يَرِ سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذْهُ، سَبِيلًا.

فَالْتَكَبُّرُ في الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يُؤَلِّدُ كُلَّ هَذِهِ الْقَبَائِحِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْكُفْرِيَّاتِ.

وفي هذا تحليلٌ تَغْرِیْضِيٌّ غير مباشرٍ لِحَالِ مُتَكَبِّرِي كُفَّارِ مَكَّةَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ، ضَمِنَ بَيَانُ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الْعَامَّةِ فِي النَفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

## النص الرابع:

وقول الله عز وجل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن الذين كذبوا رسول الله محمداً ﷺ، وكذبوا بالقرآن الذي جاءهم به عن ربّه جلّ جلاله وعظم سلطانه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾  
فأبان الله عز وجل في هذا النص ذأب الكفار المعاندين الذين كذبوا رسول الله، وكذبوا بما جاءهم به عن ربهم، وهو أنهم ما تأتاهم من آية إعجازية، أو آية قرآنية بزهانية، إلا كانوا عنها مغرضين، غير مكترئين لها، ولا عابئين ولا مبالين بها.

## النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة [يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول] خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ وَكَأَنّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

تحدث هذا النص عن آيات الله الدائمات في ظاهرات الكون، لا عن آياته الطارئات الخارقات لنظام الكون المعتاد.

فالآيات الدائمات في ظاهرات الكون تدل على طائفة من صفات الله الجليلات، وتدل على ربوبيته الدائمة لكل ما سواه، وعلى وخذائيته في ربوبيته، المستلزمة لوحدانيته في إلهيته.

لكن الكافرين المعاندين المكابرين يَمُرُونَ على آيات الله الكثيرات الْمُنتَشِرَاتِ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فيَعْرِضُونَ عنها غير مُكْتَرِئين لها، ولا عابئين بدالاتها.

## النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأن أئمة الكفر والشرك في مكة إبان التنزيل:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فسوف يأتيهم يوم القيامة تحقيق أنباء ما كانوا به يستهزئون، منكبرين البعث، والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء في الجنة دار نعيم المتقين، أو في النار دار عذاب الظالمين.

والمراد بالآيات التي تأتيهم الآيات الإعجازية الكونية، والآيات البانية القرآنية.

## النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

إن كبرهم واتباعهم لأهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم، واستجابتهم لنزعات الشياطين، أمور جعلت على قلوبهم أكنة<sup>(١)</sup>، ضمن أنظمة الله وقوانينه وسننه السببية، فمنعتها من أن تفقه دلالات آيات كتاب الله المنزل، وجعلت أيضاً في آذانهم وقراً<sup>(٢)</sup>، فحجبها عن استماع آيات الله المنزلات على رسوله.

(١) أكنة: جمع «كنان» وهو كل غطاء يحجب ويستر.

(٢) وقراً: الوقر الصم، أو ثقل في السمع قريب من الصمم.

وَأَبَانَ هَذَا النَّصَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ انْطَبَقَ عَلَيْهِ قَانُونُ السُّنَنِ السَّبِيئَةِ، الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي النَّصِّ الثَّالِثِ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ، وَهُوَ مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى فِي الْأَلْوَحِ، وَهُوَ الْآيَةُ (١٤٦) مِنْ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) فَهَؤُلَاءِ إِنْ يَرَوْنَ كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، وَالسَّبَبُ أَنَّهُمْ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ فِي كِتَابِهِ، فَيَقُولُونَ عَنْهَا: إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أَيْ: مَكْتُوبَاتُ الْأَوَّلِينَ، أَوْ خِرَافَاتُ وَأَكَاذِيبُ الْأَوَّلِينَ.

#### النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً بشأن كُبراء كفار ومجرمي مكة إبان تنزيل السورة:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

إِنَّ كُفْرَ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ عِنَادِيٌّ سَبَبُهُ مَا فِي نَفُوسِهِمْ مِنْ كِبَرٍ، يَمْنَعُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَنْ اصْطَفَاهُ اللَّهُ رَسُولًا، وَمَنْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَيَجْعَلُونَ إِيْمَانَهُمْ مَشْرُوطًا بِأَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلَ مَا آتَاهُ لِرُسُلِهِ.

فجاء في البيان الربّاني: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وجاء البيان الربّاني بأن هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ سَيُعَاقَبُونَ بِصَغَارٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِعَذَابٍ شَدِيدٍ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يُمَكِّرُونَ ضِدَّ دِينِ اللَّهِ، وَرُسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

#### النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة (الصفّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) خطاباً

لرسوله:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ ﴿١٥﴾﴾ .

يَسْتَسْخَرُونَ: أي: يَسْتَهْزِئُونَ.

فأضاف هذا النص أنهم تَجَاوَزُوا دَرَكَةَ الإِغْرَاضِ، وَاَنْحَطُّوا إِلَى دَرَكَةِ الاستهزاء بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَاتِ، وَيَكْرُرُونَ مَقَالَتَهُمُ الْقَدِيمَةَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ.

### النص العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أول سورة مَدَنِيَّةُ التَّنْزِيلِ بشأن أهل الكتاب، وخطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِلَّتَكَ... ﴿١٤٥﴾﴾ .

هذا البيان يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَهُمْ الْيَهُودُ بِالدرَجَةِ الْأُولَى، ثُمَّ النَّصَارَى، لَا يَنْقُضُهُمُ الْاِقْتِنَاعُ بِصِدْقِ رِسَالَتِكَ، وَلَكِنْ يَخْجُبُهُمُ التَّعَصُّبُ الْأَعْمَى، وَالْمَصَالِحُ الدُّنْيَوِيَّةُ الْخَاصَّةُ، عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ نَبِيًّا رَسُولًا، وَعَنِ اتِّبَاعِ شَرِيعَتِكَ، وَالتَّوَجُّهِ فِي الصَّلَاةِ لِقِبْلَتِكَ.

### النص الحادي عشر:

نص جاء في سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نُزُول) خِطَاباً مِنْ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خِطَابٌ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ يُدْرِكُ دَلَالَاتِ هَذَا الْخِطَابِ.

وَهُوَ نَصٌّ مَدَنِيٌّ التَّنْزِيلِ، ضُمَّ إِلَى سُورَةِ (يُونُس) الَّتِي هِيَ مِنْ أَوَاسِطِ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، مُرَاعَاةً لِلْمُنَاسَبَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي اقْتَضَتْ ضَمَّهُ إِلَيْهَا، وَتَأْخِيرَ تَنْزِيلِهِ قَدْ رُوِيَ فِيهِ مَقْتَضَى حَالِ وَجُودِ الرِّسُولِ فِي الْمَدِينَةِ. وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ  
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ  
كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ  
رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ .

لقد خاطب الله رسوله بهذا النص بحسب الظاهر، باعتباره أول  
المكلفين بالمأمورين بالإيمان وبالإسلام لما أنزل الله، والغرض أن يسمع  
هذا الخطاب الموجه للرسول غيره من المكلفين، ليعلم أن الرسول مكلف  
أن يكون أول المؤمنين المسلمين، وأنه غير مُستثنى من قانون العقاب  
والجزاء، لو عصى أو كذب، لكنه لا يفعل ذلك حثماً، لأن الله لم يضطفه  
لرسالته الخاتمة إلا عالمياً بما يتحلّى به من كمال بشري.

ويُعتبر هذا الخطاب من أزوع الأساليب التربوية وأحكمها للآخرين،  
إذ يُدركون به أن الرسول مع ارتفاع منزلته عند ربه، وعلو مقامه وشأنه، لم  
يزفع الله عنه موادّ التكاليف الموجهة لغيره، ولا قانون العقاب لو كذب أو  
شك أو عصى.

فليعرف كل مكلف موقعه بين يدي ربه جلّ جلاله، وأمام تكاليف  
الدين الموجهة لجميع المكلفين على سواء.

إن رسول الله محمداً ﷺ لا يمكن أن يكون من الشاكين، ولا يمكن  
أن يكون من الذين كذبوا بآيات الله، لكن إذا سمع الشاكون والمكذبون هذا  
الخطاب للرسول أيقنوا أن الأمر شامل وجدّ.

فإذا كان الرسول نفسه ﷺ مع ارتفاع منزلته عند ربه وعلو مقامه، غير  
مغفّي من قضايا الإيمان والإسلام، فما يكون شأن سائر الناس؟.

إنه أسلوب يُعطي الإقناع، ويُلقي الخوف في قلوب الشاكين  
والمكذّبين.

أما قول الله عز وجل في هذا النص:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فهو يدل على أَنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ بِأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا آخر ظروف امتحانهم، وَتَقَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ كُلُّ صُورِهِ ووسائله، فَأَصْرَوْا على الكُفْرِ، وعلى معاندة الحق الذي دمغتهم حُجَجُهُ، فَلَزِمَهُمُ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِالْإِدَانَةِ وَاسْتِحْقَافِ الْعِقَابِ عَلَى الْكُفْرِ، هُؤَلاءِ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا أُمِّهْلُوا، فإِيمَانُهُمْ مَيُوسِّسٌ مِنْهُ، بَعْدَ أَنْ مَرُّوا فِي كُلِّ ظُرُوفٍ امْتِحَانِيٍّ، إِقْنَاعًا وَتَرْغِيًا وَتَرْهِيًا، وَمُعَالَجَةً تَرْبُويَّةً، بِكُلِّ مَا يُورِثُ اسْتِجَابَةً مَنْ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ مَا لِلْإِيمَانِ.

إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ تُورِثُ فِي الْعَادَةِ اقْتِنَاعًا فِكْرِيًّا، أَوْ تُحَرِّكُ النُّفُوسَ بِرَغْبَةٍ أَوْ بِرَهْبَةٍ.

وإِيمَانُهُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا رَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ وَأَحْسَوْا بِأَجْسَادِهِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

لكنَّ هَذَا الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُهُمْ حِينَئِذٍ، لِأَنَّ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ إِنَّمَا يَأْتِي حِينَمَا تَنْتَهِي مُدَّةُ الْامْتِحَانِ، وَيَأْتِي دُورُ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ.



عدم استجابة الله لما يقترحه الناس من آيات حسية

وقد أبان الله عز وجل حكمته في عدم تلبية طلب الناس الآيات التي يَفْتَرِحُونَهَا على الرسول، وهي أَنَّ تَجَرِبَةَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ قَدْ أُثْبِتَتْ أَنَّ إِجَابَةَ مَطْلَبِهِمْ فِي إِنْزَالِ الْآيَاتِ عَلَى مَا يَقْتَرِحُونَ، لَمْ تَجْعَلْهُمْ يُؤْمِنُونَ، بَلْ كَذَّبُوا بِهَا، فَاقْتَضَى قَانُونُ الْإِبْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنْهَاءَ مُدَّةِ امْتِحَانِهِمْ، وَإِنْزَالَ الْهَلَاكِ الشَّامِلِ بِهِمْ، إِذَا اسْتَجَابَ لَطَلِبِهِمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، كَمَا حَصَلَ لثَمُودَ قَوْمِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.



قال الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ۝٥٩﴾.

وموضوع آيات الله الكونية، والإعجازية، والجزائية، والبيانية، موضوع طويل جداً.

وأكتفي الآن بهذا الملحق، عسى أن يفتح الله بملاحق أخرى في سور أخرى.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه.



### الملحق الثالث حول الحكمة في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد استعمال لفظ الحكمة في عدة نصوص، أتابع استعراضها بشيء من التدبر، بعد بيان المراد بلفظ الحكمة، ولفظ الحكيم.

**الحكمة في الأمور:** وضع الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو معرفةً وفهماً وفقهاً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صور السلوك الإرادي.

**والحكيم:** هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة، لما يُعطي أحسن نتيجة.

والله جلّ جلاله وعظم سلطانه، أحكم الحاكمين، وأحكم المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحكمته بالغّة الغاية دوماً في كل شيء، في الخلق والإبداع، والتكليف، والمحاسبة، وفصل القضاء، والجزاء، وغير ذلك من كل أمر.

والحكمة ترجع إلى جذرين:

**الجذر الأول:** الحكمة في المعرفة، وتكون بمطابقة العلم للواقع، أو لأحسن صورة ممكنة تقترب من مطابقة ما هو الكمال في الشيء.

**الجذر الثاني:** الحكمة في السلوك، سواء أكان خُلُقاً، أم عملاً فكرياً أو جسدياً، أم تصرفاً في قول، أو إفتاء، أو حكم، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو حرب، أو غير ذلك.

وتكون الحكمة في السلوك بممارسة الأحسن والأفضل دَوَاماً، ممّا توجّه له الحكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمن حدودها.

● فمن الحكمة في المعرفة مَعْرِفَةُ أَحْسَنِ الوسائل لصيانة الأشياء ممّا يؤذيها أو يُتلفها. ومَعْرِفَةُ أَحْسَنِ الوسائل والخطط الحربيّة لتحقيق النصر والظفر. ومَعْرِفَةُ أَحْسَنِ العلاج للشفاء من المرض. ومعرفة أحسن الطرق لإصلاح اقتصاد الأمة وتنمية ثرواتها. ومعرفة وجوه الإنفاق الرابع الجالب للخير العاجل والآجل، ومعرفة وجوه الإنفاق الخاسر الجالب للضرّ والضرّ العاجل والآجل، ومعرفة الأحكام التي هي الأقرب إلى تحقيق كمال العدل والإنصاف. وهكذا بلا حصر.

● والحكمة في السلوك تكون بتطبيق وممارسة ما تقتضيه الحكمة في المعرفة، كممارسة أحسن الوسائل لصيانة الأشياء ممّا يؤذيها أو يُتلفها، وممارسة أحسن الوسائل والخطط الحربيّة لتحقيق النُصْر والظفر، وهكذا إلى سائر الأشياء.

فالحكيم في الطبّ يستخدم أحسن العلاج ممّا هو متاحّ له لشفاء مريضه.

وذو المال الحكيم يُنفق من ماله في سبيل الله ليظفر بالأجر العظيم المضاعف عند ربّه أضعافاً كثيرة، ولا ينفق شيئاً من ماله في معصية الله، وإن جلب له لذات عاجلات.

والقاضي الحكيم يَحْكُم بما هو الأقرب لإحقاق الحق، وتحقيق الإنصاف إذا لم يَسْتَطِعْ إحقاق كمال الحق والعدل.

والسياسي الحكيم هو الذي يُحَسِّنُ إدارة رعيَّته بما يحقق الأمن والخير والسعادة والرفاهية للمجموع الأغلب، وفق المقدار الممكن في الظروف الداخلية والخارجية.

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا».

فدلَّ هذا الحديث على الحكمة في المعرفة في قول الرسول: «وَيُعْلَمُهَا» وعلى الحكمة في السلوك في قوله: «فَهُوَ يَقْضِي بِهَا» والقضاء بالحكمة نوع من أنواع السلوك الحكيم.

وفيما يلي استعراض النصوص بشيء من التدبر:

#### النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن كبراء مشركي قريش إبان التنزيل:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ...﴾.

وقد سبق تدبر هذا النص باستفاضة في موضعه من السورة.

#### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول): بشأن داود عليه السلام:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

والحكمة التي آتاها الله عز وجل داود عليه السلام هي تعاليم الدين  
الحكيمة، وحسن الإدارة والسياسة في مملكه، وحكمته في أحكام العدل،  
والحكم بالحق، وعدم اتباع الهوى.  
النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً  
لرسوله محمد ﷺ:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ...﴾.

المشار إليه بعبارة [ذَلِكَ]: «أحكام معاملة الوالدين - الأمر بإيتاء ذوي  
الحقوق الاجتماعية حقوقهم - التَّهْيِي عن التبذير - مخاطبة السائلين الذين  
يرى المسؤول الإعراض عنهم ابتغاء رحمة يرجوها من ربه بالرفق والقول  
الحسن الميسور - التوسط في الإنفاق بين القبض الشديد والبسط المسرف -  
النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر - النهي عن الاقتراب من الزنى - النهي  
عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق - الإذن بالقصاص بالعدل دون  
إسراف - النهي عن اقتراب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن - الأمر بالوفاء  
بالعهد - الأمر بإيفاء الكيل والوزن - النهي عن اتباع ما ليس للإنسان به علم  
- التَّهْيِي عن المشي في الأرض مرحاً -».

ويُقاس على هذه الأمور سائر الأوامر والنواهي الربَّانيَّة التي اشتملت  
عليها آيات القرآن المجيد.

#### النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ  
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا  
تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ أَشْرَكَ لَظَلُمْتَ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

وقد اشتملت الآيات في هذه السورة بغد هاتين الآيتين، وحتى غاية الآية (٩) على أوامر ونواهي ربانية، ووصايا أوصى بها لقمان الحكيم ابنه، وهي جميعها داخلّة تحت عنوان الحكمة، وهي بالتّبع من أوّل النصّ حتّى آخره ما يلي:

«الأمر بالشكر لله والنهي عن مقابلة نعم الله بالكفر والجحود - النهي عن الإشراك بالله في ربوبيته وإلهيته - الأمر بالشكر للوالدين - النهي عن طاعتهما في معصية الله - الأمر بمصاحبتيهما في الدنيا بالمعروف - الأمر باتّباع سبيل من أناب إلى الله - النهي عن معصية الله مهما كانت بالاستخفاء التام، فالله محيط بكل شيء علماً ويخضّره يوم الحساب ولو كان في باطن صخرة - الأمر بإقامة الصلاة - الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الأمر بالصبر على المصائب - النهي عن الكبر بتّصغير الخد للناس أو المشي في الأرض مرحاً - الأمر بالقصد في المشي وهو التوسط بين البطء والاستعجال - الأمر بالغض من الصّوت».

ويُقاس على هذه العناصر المشمولة بعنوان «الحكمة» كل ما جاء في الإسلام من شرائع وأحكام وأخلاق وآداب.

#### النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا ۝١٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝١٤﴾.

إنّ ما جاء به عيسى عليه السّلام الدّاخل تحت عنوان «الحكمة» أوامر ونواهي ووصايا تتعلّق بالقاعدة الإيمانية، وتتعلّق بأنواع السّلوک الباطن والظاهر، والالتزام بصراط الله المستقيم، عبادة الله، وطاعة له، واتّقاء لعقابه

على المعصية والمخالفة. ويدخل في هذه كُلُّ شَرائع الدِّين، وأحكامه، وأخلاقه، وآدابه.

### النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، ولكلِّ داعٍ إلى الله من أُمَّته:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

دَلَّلْنَا التُّصَوُّصُ السَّابِقَةُ على أَنَّ الْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ، وَالْمُجَادَلَةَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْحُكْمَةِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا النَّصَّ الْمُتَعَلِّقَ بِالتَّوْجِيهِ لِأَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، خَصَّصَ الْحُكْمَةَ بِالْأَسَالِيبِ وَالْوَسَائِلِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تُوصِلُ الْعُقُولَ إِلَى الْاِقْتِنَاعِ بِالْحَقِّ، أَوْ بِمَا هُوَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، وَخَصَّصَ الْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ بِمَا يُوَثِّرُ عَلَى الْأَنْفُسِ بِالترغيب والترهيب، وَأَفْرَزَ الْجِدَالَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بِعنوان خاصٍ به - مع أَنَّ الحوار الجدلي لا يخرج عن وسائل الإقناع الفكرية العقلية، ووسائل الترغيب والترهيب - للتنبيه على وجوب التزام الدَّاعِي إلى سَبِيلِ رَبِّهِ بالطريقة التي هي أَحْسَنُ في التأثير على العقل والنفس، وَأَحْسَنُ في آداب البحث والمناظرة، من الطريقة التي يَسْلُكُهَا الْخَصْمُ الْمُجَادِلُ.

وهذا تخصيص اصطلاحِي في مجال الدَّعوة إلى سَبِيلِ اللَّهِ.

### الجمع بين لفظتي الكتاب والحكمة في طائفة من النصوص القرآنية:

جاء في القرآن المجيد عشرة نصوص اقترنت فيها لفظتا «الكتاب» و«الحكمة» مثل قول الله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وإذ قد سبقَ أن عَرَفْنَا من بيانات التَّصَوُّص التي جاء فيها تفصيل لكثير من مفرداتِ الحكمة، أن «الحكمة» عنوانٌ ينضوي تحته الأوامر والنواهي والوصايا التي تتعلَّقُ بالقاعدة الإيمانيَّة توجيهاً للإيمان بأركانها وعناصرها، وهذا الإيمان سلوكٌ إراديُّ قلبيُّ، وتتعلَّقُ بأنواع السلوك الأخرى، من السلوك الظاهر والباطن، الشامل لشرائع الدين وأحكامه وأخلاقه وآدابه، فيمكنُ أن نفهم أن المرادَ بالكتاب فيها من عموم ما أنزل الله، ما يشمَلُ الحقائق العلميَّة إثباتاً أو نفيّاً، دون أن يكون فيها أمرٌ أو نهْيٌ أو توجيهُ لسلوك إراديٍّ حكيم ظاهرٍ أو باطن، وما يشمَلُ الأخبار التي لا تُوجِّهُ ضمناً لسلوك إراديٍّ حكيم، ولا تُحدِّرُ ضمناً من سلوك إراديٍّ غير حكيم.

ويجوز أن يكون عطفُ «الحكمة» على الكتاب من عطفِ الخاصِّ على العام، لتوجيه عناية المكلفين للالتزام بالوصايا الرِّبَّانيَّة المتعلِّقة بالسلوك الإرادي الظاهر والباطن.

### الجمع بين عبارتي: «آيات الله» و«الحكمة».

وجاء في نصٍّ واحد من نصوص القرآن المجيد الجمع بين عبارتي: «آيات الله» و«الحكمة» وهو قول الله عزَّ وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لنساء النبي ﷺ وعلى آله:

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤).

الذي يظهر لي في هذه الآية أن عطفَ «الحكمة» على «آيات الله» فيها، هو من قبيل عطف الخاصِّ على العام، لتوجيه عناية نساء النبي ﷺ للحرص على الالتزام بالوصايا الرِّبَّانيَّة المتعلِّقة بالسلوك الإرادي الظاهر والباطن.

إذ جاء قبلَ هذه الآية تخصيصُ نساء النبي ﷺ بوصايا مُشدَّدة نظراً إلى أن

المطلوب مِنْهُنَّ أَنْ يَكُنَّ أَسْوَأَ حَسَنَةِ لَسَائِرِ النِّسَاءِ، فقد جاء قبلها قول الله عز وجل:

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ﴾ (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۖ﴾ (٣٣).

أي: إنما يريد الله بالزَّامِكُنَّ المُشَدِّدِ، بهذه الأوامر والنواهي، لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ يا أهل بيت النبي وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا زائداً عن تطهير غَيْرِكُنَّ، إِذَا اسْتَجَبْتُنَّ فَأَطَعْتُنَّ الله ورسوله، وَعَمِلْتُنَّ بوصايا الله لَكُنَّ.

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

وجاء في القرآن المجيد نصٌ واحدٌ تَحَدَّثَ اللهُ فِيهِ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَاتَّبَعُهُ بِالنَّشَاءِ عَلَى مَنْ أُوتِيَ فِي سُلُوكِهِ فِي حَيَاتِهِ الْحِكْمَةَ، وَأَبَانَ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّ مَنْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وهو قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بَعْدَ حَدِيثِ طَوِيلٍ حَوْلَ إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَجْرِ الْمُنْفِقِينَ الْعَظِيمِ، وَبَيَانِ شُرُوطِ الْإِنْفَاقِ السَّلِيمِ وَأَدَائِهِ، الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا الثَّوَابُ الْعَظِيمُ عِنْدَ اللَّهِ:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْغَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ ۖ﴾ (٢١٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۖ﴾ (٢١٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ﴾ (٢١٩).

وشرح هذا النص وتحليله وتحليله تدبرياً يحتاج صفحات مطولات لا

تناسب مع هذا الملحق، والله وليُّ التوفيق والسداد.





سورة ص

٣٨ مَـحْفَـة ٣٨ نَزْوِل



(١)

## نص السورة وما فيها من قرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِ  
 ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينٌ مَنَاصِ ﴿٣﴾  
 وَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ  
 ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ  
 الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ إِلَهِتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ  
 ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ ﴿٧﴾  
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا  
 عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ  
 لَهُمْ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ  
 ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ  
 قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ

١ - • قرأ ابن كثير [والقرآن] بتسهيل الهمزة، وحمزة في حالة الوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿والقرآن﴾.

٨ - • قرأ يعقوب [عذابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عذاب﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ  
الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا  
لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِتْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ  
﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ  
﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ  
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ  
وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ \* وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا  
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ  
خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ  
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ  
نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾  
قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ

١٣ - • قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر، وابن كثير: [وَأَصْحَابُ لَيْكَةٍ].

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾.

١٤ - • قرأ يعقوب [عقابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عِقَابُ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

١٥ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فَوَاقٍ] بضم الفاء.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتح الفاء. والضم والفتح وجهان عربيان للكلمة.

٢٢ - • قرأ قنبل، وحمزة: [الصُّرَاطِ] بالسين.

وقرأ خلف عن حمزة: [الصراط] بإشمام الصاد صوت الزاي.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الصُّرَاطِ﴾ بالصاد. وهي لهجات عربية.

لِيُنَبِّئَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَرُوا عَيْنَيْهِ وَلِيَسْتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِیَّتُ الْحِیَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي

٢٩ - • قرأ أبو جعفر: [لِيَذَّبَرُوا] أصلها: لِيَسْتَذَكَّرُوا.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَذَّبَرُوا﴾ بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٣٢ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَحْبَبْتُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ بإسكان ياء المتكلم ومدها.

لَا حِدَ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي  
بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾  
وَعَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ  
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَنَا عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ  
عِبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾  
أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ  
مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا  
فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾  
وَاذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾  
إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ

- ٣٥ - • قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ] بفتح ياء المتكلم.  
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ﴾ بإسكان ياء المتكلم ومدها.
- ٣٦ - • قرأ أبو جعفر: [الرِّيحَ] بالجمع.  
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد.
- ٤١ - • قرأ حمزة: [مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ] بإسكان ياء المتكلم.  
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ بفتح ياء المتكلم.
- ٤١ - • قرأ أبو جعفر: [بِنُصْبٍ] بضم النون والصاد، وضم الصاد إتياع لضم النون.  
وقرأ يعقوب: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بفتح النون والصاد.  
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِنُصْبٍ] بضم النون وإسكان الصاد.  
والمعنى في القراءات الثلاث واحد، وهو المشقة والتعب والإعياء.
- ٤٥ - • قرأ ابن كثير: [عِبْدَنَا] بالإفراد.  
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عِبَادَنَا﴾ بالجمع.  
والمعنى في القراءتين على الجمع.
- ٤٦ - • قرأ نافع، وهشام، وأبو جعفر: [بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى] على الإضافة، دون تنوين. =

الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ  
 مِّنَ الْآخِيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٤٩﴾  
 جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا  
 بِفَكِّهِمْ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصَصَتْ الْأَطْرَفُ أَزْرَابٌ  
 ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ  
 مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِلَى الطَّلَعِينَ لَشَرٌّ مَّثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ  
 يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾  
 وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْنَحٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ  
 بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ  
 قَدْ مَثَمُوهُ لَنَا فَنَسَّ الْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ  
 عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ  
 مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْنَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

= وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ بثنتين خالصة.

وهما وجهان عربيان والمعنى احد.

٥٣ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [مَا يُوعَدُونَ] بياء الغائنين.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٥٧ - • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَعَسَاقٌ] بتشديد السين.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَعَسَاقٌ﴾ بتخفيف السين.

وهما وجهان عربيان للكلمة.

٥٨ - • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [وَأُخْرَى] جمع أُخْرَى.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَأُخْرَى﴾ والآخر هو أحد الشيتين.

٦٣ - • قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: [سُخْرِيًّا] بضم السين. =

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِ  
 نِّي إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا  
 الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ  
 ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ  
 إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ  
 بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ  
 سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُدُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ  
 اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَائِيلُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ  
 لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا  
 خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا  
 فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ  
 فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى

= وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سُخْرِي﴾ بكسر السين.

وهما لغتان لمصدر سُخِّرَ منه وسخر به.

٦٩ - • قرأ حفص: [لِي مِنْ عِلْمٍ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِي مِنْ عِلْمٍ﴾ بإسكان ياء المتكلم.

وهما كما سبق بيانه وجهان عربيان.

٧٠ - • قرأ أبو جعفر: [إِلَّا إِنَّمَا] بكسر همزة إنَّما.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ بفتح همزة أنَّما.

وتخريج الكسر عند أبي جعفر كون الجملة على سبيل الحكاية.

٧٨ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [لَعْنَتِي إِلَيَّ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَعْنَتِي إِلَيَّ﴾ بإسكان ياء المتكلم.



يَوْمَ أَلْقَى الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾  
 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾  
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ  
 عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ  
 ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

٨٣ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن عامر: [الْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بفتح اللام.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٨٤ - • قرأ عاصم، وحزمة وخلف: [قَالَ فَالْحَقُّ] برفع الحق.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ بنصب الحق، ولتخريج هذا وجوه عند النحويين، وبما أنه خطاب لإبليس فأرى أنه على تقدير: فَأَقْسِمُ الْقَسَمَ الْحَقُّ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا الْحَقُّ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ، فهذا هو الحق الذي أطلب منك أن تعلمه.

(٢)

## الأطوار التي تنقلت فيها مواقف أئمة الكفر

### في مكة حتى نزول سورة (ص)

مرّت حركات أئمة الكفر في مكة، حتى نُزِلَ سورة (ص) ضدّ دعوة الرسول محمد ﷺ، في أطوار تصاعديّة حتّى بلغوا مبلغ من هو في عزّة وشقاق، وكان هذا الطور الأخير إبان نزول سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

وَتَتَبُعاً لِمَا جَاءَ فِي السُّورِ الْمَنْزَلَةِ حَتَّى نُزُولِ سُورَةِ (ص) تَتَكَشَّفُ للباحث المدقّق الأطوار التي تَنَقَّلَتْ فيها مواقف أئمة الشُّرك والكُفر في مكة، بدأ من إعلان الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ دَعْوَتَهُ، وهي الأطوار التالية:

الطور الأول: كانوا أول الأمر في طور بروز بعض القيادات المكذبة،  
الناحية للرسول عن متابعة دعوته، مع رغبتهم في المداينة.

وكان هذا إبان نزول سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).

وقد دل على هذا الطور قول الله عز وجل لرَسُوله فيها:

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

ورافق هذا الطور محاولات أولى لِفِتْنَةِ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ عَنْ دِينِهِ،  
وصد الذين لديهم استعداد للإيمان به واتباعه عن أن يؤمنوا به ويتبعوه، مع  
اتهامهم الرسول بأنه مجنون إذ دعا إلى أمر جديد خالف فيه قومه.

ففي سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) نجد قول الله عز وجل:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾﴾.

وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) نجد قول الله عز وجل:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

الطور الثاني: طور ظهرت فيه بعض الدعايات الإعلامية المضادة،  
وبعض الحركات العدائية، دل على هذا الطور ما جاء في سورة (المدثر/  
٧٤ مصحف/ ٢ نزول)، إذ جاء فيها قول الله عز وجل بشأن الوليد بن  
المغيرة:

﴿إِنَّمَا فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾  
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا  
إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ودل عليه ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) وما دلت

عليه من أعمال أبي لهب وامراته.

**الطور الثالث:** طورٌ ظهرت فيه حركةٌ تصيّد ما يُمكن أن يُثير به الكافرون وخزّاتٍ إعلاميّة، ضدّ دَعْوَةِ الرُّسُول ﷺ ورسالته، وكان هذا الطور إتيان نزول (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) إذ أشاع بعضهم أنّ ربّ محمّد قد قلاه، فقال الله له فيها:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

**الطور الرابع:** طورٌ ظهر فيه بعض المجاهرين ببغض الرُّسُول محمد ﷺ، وكان هذا الطور إتيان نزول سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول) إذ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿إِن شَاءَ رَبُّكَ هُوَ الْآخِرُ﴾.

شأنك: أي مُبغضك.

**الطور الخامس:** طورٌ ظهرت فيه من أئمة الكفر المفاوضات الاستدرجية للرُّسُول ﷺ، عسى أن يتنازل عن بعض دَعْوَتِهِ، وكان هذا الطور إتيان نزول سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

**الطور السادس:** طورٌ دارت فيه حرّكاتُ الحسد، ورغباتُ الكيد سرّاً، وانطلقت فيه الوسّوسُ تنفث في صدور النّاس لتصدّ عن دين الله، وكان ذلك إتيان نزول سورة (الفلق/ ١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول) وسورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول).

**الطور السابع:** طورٌ انطلقت فيه عبارات التعجّب من مبادئ التوحيد، وأنباء يوم الدين، والتعجّب من خبر حادثتي الإسراء والمعراج للرُّسُول محمد ﷺ، وكان هذا الطور إتيان نزول سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) إذ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَإِن هَذَا الْحَدِيثُ فَعَجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَضَحَكُونَ وَلَا يَكُونُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

الطور الثامن: طُوِّرَ فِتْنَةً بعض جبابرة مَلَأَ مُشْرِكِي مَكَّةَ لِعَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ بِالْتَّعْذِيبِ الشَّدِيدِ، لِإِكْرَاهِهِمْ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ الَّذِي آمَنُوا بِهِ، وَاتَّبَعُوا فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُحَمَّدًا ﷺ وَبَدَأَ فِي هَذَا الطُّورِ اسْتِغْرَاقُ هَؤُلَاءِ الْجَبَابِرَةِ فِي التَّكْذِيبِ وَكَانَ هَذَا الطُّورُ إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾.

الطور التاسع: طُوِّرَ ظَهَرَ فِيهِ الْهَمْزُ وَاللَّمْزُ وَالطَّعْنُ الْخَفِيُّ بِالرَّسُولِ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

وقد ظهرت هذه الحركات الكيدية من قِبَلِ ذَوِي الْغِنَى وَالْوِجَاهَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ.

وكان هذا الطور إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول).

الطور العاشر: طُوِّرَ انْطَلَقَتْ فِيهِ عِبَارَاتُ التَّكْذِيبِ الصَّرِيحِ الْعَلَنِيِّ الْجَازِمِ، وَالِاتِّهَامِ الْعَلَنِيِّ لِلرَّسُولِ بِالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ.

وكان هذا الطور إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول). إِذْ جَاءَ فِي صَدْرِهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وجاء في أَوَاخِرِهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾﴾.

**الطور الحادي عشر:** طَوْرُ اتَّخَذَ فِيهِ أُمَّةَ الْكُفْرِ فِي مَكَّةَ رَسُولَ اللَّهِ هَدَفًا وَغَرَضًا مُسْتَحْلِينَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ إِيْذَاءَهُ، غَيْرَ عَابِثِينَ بِهِ وَلَا بِحُرْمَةِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَصِلْ إِلَى مُسْتَوَى إِعْلَانِ الْمَوَاجَهَةِ بِالْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ، ذَاتِ السُّلْطَانِ.

وكان هذا الطَّوْرُ إِبَّانَ نزول سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

وقد دَلَّ على هذا الطَّوْر قول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾.

أي: والحال قد اتَّخَذَكَ بعضُ أئمتِّه هَدَفًا وَغَرَضًا، فهم يستحلُّون فيه إيذاءك، وَرَمَي سِهَامِ كَيْدِهِمْ عَلَيْكَ، وتوجيهها إليك.

**الطور الثاني عشر:** طَوْرُ تَدْبِيرِ مَلَأَ كُفَّارَ قَرِيشِ الْمَكَايِدِ ضِدَّ الرُّسُولِ ﷺ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

وكان هذا الطَّوْرُ إِبَّانَ نزول سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) وقد دَلَّ على هذا الطَّوْر قول الله عزَّ وجلَّ فيها لرَسُولِهِ:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُكُمُ رُؤُودًا ﴿١٧﴾﴾.

**الطور الثالث عشر:** طَوْرُ الْإِصْرَارِ الْعَنِيدِ عَلَى رَفْضِ تَصْدِيقِ الرُّسُولِ مع ظهور آية انشقاق القمر بناءً على طلبهم، وطَوْرُ التَّوَجُّهِ لِإِعْدَادِ الْعِدَّةِ بِغِيَةِ التَّخَلُّصِ مِنَ الرُّسُولِ، ودعوته، خوف انتشارها، ووُصُولِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَا إِلَى مُسْتَوَى يَعْجِزُونَ عَنْ قَمْعِهِ وَالْإِنتِصَارِ عَلَيْهِ.

وكان هذا الطَّوْرُ إِبَّانَ نزول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وقد دَلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ بشأنهم:

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْمُهُمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُّونَ الْأُدْبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

**الطور الرابع عشر:** طَوْرُ إِبْرَازِ الْقُوَى الْمَادِّيَّةِ الْغَالِبَةِ، وإظهار العداء

لِلرَّسُولِ وَدَعَوَتِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَطُورُ الْوُقُوفِ فِي شِقِّ مَنْ يَهُمُّ  
بِأَنْ يُعْلِنَ حَرْباً إِذَا اسْتَدْعَى الْأَمْرَ ذَلِكَ.

وكان هذا الطُّورُ إِيَّانَ نزول سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وقد  
دلَّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلَّ في صدرها: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ  
وَشِقَاقٍ ۝﴾.



(٣)

### موضوع سورة (ص) وسبب نزولها

وَصَلَ كُبراء مشركي قريش إِيَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (ص) إِلَى طُورِ الْمُعْتَزِّ  
بِقُوَّتِهِ الْمُتَفَوِّقَةِ الْعَالِيَةِ، الْمُعْلِنِ عداوته، والواقف في شِقِّ الْمُسْتَعِدِّ لِلْحَرْبِ،  
بَغِيَّةٍ يُقَافِ مَسِيرَةَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالتَّنْكِيلِ بِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ،  
وَالْتَخَلُّصِ مِنْهُمْ وَمِنَ الرَّسُولِ.

فاقتضى هذا الطُّورُ إِنْزَالَ هَذِهِ السُّورَةِ لِيَيَّانِهِ، وَيَبَيِّنَ مَقَالَاتِ أئمة الكُفْرِ  
فِيهِ الَّتِي يَتَّبِعُهُمْ فِيهَا جَماهيرهم، وَيُرْدُونَهَا بِغَيَاءٍ، وَاقْتَضَتْ مُعَالَجَتَهُمْ مِنْ  
خِلَالِ الطُّورِ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ عَلاجاً فِكْرياً، وَعَلاجاً نَفْسيّاً، وَاشْتَمَلَ الْعَلاجُ  
النَفْسيُّ لَهُمْ عَلَى الْإِنْذَارِ بِعَذَابٍ مِنْ اللَّهِ يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَعَلَى تَشْبِيهِهِمْ  
وإِضعافِ عِزائِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا أَعَدُّوا جَيْشاً لِقِتَالِ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
فَهُمُ الْمَهْزُومُونَ الْمَغْلُوبُونَ، وَاشْتَمَلَ عَلَى التَّلْوِيحِ بِإِهْلَاكِ شَامِلِ لَهُمْ، كَمَا  
حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ مِنْ مُعْجِزِمِي الْقُرُونِ الْأُولَى، إِذَا أَصْرُوا عَلَى مَا هُمْ  
فِيهِ، وَوَصَلُوا إِلَى مِثْلِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُهْلَكُونَ السَّابِقُونَ.

واقْتَضَى هَذَا الطُّورُ الْعِدَائِيَّ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ كُبراء وَأئمة مشركي مَكَّةَ،  
وَالَّذِي جَعَلَهُمْ يُفَكِّرُونَ بِأَنْ يُعِدُّوا الْوَسَائِلَ الْحَرْبِيَّةَ، وَيَقِفُوا مَوْقِفَ الْمُشَاقِّ  
الْمُحَارِبِ، وَيُطْلِقُوا الْأَقْوَالَ الْجَارِحَةَ الْمُؤْلِمَةَ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَالْمُحَرِّضَةَ

لأتباعهم على معاداته وحزبه وحزب الَّذِينَ آمَنُوا به، أَنْ يُوجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لرسوله علاجاً تَرْبَوِيّاً، فَيَأْمُرُهُ أَوَّلًا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَأَنْ يَذْكُرَ لَهُ نماذج ثلاثة من رُسُلِهِ السَّابِقِينَ، وفي كُلِّ نموذج ثلاثة رُسُل.

**أما النموذج الأول:** فذكرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه الرُّسُلَ: داودَ، وسليمانَ، وأيوبَ عليهم السلام، مع بعض تفصيلٍ عن قِصَصِهِمْ، وما تعرَّضُوا له من بلاء، وأثنى عليهم بأنهم أَوَابُونَ، أي: رَجَاعُونَ.

**وأما النموذج الثاني:** فذكر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه الرُّسُلَ: إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ عليهم السلام، وأثنى عليهم ثناءً عظيماً، وأبان أنهم عنده من المصْطَفَيْنِ الأخيار، وأنهم لا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا ذِكْرُ الدارِ الآخرة.

**وأما النموذج الثالث:** فذكر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه الرُّسُلَ: إسماعيلَ، وإليَّسَعَ، وذَا الْكِفْلِ عليهم السلام، وأثنى عليهم بأنهم من الأخيار.

وفي ذِكْرٍ هَؤُلَاءِ النماذج الثلاثة من الرُّسُلِ إشعارٌ ضمنيٌّ غَيْرُ مُصْرَحٍ به لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأن يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضِيهِ، حَتَّى يَهَبَهُ اللهُ إِيَّاهُ، وَيَبْلُوَهُ مِنْ خِلَالِهِ.

هَلْ يريد نموذج أهل المال والملك، فيتعرَّض لامتحانات، وابتلاءات، يكون الثناء عليه في آخر الأمر: «إِنَّهُ أَوَابٌ» كما أثنى اللهُ على داودَ، أو «نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَابٌ» كما أثنى اللهُ على سليمان وأيوب.

أم يريد نموذج الذين لا هَمَّ يَشْغَلُ نفوسَهُمْ وأفكارَهُمْ إِلَّا ذِكْرُ الدارِ الآخرة، والعملَ لَهَا، حَتَّى يكون ثناء اللهُ عليه في آخر رحلة امتحانه، مثل الثناء الذي أثنى به على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وهو قوله جَلَّ جلاله بشأنهم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ۖ﴾ (٤٧).

أم يُريد نموذجَ الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ بَيْنٍ، فيكون الثناء عليه في آخر رحلة

امتحانه، مثل الثناء الذي أثنى الله به على إسماعيل واليسع وذوي الكفل عليه السلام، وهو قوله جلّ جلاله بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾.

وقد أثبتت سيرة الرسول محمد ﷺ في حياته أنه اختار لنفسه النموذج الأسمى، نموذج إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام، وارتقى إلى أعلى ذروة هذا النموذج، فكان سيّد الأولين والآخرين.

واقتضى البيان الحكيم في السورة بعد تربية الله لرسوله وتخيره تقديم لقطات من الجزاء الأخروي بالشواب، ولقطات من الجزاء الأخروي بالعقاب، مكملات لما نزل قبلها في نجوم التنزيل.

واقتضى البيان الحكيم في السورة الإعلام بأن الغاية من خلق ذوي الإرادات الحرة ابتلاؤهم بالإيمان بأن الله هو الإله الواحد المعبود بحق، إذ هو الربّ الواحد الذي لا ربّ سواه، وابتلاؤهم بالإسلام له والسَّمْع والطاعة.

وقصة خلق آدم والأمر بالسجود له، واستكبار إبليس عن الطاعة لأمر الله، وطرده، وجعله مع من يتبعه في جهنم يوم الدين، أولى مراحل ابتلاء ذوي الإرادات الحرة، بشأن توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية لله عز وجل، والسَّمْع والطاعة والإسلام له، دون معاندة ولا استكبار.

فجاء عرض هذه القصة لإبراز هذه الحقيقة.

وجاء ختم السورة بعدها بتعليم الله رسوله ما يقوله لقومه، لدفع اتهامهم له بأنه ذو غرض ذيوي يسعى إليه في قومه، وبيان أن ما جاء به ليس ذكراً لهم وحدهم، بل هو ذكر للعالمين كلّ العالمين، وبأن ما اشتمل عليه هذا الذكر وهو القرآن من أنباء مستقبلية سيعلمون تحققها بعد حين.

وبهذا ظهر لنا أن عناصر سورة (ص) تدور حول موضوع واحد، وهي عناصر مترابطة ترابطاً فكرياً وثيقاً.





(٤)

**دروس سورة (ص)**

تتضمن سورة (ص) على أربعة دروس:

**الدرس الأول:** يشتمل هذا الدرس على بيان الطور الذي وصل إليه كُبراء مشركي مكة، ويُلقَقُ بهم أتباعهم، تجاه الرسول محمد ﷺ ودعوته، والذين آمنوا به واتبعوه، إبان نزول السورة، وهو طُور مَنْ هو في عِزَّةٍ بقوته، وشقاقٍ ظاهرٍ في عداوته.

ويشتمل على بيان مقالاتهم في هذا الطور، ومعالجات مختاراتٍ لهم فيه، ببيانات من الربِّ العزيز الحكيم.

وهو الآيات من (١ - ١٦)،

**الدرس الثاني:** ويشتمل هذا الدرس على معالجة نفس الرسول ﷺ، تجاه الطور الذي وصل إليه قومه في بلده، وهم أهلُه وعشيرته، إذ أَلَمَتْهُ وأَحْزَنْتُهُ أقوالُهُمْ ومواقِفُهُمْ من دعوته، وبوادٍ توجُّهُهم لاستخدام القوة الحربية، لقمع دعوته، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه.

فأمر الله رسوله بأن يَصْبِرَ على أقوالهم، وعرض عليه ثلاثة نماذج من المرسلين السابقين، مشعراً له ضِمْناً بهذا العرض أن يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضِيهِ منهم، حتَّى يقضي الله له به.

وهو الآيات من (١٧ - ٤٨).

**الدرس الثالث:** ويشتمل هذا الدرس على عرض لقطات ترغيبية من نعيم المتقين في جنات عدن يوم الدين، وعرض لقطات ترهيبية من عذاب الطاغين في جهنم يوم الدين.

وكلُّ من اللَّقَطَاتِ التَّوْبِيخِيَّةِ، واللَّقَطَاتِ التَّوْبِيخِيَّةِ، لقطاتٌ فيها بيانٌ

تكامليّ مَعَ مَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ النَّاظِلَةِ قَبْلَ سُورَةِ (ص) عَلَى مَنِهْجِ الْقُرْآنِ فِي بَيَانَاتِهِ التَّكَامِلِيَّةِ الْمَجْزِأَةِ عَلَى مَرَاكِلَ مِنَ التَّنْزِيلِ، ضَمَّنَ حَرَكِيَّةَ حَكِيمَةٍ، تَعْلِيمِيَّةً وَتَرْبَوِيَّةً.

وهو الآيات من (٤٩ - ٦٤).

**الدرس الرابع:** درس يَعْلَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ ثُمَّ كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَا يَقُولُهُ لِلنَّاسِ بِشَأْنِ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَعَ ذِكْرِ قِصَّةِ خَلْقِ آدَمَ وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَطَرْدِهِ وَوَعِيدِهِ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ أَبَانَتْ أَنَّ إِبْلِيسَ مُؤْمِنٌ بِرَبِّهِ إِلَّا أَنَّهُ جَحَدَ إِلَهِيَّتَهُ اسْتِكْبَارًا، فَلَعَنَهُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَوْعَدَهُ بِالْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ الْخَالِدِ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ جَحَدَ إِلَهِيَّةَ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ.

وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِي هَذَا الدَّرْسِ رَسُولُهُ أَنْ يَبَيِّنَ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ مَا يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ أَجْرًا عَلَى دَعْوَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَلَقَّى الذِّكْرَ عَنْ رَبِّهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ الْمُتَصَنِّعِينَ كَالسَّحَرَةِ، وَأَنْ هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ لَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ، وَأَنْ أَنْبَاءَهُ سَيَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهَا حَقٌّ.

(٥)

**التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة**

**وهو الآيات من (١ - ١٦)**

قال الله عز وجل:

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۚ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ۚ﴾ (١)  
 ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا بِآيَاتٍ ۚ وَتَجِئُ مِنْهُمْ مُنْذِرٌ ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنْهُنَّ فَسَوْفَ يَكْفُرُونَ ۚ هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ ۚ﴾ (٢)  
 ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۚ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۚ﴾ (٣)

وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ إِن هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوفُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْرٌ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَنَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴿

تمهيد:

جاء في هذا الدرس بيان الطور الذي وصل إليه أئمة الكفر وملأهم من مشركي مكة، إبان نزول سورة (ص) وهو طورٌ يشتمل على مواقف قديمة ما زالوا يُصِرُّونَ عليها، ويكابرون فيها، ويعاندون الحق مُتَشَبِّهِينَ بها، ومواقف جديدة تَطَوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العنادِيَّةِ.

أولاً: فمن مواقفهم القديمة التي ما زالوا يُصِرُّونَ عليها ما يلي:

١ - موقف الكفر بالرَّسُولِ وبما جاء به عن ربه، على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ القرآنَ المجيد آيَةٌ عَظْمَى عَلَى صِدْقِهِ، لو تَدَبَّرُوا آيَاتِهِ، وَتَبَصَّرُوا بِدَلَالَاتِهَا، وَانْتَفَعُوا مِنْ عِظَاتِهَا فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، وَمِنْ عِظَاتِهَا أَنْبَاءُ الْمُهْلَكِينَ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ.

وقد جاء بيان هذا الموقف في الآية (١) وبعض الآية (٢).

٢ - موقف الإصرار على التكذيب بيوم الدين، إذ طَلَبُوا تَعَجِيلَ مَا يُحِبُّونَ مِنْ حُظُوظِهِمْ وَجَعَلَهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِشْعَاراً بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، رَدًّا عَلَى تَرْغِيبِهِمْ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نَعِيمٍ عَظِيمٍ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ.

وقد جاء بيان موقفهم هذا في الآية (١٦).

ثانياً: ومن مواقفهم الجديدة التي تطوّروا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّة العنادية ما يلي:

١ - أنهم قد وصلوا إلى طَوْرِ المعترِزِ بقوَّته الغالبة، الواقف في شِقِّ المعادي الذي يُفَكِّرُ في الإعداد للحَرْب، وقَمَعَ دعوة الرسول محمَّد ﷺ بِقُوَّةِ السِّلَاح، واضطهاد الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ والتَّخْلَصَ مِنْهُمْ قَتْلًا أو أَسْرًا وَتَشْتِيَتًا.

٢ - توجيه الدَّعَاية الإِعلامِيَّة بأنَّ محمَّداً ساجِرٌ كَذَّاب. وقد سبق في نجوم التَّنْزِيل بيان أنَّهم كلَّما رأوا آية من آياتِ الله الَّتِي يُؤَيِّدُ الله بها رسوله، زَعَمُوا أَنَّهَا سِحْر. وأنَّهم كَذَّبُوا ببلاغاته لهم عن رَبِّهِ.

لكنَّ الموقف الجديد هو تحريك الدَّعَاية الإِعلامِيَّة النُّشِطَةِ بأنَّه ساجِرٌ كَذَّاب، خوفاً منهم على جماهيرهم، أن يُؤْمِنُوا به وَيَتَّبِعُوهُ، وصدّاً لسائر الناس عن النظر إلى دعوته والتفكُّر فيها.

٣ - الترويج الدعائيِّ التَضْلِيلِيِّ لجماهيرهم بعبارات التعجب من أنَّ محمَّداً جَعَلَ الآلهة المتعدِّدة إلهاً واحداً، وإِطْلَاقُ عبارة: «إِنَّ هَذَا الشَّيْءُ عَجَابٌ».

٤ - أنَّهم لما شَعَرُوا بالهزيمة الفكرية القائمة على عقيدة الشُّرْكِ، أَمَّامَ دَعْوَةِ التَّوْحِيد، تَكَاتَفَوْا وَمَشَوْا مُتَعَاْضِدِينَ مُتَجَلِّدِينَ، يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَنْ يَتَابِعُوا مَسِيرَتَهُمُ الشَّرَكِيَّةَ، وَيَضْرِبُوا عَلَى آلِهَتِهِمْ، مُتَّهِمِينَ الرَّسُولَ بِأَنَّهُ طَالِبُ مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ، وَمَتَذَرِّعِينَ لِتَحْسِينِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شُرْكِ وَاسْتِغْنَادِ فِكْرَةِ الرَّبِّ الْوَاحِدِ، الَّذِي هُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ، بِأَنَّ الْمَلَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ الَّتِي هِيَ الْمَلَّةُ الْآخِرَةُ قَبْلَ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ، وَالَّتِي تَوْمَنُ بِهَا وَتَتَّبَعُهَا أُمَّمٌ كَثِيرَةٌ، وَلَهَا دُولٌ قَوِيَّةٌ فِي الْأَرْضِ، قَائِمَةٌ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، وَلَيْسَ فِيهَا هَذَا التَّوْحِيدُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ.

ثالثاً: وقد جاء في هذا الدّرس ثم في دروس السورة بعده، حتّى الدرس الأخير منها، علاج ربّاني لهذه المواقف القديمة والجديدة.

ومن هذا العلاج ما جاء مُلحقاً باللقطات المختارات من قصّة داود عليه السلام في الدرس الثاني من دروس السورة.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الثالث من دروسها، إنّ هو درس جاء فيه عرض لقطات ترغيبيّة، من نعيم المتقين في جنّات عَدْنٍ يوم الدّين، وعرض لقطات ترهيبيّة من عذاب الطّاغين في جهنّم يوم الدين.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الرابع من دروسها، إذا اشتمل على تعليم الله للرسول ﷺ ما يقوله للمعاندين من قومه، مع عرض لقطات من قصّة خلق الإنسان الأول، وما فيها من بيانات تتعلّق بتوحيد الرّبوبيّة وتوحيد الإلهيّة لله عزّ وجلّ، وما يقوله أخيراً لهم، من ردّ ختاميّ على اتّهامه بأنّ له مصلحةً شخصيّةً دُنيويّةً من دعوته، بإعلان أنّه ما يسألهم من أجرٍ، وبأنّ ما يُبلّغهم عن ربّه من آيات القرآن ليس من عنده ولا من تصنّعه، وأنّ هذا الذّكر الرّبّاني ليس لهم وخدّهم دون الناس، بل هو ذكر لكل العالمين، وأنّ أنباءه المستقبلية والتاريخية والكونية سيعلمونها بعد حين.



### التدبر التحليلي:

● قول الله عزّ وجلّ ﴿صَّ﴾ افتتح الله عزّ وجلّ هذه السورة بحرف «ص» والله أعلم بالمراد به، وبسائر الحروف المقطّعة التي افتتح الله بها أوائل بعض السّور، وقد سبق بيانٌ وجوه التّأويل المطروحة احتمالاً بشأنها لدى تدبّر أوّل سورة (القلم).

وسميت هذه السورة بحرف (ص) من حروف التهجي.

● قول الله عز وجل: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

أقسم الله في هذه العبارة بالقرآن الذي وصفه جلّ جلاله بأن ذو الذكر، أي: المتصف بأنه يستحق أن يكون ذكراً للعالمين، وهذا الاستحقاق ملازم له ملازمة الصاحب الذي لا يفارق صاحبه.

﴿ذي﴾ أي: صاحب، يُزفع بالواو، ويُنصب بالألف، ويُجرُ بالياء، وهو أحد الأسماء الستة التي لها هذا الحكم بشروط.

فدلّ هذا الوصف للقرآن المجيد على أن من خصائصه أنه كتاب يضلح بعد تلقّيه واستجماع آياته لأن يُذكر دواماً، في الألسنة، والقلوب، والأذهان، في كل زمانٍ ومكان.

ولا يقتصر الإعجاب به، والانجذاب إليه، والانتفاع بمضامينه على أزمان تلقّيه، بل يظلّ كذلك دواماً، لأنّه لا يَبْلَى على كثرة تردّد ذكره ولا يَخْلُق، بسبب حلاوة لفظه، وكمال معانيه، وعمق دلالاته التي تتجدّد كلّما تعمّق المتفكرون المتدبّرون المستنبطون بحثاً عنها، وبسبب كونه مُيسّراً للذكر، وحقاً وصدقاً وهادياً للتي هي أقوم، وهذه أمور لا تَبْلَى ولا تَخْلُق مهما مرّت الدهور، وكثرت العصور، ولا سيما إذا كانت من الكلّيات العامّة التي تنطبق على أفراد لا تُحصّر، ومتجدّدات من الأحداث والأشياء لا تَقِفُ عند حدّ.

فما اشتمل من الكلام على الحقّ والصدق والعُمق والهداية للتي هي أقوم، مع كمال صياغته، وحلاوة لفظه، وتيسيره للذكر، يكون صالحاً بعد تلقّيه لأنّ يُذكر دواماً، على كَرّ العصور، وتتابع الدهور، للاستمتاع بحلاوته، واستجلاء ما في أعماقه، واستنباط ما في باطنه، واكتشاف خفايا دلالاته، وما يشتمل عليه من معاني ثرة مُتجدّدة جليّة.

بخلاف النُصوص الَّتِي لا تشتمل على الحقّ والصدق والعُمق والهداية للَّتِي هي أقوم، أو اختلطَ فيها الحقُّ بالباطل، والسَّمينُ بالْعَثِّ، أو كانت مُعَقَّدَةً غير مُيسَّرة، أو كانت سَطحيَّة لا عُمقَ فيها، فإنَّها مَهْمَا كانت ذاتِ صياغة حسنة بليغة، لا تَعْدُو أن تكون نُصوصاً زمينيَّة، تُذَكِّرُ في حينِ الانبهار بها، ثُمَّ يَخْبُو وَهَجُهَا، ثُمَّ تَنْطَفِئُ، ثم تَمْحُوها الأَيَّامُ والشُّهُورُ والدُّهُورُ، فلا تُكون ذِكْراً في الألسنة والأذهانِ والقلوب، فلا تَصْلُحَ لأن تكون ذِكْراً دوماً.

وقد اعتاد النَّاسُ أن تكونَ جُمْلُ الحِكَمِ، وجُمْلُ الأمثال، وبغضِّ فرائد أبيات الشُّعْر، دَائِرَةٌ على أَلْسِنَتِهِمْ، حاضِرَةٌ في ذاكرتهم، عند المناسبات الَّتِي تُلَاقِيها، لتميُّزها ببعض الصفات اللَّوَاتِي سَبَقَ بيانُها للقرآن المجيد.

ولَنْ يجد المتتَبِّعُونَ هذه الجُمْلُ من الحِكَمِ والأمثال، وهذه الفرائد من مُقْلَدَاتِ الشُّعْر، إلَّا حصيلةً متتقيات نادرات من آداب أُمَّةٍ بكاملها.

لِكنَّ القرآنَ المجيدَ صالحٌ لأن يكونَ كُلُّه كَذَلِكَ ذِكْراً دوماً، مع تَمَيُّزِ حِكَمِهِ، وأمثاله وآياته بكلِّ الخصائصِ الَّتِي تُؤهل النَّصَّ البيانيَّ لأن يكونَ ذِكْراً دوماً، في الألسنة والأذهانِ والقلوب.

فمن الحقِّ والدَّقَّةِ في الوصفِ أن يَصِفَ الله عزَّ وجلَّ القرآنَ المجيدَ بأنَّه ذو الذِّكْرِ، وبأنَّ يُسَمِّيهِ ذِكْراً، وبأنَّ يَصِفُهُ بِالذِّكْرِى (الذِّكْرِى: مضدُّ كالذِّكْرِ) وبأنَّ يَصِفُهُ بأنَّه تَذَكُّرَةٌ (أَي: كبطاقةٍ مُذَكَّرَةٍ بأمرٍ مُهِم).

أما ما في القرآنَ من عُمقٍ تتدفَّقُ منه دوماً معاني جديدة، فهو أمرٌ يَجْعَلُهُ لدى ذوي الأذهانِ القَادِرَةِ على استنباط المعاني العميقة، نصّاً يَذْكُرُونَهُ أَنَا فَنَآ، مهما تَدَبَّرُوهُ وتفكَّروا في معانيه، ودلالاتِ مَبَانِيهِ، ولَوَازِمِهَا الفكرية، فيكونَ لديهم جَدِيداً ممتعاً حُلُواً، كُلَّمَا تَكشَّفَتْ لَهُمْ فيه معاني

جديدة، يَهْدِيهِمْ إِلَيْهَا ذِكْرُهُ بِذَاكِرَتِهِمْ، أَوْ تَزِيدُ آيَاتُهُ بِالسُّتُهِمْ.

وبهذا يحتفظ القرآن بكونه ذكراً دواماً، بخلاف سائر النصوص.

إِنَّ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةَ لَا نَجِدُهَا فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ أَيْضاً اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ ذَا الذِّكْرِ، أَي: ذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ.

فَالْقَسَمُ بِالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ قَسَمٌ بِهِ مِنْ خِلَالِ مِلَاحَظَةِ إِحْدَى خُصَائِصِهِ الْكُبْرَى، وَهِيَ كَوْنُهُ كِتَاباً صَالِحاً لِأَنْ يُذَكَّرَ دَوَاماً، وَكِتَاباً يَجِبُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يَذْكُرُوهُ أَنَا فَأَنَا، لِيَسْتَنْبِطُوا مَعَانِيهِ، وَيَعْمَلُوا بِأَحْكَامِهِ وَوَصَايَاهُ.

وَفِي الْقِسْمِ بِالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ تَوْجِيهِ لَأَنْظَارِ الْمُتَفَكِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ آيَةٌ مُعْجَزَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسْتَحَقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بِهَا، وَكَوْنُهُ مُعْجَزَةٌ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ صَادِقٌ فِي نُبُوتِهِ، وَصَادِقٌ فِي رِسَالَتِهِ، فَهَذَا الْقُرْآنُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ مُتَّفَرِّقِينَ وَلَا مُجْتَمِعِينَ أَنْ يَأْتُوا بِهِ وَلَا بِمِثْلِهِ، بَلْ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْقِسْمُ تَوْجِيهاً إِقْنَاعِيًّا، وَدَلِيلًا هَادِيًّا لِمَنْ تَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ، إِلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُولِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ مُحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِنَّ مُحَمَّدًا الَّذِي يُبَلِّغُ هَذَا الْقُرْآنَ ذَا الذِّكْرِ عَنْ رَبِّهِ صَادِقٌ فِي نُبُوتِهِ، وَصَادِقٌ فِي رِسَالَتِهِ، لِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ بَشَرٌ، فَلَيْسَ مُحَمَّدٌ سَاحِراً وَلَا كَذَاباً.

مِمَّا جَاءَ عَنِ الْقُرْآنِ فِي مَرَاكِحِ التَّنْزِيلِ حَتَّى نَزُولِ سُورَةِ (ص):

النَّصُّ الْأَوَّلُ: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (التَّكْوِيرِ) ٨١ / مِصْحَفِ ٧ / (نَزُولِ).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيعَ ﴿٢٨﴾﴾



أي: يَتَلَقُّونَهُ أَوَّلًا، فَيَتَفَكَّرُونَ فِي مَعَانِيهِ وَيَتَذَكَّرُونَ ثَانِيًا، فَيَعْمَلُونَ بِمَا يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ثَالِثًا، ثُمَّ يَجْعَلُونَهُ ذِكْرًا لَهُمْ أَنَا فَأَنَا، يَرَاجِعُونَ آيَاتِهِ، وَيَذْكُرُونَ مِنْهُ دَوَامًا مَا يَلَاثِمُ الْأَحْوَالَ، وَالْمُنَاسِبَاتِ، الَّتِي تَسْتَدْعِي مِنْهُ بَيَانًا بِشَأْنِهَا.

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول).

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء في هذا النص وصف القرآن بأنه مجيد، أي: جامع لكل الصفات الساميات العظيمة الجليلات، التي تُناسِبُ نصاً بيانياً، تردده الألسنة، وتحفظ به الذكريات.

وجاء فيه وصفه بأنه مسطور في لوح محفوظ عند الله بحفظه.

النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾.

فأقسم الله عز وجل بالقرآن باعتبار أنه مجيد، وآية عظيمة جليلة من آياته جلّ جلاله.

النص الرابع: قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وقد جاءت هذه الآية مكررة في سورة (القمر) أربع مرات، مقطعاً فاصلاً بين عرض موجزات من قصص بعض المهلكين السابقين، الذين كذبوا بالأنذار التي أنذرهم بها رسل ربهم.

النص الخامس: قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١.

فأقسم الله عز وجل بالقرآن باعتباره كتاباً مؤهلاً لأن يكون ذكراً للعالمين جميعاً، كما سبق بيانه لدى تدبر هذه الآية.



● قول الله عز وجل: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ﴾ ٢.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: المعنيون بهذه العبارة الملأ من مشركي قريش، وأتباعهم اللاحقون بهم.

﴿فِي عِزِّهِمْ﴾، العِزَّة: القوة الغالبة، يقول العرب: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أَي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

فالمعنيون من الذين كفروا، وهم الملأ من مشركي مكة، وقد بدؤوا يتحدثون فيما بينهم أنهم في مَنَعَةٍ بِقُوَّتِهِم الغالبة للرسول والذين آمنوا به واتبعوه، وأنه قد صار من مصلحتهم للمحافظة على مكانتهم الاجتماعية أن يَلْجَأُوا إليها، وأن يَسْتَخْدِمُوهَا في اضطهاد المسلمين وتشيت شملهم، وفي مقاومة دَعْوَةِ الإسلام.

﴿وَشِقَاقٍ﴾: الشِّقَاق في اللغة، العداوة والخلاف. يقال لغة: شَاقَّةٌ مُشَاقَّةٌ وشِقَاقاً، أَي: خَالَفَهُ وعاداه.

قال الزَّجَّاج: الشِّقَاق، العداوة بين فريقين، والخلاف بين اثنين، سُمِّيَ ذلك شِقَاقاً، لأنَّ كُلَّ فِرْقٍ من فِرْقَتِي العداوة قَصَدَ شِقاً (أَي: ناحية) غير شِقِّ صاحبه.

وفي التعبير عن هؤلاء المعنيين أنهم في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ، إشعاراً بأنهم في محيطٍ يُحِيطُ بِنُفُوسِهِمْ وتَصَوُّرَاتِهِمْ، من مشاعر اعتزازهم بِقُوَّتِهِم الغالبة. ومُشَاعِرِ عداوتهم للرسول ودعوته وللذين آمنوا به واتبعوه، وهذا المحيط

بُنُفُوسِهِمْ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ لَا بُدَّ أَنْ يَضْرِبَهُمْ عَنْ كُلِّ حَقٍّ وَبَصِيرَةٍ سَلِيمَةٍ وَرُشْدٍ.

لقد كان الواجب العقلي على هؤلاء الذين هم في عزّة وشقاق، أن يسارعوا إلى تصديق الرّسول والإيمان به واتباعه، باعتبار أن ما نزل من القرآن قبل إنزال سورة (ص) كافٍ لإقناعهم بأنّ مُبلّغُهُ عن ربّه نبيّ الله ورُسُولُهُ حَقّاً وَصِدْقاً، فما فيه من مَجْدٍ وَشَرَفٍ عَظِيمٍ مُعْجَزٍ، وما فيه من بيان لا يستطيع أن يأتي بمثله بشرّ منفردين ولا مجتمعين، كافي لأن يكون شاهداً فكرياً عقلياً، على أن محمداً الذي يُبلّغُهُ عن ربّه نبيّ الله ورُسُولُهُ حَقّاً وَصِدْقاً.

وهذا الشاهد الفكري العقلي شاهد بُرْهَانِيٍّ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وَتَفَكَّرَ فِيهِ، وَاسْتَبَصَّرَ وَجُوهَ إِعْجَازِهِ.

لكنّ الملأ من مشركي قريش أَصْرَوْا على تكذيب الرّسول محمد ﷺ حتّى نزل سورة (ص) إذ لم يعبّؤوا بهذا الشاهد الفكري العقلي الذي اشتمل عليه القرآن المجيد، ولم يتوجّهوا للاستفادة منه، بل انصرفوا عنه غير مكترئين له، ووصلوا في مواجهة الرسول ودعوته والذين آمنوا به واتبعوه إلى طور الشُّعُورِ بالاعتزاز بالقوّة الغالبة، القادرة على إيقاف الدّعوة الإسلاميّة، ومنع انتشارها، وطور العداوة والشقاق، والمواجهة بالقوّة العسكريّة المسلّحة.

هذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٢).

فأشار حرف الإضراب «بل» إلى مطويّ لم يُصرّخ به في اللفظ، وهو أنّ المَعْنِيَيْنِ بعبارة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لم يستفيدوا من إعجاز ما نزل من القرآن، بل لزموا مواقفهم الأولى التي أعلنوا فيها تعجّبهم من أن يجيئهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، وأعلنوا فيها أن محمداً ساجِرٌ كَذَّابٌ، ووصلوا إلى طور المعترّ بقوته الغالبة، والواقف مواقف المواجهة بالعداوة والمخالفة والشقاق.

وتدلُّ عبارة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على أنَّ هؤلاء قد كان تكذيبهم للرسول ودعوته ناشئاً عن سَترٍ أدلَّةِ الإيمان، وسَترٍ شواهد الحق التي ظهرت لهم، ودَفْنِها، لأنَّ أضلَّ الكُفرِ الدَّفْنُ والسَّتر. والكُفرُ هو جُحودُ الحقِّ مع العلم بأنَّه حقٌّ.

● قول الله عز وجل: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنْ صَاحِبِ السُّمُورِ﴾.

إنَّ الموقفَ العدائيَّ الَّذي تطوَّرت إليه مواقف أئمة الشُّرك والكُفر في مَكَّة، إذ وصلوا إلى حالة من هو في عزَّةٍ وشقاق، يلائمه من العلاج تذكيرهم بما كان من الله العزيز الحكيم القَهَّار، من إهلاك أمثالهم ومن كانوا أشدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً من كُفار القُرُون الأولى.

فجاءت هذه الآية متضمَّنة هذا العلاج الحكيم.

﴿كَمْ﴾ هذه «كَمْ» الخبرية، ومعناها عدَدٌ كثير، وهي في محل نصبٍ على أنَّها مفعولٌ به مقدَّم على عامِلِهِ، والتقدير: عدداً كثيراً من الأمم، أهلكنا من قبلكم.

﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: إهلاكاً جماعياً عقابياً في الحياة الدنيا، وجاء في هذه العبارة استعمال ضمير المتكلم العظيم، لأنَّ موضوع الإهلاك الجماعي العقابي يلائمه الإشعارُ بعظمة الرُّبُوبية وسلطانها وجبروتها وقهرها وجليل حِكْمَتِها.

أي: عدداً كثيراً من كُفار أهل القرون الأولى أهلكناهم مِنْ قَبْلِ هؤلاء الذين وصلوا إلى طور من هُـم في عزَّةٍ وشقاق، وذلك حينما وصلوا مع رُسُل ربِّهم إلى طور استخدام القُوَّة المسلَّحة لِقَمْعِهِم واضطهاد الذين آمنوا بهم وأتبعوهم، والتنكيل بهم، بغية إطفاء أنوار الدَّعوة الرِّبَّانية بالقُوَّة، والتخلُّص المادِّي من الرُّسل.

وهذه الآية تُشعِرُ بأنَّ من سَنَّ الله الدائمة في الأمم، أن يُهْلِكَ الأَقْوام الذين يَصِلُون إلى طُورِ الميؤوس من استجابة فئاتٍ منهم حيناً فحيناً لدَّعوة رُسُل

رَبِّهِمْ، الواقفين موقف القمع والاضطهاد والتهديد للتخلص من الرسول ودعوته .  
 فالله جلّ جلاله وعزّ سلطانه لن يترك رسوله محمّداً والذين آمنوا به  
 وَاتَّبَعُوهُ، دُونَ أَنْ يُؤَيِّدَهُمْ بِنَصْرِهِ، ولو بإهلاك القوم المعادين لهم إهلاكاً  
 عقابياً جماعياً عاماً، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ .

وفي هذا التذكير وغدّ ضمنيٍّ للرُّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه بأنّ الله  
 ناصِرُهُمْ، وَإِنْدَارٌ لِلَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ بِأَنْ اللهُ خَاذِلُهُمْ، أَوْ مُهْلِكُهُمْ،  
 إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ، فليَكْفُوا عن الموقف العدائيّ الَّذِي هُمْ فِيهِ،  
 مُغْتَرِّينَ بما هُمْ فِيهِ من مشاعر العِزَّةِ والقوَّةِ الغالبة التي تنفث سُومُومُهَا في  
 صدورهم، وتُحَرِّضُهُمْ على الوقوف في شِقِّ المحارب المقاتل .

وهذا التهديد الضمنيّ المنذرُ بإهلاكها إِذَا وَصَلُوا إِلَى مثل ما وصل  
 إليه السابقون من الأساليب البيانية الحكيمة في التربية .

﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الْمَعْنِينِ فِي السُّورَةِ .

«قَبْلُ» ظرفٌ لِمَكَانٍ مُبْنِيٍّ، ثم استعير ظرفاً لِمَازَانٍ مُبْنِيٍّ، وَيَكُونُ  
 منصوباً على الظرفية، وقد يجرُّ بحرف الجرّ «مِنْ» تصريحاً بِالْعَامِلِ .

وارتقى النَّصُّ هنا تأكيداً بالتصريح بلفظ «مِنْ» فِي «مِنْ قَبْلِهِمْ» عَنِ النَّصِّ  
 المشابه الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) السابقة نزولاً، فقد  
 جاء فيه قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ...﴾ (٣٦) ﴿وَلَمْ يَأْتِ  
 فِيهِ: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ، مراعاةً لحكمة الارتقاء في المؤكّدات بلاغياً .

﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ الْقَرْنُ مِنَ النَّاسِ، أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ، وَسُمُّوا فِي اللَّغَةِ قَرْنًا،  
 لِأَنَّهُمْ افْتَرَضُوا مَعًا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ لِرُسُولٍ عَاشُوا فِي زَمَانِهِ هُمْ قَرْنُهُ .

وجاء في كلام الرسول ﷺ، عن عمران بن حصين، قوله: «خَيْرُ  
 النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...» (١) .

قَرْنِي: ، أي: أصحابي.

ثم الَّذِينَ يَلُونَهُمْ: أي: التابعون.

ثم الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، أي: تابعو التابعون.

والمراد المجموع العام لا الجميع.

لفظ ﴿مَنْ قَرْنٍ﴾ تمييزٌ لبيان المبهم الذي دَلَّت عليه كلمة [كم] بأنه ذو عدد كثير، أي: قُرُوناً ذواتِ عَدَدٍ كثير أَهْلَكْنَا من كُفَّارٍ سابقين كانوا في عِزَّةٍ ضِدَّ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وفي شقاقٍ لهم.

والمراد بفعل: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ قضينا أن يُهْلَكُوا انتصاراً لِرُسُلنا وَالَّذِينَ آمَنُوا معهم، وَأَمَرْنَا بتنفيذ إهلاكهم في الأوقات المحددة في القضاء، بدليل قول الله عز وجل في الآية: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فَنَادَوْا حِينَ رَأَوْا بُوَادِرَ مُهْلِكَاتِهِمْ مُقْبِلَةً شَطْرَ دِيَارِهِمْ، مستغيثين مُسْتَظْرِحِينَ بهذا النداء، عَسَى أَنْ يَجِدُوا مَنْ يُغِيثُهُمْ وَيُنْجِدُهُمْ فيضُرِف عنهم، أو يُسَاعِدُهُمْ على أَنْ يَنْوُضُوا، أي: أَنْ يَتَحَرَّكُوا فَارِينَ عن منازل المهلكات.

[لات]: كلمة «لا» هي النافية، زِيدَتْ عليها التاء لتأنيث اللفظ، أو للمبالغة وتأكيد النفي وهو الأرجح فيما أرى<sup>(١)</sup>.

﴿مَنَاصٍ﴾، أي: ملجأ - مفرّ - مَهْرَب. تقول لغة: ناصَ الرَّجُلُ إذا تحرَّكَ فاراً، وناصَ الفرسُ، إذا رفع رأسه نافراً، ويقال: ناصَ إلى الشيء إذا التَّجى إلىه.

(١) «لا» من «لات» يعمل عمل ليس بشرطين: كون معموليها اسمي زمان، وحذف أحد معموليها، والغالب أن يكون المحذوف اسمها كما في الآية هنا، والتقدير: وَلَاتَ الحينُ حِينَ مَنَاصٍ.

ولكنَّ نجاتَهُمْ قد كان ميؤوساً منها، إذ قَضَى الله إهلاكهم، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليسَ هذا الحينُ الذي نادوا فيه مستغيثين حين مناصٍ لهم.

والمعنى: أنَّ هؤلاء القرون التي قضى الله أن يهلكَهُمْ لم يكن لهم مفرُّ أو مهربٌ أو ملجأٌ يلجؤون إليه، ولا مُغيثٌ يُغيثُهُم، ويُساعدُهُم على النجاة.

إنَّ قضاء الله لا مُنْجِيٍّ مِنْهُ غَيْرُهُ جَلَّ جلاله، ولا مَفَرٌّ مِنْهُ ولا مَنْجَا ولا مَلْجَأ، بل هو نافذٌ لا مَحَالَةَ، وَتَحْقِيقاً لقضاء الله تمَّ تنفيذُ إهلاك المهلكين مِنْ كُفَّارِ القرون السَّابِقة.

● قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ (٤) ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥).

الحديث عن أئمة الكُفر والشُّرك في مَكَّة إِبَانِ نُزُولِ السُّورَةِ، وقد سبق بيانُ موقفهم العمليِّ في الآية الثانية، وهو أنَّهم في عِزَّةٍ وشقاق.

أما موقفُهُم الفكري والإعلاميَّ ضدَّ الرُّسُول ودعوته فقد جاء في الآيات من (٤ - ٨).

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ هذه الجملة معطوفة على ما جاء في الآية الثانية من كونهم في عِزَّةٍ وشقاق، أي: وصلوا إلى حالة من هم في عِزَّةٍ وشقاق في تَذييراتهم العملية، وعَجِبُوا أَنْ جاءهم مُنْذِرٌ مِنْهم.

﴿وَعَجِبُوا﴾ العَجَبُ المراد هنا هو اسْتِبعادُ واستنكارُ أن يكون الرُّسُول بشراً مِنْهم، مع إطلاق التَّغْيِيرِ عن تكذيب الرُّسُول بعبارات التعجُّب والاستبعاد المشعر بأنَّه مِنْ غير الممكن أن يكون رُسُولُ الله بَشَراً من البشر.

وجاء التعبير عن الرّسول بعبارة «مُنْذِر» لأنّ الرّسول محمّداً ﷺ قد بَلَّغَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ، وأقام لهم الحجج والبراهين، وقَدَّمَ لَهُم الآيات الباهرات، ووصلَ في آخر الأمرِ مَعَهُمْ إلى مرحلة الإنذار بعذاب الله، فهو في هذه المرحلة بالنسبة إلى المعنيتين في السّورة مُنْذِر.

الإنذار: الإعلام بما هو مخوفٌ منه، ويتّقيه أوّلُو الألباب. وموقفهم التعجّبيُّ هذا قد سَبَقَ بيّانه في صَدْرِ سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله تعالى:

﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾ ﴿٢﴾

فدلّ قوله تعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾ ﴿٤﴾

على أنّهم ما زالوا مُصِرِّينَ على مَوْقِفِهِم الفكريّ السّابق، وهو مُجَرَّدُ التعجّبِ والاستِغرابِ، ولم يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُضَيِّفُوا حُجَّةً قَابِلَةً للمناقشة والمناظرة، ومَعْلُومٌ بِالْبَدِيْهِةِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّ التعجّبَ المُجَرَّدَ عن دليلٍ يَنْفِي وَفُوعَ المتعجّبِ منه، لا يَصِحُّ الاعتماد عليه للنّفي والإنكار، إذا كان المتعجّبُ منه من الممكِنات العقلية، فكيف به إذا كان من مُقْتَضِيَّاتِ الحكمة، ونظائِرُهُ ثابتةٌ في التاريخ، وآياتٌ صدقه قاطعة.

﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾، أي: منذرٌ بَشَرٌ منهم.

● ﴿وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾.

كان مقتضى الظاهر أن يُقال: وقالوا هذا ساحرٌ كذاب، لأنّ الحديث ما زال مقصوداً به أئمة الكفر والشّرك في مكة إبان التنزيل، فاستعمال الضمير هو الملائم لمقتضى الظاهر، ولكن خُولِفَ هذا المقتضى واستُخدم الاسم الوصفِي المنطبقُ عليهم وهو ﴿الْكُفِرُونَ﴾ للدلالة على أنّ الكُفْرَ



العنادي الإداري السائر لأدلة الحق قد صار علامة بارزة دالة عليهم.

﴿هَذَا﴾ في استخدام الكافرين اسم الإشارة «هذا» مراداً به رسول الله محمد ﷺ، ما يدل على أنهم قد وصلوا إلى حالة الاستهانة به أمام الناس، لدى الحديث عنه.

﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، ساحر: أي: بالنسبة إلى الآيات الباهرات الدالات على صدق نبوته ورسالته. كذاب: أي، بالنسبة إلى ما يبلغه عن ربه.

ولا نجد بياناً صريحاً فيما نزل قبل سورة (ص) قال فيه الكافرون عن الرسول: «هذا ساحر كذاب» ولكن جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولهم عن آية انشقاق القمر: ﴿سَاحِرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وجاء في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قول بعضهم عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾، وجاء في سورتي (ق) و(القمر) بيان أنهم كذبوا، ولكن تكذيبهم بمضمون ما جاء به الرسول لا يلزم منه حتماً أن يكونوا قد اتهموه جازمين بأنه ساحر كذاب، لاحتمال أن يكونوا قد تصوّروا أن ما هو فيه ناتج عن تهيات خاصة، أو بتأثير مس من الجن.

فقولهم: «هذا ساحر كذاب» موقف فكري مضاف إلى مواقفهم السابقة.

● ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

﴿عُجَابٌ﴾، على وزه «فعل» كلمة تستعمل فيما يُثير أعظم التعجب والاستغراب، للإشعار بإنكار النفوس والأفكار له.

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؟! استفهام تعجبي إنكاري، أي: كيف ينفي محمد وجود آله متعددة، ويجعل العبادات كلها في دعوته الجديدة مستحقة لإله واحد لا شريك له؟! إن هذا الأمر الذي يدعيه شيء يتعجب منه أشد العجب!!

وهذا العنصر من عناصر مَوْقِفِهِمُ الْفِكْرِي في هذه المرحلة لَمْ يُثَبِّتِ  
البيان القرآني فيما نزل قَبْلَ سُورَةِ (ص) أَنَّهُمْ قَدْ صَرَّحُوا بِهِ، فهو موقف  
فِكْرِي مُضَافٌ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ، وهو على ما يظهر ممَّا بَزَرَ فِي هَذَا الطَّوَرِ  
من أطوارهم تجاه الرسول ﷺ ودَعْوَتِهِ.

● قول الله عز وجل:

﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۖ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِن هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ۝﴾ (٧) ﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا...﴾. ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: ذَهَبُوا مُسْرِعِينَ، الانْطِلَاقُ الذَّهَابُ بِسُرْعَةٍ،  
لأنَّ «انْطَلَقَ» مطاوع «أُطْلِقَ» وأصل الإِطْلَاقِ التَّحْرِيرُ مِنَ الْقَيْدِ، ومن عادة  
المَقِيدِ إِذَا أُطْلِقَ مِنْ قَيْدِهِ أَنْ يَذْهَبَ مُسْرِعاً بَعِيداً عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مَقِيداً  
فِيهِ.

المَلَأُ: أَشْرَافُ الْقَوْمِ وَسَرَائِهِمُ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ.

جاء في سبب النزول ما رواه الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال:  
مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ  
رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كِي يَمْنَعَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ، وَشَكَوهُ إِلَى أَبِي  
طَالِبٍ.

فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟

قال: إني أريد منهم كلمة واحدة تدين بها العرب، وتؤدي إليهم  
العجم الجزية.

قال: كلمة واحدة!!

قال: يا عم، يقولوا: لا إله إلا الله.

فقالوا: أإلهاً وحداً؟! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا  
اختلاق.

قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۚ﴾ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي (٢) كَرِ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَجَعَلُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (٥) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ (٧) أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا... ﴿

هذا الذي ورد في سبب النزول يدلُّنا على أنَّ مَلَأ قريش خرجوا بعد عيادة أبي طالب في داره مُنْطَلِقِينَ مُسْرِعِينَ في خُطواتهم، ويدلُّ أيضاً على أنَّ أفكارهم قد أخذت تتأثر بدعوة الرسول ﷺ إلى التوحيد، لكنَّ نفوسهم أبث ذلك، فانطلقوا مُسْرِعِينَ هُروباً مِنْ شَيْءٍ بَدَأَ يَتَسَلَّلُ إلى داخلهم، وجعل بعضهم يُثَبِّت بعضاً وهم منطلقون.

لقد انطلق هؤلاء المَلَأ قائلين فيما بينهم متواصين، وقائلين لأتباعهم ومن يتأثر بهم: امشوا على تقاليد ملَّتكم، واضبروا على عبادة آلِهَتكم المُتَعَدِّدَة، ولا تتأثروا بدعوة التوحيد التي جاءكم بها محمد، فتزخزخكم عن عقيدتكم في آلِهَتكم، أما دعوته إلى عبادة الله وخذه لا شريك له، وإنكاره صِحَّة عبادة الأصنام، وادِّعَاؤه بأنها لا تُضر ولا تنفع فهو شيء يُريد به أغراضاً خاصة لنفسه، إذ يجعل نفسه بدعوته الجديدة هو السيد والقائد وصاحب الأمر والنهي والسلطان فيكم.

وقائلين أيضاً: مَا سَمِعْنَا بهذا التوحيد الذي جاء به محمد في الملة الآخرة، وهي النصرانية المثلثة. وقائلين: إنَّ هذا إِلَّا اختلاق يفتره محمد على الحقيقة، وقائلين على سبيل التعجب، وبأسلوب الاستفهام الإنكاري التعجبي: أُنْزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا!!

وتتخلص مقولاتهم التي قالوها وهم منطلقون مُتَمَاسِكُونَ يُثَبِّت بعضهم

بَعْضًا، عَلَى الصَّبْرِ عَلَى عَقَائِدِهِمْ وَمَفْهُومَاتِهِمِ الشَّرَكِيَّةِ، وَعِبَادَاتِهِمْ لِأَلِهَتِهِمْ  
مِنَ الْأَوْثَانِ، بِمَقُولَاتٍ سِتٍّ مُفَصَّلَاتٍ جَاءَتْ بَعْدَ «أَنَّ» التفسيرية في عبارة:  
﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ﴾ أي: انطلقوا قائلين أقوالاً تفسيرها فيما يلي:

**المقولة الأولى:** دَلَّ عَلَيْهَا ﴿أَمْشُوا﴾، أي: امشوا على طريقة آبائكم  
وأجدادكم، وَمِلَّتِيهِمْ مِنَ الشُّرْكَ، وما ورثتموه عَنْهُمْ من مفهومات وأعمال  
وتقاليد.

**المقولة الثانية:** دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، أي: واثبتوا  
صابرين على عبادة آلهتكم، ولا تتأثروا بما جاء به مُحَمَّدٌ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى  
التوحيد، وَمِنْ جَذَلِيَّاتٍ تُبَيِّنُ أَنَّ آلِهَتَنَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

**المقولة الثالثة:** دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾، أي: إِنَّ هَذَا الَّذِي  
يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَتَبَذَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَوَجُوبَ الْقِيَامِ  
بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَشَيْءٍ يُرَادُّ لِمَصْلَحَةٍ خَاصَّةٍ لَهُ، وَلَيْسَ لِآتِهِ  
هُوَ الْحَقُّ وَالصَّدَقُ.

وَأَكَّدُوا مَقُولَتَهُمْ هَذِهِ بِمُؤَكَّدَاتٍ ثَلَاثَةٍ: «إِنَّ - وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ - وَلَا مِ

**المقولة الرابعة:** دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِئِلَةِ الْآخِرَةِ﴾، أي: مَا  
سَمِعْنَا بِهَذَا التَّوْحِيدِ، وَجَعَلَ الْإِلَٰهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ مِنْ مِلَلِ  
أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهِيَ مِلَّةُ النَّصَارَى، إِذْ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ النَّصَارَى مُثَلَّثُونَ،  
يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَمَرْيَمَ وَعِيسَى.

أَمَّا هُمْ فَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ، وَهِيَ مِنَ الْمِلَلِ  
الْأُولَى.

وَتَفْسِيرُ الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ بِالنَّضْرَانِيَّةِ مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ.

فملاً مشركي مكة يُحاوِلُون بهذا القول تثبيت أنفسهم على عقيدة الشرك وتَعُدُّ الآلهة، وتحسين ما هم فيه قياساً على المشهور عندهم من عقيدة النصارى.

المقولة الخامسة: دلّ عليها: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلِقُ﴾: ﴿إِنْ﴾ حَرْفُ نفي مثل «ما». ﴿هَذَا﴾، أي: التوحيد الذي جاء به مُحَمَّد. ﴿إِلَّا أَنْخِلِقُ﴾ الاختِلَاقُ: افتراء الكَذِبِ وتَعَمُّدُهُ.

أي: ما هذا الذي يدّعيه مُحَمَّد من أنه لا إله إلا الله وخدّه لا شريك له، إلا اختلاقٌ يَخْتَلِقُهُ من عنده، أي: قولٌ يفتره ويخترعه من عند نفسه.

المقولة السادسة: دلّ عليها: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾!!؟

أي: أيعقل أن يَخْتَارَ الله مُحَمَّدًا بخصوصه من دون كلِّ عظماء قومه وحكمائهم، وأذكيائهم وملئهم، فيُنْزِلَ عليه القرآن، الذي يُريد منا أن نجعله ذِكْراً نذكره أنا فأنّا، وننتفع به دواماً؟!!!

إنّ هذا لَأَمْرٌ مستنكِرٌ وغير معقول، فمُحَمَّدٌ إذَنْ غَيْرُ صادقٍ في دعوته، وهو في بيانه الآسِر، وفي الآيات التي يأتي بها ساحرٌ، وهو في دعوته التي يدّعو إليها كذاب.

وبالرُّجوع إلى ما نَزَلَ من قرآنٍ قبل سورة (ص) لا نجدُ أن كُفَّارَ مكة قد صرّحوا بهذه المقولات الست من مَوْقِفِهِم الفكري الذي وصلّوا إليه في مَرَحَلَةِ نزول هذه السورة، فهي من المقولات المضافة في بيان مَوْقِفِهِم الفكري، ومن العناصر المضافة في البيان القرآني عنهم، والله أعلم.

● قول الله عز وجل:

﴿... بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾ ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ﴿٩﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿١١﴾ ﴿

بعد بيان الموقف الحركي المادي لأئمة الشرك والكفر في مكة، والموقف الفكري، في الطور الذي وصلوا إليه إبان نزول هذه السورة، كان من الحكمة متابعه معالجتهم بالإقناع وبالترهيب. وكان من الحكمة معالجة الرسول ﷺ والذين آمنوا به واتبعوه، بأنهم سيواجهون مضطهديهم، ومهتديهم بالحرب، في معارك قتالية، وسيكونون هم المنتصرين عليهم، وسيكون هؤلاء الذين هم الآن في عزة وشقاق هم المهزومين والمغلوبين.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ❦ أي: بل هم في شك من القرآن الذي أنزله على محمد، والذي هو بياني الذي يجب عليهم أن يذكروه أنا فأننا، ليخبروا في ذاكرتهم مطلوباتي منهم في رحلة امتحاني لهم.

يشعر حرف ﴿بَلْ﴾ بمحذوف مطوي في الكلام بين قوله تعالى حكاية لمقولتهم: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ❦!!

وبين قوله تعالى في العلاج: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ❦ فما هو هذا المحذوف المطوي؟

جاء في صدر السورة القسم بالقرآن ذي الذكر على أن الرسول محمداً صادق فيما يُبلغ عن ربه، وفي هذا القسم توجيه لتدبر القرآن نفسه، دون النظر إلى مُبلِّغه، فهو بيان عظيم يجب أن يُدرس ويُفهم بحد ذاته، دون النظر إلى النبي المختار لإنزاله عليه، بسبب ما فيه من سمو وكمال وبيان مُعجز لا يستطيع أن يأتي به ولا بمثله بشر، وهذا كافٍ لأن يؤسس الاقتناع في الأفكار والقلوب الواعية، بأنه ليس كلام بشر، وإنما هو تنزيل من لدن عزيز حكيم، رب السماوات والأرض، ورب كل شيء.

فلو أن الناس وجدوه في صندوق، أو في حفرة، أو في جب، أو في صحراء، أو في مغارة، أو على جبلٍ لكان عليهم بعد قراءته، وتدبر ما جاء فيه أن يؤمنوا بأنه منزل من عند الله بوسيلة ما.

أما وسيلة التوصيل فغير ذات أهمية في الموضوع. أليسوا يفعلون كذلك فيما يستخرجونه من كنوز، وفيما يجدون من جواهر نفسية في أماكن محتقرة، أفهمملونها ولا يعبؤون بها، إذا وجدوها في المقابر، أو في المستنقعات، أو نحو ذلك؟!!

فكيف بهم إذا وجدوها في أماكن شريفة، أو قدمها لهم كريم ذو خلق عظيم، وفضائل شامخات؟!!

هذا الإقناع يُسقط عجبهم من أن يأتيهم منذرٌ بشرٌ منهم ويُسقط مقولتهم: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟!! مستنكرين ذلك، لو شاءوا أن يقتنعوا بالحق.

أي: فمالهم وللرسول المصطفى الذي اختير للنبوة والرسالة الخاتمة؟ لينظروا فيما جاءهم به، ولينظروا متدبرين هذا القرآن الذي يبلغهم إياه، فإنهم إذا تبصروا به وتفهموا آياته بتدبر، افتنعوا بأنه تنزيلٌ من رب البشر وليس من كلام البشر، واقتناعهم هذا يهديهم إلى أن مبلعه عن ربه نبي الله ورسوله حقاً.

لكنهم ليسوا في التفكير في معانيه ولا في مبانيه، وهو ذكري لهم، وهم مُنغمسون في شكٍ من كونه ذكري، صارفٍ لهم عن تدبره والتفكير فيه.

وليسوا مغذورين في أن يجعلوا الشك بأنه ذكرٌ من عند الله، لعوارض خارجة عن جوهره، صارفاً لهم عن تدبره، وتفهم دلالات آياته.

فهل من العقل أن يرفض الإنسان كنزاً في صندوق قدمه إليه من لا يراه أهلاً لحمل كنز نفيس ثمين؟!!

إن عليه أن ينظر بعقل وروية وحكمة فيما في الصندوق، وأن يتبصر

به، ثُمَّ يَحْكُمُ، وليس من العقل والفهم الصحيح في شيء، أَنْ يَرْفُضَ الصُّنْدُوقَ ابتداءً، وأماراتُ كونه كثرًا عظيمًا باديةً عليه، لَمْجَرِدِ أَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ حَامِلُ الصُّنْدُوقِ، ومُقَدِّمُهُ إليه، أو جاء هذا الحامل للصندوق على خلاف ما يُحِبُّ وَيَهْوَى، كَأَن كَانَ يَهْوَى أَنْ يكون حامل الصندوق مَلِكًا، أو أميرًا، أو زعيمًا، أو كبيرًا من كبراء قومه.

هذه المعاني المطوية أغنى عن التصريح بها، الْقَسَمُ بالقرآن ذي الذكر في صدر السورة، وَقَوْلُ الله عز وجل في الآية (٨) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي...﴾.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ﴾.

وقرأ يعقوب [عذابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

كلمة ﴿بَلْ﴾ في هذه الجملة تُشير أيضاً إلى كلام مطوي غير مذكور في اللفظ، وبالتفكير والتدبر نستطيع أن نذكر معاني هذا المحذوف.

أي: وإن ما في ذكري وهو القرآن الذي يبلغه رسولي محمد، من إنذار لهم بعذابي، إذا لم يؤمنوا ولم يسلموا ولم يكفوا عن مقاومة رسولي ودعوته، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه، كافٍ لإثارة مخاوفهم، وإيقاظهم من غفلاتهم، وما هم فيه من ملهيات الحياة الدنيا، فهز نفوسهم، ونفض ما تراكم عليها من غاشيات، وتوجيههم لاستبصار الحق الذي يشتمل عليه ذكري.

لكنهم في حالة هم معها أعند وأقسى وأشد من أن يكفيهم الإنذار الكلامي، المؤيد بالشواهد الفكرية والأدلة التاريخية من أحداث الماضي.

بل هم بحاجة إلى أكثر من ذلك، حتى يستيقظوا، وهذا الأكثر هو أن يدوخوا بعض عذابي، وهو الأمر الذي تقضي الحكمة التربوية بإذاقتهم إيأه بعد زمن قريب، فهم على مقربة من أن يدوخوا عذابي.



هذه المعاني المطوية أغنى عن التصريح بها قول الله عز وجل ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾، أي: عذابي كما جاء في قراءة يعقوب. وهذا القول قد دلّ على قضيتين.

**القضية الأولى:** أنهم لم يذوقوا بعد عذاب الله، وهم من الناس الذين لا تكفيهم الإنذارات الكلامية، المؤيدة بالشواهد التاريخية الدالة على سنة الله في الأمم.

**القضية الثانية:** أن زمن إنزال عذاب الله فيهم قد صار وشيكاً قريباً، بحسب مقتضى الحكمة التربوية، إذا لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة والإيمان الصحيح الصادق، فليترقبوا عذاب الله الذي سينزل بهم بعد حين ليس بالبعيد.

● فمعنى النفي في [لَمَّا] دلّ على القضية الأولى.

● ومعنى اقتراب وقوع المنفي بها دلّ على القضية الثانية.

وكلمة [بل] أشارت إلى المحذوفات المطويات التي يصل إلى إدراكها المتدبر المتأني الباحث في العمق، تبعاً للوازم الكفرية، وما يقتضيه اللفظ المصرح به من معانٍ لم يُصرح بها.

إن التلويح باقتراب أيام تعذيبهم، علاج يلامس محاور الخوف في نفوس الذين لديهم ظنٌ باحتمال كون ما جاء في الإنذار حقاً وصدقاً، وهذا العلاج من شأنه أن يهدم أوهام العناد، ويهيل ركامات الإضرار على التقاليد العمياء.

فالخوف في داخل النفوس من العوامل التي تهزها هزاً عنيفاً، فتتفصّل عنها ركامات القتر والغبار والغشاوات، وتخلو رؤيتها عسى أن تستبصر الحق.

● قول الله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾!!؟

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل» الدالة على الإضراب، منضمّاً إليه معنى الاستفهام، فيصير المعنى: بل أعندهم...؟

أي: بل، أعندهم خزائن رَحْمَةِ رَبِّكَ تفويضاً من قبله، فهُمْ يَتَصَرَّفُونَ بها على ما يشاؤون، حَتَّى يَغُطُّوا منها أو يُنْسِكُوا بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ، وهو جَلَّ جلاله وعَظَمَ سلطانه الْعَزِيزُ الْغَلَّابُ، الذي لا يحتاج في كونه إلى أَوْصِيَاء على خزائن رحمته، ولا يحتاج إلى مُعِينِينَ له في التصرف فيها. وهو سبحانه الْوَهَّابُ، الذي يَهَبُ من خزائن رحمته بِحَسَبِ حُكْمَتِهِ، لا بِحَسَبِ أَهْوَاء عِبَادِهِ!!؟

فأَيُّ شَأْنٍ لَهِمْ في تصرفاتِ الله بخزائن رحمته، ومُنْهَا اضْطِفَاء مَنْ يَشَاء من عبادِهِ لِرِسَالَاتِهِ وَوَحْيِهِ!!؟

لقد كان عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا حُدُودَ أَنْفُسِهِمْ، فلا يَقُولُوا: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۝٩﴾!! لِكَيْلَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا بل كان منهم اعتراضٌ مَنْ يَتَوَهَّم أَنَّهُ يَمْلِكُ الاقتراح على الله العزيز الوهاب، فيما يتصرفُ به من خزائن رحمته، وهم في الواقع لا يملكون شيئاً من ذلك، لأنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ في الوجود كُلُّهُ لله وخِذَهُ، جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وعَظَمَ سلطانه، وَهُمْ عَبِيدُهُ وَخُلُقٌ من خلقه، وهو بحكمته يفعل ما يشاء ويختار.

● قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠﴾.

أي: بل. أَلَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، حَتَّى يكون من حَقِّهِمْ أَنْ يَغْتَرِضُوا على الرَّبِّ الْخَالِقِ فيما يَمْنَحُ منهما أو فيما يَمْنَعُ. أو أن يَغْتَرِضُوا عليه في اصطفاائه من يشاء من عبادِهِ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وفي حَجَبِ ذَلِكَ عَمَّنْ لا تَقْتَضِي حُكْمَتُهُ مَنَحَهُ.

لقد كان عليهم أَنْ يَعْرِفُوا حُدُودَ أَنْفُسِهِمْ، فلا يعترضوا على اصطفاةِ الرَّبِّ، لِكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

بل كان منهم اعتراضٌ يشبه اعتراض من له مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما.

وإِنْ بَلَغَ بِهِمُ الْغُرُورُ إِلَى زَعْمٍ أَنَّ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِذْ وَجَدُوا أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَوْصَلُوا إِلَيْهَا بَاكْتِشَافَاتِهِمْ، مِمَّا سَخَّرَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِي كَوْنِهِ، تُمَكَّنُهُمْ مِنْ اجْتِيَاذِ الْفَيَافِي وَالْقَفَارِ، وَعُبُورِ الْبَحَارِ، وَالصُّعُودِ إِلَى مَا فَوْقِ السُّحُبِ، وَالْوَصُولِ إِلَى بَعْضِ الْأَفْلَاكِ وَالْأَقْمَارِ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: فَلْيَسْتَخْدِمُوا الْأَسْبَابَ الْمَسَخَّرَةَ لَهُمْ، عَلَى طَرِيقَةِ الْارْتِقَاءِ مِنْ سَبَبٍ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ فَوْقَهُ، ثُمَّ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ فَوْقَهُمَا، وَهَكَذَا تَسْلَسَلًا مَعَ الْأَسْبَابِ ضَمَّنَ سَلَمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُمْ مُسَخَّرَاتٍ فِي كَوْنِهِ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُونَ بَعْدَ رَحَلَةِ الْارْتِقَاءِ فِي سَلَمِ الْأَسْبَابِ حَتَّى آخِرِ الدَّهْرِ الْمُقْضَى لِحَيَاةِ النَّاسِ، أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، دُونَ أَنْ يَكُونُوا خَاضِعِينَ لِسُلْطَانِ رَبِّهِمْ وَرَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَالِكِ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، وَدُونَ أَنْ يَكُونُوا خَاضِعِينَ لِسُلْطَانِ قَوَائِنِهِ فِي عَوَالِمِ الْمَوْجُودَاتِ؟؟.

السبب عند أهل اللغة: كُلُّ شَيْءٍ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَطْلُوبٍ مَا كَانَتْهُمَا مَا كَانَ.

وتدلُّنا عبارة: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ على قَاعِدَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْمُبْتَكِرَاتُ وَالْمَخْتَرَعَاتُ الصَّنَاعِيَّةُ، وَهِيَ أَنَّ لِلْأَسْبَابِ فِي الْكَوْنِ سُلْمًا ارْتِقَائِيًّا، وَأَنَّ كُلَّ دَرَجَةٍ سَبَبِيَّةٍ هِيَ شَرْطٌ لِلارْتِقَاءِ إِلَى الدَّرَجَةِ السَبَبِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا.

وتدلُّنا هذه العبارة أيضاً على التوجيه الربَّانيَّ لِلأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْارْتِقَاءِ

العلمي والعملي الذي لا يتناهى، ما بقيت في الكون أبعاداً يطمح الإنسان إلى اكتشافها، ومعرفة أسرارها وقواها، وما بقيت في الكون أسبابٌ مُستخرة له.

وهذه العبارة نفسها تُشعرُ ضمناً بما توصل إليه الناس في هذا العصر، من استخدام الأسباب التي سخرها الله لهم، حتى عرفوا كثيراً من طاقات الكون، واستخدموها لنسف الجبال، واستخراج كثير من كنوز الأرض، وغُبور الأجواء، والوصول إلى القمر وبعض الأفلاك، فهل تستطيع الدول العظمى، المستخدمة لهذه الأسباب، أن تدعي أن لها مُلك السماوات والأرض وما بينهما، وتتمرد على قوانين الله وأنظمتها في كونه، وأن تكون مشاركة لله في رُبوبيته لكل شيء؟؟!

وهل تستطيع أن تفرض على الله اختياراتها وأهواءها، فيترك من أجلهم ما يشاء ويختار؟؟!

ولو اتبع الله المَلِكُ الحقَّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن، كما قال الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول): ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

وبهذا تمَّ الحصار الفكري لمكذبي الرسول في دفع مقولتهم الفاسدة، بشأن محمد ﷺ: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾!!؟

فقد تضمن هذا الحصار الفكري التنبيه على أن الاصطفاء بالنبوة والرسالة، لا يخضع لأهواء الناس ومفهوماتهم الطبقية، بل إن الله عز وجل يصطفي بحكمته لرسالته من يشاء من عباده، وهو جلُّ جلاله وعظم سلطانه أعلم بعباده، وأعلم بمن يصلح منهم لذلك.

فاستنكاف كُبراء كفار مكة عن الإيمان بنبوة محمد ورسالته، على الرغم من وجود الآيات الباهرات الدالات عليهما، واستنكارهم أن

يَضْطَفِيَهُ اللهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَيَجْعَلُهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَيُنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرَ، وَلَا يَخْتَارُ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَائِهِمْ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَاقْتِرَاحُهُمْ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ الْمُخْتَارُ رَجُلًا مِنْ عَظَمَاءِ رِجَالِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ تَدْخُلُ مِنْهُمْ فِي خِصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ فِي مُلْكِهِ، وَفِي تَصَرُّفَاتِهِ فِي خَلْقِهِ، الَّتِي يَتَصَرَّفُهَا بِمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ الْمُقْتَرَنَةِ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ كُلِّ شَيْءٍ.

والله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، لم يجعل خزائن رحمته التي يمنح منها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، مَا يَشَاءُ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِهِمْ تَحْتَ تَصَرُّفِ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ كَانَ مَلَكًا مُقَرَّبًا، فَكَيْفَ بِهِؤَلَاءِ الْمُعْتَرِضِينَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ؟! كَيْفَ تَكُونُ لَهُمْ مُقْتَرِحَاتٌ مَقْبُولَاتٌ لَدَى الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْعَزِيزِ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يُعْطِي مِنْ رَحْمَتِهِ، وَمَنْ يُسَمِّكُ عَنْهُ فَلَا يُعْطِيهِ.

وعلى طريقةِ الحِصَارِ الفِكْرِيِّ حَوْلَ هَذَا الْإِعْتِرَاضِ بِالذَّاتِ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ أَنَّ هَذَا الْإِعْتِرَاضَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا فِي إِحْدَى حَالَتَيْنِ.

**الحالة الأولى:** أَنْ يُوجَّهَهُ مُقَوِّضٌ بِالتَّصَرُّفِ، وَمَنْ لَهُ حَقُّ الْإِعْتِرَاضِ، وَقَدْ جَاءَ إِسْقَاطُ اخْتِمَالِ التَّقْوِيضِ بِالتَّصَرُّفِ، وَاحْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَقُّ الْإِعْتِرَاضِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾ وقد سبق شرح هذه الآية.

**الحالة الثانية:** أَنْ يُوجَّهَهُ مَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ لَهُمْ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَلْيَقُومُوا بِعَمَلٍ مَا يُثَبِّتُونَ بِهِ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ ذَلِكَ بِحَقٍّ، لَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَ تَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ لَهُمْ، وَقَدْ جَاءَ إِسْقَاطُ هَذَا الْإِحْتِمَالِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَمْرٌ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٢﴾ وقد سبق شرح هذه الآية. وسبق بيان أنهم لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخَالِفُوا قَوَانِينَ الرَّبِّ الْخَالِقِ فِي كَوْنِهِ، فَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ بِقَوَانِينِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ، وَأَمْرُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي الْمَسْخَرَاتِ هُوَ النَّافِذُ، وَقُوَّتُهُ هِيَ الْقَاهِرَةُ الْعَلَاءَةُ.

● قول الله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿١١﴾ جاء في صدر هذه السورة بيان أن الذين كفروا (أي: كبرائهم وأئمتهم) في مكة قد وصلوا إلى طور الذين هم في عزة وشقاق، أي: في استشعارهم بأن لهم القوة الغالبة تجاه بدء تكاثر أعداد الذين يؤمنون بالرسول ويتبعونه، وفي تهيؤ نفوسهم للقمع قبل أن يصل المسلمون بالتنامي والتكاثر إلى أن يكونوا هم أصحاب القوة الغالبة.

واقضى هذا البيان علاج الذين كفروا، بالتلويح بأنهم إذا تفاقم أمرهم أنزل الله عز وجل بهم إهلاكاً عاماً شاملاً، كما أهلك أقواماً سابقين استحقوا الإهلاك بكفرهم، ومقاوماتهم لدعوات رسل ربهم، فقال الله عز وجل في هذا العلاج:

﴿كَرَّ أَهْلُكَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ﴿٣﴾.

وقد سبق شرح هذا العلاج.

واقضى هذا البيان أيضاً علاج الرسل والذين آمنوا به واتبعوه، بما يُطمئن قلوبهم بأنهم هم المنصورون، وبأن الذين هم اليوم في عزة وشقاق هم المهزومون المغلوبون، حين يحين وقت المواجهة القتالية بين الفريقين، فقال عز وجل: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿١١﴾ فكان هذا وعداً وبشارة من الله جلّ جلاله للرسل والذين آمنوا به واتبعوه، بانتصارهم على هؤلاء الذين كفروا، والذين هم اليوم في عزة وشقاق تجاههم.

وفي هذه الآية تعيين للأمر الذي يتيم به تأييد الله لأوليائه، وخذله لأعدائه، فهي معارك في مواجهات قتالية، يتحقق فيها نصر الله للرسل والمؤمنين معه، ويتحقق فيها خذل الله للذين هم اليوم في عزة وشقاق. وهزيمتهم وانكسارهم أمام المؤمنين الذين يرونهم في قلة وذلة.

وقبل سورة (ص) جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيان

أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ صَارُوا يَقُولُونَ، «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ» فقال تعالى فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ .

وقد سبق شرح هذا النص لدى تدبر سورة (القمر).

والوعدُ بنصر المؤمنين وهزيمة الذين هم اليوم في عزّة وشقاق، في قول الله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ قد جاء بأسلوبٍ رمزيٍّ عام، يفهمه الرسول ﷺ، ويفهمه أهلُ القُطائِنَةِ، والدَّكَّاءِ والألمعية من المؤمنين.

﴿جُنْدٌ مَا﴾ صيغة مبهمّة عامّة، صالحة لأن تنطبق على ذوي العزّة والشقاق، وعلى غيرهم.

جُند: اسم جنسٍ جَمْعِي يُفَرِّقُ بينه وبين واحدِه بالياء، فواحدُه: جنديّ، واسم الجنس الجمعي يطلق على القليل والكثير، ويجوز في نعته التذكير والتأنيث. والجُندُ العسكر.

[ما] هذه في عبارة «جُند ما» وأشباهاها تُسمّى عند النحاة: «ما الإبهاميّة» وهي التي إذا اقترنت باسمٍ نكرة زادتُه إبهاماً وشيوعاً. وهذا الإبهام هو المسوّغ للابتداء بالنكرة.

«جُند ما» مبتدأ «مَهْزُومٌ» خبره.

﴿هُنَالِكَ﴾ في هذه العبارة إشارة إلى المكان الذي سيَهْرَمُ فيه جُندُ الذين كفروا والذين هم في عزّة وشقاق، فهو مكان بعيد عن مكان نزول النص في مكة، لاستعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، فاللام في «هُنَالِكَ» للبعد، والكاف لخطاب الرسول، وخطاب كل مؤمنٍ يُذكرُ رمزُ الخطاب، ومضمونُ الوعدِ المطمئن، على سبيل الخطاب الإفرادي.

﴿مَهْرُومٌ﴾ اسمٌ مفعول من فعل «هزم» العدو، إذا كَسَرَ شَوْكُتَهُ وَاَنْتَصَرَ عليه. واسمُ المفعول يَدُلُّ على ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الْفِعْلُ المضارعُ المبنيُّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، إذ قد يَدُلُّ على الحال، وقد يَدُلُّ على الاستقبال، والقرينةُ هي التي تكشف المراد.

وقد تحقَّق فيما بَعْدُ انْهِزَامُ جُنْدِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، في غزوةِ بَدْرِ الكبرى، ثم في غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، ثم في فتح مكة. وهذا الخبر من مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْخَبْرِيَّةِ، الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا فِيهِ، وَتَحَقَّقَتْ كَمَا جَاءَ فِي خَبْرِهِ.

﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾، أي: من أحزاب الكفر ذوي المذاهب المتفرقة، والتكتلات المختلفة، بخلاف المؤمنين بالله ورُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وبما جاءهم من عند الله على لسان رُسُلِهِ فَهُمْ جَمِيعاً حِزْبُ اللَّهِ عِبَرُ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَيْسُوا بِأَحْزَابٍ، وَهُمْ جَمِيعاً أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَيْسُوا بِأُمَمٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

فَالْأُمَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ حِزْبُ اللَّهِ عَلَى صِرَاطٍ وَاحِدٍ هُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ اللَّهِ أَوْ بِبَعْضِهِمْ أَوْ بِبَعْضِ مَا جَاءُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، هُمْ أَحْزَابٌ شَتَّى مُتَفَرِّقَةٌ، تَجْرُهُمْ أَسْبَابٌ مُتَعَدِّدَةٌ مُوصُولَةٌ جَمِيعُهَا بِالشَّيْطَانِ، فَكُلٌّ مِنْهَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: هُوَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِهِ مَعَ سَائِرِ الْأَحْزَابِ الْمُتَعَادِيَةِ فِيهَا بَيْنَهَا، وَالَّتِي هِيَ فِي الْوَاقِعِ أَحْزَابٌ مُتَفَرِّقَةٌ، فَالشَّيْطَانُ لَهُ مَنَاجِجٌ وَسُبُلٌ ضَالَّةٌ مُتَبَايِنَةٌ، وَلَيْسَ لَهُ صِرَاطٌ وَاحِدٌ، لَكِنْ كُلُّ سَبِيلِهِ وَمَنَاجِجِهِ تَوْصِلُ إِلَى الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.



● وكون الذين كفروا أحزاباً لا حزباً واحداً، من القضايا التي دلّت عليها بيانات قرآنية متعدّدة، فمنها ما يلي:

١ - ففي سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) التي نتدبرها ذكر الله عز وجل قوم نوح وعاداً وفرعونَ ذا الأوتاد وشمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وقال بشأنهم ﴿...أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِن كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ۖ﴾ (١٤)، أي: أولئك الأحزاب من الكفار المكذّبين الذين واجهوا رُسُل ربهم فيما مضى بالتصدي للقمع بالقوة المادّية المسلّحة، واستعمل اسم الإشارة الخاص بالبعيد لبعُد زمانهم، ولبعد منزلتهم في اتجاه الدرك الأسفل من النار.

﴿إِن كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: ما كل حزب منهم إلا هو حزب كذب الرُّسل، أي كذب رُسُله وكذب سائر الرُّسل، فجرّاه تكذيبه إلى قبائح وشرور وفساد في الأرض أدّت إلى إهلاكه<sup>(١)</sup>.

٢ - وفي سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) ذكر الله عز وجل الذين كفّروا بعبسى عليه السلام، ولم يؤمنوا بأنه عبدُ الله ورسوله، فقال فيها بشأنهم:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

٣ - وفي سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) ذكر الله عز وجل رُسُله محمداً ﷺ بأنّه على بينة من ربه، وبأنّه يتلوه شاهد من ربه، هو القرآن المُعجز الذي يشهد له بأنّه رُسولُ الله حقاً وصدقاً، وبعْدَ هذا قال الله تعالى:

(١) الذي ظهر لي في الإعراب هو ما يلي: «أولئك» مبتدأ «الأحزاب» بدلٌ منه، وجملة «إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ» خبر المبتدأ. وبهذا تَتَفَادَى تأويلات ذكرها بعض أهل التأويل، وهي لا داعي لها.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مَوْعِدَهُ...﴾ (١٧) ﴿.

٤ - وفي سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) ذكر الله عز وجل الذين كفروا بمحمد وبما جاء به عن ربه، وقال بعد ذلك:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٥) ﴿.

ولما كانت الأمة الربانية أمة واحدة وإن كانت أتباع رسل الله متعددين، كان لا بد أن يكون صراطها واحداً، أما ملل الكفر، فهم أمم، وهم يتبعون سبلاً متفرقة متضادة، وقد أبان الله عز وجل هذا الواقع في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بقوله:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣) ﴿.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ (١٢) ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١٣) ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (١٤) ﴿.

وقرأ يعقوب: [عقابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فثبت ووقع عقابي لهم حتى صار أمراً واقعاً حقاً، لأنهم استحقوه.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾: أي: وفرعون صاحب المباني العظيمة التي تشبه الجبال، وتعرف هذه في مصر بالأهرامات. وقد وصف الله الجبال بأنها أوتاد، أي: بمثابة الأوتاد المثبتة لبيوت الشعر، إذ هي منغمسة في الأرض ومثبتة قسرتها حتى لا تميد بمن عليها.

أو وفرعون صاحب الملك القوي الثابت، شبهت أسباب تثبيت ملكه بالأوتاد.

الوقت: هو عودٌ قويٌّ يُدَقُّ أَكْثَرُ من نصفه في أرضٍ متراصّة، ثُمَّ يُرْطَبُ بما بَقِيَ منه فوق الأرض حَبْلٌ من حبال بيت الشَّعر، أو مِقْوَدُ الفرس، أو غير ذلك لتثبيت المربوط به.

وَأَسْتَعِيرَ لَفْظُ «الأوتاد» للجبال، وللمباني العظيمة، ولوسائل القوة التي يُتَبَبُّ بها الملوكُ مُلْكُهُمْ، وأصحابُ السلطان سلطانهم.

وَذَكَرَ فِرْعَوْنُ دُونَ أركان مُلكه، وجُنُودِه، وسائرِ قومه، لأنّه كان صاحب الكلمة النافذة فيهم جميعاً، دون معارض، الأمر الذي جعله يقول لكبراء مملكته: ما علمت لكم من إلّه غيري، كما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَتُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي...﴾ (٢٨).

﴿وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾: الأيكة الشَّجرُ الكثيف الملتفّ، ويخفّف اللَّفْظُ فيقال فيه: «ليكة» وأصحاب الأيكة هم مَدِينٌ قوم النبيّ الرسول شُعَيْب عليه السلام، وهل الأيكة اسم غيظتهم أو اسم قريتهم؟ احتمالان أوردهما المفسرون. وقد تكون قريتهم قد سُمِّيَتْ باسم غيظتهم، والله أعلم.

والحديث عن هؤلاء الأقوام الذين جاءوا في هذا النصّ، قد سبق لدى تدبُّر السُّور التي جاء فيها ذكرهم.

فقد سبق فيما نزل من القرآن قبل سورة (ص) توجيه أنظار الذين كَفَرُوا للاعتبار بما جرى لقوم نوح وعادٍ وفِرْعَوْنَ ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة من إهلاك الله لهم بسبب كفرهم.

ولكنّ توجيه الأنظار للاعتبار بما جَرَى لَهُمْ للاتعاظ بهم قد جاء في مناسباتٍ مختلفات، وفي معارضٍ أنواعٍ من كفرهم وسوء أعمالهم.

● ففي سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) جاء توجيه الأنظار

لإهلاكهم بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكة بالبعث ليوم الدين، يَوْمِ الحساب، وفَضْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وهذا الصنيع البيانيّ يدلُّ على أنّ هؤلاء الأقوام كَذَّبُوا بالبعث ليوم الدين، فجزّهم هذا التكذيب إلى أعمالٍ كفريةٍ شَنِيعَةٍ، كان من نتائجها عقابُ الله المعجّل لهم بالإهلاك العامّ الشامل.

● وفي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم مع بعض تفصيل لأقوالهم وأعمالهم، بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكة للرسول محمد ﷺ، وعدم الإيمان بنبوّته ورسالته، وجاء في تفصيلات توجيه الأنظار للاعتبار بقصص هؤلاء المهلكين الأوّلين، أنّهم كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، فوقع عليهم ما أنذروا به. فدلّ هذا الصنيع البيانيّ. على أنّ هؤلاء الأقوام كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، فجزّهم ذلك إلى أعمالٍ كفريةٍ شَنِيعَةٍ، كان من نتائجها عقابُ الله المعجّل بالإهلاك العامّ الشامل، ونزل بهم ما أنذرهم به.

● وفي سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) التي نتدبّرها، جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم بصورة مجملّة، في معرض بيان أن كفّار مكة قد وصلّوا إلى طور ذي عزّة وشقاق، طور الواقف من الرسول ودعوته والذين آمنوا به واتبعوه موقف المعتزّ بقوّته، المهدّد بالقمع المسلّح. فدلّ هذا الصنيع البيانيّ على أنّ هؤلاء الأقوام قد وصلّوا مع رُسُلهم إلى طَورٍ ذي عزّة وشقاق، وتصدّد لقمع الرُّسل وإسكاتِ دعوتهم بالقوّة الماديّة المسلّحة، فأنزل الله بهم عقابه، فأهلكهم، وأنجى رُسُلَهُ والذين آمنوا معهم، من كيد الكافرين وسلطانهم القويّ الغالب.

وهنا أقول: إنّ القصّة الواحدة يُؤتَى بها للاعتبار والانتعاظ، بمناسبة موضوع مُعَيّن، ويُؤتَى بها للاعتبار والانتعاظ بمناسبة موضوع آخر، ثم يُؤتى بها للاعتبار والانتعاظ بمناسبة موضوع ثالث، وهكذا.

ومع ذلك نجد في توجيه الأنظار للاعتبار والاتعاظ بقصص الأولين في القرآن تكاملاً في عناصرها، لا تكراراً متطابقاً، ففي كل مرة نجد تغييرات وإضافات، فإذا نظرنا إليها متدبرين نظرة كلية جامعة، وجدناها فيما بينها متكاملات غير مكررات تكريراً تطابقياً.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فُوقٍ﴾ (١٥) .. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [مَا لَهَا مِنْ فُوقٍ] بضم الفاء، وهما لغتان عربيتان للكلمة.

﴿وَمَا يَنْظُرُ﴾: أي: وما ينتظر. يقال لغة: نظر فلان الشيء، أي: انتظره، وفي المثل: «وإنَّ عَدَا لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ» أي: لمنتظره.

﴿هَؤُلَاءِ﴾: أي: المعنيون من كفار قريش الذين وصلوا إلى طور من هم في عزّة وشقاق.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: صيحة واحدة تُهْلِكُهُمْ، كالصيحة التي أَهْلَكَتْ ثمودَ، لِلْمُقَارَبَةِ بين حالهم وحال ثمود، الذين طلبوا آية الناقة، فبعثها الله على وفق ما طلبوا، فلم يُؤْمِنُوا، ثم عقروا الناقة، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بالصَّيْحَةِ وهؤلاء طلبوا آية حسيّة، فأجرى الله لرسوله آية انشِقَاق القمر، فزعموا أنّها عمل من أعمال السحر، وَأَصْرُوا على كفرهم، فأوشكوا أن يَسْتَحِقُّوا إرسال الصيحة المهلكة المماثلة للصيحة التي أَهْلَكَ اللهُ بها ثموداً.

﴿مَّا لَهَا مِنْ فُوقٍ﴾ الفُوقُ، والفُوقُ، بفتح الفاء وضمّها، المُهْمَلَةُ، أي: ما ينتظر هؤلاء إذا كانوا ينتظرون شيئاً من ربّهم، مُقَابِلَ إصرارهم على كفرهم وعنادهم، ووقوفهم من الرُّسُولِ والمؤمنين موقف ذي عزّة وشقاق، إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تُهْلِكُهُمْ، ولس لهذه الصيحة مُهْلَةٌ، بين انطلاقها وإهلاكهم.

وَيُطْلَقُ الفُوقُ والفُوقُ على الوقت بين قبضتي الحالب للضرع، وعلى

ما يأخذُ المحتَضِرَ عند التَّنَزُّعِ، وكلَّ المعاني ترجع بالتأويل إلى أنَّ صيحة الإهلال تأخذهم أخذةً واحدةً كَقَبْضَةِ الحالب للضَّرْعِ، وهذه القبضة ليس لها فواق بعدها، فهي صيحة مهلكة بزَمَنِ يَسِيرٍ جداً.

● قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦):

إنَّ هؤلاء المعنِيِّين في السورة قد كَذَّبُوا الرُّسُولَ، وكَذَّبُوا بما جاء به عن ربِّه، وكَذَّبُوا بنبأ يوم الدين، وكَذَّبُوا بالنَّذْرِ المعجلة.

قيل: وقد طَلَبُوا على سَبِيل الاستخفاف بالنَّذْرِ المعجَّلة، استعجال ما أُنذِرُوا به مِنْ عقابٍ في الدنيا، كالعقاب الذي أنزله الله عزَّ وجلَّ بالمهلكين الأولين، فقالوا أمام الرُّسُولِ وبعض المؤمنين: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» قالوا هذا القول على سَبِيل الاستخفافِ والتَّحْدِي للرُّسُولِ، وهم في الحقيقة لا يسألون الله أن يُنَزَّلَ بهم عقابه، ولكنهم يَرَوْنَ كَذِبَ الرُّسُولِ ويتحدَّونه، فقالوا مقاتلهم هذه تعبيراً عن تكذيبهم، وتحديهم للرسول.

القِطُّ في اللِّغَةِ: النصيب، وأصله الصُّكُّ الَّذِي تَكْتَبُ به الجوائز والأزواق، وكان يكتب على قطعة من الجِلْدِ قُطَّتْ من جلدٍ كبير.

فهم يستعجلون نصيبهم من العذاب تكديماً واستخفافاً، ويتوهَّمُونَ أنَّ ما سيأتيهم من الله إنما هي جَوَائِزُ وَأَزْوَاقٌ، لا عَذَابٌ وعقابٌ كما يُنذِرُهُم الرُّسُولُ.

وربَّما يكون المراد أنهم يسألون رَبَّهُمْ أنْ يُعْطِيَهُمْ كُلَّ حظوظهم في الدنيا، على اعتبار أنَّهم يَكْذِبُونَ بأنباء يوم الحساب، وبهذا قال جماعة من أهل التأويل، ورَجَّحَهُ ابْنُ جرير الطبري. والله أعلم.



(٦)

## التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (١٧ - ٤٨)

وتضمّن هذا الدرس معالجة الرسول محمد ﷺ وتخييره بين نماذج من الرُّسل، فما يختارُ من نموذج يُيسِّره الله له، ويبتليّه من خلاله، وفيه بعض بيانات علاجية للكافرين.

وقد قسَّمْتُ هذا الدُّرس إلى خَمْس فقرات:

**الفقرة الأولى:** تتعلق بأمر الرسول محمد ﷺ بالصبر، وعرض بعض قصة داود عليه السلام، وما جرى له من امتحان، وما وصّاه الله به بعد أن غفر له وجعله خليفة في الأرض، مع ملحقات نافعات، ولها صلة بما جاء في الدرس الأول، وفيها بيان للرسول محمد ﷺ. وهي الآيات من (١٧ - ٢٩).

**الفقرة الثانية:** فيها عرض بعض قصّة سليمان، وما جرى له من امتحان، وما وهبه الله من مُلك لا يَنْبَغِي لأحد من بعده، بعد أن غفر له. وهي الآيات من (٣٠ - ٤٠).

**الفقرة الثالثة:** فيها عَرَضَ بَعْضِ قصّة أيّوب عليه السلام، وما ابتلاه الله به، ثم رَفَعَ عَنْهُ البلاء بِرَحْمَتِهِ، وأثنى عليه بالصُّبر وبأنّه أَوَّاب. وهي الآيات من (٤١ - ٤٤).

**الفقرة الرابعة:** فيها الثناء العظيم، والتقويمُ الرَّفيع لإبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام، وفيها تَوْجِيهٌ ضمنيٌّ للرسول محمد ﷺ أن يختار لنفسه الاقتداء بهؤلاء الرُّسل، بعيداً عن المُلْك والغنى. وهي الآيات من (٤٥ - ٤٧).

**الفقرة الخامسة:** فيها الثناء على إسماعيل واليسع وذوي الكفل عليه السلام بأنهم من الأخيار. وهي الآية (٤٨).

## أولاً

التدبر التحليلي للفقرة الأولى من الدرس الثاني من دروس السورة  
وهي الآيات من (١٧ - ٢٩)

قال الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ  
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ  
الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ۝٢٠ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ  
دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ  
وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝٢٢ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِيَ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ  
فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا نِعَاجُهُ وَإِنْ كَثُرَ مِن  
الْخُلَطَاءِ يَتَّبِعُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا  
فَتْنُهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَىٰ وَحُسْنِ  
مَقَابٍ ۝٢٥ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ  
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ  
۝٢٦ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ  
۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ  
كَالْفَجَارِ ۝٢٨ كَذَّبَ آتَيْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُوا عَنِتَّهُمْ وَلِيَسَدَّكَ أَهْلُ الْأَنْبِ ۝٢٩﴾

تمهيد:

في هذه الفقرة يأمر الله عز وجل رسوله بالصبر، ويغرض عليه فيها،  
نموذج ملك رسول هو داود عليه السلام، وما تعرض له خلال سلطان  
ملكه من فتنة وابتلاء، مع بيان التقويم الرباني الذي وضعه الله له، وجعله  
فيه على درجة من درجات المحسنين، فوصفه بأنه أواب، وقال بشأنه:  
﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلَفَىٰ وَحُسْنِ مَقَابٍ﴾.



وفي هذه الفقرة يُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ جَعَلَ دَاوُدَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ لِمَلِكٍ قَبْلَهُ، وَخَلِيفَتُهُ هَذِهِ خِلَافَةُ دِينِيَّةٍ مُعَانَةٍ، وَأَوْصَاهُ فِي خِلَافَتِهِ بِوَصَايَا.

وفي هذه الفقرة بيانُ حِكْمَةِ الجزاءِ يومَ الدين، بعد الحساب وفصل القضاء، وبيانُ أَنَّهُ ليس من الحكمة التسوية بين المصلحين والمفسدين، ولا بين المتقين والفجار.

وختم الله هذه الفقرة ببيانِ مُوجِبِهِ لِلرَّسُولِ بصريح الخطاب، بشأن القرآن ذي الذكر، وأبانَ لَهُ أَنَّهُ كَتَابٌ مُبَارَكٌ لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ مَا فِيهِ أَوَّلُوا الْأَلْبَابَ فَيَعْمَلُوا بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَوَصَايَاهُ، وَيَبْتَغُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَجَنَاتِ النِّعَمِ الْخَالِدِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي دَارِ كَرَامَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

● قول الله تعالى لرسوله مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾:

جاء في الدرس الأول من دروس السورة، بيانُ أَنَّ كُفْرَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَكَّةَ أَتَاهُمُ الرَّسُولُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، وَبِأَنَّهُ ذُو مُضْلِحَةٍ شَخْصِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، كَرَغْبَةِ الْمَلِكِ وَحُبِّ السُّلْطَانِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، وَبِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ هُوَ مِنْ افْتِرَاءَاتِهِ الَّتِي اخْتَلَقَهَا بِدَلِيلِ أَنَّ الْمَلَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ تَخْرِيفَاتُهَا قَائِمَةٌ عَلَى التَّثْلِيثِ لَا التَّوْحِيدِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُؤَهَّلٍ بِحَسَبِ وَضْعِهِ الاجتماعيِّ فِي قَوْمِهِ لِأَنَّهُ يَضْطَفِيهِ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، فَيُنْزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ الَّذِي يَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَجْعَلُوهُ ذِكْرًا لَهُمْ.

فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ بِشَأْنِهِ، فَلَا يَغْضَبَ وَلَا يَنْفَعَلَ وَلَا يَتُورَ، وَلَا يَقَابِلَ شَتَائِمَهُمْ بِشَتَائِمٍ مُضَادَّةٍ، بَلْ يُوَاجِهُهُمْ بِالْحِلْمِ وَالتَّغَاضِي، وَمَتَابَعَةٍ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ لِلنَّاسِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالمُجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

واستعمال الفعل المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ يدلُّ على أَنَّهَا أَقْوَالٌ يَكْرُرُونَهَا إِعْلَامِيًّا لِلصَّدِّ عَنِ الرَّسُولِ وَدَعْوَتِهِ، وَلِتَشْبِيْطِهِ عَنْ مَتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ، بِإِذْنِهِ وَاسْتِثَارَةِ غَضَبِهِ.

وَالصَّبْرُ الْمَطْلُوبُ هُنَا يَكُونُ بِضَبْطِ نَفْسِهِ عَنْ عِدَّةِ أُمُور:

- (١) بضبط نفسه عن مقابلة أقوالهم بمثلها، أو بأشد منها، أو بأقل وأخف منها، لأن هذه المقابلة تَجَرُّ إلى تَضْعِيدِ الشَتَائِمِ، وَتَحَوُّلِ الدَّعْوَةِ عَنْ مَسِيرِهَا.
- (٢) وبضبط نفسه عن إظهار الغضب والتأثر والانفعال منها، لأن ذلك شيء يَسْرُهُمْ، وَيَشْفِي غَيْظَهُمْ، وَيَجْعَلُهُمْ يَزِيدُونَ مِنْ تَوْجِيهِ هَذَا السَّلَاحِ الْقَائِمِ عَلَى السَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ ضَدَّهُ، وَضَدَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.
- (٣) وبضبط نفسه عن التحريك العملي للمقاومة بوسائل القوة المادية، فهذا من شأنه التعجيل بإحداث المواجهات المسلحة بين المسلمين وأعدائهم، قبل الاستعداد المكافئ لهذه المواجهات ضمن سنن الله السببية، وهذا التعجيل رُغْوَةٌ تُفْضِي إِلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ فِي مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ وَانتشارها، وَتُمْكِّنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَمْعِهَا، مَعَ اتِّخَاذِ الذَّرَائِعِ الإِعْلَامِيَّةِ لِهَذَا الْقَمْعِ مَهْمَا كَانَ عَنِيفًا شَدِيدًا.

● وقد سبق أن أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رسوله بالصَّبْرِ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) فقال اللَّهُ له فيها: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۖ﴾ (٧).

وهذا أَمْرٌ بِالصَّبْرِ عَامٌّ غَيْرُ خَاصٍّ بِمَا يَقُولُهُ الْكَافِرُونَ عَنْهُ، وَمَا يُوْجِّهُونَهُ لَهُ مِنْ شَتَائِمٍ.

ثم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ له فيها:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ۚ﴾ (٤٠).

وَتَتَابَعَتْ أَوَامِرُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِالصَّبْرِ، فِي مَرَاكِحِ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، وَالتَّنْزِيلِ الْمَدْنِيِّ، وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ<sup>(١)</sup>.

(١) انظر الفصل الأول (وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة الصبر) من الباب الثاني من كتاب «فقه الدعوة إلى الله وفقه النصيحة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف.

● قول الله تعالى : ﴿..وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ١٧﴾ .

ما جاء في هذه السورة بشأن داود عليه السلام، هو أول نص أنزله الله عز وجل في القرآن بشأنه، ثم أنزل بعده تسعة نصوص أخرى في مناسبات متعددة، إلا أن ما جاء عنه في سورة (ص) أكثرها بياناً عنه، وهي جميعاً فيما بينها متكاملات غير مكررات، وعرضها في دراسة متكاملة يكشف هذه الحقيقة.

﴿وَأَذْكُرْ﴾ فعل أمر معطوف على فعل : [اضمير] أي : وضع في ذاكرتك ما سبين لك .

﴿عَبْدَنَا﴾ أي : الذي صدق في عبوديته لنا، مستشعراً عظمة ربوبيتنا، ومجتهداً في عبادته لنا وطاعته لأوامرنا ونواهيها، دل على هذا إضافة «عبد» للمتكلم العظيم الرب جل جلاله وعظم سلطانه . وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم له .

﴿دَاوُدَ﴾ : هو النبي الرسول الملك، وهو من الرسل المذكورين في القرآن المجيد، وهو من بني إسرائيل، من سبط «يهوذا» بن «يعقوب» وهو إسرائيل عليه السلام، بن «إسحاق» بن «إبراهيم» عليهما السلام .

﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ : أي : صاحب القوة والشدة بالنسبة إلى البشر .

الأيد، والأذ في اللغة : القوة . يقال لغة : آذ فلان يثيد أيداً وآداً، إذا اشتد وقوي . ويقال : رجل أيد . أي : قوي . والتأييد التقوية، يقال لغة : أيده يؤيده تأييداً إذا قواه .

وكان لداود قوتان : قوة جسدية نادرة، وقوة نفسية وإرادة فائقة، فبقوته الجسدية والنفسية قتل الجبار المصارع المخيف «جالوت» بحجر رماه به من مقلاعه، وبقوته الجسدية كان يضنح بيديه الدروع من زرد الحديد، وكانت له قوى جسدية أخرى .

وكانت له عليه السلام قذرة جسدية ونفسية على قيام الليل طويلاً،

فقد كان يقوم ثلث الليل يُصَلِّي، كما في صحيح البخاري. وقُدْرَةٌ فائقة على الجهاد في سبيل الله ببسالة وشجاعة وإقدام، فلا يَفِرُّ إذا لاقى العدو. وقُدْرَةٌ على الصيام، إذ كان يصوم يوماً ويُفْطِرُ يوماً. وكان يأكل من عَمَلِ يَدِهِ في صناعة الدُّرُوع. وكان له صوت قويٌّ عظيم، فائق الحسن والجمال، يترنم به في تَسْبِيحِ الله وذكره في الوديان بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فتردّد الجبال صدًى تَسْبِيحه وذكره لربه بترنيم بديع.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: أي: إنه كان كثير الرجوع إلى مراقبة الله وذكره وطاعته، كلما ابتعد عن ذلك ولو ابتعاداً قليلاً.

﴿أَوَّابٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «آيب» من فعل: آبَ يُوَوِّبُ أَوْباً وإياباً وأوبةً وأئية، إذا رجع، فمعنى «أَوَّاب» كثير الرجوع.

وقد أثنى الله عز وجل في القرآن على الأوابين، أي: على الرجاعين بالتوبة إلى الطاعة والاستقامة، وأبان أنه غفورٌ لهم، فقال الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

ووعد الله الأوابين الحفيظين بالجنة يوم الدين، فقال الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٢١﴾ هَذَا مَا نُعْذُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: لكل رجاعٍ إلى ربه بالتوبة والاستغفار، حفيظٌ على حقوق الله عليه، مُهْتَمٌّ بأدائها.

وفي سورة (ص) التي نتدبرها وصف الله عز وجل كلاً من داود وسليمان وأيوب بأنه أَوَّابٌ، أي: كثير الرجوع إلى الله، ولا يكون كثير الرجوع إلا مَنْ كَانَ كثير عوارض الابتعاد، ولم يَرِدْ مثلُ هذا الوصف في القرآن لِغَيْرِهِمْ من الرُّسُل، إنمّا جاء وصف إبراهيم عليه السَّلامُ بأنه مُنِيبٌ،

من فعل «أَنَابَ» بمعنى رَجَعَ، ولم يأت في وصفه أَنَّهُ «أَوَابٌ» بمعنى كثير الرجوع.

فهل في هذا الصنيع القرآني إشارة إلى أَنَّ اشتغال داود وسُلَيْمَانَ بِالْمُلْكِ وما فيه من زينة الحياة الدنيا، واشتغال أَيُّوبَ بأمور الدنيا، وجمع الأموال الوفيرة، قد كان يُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ ذلك يصرفُهُم عن مُرَاقِبَةِ اللَّهِ دَوَاماً، وذكرِ اللَّهِ دَوَاماً، فيؤوَّبُونَ إلى اللَّهِ تعالى ذاكرين مُرَاقِبِينَ له، وَمُحَاسِبِينَ لأنفسه، كُلَّمَا وَجَدُوا أَنفُسَهُمْ مشغولين بأمور دُنْيَاهُمْ، وبالنَّظَرِ إلى تَكَرُّرِ هذا الأمرِ منهم، لتَكَرُّرِ ما يكون منهم من اشتغالِ بأمور دُنْيَاهُمْ، خَصَّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وجل بهذا الوصف «أَوَابٌ» دون سائر المرسلين المذكورين في القرآن المجيد؟؟.

هذا الفهم غير بعيد، ولعلَّ فيه توجيهاً ضمنياً للرسول محمد ﷺ أَن لا يَطْلُبَ الْمُلْكَ، ولا المال الوفير من الدنيا، لئلاَّ يَشْغَلَهُ ذلك، فيَصْرِفَهُ عن مُرَاقِبَةِ اللَّهِ وذكرِهِ دَوَاماً، فيَحْتَاجُ أَن يَكُونَ أَوَاباً إلى رَبِّهِ أَنَا فَاناً.

ولهذا لَمَّا عُرِضَ عليه المال الكثير الوفير، وَأَنَّ تكون له جبال من الذهب، أثر الكفاف صلوات الله وسلاماته عليه، حمايةً لِنَفْسِهِ من أَن تشغله أُمُورُ الدنيا عن رَبِّهِ ومُراقبته والحضور معه دَوَاماً.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَيِّخْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾:

العشي: هو الوقت من العَصْرِ إلى غروب الشمس في الأرجح.

الإشراق: هو الوقت الذي يظهر فيه ضوءُ الشَّمْسِ واضِحاً بَعْدَ شروقها، وهو أَوَّلُ وقت الضُّحَى.

تدلُّ هذه الآية على أَنَّ الله عَزَّ وجلَّ قد آتَى داود عليه السَّلام صوتاً ندياً عظيماً حسناً، يملأ الوادي المحاط بالجبال، إِذْ كَانَ يترنم به مُسَبِّحاً ذاكراً رَبَّهُ بِالزُّبُورِ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، فَتَرَدَّدُ الجبالُ صدىً صوته تسبيحاً

وذكرًا، بما جعل الله عز وجل فيها من تسخير لرجع الصوت، إذ تحكي تسبيحه، فيتردد التسبيح والذكر بين الجبال على مثل ما ينطلقان منه، دل على هذا قول الله تعالى: ﴿مَعَهُ﴾ ولم يقل: له.

وكان من عادة داود عليه السلام أن يترنم بتسابيحه وذكره بمزامير الزبور بالعشي والإشراق في الوذيان بصوت عالٍ جميل صداح، فترجع الجبال صدى صوته الندي الحسن.

فدل هذا البيان على أن الله عز وجل قد منح داود هذا الصوت المتميز، وأن داود كان يستعمله في التسبيح والذكر مترنماً بآيات الله في الزبور، بالعشي والإشراق.

ولهذا التسخير الوارد في الآية احتمالان:

(١) إما أن يكون بمنح داود الصوت العظيم، الذي تنتج عنه مسخرات الأضياء، وهو الأرجح.

(٢) وإما أن يكون بجعل الجبال ترجع معه زيادة على قانونها المعتاد في التسخير، والله على كل شيء قدير.

● قول الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (١٩):

أي: وسخر الله عز وجل أيضاً لداود عليه السلام الطير محشورة (أي: مجموعة له) لاستماع ترانيمه الحسنة الندية المطربة، فتسكن صواف في الجو مستمعة لصوته، وقد تترنم معه وتصلي وتسبح، فإذا انتهت انصرفت إلى مواطنها وأعشاشها وأزاقها، وفي الوقت المخصص لنوبة الإشراق أو العشي التي يترنم فيها تؤوب له، فتسكن صواف في الجو لتسمع وتترنم وتسبح وتصلي، كل قد علم صلاته وتسبيحه.

الحشر: هو الجمع والسوق. فالمحشور: هو المجموع المسوق

لمكان الحشر، فدلّ هذا على وجود حاشِرٍ يحشُرُها، وقد يكون دافعاً ذاتياً فيها خلقه الله في أجهزتها الداخلية، وهي دوافع نفسية فيها.

والمراد بعبارة: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ جنس الطير، وهو ينطبق على صنف من الطير يَقْطُنُ في مدى صَوْتِهِ، وعلى أصنافٍ من الطير، وليس المراد كلَّ الطَّيْرِ في عموم الأرض.

﴿مَحْشُورَةٌ﴾: أي: وسَخَرْنَا له الطير حالة كَوْنِهَا مَحْشُورَةٌ.

وقد جاء في أخبارٍ متعدّدةٍ عن جماعةٍ من السلف، أنّ داود عليه السلام قد أُعْطِيَ من حُسْنِ الصَّوْتِ ما لَمْ يُغْطَ أَحَدٌ قَطُّ، حتى إنّ الطَّيْرَ وَالْوَحْشَ يَنْعَكِفُ حَوْلَهُ لاستماع ترانيمه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّ أبا موسى الأشعريّ قد أُعْطِيَ مِزْمَاراً من مَزَامِيرِ داود عليه السلام، أو مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داود.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرهما، وله أصل في صحيح البخاري ومسلم.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرهما، وله أصل في صحيح البخاري ومسلم.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال له:

«يا أبا موسى، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داود»<sup>(١)</sup>.

﴿كُلُّ لَهٍّ أَوَّابٌ﴾: التنوين في لفظ ﴿كُلُّ﴾ عِوَضٌ عن المضاف إليه، أي: كُلُّ الطَّيْرِ المحشورة لاستماع ترنيماته في التسبيح والذكر، أَوَّابٌ لَهُ

(١) الجامع بين الصحيحين رقم الحديث (٣٦٦) جمع وترتيب «صالح الشامي».

كُلُّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، فَدَلَّتْ صَيْغَةُ «أَوَّابٍ» الَّتِي هِيَ مِنْ صَيْغِ الْمُبَالَغَةِ. عَلَى كَثْرَةِ رُجُوعِهَا لَهُ فِي نَوَابِتِ تَسْبِيحِهِ وَذِكْرِهِ فِي الْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ.

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَأَيَّانَهُ الْحِكْمَةَ وَقَصَلْنَا لِنِطَابٍ ۝٢٠﴾.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ ثَلَاثِ مِثْنَيْنِ أَمْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى دَاوُدَ، غَيْرِ مِثْنَيْنِ تَسْخِيرِ الْجِبَالِ يُسَبِّحُنَ مَعَهُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَخَشَرَ الطَّيْرَ كُلَّ لَهُ أَوَّابٍ، اللَّتَيْنِ سَبَقَ شَرْحُهُمَا وَتَدَبَّرَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا.

وَالْمِثْنُ الثَّلَاثِ الْمِثْنَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (٢٠) هِيَ مَا يَلِي:

الْمِثْنَةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ ۝٢٠﴾: أَيِ: جَعَلْنَا مُلْكَهُ مُلْكًا شَدِيدًا قَوِيًّا، وَأَعْنَاهُ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ ثَابِتًا قَوِيًّا.

يُقَالُ لُغَةً: شَدَّ الشَّيْءَ وَشَدَّدَهُ، أَيِ: قَوَّاهُ بِمَعُونَتِهِ وَمُؤَارَرَتِهِ وَإِمْدَادَاتِهِ.

وَشَدَّ مُلْكُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ:

● بِمَنْحِهِ الْهَيْبَةَ وَقُوَّةَ السُّلْطَانِ.

● وَبِمَنْحِهِ الْجُنْدَ وَالْأَنْصَارَ وَالْمُحِبِّينَ وَالْأَعْوَانَ.

● وَبِخَذْلِ أَعْدَائِهِ وَخُصُومِهِ وَمُنَافِسِيهِ، وَالْقَاءِ الرُّغْبِ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ سَطَوَاتِهِ وَقُوَّةِ جُنْدِهِ وَسُلْطَانِهِ.

الْمِثْنَةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّانَهُ الْحِكْمَةَ ۝٢١﴾:

الْحِكْمَةُ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ تَرْجِعُ إِلَى الْعُنَاوَةِ التَّالِيَةِ وَهِيَ:

(١) تَعَالِيمُ الدِّينِ الْحَكِيمَةِ، وَالْإِلْتِمَازُ بِهَا، وَالْعَمَلُ بِوَصَايَا اللَّهِ الَّتِي أَوْصَاهُ بِهَا.

(٢) حُسْنُ الْإِدَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ فِي مُلْكِهِ.

(٣) التَّزَامُهُ بِأَحْكَامِ الْعَدْلِ، وَالْحُكْمِ بِالْحَقِّ، وَعَدَمُ اتِّبَاعِ الْهَوَى.



(٤) الدَّعْوَةُ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِاسْتِعْمَالِ أَحْسَنِ الْأَسَالِيبِ الَّتِي يُرْجَى مِنْهَا أَنْ تُعْطِيَ أَفْضَلَ النَّتَاجِ.

(٥) معرفة أفضل الأشياء مُلَاقَةً أَوْ مُطَابَقَةً لِمَا تُطَلَّبُ لَهُ.

والحكمة ترجع إلى جذرين:

الجذر الأول: الحكمة في المعرفة.

الجذر الثاني: الحكمة في السلوك، سواء أكان خُلُقًا، أم عملاً جَسَدِيًّا، أم تصرفاً في قول، أو إفتاء، أو حُكْمٍ، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو غير ذلك. وتكون الحكمة في السلوك بممارسة الأحسن والأفضل دواماً، مما توجه له الحكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمن حدودها<sup>(١)</sup>.

المنة الثالثة: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَقَصَلْ لَخَطَابٍ﴾: أي: وآتيناهُ الخطَابَ الْفُضْلَ، وهو الكلامُ الْبَلِغُ الْمَحْرُزُ الْمَعَانِي: الْفَاصِلُ فِي الْقَضَايَا الَّتِي يُبَيِّنُهَا فِي كَلَامِهِ. الْمَطَابِقُ لِلْحِكْمَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا.



قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَوَّا الْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢).

تمهيد:

خطابُ للرسول ﷺ أولاً، فلكلِّ مُتَلَقٍّ عَلَى سَبِيلِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِي، وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ شَرْعٌ فِي عَرْضِ قِصَّةِ تَنْبِيهِ رَبَانِي نَبَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِشَأْنِ سُلُوكِ جَرَى مِنْهُ اسْتَدْعَى هَذَا التَّنْبِيهِ، مِنْ خِلَالِ

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر/ ٣٧ نزول) حول الحكمة في القرآن.

تحكيمة في قضية مشابهة لما جرى منه، عَرَضَهَا عليه خَضَمَانِ اقْتَحَمَا عَلَيْهِ خَلُوتَهُ فِي محرابه وهو يَعْبُدُ رَبَّهُ، ولم يكن من عادته أن يقتحم عليه وهو فِي خَلُوتِهِ أحد، إذ كان يمنع من ذلك، ويأمر حُرَّاسَهُ بأن لا يَأْذَنُوا لأحد بالدُخُولِ عليه. والحكمُ الَّذِي لا بُدَّ أن يحكم به في هذه القضية يُشْعِرُهُ بأنَّه يحكمُ به على نفسه في السلوك الذي جرى منه.

وهي طريقةٌ حكيمةٌ من طُرُقِ التربية الرَّبَّانِيَّةِ للمُقَرَّبِينَ، إذا وَقَعَتْ منهم هَفَوَاتٌ لا تليقُ بمقاماتهم.

وقد تَزَيَّدَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي رواية الهفوة التي جَرَتْ من داوَدَ عليه السَّلَامُ، كَعَادَتِهِمْ فِي اتِّهَامِ أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ بِالْكَبَائِرِ، ذَرِيعَةً لَتَهْوِينَ كِبَائِرِهِمْ وَمُوبِقَاتِهِمْ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا كَهَنَتُهُمْ وَأَحْبَارُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَمُلُوكُهُمْ.

وقد جاء بيان هذه القصة الَّتِي تَزَيَّدَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِيهَا، فِي الإِصْحَاحِينَ الْحَادِي عَشَرَ، وَالثَّانِي عَشَرَ، مِنْ سِفْرِ صَمُوئِيلِ الثَّانِي، فَتَسْبُؤُوا إِلَى داوَدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ارْتَكَبَ الْفَاحِشَةَ مَعَ زَوْجَةِ أَحَدِ قَادَتِهِ الْكِبَارِ الْمُخْلِصِينَ، وَاسْمُهُ: «أُورِيَا الْحِثِّيُّ» ثُمَّ دَبَّرَ ضَدَّهُ مَكِيدَةَ التَّخْلُصِ مِنْهُ فِي مَعَارِكِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ مِنْ زَوْجَتِهِ وَضَمَّهَا إِلَى نِسَائِهِ، وَأَمَاتَ اللَّهُ الْوَلَدَ الَّذِي حَمَلَتْ مِنْهُ بِالزَّنا، ثُمَّ وَلَدَتْ لَهُ وَلَدًا سَمَّاهُ: «سُلَيْمَانُ» وَهُوَ الَّذِي وَرِثَ الْمَلِكَ بَعْدَ أَبِيهِ.

فَإِذَا جَرَّدْنَا مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ مَا زَادَهُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ افْتِرَاءً عَلَى داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِمَّا لَا يَلِيْقُ بِمَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَأَضْفَنَّا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ قِصَّةُ خَضَمَيِ التَّحْكِيمِ الْقِرْآنِيَّةِ، بَقِي مِنَ الْقِصَّةِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْسَجِمَ مَعَهُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مُعَاتَبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لداوُدَ عَلَى سُلُوكِهِ جَرَى مِنْهُ.

وبالتجريد من الزوائد الإِسْرَائِيلِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ نُصَوِّرَ الْقِصَّةَ عَلَى الْوَجْهِ

التَّالِي:

رأى داود عليه السلام عرضاً ومن دون قَصْدٍ منه زوجة «أوريا الحثي» أحد قواده الكبار، وكانت امرأة حَسَناء، فاستَحَسَنَهَا وتمناها، وخطرت له خواطر من الأمانى، ورُبُّما سأله أن يتنازلَ له عنها، فلمَّا سقط «أوريا الحثي» قتيلاً في المعارك الجهادية وجد في نفسه راحة بما جرى، ثم خطب هذه المرأة التي استَحَسَنَهَا ضمن أحكام الزواج الشرعي، وضمها إلى نسائه بزواج شرعي، فولدت له سليمان عليهما السلام.

وجاء في سفر «صمويل الثاني» أن اسمَ هذه المرأة «بشَبَع بنت أليعام».

وغيرَ الإسرائيليون في قصّة الخصمين، وأوردوها حكاية عَرَضَهَا فيما زعموا النبي «ناثان» على داود، فغضب من حالِ الخصم المغتدي على صاحبه، فأمر بقتله، فقال له: «ناثان»: أنتَ هو الرَّجُلُ الذي فعل ذلك.

إلى غير ذلك من تغييرات وتلفيقات وتحريفات، وهم يزعمون أن داود عليه السلام ملك فقط وليس نبياً ولا رسولاً.

أما قصّة الخصمين كما جاءت في القرآن، وأشارت ضمناً إلى ما كان من داود عليه السلام، دون بيان لها، فهي أن داود عليه السلام كان في خلوته في محرابه، في يوم أو وقت لا يأذن لأحد بأن يدخل عليه فيه، لئلاً يعكّر عليه خلوته بربه، وهو مجتهد في الذكر والتسبيح والعبادة وتلاوة آيات الله المنزلات، ولا بُدَّ أن يكون قد جعل على الأبواب حُرَّاساً، فهم لا يمكنون أحداً من الناس أن يدخلَ عليه في أوقات خلوته.

فبعث الله ملائكة على صورة بشر، فتسوّروا عليه سور مكان خلوته، من أمكنة لا تقع عليها عُيُونُ الحراس، واجتازوا الساحة، ودخلوا الغرفة الخاصة بخلوته التي يعبد الله فيها، دون استئذان منه.

فأفزعته منهم هذه المباعثة، وسبقَ إلى ظنِّه أنهم يريدون به شراً، للتخلص من ملكه.

إِنَّ عَارِضَةَ الْفَرْعِ هَذِهِ فِي مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ لَيْلًا، تَكُونُ رَدُّ فِعْلٍ تَلْقَائِيٍّ طَبِيعِيٍّ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ وَأَكْثَرِهِمْ بَأْسًا، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مُسْتَغْرَقًا فِي ذِكْرِهِ وَتَأْمُلَاتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ.

وَأَدْرِكِ الْمَلَائِكَةُ الدَّاخِلُونَ عَلَيْهِ مَا أَصَابَهُ مِنْ فَرْعٍ، وَمَعَ أَوَّلِ اللَّحْظَاتِ قَالُوا لَهُ: لَا تَخَفْ. أَوْ قَالَ مَتَكَلَّمَهُمْ عَنْهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ. وَاتَّبَعُوا طَمَأْنَتَهُ بَيَانِ الْغَايَةِ مِنْ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: ﴿خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

﴿خَصَمَانِ﴾: أَي: نَحْنُ أَصْحَابُ الْغَرَضِ مِنَ الدُّخُولِ عَلَيْكَ خَصْمَانِ جِئْنَا نَتَقَاضِي عِنْدَكَ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَلَا تَجُزْ، وَاهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بَعْدَ نُطْفُوكَ بِالْحَكْمِ.

فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا، وَانصَرَفَ الْخَصْمَانِ، وَرَاجَعَ دَاوُدُ نَفْسَهُ، فَفَطِنَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ امْتَحَنَهُ وَنَبَّهَهُ بِهَذَا الْإِجْرَاءِ عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَزَّ رَاكِعًا، وَأَنَابَ سَاجِدًا، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ.

### التدبر التحليلي للنص:

● قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوًا الْخَصْمِ﴾ في هذه العبارة شروع في عرض قصة تتعلق بدَّوُدَ، بأسلوب الاستفهام عن العلم بنبأ حادثة جرت له.

ونلاحظ في اختيار هذا الأسلوب التنويع البديع، فقد كان الكلام قبله في السورة عن داود بأسلوب الرواية الخبرية، وبغده انتقل إلى أسلوب الاستفهام عن نبأ حادثة جرت له.

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾؟ أَي: يَا مُحَمَّدُ، ثُمَّ يَا كُلَّ مُتَلَقٍّ لِهَذَا الْبَيَانِ، فَهُوَ خُطَابٌ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ، ﴿أَتَاكَ﴾ أَي: جَاءَكَ.

الإتيان والمجيء يستعملان في الحسيات المادية، وفي غيرها من المعنويات والفكريات.

﴿نَبَأُ الْخَصِمِ﴾: النبأ: هو الخبر البارز ذو الأهمية اللافت للانتباه.  
 الخصم: هو المخاصم حول قضية من قضايا الحق، مطالباً، أو مدافعاً، أو مدعياً البراءة، أو نحو ذلك. ولفظ «الخصم» يستعمل هكذا في المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وقد يُثنى فيقال: خصمان، وقد يجمع على خصوم، وخصماء، وخصمان، ويطرّد فيه «خصام» مثل: كلب وكلاب، وصغب وصغاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامِ﴾. أي: الَّذِي المخاصمين.

● ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي: وقت تسوّر جماعة الخصمين المحراب. دلّت هذه العبارة على أنّهم كانوا جماعة، وهم المتخاصمان، وبيّنة المدعي (شاهدان على الأقل).

﴿سَوَّرُوا﴾: أي تسلّقوا سور المحراب، ودخلوا إلى الساحة الداخلية بوسيلة تسلّق السور واجتيازه، لا عن طريق الأبواب، لأنّ الأبواب مقفلة ومحروسة، ولحكمة ما فعلوا هذا، إذ كان باستطاعتهم وهم ملائكة أن يكونوا داخل المحراب دون وسيلة التسلّق، ولعلّ الحكمة أن يراهم بعض الناس من غير الحراس، فيشيّعوا أنّ بعض المتسلّقين دخلوا على داود وهو في خلوته في محرابه.

السور: هو كلّ ما يحيط بشيء، ويكون مانعاً من العبور الطبيعي دخولاً وخروجاً، سواء أكان بناء أم غير بناء، ويجمع «سور» على «أسوار» كأسوار المدن، وأسوار القصور، وأسوار الحدائق والبساتين، ونحو ذلك.

﴿الْمِحْرَابَ﴾: قالوا: المحراب أرفع مكان في الدار أو المسجد، وهو في البيوت غرفة عالية منعزلة يرتقى إليها. ومحراب المسجد صدره، وأشرف موضع فيه.

وقيل: المحراب الموضع الذي ينفرد فيه الملك، فيتباعد من الناس.  
قال الأزهري: وسُمي المحراب مخرباً، لانفراد الإمام فيه وبُعده عن الناس.

من هذا نستدل على أن محراب داود عليه السلام قد كان بناءً خاصاً لخلوته بربه وعبادته، وكان ضمن ساحة مُحاطة بسور له باب أو أبواب تُقفل وتُحرَس.

رُوي عن ابن عباس<sup>(١)</sup>، أن داود عليه السلام جزأ أزمأنه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعظّمهم ويُنكّيهم.

● ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾: يدل تكرير «إِذ» الظرفية الزمانية، في العبارتين: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ على أن مخرباً يقع في بناء حوله ساحة فارغة، وهذه الساحة مُحاطة بسور، وأن هؤلاء الملائكة الذين جاءوا على أشكالٍ وضور بشر، تسوّروا أولاً السور، واجتازوه إلى الساحة، وأنهم مشوا المسافة حتى بلغوا مكان محرابه، ففتحوا الباب الذي لا حراس عليه، ولا قفل له ودخلوا عليه.

فكلمة «إِذ» الأولى دلت على وقت التسور، وكلمة «إِذ» الثانية دلت على وقت دخولهم المحراب، وبهذا الفهم نتفادى التأويلات التي لا داعي لها.

● ﴿فَفَرَعَ مِنْهُمْ﴾: أي: حصل له فزع تلقائي من مباغتتهم له، بدخولهم عليه وهو في خلوته، واستغراقه في عبادته ومناجاته لربه، وهذا أمر طبيعي يحصل لكل الناس مهما كانوا شجعاناً، ولو كانوا أنبياء ومُرسلين، فلا يتنافى هذا الفزع من كمالات النبوة.

(١) كما جاء في البحر المحيط وغيره.

وَالظُّنُونُ الْجَالِبَةُ لِهَذَا الْفَرْعِ فِي مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُحَرَابِهِ كَثِيرَةً.

الفرع: الخوف والدُّعْرُ.

● ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: أي: لا داعي للخوف، فَإِنَّا لَمْ نَدْخُلْ عَلَيْكَ بِشَرٍّ أَوْ ضَرًّا أَوْ أَذًى.

● ﴿حَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾: أي: أمرنا أو شأنا أننا خصمان، بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ.

البغي: تجاوز حدَّ الحقِّ، والاعتداء، والظُّلم، يقال لغة: بَغَى عَلَيْهِ يَبْغِي بَغْيًا، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ النَّاظِقُ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنَ الْخُصْمَيْنِ هُوَ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ الظُّلْمَ وَقَعَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَبْهَمَ فَقَالَ: ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ لِيَتْرَكَ لِدَاوُدَ حُرِّيَّةَ إِصْدَارِ الْحُكْمِ الَّذِي يَرَاهُ فِي قَضَائِهِ بَيْنَهُمَا.

● ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: طلبوا منه أمرين:

الأول: أَنْ يَحْكُمَ بِالْحَقِّ، أي: بما يَرَاهُ حَقًّا، وهذا إيجابي بجانب الحق.

الثاني: أَنْ لَا يُشْطِطَ، أي: أَنْ لَا يَجُوزَ وَلَا يَظْلِمَ، وهذا سَلْبِيٌّ لتحذيره من الظلم والجور.

الشُّطُطُ: مجاوزة القَدْر والحدَّ في كُلِّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ وَحَدٌّ.

والشُّطُطُ: الظلم والجور في الحكم.

يقال لغة: «أَشْطَ» فِي حُكْمِهِ أَوْ فِي قَضَائِهِ، وَيُقَالُ أَيْضًا: «شَطَّ» أَي: جَارَ وَخَرَجَ عَنْ وَاجِبِ الْعَدْلِ.

ويقال: «شَطَّ» وَ «أَشْطَ» فِي سِلْعَتِهِ، إِذَا جَاوَزَ الْقَدْرَ وَتَبَاعَدَ عَنِ الْحَقِّ.

ولكن ما فائدة مطالبتهم له بأن يَحْكَمَ بالحق، وبأن لا يَجُورَ في حكمه، ومثل داود عليه السلام لا يَنْتَظِرُ منه أن يَحْكَمَ بالباطل، ولا أن يَجُورَ؟.

أما كان يكفي الاقتصار على أحد الأمرين، لأنه إذا حَكَمَ بالحق لم يكن جائراً؟؟.

**أقول:** لما كان المتقاضيان عنده مَلَكَيْنِ في حقيقة أمرهما، وقَدْ جاءَ لِمَوْعِظَتِهِ، وتنبهَ على ما كان منه في مشابهة قضيتهما، ولما كان من معاني الشطط تجاوزُ الْقَدْرِ الذي يليق بمثله، إلى ما لا يليق بمثله، ولو لَمْ يكن فيه مجاوزة لحدود الحق، كان من الحكمة أن يُقَدِّمَ له في الكلام ما يتضمَّنُ دلالات رَمِيزَةً على أنَّ ما كان منه قد كان من قبيل الشطط في التصرف، باستغلال سلطته في الملك، ولو لَمْ يجاوز فيه حُدُودَ الحق فيما يظهر، فمن الحق ما هو شَطَطٌ لا يليقُ بِنَبِيِّ رَسُول، مسؤول عن المحافظة على مرتبة المحسنين.

● ﴿وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾: أي: وَبَعْدَ أَنْ تَنطِقَ بِالْحُكْمِ الَّذِي تَرَاهُ في قضيتنا، وَجِّهْ لَنَا الْإِرْشَادَ وَالتُّضْحِ الْمُنَاسِبَ الَّذِي يَهْدِينَا إِلَى التَّزَامِ سِوَاءِ الصِّرَاطِ، هِدَايَةً دَلَالَةً وَإِرْشَادٍ وَتَرْغِيبٍ فِي الْخَيْرِ، وَتَرْهيبٍ مِنَ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ. سواء الصراط: هو الصراط المستوي المستقيم الذي لا التواء فيه، ولا تعرجات ولا تشعبات.

والمراد صراط السلوك في الحياة، وأضل الصراط الطريق الواسع الواضح، ونُقِلَ في الاصطلاح الديني إلى ما ينبغي أن يَعْمَلَهُ الإنسان في حياته من سلوك نفسي وفكري وجسدي ظاهر.

وهذا الطلب التوجيهي يرمزُ ضمناً إلى أنَّ الخصمين ومن معهما هم رُسُلُ من الملائكة، أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَيْهِ لِتَذْكِيرِهِ، وموعظته، وتعليمه أصول



القضاء، وإشعاره بخطيئته التي كانت منه، لذلك كان في كُلِّ قولٍ وعَمَلٍ منهم دلالة رمزيّة لما جاءوا من أجله.

ويظهر أن داود عليه السلام لما هدأت نفسه، أجلس الخصمين ومن معهما في مجلس قضاء، ليَقْضِي بينهما، وسألَهُما عن خصومتِهما.

ونلاحظ من حِلْمِهِ وَسَعَةِ صدرِهِ وكمالِ عقلِهِ أَنَّهُ لم يُعَاتِبِ القوم على الدُخُولِ عليه بغير استئذانٍ في وقت خلوته، ولم يسألَهُمْ كيف دخلوا عليه مع أَنَّ الأبواب الخارجيّة مغلقة، والحراس يراقبون ولا يمكنون أحداً من الدُخُولِ عليه بغير إذنٍ منه.

● ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (٢٣):

أي: قال المدعي مِنَ الْخِصْمَيْنِ الَّذِي يَشْكُو خَصْمَهُ: إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ.

لَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ خَصْمَهُ أَخٌ لَهُ، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ ويريد بذلك أَنَّهُ أَخُوهُ فِي الدِّينِ عَلَى مَا يَظْهَرُ، أي: ليس هو من الكفار الأعداء، ولستُ أنا من الكفار الأعداء المقاتلين حتّى يَسْتَبِيحَ حُقُوقِي.

وأشار إليه باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ لِيَبَيِّنَ أَنَّهُ يَدَّعِي عليه حضورياً، وَأَنَّهُ هو عِيْنُهُ الْمَدَّعَى عليه، وليس وكيلاً ولا نائباً عنه.

﴿لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: قرأ حَفْصٌ ﴿وَلِي﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

النَّجْعَةُ: هي في اللّغة الأثني من الضَّأْنِ والطَّبَاءِ وَالشَّاءِ الْجَبَلِيِّ، والبقرة الوحشي، والجمع نِجَاجٌ، ونعجات.

والعربُ تُكْنِي بالنَّجْعَةِ وَالشَّاةِ عن المرأة.

روى ابن جرير الطبري عن السدي أن داود عليه السلام كان له تسع وتسعون امرأة، فإن صح هذا الخبر فإننا نلمح أن الملك المتمثل بصورة المدعي على أخيه قد استخدم العدد المطابق لعدد نساء داود عليه السلام، أما هو فليس له إلا نعجة واحدة، كما أن «أوريا الحثي» ليس له إلا زوجة واحدة. ونلاحظ أيضاً أنه استخدم لفظة تدل على الأثني من الضأن أو الظباء أو نحوهما، وتدل بالتوسّع على المرأة، ليتمّ التتابع الرمزي في عرض القضية.

﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾: أي: فقال لي أخي هذا: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾: أي: اجعلها تحت كفالتي، ضمن حظيرة نعاجي، وتنازل أنت عنها.

ولم يأت في التعبير ملكيها، ولا هبني إياها، ولا بغني إياها، ليدلّ التعبير على المعنيين: المَعْرُوضِ في الظاهر، والمرموز له في الباطن.

فالمعروض في الظاهر أن صاحب النعاج التسع وتسعين، قدّم طلبه نعجة أخيه مقرّوناً بذريعة تقبل، إذ قال لأخيه: إنك صاحب نعجة واحدة، وليس لديك استعدادات لرعايتها وحمايتها والقيام بما تحتاج إليه، أما أنا فعندي كل الوسائل لذلك، وأنا أعوضك بما يجعلك في غنى عنها، هذه ذريعة يمكن أن تقبل.

والمرموز إليه في الباطن أن داود الذي لديه تسع وتسعون امرأة، واستحسن أن يضمّ إليهن زوجة «أوريا الحثي» بوسيلة ما، وقد تكون هذه الوسيلة أن يطلب منه أن يطلقها برضاه دون إكراه، فإذا صارت خلية من زوج، وجاز لداود أن يخطبها ويتزوجها، ضمّها إلى زوجاته، وتُشير عبارة: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ إلى أنها إذا صارت زوجة له كانت في كفالته، لا في ملكه، فإن الزوجات لا تملك.

وربما كانت ذريعته في الظاهر أنه قال لزوجها «أوريا الحثي» أنت

رَجُلٌ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الْأَبْطَالِ، وَأَنْتَ فِي مُعْظَمِ أَوْقَاتِكَ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِي مَعَارِكِ الْقِتَالِ، وَزَوْجُكَ فِي بَيْتِكَ وَحِيدَةٌ لَا حَامِيَ لَهَا وَلَا حَارِسَ، وَلَيْسَ عِنْدَهَا مَنْ يَكْفُلُهَا، فَمَنْ الْأَحْسَنُ لَكَ وَلَهَا أَنْ تَكُونَ ضِمْنَ نِسَائِي، فِي كِفَالَتِي وَتَحْتَ حِمَايَتِي، وَمَتَى عَزِمْتَ عَلَى الْإِسْتِقْرَارِ عَوْضُكَ بِمَنْ تُحِبُّ مِنَ النِّسَاءِ.

فدلّت هذه العبارة على المغنيين: المعنى الظاهر، والمعنى المرموز إليه، بطريقة بارعة بديعة جداً، فكأنّها سهّم ذو فرعين يصيبان هدفين برمية واحدة.

﴿وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ﴾: أي: وغلبني وقهرني في مخاطبته ومحادثته لي.

يقال لغة: عَزَّهُ يَعْزُهُ عَزّاً، إِذَا فَهَرَهُ وَعَلَبَهُ.

وهنا نساءل: كيف تكون الغلبة والقهر في الخطاب، مع أنّ الحق في القضية المعروضة ظاهرٌ لصاحب النعجة الواحدة، وليس فيها شبهات يتمكّن من خلالها الطامع بالنعجة المُكَمَّلة المئة عنده، أن يُزَيّن بحسن بيانه وعرضه حججاً يغلب بها أخاه، الذي هو خضّمه في هذه القضية؟؟.

وبالتأمل التدبّري ينكشف لنا أنّ بغض الكلام يكون ظاهره عرضاً، ولكنّه في باطنه مُلْزِمٌ، لأنّ مَنْ يُوَجَّه له لا يَسْتَطِيعُ مخالفته.

كان يطلب الأب على سبيل العرض من ابنه أمراً أو شيئاً، أو يطلب الأخ الأكبر ذو الولاية من أخيه الأصغر الذي ما زال تحت ولايته أمراً أو شيئاً، فالابن البار، والأخ الأصغر البار، لا يملكان إلا الطاعة، وهما كارهان مغلوبان، على الرغْم من أن الطلب قد جاء على سبيل العرض مع التخيير بحسب الظاهر.

وأشدّ من ذلك أن يطلب ذو السلطان أو الملك من بغض محبيه

ومعظميه من رعيته أمراً أو شيئاً لنفسه، فإنه لا يملك إلا الموافقة السريعة والطاعة، ولو كان طلبه على سبيل العرض لا الأمر الإلزامي، وهو مع موافقته الظاهرة قد يكون كارهاً غير راضٍ.

فإذا سئل: كيف وافقت وأنت كاره؟ قال: وهل أملك أن لا أوافق، أنا مضطراً مغلوب، فلو أنني رفضت لأغضبت سلطاني أو ملكي، فتعرضت بسبب غضبه لأمرٍ هي أشد علي مما أتخلّى عنه لأجله، وأنا في قلبي كاره غير موافق.

فكان من الإبداع في البيان، للدلالة على العرض التخيري في ظاهره، الملزم في باطنه، عبارة ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ﴾ ولكن هذه المعاني التي سبق بيانها لا تستخرج إلا بالتأمل الدقيق.

ولا بُدَّ أن يكون داود عليه السلام قد تثبت من أن صاحب النعجة الواحدة هو صاحب الحق، عن طريق البيّنة، أو عن طريق اعتراف المدعى عليه من صدق الادعاء، أو اجتماعاً معاً، إذ لا يتصور منه أن يتسرع في الحكم قبل التثبت، وقد وصفه الله عز وجل في صدر الحديث عنه، بأنه آتاه الحكمة وفضل الخطاب، ومعلوم أنه ليس من الحكمة إصدار الحكم بناء على السماع من أحد الخصمين، دون التثبت من صدق الادعاء، فمثل هذا لا يفعله أقل القضاة حكمة، فضلاً عن نبي رسول حكيم، له مجلس يقضي فيه بين الناس.

● ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنْ يَعْلَمَ﴾ :

في هذه العبارة مثال من أمثلة فصل الخطاب الذي آتاه الله عز وجل داود عليه السلام، ففيها تأكيد أن طالب النعجة من أخيه مستنداً إلى سلطته في خطاب العرض، قد ظلمه بهذا الطلب الملزم في باطن الأمر. وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾.

﴿سُؤَالٌ نَّجِّيكَ﴾: أي: بِسُؤَالِهِ نَجَّجَتَكَ، فَالسُّؤَالُ مَصْدَرٌ فِعْلٌ سَأَلَ، بِمَعْنَى طَلَبَ، يُقَالُ لُغَةً: سَأَلَ فُلَانًا الشَّيْءَ، أَي: اسْتَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَفْظُ «سُؤَالٌ» فِي الْعِبَارَةِ مِضَافٌ إِلَى مَفْعُولِهِ، فَالْمَصْدَرُ قَدْ يُضَافُ إِلَى فَاعِلِهِ، وَقَدْ يُضَافُ إِلَى مَفْعُولِهِ، وَهَذَا مِنْ إِضَافَتِهِ إِلَى مَفْعُولِهِ.

أَمَّا تَعْدِيَةُ السُّؤَالِ بِحَرْفِ الْجَزْرِ «إِلَى» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُؤَالٌ نَّجِّيكَ إِلَّا نِعَاجِيَّةٌ﴾ فَهُوَ عَلَى تَضْمِينٍ مَعْنَى «يُضْمُّ» أَوْ نَحْوِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِهِ نَجَّجَتَكَ ضَامَةً لَهَا إِلَى نِعَاجِيَّةٍ.

● ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ...﴾ (٢٤).

استجاب داودُ عليه السلام في هذا القول لطلب المدعي من الخصمَين، في قوله له: ﴿وَأَعِدْنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ فَبَعْدَ أَنْ نَطَقَ دَاوُدُ بِالْحُكْمِ أَبَانَ أَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ.

الْخُلَطَاءُ: جَمْعُ «خَلِيطٍ» وَيُطْلَقُ الْخَلِيطُ عَلَى الشَّرِيكِ الَّذِي يَخْلُطُ مَالَهُ بِمَالِ شَرِيكِهِ. وَيُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ وَاحِدٌ، وَهَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الْأَنْسَبُ فِيمَا أَرَى لِمُضْمُونِ النَّصِّ مِنَ الْمَعْنَى الْأُولَى.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: أي: لَيَتَغَدَّى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَظْلِمُهُ فِي حَقُّوقِهِ، فَيَتَعَرَّضُ لِعِقَابِ اللَّهِ الْعَادِلِ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: أي: وَقَلِيلٌ جَدًّا هُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ عَلَى إِخْوَانِهِمْ.

لفظ ﴿مَّا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا﴾ نَكِيرَةٌ إِنْهَائِيَّةٌ يُؤْتَى بِهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّكْثِيرِ، أَوْ التَّعْظِيمِ، أَوْ التَّعَجُّبِ، أَوْ تَأْكِيدِ مَا وُصِفَ بِهَا.

والمناسبُ هُنَا إرادةُ تأكيدِ التعبيرِ عن القلّةِ الشديدةِ، حتّى كأنّهم نادِرون.

● ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَتَهُ فَأَسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢٤) :

بعد أن نطقَ داود عليه السلام بالحكم الحقّ في القضية التي عرضها عليه الخصمان، وقَدّمَ التّضحّحَ المناسبَ للقضية التي قضى فيها، أخذ يتفكّر في هذا الحدث الذي جرى له.

وطوى النّصّ أن الخصمَينِ قَبِلَا حُكْمَهُ وَنُضَحَ هَذِيهِ، وانصرفوا من حيث دخلوا، فلمّا عاد داود إلى خَلَوْتِهِ أخذ يتفكّر في هذا الأمر الذي حدث له وهو في عُزَلَتِهِ وَخَلَوْتِهِ، وَأَخَذَ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَيَسْتَرْجِعُ ما كان من عَمَلِهِ، ويقولُ في نَفْسِهِ: كَيْفَ دخلَ عليّ هؤلاء في وقتٍ لا يَدْخُلُ عليّ فيه أحد، وَالْحُرَّاسُ لا يَمَكُونُ أحداً من الدّخولِ عليّ فيه؟! وكيف خرجوا من عندي دون أن يُخَدِّثُوا حَدَثًا يَدُلُّ عليهم؟!

هُنَا أَخَذَتِ الظُّنُونُ تَتَوَارَدُ عَلَى تَفَكِيرِهِ بعد هذه المراجعة، فَظَنَّ ظَنًّا قَوِيًّا رَاجِحًا، يُفِيدُ عِلْمًا ظَنِّيًّا، أَنَّ الَّذِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ هم ملائكة جاءوا على صُورٍ بَشَرِيَّةٍ، وَأَنَّ الله عز وجل لَمْ يَرْسِلْهُمْ إِلَّا لِكَشْفِ ما امْتَحَنَهُ بِهِ في قَضِيَّتِهِ الخاصّةِ، وَلِكَشْفِ ما امْتَحَنَهُ بِهِ من قَضَاءٍ في قَضِيَّةٍ مُنَاطِرَةٍ لقَضِيَّتِهِ الخاصّةِ، الّتي ما كان يليق به وهو نبيّ رَسُولٌ من أهل مرتبة المحسنين أن تَصُدُرَ عَنْهُ.

لقد نجح في الامتحان الثاني، فحكم بالحقّ، ولم يتّبع الهوى، ولم يقسّ صاحبَ النّعاج التّسع والتّسعين على نَفْسِهِ فيما بَدَرَ منه من خطيئة لا تليق بمثله، فلم يُخَفِّفْ عنه في إصدار الحكم رغبةً في التخفيف عن نَفْسِهِ.

وبعد أن وُضِّحَ له الأمرُ، إِذْ قَابَلَ النظرَ بالنَّظِيرِ، ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كما ينبغي أَنْ يَكُونَ فِي الامْتِحَانِ الْأَوَّلِ، وَأَدْرَكَ أَنَّ الْأَمْرَ عِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ : أَي: سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ ﴿وَأَنَابَ﴾ : أَي: وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ، بَعْدَ أَنْ ابْتَعَدَ قَلِيلًا عَنْ مَقَامِ الْقُرْبِ، بِفِعْلٍ مَا لَا يَلِيقُ بِمِثْلِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ الْأَبْرَارِ، إِذْ هُوَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ أَهْلُ الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا.

﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ﴾ : أَي: غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمًا يَقِينًا، وَغَلَبَهُ الظَّنُّ كَافِيَةً لِأَنْ تُشْعِرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ امْتَحَنَهُ. ﴿أَنَّمَا فَنَنَّهُ﴾ : «أَنَّمَا» أَدَاةُ حَصَرٍ، أَضْلُهَا «أَنَّ» الَّتِي تَنْصِبُ الْأِسْمَ وَتَرْفَعُ الْخَبَرَ، وَ«مَا» الْكَافَةُ لِحَرْفِ «أَنَّ» عَنْ عَمَلِ النِّصْبِ وَالرَّفْعِ، وَمَعْنَاهَا الْحَصَرُ.

«فَتَنَّا» : أَي: امْتَحَنَاهُ وَاخْتَبَرْنَاهُ وَابْتَلَيْنَاهُ. إِنَّ مَادَّةَ: «فَتَنَ» وَمُشْتَقَاتَهَا تَدُلُّ فِي الْغَالِبِ عَلَى مَعْنَى الْامْتِحَانِ وَالْابْتِلَاءِ، وَقَدْ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الْإِحْرَاقِ وَالتَّعْذِيبِ بِالنَّارِ وَعَلَى مَعْنَى الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ لِلإِقْقَاعِ فِي الْإِثْمِ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي.

لَقَدْ امْتُحِنَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ امْتِحَانَيْنِ، امْتِحَانًا فِي سُلُوكِهِ الشَّخْصِيِّ، فَصَدَّرَ عَنْهُ مَا لَا يَلِيقُ بِأَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ. وَامْتِحَانًا فِي الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ، فَحَكَّمَ وَلَمْ يَتَّبِعِ الْهَوَى، وَكَأَنَّهُ قَدْ حَكَّمَ عَلَى نَفْسِهِ، فَكَانَ فِي هَذَا الْامْتِحَانِ مِنْ ذَوِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ دَرَجَاتِ الْإِحْسَانِ.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ : أَي: فَعَقِبَ وَضُوحِ الظَّنِّ الرَّاجِحِ لَدَيْهِ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطِيئَتَهُ.

الاستغفار: طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، أَي: السَّتْرِ، يُقَالُ لَغَةً: غَفَرَ الشَّيْءَ يَغْفِرُهُ غُفْرًا وَغُفْرَانًا وَمَغْفِرَةً، إِذَا سَتَرَهُ، وَغُفْرَانُ الْخَطِيئَةِ يَقْتَضِي عَدَمَ الْمَوَازَاةِ عَلَيْهَا.

﴿وَحَرَّ رَاكِعًا﴾: خَرَّ: أي: أَسْرَعَ فِي الْهُوِيِّ لِلرُّكُوعِ دُونَ بُطْءٍ.  
يقال لغة: خَرَّ الشَّيْءُ يَخِرُّ وَيَخْرُ خَرًّا وَخُرُورًا إِذَا هَوَى مِنْ غُلُوٍّ إِلَى  
الْجَهَةِ السُّفْلَى.

رَاكِعًا: حَالٌ مَقْدَرَةٌ، أي: لَيْسَتْ قَرَرًا رَاكِعًا. الرُّكُوع: الانحناء، وَأَقْصَى  
الرُّكُوعِ أَنْ تَمَسَّ الرُّكْبَتَانِ الْأَرْضَ.

﴿وَأَنَابَ﴾: معنى «أَنَابَ» فِي اللَّغَةِ «رَجَعَ» وَالْمُرَادُ الرَّجُوعُ بِالتَّوْبَةِ،  
وَأَسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهُ «مُنِيبٌ» وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ  
وَالطَّاعَةِ.

وَأَرَى أَنَّ فِعْلَ «وَأَنَابَ» يُعْطِي دَلَالَتَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
بَدِيلٌ وَجُودِ حَرْفِ الْعَطْفِ الدَّالِّ عَلَى فِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ مِثْلَ:

الأولى: أَنَّ دَاوُدَ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ بِصِدْقِ التَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَالْحَرْصِ عَلَى  
أَنْ يَحَافِظَ عَلَى شُرُوطِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ وَذَلِكَ مِنْ عُمُقِ قَلْبِهِ.

الثانية: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَجَدَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ حَظَّهُ مِنَ الرُّكُوعِ، فَيَكُونُ  
الْمَعْنَى: وَأَنَابَ سَاجِدًا، لِأَنَّ السُّجُودَ أَدْلُ عَلَى كَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذَّلِّ لِلَّهِ،  
وَقَدْ كَانَ السُّجُودَ مَعْرُوفًا فِي عِبَادَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ مُورِثٌ فِيهِمْ مِنْذُ  
عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يَطْهَرَ بَيْتَهُ فِي مَكَّةَ لِلطَّائِفِينَ  
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَصَحَّ عَنْ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ  
الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.

رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

قَالَ:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ».

أي: فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ وَأَنْتُمْ سَاجِدُونَ لِزَبَّكُمْ فِي صَلَوَاتِكُمْ، وَبِهَذَا تَتَحَقَّقُ  
الْإِنَابَةُ لِلَّهِ فِي حَالَةِ الْجَسَدِ، وَفِي حَالَةِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ.



فالعبرة على تقدير: فاستغفر ربّه وخَرَّ راکعاً وأَنَابَ ساجداً، فحصل في النَّصِّ الحذفُ اكتفاءً بدلالة ما قبله.

● ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ (٢٥):

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾: أي: ذلك الذي كان منه، جاءت الإشارة إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لاستبعاد شبهة أنه حكم استناداً لاستماعه من أحد الخصمين دون الآخر، فالمشارُ إليه أمرٌ آخرٌ بعيد عن ظروف قضائه بين الخصمين.

● ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾:

الزُّلْفَى: اسمٌ يأتي بمعنى القُرْبَى والدَّرَجَةِ والمنزلة، ومادة الكلمة تدلُّ على القُرْب والتقريب. يقال لغة: أزلَفَ الشيءَ وزَلَفَهُ وزَلْفَهُ، إذا قَرَّبَهُ. ويقال: زَلَفَ إليه وازْدَلَفَ، أي: دنا إليه وقرب منه. والزُّلْفَةُ: الطَّائِفَةُ من أوَّل اللَّيْلِ لِقُرْبِهَا.

﴿وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾: وَحُسْنٌ مَرْجِعٌ، وَحُسْنُ الْمَرْجِعِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وفيما قبل دخولها بعد البعث.

حُسْنٌ: مُضَدَّرٌ «حُسْنٌ يَخْسُنُ» وهو ضِدُّ الْقُبْحِ. وإضافة «حُسْنٍ» إلى «مَّآبٍ» من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: وَحُسْنٌ مَّآبٌ دَاوُدُ يَوْمَ الدِّينِ. أو من إضافة الصِّفَةِ إلى الموصوف، على تأويل المضدَّر بمشتق والوصف به، والتقدير: وَمَّآبٌ حُسْنٌ، أي: هو كُلُّهُ حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إِنَّ» والجملة الاسمية - واللام المرحقة -.

● قول الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٦).

خَلِيفَةً: على وزن «فَعِيلَةٌ» إذا كان بمعنى «فاعل» فَهُوَ مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ في شيءٍ من الأشياء، أَوْ في أمرٍ من الأمور. كالوارث يَخْلُفُ مَنْ وَرِثَهُ في أمواله بَعْدَ موته، وكالسُّلْطَانُ يَخْلُفُ السُّلْطَانُ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ على كُرْسِيِّ الْحُكْمِ، والأجيالُ الناشئة تَخْلُفُ الأجيالَ السابقة لها، في الانتفاع بالأوطان، وامتلاك الأشياء التي كانت لها، وَإِذَا كَانَ لَفْظُ «خَلِيفَةً» بمعنى «مَفْعُولٍ» فَكُلُّ مُنْتَفَعٍ بِشَيْءٍ أَوْ مَالِكٍ لَهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، سَيَكُونُ مَخْلُوفًا مِنْ قِبَلِ ذِي انْتِفَاعٍ جَدِيدٍ، أَوْ ذِي مِلْكٍ جَدِيدٍ، إِذَا مَاتَ السَّابِقُ، أَوْ انْتَهَتْ مُدَّةُ انْتِفَاعِهِ بِهِ، أَوْ انْتَهَتْ مِلْكِيَّتُهُ لَهُ.

وَالدَّوْلَةُ الْمُسْلِمَةُ خَلَفَتْ دَوْلَ الْفَرَسِ وَالرُّومَانِ وَالْأَحْبَاشِ وَغَيْرِهَا مِنْ دَوْلِ الْأَرْضِ، حِينَمَا مَكَنَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِسْقَاطِ هَذِهِ الدُّوَلِ وَاسْتِخْلَافِ الْمُسْلِمِينَ، إِذْ جَعَلَ فِي أَيْدِيهِمُ الْحُكْمَ وَالسُّلْطَانَ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلِكًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ، خَلَفًا لَطَالُوتَ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ جَلًّا جَلَّالُهُ «طَالُوتَ» خَلِيفَةً بَعْدَ مَقْتَلِ الْمَلِكِ الْوُثْنِيِّ الْجَبَّارِ، «جَالُوتَ» عَلَى يَدِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِنَّهُ بَعْدَ اسْتِغْفَارِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَرُكُوعِهِ، وَإِنَابَتِهِ لِرَبِّهِ سَاجِدًا تَائِبًا مِنْ عَارِضَةِ الْخَطِيئَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُ، مِمَّا لَا يَلِيقُ بِأَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَبَعْدَ نَجَاحِهِ فِي الْحَكْمِ بِالْحَقِّ فِي قَضِيَّةِ الْخَضَمِينَ، الَّذِي كَانَ بِمِثَابَةِ الْحُكْمِ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْقَضِيَّةِ الْمُنَازَعَةِ، اسْتَحَقَّ أَنْ يَجْعَلَهُ اللَّهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ لِمَنْ سَلَفُوا مِنْ قَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، ذَوِي السُّلْطَانِ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْمُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَعُونَةِ وَالتَّمْكِينِ، وَالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ.

فَكَانَ هَذَا اسْتِخْلَافًا مُعَانًا، فَوْقَ الْمَلِكِ الَّذِي سَبَقَ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، فَكَانَ فِيهِ خَلِيفَةٌ لَطَالُوتَ.

فَوَجَّهَ اللَّهُ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ وَظِيفَةً الاستخلاف المؤيَّد المعان، ضِمْنَ سَلْسِلَةِ ذَوِي السُّلْطَانِ المستخلفين من القادة والملوك المؤمنين.

وَلَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ خَلِيفَةً عَنْهُ، كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُ الَّذِينَ خَدَعَتْهُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ، الْمَتَسَلِّلَةُ إِلَى فَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَسْلُلًا خَبِيثًا، مُنَاقِضًا لِأَسْسِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْمَهِيْمُنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ، لَهُ الْخَلْقُ، وَلَهُ الْأَمْرُ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَسْتَخْلِفْ عَنْهُ أَحَدًا.

وَإِذْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَاوُدَ خَلِيفَةً، أَي: حَاكِمًا فِي الْأَرْضِ ذَا سُلْطَانٍ مُعَانٍ مُؤَيَّدٍ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ مُنْصُورٍ بِنَصْرِهِ، فَإِنَّ عَلَيْهِ فِي هَذَا السُّلْطَانِ وَاجِبًا لَا خَيْرَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ فِيهِ، وَهُوَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَأَنْ لَا يَتَّبِعَ الْهَوَى، فَإِذَا اتَّبَعَ الْهَوَى أَضَلَّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

● ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾: أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَالْحُكْمُ بِالْحَقِّ مِنْ ظَوَاهِرِهِ الْإِلْتِمَامُ بِالْعَدْلِ، وَالْعَدْلُ هُوَ إِعْطَاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَالْحُكْمُ بِالْحَقِّ هُوَ سَبِيلُ اللَّهِ فِي الْحُكْمِ.

يُقَالُ لُغَةً: حَكَمَ بِالْأَمْرِ يَحْكُمُ حُكْمًا، أَي: قَضَى بِهِ، فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَالْمَعْنَى: قَضَى الْحَقَّ، أَي: أَمْضَاهُ بِنُطْقِهِ بِالْحُكْمِ الَّذِي هُوَ الْحَقُّ.

● ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

الْهَوَى: مَيْلُ النَّفْسِ إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي وَلَوْ كَانَ فِيهِ شَرٌّ وَضَرٌّ وَإِثْمٌ وَعِضْيَانٌ، وَفِي الْهَوَى مَعْنَى السَّقُوطِ وَالْهُبُوطِ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفُولٍ غَالِبًا، وَقَدْ يَرْتَقِي الْإِنْسَانُ فَيَكُونُ هَوَاهُ تَبَعًا لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي هذه العبارة بيان أنَّ اتِّباعَ الْهَوَى يُبْعِدُ الْحَاكِمَ عَنِ الْحُكْمِ بِالْحَقِّ، فَالْهَوَى فِي النَفْسِ لَهُ مُيُولَاتٌ وَانْحِرَافَاتٌ لَا تُخَصِّرُ، وَاتِّبَاعُهُ يُخْرِجُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَى سُبُلٍ وَمَتَعَرِّجَاتٍ وَمَتَاهَاتٍ وَمَهَالِكٍ، وَضَلَالَاتٍ، تَتَلَاَعَبُ فِيهَا الشَّيَاطِينُ وَتَقُودُ سَالِكِيهَا أَوْ تَسُوقُهُمْ إِلَى عَوَاقِبِ وَخِيَمَةٍ، وَعَقُوبَاتٍ مِنْ اللَّهِ جَسِيمَةٍ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى يُوَصِّلُ إِلَى اعْتِنَاقِ الْبَاطِلِ، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِالْأَفْكَارِ وَالْمَفْهُومَاتِ الْفَاسِدَاتِ، وَيُوصِلُ إِلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ الْعَرِيزِ فِي الْأَرْضِ.

وَحِينَمَا يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ الْهَوَى تَغْشَى بِصِيرَتِهِ، وَتُظْلِمُ نَفْسُهُ، وَتَكُونُ تَطْلُعَاتُهُ إِلَى زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنْهَا شُغْلَهُ الشَّاعِلَ، فَيَنْسَى اللَّهَ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ وَيَوْمَ الْحِسَابِ، فَيَسْقُطُ فِي الْخَطَايَا وَالْمُوبِقَاتِ، وَيُرْتَكِبُ كِبَائِرَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، وَيَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ عِنْدَ رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ جَزَاءً وَفَاقًا.

● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ السُّورُ﴾ (٦٦) :  
 ﴿يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : يُقَالُ لُغَةً : ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، إِذَا جَارَ وَخَرَجَ عَنْ حُدُودِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشِّمَالِ، وَسَبِيلُ اللَّهِ صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ<sup>(١)</sup>، وَهُوَ تَعْلِيمَاتُ دِينِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ : أَي : لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، بِسَبَبِ جَوْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَسُقُوطِهِمْ فِي الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ وَارْتِكَابِ كِبَائِرِ الْإِثْمِ، أَمَّا السَّبَبُ الْأَوَّلُ فَقَدْ جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿يَوْمَ تُنْفَخُ السُّورُ﴾ : أَضْلُ النَّسْيَانِ فِي اللُّغَةِ التَّرْكَ، وَتَرَكَ الشَّيْءَ وَإِهْمَالَهُ يَضْرِفُهُ عَنِ الذَّاكِرَةِ، فَلَا يَخْطُرُ فِي الْبَالِ.

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق سورة الفاتحة حول تدبر آيات الصراط ونحوه في القرآن.

والمراد بنسيان يوم الحساب تَزْكُ الْعَمَلُ بما يُحَقِّقُ النجاة من العذاب، والظَّفَرُ بالنعيم المقيم في جنات النعيم يوم الدين، بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، فالعذاب الشديد لهم سَبَبُهُ الأولُ نسيان يوم الحساب.

جَاءَتْ تَسْمِيَةُ يَوْمِ الدِّينِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، لِأَنَّ الْحِسَابَ بَعْضُ مَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَجَاءَ التَّذْكِيرُ هُنَا بِالْحِسَابِ لِأَنَّهُ مُقَدِّمَةٌ فَضْلِ الْقَضَاءِ، الَّذِي يَكُونُ بِمَقْتَضَاهُ تَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، وَبِتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ يَكُونُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ لِلَّذِينَ تَرَكُوا فِي الدُّنْيَا الْعَمَلَ لِيَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

وَيُلاحَظُ فِي هَذَا النَّصِّ تَرْتُّبُ حَلَقَاتٍ سِلْسِلَةِ الْأَسْبَابِ بِغَضِهَا عَلَى بَعْضٍ، فَاتِّبَاعُ الْهَوَى يُنْسِي الْعَمَلَ لِلنَّجَاةِ وَالظَّفَرَ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْحِسَابُ. وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقُ الْجَزَاءِ، وَهَذَا يُوْدِّي إِلَى الضَّلَالِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّقُوطِ فِي الْمَعَاصِي وَكِبَائِرِ الذُّنُوبِ، تَنَازُلًا حَتَّى دَرَكَةَ الْكُفْرَ بِاللَّهِ وَجُحُودَ يَوْمِ الدِّينِ، وَهَذَا يُوْدِّي إِلَى اسْتِحْقَاقِ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ بِقَدْرِ تَنَازُلِ الدَّرَكَاتِ، وَيَكُونُ لِكُلِّ مُذْنِبٍ اسْتِحْقَاقٌ مِنَ الْعَذَابِ بِمَا يُلَاقِيهِ الدَّرَكَةُ الَّتِي انْحَدَرَ إِلَيْهَا.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ ضَمْنِيٌّ تَعْرِِيضِيٌّ لِلَّذِينَ كَذَبُوا بِإِنذَارَاتِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنَّهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ هُوَ إِحْدَى الْقَضَايَا الدِّينِيَّةِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ.

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۚ﴾ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۚ﴾ (٢٨).

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتِثْمَارٌ لِبَعْضِ مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْمَعْرُوضَةِ فِي هَذَا الدَّرْسِ الثَّانِي مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، لِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ

على قضية الجزاء يوم الدين، التي جَحَدَهَا وَتَعَجَّبَ مِنْ نَبِّهَا الْمُصِرُّونَ على كُفْرِهِمْ مِنْ كُبْرَاءِ مَكَّةَ، الَّذِينَ جَاءَ بَيَانُ تَعَجُّبِهِمْ فِي الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَوَائِلِهَا:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١﴾﴾.

فمع كَوْنِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ تَوَابِعِ الدَّرْسِ الثَّانِي فَقَدْ جَاءَتْهُمَا مَوْصُولَتَيْنِ بِبَعْضِ مَا جَاءَ فِي الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْهَا، وَهَذَا مِنْ عُنَاوِينِ وَحِدَةٍ مَوْضُوعِ السُّورَةِ الْقِرَائِيَّةِ.

عرض الدليل العقلي الذي جاء في هاتين الآيتين بعبارة مبسطة:

(١) يَبْدَأُ الاستدلالَ مِنْ أَرْضِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَقِفُ عَلَيْهَا الْمُعْنِيُونَ بِالْخُطَابِ، وَهُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ إِيَّانَ التَّنْزِيلِ.

إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِذَنْ فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ مَفْرُوعَةٌ مِنْهَا، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَيْهَا.

(٢) وَبِنَاءٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ خَالِقُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَخَالِقُ مَا فِيهِمَا مِنْ أَشْيَاءٍ وَأَحْيَاءٍ وَنَبَاتَاتٍ، وَخَالِقُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَهَلْ يَجِدُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَخْلُوقًا غَيْرَ مُتَقِنٍ وَغَيْرَ حَكِيمٍ؟.

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ الْقَطْعِيُّ وَلَوْ بَعْدَ تَأَمُّلٍ وَبَحْثٍ وَتَفَكُّيرٍ: لَا نَجِدُ فِي هَذَا الْخَلْقِ الرَّبَّانِيَّ شَيْئًا غَيْرَ مُتَقِنٍ وَغَيْرَ حَكِيمٍ.

إِنَّهُ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَحْكَمَ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِتْقَانُ الْأَشْيَاءِ، وَوَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الْمَلَائِمَ لَهُ بِحِكْمَةٍ تَامَّةٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَا مَصْحُوبَيْنِ بِعِلْمٍ شَامِلٍ.

إِذَنْ فَالْخَالِقُ جَلَّ جَلَالُهُ مُتَقِنٌ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَهَذِهِ نَتِيجَةٌ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يُسَلَّمَ بِهَا، وَيُعْتَقَدَ أَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ مُنْصَفٍ يَنْشُدُ الْحَقَّ، وَلَيْسَ لَهُ هَوًى عَلَى خِلَافِهِ.

(٣) عند هذه المرحلة الإقناعية يحسُن طرح السؤال التالي:

أليس في الناس مؤمنون بالله ويعملون الصالحات التي ترضيه،  
وآخرون كافرون بالله، ويُفسدون في الأرض، أو مؤمنون إلا أنهم يُفسدون  
في الأرض فسقاً وظلماً وعدواناً؟؟.

أليس في الناس مؤمنون بالله ويتقون ما يُسخطه، ويتقون عقابه.  
وآخرون فجّار ينطلقون على أهوائهم وشهواتهم في المعاصي والشرور، دون  
خوف من جزاء وعقاب؟؟.

لا بُد أن يكون الجواب التلقائي دون تأمل وتفكير طويل: بلى، فهذه  
الأقسام من الناس موجودة كلها.

(٤) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحسُن طرح السؤال التالي:

أليس الخالق المتقن الحكيم العليم هو الذي خلق الناس، ومنحهم  
قدرات الفهم والعلم، ومنحهم إراداتهم الحرة المختارة، التي يختارون بها  
أنواع سلوكهم في الحياة من خير أو شر، ونفع أو ضرر، وعدل أو جور،  
وإحسان أو عدوان، وغير ذلك من أضداد، وسخر لهم بقضائه وقدره  
وخلقه مع ذلك، ما في الأرض وما في السماء وما بينهما؟؟

لا بُد أن يكون الجواب العقلي المنطقي: بلى. فالخالق هو الذي  
منحهم كل ذلك، ومكّنهم من سلوك طريق الخير، وطريق الشر، وعرفهم  
بهما، وبيّن لهم حسن سلوك طريق الخير، وقبح سلوك سبل الشر،  
وجعلهم يذكرون أن فاعل الشر ينبغي أن يعاقب، وأن فاعل الخير ينبغي أن  
يوقى العذاب، ويكرم ويثاب.

(٥): وعند هذه المرحلة الإقناعية يحسُن طرح السؤال التالي: هل

يليق بالخالق المتقن الحكيم العليم أن يخلق الناس بهذه الصفات، التي من  
ظواهر اختياراتهم الحرة معها، أن يوجد فيهم مؤمنون وكافرون، ومسلمون

وَمُجْرِمُونَ، وَمُضْلِحُونَ وَمُفْسِدُونَ، وَيَتْرَكُهُمْ سُدًى، دُونَ أَنْ يُثِيبَ مُحْسِنِيهِمْ، وَيُعَاقِبَ مُسِيئِيهِمْ؟؟.

لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ حَتْمًا: هَذَا لَا يَلِيقُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ، فَصِفَاتُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ تَأْبَى ذَلِكَ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ عَقْلًا.

(٦) وَعِنْدَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الْإِقْنَاعِيَةِ يَحْسُنُ طَرَحُ السُّؤَالِ التَّالِي:

أَلَسْنَا نَجِدُ مُفْسِدِينَ مُجْرِمِينَ كَفَّارًا جَبَّارِينَ يَمُوتُونَ قَبْلَ أَنْ يَنَالُوا عِقَابَهُمُ الْعَادِلَ؟

أَلَسْنَا نَجِدُ مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ مُتَّقِينَ وَأَبْرَارًا وَمُحْسِنِينَ يَمُوتُونَ قَبْلَ أَنْ يَنَالُوا ثَوَابَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ؟.

لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ الْحَتْمِي: بَلَى. فَهَذَا أَمْرٌ مَشْهُودٌ وَمَتَكَرِّرٌ دَوَامًا.

(٧) وَعِنْدَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الْإِقْنَاعِيَةِ يَحْسُنُ طَرَحُ السُّؤَالِ التَّالِي:

فَأَيُّنَ إِذَنْ تَطْبِيقُ حُكْمَةَ اللَّهِ فِي فَضْلِهِ وَعَذْلِهِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِمَقْتَضَى بَرَهَانِ الْعَقْلِ، مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ فِي صِفَاتِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ الْعَدْلِ الرَّحِيمِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْإِنْعَامِ؟؟ هُنَا يَتَقَيِّظُ فِكْرُ الْعَاقِلِ الْحَصِيفِ الْمُنْصَفِ الَّذِي يُنْشُدُ الْحَقَّ، وَلَيْسَ لَهُ هَوًى عَلَى خِلَافِهِ، فَيَقُولُ:

لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ قَدْ أَعَدَّ فِي خُطَّتِهِ ظُرُوفَ حَيَاةٍ أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِيُقِيمَ فِيهَا الْجَزَاءَ بِالْعَدْلِ أَوْ الْفَضْلِ عَلَى مَقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَوِاسِعِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ عَذْلِهِ.

(٨) وَهَنَا نَصِلُ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَيَكُونُ الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ الَّذِي تَنْقَلُّ بِنَا



في مراحل، كل مرحلة منها يلزم عنها المرحلة التي تليها، دليلاً برهانياً ملزماً، مُثبتاً ضرورة يوم الدين بالدليل العقلي البرهاني.

ومن أنكر هذا فلا بُدَّ أَنْ يَلْتَزِمَ مقولةً عن الله أخرى تنفي حكمة الله في الخلق، وتثبت أَنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ والأَرْضِ وما بينهما، وخلق الإنسان والجن باطلٌ وعَبَثٌ من العبث.

هذا ما دلَّت عليه الآيتان:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

ينفي الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، باستخدام ضمير المتكلم العظيم، أَنَّ يكون قد خلق السماء والأرض وما بينهما من إنسٍ وجنٍ وملائكة وحيوان ونبات وغير ذلك باطلاً دون قَصْدٍ حكيم، وغاية حكيمة، ويبين أَنَّ ذلك التصوُّر المستبعد إلى ظُلُمَاتِ المستحيلات العقلية ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وهو حتماً ظَنٌّ ضعيف جداً من دَرَكَةِ التوهُّماتِ الباطلات.

**باطلاً:** الباطلُ ضدُّ الحقِّ، والعملُ الباطلُ، هو الذي لا يُؤدِّي إلى غاية حكيمة، ومن العمل الباطل إجراء اختبار يكون فيه ظالم ومظلوم، ومُسْلِمٌ ومُجْرِمٌ، ومُحْسِنٌ ومُسيءٌ، ثُمَّ ينتهي الامتحان دون حساب، وفَضْلٍ قضاء، وتحقيق جزاء، هذا أَمْرٌ لا تُسَسِّغُهُ نفوسُ الأطفال الصغار، فضلاً عن أهل العقل والرشد والرأي السديد. ومن العمل الباطل تضييع الأوقات والطاقات سُدًى بلا فائدة تجنى، كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَاثِها، وكالرجل الأحمق الذي يَهْدِمُ بنياناً لا ليقيم مكانه بُنياناً أفضل منه، إنما يَفْعَلُ ذلك لمَجَرَّدِ العبث.

فهل تقبلُ العقول أن يخلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ويُسَخِّرَ له

ما في الأرض والسماء، فهو يتصرّف بالأشياء ضِمنَ قوانينها وأنظمتها باختياره الحرّ، وهذا التصرف ينجم عنه ظالمٌ ومظلوم، وذو غنى ومُحرّم، ومُسيءٌ ومُحسن، وكافرٌ ومؤمن، وتقيٌّ ومُجرّم، ثُمَّ لا يكون بعد ذلك حسابٌ، ولا فضلٌ قضاء، ولا جزاء!!؟

إنّه تمكين لذوي القوّة من أن يكون الباطل هو العزيز الفائق، وأن يكون الحقّ هو الدليل الزاهق، وهذا عند كلّ العقول السليمة عملٌ باطل، وكلّ ما يُؤدّي إلى باطلٍ فهو باطل.

إذا كانت الغاية من الخلق هذا الأمرُ الباطل، فإنّ الخلق نفسه عمل باطل، يُفضي إلى تمكين الباطل من إزهاق الحقّ.

فمن زعم أنه ليس بعد هذه الحياة الدّنيا حساب، ولا فضل قضاء، ولا تنفيذ جزاء، لزمه أن يدّعي أنّ الله جلّ قُدْرته وعظمت حكمته، قد خلق هذا الخلق باطلاً وعبثاً، وهذا جحودٌ لكمال صفات الله عزّ وجلّ، وهو من الكُفر بالله، وإنّ الذين يقولون هذا ما قدروا الله حقّ قدره، إنهم بهذا الزعم ليس لهم إلّا الأوهام التي هي أضعف الظّنون الساقطة بالبداهة، وهي أوهام زينتّها لهم رغباتهم الفاجرات بالتحرّر من قيود الحقّ والخير والفضيلة، ورغباتهم باتّباع أهوائهم وشهواتهم.

﴿.. قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾: فويلٌ: أي: فعذابٌ شديدٌ لهم من عذاب النار، الذي يذوقون فيه عذاب الحريق.

و «ويل» وإد في جهنّم، كما سبق بيانه لدى تدبر سُور (الماعون والهمزة والمرسلات) «ويلٌ» مبتدأ. «للذين كفروا» في محلّ رفع خبر. وفي هذه العبارة وعيد من الله جلّ جلاله لهم بعذاب شديد في النار يوم الدين.

● ﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾: ﴿٢٨﴾

أي: بَلْ أَنْجَعُلُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ كَالْكَافِرَةِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ،  
سواءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ، فَتُنْهِى رَحْلَةَ امْتِحَانِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، دُونَ وَضْعِ  
خُطَّةٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ يَكُونُ فِيهَا حِسَابٌ وَفَضْلٌ قِضَاءٍ وَتَنْفِيزُ جَزَاءٍ؟؟؟!

بل . أنجعل المتقين عقابَ رَبِّهِمْ، كَالْفُجَّارِ الَّذِينَ يَنْبَغِثُونَ لَارْتِكَابِ  
الجرائم والآثام الكبرى، بكلِّ ما لديهم من طاقات وقُوَى، واندفاع إلى الشرِّ  
بوقاحة ومَجَانة، دون مُراقبة لحساب ولا جزاء؟؟؟!

«أَمْ» فيها معنى الإضراب والاستفهام في الجملتين، والاستفهام هنا  
استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى التعجيب من ظنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا.

والمعنى أَنَّ حكمة الله الرَّبِّ الْجَلِيلِ الْعَظِيمِ خَالِقِ الْكَوْنِ بِحُكْمَتِهِ،  
تَأْتِي هَذَا الْبَاطِلَ وَهَذَا الْعَبَثَ، بل هو سَيُقِيمُ عَذْلَهُ وَفَضْلَهُ يَوْمَ الدِّينِ، كما  
أَنْذَرَ وَبَشَّرَ فِي كُلِّ مَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابٍ عَلَى رُسُلِهِ.

﴿الْفُجَّارِ﴾: جمع «الفاجر» وهو المنبعث انبعاثاً وَقِحاً في فعل الشرِّ  
والضرِّ والظلم والعدوان، وارتكاب كبائر الإثم والعصيان.

وفي الآية محذوفٌ دَلٌّ عَلَيْهِ التَّقَابُلُ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،  
يُقَابِلُهُمُ الْكَافِرُونَ الْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، فَجَاءَ فِي الْآيَةِ الْاِكْتِفَاءُ بِعِبَارَةٍ: ﴿كَالْمُفْسِدِينَ  
فِي الْأَرْضِ﴾ عَنِ التَّصْرِيحِ بِعِبَارَةٍ كَالْكَافِرِينَ لِأَنَّ التَّقَابُلَ يَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ.

ومرتبة «المتقين» يُقَابِلُهَا دَرَكَةُ «الْفُجَّارِ» أي: الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَدْنَى  
درجات التقوى المنجية من الخلود في عذاب النار.

● قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿كَتَبَ أَرْزَلُهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبُوا عَيْنَهُمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩).

وقرأ أبو جعفر: [لِيَذَّبُوا] بِالتَّاءِ بَدَلَ الْيَاءِ، وَبِتَخْفِيفِ الدَّالِّ، وَأَصْلُهَا  
«لَتَذَّبَرُوا» ثَقُلَ تَكَرُّرُ التَّاءِ فَحُذِفَتِ الثَّانِيَةُ، وَهِيَ تَاءُ الْفِعْلِ تَخْفِيفاً. ﴿لِيَذَّبَرُوا﴾

وهي قراءة باقي القراء العشرة، أضلّها «لِيَتَذَبَّرُوا» قُلِبَتِ التاء دالاً لقُرْب مَخْرَجَهما وأدْغِمَتْ بالدال بعدها.

وفي القراءتين تكاملُ بياني، فالتّي بتاء الخطاب يخاطبُ الله بها الرُّسُولَ والذين آمنوا، والتّي بياء الغيبة يتحدّثُ اللّهُ بها عن الآخرين الذين لم يُؤْمِنُوا، أي: لِيَتَذَبَّرَ مِنْهُمْ آيَاتُهُ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِلِاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ.

هذه الآية من الدرس الثاني ذات اتصالٍ بأول عُنْصُرٍ من عناصر موضوع السورة الوارد في أوّل آيات الدرس الأول منها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ وقد سبقَ تدبُّر هذه الآية.

﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ﴾: خِطَابٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أي: القرآن المجيدُ ذو الذِّكْرِ هو كتابٌ أنزلنا بغضه إليك وسُنْزِلَ سَائِرُهُ إِلَيْكَ تَبَاعاً بحسب مقتضيات الحكمة التعليميّة والتربويّة، فَإِنْزَالُهُ جميعاً قد تَمَّ به الْقَضَاءُ فَهُوَ فِي حُكْمِ الَّذِي قَدْ أَنْزَلَ كُلَّهُ بِاعْتِبَارِ مَا سَيُؤُولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ. وأنزلناه محفوظاً حتّى وصلَ إليك كما أنزلناه وقد سَمَّى الله عزّ وجلّ القرآن «كتاباً» وعرّفه بأداة التعريف «الكتاب» في عِدَّةِ نُصُوصٍ، تَوْجِيهاً لِكِتَابَتِهِ، وتكليفاً بها، حَتَّى يَكُونَ نَصّاً قطعيّ الثبوت، مُدَوِّناً مُبَيِّناً في كتابٍ مكتوب، محفوظ من التحريف والتبديل، في أيّ حرفٍ من حُرُوفِهِ، وأيّ كلمة من كلماته.

وسَمَّاهُ اللّهُ «قُرْآنًا» وعرّفه بأداة التعريف «القرآن» في كثيرٍ من النصوص، تَوْجِيهاً لَجُمْعِهِ وَقِرَاءَتِهِ مِنَ الْمُضْحَفِ الْمَكْتُوبِ الْمَدَوَّنِ الْمَحْرَّرِ الْمُحْفُوظِ.

وسَمَّاهُ الله «ذِكْرًا» وعرّفه بأداة التعريف «الذِّكْر» في عِدَّةِ نصوص، تَوْجِيهاً لِحِفْظِهِ وَتَذَكُّرِهِ وَاسْتِحْضَارِ آيَاتِهِ فِي الذَّاكِرَةِ، عِنْدَ كُلِّ مَنَاسِبَةٍ دَاعِيَةٍ.

وسَمَّاهُ الله «الفرقان» للدلالة على ثلاثة أمور.

الأمر الأول: أَنَّهُ مُفَرَّقٌ مُفَصَّلٌ فِي آيَاتِهِ وَمَعَانِيهَا تَفْصِيلاً مُحْكَمًا.

**الأمر الثاني:** أَنَّهُ يَفْرِقُ وَيَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ،  
وَيَبِينُ مَا فِيهِ سَعَادَةُ النَّاسِ وَمَا فِيهِ شِقَاؤُهُمْ.

**الأمر الثالث:** أَنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ إِعْجَازٍ وَحُجَجٍ  
بِرَهَانِيَّةٍ دَامِغَةٍ.

فَالْفُرْقَانُ فِي اللُّغَةِ مُضَدَّرٌ فَرَقَ الشَّيْءَ يَفْرِقُهُ وَيَفْرِقُهُ فَرْقًا وَفُرْقَانًا،  
وَالْمَصْدَرُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الْقُرْآنَ فَارِقٌ وَمَفْرُوقٌ.

وَيَأْتِي الْفَرْقَانُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ تَعْبِيرَانِ حَوْلَ إِنْزَالِهِ، فَفِي بَعْضِ النُّصُوصِ قَالَ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ فَجَاءَتِ التَّعْدِيَةُ فِيهَا بِحَرْفِ «إِلَى» وَفِي نَصُوصٍ  
أُخْرَى قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ﴾ فَجَاءَتِ التَّعْدِيَةُ فِيهَا بِحَرْفِ «عَلَى»  
فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ هَذَا التَّنَوُّعِ؟.

الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ التَّعْدِيَةَ بِحَرْفِ «إِلَى» قَدْ جَاءَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى  
تَوْصِيلِ الْمَنْزِلِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى الرَّسُولِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ لَدُنْهِ. وَأَنَّ التَّعْدِيَةَ  
بِحَرْفِ «عَلَى» قَدْ جَاءَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَكَالِيفٍ يَجِبُ عَلَى  
الرَّسُولِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحْمِلُوهَا بِقُوَّةٍ، وَيَعْمَلُوا بِهَا، فَهِيَ أَحْمَالٌ وَأَعْبَاءٌ  
مُلَقَاةٌ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَهُمْ مَسْئُولُونَ عَنْ وَاجِبَاتِهَا.

﴿مُبَارَكٌ﴾: وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْكِتَابَ (الْقُرْآنَ) بِأَنَّهُ مُبَارَكٌ،  
أَي: دُوْ بَرَكَةٍ.

**البركة:** هِيَ النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ فِي الْحَسَنَاتِ وَفِي الْمَعْنَوِيَّاتِ. وَرُوي عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْبَرَكَةَ الْكَثْرَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ.

وَيُقَالُ لُغَةً: بَارَكَ اللَّهُ الشَّيْءَ، وَبَارَكَ فِيهِ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ، أَي: وَضَعَ  
فِيهِ الْبَرَكَةَ.

ومعنى كُونَ القرآن مباركاً أَنَّهُ لَا تَنْضَبُ فيوض معانيه، وَأَنَّهُ دُو خَيْرَاتٍ كَثِيرَاتٍ جِدًّا فِكْرِيَّةً وَنَفْسِيَّةً وَشَفَائِيَّةً وَغَيْرَ ذَلِكَ.

لَكِنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي الْمُبَارَكَةَ الثَّرَّةَ لَا يَقْتَسِسُ مِنْهَا إِلَّا الَّذِينَ يَتَدَبَّرُونَ آيَاتِهِ.

● ﴿... لِيَذَّبَرُوا ءِآيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩):

في هذه العبارة بَيَّانٌ أَنَّ مِنْ أَغْرَاضِ إِنْزَالِ هَذَا الْكِتَابِ غَرْضَيْنِ:  
الغرض الأول: تدبُّر آياته.

الغرض الثاني: تذكُّر أولي الألباب.

تدبُّر النص: هو التَّفَكُّر الدَّقِيقُ الْعَمِيقُ الَّذِي تُلَاخِظُ فِيهِ الْعَوَاقِبُ بِبَصِيرَةٍ، حَتَّى الْأَطْرَافَ الْبَعِيدَةَ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا النَّصُّ، وَبِالتَّدَبُّرِ السَّلِيمِ تَحْصُلُ الْمَعْرِفَةُ الشَّامِلَةُ لِلنَّصِّ، مِنْ أَوَائِلِهِ حَتَّى آخِرِهِ، وَيَدْخُلُ فِيهَا اللَّوْازِمُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي يَقْتَضِيهَا النَّصُّ قَبْلَ مَعْنَاهِ الْمَطَابِقِ لِلْفُظْهِ، وَبَعْدَ مَعْنَاهِ الْمَطَابِقِ لِلْفُظْهِ.

والتدبُّر: هو النظر في عواقب الأمور وأدبارها وما تؤول إليه.

ومنه التدبير، وهو وضع الخطط الشاملة للأمور من بداياتها حتى أدبارها.

فتدبُّر كلمة «الذِّكْر» عنواناً للقرآن المجيد، يَتَطَلَّبُ اسْتِدْعَاءَ اللَّوْازِمِ الَّتِي يَسْتَدْعِيهَا الْفِكْرُ، وَالَّتِي تَكُونُ قَبْلَ كَوْنِهِ ذِكْرًا، وَهِيَ تَبَلُّغُهُ بِاصْغَاءٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ، وَتَفْهَمُ مَعَانِيهِ، وَحِفْظُهَا فِي الذَّاكِرَةِ، وَحِفْظُ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ مِنْ نَصُوصِهِ، وَتَذَكُّرُ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُنَاسِبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِلْعَمَلِ بِهَا، وَهَذِهِ هِيَ الْحَلْقَةُ الْآخِرَةُ مِنْ سِلْسِلَةِ اللَّوْازِمِ الْفِكْرِيَّةِ، فَأُطْلِقَ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.

وتدبر عبارة «رَبِّ الْعَالَمِينَ» يَتَطَلَّبُ استدعاء اللّوازم الفكرية التي تلزم عن كونه رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهي وحدته في ربوبيته فلا شريك له فيها، وكونه مالِكاً لَمَنْ هو رَبُّهُمْ، فهم عبيده، وَمَلِكاً عَلَيْهِمْ فلا حُكْمَ إِلَّا حُكْمُهُ ولا سُلْطَاناً إِلَّا سُلْطَانُهُ، وَكَوْنُهُ إِلَهاً لهم، فلا معبود بحقٍ للعالمين سواه. كلُّ هذه اللّوازم الفكرية تأتي عَقِبَ فهم كَوْنِ الله رَبِّ الْعَالَمِينَ بالتَّبَعِ التدبري الذي جَرَّ إلى آخر حلقات سلسلة اللّوازم الفكرية.

وهكذا يَنْبَغِي أن يكون تدبر آيات القرآن المجيد ذي الذكر.

ولكن ليس الغرض من تدبر آيات الله مجرد التَّرفِّ الْعِلْمِيِّ، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصل إلى كشف المعاني للتعالي بمغرفتها واكتشافها، إنما وراء الفهم غَرَضُ التَّذَكُّرِ عند المناسبات الداعيات، وَمَعَ التَّذَكُّرِ تكون العِظَةُ، ويكون العمل بموجب العلم، وهذا التذكر المقصود لا يحظى به إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ، وهم أهل العقول الحصيَّة، والأذهان النظيفه، والنفوس الشريفة. وهذا ما دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ في الآية: ﴿وَلَسْتَ تَذَكَّرُ أَزَلًا﴾ (٢٩).

لَبَّ الرَّجُلُ: ما جُعِلَ في قَلْبِهِ من العقل، وَلَبَّ كُلُّ شَيْءٍ خَالِصُهُ وخياره فالذين لا يتدبرون القرآن ولا يتذكرون ما يجب أن يتذكروه منه، ليسوا بأُولِي الْأَلْبَابِ.



### التدبر التحليلي للفقرة الثانية

من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآيات من (٣٠ - ٤٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْإِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

بِالْحَبَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ  
وَالْقَيْنَا عَلَيَّ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي  
لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ  
﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاسٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا  
فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِندَنَا لُزْلَةً وَحُشَنَ مَّتَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ .

تمهيد:

اشتملت هذه الفقرة على مقتطفاتٍ مختزلاتٍ من قصة حياة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي معطوفة على المقتطفات المختزلات من حياة أبيه داود، دون أن تُسْتَفْتَحَ بعبارة: «واذكر» مثل أشباهها في السورة، لأنَّ حال سليمان كحال أبيه عليهما السلام، فكلُّ منهما قد آتاه الله الملك، وكلُّ منهما قد خصَّه الله بتسخير بعض ما خلق تسخيراً خاصاً، وكلُّ منهما أوَّابٌ كثيرُ التوبة والرجوع إلى الله، وكلُّ منهما قد افتُحِنَ فوقه منه ما لا يَنْبَغِي أن يَقَعَ من مثله، وكلُّ منهما أناب إلى ربِّه مُسْتَغْفِراً تائباً فغفر الله له، وكلُّ منهما قال الله عزَّ وجلَّ بشأنه:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِندَنَا لُزْلَةً وَحُشَنَ مَّتَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

إذن فالتذكير بقصة حياة سليمان نظير التذكير بقصة حياة أبيه داود عليهما السلام، من حيث الغرض من هذا التذكير الموجَّه للرسول محمد ﷺ للتأسي، واختيار ما يُحِبُّ لنفسه من أحوال الرُّسُل عليهم السلام، فكان مُجَرَّدُ العطف هو المناسب، لتشابه مضمون القِصَّتَيْنِ.

وفي عبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ ﴿٤١﴾ ربطُ بقصة داود، وتوطئةٌ لذكر مقتطفاتٍ من قصة سليمان ثلاثٍ مُلْغِيَةٍ مِنَ التذكير بهما. إنَّ الإنسانَ يُحِبُّ الولدَ الوارثَ لأمِّجاده، إذ يَشْعُرُ أنَّه امتدادٌ لبقائه، فَيَعَوِّضُ به عَنْ رَغْبته في استِمرار البقاء في هذه الحياة الدُّنيا، ولو كَانَ عَلَى يَقِينٍ بآئِهِ سَيَخْلُدُ يومَ الدين.



وَهَذِهِ الرَّغْبَةُ مِنَ الْفِطْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تُلَازِمُ النَّاسَ، وَلَوْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ وَمُرْسَلِينَ.

وَالْإِنْسَانُ قَدْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ الْوَارِثُ لِأَمْجَادِهِ مِنَ الزَّوْجَةِ الَّتِي أَحَبَّهَا، وَكَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلَادٌ مِنْ زَوَاجَاتٍ سَابِقَاتٍ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِهَا، فَتَزَوَّجَهَا، فَوَلَدَتْ لَهُ سُلَيْمَانَ.

وَنَلْمَحُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الضَّمْنِيَّةِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ ومن استعمال ضمير المتكلم العظيم أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ قَدْ حَقَّقَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرَّغْبَتَيْنِ: فَجَعَلَ وَارِثَ الْمُلْكِ وَالْأَمْجَادِ وَأَهْمَهَا الْأَمْجَادُ الدِّينِيَّةُ مِنْ أَوْلَادِهِ، وَجَعَلَ هَذَا الْوَارِثَ مِنَ الزَّوْجَةِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِهَا نَفْسُهُ.

وبهذه العبارة الرابطة دَخَلَ الْبَيَانُ بَابَ الْحَدِيثِ عَنْ سُلَيْمَانَ.

التدبر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠).

﴿وَوَهَبْنَا﴾: الْهَبَةُ: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَغْوَاضِ وَالْأَغْرَاضِ، يُقَالُ لَغَةً: وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ يَهْبُهُ وَهَبًا وَوَهَبًا وَهَبَةً.

وعطاءات الله جَلَّ جَلَالُهُ كُلُّهَا هِبَاتٌ، إِنَّهُ هُوَ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ.

وَمُنَحُ الدُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ الْمَاجِدَةِ مِنْ أَعْظَمِ هِبَاتِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ.

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: هَذَا هُوَ عِنْوَانُ الْبَيَانِ الْآتِي فِي السُّورَةِ عَنْ

سُلَيْمَانَ، وَفِيهِ وَصْفَانِ لَهُ:

الوصف الأول: وَصِفَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْذَحَ مِنْ أَجَلِهِ، وَهُوَ تَحَقُّقُهُ

بِعِبُودِيَّةِ لِرَبِّهِ وَهَذِهِ يَسْتَحِقُّ مِنْ أَجْلِهَا أَنْ يَقُولَ اللَّهُ بِشَأْنِهِ: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾.

إِنَّ عِبَارَةَ الْمَذْحِ الدَّارِجَةِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ هِيَ عِبَارَةٌ: نَعَمَ الرَّجُلُ

فُلَانٌ، وَنَحْوُهَا.

قال النحاة من علماء العربية: «نِعَم» فعلٌ جامدٌ لإنشاء المدح على سبيل المبالغة، أي: مع غرضٍ تعظيم هذا المدح، وبيان أنه كبير، وفاعل فعل المدح «نعم» هنا كلمة «الْعَبْدُ» فالفاعل هنا اسم ظاهرٌ معرفٌ بـ «ال» الجنسية، وجملة المدح هذه تحتاج إلى اسم يكون هو المخصوص بالمدح، ويُعْرِبُهُ النحاة مبتدأً متأخراً، والجملة من «نِعَم» وفاعله في محلٍ خبر متقدم.

لكن المخصوص بالمدح في الآية وهو لفظ «سليمان» محذوفٌ إيجازاً، للعلم به من الجملة السابقة.

وجاء بعد ذلك في عرض مقتطفاتٍ من قصّة حياته مثالٌ مما استحقّ به عبارة المدح، وهو رغبته في إعداد خيول الجهاد في سبيل الله، لنشر دين الله، واهتمامه بها تدريجاً واستعراضاً لها، وحثاً على اقتنائها، وهذا أمرٌ يستحقّ المَدْحَ المبالغ فيه.

**الوصف الثاني:** بيان أنه أوابٌ، أي: رجأعٌ إلى الله بالاستغفار والتوبة وذكر الله، كلما شغلته شواغلُ الملِكِ والسلطان، أو تعرّضَ لما لا يليقُ بمقامِ نبوته ورسالته، ممّا قد يُبعدُه عن مقامِ قُربِ المقربين المُحْسِنِينَ، ولو كان من الأعمال التي لا تُستَذكرُ من المتقين، ولا من الأبرار.

وجاء بعد ذلك في عرضٍ مقتطفاتٍ من قصّة حياته، مثالٌ غامضٌ ممّا فُتِنَ به، أي: امتُحِنَ به، فكان منه ما لا يليقُ بأمثاله من الأنبياء والمرسلين، ثمّ أنابَ إلى ربّه، وقال: رب اغفر لي، ولم يتنازل عن رغبته في ملِكٍ وسلطانٍ أوسعَ ممّا لديه من ذلك، فأَتْبَعَ استغفاره بقوله في دعائه لربه:

﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَدِيلًا إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝﴾.

إذن فالبدء بالحديث عن سليمان عليه السلام قد كان عنواناً من

شَقَيْنِ.

وتفصيل الحديث عنه قد كان بضرب مثالين: فالمثال الأول مثالٌ للشَّقِّ الأول من العنوان، والمثال الثاني مثالٌ للشَّقِّ الثاني من العنوان.

وبعد عرض المثالين قال الله عزَّ وجلَّ بشأنه مثل قوله بشأن أبيه داود عليهما السلام: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ۖ﴾ (٤١).

هذا ما تكشفه النظرة الكلِّية الإجمالية، لما جاء عن سليمان عليه السلام في هذه السورة.

### أولاً: تدبر المثال الأول لما استحقَّ به المذح

● قول الله تعالى بشأن سليمان:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصِّفَتُ الْإِيَادُ ۖ﴾ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۖ﴾ (٣٢) رُدُّهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۖ﴾ (٣٣).

● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها.

﴿بِالْعَنِيِّ﴾: هو الوقت من العَصْرِ إلى الغروب.

﴿الصِّفَتُ﴾: صِفَةُ للخيل، استغنيَ بِذِكْرِهَا عَنْ ذكر الموصوف، الصَّافِنُ من الخيل هو القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طَرَفِ الحافِر، أو قَلْبَ حافِرِ الرابعة، وهذه حَرَكَةٌ تفعلها الخيلُ عند سُكُونِهَا واقفةً، ولا سِيَمًا عِنْدَ تَهَيُّئِهَا لِلْجَرِيِّ.

﴿الْإِيَادُ﴾ جَمْعُ «الجواد» وهو الفرسُ السَّابِقُ، يقال لغة: «جواد» للذكر والأنثى، ويجمعُ «جَوَاد» على «جِيَاد، وَأَجِيَاد، وَأَجَاوِيد».

وقصة هذه الحادثة التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ بصورةٍ مُوجِزةٍ مُختزِلةٍ، أخذاً من دلالات البيان القرآني الدالَّ عليها في هذه السورة:

كان سليمان عليه السلام مولعاً باقتناء الخيول واستعراضها، لأنها من أفعال الوسائل في العُصُور السالفة للجهاد في سبيل الله، بغية نشر دين الله، وقمع الكُفر والشُرْك والمُشْرِكِينَ والمُفْسِدِينَ في الأرض.

وفي عشية من العَشايا، وهي في العادة تكون بعد وقت العصر، حتى غروب الشمس، طلب سليمان عَرْضَ موكب خيوله عليه، فَعَرِضَتْ عليه أَزْثَالاً، وَرُبَّمَا رَافَقَ ذَلِكَ سِبَاقَاتٌ بَيْنَ بَعْضِهَا.

ولا بُدَّ أَنْ تَسِيرَ مَارَّةً قُرْبَ مَجْلِسِهِ فِي اسْتِعْرَاضِهَا، مَتَّجِهَةً فِي طَرِيقِهَا وَمُنْصَرِفَةً نَائِيَةً عَنْهُ، وَهِيَ مِنْ ثَقَايَاتِ الْخِيُولِ وَجِيَادِهَا، وَرُبَّمَا كَانَتْ مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً عَلَيْهَا فُرْسَانُهَا، وَاسْتَمَرَّتْ مَسِيرَةَ عَرْضِ الْخِيُولِ حَتَّى اسْتَتَرَ آخِرُ أَزْثَالِهَا عَنْ نَظَرِهِ، انْعِرَاجاً ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشَّامَلِ، أَوْ هَبوطاً فِي طَرِيقِ نَازِلَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَشَعَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ خَيْوَلَهُ، أَنَّهُ ابْتَهَجَ بِهَذَا الْمَشْهَدِ الرَّائِعِ، وَسُرَّ بِهِ، وَخَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَالَ إِلَى مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَغْبَةِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، وَخَافَ أَنْ يَفْهَمَ شَعْبُهُ ذَلِكَ عَنْهُ، فَقَالَ لِحَاشِيَّتِهِ وَالنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ: إِنِّي أَحْبَبْتُ اقْتِنَاءَ جِيَادِ الْخِيُولِ وَتَذْرِيبَهَا وَاسْتِعْرَاضَهَا حُبَّ الْخَيْرِ، أَي: لَا حُبَّ التَّفَاخُرِ وَالتَّعَاطُمِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِأَهْلِ الْقُرْبِ مِنْ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهَذَا الْخَيْرُ هُوَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ.

وهذا الحبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَهُ لِلْخِيُولِ نَاشِئٌ وَصَادِرٌ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي، لَا عَنْ انْشِغَالِ نَفْسِي بِمَبَاهِجِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَفَاخِرِهَا.

ثُمَّ طَلَبَ مِنْ أَمْرَاءِ سَاسَةِ الْخِيُولِ أَنْ يَرُدُّوَهَا عَلَيْهِ، فَرَدُّوَهَا، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مَكَانِ الْعَرْضِ قَافِلَةً، قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَنَزَلَ إِلَى طَرِيقِ الْعَرْضِ، وَأَخَذَ يُعَبِّرُ عَنْ تَكْرِيمِهِ لَهَا إِشْعَاراً بِتَكْرِيمِ الْغَايَةِ مِنْهَا، فَجَعَلَ يَخْنِي ظَهْرَهُ تَوَاضِعاً فَيَمْسَحُ بِسَوْقِهَا، وَيُقِيمُ ظَهْرَهُ فَيَمْسَحُ بِأَعْنَاقِهَا.

أما ما ذكره بعض أهل التأويل حول هذه الحادثة، فليس لهم فيه خبر مرفوع إلى الرسول محمد ﷺ، بل فيه إشكالات فكرية لا تتلأم مع سمو هذا النص القرآني الجليل، وفيه نسبة ترك سليمان عليه السلام صلاة العَصْرِ مِنْ أَجْلِ اسْتِعْرَاضِ خِيُولِهِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، بدون دليل عن الرسول ﷺ، وفيه أنه عَقَرَ الخيول وقتلها لأنها شَعَلَتْهُ عن صلاة العَصْرِ دون دليل أيضاً، وفيه اعتبار المثليين وإردئين لشيء أنه أَوَّابٌ من العنوان المشتمل على شقين، وهذا مما ينبوا عنه أسلوب البيان القرآني الرفيع السامي.

وهل في غَضَبِهِ وعَقْرِ الخيول وقتلها فضيلة تكفر عن خطيئة تأخير الصلاة عن وقتها، وما ذنب الخيول وهي ذوات أثمان باهظة، وتعد للجهد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله.

إنه لأمر مستنكر أن يُورد بعض أهل التأويل هذا الوجه الذي لا دليل عليه.

لكل ما سبق كان الالتزام بما في النص من دلالات لا تكلف فيها، ولا تحتاج إلى تأويلات غير مستساغات، هو الأخرى بأن يكون عُمدة التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، والله أعلم.

وخلاصة ما يدل عليه النص هو ما عرضته من قصة هذه الحادثة التي ذكرتها الآيات من (٣١ - ٣٣) فلتدبر هذه الآيات تدبراً تحليلياً:

● ﴿إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ (٣١):

﴿إِذْ﴾: ظُفِرَ لَزَمَنِ مَاضٍ، وهذا الظرف مضاف هنا إلى الجملة التي بعده، أي: حين عرض الصافنات الجياد عليه بالعشي.

والمعنى: نعم العبد سليمان حين عرض الصافنات الجياد عليه بالعشي، وكان منه ما كان من تكريم لأهم وسائل الجهاد في سبيل الله يومئذ، وتصرف ناشيء عن ذكر ربه، وناشيء عن حبه للخير ابتغاء مرضاة ربه.

أو: اذْكُرْ مثلاً من أُمِّثَلَةٍ مَذَحِهِ بِعِبَارَةِ «نِعْمَ الْعَبْدُ» إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِثَاتُ الْجِيَادُ.

الْعُرْضُ فِي اللُّغَةِ لِلْجُنْدِ أَوْ الْخِيُولِ وَنَحْوَهَا: هُوَ إِمْرَارُهُمْ وَاحِداً فَوَاحِداً، أَوْ صَفّاً فَصَفّاً، ثُنَائِيّاً أَوْ ثَلَاثِيّاً أَوْ أَكْثَرَ، لِلْمَشَاهِدَةِ وَالتَّفَقُّدِ.

● ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي...﴾ (٣٢):

أي: فقال: إِنِّي أَحْبَبْتُ أَفْتِنَاءَ الْخَيْلِ، وَتَرْبِيَتَهَا، وَتَدْرِيبَهَا، وَاسْتِعْرَاضَهَا، حُبَّ الْخَيْرِ، وَهَذَا الْخَيْرُ هُوَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ. أَي: لَا حُبَّ التَّعَاطُفِ وَالتَّفَاخُرِ بِهَا، وَحُبَّ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

إِنَّهُ لَوْ كَانَ حُبُّهُ لِلْخَيْلِ حُبُّ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَكَانَ أَمْرًا غَيْرَ مَحْمُودٍ، وَغَيْرَ لَائِقٍ بِمَقَامِ الثُّبُوتِ وَالرَّسَالَةِ.

وكلمة «حُبِّ» مِنْ عِبَارَةِ «حُبِّ الْخَيْرِ» مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، مُبَيَّنٌ لِنَوْعِ عَامِلِهِ.

أي: إِنَّ حُبُّهُ لِلْخَيْلِ هُوَ مِنْ نَوْعِ حُبِّهِ لِلْخَيْرِ، وَهُوَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، لَا مِنْ نَوْعِ حُبِّ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَالْتَفَاخُرِ، وَالتَّبَاهِي، وَابْتِغَاءِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾: حَرْفُ الْجَرِّ «عَنْ» هُنَا فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ يَدُلُّ عَلَى الْعَامِلِ الْمَحْذَفِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى، أَي: حُبًّا نَاشِئًا أَوْ صَادِرًا عَنْ ذِكْرِ رَبِّي.

وَيُمْكِنُ حَمْلُ حَرْفِ «عَنْ» هُنَا عَلَى مَعْنَى التَّعْلِيلِ وَالسَّبَبِيَّةِ، أَي: بِسَبَبِ ذِكْرِ رَبِّي، أَوْ لِأَجْلِ الْقِيَامِ بِبَعْضِ وَاجِبَاتِ ذِكْرِ رَبِّي.

«عَنْ» فِي اللُّغَةِ يَأْتِي بِمَعْنَى «الْمَجَاوِزَةِ» وَهَذَا الْمَعْنَى يَلَائِمُهُ أَنْ نَقُولَ فِيهِ: نَاشِئًا أَوْ صَادِرًا عَنْ ذِكْرِ رَبِّي. وَيَأْتِي بِمَعْنَى التَّعْلِيلِ، وَهَذَا الْمَعْنَى

يلائمه: بسبب ذِكْرِي رَبِّي، أو لأجل القيام ببعض واجبات ذكري لِرَبِّي.

● ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۖ﴾ (٣٢): أي: حَتَّى تَوَارَتْ أَزْثَانُ الْخَيْلِ

بالحجاب.

تَوَارَتْ: أي: اسْتَتَرَتْ.

بِالْحِجَابِ: الْحِجَابُ هُوَ الشَّيْءُ السَّاتِرُ أَيَّا كَانَ، وَيُطْلَقُ الْحِجَابُ عَلَى

مَا أَشْرَفَ مِنَ الْجَبَلِ.

والمعنى: كان تواريتها بِسَبَبِ الْحِجَابِ السَّاتِرِ، لَا بِسَبَبِ الْبُعْدِ الزَّائِدِ

الذي تختفي فيه الأشخاص عن الأعين.

● ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِيقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۖ﴾ (٣٣).

● ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ ۖ﴾: أي: قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَمْرَاءِ سَاسَةِ الْخَيْلِ،

بَعْدَ أَنْ تَوَارَتْ عَنْ نَظَرِهِ بِالْحِجَابِ فِي آخِرِ الْعَرْضِ: رُدُّوَهَا عَلَيَّ.

ولعله استعمل عبارة ﴿عَلَيَّ﴾ دون عبارة «إليَّ» للإشارة إلى أنها

انْطَلَقَتْ مِنْ مَكَانٍ اسْتِعْرَاضِهِ لَهَا فِي طَرِيقِ صَاعِدَةٍ، ثُمَّ تَوَارَتْ فِي مَنْعَطٍ

جَبَلٍ، أَوْ فِي طَرِيقِ نَازِلَةٍ، فَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَقُولَ: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ ۖ﴾ لِأَنَّهَا

مَتَى ظَهَرَتْ مُقْبِلَةً مِنْ مَكَانٍ اخْتِجَابِهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ عُلوِّ.

● ﴿.. فَنُفِيقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۖ﴾ (٣٣):

نُفِيقَ: مِنْ أَفْعَالِ الشُّرُوعِ، أَي: شَرَعَ يُمْسَحُ مُتَابِعاً عَمَلَهُ.

وأفعال الشروع تَعْمَلُ عَمَلٌ «كَانَ» فَتَرْفَعُ الْمَبْتَدَأُ وَتَنْصِبُ الْخَبَرَ، إِلَّا أَنْ

خَبَرُهُنَّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً.

وَأَسْمُ «نُفِيقَ» هُنَا ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخَبَرُهَا

جُمْلَةٌ مَخْذُوفَةٌ، دَلَّ عَلَيْهَا الْمَفْعُولُ الْمَطْلُوقُ الْبَاقِي مِنْهَا، وَهُوَ كَلِمَةُ ﴿مَسْحًا﴾

والتقدير: فَتَرْفَعُ يُمْسَحُ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ.

**السُّوقُ:** جَمْعُ «سَاقٍ» وهو من الحيوان ما بَيْنَ الرُّكْبَةِ وَالْقَدَمِ. وقراءة «قُنْبُلٍ» عن «ابنِ كَثِيرٍ»: [بِالسُّوقِ] و [بِالسُّووقِ] لُغَةٌ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ، قَاعِدَتُهَا هَمْزُ كُلِّ وَاوٍ سَاكِنَةٌ قَبْلَهَا ضَمَّةٌ<sup>(١)</sup>.

**الأَعْنَاقُ:** جمع «عُنُقٍ» وهو الواصِلُ ما بين الرأسِ وسائرِ الجسدِ، «ال» في كَلِمَتِي السُّوقِ والأَعْنَاقِ هي «ال» التي تأتي بدلاً من الإضافة، أي: في سوقها وأَعْنَاقِها.

دَلَّ مَسْحُهُ سَوْقَهَا عَلَى تَوَاضُعِهِ، إِذْ كَانَ يَخْنِي لِذَلِكَ ظَهْرَهُ.

هذا هو النصّ، وهذا ما دَلَّتْ عليه فقراته، ولا داعيَ بَعْدَ هَذَا لِاتِّبَاعِ رَوَايَاتٍ لَمْ يُرْفَعْ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَى الْمَغْضُومِ، وهي لا تليق بمقام النبوة ومقام الرسالة، مع التَّكْلُفِ فِي حَمْلِ النَّصِّ عَلَيْهَا.

### ثَانِيًا: تَدَبُّرُ الْمَثَالِ الثَّانِي مِنْ أُمَثِلَةِ وَصَفِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ آوَابُ

● قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَتَنَّا﴾: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْفِتْنَةُ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ وَالْامْتِحَانِ وَالْإِخْتِبَارِ، فِي مَخْتَلَفِ الاسْتِعْمَالِ الْأَصْلِيِّ لِمَادَّةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَمَشْتَقَاتِهَا.

وَلَمَّا كَانَتْ مَعَادُنُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَنَحْوِهَا إِذَا أَرَادَ فَاحِصُوهَا امْتِحَانَهَا لِمَعْرِفَةِ جَيِّدِهَا مِنْ رَدِيئِهَا، أَوْ أَرَادُوا نَفْيَ خَبْثِهَا، أَذَابُوهَا بِالنَّارِ، أَوْ أَحْمَوْهَا بِهَا، حَتَّى تَكُونَ كُتْلَةً جَمْرِيَّةً، وَبِهَذَا يَنْكَشِفُ لَهُمُ الْجَيِّدُ مِنَ الرَّدِيِّ، وَيُمْتَازُ

(١) ذَكَرَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ أَبُو حَيَّانٍ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ».



الْخَبَثُ فَيَغْرِلُونَهُ، وَيَضْطَفُونَ الْخَالِصَ مِنَ الْمَعْدِنِ، وَمِنْ هَذَا أُطْلِقَ الْعَرَبُ لَفْظَ «الْفِتْنَةِ» وَمَشْتَقَاتِهَا عَلَى الْإِحْرَاقِ بِالنَّارِ، أَوْ الْعَرْضِ عَلَى النَّارِ، سِوَاءِ أَكَانَ لِلِاخْتِبَارِ وَالامْتِحَانِ، أَمْ كَانَ لِلتَّعْذِيبِ وَالْإِكْرَاهِ عَلَى فِعْلٍ أَمْرٍ أَوْ تَرْكِ أَمْرٍ.

وَلَمَّا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الْمَحْبُوبَةُ الْمَرْغُوبَةُ لِلنَّفُوسِ إِذَا امْتَحِنَ الْإِنْسَانُ بِهَا مَالٌ إِلَيْهَا، وَتَعَلَّقَ بِهَا، كَالنِّسَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ، فَتَنَكَّشِفُ بِالِامْتِحَانِ اسْتِقَامَتَهُ، أَوْ مَيْلَهُ وَعَجْزُهُ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ، أُطْلِقَ الْعَرَبُ عَلَيْهَا أَنَّهَا فِتْنَةٌ.

وكَذَلِكَ الْأَشْيَاءُ الْمَكْرُوهَةُ الَّتِي تَنْفِرُ النَّفُوسُ مِنْهَا، وَتَمِيلُ عَنْهَا، تُسَمَّى «فِتْنَةً» أَيْضًا، بِاعْتِبَارِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْامْتِحَانُ.

وَأُطْلِقَ الْعَرَبُ «الْفِتْنَةَ» عَلَى مُجَرَّدِ الْمَيْلِ وَالْإِعْجَابِ. وَقَالُوا: «فُتِنَ فُلَانٌ» إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ بِالشَّيْءِ الَّذِي فَتَنَهُ فَمَالَ إِلَيْهِ.

وَقَالُوا: فُتِنَ فُلَانٌ، وَافْتُتِنَ، وَافْتَتَنَ، إِذَا لَمْ يَضْمُدْ فِي الْامْتِحَانِ، بَلْ سَقَطَ فِيهِ، وَلَمْ تَظْهَرْ مِنْ مَعْدِنِهِ الْقُوَّةُ وَلَا الْاسْتِقَامَةُ تَجَاةَ مَا امْتَحِنَ بِهِ.

فَبِالتَّوَسُّعِ أُطْلِقَتِ الْفِتْنَةُ وَمَشْتَقَاتُهَا عَلَى وَسِيلَةِ الْامْتِحَانِ، وَعَلَى الْعَرْضِ عَلَى النَّارِ، وَعَلَى الْإِحْرَاقِ بِهَا، وَعَلَى السَّقُوطِ فِي الْامْتِحَانِ وَعَدَمِ النِّجَاحِ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ عَلَى الْمَسَبِّبِ، أَوْ مِنْ إِطْلَاقِ الْوَسِيلَةِ عَلَى إِحْدَى الْغَايَتَيْنِ فَقَطْ، وَهِيَ السَّقُوطُ وَالْخَبْثَةُ.

فَمَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾: وَلَقَدْ امْتَحَنَّا سُلَيْمَانَ وَاخْتَبَرْنَاهُ وَابْتَلَيْنَاهُ، وَجَاءَ التَّأْكِيدُ بِعِبَارَةٍ: ﴿لَقَدْ﴾ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ لَا يُمْتَحَنُونَ بِسَبَبِ الْعِصْمَةِ الَّتِي عَصَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، بَلْ يُمْتَحَنُونَ بِشِدَّةٍ، وَلَكِنْ فِي حُدُودٍ مَرْتَبَتِي الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ، لَا فِي حُدُودِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، إِذْ هُمْ فِي حُدُودِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ مَعْصُومُونَ، وَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَأَسَّوْا بِهِمْ فِيهَا.

فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ امْتِحَانُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَا تَكُونُ مَقَاوِمُهُ فِيهِ أَوْضَعُ المَقَاوِمَاتِ فِي كِيَانِهِ، مَعَ أَنَّهُ شَدِيدُ المَقَاوِمَةِ بِوَجْهِ عَامٍّ فِي سَائِرِ أُمُورِهِ، لِاصْطِفَاءِ اللَّهِ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ.

وَمِنْ دَرَاةٍ تَارِيخِ حَيَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَجِدُ أَنَّ اخْتِمَالَ ضَعْفِ مَقَاوِمَتِهِ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

**الأمر الأول:** رَغْبَتُهُ فِي النِّسَاءِ، وَقُدْرَتُهُ النَّادِرَةُ أَوْ الْفَرِيدَةُ عَلَى الْجَمَاعِ.

فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَافَ فِي إِحْدَى لَيَالِيهِ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، رَجَاءً أَنْ يَحْبِلْنَ مِنْهُ جَمِيعاً فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَيَأْتِينَ بِفُرْسَانٍ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«وَأَيْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ».

وَفِي عَدَدِ النِّسَاءِ اللَّاتِي قَالَ سُلَيْمَانُ لِأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِهِنَّ رَوَايَاتٌ، كُلُّهَا فِي الصَّحِيحِ، فَهِنَّ «مِائَةٌ، أَوْ تِسْعُونَ، أَوْ سَبْعُونَ، أَبُو سَيْتُونَ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقُدْرَتُهُ عَلَى يَطُوفِ عَلَى سِتِّينَ زَوْجَةً فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، عَجَبٌ عَجَابٌ فِي قُدْرَاتِ الرِّجَالِ.

وَجَاءَ فِي الإِصْحَاحِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ سَفَرِ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ:

«٣ - وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَّارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ».

ويفتري الإسرائيليون على سليمان عليه السلام أكاذيب حول مِيلِه لآلِهَةِ نِسَائِهِ الْوَثْنِيَّاتِ، تَأْتُرًا بِمِيلِهِ لِمَنْ أَحَبَّ مِنْهُنَّ.

أقول: فلعلَّ امْتِحَانَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ جَهَةِ مَنْ أَحَبَّ مِنْ نِسَائِهِ الْوَثْنِيَّاتِ، أَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْهِنَّ الْإِسْلَامَ وَالْأُطْلُقَهُنَّ، وَهَذَا يُلْزِمُ مِنْهُ الرِّضَا بِبَقَائِهِنَّ وَثْنِيَّاتٍ يَعْبُدْنَ أَوْثَانَهُنَّ وَهُنَّ عَلَى عِصْمَتِهِ.

ومثلُ هذا الأمرِ إنْ جازَ من آخِادِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى شَرِيعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ نَبِيِّ رَسُولٍ مِثْلِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا مِنْ مِثْلِهِ يَحْتَاجُ إِلَى إِنْابَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارٍ، لِأَنَّ وَاجِبَاتِ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ فَوْقَ وَاجِبَاتِ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، وَوَاجِبَاتِ أَهْلِ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ فَوْقَ وَاجِبَاتِ أَهْلِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى.

الأمر الثاني: حُبُّهُ لِلْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَنْهُ، إِذْ جَاءَ فِي النَّصِّ الَّذِي نَتَدَبَّرُهُ دُعَاؤُهُ لِرَبِّهِ:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد نُعَلِّلُ هَذَا الْحُبَّ بِرَغْبَتِهِ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ عَنْ طَرِيقِ الْمُلْكِ.

ولكن كيف كان امتحانُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ تَضَعُفُ مَقَاوِمُهُ تُجَاهَهُ، إِذَا تَعَرَّضَ فِيهِ لَشَيْءٍ يَخْشَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي انْتِزَاعِ مُلْكِهِ مِنْهُ؟.

جاء في سفر الملوك الأول من كتب أهل الكتاب الإصحاح (١١).

(١٤) وَأَقَامَ الرَّبُّ خَضَمًا لِسُلَيْمَانَ «هَدَدَ الْأَدُومِيِّ» كَانَ مِنْ نَسْلِ الْمَلِكِ فِي «أَدُوم».

(٢٣) وَأَقَامَ اللَّهُ لَهُ خَضَمًا آخَرَ «رَزُونَ بْنَ أَلِيدَاع».

وجاء فيه أَنَّ يَرْبُعَامَ بْنَ نَابَاطَ الْأَقْرَائِمِيِّ قَامَ ضِدًّا لِسُلَيْمَانَ لِيَنْتَزِعَ مِنْهُ

الْمُلْكُ، وَحَاوَلَ سُلَيْمَانُ قَتْلَهُ، إِلَّا أَنَّ «يَرْبُعَامَ» هَرَبَ إِلَى «شِيشَقَ» مَلِكِ مِصْرَ يَوْمَئِذٍ، وَبَقِيَ فِي مِصْرَ إِلَى وَفَاةِ سُلَيْمَانَ.

قد يُشيرُ هذا التاريخ إلى نوع امتحان الله عز وجل لسليمان عليه السلام في ملكه الذي له شَغَفٌ به.

● قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً...﴾ (٣٤).

تُشيرُ هذه العبارة إلى حادثةٍ أَجْرَاهَا اللهُ عز وجل لسليمان عليه السلام تتعلقُ بِكُرْسِيِّ مُلْكِهِ، وإشعارِهِ بِإِعَادِهِ عَنْ مُلْكِهِ، لاختبار حالته النفسية مع ربه خِلَالَ هذه الحادثة، التي قضى الله عز وجل أن تكونَ عَرَضاً طارئاً، لكنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعلَمُ بأنَّهُ عَرَضٌ طارئٌ.

والاختبار قد كان بإلقاء جسدٍ في صورة سُلَيْمَانَ على كُرْسِيِّهِ، في سَاعَةٍ كان يقضي فيها بعض حاجاته الخاصة بعيداً عن كُرْسِيِّ مُلْكِهِ، فلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِ وَجَدَ هذا الَّذِي هو على صُورَتِهِ جالِساً عَلَيْهِ بِلباسِ الْمُلِكِ، والناسُ والحاشيةُ والأَجْنَادُ يَأْتِمِرُونَ بأمره، وهم يَعتَقِدُونَ أَنَّهُ سُلَيْمَانُ.

وجاء في الروايات أَنَّهُ جَنِّيٌّ، وَأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْتَالَ حَتَّى أَخَذَ خَاتَمَ مُلْكِهِ الَّذِي جعلَ اللهُ فِيهِ سِرَّ الْمُلْكِ، وجَلَسَ على كُرْسِيِّ مُلْكِهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، كَانَ سُلَيْمَانُ خِلَالَهَا يَعمَلُ كَأَحَادِ النَّاسِ لِكَسْبِ طعامه بِالخِدْمَةِ، حَتَّى سَقَطَ خَاتَمُ سُلَيْمَانَ مِنَ الْجَنِّيِّ فِي الْبَحْرِ، فابْتَلَعَتْهُ سَمَكَةٌ، ووقعت هذه السَّمَكَةُ فِي شَبَكِ بَغْضِ الصَّيَادِينَ، وقضى اللهُ أَنْ تَصِلَ هذه السَّمَكَةُ إِلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام، فَسَقَّ بِطَنُهَا فوجدَ خاتمه، فعادت له هَيْئَتُهُ ومُلْكُهُ.

أقول: لا نَجِدُ دَاعِياً لتصديقِ هذه الرواياتِ الَّتِي لا تستندُ إلى خَبَرٍ عَنِ الْمَعْصُومِ، فَمِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والحِكْمَةِ أَنْ لا نَعْبَأَ بِهَا، وَأَنْ نَقْتَصِرَ على ما دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ، وما يَقْتَضِيهِ من لوازم.

إِنَّ تَسْمِيَةَ الَّذِي أَلْقَاهُ اللهُ عز وجل على كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

جَسَدًا، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ وَلَا يُعَاشِرُ النِّسَاءَ، فَهُوَ لَيْسَ جَنِّيًّا، لِأَنَّ الْجَنِّ كَالْإِنْسِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيُعَاشِرُونَ النِّسَاءَ، وَلَيْسَ وَثْنًا، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَثْنًا أَوْ دُمِيَّةً لَأَكْتَشَفَ سُلَيْمَانُ أَمْرَهُ سَرِيعًا، وَلَمَّا كَانَ فِي الْأَمْرِ اخْتِبَارًا لَهُ.

وفي معرض طلب المشركين أن يكون الرسول مَلَكًا مُعْتَرِضِينَ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بعد بيان أَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعًا رِجَالٌ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِمْ:

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ...﴾ (٨)

وهذا ينطبق على الملائكة، فَهُمُ أَجْسَادٌ نُورَانِيَّةٌ، لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَائِرُ الصِّفَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ مَخْلُوقَاتٌ نُورَانِيَّةٌ، قَدْ يَتَشَكَّلُونَ بِالشَّكَالِ الْجَسَدِيَّةِ بِقُدْرَاتِ أُعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيَّاهَا.

فالظاهر من كون الله تبارك وتعالى ألقاهُ على كرسيِّ سليمان، وَمِنْ تَسْمِيَّتِهِ جَسَدًا، أَنَّهُ مَلَكٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، فَتَشَكَّلَ جَسَدًا عَلَى صُورَةِ سُلَيْمَانَ، وَتَمَّ بِهِ امْتِحَانُ سُلَيْمَانَ فِي خُصُوصِ كُرْسِيِّ مُلْكِهِ، وَلَا أَحَدَ مِنَ النَّاسِ غَيْرِ سُلَيْمَانَ يَدْرِي بِالْأَمْرِ.

وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ بَعْدَ هَذَا لِمَعْرِفَةِ تَفْصِيْلَاتِ رُجْعَةِ كُرْسِيِّ الْمَلِكِ إِلَيْهِ، وَإِنْهَاءِ حَادِثَةِ الْامْتِحَانِ، وَيَكْفِي أَنْ يَنْصَرَفَ هَذَا الْجَسَدُ عَنْهُ، لِيَجِدَهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَارِعًا، فَيَلْبَسَ لِبَاسَ الْمَلِكِ كَعَادَتِهِ، وَيَجْلِسَ عَلَيْهِ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَيْهِ فِيهَا.

● قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٣٤): يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ عَلَى سُلَيْمَانَ كَانَ فِيهَا هَائِمًا شَارِدًا، حَتَّى أَنَابَ إِلَى رَبِّهِ، وَاسْتَغْفَرَ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ، فَأَعَادَهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ.

لقد أدرك سليمانُ عليه السَّلَامُ بعدَ مُدَّةٍ أَنَّهُ ارْتَكَبَ بَعْضَ أَخْطَاءٍ لَا تَلِيقُ بِمُثْلِهِ وَهُوَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى كِمَالِ مَرْتَبَةِ

المُحْسِنِينَ الْمُقْرَبِينَ، وَلَا يَنْزِلُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ  
أَوْ الْمُتَّقِينَ، فَأَنَابَ إِلَى رَبِّهِ.

وهذه الإنابة القلبية التي أَنَابَهَا مِنْ أَعْمَاقِ كَيَانِهِ، رَافَقَهَا أَنْ صَرَفَ اللَّهُ  
الشَّيْبَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُتَجَسِّدِ عَلَى مِثَالِ صُورَةِ سُلَيْمَانَ، وَعَادَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ إِلَى كُرْسِيِّهِ مَلَكًا، وَالنَّاسُ لَمْ يَعْرِفُوا شَيْئًا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ  
الشَّيْبَةِ الْمُمَاطِلِ وَالْأَصْلِ، إِلَّا أَنَّ زَوْجَاتِهِ رُبَّمَا اسْتَنَكَزَتْ أَنَّهُ انْقَطَعَ عَنْهُنَّ وَهُوَ  
الْمَوْلَعُ بِالنِّسَاءِ.

وَإِذْ أَنَابَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَبِّهِ إِنَابَةً صَاحِبَةً صَادِقَةً، ﴿قَالَ رَبِّ  
اغْفِرْ لِي﴾.

وَأَذْرَكَ أَنَّ الْمُلْكَ عُزْضَةٌ لِلْسَّلْبِ بِطَرَفَةِ عَيْنٍ مَتَى شَاءَ اللَّهُ سَلَبَهُ، وَهُوَ  
يَعْلَمُ أَنَّ الْمُلْكَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، فَاتَمَّ دُعَاؤُهُ لِرَبِّهِ  
قَائِلًا:

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

أَي: وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا أُسْلِبُهُ فِي حَيَاتِي، وَلَا يَنْبَغِي مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِّنْ  
بَعْدِي، فَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ عَلَى الْأَمْرَيْنِ مَعًا، أَمَّا  
أَحَدُهُمَا فَبِصَرِيحِ اللَّفْظِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَبِلَازِمِهِ الذَّهْنِيِّ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَنْبَغِي  
هُوَ أَوْ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِ حَيَاتِهِ، فَرِغْبَتُهُ فِي بَقَاءِ مُلْكِهِ لَهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ  
مُضْمَنَةٌ فِي الدُّعَاءِ لَزُومًا ذَهْنِيًّا، وَمِنْ «بَابِ أَوَّلَى» فَلَا دَاعِيَ لِحَمْلِ الْعِبَارَةِ  
عَلَى أَحَدِهِمَا فَقَطْ: إِذِ الْآخَرُ مَفْهُومٌ بِدَلَالَةِ اللَّزُومِ الذَّهْنِيِّ كَمَا ذَكَرْتُ.

وَبِنَاءً عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ اللَّفْظِ تَرَكَ الرَّسُولُ  
مُحَمَّدٌ ﷺ الْغِفْرِيَّتَ مِنَ الْجِنِّ الَّتِي أَمَكَّنَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، لِثَلَا يُشَارِكُ  
سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَعْضِ خَصَائِصِ مُلْكِهِ فِي التَّسَلُّطِ عَلَى الْجِنِّ، فَيَتَوَهَّمُ  
النَّاسُ عَدَمَ تَفَرُّدِ سُلَيْمَانَ بِمَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ.

روى البخاري عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال :

«إِنَّ عِفْرِيثًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُضْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.. ﴿٣٥﴾»<sup>(١)</sup>.

قال رَوْحُ أَحَدُ رُؤَاةِ الْحَدِيثِ فِي رِوَايَتِهِ لَهُ: «فَرَدَّهُ خَاسِئًا».

يقال لغة: لَا يَنْبَغِي لَهُ: أَي: لَا يَسْهُلُ لَهُ وَلَا يُطَاوِعُهُ، وَلَا يَتَيَسَّرُ لَهُ. أَوْ لَا يَصْلُحُ هَوْلُهُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا تَلَاوُظٌ أَوْ قَبُولٌ، أَوْ لَا يَلِيقُ بِهِ.

● ﴿.. إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٣٥﴾ :

«الْوَهَّابُ» مِنْ صَبَغِ الْمَبَالِغَةِ لِاسْمِ الْفَاعِلِ «وَاهَبَ». وَالْهَبَةُ: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَغْرَاضِ. يُقَالُ لُغَةً: وَهَبَ لَهُ الشَّيْءُ يَهَبُهُ وَهْبًا وَوَهَبًا وَهَبَةً فَهُوَ وَاهِبٌ وَوَهَّابٌ وَوَهْبٌ وَوَهَّابَةٌ.

● ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾.

● وقرأ أبو جعفر «الرِّيَّاحَ» بالجمع.

أَي: فَغَفَّرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، وَاسْتَجَابَ دُعَاءَهُ بِعَظَمَةِ رُبِّيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَتَبَّتْ لَهُ مُلْكُهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَوَهَبَ لَهُ مِمَّا طَلَبَ مِنْ مُلْكٍ زَائِدٍ عَلَى مَا كَانَ لَدَيْهِ مِنْهُ سُلْطَانًا عَلَى الرِّيحِ ذَاتِ الْأَنْوَاعِ، فَهِيَ رِيَّاحٌ بِحَسَبِ أَنْوَاعِهَا، رِيَّاحٌ بِحَسَبِ جِنْسِهَا، وَسُلْطَانًا عَلَى الشَّيَاطِينِ.

(١) انظر فتح الباري رقم الحديث (٤٨٠٨).

التسخير: تذليل الشيء لعملٍ ما، أو لأمرٍ ما، وجعلُ الشيء مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ به ضمنُ قانونِ تسخيرهِ، وهذه المطاوعة قد تكون بالطبع، كتسخير الأشياء، وقد تكونُ بالقُوَّة مع التذليل، كتسخير العَجَمَاوات للناس، وقد تكونُ بالاختيار الحرُّ لِمَا في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوِع، كتسخير بعض الناس لبعض الناس بإراداتهم الحرَّة.

وتسخير الله عزَّ وجلَّ الريح لسليمان عليه السَّلام، وتسخير الشَّياطين له فضلاً عن سائر الجنِّ، قد كان بمنحِهِ قُدْرَاتٍ خاصَّة، يستطيع بها التَّسلُّطَ على ما سخر الله له.

وبهذا التسخير الرِّبَّانِي صارت الرِّيحُ تتحرَّكُ بأمرهِ، وصارتِ الشَّياطين تُطيعُ أمرَهُ، فتقومُ بما يأمرُها به من عَمَلٍ يَدْخُلُ في قُدْرَاتِهَا، وَمَنْ يَعْصِي مِنْهُمْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْجُنَهُ، وَيُقَيِّدَهُ بِالسَّلَاسِلِ القادرة على الإمساك به مُقَيِّداً سَجِيناً، وَغُرْضَةُ التَّغْذِيبِ الْمُهِينِ.

● ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦):

﴿رُخَاءً﴾: أي: لَيِّنَةً، وهذه لا تكون شديدة قاصِفة ولا عاصفة ولا حاصِبةً، بل هي لَيِّنَةٌ لا تُزْعِجُ ولا تؤذي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: حيثُ قَصَدَ وأَرَادَ، والصُّوبُ الجِهَةُ، والمعنى: تجري الريح بأمرِ سُلَيْمَانَ إِلَى الجِهة التي أَرَادَ.

ولعلَّ في اختبار كلمة «أَصَابَ» إشارةً إلى أَنَّهُ قَدْ وُجِّهَ لاستخدامها مُتَحَرِّياً الصُّوَابَ في التصرُّفِ بتوجيه الريح.

وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أَنَّ الريح العاصفة قد سُخِّرَتْ له أيضاً، وفي قراءة أبي جعفر [الرِّيح]. (انظر الآية: ٨١)

● ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (٣٧) ﴿وَأَخْرَيْنَ مَقْرَنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨):



أي: وَسَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ بَسُلْطَانٍ جَعَلْنَاهُ لَهُ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ يَسْتَخْدِمُ مِنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فِي بِنَاءِ الْقُصُورِ وَالْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ، وَيَسْتَخْدِمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فِي الْغُوصِ فِي الْبَحَارِ، لِيَسْتَخْرِجُوا لَهُ مِنْ كُنُوزِ الْبَحْرِ وَجَوَاهِرِهِ مَا يَرِيدُ.

وقد جعل الله له سُلْطَانًا عَلَى الْعُصَاةِ مِنْهُمْ، فَيَقْيِدُهُمْ فِي الْأَصْفَادِ، وَيُؤَدِّبُهُمْ بِالْإِذْلَالِ وَالتَّعْذِيبِ، وَهُمْ مِنْ مَرَدَّةِ الْجَنِّ.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: الشياطين جَمْعُ شَيْطَانٍ، عَلَى وَزْنِ «فَيْعَالٍ» مِنْ فَعَلَ «شَطَنَ» أَي: بَعُدَ. وَالشَّيْطَانُ فِي اللُّغَةِ: كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْدَّوَابِّ، وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ.

يقال لغة: شَطَنَ يَشْطُنُ شَطْنًا، وَهَذَا الْفِعْلُ يَأْتِي بِمَعْنَيْنِ:

الأول: بِمَعْنَى بَعُدَ، تَقُولُ شَطَنَ عَنْهُ، أَي: بَعُدَ، وَأَشْطَنَهُ أَي: أَبْعَدَهُ.

الثاني: بِمَعْنَى شَدَّ بِالشَّطْنِ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُشْطَنُ بِهِ الدَّلْوُ فِي الْبَثْرِ، وَيَجْمَعُ عَلَى «أَشْطَانٍ».

وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ اللَّعِينُ بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ، وَمُبْعَدًا عَنْهُ بِالْوَسْوسَةِ وَالْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، وَكَانَتْ لَهُ «أَشْطَانٌ» أَي: حَبَائِلُ لِلْإِغْوَاءِ، كَانَ حَرِيًّا بِهَذَا الْاسْمِ.

وَالشَّيَاطِينَ الْمَسْخَرَةَ لِسُلَيْمَانَ هُمْ شَيَاطِينُ الْجَنِّ، فَهُمْ الَّذِينَ خَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّسْلُطِ عَلَيْهِمْ، فَيَسْتَخْدِمُ فَرِيقًا مِنْهُمْ ذَوِي مَهَارَةٍ فِي الْعِمْرَانِ وَقُدْرَةٍ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ، وَيَسْتَخْدِمُ فَرِيقًا آخَرَ مِنْهُمْ ذَوِي مَهَارَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى الْغُوصِ فِي الْبَحَارِ، فَيَكْلِفُهُمُ الْغُوصَ لِيَسْتَخْرِجُوا لَهُ مَا فِي الْبَحَارِ مِنْ كُنُوزٍ، وَمِنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ قَيْدَهُ بِالسَّلَاسِلِ وَسَجْنَهُ، وَوَجْهَهُ لَهُ عَذَابًا مُهِينًا.

﴿كُلَّ بَنَاءٍ﴾: بَنَاءٌ: صيغة مبالغة لاسم الفاعل من بَنَى يَبْنِي فهو بَانٍ، والمراد أنه شديد القدرة على البناء ماهرٌ فيه و ﴿كُلَّ بَنَاءٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ [الشَّيَاطِينِ] بَدَلٌ بِغَضٍ مِنْ كُلِّ.

﴿وَعَوَاصٍ﴾ عَوَاصٍ: صيغة مبالغة لاسم الفاعل من غَاصَ يَغُوصُ فهو غَائِصٌ. أي: وكُلَّ غَوَاصٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ فِي الْبَحَارِ.

● ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨):

﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾: أي: مَشْدُودِينَ فُرَادَى أَوْ مُقْتَرَنِينَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ.

الْقَرْنُ: الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْأَسِيرُ، يُقَالُ لُغَةً: قَرَنَ الْأَسِيرَ بِالْحَبْلِ، أي: شَدَّهُ بِهِ. وَقَرَنَهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهِ الْوِثَاقَ بِهِ.

وَيُقَالُ لُغَةً: قَرَنَ الْأَسِيرَ بِالْأَسِيرِ، أي: جَمَعَهُمَا فِي وَثَاقٍ وَاحِدٍ.

الْأَصْفَادُ: هِيَ السَّلَاسِلُ وَالْأَغْلَالُ، مَفْرَدُهَا، الصَّفْدُ وَالصَّفَادُ.

فَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ مَجْمُوعِينَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ بِقُوَّةٍ، مُقْتَرَنِينَ أَزْوَاجًا أَوْ جَمَاعَاتٍ.

● ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩):

أي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ اسْتَجَابَ لَهُ دَعَاؤُهُ، فَوَهَبَهُ مَا أَبَانَهُ فِي الْآيَاتِ (٣٦ - ٣٧ - ٣٨) هَذَا الْقَوْلُ.

هَذَا الْقَوْلُ مُسْتَقْطَعٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَاضِي، وَمُقَدَّمٌ فِي هَذَا النَّصِّ، كَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخَاطَبُ بِهِ سُلَيْمَانَ الْآنَ، وَهَذَا مِنَ الْفُنُونِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْبَيَانِيَّةِ قَبْلَهُ.

وَالْمَعْنَى: هَذَا عَطَاؤُنَا لَكَ يَا سُلَيْمَانُ إِذْ طَلَبْتَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِكَ، وَأَنْتَ فِيمَا أَعْطَيْنَاكَ مِنْ هَذَا الْمُلْكِ مَأْذُونٌ لَكَ إِذَنْ بِإِبَاحَةِ غَيْرِ

مُسْتَتَبَعَةٌ بِحِسَابٍ، فِي أَنْ تُعْطِيَ بِالْمَنْ كَمَا تَشَاءُ، وَفِي أَنْ تُمْسِكَ عَنِ الْعَطَاءِ عَلَى مَا تَشَاءُ.

﴿فَأَمَّنْ﴾: أي: فأعطِ على وجه الإحسان والإكرام، وهذا المعنى هو المناسب هنا، لا المعنى الآخر، وهو الافتخار بالإعطاء، والتحدث به استِعْلَاءً وإشعاراً بالتفضل، أو تذكيراً به للإذلال والتسخير.

المن في اللغة يأتي بمعنيين:

الأول: الإنعام والإحسان والإكرام، يُقال لغة: مَنْ فلانٌ على فلانٍ يَمُنُّ مَنًّا، أي: أنعم عليه نِعْمَةً طيبةً، وأحسن إليه بعطيّة.

الثاني: التحدث على سبيل التفاخر بالعطاء، أو الإشعارِ بِدُونِيَّةٍ آخِذِ العطيّةِ إِهَانَةً له.

﴿أَوْ أَمْسِكَ﴾: أي: أو اَمْنَعْ عَطَاءَكَ بِحَسَبِ مَا تَرَى.

﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي: قد أَبْخَنَّا لَكَ الْمَنْ وَالْإِمْسَاكَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ نَحَاسِبُكَ فِيهِ عَلَى مَا تَفْعَلُ، سَوَاءٌ مَنَعْتَ أَمْ أَمْسَكْتَ.

والتقدير: فامُنْ كَمَا تَشَاءُ مَنًّا مَضْحُوبًا بِغَيْرِ حِسَابٍ لَكَ، أَوْ أَمْسِكَ كَمَا تَشَاءُ إِمْسَاكَ مَضْحُوبًا بِغَيْرِ حِسَابٍ لَكَ عَلَيْهِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

يَلْتَفِتُ النَّصْرُ فيقول الله عز وجلَ لِلْمَتَلَقِّينَ مُتَحَدِّثًا عَنْ مَنْزِلَةِ سُلَيْمَانَ عِنْدَهُ، فَيُبَيِّنُ أَنَّ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ قُرْبَى، وَحُسْنَ مَآبٍ، كَمَا سَبَقَ أَنْ قَالَ بِشَأْنِ أَبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْفَقْرَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الدَّرْسِ.

أي: وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَدَرَجَةً وَمَنْزِلَةً ذَاتَ قُرْبٍ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لِحُسْنَ مَرْجِعٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

الرُّزْفَى: اسْمٌ يَأْتِي بِمَعْنَى الْقُرْبَةِ وَالْدَّرَجَةِ وَالْمَنْزِلَةِ.

﴿وَحُسِّنَ مَقَابٍ﴾: أي: وحُسنَ مَزَجٍ، وهذا إنما يكون في جنَّاتِ النعيم.

وإضافة «حُسن» إلى «مآبٍ» من إضافة المصدر إلى فاعله، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، على تأويل المصدر بمُشْتَقٍّ والوصف به، والتقدير، ومآبٌ حَسَنٌ، أو هو كُلُّهُ حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إِنَّ» - والجملة الاسميّة - واللام المزحلقة «وقدّمت عبارة ﴿عِنْدَنَا﴾ على ﴿لَزُلْفَى وَحُسِّنَ مَقَابٍ﴾ لإفادة تخصيص الزلْفَى وحُسنِ المآب بما يكون له عند ربّه يوم الدين، مع تَعْظِيمهما، لأنّ ما يكون عند الله يوم الدين شيءٌ عظيمٌ جدًّا.

هذا ما جاء عن سليمان عليه السّلام في سورة (ص) وقد ورّع الله عزّ وجلّ بقيّة ما أراد أن يُنزل عنه في القرآن في سور (النمل - الأنعام - سبأ - الأنبياء - البقرة - النساء) بحسب دواعي المناسبات الفكرية، وأغراض تنزيل القرآن منجمًا.



### التدبر التحليلي للفقرة الثالثة

#### من فقرات الدرس الثاني من دروس السورة

#### وهي الآيات من (٤١ - ٤٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَوْبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

- وقرأ حمزة: [مَسْنِي] بِإِسْكَانٍ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.
- وقرأ أبو جعفر: [بِنُصْبٍ] بضم الصاد مع النون وهو على سبيل الإتياع.
- وقرأ يعقوب: [بِنُصْبٍ] بفتح النون والصاد.
- «نُصْب، ونُصْب، ونُصْب» المشقة والتَّعَب والإعياء، فالمعنى في القراءات الثلاث واحد.

## تمهيد:

في هذه الفقرة عَرَضَ مَقْتَضِبٌ مَخْتَزَلٌ شَدِيداً مِنْ قِصَّةِ ابْتِلَاءِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْمَكَارِهِ، الَّتِي افْتَحَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا صَبْرَهُ امْتِحَاناً شَدِيداً، فَوَجَدَهُ فِيمَا ابْتَلَاهُ بِهِ صَابِراً، فَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَجَعَلَهُ ضِمْنَ فِئَةِ الْأَوَّابِينَ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مِثْلَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، دُونَ أَنْ يَذْكَرَ شَيْئاً أَوْ يُلْمَحَ إِلَى شَيْءٍ بَعِيْنِهِ، مِثَالاً عَلَى كَوْنِهِ أَوَّاباً، أَي: رَجَّاعاً إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلرَّسُولِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى شُرُوطِهَا وَوَاجِبَاتِهَا دَوَاماً.

وجاء عنه أيضاً عَرَضٌ مَقْتَضِبٌ مَخْتَزَلٌ مِنْ قِصَّةِ بَلَاءِهِ بِالْمَكَارِهِ، فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣)  
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾

- وقرأ حمزة: [مَسْنِي] بِإِسْكَانٍ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.

وجاء ذكر اسمه ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الرُّسُلِ فِي الْآيَةِ (٨٤) مِنْ سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ. وَفِي الْآيَةِ (١٦٣) مِنْ سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) مَعَ بَيَانِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ رُسُلٌ مُبَشِّرُونَ وَمُنْذِرُونَ.

وَيَحْسُنُ بَنَّا أَنْ نَتَدَبَّرَ نَصْنِي (ص) و (الأنبياء) تدبراً تكاملياً.

موجز عن حياة أيوب عليه السلام:

كان أيوب عليه السلام رجلاً من الرُّوم، ويتصل نسبه بـعيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعيص هو أخو يعقوب (= إسرائيل) عليه السلام.

فأيوب ليس من بني إسرائيل، لكنه من ذرية أخيه عيص، ويقال له: «عيسو».

وكان أيوب عليه السلام كثير المال من الأرض والعبيد والتعم وسائر المواشي، وغير ذلك من صنوف المال.

جاء في سفر أيوب من أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب تغذاً ما كان له من غنم وإبل وبقر وحمير، وجاء فيه أنه ولد له سبعة بنين، وثلاث بنات.

وذكر المؤرخون والمفسرون أن أيوب كان كثير المال من كل صنوفه وأنواعه، وكانت أراضيه الواسعة جداً في حوران من بلاد الشام.

وعلى الرغم من كل ما آتاه الله عز وجل من مال كثير لم يكن منه طغياناً ما فيه، أو بسببه، فلم يطغ به ماله بشيء يخرج به عن الكمال والاستقامة والتقوى والتواضع، ورعاية حقوق الله، والإحسان للناس، وعمل البر حيث وجد للبِر وفعل الخير سبيلاً.

وعمل الشيطان بكل وسائله لإغوائه وإخراجه عن صراط الاستقامة، فخاب في كل مساعيه، فقال الشيطان في نفسه: هذا قد ابتلاه الله بالنعمة فشكر، فلم تبطره النعمة، ولم يطغه الغنى، ولكن لو ابتلاه الله بالفقر والمرض، حتى هجره إخوانه وأحبائه، لما صبر على هذا البلاء، ولأخرجته

الشدائد، فتَغَيَّرَ قَلْبُهُ عَنِ اللَّهِ، وَانْطَلَقَ لِسَانُهُ بِالتَّسْخُطِ عَلَى مَقَادِيرِ اللَّهِ، وَالطَّغْنِ فِي حِكْمَتِهِ.

فشاء الله عز وجل أن يُبَاهِيَ بِعَبْدِهِ أَيُّوبَ فِي امْتِحَانِ الصَّبْرِ، كَمَا بَاهَى بِهِ فِي امْتِحَانِ الشُّكْرِ.

فَبَعَثَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ عَلَى أَمْوَالِهِ غُرَاةً، فَسَلَبُوهَا مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَنْعَامٌ وَلَا رَقِيقٌ، وَلَا غِلْمَانُ خِدْمَةٍ، حَتَّى أَبْنَاوَهُ وَبَنَاتُهُ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ أَثَرًا، وَيُظْهَرُ أَنَّهُمْ تَعَرَّضُوا لِلْأَسْرِ مَعَ مَنْ سَلَبَ مِنْ غِلْمَانِهِ وَرَقِيقِهِ.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ بِهِ الْأَوْجَاعَ، فَابْتَلَاهُ بِالْمَرَضِ، وَمَكَّنَ الشَّيْطَانَ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ بِمَا يُغْرِيه بِسُوءِ الظَّنِّ فِي اللَّهِ، وَبِمَا يَحْرُضُهُ عَلَى أَنْ يُطْلِقَ لِسَانَهُ بِالتَّسْخُطِ عَلَى اللَّهِ، وَأَتَاهُمَا فِي حِكْمَتِهِ بِمَا أَنْزَلَ بِهِ مِنْ بَلَاءٍ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اسْتِقَامَتِهِ فِي أَيَّامِ امْتِحَانِهِ بِالنِّعْمَةِ وَالصَّحَّةِ، وَكَثْرَةِ الْأَحْبَابِ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَوْلِيَاءِ.

وَطَالَ بِهِ الْمَرَضُ، وَتَرَاكَبَتْ عَلَيْهِ الْبَلَايَا وَالْآلَامُ، وَابْتَعَدَ عَنْهُ كُلُّ الدِّينِ كَانُوا حَوْلَهُ يَرِدُونَ مِنْ مَوْرِدِهِ الْعَذْبِ أَيَّامَ نِعْمَتِهِ وَصِحَّتِهِ وَعِطَاءِ الْكَثِيرَاتِ. وَلَمْ يَبْقَ حَوْلَهُ غَيْرَ زَوْجَتِهِ الْوَفِيَّةِ، الَّتِي تَأْتِي لِخِدْمَتِهِ وَطَعَامِهِ وَشِرَابِهِ، مَعَ كُلِّ مَا فِيهِ مِنْ بَلَاءٍ.

قَالُوا: وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ تَعْمَلُ بِالْخِدْمَةِ عِنْدَ النَّاسِ، لِتَشْتَرِيَ لَهُ مَا يَأْكُلُهُ، وَلَمْ تَجِدْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ عَمَلًا، فَاضْطُرَّتْ أَنْ تَبِيعَ ضَفِيرَتَيْ شَعْرِهَا لِبَعْضِ نِسَاءِ الْأَثَرِيَاءِ، مِنَ اللَّوَاتِي يُخْبِنْنَ أَنْ يَتَزَيَّنَّ بِالشَّعْرِ الطَّوِيلِ، لِتَجْلِبَ لَهُ طَعَامُهُ، فَسَأَلَهَا أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِعَادَتِهِ: مَنْ أَيْنَ جَلَبْتَ هَذَا الطَّعَامَ؟ فَأَخْبَرَتْهُ، فَسَاءَهُ مَا فَعَلَتْ، وَحَلَفَ لِيَضْرِبَنَّهَا مِائَةُ ضَرْبَةٍ بِالسُّوطِ، مَتَى اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ولَمَّا طَالَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِغْرَاءَاتُ الشَّيْطَانِ وَوَسَائِلُ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ، لِيَذْفَعَهُ إِلَى سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَالطَّغْنِ فِي حِكْمَتِهِ، نَادَى رَبَّهُ مُسْتَجِدًّا رَحْمَتَهُ، بِكَلَامٍ تَفْسِيرُهُ:

﴿إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ نِصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أي: بِمَشَقَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وَتَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ، حَتَّى خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي مِنْ كَثْرَةِ وَسَاوِسِهِ، وَإِغْرَاءَاتِهِ الْكَيْدِيَّةِ، وَمَكْرِهِ الشَّدِيدِ.

فحمّاه الله من التأثير بالشَّيْطَانِ، فَأَمَدَّهُ بِالصُّمُودِ وَالصَّبْرِ.

قيل: استمرّ بلاؤه ثلاث سنين. وقيل: سبعاً وأشهرًا.

وقيل: ثمانية عشرة سنة، وليس في شيء من هذه الأقوال ما يَصِحُّ اعتماده، ولكن قد اجتاز امتحان الصَّبْرِ بنجاح باهر.

وشفاه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم، وعادَ لَهُ إِخْوَتُهُ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ اعْتَزَلُوهُ وَهَجَرُوهُ أَيَّامَ بَلَاءِهِ، وَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ وَالْمَالِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَهُ ضِعْفُ مَا كَانَ عِنْدَهُ سَابِقًا.

### تَدَبَّرْ نَصِيحَ (ص) وَ (الأنبياء) تَدَبَّرْ تَكَامُلِيًّا

● ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَّيُوبَ﴾: أي: وَضَعْنَا فِي ذَاكِرَتِكَ لِلانْتِفَاعِ وَتَقْدِيرِ الْأُمُورِ حَقَّ قَدْرِهَا، مَا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْ قِصَّةِ بَلَاءِ يُوبَ، ذِي الْغِنَى وَالْمَالِ الْكَثِيرِ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ، وَمَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ صَنُوفِ ابْتِلَاءٍ.

المخاطبُ الأوَّلُ فِي هَذَا النَّصِّ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ كُلُّ أَهْلِ اللَّخْطَابِ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ.

وقد شَرَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَبْدَنَا﴾ إِذْ تَحَقَّقَ بَعْبُودِيَّةٌ صَادِقَةٌ مِمْتَازَةً فِي امْتِحَانِ الشُّكْرِ، وَفِي امْتِحَانِ الصَّبْرِ.

● ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ نِصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١).



﴿إِذْ﴾: ظَرَفَ لماضٍ من الزَّمان، وهو هنا مضافٌ لجُملة: ﴿نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: وقت دُعائه رَبَّهُ دُعَاءَ مَضْمُونُهُ وَمَعْنَاهُ:

﴿إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾:

النُّصْبُ: التَّعَبُ والإِعياء.

العذاب: هو كُلُّ مَا يَشُقُّ على النفس ويؤلمها. ويأتي العذاب بمعنى العقاب والنكال، وهذا غيرُ مرادٍ هنا.

أي: إِذْ نَادَى رَبَّهُ بِأَنِّي قَدْ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِمَشَقَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وَتَعَبٍ وَإِعياء، من كَثْرَةِ وسائسه وإِغراءاته ووسائل كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ، لِيَذْفَعَنِي إِلَى سُوءِ الظَّنِّ بِكَ، وَالطَّغْنِ فِي حُكْمَتِكَ، بسبب ما أَنْزَلْتَ بِي مِنْ بلاءٍ فِي مَالِي وَأَهْلِي وَجَسَدِي.

وجاء في سفر «أيوب» عند أهل الكتاب أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ سَلَّطَ الشَّيْطَانَ عَلَى أَيُّوبَ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ، إِذْ رَعَمَ الشَّيْطَانُ أَنَّ اسْتِقَامَةَ أَيُّوبَ وَبِرَّهُ قَدْ كَانَا بِسَبَبِ أَنَّ الله قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَحَمَاهُ وَحَفَظَهُ، فَثَبَتَ أَيُّوبُ فِي امْتِحَانِ الصَّبْرِ، كما ثَبَتَ فِي امْتِحَانِ الشُّكْرِ.

وَأَظُنُّ أَنَّ تَسْلِيْطَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَام، مِنْ تَزْيِيداتٍ مِنْ كَتَبَ سفر «أيوب» مِنْ كَتَبِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ، لِأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَالَ لِلشَّيْطَانِ مِنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ سورة (الحجر/ ١٥) مصحف/ ٥٤ نزول).

وَأَبَانَ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١) مصحف/ ٧٣ نزول) أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامَ تَلَطَّفَ بَعْدَ أَنْ شَكَّى لِرَبِّهِ مَا مَسَّهُ بِهِ الشَّيْطَانُ بِوَسَائِيسِهِ وَوَسَائِلِ كَيْدِهِ، فَدَعَا بِدُعَاءٍ تَضَمَّنَ عَرْضَ مَا مَسَّهُ مِنْ ضُرٍّ، مَعَ الثَّنَاءِ عَلَى رَبِّهِ بِأَنَّهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، دُونَ أَنْ يُصْرِّحَ بِسُؤَالِ رَفْعِ الضَّرِّ عَنْهُ، فَنَادَى رَبَّهُ

في استجداء، كما قال تعالى: ﴿وَأُتُوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣).

الضرُّ: سوء الحال في البدن أو المال أو الأهل أو نحو ذلك.

ونلاحظ أنه قال عليه السلام: ﴿مَسَّنِيَ﴾ ولم يقل أصابني، على الرغم من شدة ما نزل به من بلاء، وهذا من رفيع أدبه مع ربه.

فاستجاب الله دُعَاءَهُ فَرَفَعَ عَنْهُ ما أنزل به من بلاء، كما قال تعالى في النص الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ...﴾ (٨٤).

﴿فَكَشَفْنَا﴾: فَأَزَلْنَا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ في نفسه وماله وأهله وولده.

● أما المرض الذي كان نازلاً بجسده، فقد أمره الله بأن يتخذ سبباً علاجياً قضى الله أن يكون به الشفاء، فقال له كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢).

الرَّكْضُ: هو ضَرْبُ الشَّيْءِ بِالرَّجْلِ أو نحوها، ويقال له الرَّفْسُ. وحينما يَغْدُو الإنسان، أو تَغْدُو الخيل ونحوها، فَإِنَّ الْأَرْجُلَ تَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ، ولهذا سُمِّيَ الْعَدُو رَكْضاً.

ويقال لغة: رَكَضَ الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ، أي: حَرَّكَهُمَا وجعلَ يَضْرِبُ بهما جَنِيه.

ويظهر أن الله عز وجل قد أوحى لأتوب عليه السلام أن يَضْرِبَ بِرِجْلِهِ مكاناً معيناً في الأرض، وربما كان ذلك بأداة فيها حديدَةٌ تَخْفِرُ فِي الْأَرْضِ، ففعل عليه السلام ما أمره الله به، فَتَفَجَّرَتْ لَهُ عَيْنُ مَاءٍ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَلَمَّا رَأَى الْمَاءَ قَدْ تَفَجَّرَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ:

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢):

أي: فَاغْتَسِلَ بهذا الماء، واشْرَبَ مِنْهُ، يَكُنْ بهذا السَّبَبِ شفاءَ اللّٰهِ لك. ففعل أيوبُ ما أَمَرَهُ الله به فَشَفَاهُ الله عَظَمَتْ قُدْرَتُهُ، وَجَلَّتْ حِكْمَتُهُ.

● وَأَمَّا بَلَاؤُهُ بِأَهْلِهِ فَقَدْ كَشَفَهُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَدِّهِمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْرِ، ثُمَّ زَادَهُمْ مِنْهُمْ مَعَهُمْ، فقال الله تعالى في النّصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿..وَأَتَيْنَهُ أَهْلُهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا..﴾ (٨٤).

وقال تبارك وتعالى في النّصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةٌ مِنَّا..﴾ (٤٣).

هذان النّصّان متكاملان في الدلالة على المراد، فعبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ دلّت على معنى إِمْضَاءِ إِرَادَةِ الْعَطَاءِ بِالْفَيْضِ الرَّبَّانِيِّ، دون النّظر إلى معنى استحقاق هذا العطاء، وناسب هذه الهبة أن يَقُولَ الله عَزَّ وَجَلَّ في الآية: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾. وعبارة: ﴿وَأَتَيْنَهُ﴾ دلّت على معنى إيصال هذا العطاء الرَّبَّانِيّ إليه، بغد إِمْضَاءِ الإِرَادَةِ به، وناسب هذا الإيصال لذوات ما وهب الله له أن يَقُولَ في آية (الأنبياء): ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: رَحْمَةً ذات أثرٍ في إيصال ما وهبناه إليه، ومعلوم أن كلّ ما هو في الوجود، ولو كان في حوزة الباغين الآسرين، هو عند الله جَلَّ جَلَّالُهُ، وعظم سلطانه، فهو مالك كلّ شيءٍ وَمَلِيْكُهُ.

فدلّ هذا الصنيع البيانيّ العجيب على أن الهبة من عطاء الإِرَادَةِ، وهي من آثار صفات الذات الرَّبَّانِيَّة. ودلّ على أن الإيتاء، وهو توصيل الأشياء الموهوبة، آتٍ ممّا عند الله في كونه، ممّا هو له مِلْكٌ، وليس صفة من صفات الذات، وإنما هو من صفات الأفعال.

● وجاء في النص الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿... وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِ (٨٤)﴾ بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ فِيهِ: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

● وجاء في النص الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿... وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣)﴾ بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ فِيهِ: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾.

**الذِّكْرَى: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرِ، أَي: وَتَذْكِيراً لِلْعَابِدِينَ وَتَذْكِيراً لِأُولَى الْأَلْبَابِ.**

فَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣)﴾ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ الرَّبَّانِيَّ بِالْهَبَةِ هُوَ ذِكْرَى يَعْلَمُهَا وَيَتَذَكَّرُهَا أُولُوا الْأَلْبَابِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ الدَّارَكَةِ الْحَصِيفَةِ، الَّذِينَ يُذَكِّرُونَ الْمَعَانِي مِنْ وَرَاءِ الظَّوَاهِرِ التَّكْوِينِيَّةِ.

وَدَلَّتْ عِبَارَةٌ ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِ (٨٤)﴾ عَلَى أَنَّ الْإِصَالَ الْمَادِّيَّ الْمَشْهُودَ لِلْعَطَائِتِ الرَّبَّانِيَّةِ، هُوَ ذِكْرَى يُذَكِّرُهَا وَيَتَذَكَّرُهَا الْعَابِدُونَ لِرَبِّهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَافِعاً لَهُمْ لِلثَّبَاتِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ بِالشُّكْرِ وَبِالصَّبْرِ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أُولَى الْأَلْبَابِ الدَّرَاكِينَ لِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ.

● وانفرد النص الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بالإشارة إلى يمين حلفها أيوب عليه السلام أن يضرب زوجته الوفية الرضية الصابرة على خدمته طوال مدة بلائه، مئة سوطٍ، لأنها فعلت شيئاً ما قد كرهه منها ولم يره أمراً حسناً، فقال الله عز وجل فيها مبيناً ما قاله لأيوب ومقتطعاً من الحدث الماضي كأنه يجري الآن:

﴿وَحُذِّبِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهٖ وَلَا تَحْنُتْ... (٤٤)﴾.

لقد أفتاه الله عز وجل بهذا فتوى يتحلل بها من يمينه، فيُجري عملاً فيه ضرب صوريٍّ لزوجته، وهو ضربٌ لا يؤلمها ولا يؤذيها بشيء.

إِنَّ الْيَمِينَ الَّتِي حَلَفَهَا أَيُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرٌ أَلْزَمَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ لَهُ

طبيعة الأحكام الشرعية المطلوبة لذاتها، ومن أجل هذا أعطاه الله طريقة شكلية يَبْرُ بها يمينه، ولا يؤدي ولا يؤلم بها زوجته الوفاة البارة.

﴿وَأَخَذَ بِيَمِينِكَ ضِغْتًا﴾: الضغْتُ حُرْمَةٌ من أَعْوَادٍ يُقْبَضُ عَلَيْهَا بِجُمْعِ الكَفِّ، كأعواد شمرّاح التَّمَرِ، فإذا ضَرَبَ بها ضَرْبَةً واحدةً أو ضَرْبَتَيْنِ بحَسَبِ عَدَدِ أَعْوَادِهَا، أَغْنَتْهُ عَنْ ضَرْبِ مِئَةِ سَوْطٍ، وَبَرَّ بِذَلِكَ يَمِينَهُ وَلَمْ يَخْنَثْ.

وهذه الطريقة هي من الحيل المشروعة التي ليس فيها تغيير لمطلوب لذاته في أحكام الدين، فلا يصح إِجْرَاءُ مِثْلِهَا فِي حَدِّ شَرْعِيٍّ، كَجَلْدِ الزَّانِي غَيْرِ الْمُخَصَّنِ، لِأَنَّ الْجَلْدَ الْمُؤَلِّمَ وَفَقَ الْعَدَدَ الْمَأْمُورَ بِهِ، مِمَّا هُوَ مَطْلُوبٌ لِدَاثِهِ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ.

وقد جاء في الإسلام الأَمْرُ بِالتَّكْفِيرِ عَنِ الْيَمِينِ الَّتِي يَرَى الْحَالِفُ أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا.

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنِ يَمِينِهِ».

وختم الله عز وجل النَّصَّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (ص) بِقَوْلِهِ:

• ﴿... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذا الختام ثناءً مُؤَكِّدٌ عَلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ كَانَ صَابِرًا طَوَالَ مُدَّةٍ ابْتِلَايَةٍ بِالْمَكَارِهِ، وَقَدْ جَاءَ التَّوَكُّيدُ بِ(إِنَّ - وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ) مَعَ اسْتِخْدَامِ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ الْمُبْتَلَى بِحُكْمَتِهِ وَسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

وجاء في هذا الختام أيضاً تَقْوِيمُ دَرَجَتِهِ ضِمْنَ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، بِعِبَارَةٍ: ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

وهذا نظير التقويم الَّذِي مَنَحَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد سَبَقَ تحليل عبارته.

أما داود عليه السَّلَامُ فقد وَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ أَوَّابٌ، وقال بشأنه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾.

وكذلك قال بشأن سليمان في الآية رقم (٤٠).

وَإِذْ اشْتَرَكَ أَيُّوبُ وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي تَقْوِيمِ الدَّرَجَةِ، بعبارة: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فقد دَلَّ هذا على أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مشمولٌ بمضمون عبارة: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ وَلَوْ لَمْ يَأْتِ التَّصْرِيحُ بهذا في أَيِّ مِنَ النَّصِّينِ الْمُخَصَّصَيْنِ للحديث عنه في القرآن المجيد. فِدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَأَيُّوبُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَوَّابُونَ، وَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ زُلْفَىٰ وَحُسْنُ مَّآبٍ.

ما جاء في السنة بشأن أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُريَاناً خَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَخْشِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيَنَّكَ؟. قال: بَلَى، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ».



### رابعاً

التدبر التحليلي للفقرة الرابعة من الدرس الثاني من دروس السُّورة  
وهي الآيات من (٤٥ - ٤٧)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَاذْكُرْ عِبْدَنَا إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ۖ﴾.

المخاطَبُ الْأَوَّلُ فِي هَذَا النَّصِّ رَسُولُنَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَتَّسَى بِهِ.

أي: وَضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ لِلنَّاسِي وَالِاتِّبَاعِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الرُّسُلِ، شَرَفْنَاهُمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لَنَا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ ثَنَاءً خَاصًّا، وَأَرْفَعَ تَقْدِيرَ مَنْ دَرَجَاتٍ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، هُمْ إِبْرَاهِيمُ، وَإِسْحَاقُ، وَيَعْقُوبُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِسْحَاقُ وَلَدُهُ مِنْ زَوْجَتِهِ سَارَةَ، وَيَعْقُوبُ وَلَدُ إِسْحَاقَ مِنْ زَوْجَتِهِ رَفْقَةَ، وَسَمَّاهُ الْمَلِكُ الَّذِي صَارَعَهُ كَمَا ذَكَرُوا «إِسْرَائِيلَ» أَي: «يُجَاهِدُ مَعَ اللَّهِ» بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ.

هَؤُلَاءِ ثَلَاثَةُ رُسُلٍ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لَهُ «دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ» وَمَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ، وَكَيْفَ كَانَ تَقْوِيمَ دَرَجَتِهِمْ.

أَمَّا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِصِفَاتٍ تَرْفَعُهُمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتٍ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ:

● فَأَتْنِي عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾: أَي: أَصْحَابُ الْأَيْدِي الْقَوِيَّةِ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ فِي الْخَيْرَاتِ، وَالْمَجَاهِدَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُحْسِنَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَأَصْحَابُ الْأَبْصَارِ الدَّرَاكَةِ الْوَاعِيَةِ، وَهِيَ أَبْصَارُ بَصِيرَتِهِمُ النَّاظِمَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَوُضُوفَةِ الْإِنْسَانِ فِيهَا، وَإِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْآخِرَةِ، وَوَاجِبِ الْإِنْسَانِ نَحْوَهَا، وَمَا هُوَ الْخَيْرُ وَالْأَفْضَلُ لَهُ لِلظَّفَرِ بِالْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنْ جَنَّاتِ التَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَالنَّاظِمَةِ إِلَى مَعْرِفَتِهِمْ بِاللَّهِ وَبِحُكْمَتِهِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي تَعْرِيفُ كُلِّ مِنْ «الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ» بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ «أَل» الَّتِي قَدْ يُؤْتَى بِهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْكَمَالِ، وَقَدْ جِيءَ بِهَا فِي اللَّفْظَتَيْنِ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ الْأَيْدِي وَكَمَالِ الْأَبْصَارِ، وَكَمَالُهُمَا إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ عَنْ أَيْدِيهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ.

● وذكر الله عز وجل أنه أَخْلَصَهُمْ، أي: اصطفاهم ونَقَّاهُمْ من الشوائب، بسبب خُصْلَةٍ وعبادة خالصةٍ مِنْهُمْ لله عز وجل، هي حُضُور الدار الآخرة دوماً في ذكراهم، وكانت هذه الذكرى هي الموجهة لكل تَصَرُّفاتهم في الحياة الدنيا، فقال الله تعالى بشأنهم:

● ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦):

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾: أي: إِنَّا بعِظْمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وجلالها اضْطَفَيْنَاهُمْ وَنَقَّيْنَاهُمْ من الشوائب.

﴿بِخَالِصَةٍ﴾: أي: بسبب خُصْلَةٍ وعبادة خالصةٍ مِنْهُمْ لنا.

﴿وَذِكْرَى﴾: اسْمٌ للتذكُّر هنا.

﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عطف بيان أو بدل من «خالصة» أي: وهذه الخصلة الخالصة النقية من الشوائب، هي الاشتغال بتذكُّر الدار الآخرة دوماً، إذ هي الدار الجديرة بأن تكون هي الدار التي تشغل ألباب أولى الألباب، وذكرى الدار الآخرة دوماً يدفع إلى العمل للظفر بأسمى المراتب وأعلى الدَرَجَات في جنات النعيم فيها.

إِنَّ الدَّارَ الآخرة هي الدَّارُ الجديرةُ بأن تُعَرَّفَ بـ (أَل) التي للكمال، أما دار الحياة الدنيا، فالحياة فيها حياة قَلِيلَةٌ ضئيلة مُنْغَصَّةٌ بالأكدار، وفَانيةٌ سريعة الزوال، وهي لا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُوصَفَ بشيءٍ يُشْعِرُ بكَمالها أو بالثناء عليها.

فمن كان من أولي الألباب أخْضَرَ الدار الآخرة في ساحة التذكُّر لديه دوماً، مع كُلِّ تَوَجُّهٍ لعمل من أعماله الظاهرة والباطنة، الفكرية والنفسية والقلبية والجسدية، وهذا يجعل تَوَجُّهَهُ مُنْحَصِراً في ابتغاء مرضي الله، والابتعاد عن مساخطه، وفي اختيار الأَكْثَرِ ثواباً عنده، والأرفع منزلةً لديه، والأكثر قرباً منه.



وهكذا كان حال «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» الذين جئ بهم مثلاً لهذا الصَّنَفِ الممتاز من الرُّسل.

وإضافة «ذَكَرُوا» إلى «الدار» من إضافة المضمر إلى مفعوله، أي: تذكّرهم الدائم الدار الآخرة.

وأما قراءة: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) بدون بتنوين لفظ خالصة، فهو من قبيل الإضافة على تقدير «مِنْ» نظير «بابٌ ساجٌ» أي: بابٌ من ساج، ونقول هنا: بخالصةٍ ذَكَرُوا الدار. أي: بخالصةٍ من ذَكَرُوا الدار.

وجاء في ختام هذه الفقرة تقويم الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ من مرتبة المحسنين، لكلٍّ من «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فقال الله عزَّ وجل بشأنهم:

• ﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧).

﴿لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ﴾: جمع «المُصْطَفَى» وهو المفضلُّ المختار.

﴿الْأَخْيَارِ﴾: جمع «الْخَيْرِ» وهو ذو الخير الكثير.

فمنَحَهم الله بهذا التقويم المؤكد صِفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

**الصفة الأولى:** أَنَّهُمْ مِنَ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ففَضَّلَهُمْ واختارهم لمنازل القُرْبِ منه، ولاحتلال أَرْفَعِ المراتب والدرجات فيها، وهذا الاصطفاء قد كان ثواباً لهم على مَا كان منهم باختيارهم الحرِّ، إذ كانت ذَكَرُوا الدار الآخرة شُغْلَهُمُ الشاغل، وهَمُّهُمُ الْأَكْبَرُ المالى كُلَّ جوانب نفوسهم، وليست هي العصمة الَّتِي عصَمَهُمُ اللَّهُ بها بسبب التَّوْبَةِ والرسالة، إِذِ الْعِصْمَةُ ممنوحة لكلِّ الأنبياء والمرسلين، إِنَّمَا التفاضل فيما بينهم في درجات مرتبة المحسنين ثَمَرَةُ اختياراتهم الإرادية الحرَّة، فوق العصمة، وبعد تَحْلِيهِمُ بها، إِذَا الْعِصْمَةُ خاصَّةٌ في حدود مرتبة التقوى وحقوقها.

**الصفة الثانية:** أَنَّهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ، الَّذِينَ اكْتَسَبُوا بِأَعْمَالِهِمُ الظاهرة والباطنة الاختياريةَ خَيْرِيَّةً كَبْرَى.

وهذا أعظم تقويم منحه الله عز وجل لزمرة من عباده المرسلين، وفيه إلماح ضمني لخاتم المرسلين أن يختار طريقة هؤلاء، لا طريقة أصحاب المُلْك والغنى من متاع الحياة الدنيا ولو كانوا من المرسلين.

### خامساً

#### التدبر التحليلي للفقرة الخامسة من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآية (٤٨)

قال الله عز وجل:

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

وفي هذه الفقرة ذُكر ثلاثة من المرسلين، وقد مَنَحَهُمُ اللهُ عز وجل تقويماً واحداً فقال بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ وهذا الاختيار البياني يُشعرُ بأنَّهم قد جيءَ بهم مثلاً لصنف ثالث من الرُّسل، لا يدخل في صنف: «داود وسليمان وأيوب» ولا يدخل في صنف: «إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

وبالتأمل نلاحظ أنَّهم لم يأت في وصفهم أنَّهم «أوابون» إذ أنَّ فهم في المحافظة على حقوق مَرْتَبَةِ المحسنين أكثر التزاماً من صنف: «داود وسليمان وأيوب». ولم يأت في تقويم درجتهم أنَّهم «من الْمُصْطَفَيْنِ» بل اقتصر النص على أنَّهم «مِنَ الْأَخْيَارِ» فَهُمْ لم يرتقوا في مرتبة المحسنين إلى درجة صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

فهم إذن صِنْفٌ مَتَوَسِّطٌ بين الصنفين الآخرين، ودرجتهم في مرتبة المحسنين دُونَ درجة صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» وفوق درجة صنف «داود وسليمان وأيوب».

إسماعيل: هو الابن البكر لإبراهيم عليه السلام، من هاجر المصريّة، التي وهبها فرعون مصر لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام، فوهبتها سارة

لزوجها إبراهيم، فَوَلَدْتُ لَهُ إِسْمَاعِيلَ، وسافر بهما فأسكنهما بمكة بأمرٍ من الله .

ولما كبر وبلغ أشده جعله الله نبياً ورسولاً .

الْيَسَعَ: هو الْيَسَعُ بن أَخْطُوب، آمَنَ بِالرَّسُولِ إِيَّاسَ وَاتَّبَعَهُ، ثم جعله الله نبياً ورسولاً .

وقد أثبت القرآن نبوته ورسالته، وأنه مَنَّ فَضْلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . ولم يذكر المؤرخون أخباراً عنه .

ذو الكفل: قال أهل التاريخ: هو ابْنُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَام، واسمه في الأصل: «يُسْرَى» وقد بعثه الله بعد أَيُّوبَ، وَسَمَّاهُ «ذَا الْكِفْلِ» وكان مقامه في الشَّام، وأهل دمشق يتناقلون أَنَّ لَهُ قَبْرًا فِي جَبَلِ قَاسِيُونِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .  
والقرآن لم يزد على ذِكْرِ اسْمِهِ فِي عِدَادِ الْمُرْسَلِينَ، وَلَمْ أَقِفْ عَلَى تَرْجُمَةٍ مَبْسُوطَةٍ لَهُ .

وروى عن مجاهد، أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَكَفَّلَ لِبَنِي قَوْمِهِ أَنَّ يَكْفِيَهُمْ أَمْرُهُمْ، وَيَقْضِي بَيْنَهُم بِالْعَدْلِ، فَسَمَّيَ ذَا الْكِفْلِ .



**الغرض الرئيس من هذا الدرس بفقراته الخمس :**

ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الدَّرْسِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ ثَلَاثَةَ نَمَازِجٍ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَفِي كُلِّ نَمُودِجٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الرُّسُلِ، تَشَابَهَتْ صِفَاتُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ، وَتَقْوِيمُ دَرَجَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ضَمَّنَ دَرَجَاتٍ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ .

وَوَضَعَ الرَّسُولُ مُحَمَّدًا ﷺ أَمَامَ إِحْدَى اخْتِيَارَاتِ ثَلَاثَةِ يَخْتَارُهَا لِنَفْسِهِ، وَالْمَحْ إِيَّاهُ ضَمْنًا أَنْ يَخْتَارَ مَا يُوَصِّلُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَى أَسْمَى دَرَجَاتِ الْمُحْسِنِينَ، عَلَى أَنَّ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ مَا يَشَاءُ .

فإن اختار نموذجَ صِنْفٍ: «داودو وسليمان وأيوب» فعليه أن يُعِدَّ نفسه لمثل ما فُتِنَ به هؤلاء الرُّسُلُ الثلاثة، ولمثل ما تعرَّضوا له من بلاء، وهل باستطاعته مع الملك والسلطان أو الغنى الواسع، أن يكون دائم الاستقامة على حقوق مرتبة الإحسان بكلِّ درجاتها، دون أن يتعرَّض لما يجعله من الأوابين؟.

وإن اختار نموذجَ صِنْفٍ «إسماعيل واليسع وذى الكفل» فَلْيُعِدَّ نفسه أن يكون تقويُّمٌ درجته عند ربِّه أنَّه من الأخيار، دون أن يكون من المصطفَّين الأخيار».

أما إذا اختار لنفسه نموذجَ صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فَلْيَتَّعِذْ عن طلب الملك والسلطان الدنيوي، وعن طلب الغنى والثراء الكثير، وعليه أن تكون ذكرى الدار الآخرة أَكْبَرَ هَمِّه، وأعظم ما يَسْعَى له في مسيرة حياته، حتَّى ينالَ ميزة:

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۚ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۖ ﴾ (٤٦) ﴿ ٤٧ ﴾ \*

وأمام هذه التخييرات التي وضعها الله عزَّ وجلَّ أمام رُسُولِهِ محمد ﷺ، وقد دُلَّ عليها العرض في الدرس الثاني من دروس السَّورة بفحواه ولوازمه الذهنية، نُذرك أن الرسول محمداً ﷺ قد اختار لِنَفْسِهِ أَنْ يكون عبداً رُسولاً، وأثر نموذج «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» وتشهد لهذا سيرته صلوات الله عليه وسلاماته.

روى في شرح السَّنة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يَا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِيَ جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إِنْ حُجِرْتَهُ<sup>(١)</sup> لَتَسَاوَى الكَعْبَةُ، فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ويقول لك:

(١) حُجِرْتَهُ: مَغْقَدَ إِزَارِهِ.

إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا. قَالَ: فَتَنْظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ: فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعُ نَفْسَكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْدًا.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمُستشير له، فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقلت: نبيًّا عَبْدًا.

قالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل مُتَكِنًا، يقول:

«أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»<sup>(١)</sup>.



(٧)

### التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٤٩ - ٦٤)

قال الله عز وجل:

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَلَاحٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مَطْرُفٍ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِلَى الطَّعِينِ لَشَرِّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ بَصُلُوتُهَا فِئَسَ إِلْهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لِيَوْمِئِذٍ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَأَ يَكُومُ أَشْرُ قَدَمْتُمُوهُ لَنَا فِئَسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا

(١) انظر مشكاة المصابيح رقم الحديث ٥٨٣٥، ومسند أبي يعلى الجزء الثامن ص ٣١٨ رقم الحديث ٤٩٢٠ قيل: سنده ضعيف. وأقول دلالاته مطابقة لما يشير إليه الدرس الثاني من دروس سورة (ص) ضمناً.

نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٦﴾ اتَّخَذْتَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ رَآعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٧﴾  
 إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٨﴾ .

### تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السورة، دُرُسٌ يشتمل على بيان لقطاتٍ من جَزَاءِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ عَذْنِ يَوْمِ الدِّينِ، وعلى بيان لَقَطَاتٍ من جَزَاءِ الطَّاغِينَ فِي جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ، وعلى مَشَاهِدَ وَمَوَاقِفَ لَهُمْ فِيهَا.

وصلة هذا الدرس بموضوع السورة واضح، فموضوع السورة يَدُورُ حول الموقف الَّذِي وصل إِلَيْهِ أئمة مشركي مَكَّةَ إِبَّانَ نزولها، وهو موقف مَنْ هُوَ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ، وحول حال الرسول ﷺ تُجَاهَ هذا الموقف، وحال المؤمنين معه، ومعالجة نفس الرُّسُولِ والمؤمنين، ومعالجة الكافرين بالإقناع وبالترغيب وبالترهيب.

ولَمَّا كَانَ من عناصر موقف الكافرين إصرارهم العنادي على التكذيب بيَوْمِ الدِّينِ، والتكذيب بالإنذار الَّذِي أنذرهم به الرسول ﷺ، إِذْ أُنبِأَهُمْ أَنَّهُمْ مَخْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ، إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بما جاءهم به عن رَبِّهِمْ وَيُسَلِّمُوا وَيَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

كَانَ من المُنَاسِبِ تَحْزِيكَ أَوْتَارِ الطَّمَعِ وَالْخَوْفِ فِي نَفْسِهِمْ، بَعْرَضِ لَقَطَاتٍ من جَزَاءِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ عَذْنِ يَوْمِ الدِّينِ، ولَقَطَاتٍ من جَزَاءِ الطَّاغِينَ فِي جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ، مع مَشَاهِدَ وَمَوَاقِفَ سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَئِذٍ.

إِنَّهُمْ لَمْ يَطْرَحُوا بَعْدُ شَيْئًا جَدِيدًا من إشكالاتٍ وَجَدَلِيَّاتٍ حَوْلَ نَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ، فَاقْتَصَرَتِ السُّورَةُ على تحريك أوتار الطَّمَعِ والخوفِ فِي نَفْسِهِمْ بِالْعَرَضِ الْخَبْرِيِّ.

● قول الله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾: المشار إِلَيْهِ مَا جاء في الدرس الثاني من دروس السّورة، المشتمل على التذكير بأحوال أصناف الرُّسل الثلاثة:

(١) صنف «داود، وسليمان، وأيوب».

(٢) وصنف «إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب».

(٣) وصنف «إسماعيل، وإليّسع، وذو الكِفَل».

على ما سبق بيّأه وشرحه، فجاءت عبارة: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ لتؤدّي وظيفتين:

الأولى: التوجيه لجعل ما جاء في الدرس الثاني ذكراً حاضراً في الذاكرة، للانتفاع به، ولا استدعائه عند المناسبات الداعيات.

الثانية: الإشعارُ بانتهاء الدرس السابق والبدء بدرس جديد.

لقطات من ثواب المتقين.

● قول الله عز وجل:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾:

هذه الجملة معطوفة على ما تضمّنه الدرس الثاني من ثواب المرسلين المحسنين، صراحةً أو ضمناً، فالصريح فيه قول الله عز وجل بشأن داود، ثم بشأن سليمان: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَکُفًى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ويُذرك بالقياس عليهما أنّ لأيوّب عليه السلام كذلك، لمشاركته لهما بعبارة: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

أما الصنّفان الآخران اللذان هما أرفع درجة في مرتبة الإحسان، فيفهم من باب أولى أنّ لهما عند الله مثل ذلك وزيادةً تُلائم درجة الارتقاء التي ارتقوا إليها.

وهنا يَرِدُ سؤال: فَمَا لِلْمُتَّقِينَ من غير المرسلين؟.

فجاء الجواب بأسلوب العطف: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

في هذه العبارة تأكيد من الله عزَّ وجلَّ لعباده، بأدوات التأكيد: «إِنَّ» و «ولام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنَّ المتقين لهم مآبٌ حَسَنٌ عند الله.

الْمُتَّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ مَا رَتَّبَ اللَّهُ مِنْ عِقَابٍ عَلَى مُخَالَفَةِ وَاجِبٍ اعتقادي، أو واجب عمليٍّ ظاهرٍ أو باطنٍ.

وَيُطْلَقُ لفظ «المتقي» على من اتَّقَى بعض العقوبات الربَّانية، ولو لَمْ يَتَّقِ عُقُوبَاتٍ أُخْرَى.

فمن اتَّقَى الخلودَ في النار بالإيمان والإسلام، وكان من مرتكبي الكبائر، من دون الكفر، فهو يَدْخُلُ في عموم المتقين، إِذْ اتَّقَى الخلود في النار.

والمتقون على درجاتٍ متفاوتات، أدناها من اتقى الخلود في النار، إِذْ كَانَ بريئاً من كلِّ المكفَّرات، وأعلاها من استكمل في حياته حَقُوقَ كُلِّ درجات مرتبة التقوى، بأداء كلِّ الواجبات، وترك كلِّ المحرَّمات، أو بتدارك حاله قبل الموت بالتَّوْبَةِ الصحيحة الصادقة، مع الإصلاح والاستقامة، فمن تاب صادقاً وأُصْلَحَ واستقام تاب الله عزَّ وجلَّ عليه، فحَمَى نفسه من العقاب على ما ارتكبَ من خطايا.

واللام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ هي لام الاختصاص، أو لام التمليك الربَّانيِّ لهم.

حُسْنُ الْمآبِ: هو حُسْنُ الْمَرْجِعِ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَوْتِ والبعث ليوم الدين.

الْمآبِ: مُضَدَّرٌ مِيمِيٌّ بمعنى «الْأَوْب» وهو الرجوع، تقول لغة: آبَ،



يُؤُوبُ، أَوْيَا، وَإِيَابَا، وَأَوْيَةً، وَأَيَّيَّةً أَي: رجع، والمصدر الميمي القياسي «مَآبٍ».

والإضافة في عبارة: ﴿لِحُسْنِ مَآبٍ﴾ على تقدير «مِنْ» أَي: لِحُسْنًا مِنْ مَرْجِعٍ يَرْجِعُونَهُ بعد الموت، لحياة الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وَالْحُسْنُ مَصْدَرُ «حَسَنَ، يَحْسُنُ، حُسْنًا» أَي: جَمَلَ. وَالْحُسْنُ الَّذِي يُوجَدُ فِي الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَّقِينَ، يَشْمَلُ حُسْنَ الْبُعْثِ، وَحُسْنَ الْحَشْرِ، وَحُسْنَ الْحِسَابِ، وَحُسْنَ فَضْلِ الْقَضَاءِ، وَحُسْنَ التَّكْرِيمِ بِالْأَمْرِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَحُسْنَ الْاِسْتِقْبَالِ فِيهَا، وَحُسْنَ الْإِقَامَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي أَنْوَاعِ نَعِيمِهَا وَصُنُوفِهِ.

وهذا أَوْلَى مِنْ حَمَلِ «الْمَآبِ» عَلَى مَكَانِ الرُّجُوعِ فَقَطْ عَلَى أَنَّهُ مَقْبُولٌ وَصَحِيحٌ.

وظاهر أن الجملة مؤكدة بـ «إِنَّ - وَلامِ الْاِبْتِدَاءِ - والجملة الاسمية» لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى التأكيد.

● قول الله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾: بَدَلٌ مِنْ ﴿وَحُسْنِ مَآبٍ﴾ بَدَلٌ بَعْضٌ مِنْ كُلِّ، إِذَا قُلْنَا: ﴿مَآبٍ﴾ مَصْدَرٌ مِمِّي، وَبَدَلٌ كُلٌّ مِنْ كُلِّ إِذَا قُلْنَا: ﴿مَآبٍ﴾ اسْمٌ مَكَانِ الْأَوْبِ.

جَنَّاتٍ: جمع «جَنَّةٍ» والجنة في اللغة الحديقة المكتنَّة بالأشجار. ولَمَّا كَانَتِ الْجَنَّةُ يَوْمَ الدِّينِ ذَاتَ أَقْسَامٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا، وَكَانَ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمُ جَنَّةٍ، كَانَتِ دَارُ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ جَنَّاتٍ بِاعْتِبَارِ أَقْسَامِهَا، وَصَحَّ أَنْ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ فِيهَا جَنَاتٍ أَيْضًا، أَي: أَقْسَامًا عَدِيدَةً، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى جَنَّةً.

عَذَن: أي: استقرار وثبات وخلود، يقال لغة: عَدَنَ بِمَكَانٍ كَذَا عَدَنًا، أي: أقام به واستقرّ فيه.

وينال الأبرار والمحسنون المراتب والدرجات الرفيعات من جنّات عَذَنٍ بحسب ارتقائهم في درجات مرتبة البر، أو درجات مرتبة الإحسان، لأنّ الأبرار متّقون وزيادة من أعمالٍ مرْتَبَةِ البرّ، ولأنّ المحسنين متّقون وأبرار، وزيادة من أعمال مرتبة الإحسان.

روى الترمذي بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«فِي الْجَنَّةِ مِثَّةٌ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ، مِنْهَا تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُوا اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ».

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا».

قالوا: أَفَلَا تُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>.

﴿...مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾: أي: إذا جاءوها وجدوا أبوابها مفتحة لهم من قبل وُضُولِهِمْ إِلَيْهَا، وهذا تكريم لهم بالاستقبال الحسن.

مفتحة: حَالٌ لَجَنَاتِ عَدْنٍ، أَوْ نَعَتْ لَهَا.

و «آل» في ﴿الْأَبْوَابُ﴾ بدلٌ عن الضمير، أي: مَفْتَحَةٌ لَهُمْ أَبْوَابُهَا. ﴿الْأَبْوَابُ﴾ نائب فاعل لاسم المفعول ﴿مَفْتَحَةٌ﴾.

وعلى هذا المعنى وهو كون أبواب جناتِ عَدْنٍ تُفْتَحُ قَبْلَ وُصُولِ أصحابها إليها يُحْمَلُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزُّمَرُ/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: حتَّى إِذَا جَاءُوهَا مقتربين منها، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا قَبْلَ وصولهم إليها مباشرة، تكريماً لهم.

بخلاف أهل جَهَنَّمَ فَإِنَّ أَبْوَابَهَا تَكُونُ مَقْفَلَةً عَلَى مَا فِي دَاخِلِهَا، حتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا الكافرون المسوقون لإدخالهم فيها فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا عِنْدَ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا، كما نشاهد في الأبواب الحديدية التي تنفتح عند الإحساس بوصول جِسْمٍ مقبل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سور (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) أيضاً:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارتي «حُسْنُ مَأْب» و «جَنَاتِ عَدْن»:

(١) جاءت عبارة: «حُسْنُ مَأْب» في القرآن ثلاث مرّات في سورة

(ص) في مَعْرِضِ بَيَانِ ثَوَابِ دَاوُدَ يَوْمَ الدِّينِ، وفي مَعْرِضِ بَيَانِ ثَوَابِ سُلَيْمَانَ، وفي مَعْرِضِ بَيَانِ ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ.

ثم جاءت في معرض الدعوة الضمنية إلى عدم تعليق القلب بمازَيْنَ للناس في الحياة الدنيا، فقال الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿... ذَلِكَ مَتَكُعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَآبِ ۖ﴾ (١٤)

ثم جاءت في معرض بيان ثواب الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فقال الله عز وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ (٢٩)

فَحُسْنُ الْمَآبِ وَضَفَّ يَشْمَلُ ثَوَابَ الْمُتَّقِينَ عَلَى تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ، وَثَوَابِ الْأَبْرَارِ عَلَى تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ، وَثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ عَلَى تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ.

(٢) وجاءت عبارة: «جَنَّاتِ عَدْنٍ» في القرآن إحدى عشرة مرة، بياناً لثواب المؤمنين والمؤمنات، وثوابِ أولي الألباب، وثواب المتقين، وثواب الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وثواب من تاب وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَثَوَابِ مَنْ أَتَىٰ رَبَّهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ صَالِحًا، وَثَوَابِ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ: ظَالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَمُقْتَصِدِينَ، وَسَابِقِينَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَثَوَابِ الْمُتَّقِينَ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ.

وجاءت ضمن بيان دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَ اللَّهِ، وَوَعْدًا مِنْ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَجَزَاءً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ النَّصُوصُ عَلَى أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ.



● قول الله عز وجل:

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الظَّرَفِ أَنْزَابٌ﴾ ﴿٥٢﴾.

في هذا وصفٌ لنعيم أهل جناتِ عدنٍ وهم فيها، بثلاث صفات مُلتَقَطَاتٍ من سائر أنواع وصُوف وصُورِ نعيمهم التي جاء بيان بَعْضِهَا موزَعاً في سُور القرآن المجيد.

### الصفة الأولى:

هي الصفة التي دلَّ عليه مَشْهَدُ اتِّكَائِهِم المبيِّن في قوله تعالى:

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا﴾: الضمير في عبارة: ﴿فِيهَا﴾ يَعُودُ على جناتِ عدن.

الانكاء: هو الْجُلُوسُ بِتَمَكُّنٍ عَلَى مَجْلِسٍ وَثِيرٍ، وَيُصَاحِبُهُ غَالِباً وَضَعُ الْيَدِ أَوْ الْيَدَيْنِ عَلَى مَا يَحْمِلُهُمَا لِلرَّاحَةِ، بِالْقَاءِ ثِقَلٍ قِسْمٍ مِنَ الْجِسْمِ عَلَى الْمُتَكِّاءِ. والانكاء يستدعي ذهناً مُتَكِّئاً عليه.

والمُتَكِّئُ: هو مَنْ يَسْتَوِي قَاعِداً عَلَى وَطْءٍ مُتَمَكِّناً.

● وقد جاء البيان التفصيلي لهذا الانكاء مُوزَعاً في عَدَدٍ من سُور

القرآن المجيد:

(١) ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَهْوَنَ﴾ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّفُونَ ﴿٥٦﴾ لَّهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾.

فأبان هذا النص أن من أحوالهم في الجنة، أن يَكُونُوا في ظلال أشجارها مُتَكِّفِينَ على الْأَرَائِكِ.

الأرائك: جمع «الأريكة» وهي المقعد المنجَّد الوثير في قُبَّةٍ أَوْ قَصْرِ

أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

(٢) وفي سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) قال الله عز وجل  
في وصفِ بعضِ أحوالِ المنعمين في الجنة من السابقين المقربين من  
أصحاب اليمين أنهم يكونون:

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿مَوْضُونَةٍ﴾ : أي: منسوجة كما تُنسج الدروع.

قدل هذا النص على أن الاتكاء قد يكون على السُرر.

(٣) وفي سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ  
عَمَلًا ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ  
ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ  
وَحَسَنَتٍ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾﴾ .

سُندُس: نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير.

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ : نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير.

وكلاهما من أصناف الديباج.

فأضاف هذا النص إلى ما جاء في سورة (ص) صوراً ومشاهد لم  
تذكر فيها.

(٤) وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) وصف لبعض

أحوال المتقين في الجنة، فقال الله عز وجل فيها:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّاهُمْ رُبُّهُمْ  
عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ  
مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿فَكَهَيْنَ﴾: أي: ناعمين فرحين مسرورين، يتناولون لذاتهم طيبة بها نفوسهم، مُعْجِبِينَ بما آتاهم ربهم.

فجاء في هذا النص وصف السرر التي يتكئون عليها أنها سرر مَصْفُوفَةٌ، وهذا الوصف يقتضي أنها موضوعة بعناية ضمن صفوف متناسقة.

(٥) وجاء في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) قول الله عز وجل بشأن من خاف مقام ربه، وفي وصف بعض أحواله في الجنّتين اللّتين له:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾﴾.

فأبان هذا النص أن السرر التي يتكئون عليها فوقها فرش بطائنها من إستبرق، وقد سبق بيان الإستبرق قريباً.

وجاء في هذه السورة أيضاً في وصف بعض أحوال من لم يَرْقَ إلى درجة من خاف مقام ربه، أن له جنتين من دون الجنّتين اللّتين لمن خاف مقام ربه، قول الله عز وجل:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانِ ﴿٧٦﴾﴾.

الرَّفْرَف: نوع من الثياب نفيس.

والعَبَقَرِيّ: المراد نوع من أقمشة الديباج الثخان المنسوجة من الحرير، والطَّنَافِسِ الثُّخَان، وهي البسط.

فجودة الرَّفْرَفِ والعَبَقَرِيّ الحسان، دون جودة فرش بطائنها من إستبرق.

(٦) وأخيراً أنزل الله عز وجل، في بيان أن من أحوال أهل الجنة يوم الدين أن يكونوا مُتَّكِئِينَ فيها، قوله في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن ثواب الأبرار:

﴿وَجَزَّيْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ .

فأبانت هذه النصوص أن من مشاهد المتقين، والأبرار، والسابقين المقربين، أن يكونوا متكبرين، ولكن الأشياء التي يتكئون عليها متفاضلة في صفاتها.

- فالمتقون لهم مستوى يلائم درجتهم في التقوى.
- والأبرار لهم مستوى أرفع من مستوى المتقين فقط.
- والسابقون المقربون وهم أهل مرتبة الإحسان لهم مستوى أرفع من مستوى المتقين، ومن مستوى الأبرار.

### الصفة الثانية:

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ .

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾: أي: يطلبون وهم في جناتٍ عذبةٍ مجردة طلب، فيأتيهم ما يطلبون.

يُقَالُ لُغَةً: دَعَا بِالشَّيْءِ، يَدْعُو، دَعَا، وَدَعَاةٌ وَدُعَاءٌ، وَدَعَاةٌ، أَي: طَلَبَ إِحْضَارَهُ.

**الفاكهة:** الثمار اللذيذة، وغالباً ما تكون حلوة.

أي: فهم يطلبون ما يشاءون من فاكهة كثيرة وشراب، فيأتيهم ما طلبوه، دون أن يحتاجوا إلى إحضاره بأنفسهم.

ووصفُ الفاكهة بأنها كثيرة يدلُّ على كثرة الأنواع والأصناف، وكثرة الأعداد والأفراد.



وتنكير الشراب يدُلُّ على نفاسته، وكثرة أنواعه وأصنافه، وكثرة كَمِّيَّته، أي: وشرابٍ نفيسٍ متنوعٍ وكثير.

### الصفة الثالثة:

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْزَابٌ﴾ (٥٢).

أي: وعندهم من نساء الجنة زوجات قاصرات الطرف لا ينظرن لغير أزواجهنَّ، وهنَّ مُتساويات في السنِّ، متساويات في الحُسن، متحاباتٌ بَيْنَهُنَّ.

قاصرات الطرف: صفة لموصوفٍ مخذوف، أي: زوجات قاصرات الطرف.

الطرف: يطلق لغة على: تحريك الجفن، وعلى العين، وعلى النظر. وذات الطرف القاصر، وهي العفيفة التي لا تنظر إلى غير زوجها. والمعنى: أنَّهنَّ عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهنَّ في الجنة، فتقصرُ كُلُّ واحدةٍ مِنْهُنَّ طَرَفَهَا على النظر إلى زوجها لا تتعداه.

أُنْزَابٌ: جمع «تَرْب» والأتراب هنَّ اللواتي يَكُنَّ على سِنِّ واحدة، وهنَّ في الجنة متساويات في الحُسن، ومتحاباتٌ لا تُفْسِدُ بَيْنَهُنَّ الْغَيْرةَ.

والتَرْبُ: عند أهل اللغة المتماثل في السنِّ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في المؤنث.



قول الله عز وجل:

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلٍ ﴿٥٤﴾

الخطاب موجّهٌ هنا لكلِّ مُمتَحِنٍ في رحلة الحياة الدنيا إذا كان من المتقين.

﴿هَذَا﴾: المشار إليه ما سَبَقَ بيانه في الآيات من (٤٩ - ٥٢).

﴿مَا تُوعَدُونَ﴾: الوعد في اللغة: هو الإخبار بما تمّ العزمُ على فعله، فإذا ذُكِرَ فِعْلُ «وَعَدَ» دون بيان الموعود به فهو وعْدٌ بالخير، لا بالشرّ، على أنَّ المشارَ إليه باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ يُعَيِّنُ أَنَّهُ وعْدٌ بالخير حتماً.

﴿لَيَوْمِ الْحِسَابِ﴾: أي: مؤجّلاً ليوم الحساب، ويوم الحساب يشمَلُ الحساب، وفضل القضاء، وتحقيق الجزاء.

أي: هذا الجزاء العظيم المبيّن للمتقين هو ما وعده الله الممتحنين في رحلة الحياة الدنيا، مؤجّلاً ليوم الحساب، وهذا الوعدُ يتجدّد دواماً ما دامت حياة الابتلاء.

● ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَكُم مِّن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ المشار إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَدْعُو به المتقون في الجنة من مأكول ومشروب، وغير ذلك من وسائل النعيم فيها، مَهْمَا تَوَالَتِ الأزمان التي لا نهاية لها فيها، لأنّها دَارُ الخلود، فوسائل النعيم فيها رِزْقٌ يَرْزُقُهُ اللَّهُ عباده المنعمين.

الرِّزْقُ: في اللغة كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ به.

﴿مَا لَكُم مِّن نَّفَادٍ﴾: أي: ماله من فناءٍ ولا انتهاء.

النفاذ: في اللغة، الفناء والانتهاء، أي: انتهاء النوع عن آخره، يقال لغة: نَفَدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفْدًا وَنَفَادًا، أي: فَنِيَ وَذَهَبَ وانتهى عن آخره.

جاء في هذه الآية تأكيد عدم نفاذ رزق الله عزّ وجلّ في الجنة لأصحابها بالمؤكدات «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المرحقة للخبر».

وجاء التنصيص على استغراق نفي النفاذ لكل أفراد رزق الله كما وكيفاً، بإضافة حرف الجر الزائد «من» في العبارة، وجرّ كلمة «نفاذ» بها.



### لقطات ومشاهد من جزاء الطّاعين:

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ﴾ .  
 هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَثَابٍ﴾ . وتحليل  
 العبارة هنا منظر لما سبق من تحليل العبارة المعطوفة عليها، فهما متماثلتان  
 في الأسلوب، وفي الصياغة، إلا أنّ السابقة جاءت لبيان حال المتقين،  
 وهذه جاءت لبيان حال الطّاعين.

ففي هذه العبارة تأكيد من الله عزّ وجلّ لعباده، بأدوات التأكيد:  
 «إِنَّ» و «لَا» الابتداء و «الجملة الاسمية» بأنّ الطّاعين لهم شرّ مآبٍ  
 عند الله يوم الدين، لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى هذا التأكيد.

ولا تخفى على المتدبر فنيّة التّقابل المتناظر بين العبارتين.

الطّاعون: جمع «الطّاعي» وهو كلّ متجاوز الحدّ المقبول منه. يقال  
 لغة: طغى الشيء، إذا تجاوز حدّه المقبول منه، فنتج عن هذا التجاوز سوء،  
 أو ضرر، أو شرّ، أو خروج عن الحق أو الواجب، وعِضيان وإثم.

والمراد بالطّاعين من أوصلهم طغيانهم إلى درك الكفر، ويكون مقدار  
 طغيانهم بحسب تسفلهم في الدرجات.

ونلاحظ في القرآن أنّ الله عزّ وجلّ:

(١) قد وصف فرعون في القرآن بأنّه طغى.

(٢) ووصف عاداً وثمود وفرعون بأنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها

الفساد.

(٣) ووصف الذين قالوا عن رسولهم: ساحرٌ أو مجنون بأنهم قوم طاغون.

(٤) ووصف الكافرين بأنهم قوم طاغون.

(٥) وقال تعالى في سورة (النبا/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾﴾.

● قول الله عز وجل: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾: هي دار عذاب الكافرين الطاغين، ولفظ «جهنم» اسم علم من أسماء دار العذاب يوم الدين، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

ويقال لغة للقعر البعيد: «جَهَنَّم». وبئر جهنم، أي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يُعَذَّبُونَ بِالْحَرِيقِ فِيهَا. يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بِهَا، إِذَا اخْتَرَقَ فِيهَا، وَلَا مَسَ لَهَا بِهَا جَسَدُهُ مُحْرِقًا.

وَالنَّارُ لَا يَصْلَاهَا مُعَذَّبًا بِحَرِيقِهَا، إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى، وَمَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى دَرَكَةِ «الْأَشْقَى» مِنَ الَّذِينَ يَسْتَحَقُّونَ الْعَذَابَ، فَإِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ فِيهَا عَذَابًا أَخَفَّ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ.

﴿فَيَنْسَ الْمِهَادُ﴾: أي: فَيَنْسَ الْمِهَادُ مِهَادُهُمْ فِي جَهَنَّمَ.

يَنْسَ: فَعْلٌ جَامِدٌ لِإِنْشَاءِ الدَّمِ، وَهُوَ مَنْقُولٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى الدَّمِ مِنْ فَعَلَ «يَنْسَ» إِذَا أَصَابَ بُؤْسًا.

الْمِهَادُ: هُوَ الْمَكَانُ الْمَمْهُدُ الْمَوْطَأُ، وَأُطْلِقَ عَلَى مَكَانِ الطَّاغِينَ فِي جَهَنَّمَ لَفْظَ «مِهَادٍ» عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ، أَوْ تَلْوِيمِهِمْ عَلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَوْ فَسَادِ تَصَوُّرِهِمْ بِأَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ يَسْعَوْنَ لِنَيْلِ مِهَادٍ كَرِيمٍ فِي حَيَاتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَسْعَوْنَ إِلَى احْتِلَالِ مَكَانٍ فِيهِ بُؤْسُهُمْ وَعَذَابُهُمْ.

● قول الله عز وجل: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۝٥٧﴾ وَعَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ: ﴿أَزْوَاجٌ ۝٥٨﴾.

﴿هَذَا﴾ اسم إشارة، وهو مبتدأ، والمشار إليه: ﴿حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ وَعَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾. وجملته ﴿فَلْيَذُقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ والخبر، للدلالة على أَنَّ الطَّاغِينَ فِي جَهَنَّمَ يُلَجَّؤُونَ مضطرين إلى أَنْ يَذُقُوا هذه الأصناف الكريهة من الشراب. فالأمر في الجملة المعترضة أمرٌ تكويني يُشْعِرُ بأنَّهم مجبورون، على شُرْب هذه الأصناف الكريهة اضطراراً، إذ قد يكون ما هم فيه من ظمأ أشدَّ عليهم من شُرْبها، على أَنَّها لا تُغْنِيهم ولا تُزويهم، بل تزيد من عذابهم.

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: ماء حارٌّ ساخنٌ شديد الحرارة.

﴿وَعَسَاقٌ﴾ وفي القراءة الأخرى [عَسَاق] بتخفيف السين، هو سائل أصفر يشبه الماء الأصفر الذي تُفَرِّزُهُ الجلود إذا تَقَرَّحَتْ وَاخْتَرَقَتْ.

﴿وَعَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾: أي: وشراب آخر من مثل شراب العَسَاق وشبيه به كَرِيه.

وفي القراءة الأخرى: [وَأُخْرَى] جمع «أُخْرَى» أي: ومَشْرُوبات أُخْرَى من شكل العَسَاق، أي: من مثله في الخِسَّة والكراهية.

ومؤدَّى القراءتين واحد.

﴿أَزْوَاجٌ﴾: أي: هي أصناف من الشراب للطَّاغِينَ، كُلُّهَا كَرِيه خَسِيس.

يُطْلَقُ «الزَّوْجُ» في اللُّغَةِ على الصَّنْفِ من كُلِّ شَيْءٍ، وجمعه «الأَزْوَاجُ». فمعنى: أزواج من الثمر، أصناف من الثمر، وهكذا إلى سائر الأشياء. وهذا غير إطلاق «الزَّوْج» على معنى أَنَّهُ خلاف الفرد.

قول الله عز وجل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۖ﴾ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ .

في هاتين الآيتين بيانٌ مشهودٌ حَدَثٍ آخر من مَشَاهِدِ أَحْدَاثِ جَهَنَّمَ، الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، وقد جاءت فِتْنَةٌ عَرَضَهُ عَلَى طَرِيقِهِ الاسْتِطْفَاعِ مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ وتقديمه كَأَنَّهُ يَجْرِي الْآنَ.

إِنَّهُ مَشْهُدٌ فَوْجِ الْأَتْبَاعِ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَى أَنْ يَقْتَحِمَ مُكْرَهًا دُخُولَ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَكُونَ مَعَ الَّذِينَ كَانُوا أُثِمَّتْهُمْ وَقَادَتْهُمْ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَدْ سَبَقُوهُمْ إِلَى الْإِسْتِقْرَارِ فِي مُسْتَقَرَّاتٍ عَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ.

إِنَّ أَفْرَادَ فَوْجِ الْأَتْبَاعِ يُدْفَعُونَ دَفْعًا جَبْرِيًّا، إِلَى مِشَارَكَةِ أَثِمَّتْهُمْ وَقَادَتْهُمْ فِي مُسْتَقَرَّاتٍ عَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ.

وَبَيَانُ الْمَشْهُدِ يَحْكِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنْ خِزْنَةِ جَهَنَّمَ يَقُولُونَ لِلْأُتَمَّةِ السَّابِقِينَ إِلَيْهَا عَنِ الْمُقْتَحِمِينَ الْجَدُّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ:

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ :

أي: لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَتْبَاعَكُمْ وَكُنْتُمْ أَنْتُمْ قَادَتَهُمُ الْمُضِلِّينَ لَهُمْ مَعَكُمْ، فَهُمْ مُقْتَحِمُونَ النَّارَ لِيَكُونُوا فِيهَا مَعَكُمْ.

الفوج: الجماعة من الناس القادمون معاً بِسُرْعَةٍ.

المقتحم: هو من يَزِمِي بِنَفْسِهِ فِي عَظِيمَةٍ مِنَ الْعِظَائِمِ، وَفِي أَمْرٍ شَدِيدٍ، وَالْمُقْتَحِمُ يَدْخُلُ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ بِجَرَأَةٍ وَبِشَجَاعَةٍ.

ولكن كيف يوصفون بأنهم مُّقْتَحِمُونَ، وَهُمْ يُلْجَأُونَ إِلَاجًا إِلَى الدُّخُولِ فِي جَهَنَّمَ؟

أقول: جاء هذا التعبير للدلالة على أمرين:

الأمر الأول: أن الصورة التي يكونون عليها عند إلجائهم إلى الدُخول في جهنم تكون مُشَابِهَةً لصورة المقتحمين، فمُشَاهِدُهُمْ يَرَى صورة فوجٍ يقتحم اقتحاماً.

الأمر الثاني: أَنَّهُمْ كانوا في الدُّنْيَا يَقْتَحِمُونَ اقتحاماً عَظَائِمَ الكُفْرِ والطغيان، التي هي أسباب دُخُولِهِمْ في جهنم خالدين، فَأُطْلِقَ وَصْفُ السَّبَبِ على المسبَّب. إِنَّ مَنْ يَقْتَحِمَ أمراً عظيماً يحبه، لَكِنَّ عَقُوبَتَهُ القَتْلُ، فَإِنَّهُ يَقْتَحِمُ عَقُوبَةَ القَتْلِ.

فَيَرُدُّ الأئمة والقادة السابقون في اقتحام دخول عذابهم إلى مستقراتهم فيها قائلين:

﴿لَا مَرَحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

﴿لَا مَرَحَبًا بِهِمْ﴾: أي: لا نريد أن يكونوا شُرَكَاءَنَا في مُسْتَقَرَّاتِ عذابنا، فنحن لا نريد أن يَتَسَعَ المكان لهم حتَّى يكونوا معنا فيه.

يقولون هذا كِبَرًا وَتَرْفُعًا عن مشاركة أتباعهم لهم في مستقرات عذابهم، وتبرؤاً من أَنَّهُمْ قد كانوا السبب في إضلالهم.

كلمة: «مَرَحَبًا» كلمة دعوة لتكريم الضيف بمكانٍ رَحْبٍ واسع. يقال لغة: رَحِبَ المَكَانُ يَرْحَبُ رَحْبًا، وَرَحِبَ المَكَانُ يَرْحُبُ رُحْبًا وَرَحَابَةً، أي: اتسع، و«مَرَحَب» اسم مكانٍ يَطْلُقُ على المكان الواسع.

وللتبرؤ من أَنَّهُمْ قد كَانُوا السَّبَبُ في إضلالهم، قالوا بِشَأْنِ أَتْبَاعِهِمْ: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾: أي: إِنَّهُمْ مُعَذَّبُونَ بعذاب الحريق في النار بِأَسْبَابٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

قالوا هذا لِيُنْبَعِدُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَقُوبَةَ الإِغْوَاءِ والإِضْلَالِ، حتَّى لَا تُضَافَ إِلَى عَقُوبَةِ طُغْيَانِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلِيُنْبَعِدُوا أَتْبَاعَهُمْ عَنْهُمْ حتَّى لَا يُخَاصِمُوهُمْ.

وَيَسْمَعُ الْآتِبَاعُ مَقَالََّةَ الَّذِينَ كَانُوا أُثِمَّتْهُمْ وَقَادَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،  
فَيَكُونُ رَذُّهُمْ عَلَيْهِمْ مَا أَوْرَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَدَثًا مُقْتَطِعًا مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ  
الَّذِينَ، وَمُقَدِّمًا كَأَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فَعَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ۖ﴾.

أي: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَا نُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا مَعَنَا فِي مَنَازِلِ عَذَابِنَا، بَلْ  
نُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا فِي قَرَارِ الْجَحِيمِ، فَأَنْتُمْ بِإِغْوَائِكُمْ وَإِضْلَالِكُمْ قَدْ مَتَّمْتُمْ هَذَا  
العَذَابَ لَنَا.

﴿فَيَسَّ الْقَرَارُ ۖ﴾: أي: فَيَسَّ الْقَرَارُ قَرَارُكُمْ فِي قَاعِ الْجَحِيمِ.

القرار: المكان المنخفض الذي تَنَحَّدُ إِلَيْهِ الْمَيَاهُ، وَتَسْتَقِرُّ فِيهِ.

يَسَّ: فِعْلٌ جَامِدٌ لِإِنْشَاءِ الدَّمِ، وَحُكْمُهُ صِيغَةً وَإِعْرَابًا مِثْلَ فِعْلِ «نَعْم»  
عِنْدَ النُّحَوِيِّينَ.

﴿لَا مَرْجَا بِكُمْ ۖ﴾: أي: لَا مَكَانَ يَتَّسِعُ لَكُمْ مَعَنَا، وَلَا كَانَتْ لَكُمْ  
أَمْكَنَةٌ رَحْبَةً وَاسِعَةً فِي مُسْتَقَرَّاتِكُمْ، بَلْ جَعَلَهَا اللَّهُ ضَيِّقَةً عَلَيْكُمْ، حَاصِرَةً  
لِحَرَكَاتِكُمْ.

● قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۖ﴾.

أَبَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ فُوجَ الْآتِبَاعِ لَا يَرَوْنَ جَدْوًى مِنْ مَخَاصِمَةِ مَنْ  
كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أُثِمَّتْهُمْ وَقَادَتْهُمْ، فَيَتَوَجَّهُونَ لِرَبِّهِمْ سَائِلِينَ دَاعِينَ،  
فَقَالُوا:

رَبَّنَا قَدَّمَ لَنَا هَذَا الْعَذَابَ بِإِغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ وَتَحْرِيزِهِ، عَلَى أَنْ نَقْتَحِمَ  
شَنْيَعَةَ الْكُفْرِ وَكِبَائِرَ الْإِثْمِ، فَزِدْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ، عَذَابًا لِعَوَاثِيَّتِهِمْ،  
وعَذَابًا لِإِغْوَائِهِمْ لَنَا.



ضِعْفًا: ضِعْفُ الشَّيْءِ أو العدد في اللغة، مثله.

فالمعنى: رَبَّنَا زِدْهُمْ عَذَابًا آخَرَ فِي النَّارِ مِثْلَ عَذَابِهِمُ الَّذِي اسْتَحَقُّوه

على ضَلَالِهِمْ وَغَوَايَتِهِمْ.

● قول الله عز وجل:

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتُخَذَنَّهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ

زَاعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾.

دَلَّتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ عَلَى أَنَّ فَوْجَ الْآتِبَاعِ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا فِي مَسْتَقَرَّاتِ

عَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، يَتَلَفَّتُونَ بِأَحْثِينَ عَنْ مَعَارِفِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ

رِجَالٍ كَانُوا يُعَذِّبُونَهُمْ، أَيْ: يَطْلُتُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَشْرَارِ، بِتَأْثِيرِ زُخْرُفِ

أَقْوَالِ أُيْمِيَّتِهِمْ فِي الْكُفْرِ، وَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ هُمْ مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَفُقَرَائِهِمْ،

وَرَبَّمَا كَانُوا مُتَّهَمِينَ بِارْتِكَابِ قَبَائِحِ الذُّنُوبِ لَدَى أُمَّةِ الْكُفْرِ، فَلَا يَجِدُونَهُمْ

مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِيهَا، فَيَطْرَحُونَ احْتِمَالَيْنِ:

الاحتمال الأول: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُمْ سِخْرِيًّا، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ

ظَالِمِينَ لَهُمْ، جَاهِلِينَ بِحَقِيقَةِ حَالِهِمْ الَّتِي يَجِبُ أَنْ لَا يُسَخَّرَ مِنْهَا، لِأَنَّهُمْ

كَانُوا عَلَى حَقٍّ وَصِدْقٍ وَخَيْرٍ.

دَلَّتْ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ عِبَارَةٌ: ﴿أَتُخَذَنَّهُمْ سِخْرِيًّا ؟﴾.

وَفِي قِرَاءَةِ لَعْدَدٍ مِنَ الْقُرْآنِ: [أَتُخَذَنَاهُمْ] بِالْإِخْبَارِ دُونَ هَمْزَةِ اسْتِفْهَامٍ.

فَدَلَّتِ الْقِرَاءَتَانِ عَلَى أَنََّّهُمْ يَسْتَفْهِمُونَ أَوَّلًا، ثُمَّ يَغْتَرَفُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

يُسَخَّرُونَ مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

وَفِي قِرَاءَةِ لَعْدَدٍ مِنَ الْقُرْآنِ: [سُخْرِيًّا] بِضَمِّ السِّينِ.

سِخْرِيًّا وَسُخْرِيًّا: مِنْ مَصَادِرِ «سَخِرَ مِنْهُ وَسَخِرَ بِهِ» أَيْ: هَزِئَ بِهِ

وَيُقَالُ لُغَةً: سَخِرَ مِنْهُ، وَسَخِرَ بِهِ، يَسَخِرُ سَخْرًا، وَسَخْرًا، وَسُخْرِيَّةً،

وَسُخْرِيَّةً، أَيْ: هَزِئَ بِهِ.

الاحتمال الثاني: أنهم موجودون في النار، لكن زاعَتِ الأبصار عن رؤيتهم، بسبب حرّ جهنّم وما فيها ممّا تزيغُ به الأبصار.

دلّت على هذا الاحتمال عبارة: ﴿... أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ (١٦).

«آل» في: ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ عوض عن الضمير، أي: أم زاغت عنه أبصارنا.

زَاغَتِ الْأَبْصَارُ: أي: مالت عن سوائها وصِحّة نظرها. يقال: زاغ يزيع، أي: مال، ويُقال: زاغ عنه، أي: مال وعدل عنه.

● قول الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٤): بعد أن جاء في النصّ بيانُ صُورَةٍ من صُورِ التخاصم، الذي سوف يكون بين أئمة الكفر وبين الذين كانوا أتباعهم في الدنيا، وكان ممّا قد يتخيّله بعض المتلقّين، أنّ هذا المشهد الذي عرضه النصّ مُجرّد مشهدٍ لصُورةٍ خياليّة أدبيّة، نظير الصور الخياليّة الأدبيّة التي يَصنّعها القصاصون المهرّة، كَأَن من مقتضى كون القرآن المجيد حقّاً وصدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، توكيدُ أنّ هذا التخاصم الذي جاء في النصّ عَرْضُ صُورَةٍ منه هو تخاصم حقّ.

وجاءت الإشارة إليه باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، لأنّه أمرٌ سوف يكون يوم الدين، وجاء توكيد الجملة بالمؤكدات: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزلحقة إلى الخبر» فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ وجاءت عبارة: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ جملة مُبيّنة للمشار إليه البعيد.

﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو تخاصم أهل النار. وهذا من بديع الأساليب البياتيّة.

التخاصم: التنازع والمجادلة، في ادّعاءين مختلفين بين فريقين، كلُّ فريق منهما حريصٌ على إثبات ادّعائه وإبطال ادّعاء خصمه.

ومن صور التخاصم الذي سوف يكون بينَ التابعين والمتبوعين، ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مسح/ ٨٧ نزول):

﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَتَفَطَّعَتْ بِهِمْ  
الْأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا  
كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧﴾ .



(٨)

### التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٦٥ - ٨٨) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٦٥﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ أَنْتُمْ مَعْرُضُونَ ۝٦٨﴾  
مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ  
مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ  
مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ  
اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي  
اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن  
طِينٍ ۝٧٦﴾ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝٧٨﴾ قَالَ  
رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ  
الْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾  
قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ۝٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾ قُلْ مَا  
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ  
نَبَأُكُمْ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ .

تمهيد بنظرة عامة حول هذا الدرس الأخير من دروس السّورة:

تضمّن هذا الدرس تعليمًا من الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ، فليكلّ داعٍ إلى دين الله من أمته، كيف يرّد على أقوال الكافرين التي جاء بيانها في الدرس الأول من دروس السّورة.

وفي هذا التعليم مُتَابَعَةٌ دَقِيقَةٌ لأقوالهم بَعَرَضِ الرُّدُودِ عليها، دون إعادتها أو الإشارة إليها، وهذا من العُمُقِ القرآني، الذي يفهمه الرسول ﷺ تلقائيًا، ويفهمه من يفتح الله عليه من أهل التَّدَبُّرِ.

● جاء في الدرس الأول بيان تعجّب أئمة المشركين في مكّة من أن يأتيهم منذر منهم، وهذا البيان يتضمّن قضيتين:

**القضية الأولى:** أنّه يُنذِرُهُمْ بعذاب الله يوم الدين إذا أَصْرُوا على كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَيُنذِرُهُمْ بعذابٍ مُّعَجَّلٍ مُضْحُوبٍ بإهلاكهم إهلاكاً جماعياً شاملاً، كما حصل لمكذبي القرون الأولى، إذا وَصَلُوا في شرورهم إلى مثل ما وصل إليه الْمُهْلِكُونَ السَّابِقُونَ.

**القضية الثانية:** أنّه يَدَّعِي وهو واحدٌ منهم أنّه رَسُولٌ مُرْسَلٌ من الله عزّ وجلّ إليهم، يوحى الله إليه، فَهُوَ يُبَلِّغُهُمْ ما يُنْزِلُ الله عَلَيْهِ لِيُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ.

● وجاء في الدرس الأول أيضاً بيانٌ تعجّبهم الشديد من أن يدعّوهم إلى عبادة إلّهِ واحدٍ هو ربُّ السّماوات والأرض، وإلى تَبَذُّلِ أوثانهم وسائر آلِهَتِهِمْ التي يعبُدونها من دون الله.

ولم يقدّم الذين كفروا حول هذه القضايا غيرَ عبارات التّعجّب، ومعلوم أنّ التعجّب من أمرٍ ما لا يصحّ دليلاً على إبطاله، أو التشكيك فيه.

فقال الله عزّ وجلّ في تعليم الرّدّ على تعجّبهم بشأن هذه القضايا التي تعجّبوا منها:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ .

لقد سبق في صدر السورة التنبية على إعجاز القرآن عن طريق القسم به في قول الله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) .

فهو دليل على صدق رسالة محمد وصدق بلاغاته عن ربه بما فيه من إعجاز.

وبما أن الذين كفروا لم يقدموا دليلاً ما، واقتصروا على التعجب، كان من المناسب أن يقتصر الرد على ما هو مكافئ لمقالاتهم.

إنهم لم يقدموا دليلاً غير مجرد التعجب، فما على الرسول إلا أن يؤكد لهم أنه رسول بعثه الله ليبين للناس ما أنزل إليهم، وأنه جازم بإنذاره لهم، ويصر على إنذاره، ويتحذاهم به، فقال الله عز وجل له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ بهذا التعبير الحاصر، أي: ما أنا بالنسبة إليكم، بعد رفضكم دعوتي وبراهيني عليها، ورفضكم بشاراتي لمن آمن واسلم وعمل صالحاً، إلا رسول إنذار بعقاب الله لكم، في أجل أمركم، وربما في عاجله أيضاً، إذا لزمتم إصراركم على الكفر والتكذيب، ومقاومة رسالتي بعزة وشقاق.

والمعنى: أنتم تكذبون استناداً إلى التعجب فقط، وأنا أصبر على دغواي، ومعني معجزة القرآن، وبينني وبينكم التحدي للمستقبل.

أما تعجبهم من نبأ يوم الدين، وبغث الناس إليه، إذا حان حينه في علم الله جل جلاله وعظم سلطانه، فقد جاء في التعليم حوله قول الله عز وجل:

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ .

أي: قُلْ لَهُمْ إِنَّ نَبَأَ الْبَعْثِ وَيَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، نَبَأٌ عَظِيمٌ أَخْبَرَكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّي، وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَهْتَمُّوا بِهِ جَدًّا، وَتَتَفَكَّرُوا فِي أدْلَتِهِ الَّتِي سَبَقَ فِي مَرَاكِحِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْهَا، تَتَعَلَّقُ بِضَرُورَةِ تَحْقِيقِ الْجَزَاءِ. إِذَا تَفَكَّرْتُمْ حَقِيقَةً فِي مَعَانِي صِفَاتِ اللَّهِ جَلِّ جَلَالِهِ وَعَظَمِ سُلْطَانِهِ، وَمِنْهَا حِكْمَتُهُ وَعَدْلُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَتْرُكُ النَّاسَ سُدًى، وَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي الْآيَتَيْنِ (٢٧ وَ ٢٨) مِنْ سُورَةِ (ص) وَمَا جَاءَ فِيهِمَا مِنْ أدْلَةٍ كَافِيَةٍ لِإِقْنَاعٍ مَنْ يُرِيدُ الْحَقَّ.

لَكُنْتُكُمْ مَعَ كُلِّ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأدْلَةِ الْبُرْهَانِيَّةِ، عَنْ هَذَا النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِمَصِيرِكُمُ الْآبِدِيِّ مُعْرِضُونَ، لَا تَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِي أدْلَتِهِ.

فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُقَدِّمَ لَكُمْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ إِنْبَائِكُمْ بِهَذَا النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَهْزُ وَجْدَانَاتِ أُولِي الْأَلْبَابِ وَمَخَافَتِهِمْ، مَقْرُونًا بِالْأدْلَةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ إِعْلَامُكُمْ بِهَا؟!

مَاذَا تَفْعَلُ لِإِقْنَاعِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا؟!

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا النَّبَأَ الْعَظِيمَ هُوَ أَحَدُ عَنَاصِرِ الْخَبَرِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي أُوْحِيَ بِهِ إِلَيَّ حَوْلَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ، وَإِخْبَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَائِكَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَسُؤَالِهِمْ عَنِ الْغَرَضِ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَنْ صِفَاتِهِ، وَمَاذَا سَيَكُونُ مِنْ سَلَالَتِهِ.

فَقَدْ تَضَمَّنَتْ قِصَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ بَيَانَ قَانُونِ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ جَاءَ مِنْ عَنَاصِرِهَا بَيَانٌ أَنَّ إِبْلِيسَ طَلَبَ إِنْظَارَهُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُ الْخَلَائِقُ لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ.

فَأَنَا بِمَا جَاءَنِي مِنَ الْوَحْيِ أُبَيِّنُكُمْ، أَفَلَا تَجِدُونَ فِي كُلِّ هَذَا بَاعثًا عَلَى تَصْدِيقِي، وَهُوَ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي التَقَتْ عَلَيْهَا الْأَدْيَانُ الرَّبَّانِيَّةُ كُلُّهَا مُنْذُ عَهْدِ

آدم، وَقَبْلَ عَهْدِ آدَمَ، إِذْ كَانَ الْجَنُّ يَعْلَمُونَ هَذَا النَّبَأَ الْعَظِيمَ، وَهُمْ أُمَّةٌ مَخْلُوقُونَ قَبْلَ الْإِنْسِ، وَكَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَلَدَيْهِ عِلْمٌ بِهَذَا النَّبَأِ الْعَظِيمِ؟!

أفلا تجدون في كُلِّ هذا باعثاً على التفكير في الأدلة العقلية البرهانية التي تُبين ضَرُورَةَ وجودِ قانونِ الجزاء، وضرورة كون البعث للحساب وفُضْلُ القضاء وتحقيق الجزاء، إحدى عناصر خُطَّةِ الخلقِ الربَّانية. وَأَكْثَدُ لَكُمْ بَعْدَ هَذَا فَأَقُولُ لَكُمْ:

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٧٠﴾.

أي: بالنسبة إلى مَنْ أَصَرَ عَلَىٰ عِنَادِهِ وَكُفَّرَ، وَمُبِينٌ مَا أَوْحَىٰ اللَّهُ بِهِ إِلَيَّ.

● وجاء في الدرس الأول بيان اتهام أئمة الشرك والكفر في مكة إبان نزول السورة، بأنَّ مُحَمَّدًا صَاحِبُ مصلحة شخصية من دَعَوَتِهِ، إِذْ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٦٦﴾ أي: يُراد لمصلحته الشخصية من مال وزعامة وحب سلطان.

فجاء في آخر الدرسِ التعلّيمي الذي تَضَمَّنَ الرُّدُودَ على مقالاتهم:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٨٧ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ٨٨﴾.

وجاء هذا التعليم في آخر آياتِ السورة لأنَّ الاتِّهامَ يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِهِ، لا بمضمون دعوته، وفيه تَعْلِيمٌ لِحَمَلَةِ رسالة الرسول ﷺ من أُمَّتِهِ، أَنْ يَبْدُؤُوا بِالدِّفَاعِ عَنْ مضمون الرسالة قبل تبرئة أشخاصهم من اتهاماتِ أقوامهم لهم.

التدبر التحليلي لفقرات هذا الدرس:

● قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ٦٦﴾.

﴿قُلْ﴾: أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ رَدًّا عَلَى تَعَجُّبِ أُمَّةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ مِنْ أَنْ يَجِيئَهُمْ مُنْذِرٌ بِشَرِّ مِنْهُمْ، فَيَشْتُمُوهُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، كَمَا جَاءَ بَيَانُ مَقَالَتِهِمْ فِي الْآيَةِ (٤) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قُلْ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَضَرٍ تَنْحَلُّ فِي مَعْنَاهَا إِلَى «مَا» و «إِلَّا» أي: مَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ، وَهَذَا الْحَصَرُ حَضَرٌ إِضَافِي، أَي: مَا أَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ بَعْدَ أَنْ رَفَضْتُمْ بِلَاغَاتِي عَنْ رَبِّي، وَبِشَارَتِي لِمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَبَعْدَ أَنْ عَانَدْتُمْ وَأَضْرَزْتُمْ عَلَى الْكُفْرِ، إِلَّا مُنْذِرٌ، إِذْ لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ شَيْءٌ أَعَالِجُكُمْ بِهِ إِلَّا أَنْ أَوْجِهَ لَكُمْ الْإِنْذَارَ بِالْعَذَابِ الْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ اخْتِمَالِ مُعَاقِبَتِكُمْ بِعَذَابٍ مُعَجَّلٍ يَنْزِلُ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَالَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِمَنْ أَهْلَكَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى.

الإنذار: الإخبار بمكروهٍ سيأتي ضمن الشروط والصفات المبيّنة فيه.

وَقُلْ لَهُمْ أَيْضًا: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقْرُ ۝٦٦﴾.

أي: وَمَا مِنْ إِلَهٍ هُوَ رَبٌّ يَسْتَحِقُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ أَنْ يُعْبَدَ، وَيَجِبَ عَلَى مَرْبُوبِيهِ أَنْ يَغْبُدُوهُ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مِنْ دُونِهِ، الْقَهَّارُ الْغَالِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ الْمُجْبِرُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ، فَهُوَ يَفْعَلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا يَشَاءُ.

﴿مِنْ﴾ حرف جرّ زائد جيء به للدلالة على الاستغراق والتشخيص عليه.

﴿إِلَهٍ﴾: أي: مَعْبُودٌ بِحَقٍّ، وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا مَنْ هُوَ رَبٌّ، وَلَا رَبٌّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ، الَّذِي مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ قَهَّارٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ مَجْرُورٌ لَفْظًا مَرْفُوعٌ مَحَلًّا.



﴿اللَّهُ﴾: اسم علم على الأزلي الأبدي الخالق الرب الذي له كل الأسماء الحسنى والصفات العُلّيا، ولفظ «الله» خبر المبتدأ.

﴿الْوَحْدُ﴾: أي: الذي لا شريك له في ربوبيته، وهو صفة لله.

﴿الْقَهَّارُ﴾: أي: الغالب الذي يفعل بالغلبة والجبر في كل شيء ما يشاء، وهو صفة لله أيضاً.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: أي: خالق السموات وخالق الأرض وخالق كل ما بينهما، والمتصرف بكل ذلك دوماً بربوبيته في كل ما يجري فيه، من حركة وسكون، وزيادة ونقص، وإيجاد وإعدام، وتغيير في الصفات والأحوال والأوضاع، وثواب وعقاب، وعفو وغفران، أو محاسبة وجزاء، وغير ذلك، ومن كان وخذّه هو الخالق لكل ما سواه فهو الممد له بالوجود والبقاء، والممسك له دوماً، وهو المتابع لخلق أحداثه دوماً بربوبيته، فلا إله سواه.

﴿الْعَزِيزُ﴾: أي: القوي الغالب الذي لا يُغلب.

﴿الْغَفَّارُ﴾: أي: الكثير المغفرة لعباده المذنبين. «غَفَّار» صيغة مبالغة لغافر.

وفي هذا البيان دليل عقلي على أنه ما من إله إلا الله، فالدعوى مقترنة بالدليل عليها.

● ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

هذا تعليم آخر من تعليمات الرُّدود على مقالات الذين كفروا، التي جاءَ بيانها أو الإشارة إليها في الدس الأول من السورة، وهو بشأن يوم الدين.

﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾: أي: نبأ البعث بعد الموت للحساب وفضل القضاء

وتحقيق الجزاء نَبَأٌ عَظِيمٌ، إذ هو يَتَعَلَّقُ بمصيركم الأبدي، ولا يَتَعَلَّقُ بأمور عارضة تمرُّ وتَنَقِّضِي.

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٦٨) أي: أنتم تخصُّونه بالإعراض عنه، لئلا يكون كالعقبة المانعة عن مُمارَسَاتِكُمُ الْإِثْمَاتِ الظَّالِمَاتِ، أو لئلا تجدوا في نفوسكم حَرَجاً لدى هذه الممارسات.

**الإعراض:** إعطاء عارضة الوجه، وفي إعراضكم إشعارَ بَعْدِ أَكْثَرَاتِكُمْ لهذا النبأ العظيم، وَعَدَمِ تَوْجُّهِكُمْ للاهتمام به.

● ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩):

أي: وقل لهم هذا النبأ العظيم ليس أمراً جديداً ولا مُسْتَعْرَباً في تاريخ الخلق، بل هو معلوم مُنْذُ بَدْءِ خَلْقِ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْمَمْتَحِنِينَ، وَهُوَ معلومٌ للملائكة والجن قبل خَلْقِ آدَمَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلِ.

وله شاهدٌ في قصّة خَلْقِ آدَمَ وَمَا جَرَى فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لَدَى بَدْءِ خَلْقِهِ من اختصاص حول خَلْقِهِ، وَتَسَاوُلٍ عَنْ حِكْمَةِ خَلْقِهِ، وانقسامهم إلى مطيعين نَفَّذُوا أَمْرَ اللَّهِ بِالسُّجُودِ لآدَمَ، واستكبارِ إِبْلِيسَ الَّذِي كَانَ مُنْذَسّاً فيهم، وهو ليس من عُنُصْرِهِمْ، بَلْ كَانَ مِنَ الْجَنِّ الْكَافِرِينَ بِإِلَهِيَّةِ اللَّهِ بَاطِناً، فَكَشَفَهُ الْامْتِحَانُ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لآدَمَ.

والمعنى: ما كان لي قبل الوحي الرباني شيءٌ ما من علمٍ أو شعورٍ بموضوع المراجعات والاختصاص بين المَلَأِ الْأَعْلَى، ومن أدخل نفسه فيهم بنفاقه وهو إبليس.

عَلِمَ الشَّيْءَ وَعَلِمَ بِهِ: إِذَا شَعَرَ بِهِ وَلَوْ دُونَ إِحَاطَةٍ.

**المَلَأُ الْأَعْلَى:** هم كُبراء الملائكة وَعُظَمَاؤُهُمْ، وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهِمْ إِبْلِيسُ الَّذِي كَانَ بِنِفَاقِهِ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ مُنْذَسّاً فِيهِمْ، لِيَنَالَ عِنْدَ اللَّهِ عِزَّ

وَجَلَّ قُرْبًا، وَحُظُوءَةً يَكُونُ بِهَا ذَا رِئَاسَةٍ وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ عَلَى مَنْ دُونَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

**الملائكة:** هُمُ الْكِبَرَاءُ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ النَّاطِرِينَ إِلَيْهِمْ مِنَ الدَّهْمَاءِ.

وجاء في قصّة خَلْقِ آدَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَاكَمَ إِبْلِيسَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، إِذْ أَمَرَ اللَّهُ مَلَائِكَةَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَيَشْمَلُ هَذَا الْأَمْرُ مَنْ كَانَ مُتَافِقًا وَمُنْدَسًا فِيهِمْ، وَيَعْتَبَرُ نَفْسَهُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ أَصَرَ إِبْلِيسَ عَلَى اسْتِكْبَارِهِ، وَأَعْلَنَ كُفْرَهُ بِالْهَيْئَةِ اللَّهِ لَهُ، طَرَدَهُ اللَّهُ مِنْ مَنَازِلِ أَهْلِ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى، وَقَالَ لَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨) ﴿وَإِذْ كَانَ إِبْلِيسُ عَلَى عِلْمٍ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩) أَي: أَبْقِنِي حَيًّا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَأَنْظِرْهُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ السَّاعَةِ الْأُولَى الَّتِي يَكُونُ بِهَا إِمَاتَةُ جَمِيعِ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاوَاتِ، حَتَّى الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبِينَ، لَا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ.

جاء هذا البيان مُجْمَلًا مُقْتَضِبًا فِي الْآيَةِ (٦٩) لَكِنَّهُ بَعْدَ الْآيَةِ (٧٠) جَاءَ لَهُ بَعْضُ تَفْصِيلٍ فِي لِقَطَاتٍ، ضَمِنَ الْآيَاتِ مِنْ (٧١ - ٨٥) فَأَجَابَ هَذَا التَّفْصِيلُ عَلَى أَسْئَلَةٍ أَثَارَهَا الْكَلَامُ الْمُقْتَضِبُ فِي الْآيَةِ (٦٩) بَعْدَ إِنْهَاءِ عِبَارَاتِ التَّعْلِيمِ، لِئَلَّا يَكُونَ عَرْضُ الْقِصَّةِ اسْتِطْرَادًا ضَمِنَ عَرْضَ الْفَقْرَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ.

● قول الله تعالى: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٠):

أَي: وَقُلْ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلَ مُصِرًّا عَلَى مَوْقِفِكَ، وَبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هَذَا الْمَوْقِفِ إِلَّا أَن تَقُولَ لِلْكَافِرِينَ الْمَعْنِيِّينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ، فَلَيْسَ لَدَيَّ بَيَانٌ لَكُمْ غَيْرُ هَذَا إِذْ لَمْ تَأْتُوا بِجَدَلِيَّاتٍ جَدِيدَاتٍ أُبَيِّنَ لَكُمْ خَطَاكُمْ وَضَلَالَكُمْ فِيهَا، بَلْ تَوَقَّفْتُمْ عِنْدَ إِعْلَانِ تَعْجِيبِكُمْ وَشَتَائِكُمْ.

أما التعجب المجزّد فلا يضلح لأن يكون حُجَّةً أضلاً.

وأما شتيمتكم لي بأني ساحرٌ كذابٌ فإني لا أَرُدُّ عَلَيْهَا، بَلْ أُدَبِّرُ عنها، وَأَتَرَفُّعُ عَنْ أَنْ أُوَاجِهَكُمْ بِمِثْلِهَا.

## قصة خلق آدم واستكبار إبليس عن السجود له

تمهيد:

(١) جاءت في هذه السّورة لقطاتٌ من قصّة خلق آدم، واستكبار إبليس عن السّجود له مع ملائكة الملائكة الأعلى، حينَ وجّه الله عزّ وجلّ الأمرَ لَهُمْ وَلَمَنْ كَانَ مُنْذِراً فِيهِمْ، ومختلطاً بهم، إذ دَعَتِ المناسبةُ بَيَاناً أَنَّ البَغْثَ وَيَوْمَ الدِّينِ مِمَّا كَانَ معلوماً في تاريخ الخلق قبل خلق آدم لدى الملائكة، ولدى الجنّ الموضوعين في الحياة الدُّنيا قبل الإنسِ مَوْضِعَ الامتحان، الذي يَسْتَتِيعُ الحساب، وفَضْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاءت هذه اللّقطات في الآيات من (٧١ - ٨٥) من سورة (ص) / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول).

(٢) ثم أنزل الله عزّ وجلّ بياناً حول هذه القصة مشتملاً على لقطاتٍ أخرى في سورة الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) إذ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١ - ٢٥).

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ بياناً ثالثاً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطاتٍ أخرى فيها إضافات، وذلك في أواخر سورة (طه) / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول) إذ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١٦ - ١٢٦).

(٤) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً رابعاً حول هذه القصة مشتملاً على

لقطات أخرى فيها إضافات، لم يسبق ذكرها، وذلك في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٦١ - ٦٥).

(٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيَانًا خَامِسًا حَوْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، مُشْتَمَلًا عَلَى لَقَطَاتٍ أُخْرَى فِيهَا إِضَافَاتٌ لَمْ يَسْبِقْ ذِكْرُهَا، إِذْ اسْتَدْعَتِ الْمُنَاسِبَةُ ذِكْرَهَا، وَذَلِكَ فِي سُورَةِ (الْحَجَرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْبَيَانُ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٢٦ - ٤٤).

(٦) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيَانًا سَادِسًا حَوْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، مُشْتَمَلًا عَلَى لَقَطَاتٍ فِيهَا إِضَافَاتٌ لَمْ يَسْبِقْ ذِكْرُهَا، إِذْ اسْتَدْعَتِ الْمُنَاسِبَةُ ذِكْرَهَا، وَذَلِكَ فِي سُورَةِ (الْبَقَرَةِ/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْبَيَانُ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٣٠ - ٣٩) وَهَذَا آخِرُ بَيَانٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ حَوْلَ قِصَّةِ خَلْقِ آدَمَ، وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ عَنِ السَّجُودِ لَهُ، وَمَاذَا كَانَ مِنْ إِبْلِيسَ مِنْ إِغْوَاءِ آدَمَ وَزَوْجِهِ وَالتَّسْبِي فِي إِخْرَاجِهِمَا بَوَسَاوِسِهِ مِنَ الْجَنَّةِ.

ودراسة هذه النصوص في نظرة تكاملية شاملة، تتطلب بحثاً مستقلاً يجده القارئ إن شاء الله في الملحق الرابع من ملاحق سورة (ص) التي نتابع تدبر.

وأقتصر هنا على تدبر النص الوارد في سورة (ص).

● قول الله عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

● ﴿إِذْ﴾ ظرف لزمانٍ ماضٍ في محل نصبٍ على الظرفية بفعل محذوف تقديره «اذكر» والمعنى: ضُغ في ذاكرتك أيها المتلقي الحدث الذي

نقصه عليك، والذي كان في زمن ماضٍ ﴿إِذْ﴾ مضاف والجملة التي جاءت بعده مضاف إليه.

● ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾: المراد بالملائكة ملائكة الملائع الأعلى كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن كان معهم ومندساً فيهم منافقاً، وهو إبليس، بدليل ما جاء في الآية (٦٩) وهو قوله تعالى فيها: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩) كما سبق بيانه لدى تدبر الآية.

● ﴿...إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾: أي: إِنِّي سَأَخْلُقُ مَخْلُوقًا جَدِيدًا بَشَرًا مِنْ مَاءٍ وَتَرَابٍ مُخْتَلِطَيْنِ، وباختلاطهما يصيران طيناً، اسم الفاعل «خالق» يدل على الاستقبال كالمضارع، كما قد يدل على الحال، والخلق يكون بمعنى التقدير وبمعنى الإبداع.

البشر: هو الإنسان (الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث سواء) وقد يثنى فيقال فيه بشران، وقد يجمع على أبقار. ولعل التسمية مأخوذة من كون بشرته بأديّة غير مستورة بشعر أو غيره. فالبشرة ظاهر الجلد.

● ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ «إِذَا» ظرف لما يستقبل من الزمن والتسوية: إبلاغ الشيء الغاية المقدرة والمقصية له، حتّى يصير تاماً مستوياً، بالغاً الغاية المقصودة من صنعه.

● ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾: النفخ: دفع الريح بشيء من القوة، من مكان متسع عبر فوهة ضيقة، كالنفخ بالفم، أو النفخ بأداة تسمى المنفاخ. ﴿فِيهِ﴾ أي: في داخل كلّ جسده بعد تسويته. ﴿مِنْ رُوحِي﴾: أي: نفحة من جنس المادة اللطيفة التي خلقتها لتكون بها حياة الأنفس، وسميتها روحاً.

الروح: اللطف المخلوقات اللطيفة في الوجود، وأخفاها عن إدراك ذوي الإدراك من دون الرب الخالق، وهي من أمر الله التكويني مباشرة،

والرُّوحُ ما تكون به حياة الأنفس، وحقيقته سرٌّ من أسرار الإبداع الربّاني.

والإضافة في ﴿رُوحِي﴾ ليست على معنى أنها جزء من رُوح ذاتِ الله سبحانه وتعالى، بل هي على معنى المَلِك، كما أنَّ كُلَّ شيءٍ في السماوات والأرض وما بينهما مَلِكٌ لِلَّهِ، فَلِلَّهِ ما في السماوات والأرض، وهذا التعبير نظير التعبير في «سمائي». وأرضي، وجنّتي وناري» أو على معنى الاختصاص بأمرٍ من أموري، مثل: ﴿وَطَهَّرَ بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ﴾.

وبسبب الفهم الخطأ في هذه الإضافة سَقَطَ النصارى في تَوْهَم أنَّ عيسى عليه السَّلامُ جزءٌ من ذاتِ الله، سبحانه وتعالى عما يَصِفُونَ.

وقد أَطْلَقَ الله عزَّ وجلَّ على جبريلَ عليه السَّلام عبارة ﴿رُوحَنَا﴾ فقال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في معرض الحديث عن مريم عليها السلام:

﴿... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ﴾ (٧٧).

● ﴿... فَفَعَّوْا لَهُمْ سَجِدِينَ﴾: أي: فاسْقُطُوا بإحناء أعالیکم حتَّى تكونوا ساجدين واضعين جَبَاهَکُم على الأرض، والمراد السُّجُودُ لجهته لا لعبادته فالعبادة لا تكونُ إِلَّا لله جلَّ جلاله، وهو نظير السجود لجهة الكعبة، والغرضُ تكريمُ آدم واحترامُ العِلْم الذي علّمه الله إياه، والتكفير عن التَّسَاوُل عن الحكمة من خلقه الذي فيه رائحة الإشعار بأنّهم لم تَظْهَرْ لهم الغايةُ الحكيمة، من قضاء الله وقدره بخلق هذا المخلوق الجديد، وهم يقومون بالتسبيح بحمده والتَّقْدِيس له.

و «الفاء» في عبارة: ﴿فَفَعَّوْا﴾ تَدُلُّ على وجوب السجود له مباشرة عقب نفخ الروح فيه، وجعله كائناً حياً.

● ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣): أي: فنفذ الملائكة أمر الله تعالى لهم بالسُّجُود لآدم فوراً عقب نفخ الروح فيه، الَّتِي سَرَتْ بِلُطْفِهَا في كُلِّ ذَرَّةٍ من ذَرَاتِ جَسَدِهِ.

ويتساءل المتدبر: ما الحكمة البيانية من جَمْعِ مُؤَكِّدِينَ في هذه العبارة: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؟

أقول: لقد تنبَّه الزمخشري في كشافه للجواب فقال: «أفادا معاً أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ، ما بقي مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلَّا سَجَدَ، وَأَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ غَيْرِ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَوْقَاتٍ هـ

أي: فالتأكيد بعبارة: ﴿كُلُّهُمْ﴾ أفاد أَنَّهُمْ سجدوا عن آخِرِهِمْ، ما بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلَّا سَجَدَ. والتأكيد بعبارة: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أفاد أَنَّهُمْ سَجَدُوا مجتمعين في وقتٍ واحدٍ غير مُتَفَرِّقِينَ في أوقات، تنفيذاً للسجود الفوري الذي أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ به في قوله: ﴿فَقَعُوا لَّهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٢).

● ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤):

استثناء إبليس هنا هو من قبيل الاستثناء من عموم من أَمَرَهُمُ الله بالسجود لآدم، إِذْ قَدْ وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الأَمْرَ بالسجود لملائكة الملائكة الأعلى ولمَنْ كان مُتَدَسِّساً فيهم بنفاقه، ومُخْتَلِطاً بِهِمْ، معتبراً نفسه أَنَّهُ واحدٌ منهم، مع أَنَّهُ قد كان من جنس الجنِّ الذين يملكون بخلقِ الله القُدْرَةَ على الطاعة والمعصية، وهم مخلوقون من مارج من نارٍ، أي: من أخلاط نارية، بخاف الملائكة، فَإِنَّهُمْ بَفِطْرَتِهِمْ لا يعصون الله ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ، وَهُمْ مخلوقون من نور صافٍ نقي.

فالاستثناء هو من قبيل الاستثناء المتَّصِل، لا من قبيل الاستثناء المنقطع، وحمل لفظ «الملائكة» على أَنَّهُ يَشْمَلُ الملائكة والجنَّ خطأً مخالفٌ لدلالات النصوص القطعية.

فخطاب التكليف بالسَّجُود المَوْجَّه للملائكة، مَوْجَّه للملائكة ولمن كان مُدْعِياً أَنَّهُ منهم، أو معتبراً نفسه بنفاقه واحداً منهم.

وقد كشف الامتحان إبليس، فَأَبَانَ كُفْرَهُ بِإِلَهِيَّةِ رَبِّهِ، وَأَبَانَ أَنَّ عُنْصُرَهُ



لَيْسَ مِنْ عَنَصِرِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَالَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْ نُورٍ، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ.

﴿أَسْتَكْبَرُ﴾: أي: اشتدَّ في كِبَرِهِ عن السُّجُودِ لِآدَمَ، شِدَّةً جَعَلَتْهُ يَجْحَدُ إِلَهِيَّةَ اللَّهِ لَهُ، الَّتِي هِيَ حَقُّ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ دُونِهِ.

[الإله]: هو المعبود، وأوَّلُ عناصر عبادة العبد لربِّهِ الإِدْعَانُ لَهُ بِحَقِّهِ فِي طَاعَةِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَمَنْ جَحَدَ هَذَا الْحَقَّ فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهِ، لِأَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ تَسْتَلْزِمُ إِلَهِيَّتَهُ حَتْمًا لَزُومًا عَقْلِيًّا، وَلَا إِلَهَ هُوَ رَبُّ يُغْبَدُ بِحَقِّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

● ... وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾: أي: وكان إبليس من قَبْلِ أَنْ يُكْشِفَهُ الْامْتِحَانُ، مِنَ الْكَافِرِينَ بِحَقِّ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ، مَعَ إِيْمَانِهِ بِأَنَّهُ رَبُّهُ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مِنْ دُونِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

والإيمان لا يكون صحيحاً مقبولاً عند الله ما لم يتحقَّق الإيمان الكامل برُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِإِلَهِيَّتِهِ، دُونَ إِشْرَاكِ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا.

وَكُفِّرُ إبليس قد كان كُفْرًا بِإِلَهِيَّةِ اللَّهِ، وَطَغْنًا فِي حِكْمَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَإِبَاءً وَاسْتِنكَافًا عَنْ طَاعَتِهِ فِيمَا خَالَفَ هَوَاهُ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَوْجُودًا فِي نَفْسِهِ قَبْلَ كَشْفِهِ بِالْامْتِحَانِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ بِنَفَاقِهِ وَشِدَّةِ مَكْرِهِ مُنْدَسًا فِي الْمَلَائِكَةِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَانْدَسَ فِيهِمْ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْجِنَّ كَانُوا مُمَكِّنِينَ بِحَسَبِ طَبِيعَةِ أَجْسَادِهِمُ الشَّفَافَةِ اللَّطِيفَةِ الْقَادِرَةِ عَلَى التَّشْكِلِ، أَنْ يَدْخُلُوا فِي جُمُوعِ الْمَلَائِكَةِ، وَأَنْ يَتَظَاهَرُوا بِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ، ثُمَّ مُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْ الصُّعُودِ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ.

ولا يَصِحُّ هُنَا حَمْلُ «كَانَ» عَلَى الْكِينُونَةِ الْحَالِيَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَ الْامْتِحَانِ، لِأَنَّ الْامْتِحَانَ يَكْشِفُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ سَابِقًا فِي النَفُوسِ، أَمَّا التَّقَلُّبَاتُ الظَّاهِرِيَّةُ فَلَا وَزْنَ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا قِيَمَةً لَهَا.

● ﴿قَالَ يَإِٰدِيسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِیْنَ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية بيانٌ مشَّهَدٍ من مشاهد مُسَاءَلَةِ إبليس لمُحَاكَمَتِهِ، بشأنِ امتناعه عن طاعة أمرِ الله له بالسجود لآدم.

أي: قال الله عز وجل لإبليس في مَجْلِسٍ من مجالس محاكمته:

﴿يَإِٰدِيسُ﴾: نداءٌ له باسمِهِ الشَّخْصِيّ، لأنَّه هو وخدَّه الشَّخْصُ المحاكم، باعتبار أنَّه هو وخدَّه الَّذي لم يُطِيع أمرَ الله بالسجود لآدم، وصارَ فيما بَعْدَ عِنَادِهِ وإصراره على كفره رأسَ الشَّيَاطِينِ وإِمَامَهُمْ، وصارَ يُطْلَقُ لفظ إبليس على كُلِّ عاتٍ متمرِّد.

﴿مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ﴾: أي: ما الَّذي مَنَعَكَ من السجود لمخلوق أوليَّته عِنايتي وتكريمي فخلَقْتُ جَسَدَهُ بِیَدَیَّ، وقد كُنْتَ داخِلاً في عُمُومِ الَّذين أَمَرْتُهُمْ بالسجود له، باعتباركَ أَلْحَقْتَ نَفْسَكَ بالملائكة، حتَّى تَسَلَّلْتَ إلى مَلَأَتِهِمْ بقيامك بمثل ما يقومون به من عباداتٍ وطاعات، فكانَ عَلَیْكَ أَنْ تُطِيعَ فيما يَكْلُفُونَهُ، فَاكْتَسَبْتَ الانتماءَ يُصَاحِبُهُ تَحْمُلُ مَسْئُولِيَّاتِ التكاليف، وما تَسْتَتَبِعُ مِنْ جِزَاءٍ وَعَقُوبَاتٍ على المعاصي والمخالفات.

وبما أنَّ المحاكمَةَ مَوْجَّهَةٌ له من أَجْلِ عَدَمِ سَجُودِهِ لآدم، فلا بُدَّ أَنْ يُسْأَلَ عن المانع له من السجود، فلعلَّه يُبَيِّنُ عِذْرًا مَقْبُولًا، يُغْفِيهِ من تَرْتُّبِ الْعِقَابِ، أو يَسْتَغْفِرُ ويتوبُ وَيَنْدَمُ فيخَفِّفُ عنه من عقابه.

● ﴿... اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِیْنَ ﴿٧٥﴾﴾؟.

وَضَعَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ إبليس بهذا السؤال أمامَ أَمْرَيْنِ لا ثالثَ لهما:

الأمر الأول: أن يكونَ قَدْ مَنَعَهُ من السجود لآدم اسْتِكْبَارُهُ. أي: هو

يُعْظَمُ نَفْسَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهَا فِي مَرْتَبَةٍ أَعْلَى مِنْ مَرْتَبَةِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَطَاعُوا فَسَجَدُوا.

الأمر الثاني: أن يكون امتناعه من السجود مبنياً على أنه بتكوينه وفطرته أعلى منزلةً، وأزفع مرتبةً من الذين كُلِّفُوا أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ.

والمعنى: أَجْعَلْتَ نَفْسَكَ بِغَيْرِ حَقٍّ فِي مَرْتَبَةٍ فَوْقَ مَرْتَبَتِكَ الَّتِي هِيَ لَكَ بِخَلْقِ رَبِّكَ؟ أَمْ كُنْتَ فِي تَصَوُّرِكَ مِنَ الْعَالِينَ حَقِيقَةً فِي الْمَرْتَبَةِ، فَرَأَيْتَ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَسْجُدَ لِأَدَمَ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ طَاعَةً لِرَبِّكَ خَالِقِكَ؟

● ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦):

في إجابة إبليس هذه تَهَرُّبٌ مِنَ الاعْتِرَافِ بِالِاسْتِكْبَارِ، وَالتَّزَامٌ بِادِّعَاءِ الْقَضِيَّةِ الثَّانِيَةِ، اسْتِنَاداً إِلَى وَهْمِ التَّفَوُّقِ الْعَنْصَرِيِّ، الْمُسْتَنَدِ إِلَى ادِّعَاءِ أَنَّ عُنْصُرَ الْمَادَّةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ إِبْلِيسَ مِنْهَا وَهِيَ النَّارُ، أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْزِلَةً وَمَرْتَبَةً مِنْ عُنْصُرِ الطِّينِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ جَسَدَ آدَمَ مِنْهُ.

لَقَدْ زَعَمَ أَنَّ عُنْصَرَ النَّارِ خَيْرٌ مِنْ عُنْصُرِي الْمَاءِ وَالتُّرَابِ، الَّذِينَ يَتَكَوَّنُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا بِبَعْضِهِمَا الطِّينَ، فَهُوَ أَعْلَى بِعُنْصُرِهِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْهُ، مِنْ عُنْصُرِ الطِّينِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُؤْمَرَ بِالسُّجُودِ التَّكْرِيمِيِّ لِأَدَمَ.

هذه النزعة الإِبْلِيسِيَّةُ هِيَ أَسَاسُ مَزَاجِ التَّفَوُّقِ الْعَرَقِيِّ، وَالتَّعَالِيِّ الْعَنْصَرِيِّ، وَالِاسْتِكْبَارِ الْقَوْمِيِّ، وَهِيَ نَزْعَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى وَهْمٍ بَاطِلٍ لَا صِحَّةَ لَهُ بِوُجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، إِذِ التَّفَاضُلُ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْمَخْلُوقِ بَعْدَ تَكْوِينِهِ، لَا بِالْعَنَاصِرِ الْأُولَى الَّتِي تَكُونُ مِنْهَا، مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي وَجُودِ الصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ الْمَوْجُودَةِ فَعَلًا فِي الْمَخْلُوقِ، بَعْدَ إِيجَادِهِ.

● ﴿قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ●

أي: قال الله عز وجل له في هذه الجلسة من جلسات محاكمته: إن ادعاءك التفوق العنصري ادعاء باطل، لا صحة له بوجه من الوجوه، ومغصيتك بالاستناد إلى وهم التفوق العنصري طعن بحكمة ربك، وهو من الكفر ببغض صفات الكمال الواجبة له، وفيه جعل العناصر التي خلقها هو، وخلق خصائصها ووظائفها ذوات تأثير في إلزامه جلّ وعلا بأن يوجه أوامره ونواهيته لعباده متقيداً بمراعاة التفاضل العنصري فيما بينها، وفيه جحد لإلهية ربك لك، فأخرج من مواطن الملائكة التي جعلناك تجول فيها بحرية في السماء فإنه لا حق لك بغد انكشاف كبرك وكفرك في أن تدس نفسك بالتفاق ضمن الملائكة الكرام، الذين لا يغصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: أي: فإنك مزجوم مطرود.

الرجم: هو في اللغة الرمي الطردئي الإبعادي، بقول أو فعل، وقد جعله الله رجيماً إذ طرده من رحمته، ولعنه، ثم رجمه بالشهب الثواقب كلما أراد أن يقترب من منازل الملائكة في السماء.

واللغن: هو الطرد من دائرة الرحمة والإبعاد عنها.

وقد أضدر الله حكمه عليه بالرجم واللغن إلى يوم الدين، الذي تجري فيه محاكمته لجعله خالداً في جهنم دار عذاب الكافرين المجرمين، أما في الدنيا فقد تم الحكم عليه بالرجم واللغن.

وهذه إحدى محاكمات ثلاث، أجراها الله عز وجل له، دلت عليها النظرة الكلية التكاملية للنصوص الستة الموزعة في ست سور من القرآن المجيد سبق ذكرها، وهذه النظرة الكلية التكاملية سأقدمها إن شاء الله في الملحق الرابع من ملحقات هذه السورة التي أتابع تدبر دروسها وفقراتها.

● ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩):

أي: ﴿قَالَ﴾ إبليسُ مُعْتَرِفاً لله برُبوبيته وبأنه خالقُ الحياة والموت.

﴿رَبِّ﴾ (بحذف ياء المتكلم إيجازاً) بما أنك حكمت عليّ بالرجم واللّعن إلى يوم الدين، ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ﴾ يُبْعَثُ الخلائق بَعْدَ الموتِ لملاقاتِ الحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

لقد كَانَ عالماً بأنّه يُوجَدُ بَعَثٌ إلى الحياة بَعْدَ الموتِ، لتحقيقِ الجزاءِ الرّبّانيّ بَعْدَ رَحْلَةِ الحياة الدُّنيا، رَحْلَةِ الامتحان لِمَنْ وَضِعُوا فِيهَا مَوْضِعَ الامتحان بشروطه، فَطَلَبَ إِمْهَالَهُ وإبقائه حياً إلى ذَلِكَ اليوم، وَكَانَ الْجِنُّ مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا قبل الإنس، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَزَوْجَهُ، فَبَدَأَتْ رَحْلَةُ امتحانِهِما وامتحان ذُرِّيَّاتِهِما منذ ذَلِكَ الوقت.

﴿فَأَنْظِرْنِي﴾: أي: فأمهلني وأخزني باقياً حياً.

● ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

أي: قال الله عز وجل لإبليس: اسْتَجَبْنَا لَبَعْضِ طَلِبِكَ، فَأَخْرَجْنَا إِمَاتَتَكَ وأمهلتناك، وَجَعَلْنَاكَ بِقَضَائِنَا وَقَدَرِنَا مِنَ الَّذِينَ طَوَّلْنَا أَعْمَارَهُمْ، وَلَكِنْ لَا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، بل إلي يوم الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، الَّذِي تَقُومُ فِيهِ السَّاعَةُ وَتَنْتَهِي فِيهِ ظُرُوفُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَأُمِيتُ فِيهِ كُلُّ ذِي حَيَاةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

ومن المتحقق أنّ من الْمُنْظَرِينَ طائفةً من ملائكة الملائكة الأعلى كجبريل وإسرافيل وميكال وقد أنظره الله ليستكمل به ظروف الامتحان الأمثل للناس.

● ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

لَمَّا اطمأنَّ إبليسُ إلى إنظار الله له في الحياة الدنيا حتى انتهاء ظروفها، أعدَّ نفسه لإغواء آدَمَ وَزَوْجِهِ وذُرِّيَّاتِهِما، حتّى آخر حياة الناس في الأرض، وبعد أن عزم على هذا الأمر ﴿قَالَ﴾ لربه: لَقَدْ أَنْظَرْتَنِي وَأَخْرَجْتَ

إِمَاتِي حَتَّى آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ مَمْتَحِنِينَ ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أَي: فَبِقُوَّتِكَ  
الْغَالِبَةِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ لِي حَوْلٌ وَقُوَّةٌ ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ: قَسَمَ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَاعْتَرَفَ اللَّهُ بِرَبوبِيَّتِهِ، وَبِأَنَّ أَيْ  
مَخْلُوقٍ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُ وَحِيلَتُهُ، فَلَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَلَكِنْ كُفِّرَ  
إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ نَوْعِ جُحُودِ إِلَهِيَّةِ اللَّهِ لَهُ، وَهَذَا الْجُحُودُ سَبَبُهُ الْاسْتِكْبَارُ  
وَالْغُرُورُ بِالنَّفْسِ.

﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ﴾: أَي: لَأَوْقَعَنَّهُمْ بَوَسَاوِسِي وَوَسَاوِسِ جُنُودِي وَتَسْوِيلَاتِنَا  
وَحِبَائِلُنَا فِي الْغَوَايَةِ، وَهِيَ الْإِمْعَانُ فِي الضَّلَالِ وَالْبُعْدُ عَنْ صِرَاطِكَ صِرَاطِ  
الْحَقِّ وَالْهُدَى.

﴿أَجْمَعِينَ﴾: تَوْكِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِمُضْمِرِ «هُمْ» فِي: ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ﴾ وَالْغَرَضُ  
مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّوْكِيدِ دَفْعُ تَوْهُمِ إِرَادَةِ بَعْضِهِمْ دُونَ جَمِيعِهِمْ.

● ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٨٣): وَفِي الْقِرَاءَةِ الْمَتَوَاتِرَةِ الْأُخْرَى  
[الْمُخْلِصِينَ] بِكُسْرِ اللَّامِ، وَبَيْنَ الْقَرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ.

الْمُخْلِصُونَ، بِفَتْحِ اللَّامِ، هُمُ الْمَصْطَفَوْنَ الْمَنْقُودُونَ مِنَ الشَّوَابِ  
وَالْمَخْتَارُونَ، وَهُمْ الَّذِينَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْغَوَايَةِ، لِمَا عَلِمَ فِي  
قُلُوبِهِمْ مِنْ خَيْرٍ يُوَهِّلُهُمْ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ مَعْصُومِينَ كَالْأَنْبِيَاءِ.

الْمُخْلِصُونَ: بِكُسْرِ اللَّامِ: هُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا أَعْمَالَهُمْ وَنِيَّاتِهِمْ مِنَ  
الشَّوَابِ، فَجَعَلُوهَا خَالِصَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

لَقَدْ كَانَ إِبْلِيسُ بِعِبَارَتِهِ حَذِرًا، فَاسْتَشْنَى مَنْ يَضْطَفِيهِمْ اللَّهُ  
وَيَسْتَخْلِصُهُمْ، فَيَحْمِيهِمْ مِنْ تَأْثِيرِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِغْوَاءِ، وَاسْتَشْنَى  
مَنْ يَسْتَطِيعُونَ بِإِرَادَاتِهِمُ الْقَوِيَّةِ أَنْ يَكُونُوا مُخْلِصِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ  
لِرَبِّهِمْ، طَمَعًا بِالْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ فِي جَنَاتِ عَذْنِ يَوْمِ الدِّينِ، فَيُعِينُهُمُ اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ تَأْثِيرِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ، كُلٌّ عَلَى  
مِقْدَارِ إِخْلَاصِهِ لِرَبِّهِ وَصِدْقِهِ، وَقُوَّةِ إِرَادَتِهِ.

● ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٤) ﴿وَفِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى: «قَالَ فَالْحَقُّ  
بِالنُّصْبِ﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥).

أي: قال الله عز وجل لإبليس: اتَّخِذْ مَا شِئْتَ مِنْ وَسِيلَةٍ لِلْإِغْوَاءِ  
وقد أَفْصَحَتْ عَنْ هَذَا الْمَطْوِيِّ الْفَاءُ فِي: ﴿فَالْحَقُّ﴾ والمعنى: فَقَسَمِي  
الْحَقُّ، مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ إِلَى آخِرِ الْعِبَارَةِ.

﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾: جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْقَسَمِ وَجَوَابِهِ، وَالْمَعْنَى: وَلَا  
أَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، هَذَا الْحَضَرُ اسْتَفِيدَ مِنْ تَقْدِيمِ الْمَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ.

وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ: [فَالْحَقُّ] بِالنُّصْبِ، فَهِيَ فِيمَا أَرَى عَلَى تَقْدِيرٍ:  
فَأَقْسِمُ الْقَسَمَ الْحَقُّ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ  
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

كَيْفَ نَفْهَمُ الْجَمْعَ بَيْنَ قَسَمِ اللَّهِ بِأَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ إِبْلِيسَ، وَمِمَّنْ  
تَبِعَهُ مِنَ الْمَوْضُوعَيْنِ مُوَضِّعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِي  
سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) مِنْ بَيَانِ أَنَّ جَهَنَّمَ تَقُولُ:

﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ مَهْمَا أَلْقِي فِيهَا مِنْ أَفْوَاجِ الْمَعْذِبِينَ الْمَجْرَمِينَ؟.

أَقُولُ: لَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ لَا تَزَالُ جَهَنَّمَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ  
مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ، وَيُضْمُّ  
بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَبِذَلِكَ تَمْتَلِئُ.

فَتَحِلَّةُ الْقَسَمِ الْوَاردِ فِي سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تَكُونُ  
بِهَذَا مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ، جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ  
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«لَا تَزَالُ جَهَنَّمَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى قَدَمُهُ، فَتَقُولُ: قَطِ. قَطِ وَعِزَّتِكَ، وَيُزَوِّى بَغْضُهَا إِلَى بَغْضٍ.

يُزَوِّى: أَي: يُطَوِّى وَيُجَمِّعُ.

• قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾.

في هذه الآيات الثلاث التي ختم الله عز وجل بها السورة، استكمالاً لعناصر الرّد على مقالات الذين كفّروا الواردة في الدرس الأول من دروسها، والحكمة من تأخيرها كونها متعلقة بالرّد على اتّهام شخص الرسول ﷺ بأنّه ساحرٌ كذاب، وبأنّه يختلق ما يأتي به اختلاقاً، ويَزْعُمُ أنّه يُوحى به إليه من ربه، وبأنّ له غرضاً دنيوياً خاصاً كالعلوّ في الأرض فما يتعلّق بشخص الداعي ينبغي أن لا يهتمّ له، فإذا كان له صلة ما بمضمون رسالته، وتقتضي الحكمة الرّد عليه، فليكن في آخر ما يهتمّ له ويوجّه له عنايته.

(١) فقولهم الذي ذكره الله في الدرس الأول: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

أَي: إنّ هذا الذي يدعو إليه محمد من جعل الآلهة، إلهاً واحداً، وما يدّعيه من النبوة والرّسالة، والإنذار بعقاب الله المؤجل إلى يوم الدين، مع عقاب ربّما يُعجل في الحياة الدنيا، أمرٌ يُراد لمصلحته الشخصية الدنيوية، كالمال والزعامة وحبّ السلطان، يتطلّب رداً ملائماً قاطعاً لاتهمهم له.

فعلم الله عز وجل رسوله أن يقول لهم جواباً قاطعاً لاتهمهم له بالمصالح الشخصية الدنيوية: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾ (٨٦).

وقد سبق أن أنزل الله عز وجل قبل هذا التعليم قوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٦)!



والمعنى أنك لا تسألهم في الواقع أجراً ما، مع التعريض له ضمناً بأن يكون حذراً من أن يسألهم أقل شيء يشعر بأنه من مقاصد ما يقوم به في دعوته، حتى لا يكون ذلك ذريعة للطعن في دعوته بأنه صاحب مصالح خاصة منها عند قومه.

وهنا في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) أمر الله عز وجل رسوله بأن يصرح لهم تضريحاً وجاهياً قائلاً لهم: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ. وفي هذا رد كافٍ على اتهامه بأنه ذو مصلحة شخصية دنيوية من دعوته، وأدعائه النبوة والرسالة.

(٢) وقولهم الذي ذكره الله عز وجل في الدرس الأول: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾: أي: هذا ساحر في بيانه الذي يقول بشأنه هو من عند الله، وكذاب في ادعائه أنه كلام الله، وأنه وحي أوحى الله إليه به. وقولهم عن مقالاته في التوحيد وإبطال الشرك: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقُ﴾: أي: ما هذا إلا قول كذب يفتره على الحقيقة، ويفتره على الله، يستدعيان رداً مُحْكَمًا مُسْقِطاً لهما.

فَعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ جَوَاباً عَلَيْهِمَا:

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

الْمُتَكَلِّفُ: هو الذي يتَصَنَّعُ أمراً بالكُلْفَةِ على خلاف فطرته وعادته الدائمة. والسَّاحِرُ من أكثر الناس تَكْلُفًا وَتَصَنُّعًا وتزويراً، والكذاب الذي يختلق المفتريات ولا سيما المفتريات على الله، هو كذلك من أكثر الناس تَكْلُفًا وَتَصَنُّعًا وتزويراً.

وقد عاش رسول الله ﷺ في قومه أكثر من أربعين سنة، لم يَعْرِفُوا منه فيها إلا الصِّدْقَ والأمانة والصَّرَاحَةَ في أموره كلها، ولم يَعْرِفُوا منه تَصَنُّعاً ما، ولا تَكْلُفاً ما، ولا أمراً يُشْتَبَه به منه في أموره كلها.

أف يكون كذلك طَوالِ عُمره قَبْلَ النُّبُوَّةِ فِي قَوْمِهِ، غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ وَلَا مُتَصَنِّعٍ فِي أَمْرِ مَا مِنْ أُمُورِهِ، وَيَبْقَى عَلَى صِفَاءِ فِطْرَتِهِ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَتَّعَاطَى لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ السَّخَرِ، وَلَا يَفْتَرِي عَلَى أَحَدٍ فِرْيَةً مَا يَضْطَرُّنَهَا اصْطِنَاعًا، وَيَتَكَلَّفُهَا تَكَلُّفًا، حَتَّى إِذَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بَعْدَ هَذِهِ الْبَرَاءَةِ التَّائِمَةَ، وَالصَّفَاءَ الْكَامِلَ، فِي خُلُقِهِ وَعَادَاتِهِ، يَقُولُ قَوْمُهُ عَنْهُ، وَهُمْ الْخَبِيرُونَ بِهِ: سَاحِرٌ كَذَّابٌ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ.

إِنَّ مِنْ عَاشٍ عُمرًا بَلَغَ فِيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، لَا يَتَصَنِّعُ فِي أَمْرِ مَا مِنْ أُمُورِهِ وَلَا يَتَكَلَّفُ، وَلَا يَفْتَرِي وَلَا يَكْذِبُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخَالَفَ طَبْعَهُ وَعَادَاتِهِ، فَيَتَصَنِّعُ وَيَفْتَرِي وَيَكْذِبُ، وَلَا تُطَاوَعُهُ فِطْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي كُلِّ النَّاسِ.

فَإِذَا ذَكَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ الْمُتَصَنِّعِينَ، كَمَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ خُلُقِهِ وَعَادَتِهِ وَطَبْعِهِ، كَانَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، وَدَفْعًا بِغَايَةِ الرِّفْقِ لِاتِّهَامِهِمُ الشَّنِيعِ لَهُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ مُخْتَلِقٌ عَلَى اللَّهِ.

أَمَّا الْقُرْآنُ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ السَّخَرِ، وَأَنَّهُ مُخْتَلَقٌ مُفْتَرَى عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ الْمُتَضَمِّنُ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ، فَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنَّ يَقُولُ لَهُمْ بِشَأْنِهِ:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَعَلَّكُمْ تَبْأَوُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

أَي: إِذَا رَفَضْتُمْ آيَاتَ إعْجَازِ الْقُرْآنِ الْبَيَانِيِّ، الذَّلَاتِ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَتَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهِ، مُدَّعِينَ أَنَّ إعْجَازَهُ الْبَيَانِيَّ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ السَّخَرِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ فِيهِ الْمَضَامِينُ الْفِكْرِيَّةَ الْمَعْجِزَةَ، وَالَّتِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ ذِي فِكْرٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ أَنْ يَعْلَمَهَا، وَيَتَفَهَّمَهَا، وَيَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهَا، ثُمَّ يَجْعَلَهَا فِي ذَاكِرَتِهِ، لِيَتَّبِعَ هَدْيَهَا فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِهِ، وَلِتَكُونَ لَهُ سِرَاجًا هَادِيًا يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ السَّعَادَةِ وَالْمَجْدِ الْعَظِيمِ.

فإذا فحَضُّتُمْ مضامينَ هذا البيانِ القرآنيِّ العظيمِ تتبَّعاً لجزئياته الفكرية، لم تجدوه إلا ذِكْراً لِلْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ، لا لَكُمْ فقط، ولا للعرب فقط، بل للعالمين كلِّ العالمين.

وهذا برهان على أنه تنزيلٌ من عند الله ربِّ العالمين، إذ لا يوجد كتابٌ في الدنيا من عند غير الله، يصلح لأن يكون كلُّ ما فيه ذِكْراً لكلِّ العالمين.

فما أعجَبَ عُمُقَ هذا الاستدلال على أن القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ، وأنه ليس من صنْعِ محمد، فليس هو سِحْراً، وليس شيء فيه اختلافاً ولا كذباً.

والمعنى: ما هو في حقيقة عناصره الفكرية، غير تعليم حقٍّ يجب أن يجعله مُفَكِّرو العالمين أجمعين ذِكْراً لهم، يَهْتَدُونَ بهُذَيه دواماً.

أمَّا مضامين القرآن الخبرية، وما يشتمل عليه من أنباء، ما مضى منها، وما هو قائم في كُؤن الله منها، لكنَّ النَّاسَ لم يعلموه بَعْدُ، لِعَدَمِ تَوَصُّلِ وسائلهم العلمية إلى كَشْفِهِ لمعرفته، وما سيأتي منها أو سَوْفَ يأتي، فقد علَّم الله عزَّ وجلَّ رسوله أن يقولَ لقومه بشأنها، وهو قول مُوجَّهٌ لكلِّ الناس، مهما توالى العصور وتعاقبت الدُّهور:

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَنَاؤُ بَعْدَ حِينٍ﴾

أي: ولَتَعْلَمَنَّ بَعْدَ حِينٍ من الدَّهْرِ مُطَابَقَةً كُلِّ ما جاء فيه من أنباء الواقع والحقيقة.

فالماضي تَكْشِفُهُ دلائل الآثار، والواقع الخفيُّ القائم في الكُؤن تَكْشِفُهُ وسائلُ البحثِ العِلْمِيِّ الإنسانيِّ تباعاً، مع تَقَدُّمِ العلوم، وارتقاء الوسائل وتقدُّمها، والمستقبل منه سَيُخْذُثُ أو سوف يحدث كما جاء في الأنباء القرآنية.

وفي هذا تَنْبِيْهُ عَلَى بُرْهَانٍ دَامِغٍ يُثْبِتُ فِي كُلِّ عَضْرِ أَنَّ الْقُرْآنَ  
كَلَامُ اللَّهِ، وَتَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهِ.

﴿بَيِّنَاتٌ﴾: أَي: خَبَرَةٌ: النَّبَأُ: الْخَبَرُ الَّذِي تَتَوَجَّهُ الْأَنْظَارُ إِلَيْهِ لِبُرْوْزِهِ  
وظهوره وهو اسم جنس يَصْدُقُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، وَبِإِضَافَتِهِ إِلَى ضَمِيرِ  
الْقُرْآنِ صَارَ يَعُمُّ كُلَّ أَنْبَاءِهِ.

وقد تَمَّ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ تَدَبُّرُ سُورَةِ (ص) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا  
تَفَضَّلَ بِهِ وَأَنْعَمَ.



### ملاحق لسورة (ص)

الملحق الأول: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار  
في مراحل التنزيل.

الملحق الثاني: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثالث: تدبر بقية ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه  
السلام.

الملحق الرابع: قصة خَلْقِ آدَمَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَمَا رَافَقَ خَلْقَهُ مِنْ  
أَحْدَاثٍ.

(٩)

### الملحق الأول

#### نموذج من التدرج الارتقائي

#### في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل

جاء إعلام أئمة الشُّرْكَ والكُفْرِ فِي مَكَّةَ بِإِهْلَاكِ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ،  
تَلْوِيحاً بِالْإِنْذَارِ، ثُمَّ تَذَكِيراً بِهِ، فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ حَتَّى نَزُولِ سُورَةِ (ص)  
سِتِّ مَرَّاتٍ.

ويلاحظُ المتدبرُ أنه قد جاء التعبير عنه في هذه النصوص الستة متدرجاً تدرجاً ارتقائياً في أسلوب البيان المختار، وفيما يلي استعراض لما جاء في هذه النصوص الستة.

(١) جاء هذا البيان أولاً بأسلوب العرض الاستفهامي خطاباً موجهاً لشخص غير معين، فهو يشمل كل مُتَلَقٍ على سبيل الخطاب الإفرادي.  
وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرَصَادٍ ﴿١٤﴾﴾ /.

(٢) ثم جاء هذا البيان بأسلوب العرض الخبري بشأن إهلاك أصحاب الأخدود، وجاء هذا العرض الخبري متسماً بالعنف والشدّة.  
وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ .

(٣) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام الموجّه للمكذّبين الذين كذبوا الرّسول وكذبوا بيّوم الدّين على وجه العموم.

وهو ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عز وجل فيها:

﴿أَلَمْ نُهَبِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ .

(٤) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عن كُفَّارٍ مَكَّةَ صراحةً، مع التلويح بالإنذار بإهلاكهم إذا وصلت أحوالهم إلى مثل الأحوال التي وصل إليها المهلكون السابقون.

وهو ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله عز وجل فيها:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ حَقَّ وَعِيدٍ ﴿١٤﴾﴾ .

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِصٍ ﴿٣٦﴾﴾ .

(٥) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عنهم مع التلويح والتشريب، إذ لم يتعظوا ولم يزدجروا، على الرغم من أنهم قد جاءهم من الأنبياء ما فيه مُزْدَجِر .

وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتُذْرُ ﴿٥﴾﴾ .

وبعد هذا جاء عَرَضٌ فيه بعض تفصيل لقِصَصِ بعض المهلكين الأولين .

(٦) ثم جاء هذا البيان في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) مشابهاً لما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) ولكن جاء في سورة

(ص) زيادة تأكيد في اللفظ، وإضافة فكرة أن المهلكين السابقين نادوا حين أنزل الله عز وجل بهم وسائل إهلاكهم، فلم يستجب أحدٌ لندائهم، ولم يكن لهم مناص من تلقى عذاب الله العادل.

فقال الله عز وجل فيها:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَنَادُوا وَلَا تَحْيِ مَنَاصٍ﴾.

فجاء في سورة (ص): ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بإظهار حرف «من» أما في سورة (ق) فجاءت العبارة [قَبْلَهُمْ].

وتكامل الضمان الذي في (ق) والذي في (ص) في تصوير عدم استطاعة المهلكين التخلص من تلقى عذاب الله، ففي سورة (ق) جاءت العبارة: ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ وفي سورة (ص) جاءت العبارة: ﴿مَنَادُوا وَلَا تَحْيِ مَنَاصٍ﴾.

ويستفيد الباحثون في علم الترتيبية، من هذا المنهج التدرجي الارتقائي الرباني، الذي جاء في هذا الملحق بيانه، لأنواع العلاج التربوي.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه



(١٠)

### الملحق الثاني

#### مستخرجات بلاغية من السورة

في هذه السورة اختيارات بلاغية كثيرة، وأنبه في هذا الملحق على طائفة منها. ويجد القارئ خلال تدبر السورة بياناً بلاغيات أخرى لم أذكرها هنا.

(١) الْقَسَمُ بما يَتَضَمَّن دليلاً على صِدْقِ وصحة المقسم عليه في

قول الله عز وجل: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ فالتَّسَمُّ بالقرآن ذي الصفات التي توهله لأن يكون هو الذَّكْرُ الأعظم للعالمين، دليل على أنَّ المقسَم عليه حقٌّ، وهو كون محمد الذي بلغه عن ربه صادقاً في ادَّعائه النبوة والرسالة. وهذا المقسَم عليه محذوف في اللفظ إيجازاً، ومقدَّر في المعنى تقديراً تدلُّ عليه القرائن، ويذكره المتدبر دون كلفة.

(٢) الإيجاز بالحذف، وهو كثير في هذه السورة.

● فمنه ما هو في: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ﴾ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ ﴿٦﴾: أي: وانطلق الملاء منهم وهم يتحدثون فيما بينهم أن امشوا....

● ومنه ما هو في: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾... ﴿٨﴾: أي: إنهم لا يشكون في بُعد محمد عن الكذب، بل هم يشكون في مضمون ما جاءهم به، وهو ذكري الذي أنزلته لهدايتهم، لأنه يخالف أهواءهم.

● ومنه ما هو في: ﴿... وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ ﴿٢٤﴾ بشأن داود عليه السلام، أي: وخرَّ راکعاً وأناب ساجداً.

وغيرها مما جاء بيانه في تدبر السورة.

(٣) تأكيد الإسناد في عدد من الجمل الخبرية مراعاة لمقتضى الحال، بمؤكدات منها «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللام المرحلة - من الزائدة لتأكيد الاستغراق أو التنصيص عليه - اللام الموطئة للقسَم».

وأترك لذي الخبرة البلاغية استخراجها.

(٤) الحصر والقصر:

● في: ﴿... إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخَلِقُ﴾ ﴿٧﴾: أي: ما هذا الذي جاء به محمد ويدعي أنه من عند الله إِلَّا اختلاق من عنده.



وهذا من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى صفتي الصّدق والاختلاق.

● وفي: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ﴿١٤﴾ بشأن طائفة من الذين أهلّكوا من كفّار القرون السابقة.

وهذا أيضاً من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى دعوات رُسُل ربّهم.

● وفي: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾ ﴿١٥﴾ أي: تهلكهم.

وهذا أيضاً من قبيل القصر الإضافي... أي: لا ينتظر منهم أن يستجيبوا لدعوة الرسول، فكأنهم لا يترقبون إلا صيحة مهلكة لهم بالإضافة إلى قضية تكذيبهم للرسول، وقد يكون إهلاكهم بغير الصيحة، وقد يمهّلون.

● وفي: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ...﴾ ﴿١٥﴾ أي: لم يبق من دعوتي بالإضافة إليكم إلا الإنذار، فأنا بالنسبة إليكم منذر فقط.

ونظيره: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٠﴾.

فهما من قبيل القصر الإضافي.

وفي: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿١٥﴾:

أي وما من إله له صفة الإلهية الحقيقية، إذ هو رب السماوات والأرض وما بينهما، إلا الله الواحد القهار.

وهذا من قبيل القصر الحقيقي، لأن صفة الإلهية الحقيقية مقصورة عليه جلّ جلاله وعظم سلطانه، وهو من قصر صفة على موصوف.

(٥) الإلماح الذي لا يُدرك القصد منه إلا الرُسول ﷺ، وربما بعض فُطَناء أصحابه، في قول الله عزّ وجلّ:

﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾ :

ففي هذه الآية إلماح للرَّسُولِ بأنَّه سيواجه في المستقبل عتاةً مُشركي مكة في معارك قتالية، وسينصُرُه الله عليهم، وَلَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَى هذا الإلماح أَذْكَيَاءُ الْمُشْرِكِينَ، إِذَا الْغَرَضُ إِخْفَاؤُهُ عَنْهُمْ، حَتَّى لَا يَتَذَكَّرُوا الْأَمْرَ بِخُطْطِ حَرْبِيَّةٍ يُوَاجِهُونُ بِهَا الرُّسُولَ وَأَصْحَابَهُ، وَهُمْ مَا زَالُوا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ فِي مَكَّةَ، وَقَدْ جَاءَ تَغْلِيْفُ هَذَا الْإِلْمَاحِ بِذِكْرِ طَائِفَةٍ مِنْ أَحْزَابِ الَّذِينَ أَهْلِكُوا فِي الْقُرُونِ الْأُولَى، قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَغَيْرُهُمْ، وَغُلِّفَ أَيْضاً بِعِبَارَةٍ: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۝١٥﴾ لِأَنَّ هَذِهِ الصَّيْحَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا رَبَّانِيَّةً.

(٦) الاستفهام الذي يراؤ به إثارة الانتباه لتلقي الخبر في :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَارُوا بِالْمِحَابِ ۝٢١﴾ ؟.

(٧) اقتطاع النص من وقت توجيهه في الماضي أو في المستقبل، وتقديمه بصورته، دون ذكر ما يدلُّ على أَنَّهُ حكايةُ أمرٍ جرى، أو سيجري، أو سوف يجري.

وهذا من الإبداعات البلاغية في القرآن التي لم تكن معروفة عند البلغاء، وقد ظهر لها نظير في الفنون التمثيلية المعاصرة لنا.

ونجد هذا الأسلوب البياني في أمكنة متعددة من هذه السورة :

● فمنه خطابُ الله عزَّ وجلَّ لسليمانَ عليه السلام في قوله تعالى :

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ .

● ومنه خطابُ الله عزَّ وجلَّ لايُّوبَ عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ .

وفي قوله تعالى :

﴿وَحُذِّدُكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ...﴾.

وكل هذه النصوص مستقطعة مما جرى في زمانٍ مضى.

● ومنه ما سوف يكون من خطابٍ سوف يوجه لأهل جهنم، وما يجيب به أئمة الكافرين:

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَاَ بِهِمْ إِنَّمَا صَلَّوْا النَّارَ ۖ﴾ (٥٩).

(٨) حكاية الحدث الذي سوف يكون في المستقبل بأسلوب حكاية أمرٍ مضى للإشعار بأنه سوف يحدث كذلك في المستقبل حتماً.

ومنه حكاية قول أتباع أئمة الكفر وهم يساقون ليكونوا معهم في دار العذاب: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَاَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ۖ﴾ وثلاث آيات بعدها في السورة.



(١١)

### الملحق الثالث

تدبر بقية ما جاء في القرآن المجيد

عن داود عليه السلام بنظرة تكاملية

جاء في القرآن المجيد بشأن داود عليه السلام تسعة نصوصٍ في تسع سورٍ، هي السور التالية (ص - النمل - الإسراء - الأنعام - سبأ - الأنبياء - البقرة - النساء - المائدة).

وأحاول دراسة جميع النصوص الواردة في هذه السور، وتدبرها ضمن منهج التفسير الموضوعي، في هذا الملحق إن شاء الله.

النص الأول:

هو النص الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وهو

الآيات من (١٧ - ٢٦) وقد سبق تدبره خلال تدبر هذه السورة، فلا حاجة إلى إعادة تدبره.

### النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾.

فأضاف هذا النص إلى ما سبق إنزاله في سورة (ص) أذيع قضايا:

القضية الأولى: أن الله عز وجل لقد آتى داود وكذلك ولده سليمان عليهما السلام علماً.

ويظهر أن هذا العلم شيء آخر غير «الحكمة وفضل الخطاب» الذين آتاهما الله تبارك وتعالى داود عليه السلام، والذين جاء بيانهما في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

والتنكير في لفظ ﴿عِلْمًا﴾ قد يُشعرُ بمعنى الخصوصية في النوع، أي: نوعاً من العلم اختصهما الله به.

القضية الثانية: أن داود وكذلك ولده عليهما السلام، قد حمدا الله قائلين:

﴿... الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ونستطيع أن نفهم أنهما قيّدا ما فضلهما الله به بكثير من عباد الله المؤمنين، لأمر:

(١) منها أن المؤمنين مفضلون على كل غير المؤمنين بالفضائل الإيمانية، فهما مفضلان بها لزوماً على جميع الناس غير المؤمنين.

(٢) ومنها أَنَّ ما فُضِّلَ به من أُمُور الدُّنْيَا قَدْ يكون لَدَى غَيْرِ المؤمنين أو بَعْضِ المؤمنين أَشْيَاءٌ قَدْ أُعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْهَا أَكْثَرَ ممَّا أُعْطِيَ داوُدَ وَسَلَيمانَ عليهما السَّلَامُ، كالْمالِ والسُّلْطَانِ الواسِعِ في الأَرْضِ، ونحو ذلك، ومن هؤلاء بَعْضُ الْفِرَاعْنَةِ والأَكاسِرَةِ والْقِياصِرَةِ، ودُوّ القرنين .

فهما يحترسان بهذا القَيْدِ عن الوقوع في الخطأ ومخالفة الواقع، وكذلك ينبغي أَنْ يكون حالٌ من رأى لِنَفْسِهِ فَضْلاً، أَنْ لَا يَظُنَّ تَفَرُّدَهُ به، وَأَنْ لَا يَدَّعِي ذَلِكَ، وَأَنْ يقول مَا يَعْلَمُ مِنَ الْحَقِّ .

**القضية الثالثة:** أَنَّ الْوارِثَ الَّذِي وَرِثَ داوُدَ من بَعْدِهِ في الْمُلْكِ وفي سَائِرِ الْخصائصِ هو وَلَدُهُ سَلِيمانُ عليهما السَّلَامُ .

**القضية الرابعة:** نَلْمَحُ أَنَّ النَّصَّ يُشِيرُ إلى أَنَّ الْحَمْدَ الَّذِي حَمِدَهُ داوُدَ وولَدُهُ سَلِيمانُ عليهما السَّلَامُ، قد كان في أواخرِ حياة داود وأوائلِ اكتمالِ سَلِيمانَ، عند ما صارَ مُهَيَّأً لَأَنْ يَرِثَ الْمُلْكَ عن أبيه .

فقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) يُشْعِرُ بَأَنَّهُ كان دُعَاءُ مُشْتَرَكًا، وظاهرُ أَنَّ سَلِيمانَ لَا يشارِكُ أباه في هذا الدُّعَاءِ إِلَّا وهو دُو نُضَجِ .

قال المؤرخون: ومَلَكَ سَلِيمانُ عليه السَّلَامُ وهو يافع، على اختلاف الروايات في عُمره حينَ صارَ ملكاً ما بين (١٢) سنة و (٢٢) سنة .

وقد جاء عقب هذا النصِّ مِنْ سورة (النمل) قول الله عز وجل:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) . . . فهذا الإِتِّبَاعُ في الْبَيانِ يُشْعِرُ بعدمِ وُجُودِ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ طَوِيلٍ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَوَرَاثَةِ سَلِيمانَ الْمُلْكَ من أبيه .

## النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿...وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ﴾ (٥٥)

**الفضل:** هو في اللغة الزيادة مما يُحمد غالباً، **والتفضيل:** هو الإعطاء الزائد على النظراء أو شبههم مما يُحمد، من ماديّات أو معنويّات.

فقد يكون التفضيل بإتياء زيادة من العلم، أو بإتياء زيادة من الفهم والحكمة، أو زيادة من القوة والسلطان، أو زيادة من الخلق الرفيع والفضائل النفسية، أو زيادة في الرزق وفيوض التعم.

لكن تفضيل بعض النبيين على بعض لا بُدّ أن يكون بزيادات من خصائص النبوة وفضائلها، كتخصيص موسى عليه السلام بتكليم الله عز وجل له، وتخصيص بعض الرسل بإنزال كتب عليهم ذوات شأن عظيم، وإلهام بعض النبيين وتوفيقهم إلى أقوال وحكم نفيسة يقولونها، فتدوّن فتكون كتباً ماثورة عنهم، كمزامير داود، وأمثال سليمان عليهما السلام.

أما قول الله عز وجل في هذا النص: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (٥٥) بعد بيان تفضيل بعض النبيين على بعض، فهو يدلّ على أنّ هذا الزبور ممّا فضل الله به داود على بعض النبيين.

**الزبور:** هو في اللغة الكتاب المزبور، أي: المكتوب باتقان، يقال لغة: زبر الكتاب إذا كتبه، أو إذا اتقن كتابته، وجمع «زبور» يأتي على «زبر» أي: «كتب».

وقد جاء لفظ زبور في النص هنا منكرًا: ﴿زَبُورًا﴾ ولم يأت معرفاً بأداة التعريف، كما عبّر الله عز وجل بشأن التوراة والإنجيل والقرآن، للإشعار بأن كتاب داود لم يرق إلى المنزلة الرفيعة العظيمة التي بلغت هذه

الكتبُ الثلاثة، مع وجود التفاضل بين هذه الكتب الثلاثة الربّانية، إذ القرآن أجلّها وأعظمها منزلة، وأكثرها جمعاً لما فيه هداية الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

فأضاف هذا النصّ على ما نزل قبله بشأن داود عليه السلام بيان أن الله عزّ وجلّ قد آتاه زبوراً، أي: كتاباً فيه إتقان.

### النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد بيان أن داود من ذرية إبراهيم الذين هداهم الله وآتاهم النبوة والرسالة، وأنه معهم من المحسنين، أهل مرتبة الإحسان:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ (٨٩)

فأضاف هذا النصّ بشأن داود عليه السلام ما يلي:

(١) أن داود من ذرية إبراهيم عليهما السلام.

(٢) أنه من الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة.

الحكم: أي: القدرة على فهم القضايا، ومنها قضايا المتخاصمين، وإصدار الحكم الحقّ بها، أو المُمكِن الأقرب للحقّ والعدل. والحكم: فقه الأمور، والقضاء بالعدل، وحُسن الإدارة.

(٣) أنه من المرسلين، لِذِكْرِهِ ضِمْنَ الرُّسُلِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَام.

(٤) أنه من المحسنين، أي من الذين ارتَقَوْا إلى مرتبة «الإحسان» ودونها مرتبة «البرّ» ودونهما مرتبة «التقوى».

### النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (١٠)  
 أَنْ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صُلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ .  
 جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ  
 سَخَّرَ الْجِبَالَ مَعَ دَاوُدَ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَسَخَّرَ الطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلَّ  
 لَهُ أَوَابٍ .

أما النص الذي من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ففيه بيان  
 أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَقَدْ آتَى دَاوُدَ مِنْهُ فَضْلًا، أَي: عطاءً زائداً خَصَّهُ بِهِ، وفكره  
 الفضل هذه لم يَسْبِقْ لها ذِكْرٌ فيما نزل قبل سورة (سبأ) بالنسبة إلى داود  
 عليه السلام، واستدعى ذكُرها بيان بعض مفردات هذا الفضل، فأبان الله عَزَّ  
 وَجَلَّ أَنَّ تَسْبِيحَ الْجِبَالِ، وَحَشَرَ الطَّيْرِ وَتَسْبِيحَهَا مَعَهُ مِنْ هَذَا الْفَضْلِ الَّذِي  
 مَنَحَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، وَأَضَافَ مَعَ ذَلِكَ قَضِيَّتَيْنِ:

**القضية الأولى:** أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ الْجِبَالَ بِأَنْ تُسَبِّحَ مَعَهُ، وبيان  
 هذه القضية بيانٌ لِبَعْضِ عُنَاوِرِ الْعَقِيدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، إِذْ كُلُّ ظَاهِرَةٍ جَبَرِيَّةٍ، فِي  
 الْوُجُودِ إِنَّمَا تَوْجَدُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ.

**القضية الثانية:** أَنَّ تَسْبِيحَ الْجِبَالِ مَعَهُ قَدْ كَانَ صَداً تَسْبِيحِ دَاوُدَ  
 وَتَرْنِيمَاتِهِ .

دَلٌّ عَلَى هَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ قَوْلُ اللَّهِ فِي هَذَا النَّصِّ: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾  
 أَي: رَجْعِي: يَقَالُ لُغَةً: أَوْبَ إِذَا رَجَعَ الصَّوْتُ. وَهَذَا الْأَمْرُ  
 لِلْجِبَالِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأَمْرِ التَّكْوِينِيِّ الْجَبَرِيِّ.

وَجُمْلَةُ ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾ بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضْلًا﴾  
 فَهِيَ فِي مَحَلِّ نَضْبٍ، وَالْغَرَضُ بَيَانُ بَعْضِ مَفْرَدَاتِ هَذَا الْفَضْلِ الَّذِي  
 آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ .

وَالْمَعْنَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا تَرْجِيْعَ الْجِبَالِ بِأَمْرِنَا صَداً صَوْتَهُ  
 الشَّجِيِّ النَّدِيِّ فِي تَسَابِيحِهِ، قَائِلِينَ: يَا جِبَالُ أَوِي مَعَهُ.



وأبان الله عز وجل في هذا النص، تَرْجِيعَ الطَّيْرِ معه التسبيح، فقال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ فهو معطوفٌ على الْبَدَلِ السَّابِقِ، فالاقتصار على ذكر الطَّيْرِ معطوفةٌ بالنَّصْبِ على محلِّ جُمْلَةٍ: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾ يدلُّنا على أنَّ الأمرين متماثلان، أي: آتيناه فَضَّلَ تَرْجِيعَ الجبال معه بِأَمْرِنَا إِذْ آتَيْنَاهُ صَوْتًا عَالِيًا نَدِيًّا، وَفَضَّلَ تَرْجِيعَ الطَّيْرِ التي تُحْشِرُ لَهُ، إِذْ آتَيْنَاهُ صَوْتًا حَسَنًا تَطْرُبُ منه بَعْضُ أصناف الطيور، فَتَرْجِعُ معه بعض ترنيماته.

إذا دَقَّقْنَا في هذه المعاني وجدناها مضافة إلى ما سَبَقَ بيانه في مراحل التنزيل عن داود عليه السلام، ووجدناها غير مكررة، فالموضوع واحد، لكن عناصر معانيه مَجْزَأَةٌ موزعة متكاملة فيما بينها.

وأضاف هذا النص بيان أنَّ الله عز وجل قد ألان لداود الحديد، وأمره أَنْ يجعلَ من الحديد دُرُوعًا سابغات، فقال تعالى فيه)

﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ... ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾: أي: وجعلْنَا الْحَدِيدَ لَيْنًا في يَدَيْهِ، قالوا: فكان كالعجين أو كالشَّمْع في يَدَيْهِ وقت عَمَلِهِ به، ثُمَّ يَعُودُ الحديدُ إلى صلابته.

وبيان هذه القضية من القضايا المضافة إلى ما سَبَقَ بيانه في مراحل التنزيل.

ونتساءل: هل المرادُ بِالْآلَةِ الحديد له تغيير خصائص الحديد الصُّلْبَةِ له حال عَمَلِهِ فيه، أم إعطاؤه القوة الجسدية العظيمة التي يلين بها الحديد، أم إعطاؤه طاقَةً إشعاعيةً تَنْطَلِقُ من جسده لَهَا خُصُوصِيَّةٌ لِآلَةِ الحديد؟؟.

أقول: لا نَمْلِكُ دليلاً يُحَدِّدُ واحداً منها ولعلَّ آخِرَهَا مع قُوَّتِهِ الجسدية المعروفة هي المرادة، فهي الأقرب لما نَعْرِفُ من تجارب العلوم، وخصائص الطاقات الإشعاعية، والله أعلم.

وإذْ أَلَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَدِيدَ، أَمَرَهُ بِأَنْ يَسْتَخْدِمَ ذَلِكَ فِي صِنَاعَةِ الدَّرُوعِ الْوَاقِيَةِ مِنْ ضَرْبَاتِ السُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ وَالنَّبَالِ وَغَيْرِهَا فِي الْحَرْبِ.

ونلاحظ في أمر الله عَزَّ وَجَلَّ داود بصناعة الدروع أنه جلَّ جلاله أثر التوجيه للوقاية من شرور القتال، إذ لم يأْمُرْ بصناعة السُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ وَالنَّبَالِ ونحوها، والسَّبَبُ في هذا على ما يظهر أَنَّ النَّاسَ يَتَفَنُّونَ فِي صِنَاعَةِ أَدْوَاتِ الْقِتَالِ بِرَغْبَةٍ التَّسَلُّطِ، وَالْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ الْمَمْلُوءَةَ بِأَنْوَاعِ السَّعَادَاتِ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوفًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا.

وَأَمَرَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ يُعِدُّوا مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ قُوَّةٍ، إِنَّمَا هُوَ لِلْحِمَايَةِ وَالْإِزْهَابِ الْمَعْنَوِيِّ، لَا لِيَكُونَ وَسِيلَةً لِلْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ، وَلِمُمَارَسَةِ الْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

وَالدَّرُوعُ الَّتِي عَلَّمَ اللَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْتِكَارَهَا هِيَ دُرُوعُ الزَّرْدِ الَّتِي تَلْبَسُ كَالثِّيَابِ، وَقَدْ كَانَتِ الدَّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ مِنْ حَدِيدٍ.

● ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِي﴾: أَي: أَنْ أَعْمَلَ يَا دَاوُدَ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ، اسْتَغْنِي بِالصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ، وَشَاعَتِ كَلِمَةُ «سَابِغَاتٍ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّرُوعِ.

سَابِغَاتٍ: أَي: تَامَّاتٌ كَامِلَاتٌ سَاتَرَاتٍ لِمَقَاتِلِ الْمُقَاتِلِ.

السُّبُوعُ فِي اللَّغَةِ: التَّمَامُ وَالْكَمَالُ، يُقَالُ: شَيْءٌ سَابِغٌ، أَي: كَامِلٌ وَافٍ. سَبَغَ يَسْبِغُ سُبُوعًا، أَي: طَالَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّسَعَ. وَأَسْبَغَهُ يُسْبِغُهُ، أَي: جَعَلَهُ طَوِيلًا وَاسِعًا.

وإِسْبَاغُ الْوَضُوءِ، إِتْمَامُهُ وَإِكْمَالُهُ وَإِعْطَاؤُهُ حَقَّهُ، مَعَ زِيَادَةِ تَحَقُّقِ فِعْلِ الْمَطْلُوبِ.

● ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾: أي: وأحكم مَقَادِيرَ حَلَقِ الدَّرْعِ، ومقادير الثقوب عند مواطن اتّصالها ببعضها، ومقادير مسامير الرّبط بينها، حتّى تُؤدّي الغرض منها أداءً حسناً، وأحكم تفصيلها على مقادير أجساد لأبسيها، حتّى تكون وافية الوقاية، تامّة الصنعة

السرد: إتباع الشيء بشيء نظيره، حتّى يكون الكلّ مؤلفاً من وحدات متّسقات متّابعات متماثلات.

ويطلق لفظ «السرد» على الدروع، وعلى سائر الحلقات، ويُطلق على الثقب. يقال لغة: سَرَدَ الشيءَ وسَرَدَهُ وأسَرَدَهُ، أي: ثقبه.

والسرداء والمسرّد: المثقّب. والمسرودة: الدرع المثقوبة ويقال لصانع ذلك: سَرَاد، وزرّاد، بإبدال السين زايّاً.

و «أن» في: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَيْغَتٍ﴾ تفسيرية، والمفسّر مطوي يكشفه التدبر، والتقدير: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ مُوصِينَ إِيَّاهُ ﴿أَنِ اعْمَلْ سَيْغَتٍ﴾ فأبان له الغاية من إلانة الحديد له.

● ﴿وَأَعْمَلُوا صَليحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

كان الكلام موجّهاً لداود، وجاء في هذه العبارة قول الله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَليحاً﴾ موجّهاً لجماعة، ويفهم من هذا أنّ الأعمال الصنّاعيّة تحتاج إلى رئيس معلّم مُحَكِّم للصنعة ومُشْرِفٍ عليها، وتحتاج إلى مُعَاوِنِينَ يُسَاعِدُونَهُ في العمل ويتدربون عنده وبإشرافه، لتوفير الإنتاج الأكثر.

وفي هذه العبارة توجيه للذين يَعْمَلُونَ معه للتعاون فيما بينهم تعاوناً تَكَامُليّاً وتوجيه لإتقان العمل، فالعمل الصالح في الصناعات هو العمل المتقن.

وفي هذا التوجيه إشارة إلى أنّه ينبغي لمن يبتكر أو يُلهم أو يُعلم

صَنَعَةً مِنَ الصَّنَاعَاتِ النِّافِعَاتِ، أَنْ يَجْعَلَ تَحْتَ يَدَيْهِ مَنْ يَتَعَلَّمُهَا، لَتَكُونَ مِيراثًا حَضَارِيًّا بَشَرِيًّا، تَتَقَدَّمُ بِهِ وَتَرْتَقِي الْحَضَارَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَوَسَائِلُهَا.

أَمَّا مَنْ يَحْتَكِرُ سِرًّا صِنَاعَتَهُ لِنَفْسِهِ، فَلَا يَجْعَلُ تَحْتَ يَدَيْهِ وَإِشْرَافِهِ مَنْ يَتَعَلَّمُهَا، فَإِنَّ صِنَاعَتَهُ الرَّاقِيَّةَ وَمَهَارَتَهُ تَمُوتُ بِمَوْتِهِ، ثُمَّ يَحْتَاجُ الْمَجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ أَنْ تَمُرَّ أَزْمَانٌ طَوِيلَةٌ حَتَّى يَظْهَرَ فِي النَّاسِ نَظِيرُهُ، فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْهُ، إِذَا أُذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يَقْتَسِبُوا مِنْهُ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: هذه العبارة تدلُّ لزومًا على وعْدِ اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ صَالِحًا بِالثَّوَابِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبِالْعِقَابِ عَلَى الْعَمَلِ السَّيِّئِ، لِأَنَّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، أَنَّهُ يَتَفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِالثَّوَابِ إِذَا أَحْسَنُوا وَأَنَّهُ يَجَازِي بِالْعَدْلِ الْمُسِيئِينَ مِنْ عِبَادِهِ، إِذَا لَمْ تَقْتَضِ حُكْمَتُهُ الْعَفْوَ عَنْهُمْ.

واقْتَبَسَ النَّاسُ مِنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِنَاعَةَ دُرُوعِ الزَّرْدِ، وَانْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِهِ.

وَتَدُلُّنَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى أَنَّ أَصُولَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ قَدْ كَانَتْ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَتَعْلِيمٍ، وَاقْتَبَسَهَا النَّاسُ عَنْهُمْ فِيمَا بَعْدَ، ثُمَّ طَوَّرُوا فِيهَا وَأَضَافُوا، ضَمَّنَ سَلَمَ الْارْتِقَاءِ الْحَضَارِيِّ التَّرَاكُمِيِّ.

- فَصِنَاعَةُ السُّفُنِ الْبَحْرِيَّةِ قَدْ بَدَأَتْ بِتَعْلِيمٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا فَتْحٌ عَظِيمٌ فِي مِهْنَةِ التَّجَارَةِ، فَقَدْ كَانَ نُوحٌ نَجَارًا.
- وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ الْمَعْلَمَ الْأَوَّلَ لَوِزَارَاتِ التَّمْوِينِ فِي دُولِ شُعُوبِ الْأَرْضِ.

- وَوَرَدَ أَنَّ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَأَوَّلَ مَنْ خَاطَ وَنَسَجَ.

وهكذا ظهر لنا أن عناصر هذا النص من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) عناصر مضافة كلها إلى ما سبق إنزاله بشأن داود عليه السلام.

فمن حكمة الله في تعدد النصوص تجزئة الأفكار، وتقديم كل فكرة منها في المناسبة الداعية إلى ذكرها، مع تكاملها فيما بينها.

### النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْرُجَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟.

يشتمل هذا النص على ثلاث قضايا:

**القضية الأولى:** حُكْمُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَادِثَةِ تَعَدُّ مِنْ غَنَمِ بَعْضِ الْقَوْمِ عَلَى حَرْثِ آخَرِينَ فَأَفْسَدَتْهُ كُلَّهُ، فَعَلِمَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحُكْمِ أَبِيهِ، فَرَأَى رَأْيًا آخَرَ، فَأَقْرَهُ أَبُوهُ عَلَيْهِ، وَرَجَعَ عَنْ حُكْمِهِ.

**القضية الثانية:** بيان تسخير الله عز وجل الجبال والطير مع داود عليه السلام، بقضاء سابق، وتنفيذ لاحق.

**القضية الثالثة:** امتنان الله على الناس بتعليمه داود صِنَاعَةَ الدَّرْعِ الْوَاقِيَةِ فِي الْحَرْبِ، مِنَ السِّيفِ وَالرَّمَاكِ وَالسَّهَامِ وَنَحْوِهَا، وَهَذَا الْعِلْمُ قَدْ أَخَذَهُ النَّاسُ عَنْهُ، فَاتَّقَعُوا بِهِ، فَوَجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

● أما القضية الأولى، فقَصَّتْهَا جَمْعًا مِمَّا رَوَى الطَّبْرِيُّ بِأَسَانِيدِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، فِي رَوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ، أَنَّ أَصْحَابَ غَنَمٍ تَرَكُوا غَنَمَهُمْ لَيْلًا دُونَ جِرَاسَةٍ وَلَا رِعَايَةٍ، فَدَخَلَتْ هَذِهِ الْغَنَمُ فِي أَرْضٍ مُحَرَّوثةٍ

مبذورة قد نَبَتَ زَرْعُهَا، فَأَكَلْتُمْ مَا أَكَلَتْ مِنَ الزَّرْعِ وَأُفْسِدْتُمْ سَائِرَهُ.

فَتَرَفَعَ الْخُضْمَانِ بِقَضِيَّتَيْهِمَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَحَقَّقَ مِنْ وَقْعِ الْحَادِثَةِ، وَيُظْهَرُ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ قِيَمَةَ الْغَنَمِ تُسَاوِي قِيَمَةَ مَا أَكَلْتُمْ وَأُفْسِدْتُمْ مِنَ الزَّرْعِ، فَحَكَّمَ بِدَفْعِ الْغَنَمِ كُلِّهَا لِأَصْحَابِ الزَّرْعِ تَعْوِيضاً لَهُمْ، بِسَبَبِ أَنَّ أَصْحَابَ الْغَنَمِ تَرَكُوا غَنَمَهُمْ لَيْلاً دُونَ حِمَايَةٍ وَلَا رِعَايَةٍ، حَتَّى اعْتَدَتْ عَلَى زَرْعِ أَصْحَابِ الْحَرْثِ، فَأَكَلْتُمْ وَأُفْسِدْتُمْ.

وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحُكْمِ أَبِيهِ وَكَانَ فَتًى يَافِعاً مُلْهِماً ذَا فَهْمٍ وَحِكْمَةٍ، فَقَالَ لِأَبِيهِ: أَرَى أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ غَيْرَ الَّذِي قَضَيْتَ، فَقَالَ دَاوُدُ: كَيْفَ؟

قَالَ سُلَيْمَانُ: إِنَّ الْحَرْثَ لَا يَخْفَى عَلَى صَاحِبِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ فِي كُلِّ عَامٍ، فَلَهُ مِنْ صَاحِبِ الْغَنَمِ أَنْ يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَشْعَارِهَا، حَتَّى يَسْتَوْفِيَ ثَمَنَ الْحَرْثِ، فَإِنَّ الْغَنَمَ لَهَا نَسْلٌ فِي كُلِّ عَامٍ.

وَجَاءَ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ سُلَيْمَانَ قَالَ: تُدْفَعُ الْغَنَمُ لِأَهْلِ الزَّرْعِ، يَسْتَثْمِرُونَ أَلْبَانَهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَوْلَادِهَا، وَتُدْفَعُ الْأَرْضُ لِأَهْلِ الْغَنَمِ يَبْذُرُونَ لِأَهْلِ الْحَرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ، فَإِذَا بَلَغَ الْحَرْثُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَخَذَ أَصْحَابُ الْحَرْثِ حَرْثَهُمْ، وَرَدُّوا الْغَنَمَ إِلَى أَصْحَابِهَا.

فَقَالَ دَاوُدُ لِابْنِهِ سُلَيْمَانَ: قَدْ أَصَبْتَ، الْقَضَاءُ كَمَا قَضَيْتَ، فَأَلْغَى دَاوُدُ قَضَاءَهُ الْأَوَّلَ، وَحَكَّمَ بِمَا قَضَى بِهِ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ، وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً أَنْ يَرْجَعَ إِلَى مَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى كِمَالِ الْعَدْلِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سَنٍ وَلَدَهُ سُلَيْمَانُ.

● ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ...﴾:

أي: وَنَذَكُرُ قِصَّةَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي قِضْيَةِ الْحَرْثِ..

الحَرْثُ: هو العمل في الأرض لاستنبات زرعها، أو غرس شجرها، وَيُطْلَقُ أيضاً على الزَّرعِ النَّابتِ نَفْسِهِ كما ذكر الزَّجَاجُ.

قال الأزهري: الحَرْثُ قَذْفُكَ الحَبِّ في الأَرْضِ لِأَزْدِرَاعٍ، والحَرْثُ الزَّرعُ.

● ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ...﴾:

أي: يحكمان في الحَرْثِ وَقْتُ أَنْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ (ال) في ﴿الْقَوْمِ﴾ للدلالة على الجنس فقط.

﴿نَفَسَتْ﴾: أي: رَعَتْ لَيْلاً دُونَ رَاعٍ. يقال لغة: نَفَسَتْ الإِبِلُ أَوْ الْغَنَمُ أَوْ نَحْوَهُمَا تَنْفُسُ وَتَنْفُسُ نَفْساً وَنُقُوشاً، أي انتشرت لَيْلاً فَرَعَتْ بغير رَاعٍ. والواحد منها «نافش».

ويقال: أَنْفَشَ الرَّاعِي مَاشِيَتَهُ، أي: أَرْسَلَهَا تَرَعَى بِاللَّيْلِ وَنَامَ عَنْهَا.

فإذا فعلت الماشية مثل ذلك نهاراً، قال العرب، هَمَلَتْ، ولا يقولون: نَفَسَتْ. يقال لغة: هَمَلَتِ الماشية تَهْمُلُ وَتَهْمِلُ هَمَلاً، إذا سَرَحَتْ بِنَفْسِهَا نهاراً دُونَ رَاعٍ. الواحد منها «هَامِلٌ». ويقال: أَهْمَلَهَا صَاحِبُهَا إِذَا تَرَكَهَا تَسْرَحُ بِنَفْسِهَا دُونَ أَنْ يَرعَاهَا.

● ﴿وَكَفْنَا لِكُلِّهِمْ شَهِيدًا﴾:

في هذه الجملة بيان لإِخْدَافِ مَفْرَدَاتِ قَضِيَّةٍ كَلِّيَّةٍ عَامَّةٍ، مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ شُهُودُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلِكُلِّ حَدَثٍ يَخْدُثُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ.

الشاهد: الحَاضِرُ الْعَالَمُ بِالْمَشْهُودِ.

وهذه القَضِيَّةُ الْكَلِّيَّةُ الْعَامَّةُ قَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ قَرَأْنِيَّةٍ، وَمِنْهَا مَا يَلِي:

(١) قول الله عز وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٩)

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

وشهود الله هو حضوره مُحِيطاً بعلمه ومراقبته على أكمل وجه وأتمه.

● ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾: أي: فَفَهَّمْنَا الْقَضِيَّةَ وَالْحُكْمَ الْأَقْرَبَ لِكَمَالِ الْعَدْلِ فِيهَا سُلَيْمَانَ، وَهَذَا التَّفْهِيمُ مِنَ اللَّهِ لِسُلَيْمَانَ قَدْ كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِلَهَامِ الرَّبَّانِيِّ، بِمَعُونَةِ غَيْرِ مُذَرَكَةٍ بِالْحَسِّ، لَكِنْ يَظْهَرُ أَثَرُهَا بِحُصُولِ الْفَهْمِ، وَالْإِلَهَامِ شَيْءٍ خَفِيَ غَيْرِ الْوَحْيِ.

فقدّم سليمان رأيه في ذلك لأبيه داود عليهما السلام، فقبله، وقضى به.

● ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾ أي: وَكُلًّا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا.

الحُكْمُ: فقه الأمور، والقضاء بالعدل، وحُسنُ الإدارة.

أما العِلْمُ، فهو سُلْمٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، قَابِلٌ لِأَنْ يَتَنَامَى دَوَامًا.

وجاء التنكير في كَلِمَتَيْنِ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ آتَاهُمَا مَقْدَارًا مَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْعِلْمِ، كَانَا فِيهِمَا مُتَفَوِّقَيْنِ عَلَى نَظَائِهِمَا، أَمَّا كَمَالُ الْحُكْمِ وَالْعِلْمِ فَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخَدَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ لَمْ يُؤْتَوْا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، وَكَمَالُ الْحُكْمِ لَا بَدَّ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى شُمُولِ الْعِلْمِ.

وَأَمَّا الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ فَقَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

● ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩):



**التَّسْخِيرُ:** التَّذْلِيلُ لِعَمَلٍ مَا، أَوْ أَمْرٍ مَا، وَجَعْلُ الشَّيْءِ، مَطَاوَعًا لِمَا يُرَادُّ مِنْهُ، ضَمَّنَ قَانُونُ التَّسْخِيرِ الرَّبَّانِيَّ لَهُ.

وهذه الْمُطَاوَعَةُ تَكُونُ عَلَى وَجْهِ:

(١) فَإِذَا أَنْ تَكُونَ بِالطَّبْعِ وَالْفِطْرَةِ ضَمَّنَ قَانُونُ التَّكْوِينِ الْجَبَرِيِّ، كَالرَّيَّاحِ، وَالْمِيَاهِ، وَالنَّارِ، وَالْأَرْضِ، وَكُلِّ مَا فِيهَا، فَهِيَ مُسَخَّرَاتٌ لِلْإِنْسَانِ ضَمَّنَ قَوَانِينِ تَسْخِيرِهَا، وَفَقَ مُقْتَضَى طَبْعِهَا الْجَبَرِيِّ وَمَا جَبَلَتْ عَلَيْهِ.

وَكَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي السَّمَاءِ، وَكَالسَّحَابِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَهِيَ مُسَخَّرَاتٌ لِمَنَافِعِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ ضَمَّنَ أَنْظِمَتَهَا وَقَوَانِينِهَا الْجَبَرِيَّةَ، وَفَقَ مُقْتَضَى طَبْعِهَا وَمَا جَبَلَتْ عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا تَسْخِيرُ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) وَإِذَا أَنْ تَكُونَ الْمُطَاوَعَةُ بِالْقُوَّةِ وَالْإِلْزَامِ وَالْقَهْرِ، مَعَ التَّذْلِيلِ بِالشُّعُورِ بِالضَّعْفِ، كَتَسْخِيرِ الْعُجَمَاوَاتِ مِنَ الْبَهَائِمِ بِالتَّذْلِيلِ وَالْمُطَاوَعَةِ الْإِلْزَامِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ.

(٣) وَإِذَا أَنْ تَكُونَ الْمُطَاوَعَةُ بِالِاخْتِيَارِ الْحَرِّ، لِمَا فِي الْمُطَاوَعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ أَوْ فَائِدَةٍ لِلْمَطَاوِعِ، كَاتِّخَاذِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا.

فَالنَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مُسَخَّرُونَ بِالِاخْتِيَارِ الْحَرِّ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يُسَخَّرَ نَفْسُهُ لغيره فِيمَا لَهُ بِهِ مَصْلَحَةٌ، أَوْ فَائِدَةٌ عَاجِلَةٌ فِي الدُّنْيَا، أَوْ أَجَلَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَوْ بِدَافِعِ حُبِّ الْخَيْرِ، وَالْقِيَامِ بِفَضِيلَةِ الْمَعُونَةِ، وَالسَّعَادَةِ بِلَذَّةِ مِمَارَسَةِ الْفَضِيلَةِ.

وَفِكْرَةُ تَسْخِيرِ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَظْهَرُ فِي بَادِي الرَّأْيِ أَنَّهَا مُكْرَّرَةٌ، إِذْ سَبَقَ فِيمَا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ قَبْلَ سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ/ ٢١ مَصْحَف/ ٧٢ نَزُول) بَيَانُهَا، فَقَدْ جَاءَتْ مَبْيَّنَةً فِي سُورَةِ (ص/ ٣٨ مَصْحَف/

٣٨ نزول). لكن قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء): ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قد دللنا على أن ما جاء فيها قد جاء مقترناً بفكرة جديدة مضافة، وهي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ وأرذنا وقدرنا وقضينا، وهذه أمور سابقة لتنفيذ الفعل، فجاء قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ دالاً على أن ما كان قد قضاه الله قد تحقق تنفيذه بالأمر التكويني، فتمَّ تحقُّق هذا التسخير في الواقع.

وفي هذا بيان أن ما يجري من أحداث في الكون مسبوق بقدر وقضاء، ثم يكون تنفيذه وفعله بعد ذلك بالأمر التكويني.

وأما القضية الثالثة فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

• ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)؟.

اللُّبُوسُ: اسم يقع على كل ما يُلبَس سائراً لكل الجسم أو بعضه، وجمعه «لُبْس».

ويطلق اللُّبُوسُ على الدِّزَع وهو المراد هنا.

﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾: أي: لِيَتَّقِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ، وَلِتُخَيِّمِي أَجْسَادَكُمْ مِنْ ضَرَبَاتِ سُيُوفٍ وَرِمَاحٍ وَسِهَامٍ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَرْبِ، وَابْتِغَاءَ سَلَامَتِكُمْ.

البأسُ: الحربُ، والشدة فيه.

وقد يبدو أن فكرة أمر الله عز وجل لداود بصناعة دروع الزرد، فكرة مُكرَّرة قد سبق بيانها في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول): لَكُنَّا إِذَا دَقَّقْنَا وَأَمَعْنَا النَّظَرَ فِي دَلَالِ النَّصِّ هُنَا فِي سُورَةِ (الأنبياء) وَجَدْنَا أَفْكَاراً مِثْلَ هَذِهِ ذَاتَ شَأْنٍ.

**الفكرة الأولى:** أَنَّ صُنْعَ داود عليه السَّلام للذُّرُوع قد كان بتَّعْلِيم من الله له .

**الفكرة الثانية:** أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَمْتَنُّ على عباده بتعليمهم عن طريق رُسُولٍ من رُسُلِهِ، وسيلةً من وسائل إحصانهم من شرور حَرْب بعضهم لبعض، ولم يذكر الله أَنَّهُ علَّمَ عِبَادَهُ عن طريق الوحي صناعةً أدوات القتال .

**الفكرة الثالثة:** دعوة الله عباده أن يشكروه على نعمة هدايتهم إلى وسائل سلامتهم، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾؟ .

استفهامٌ يراد به الترغيب في الشكر والحثُّ عليه .

وهكذا ظهر لنا أن النصَّ مع إعادة أضل الموضوع فيه قد اقترنَ بأفكار مُضَافَةٍ إلى مَا سَبَقَ تنزيله .

### النص السابع:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) ضَمِنَ عَرْضِ قِصَّةِ حَرْبِ بني إسرائيل بقيادة «طالوت» للوثنيين في الأرض المقدسة بقيادة «جالوت» .

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَأً وَكُنْتَ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ .

جاء في هذا النص لقطَةً من قِصَّةٍ من قصص بني إسرائيل، تتعلَّقُ بِطَلَبِ بني إسرائيل من نبيِّ لهم، جاء في كُتُبِهِمْ أَنَّهُ «صُمُويل» أن يحكُمَهُمْ مَلِكًا، ليقاتلوا بقيادته لاسترجاع ما كان تَحْتَ أيديهم، وأرادوا أن يتخلَّصُوا

من سياسة أنبيائهم لهم، فسأل «صمويل» رَبَّهُ من أجْلِهِمْ أن يختار لَهُمْ مَلِكًا، فاستجاب الله دُعاه، فاختار لهم «طالوت» من سِبْط «بنِيامين» أَقْلُ أسباط بني إسرائيل عددًا ومالًا ومكانة اجتماعية بينهم، فدعاهم «طالوت» لقتال «جالوت» وجُودِهِ، وامْتَحَنَهُمْ، واضْطَفَى منهم قِلَّةً صادقةً مؤمنةً، ودخل في جنوده فتى شاب من بني إسرائيل من سِبْط «يهوذا» اسْمُهُ «داود» فقضى الله أن يكون مَقْتُلُ «جالوت» الجبار بيد «داود» بحجرِ رَمَاهُ عَلَيْهِ من مَقْلَاعِهِ، بعد أن أعلن «طالوت» أن جائزة من يَقْتُلُ «جالوت» أن يُزَوِّجَهُ ابْنَتُهُ، وأن يكون هو مَلِكُ بني إسرائيل من بَعْدِهِ.

وحاول «طالوت» بَعْدَ ذلك أن يتخلَّصَ من «داود» لِيَجْعَلَ ميراث الملك في أولاده، لكنَّ قضاء الله وتصاريه تدبيره عز وجل لم تُسَاعِدْ «طالوت» على تحقيق مراده.

وَأَتَمَّ الله بِالطَّافَةِ ما قضى، فكان «داود» بَعْدَ أحداثٍ متعدِّدة ذكرها الإسرائيليون في كُتُبِهِمْ هو المَلِكُ على بني إسرائيل. بَعْدَ موت «طالوت».

وقد جمع الله عز وجل لداود المُلْكَ والنبوة والرسالة، فكان نَبِيًّا ورَسُولًا وَمَلِكًا على بني إسرائيل، وقد عَرَفْنَا أَنَّ هَوَى بني إسرائيل أَنَّ تَسْوِسَهُمْ مُلُوكٌ لا أنبياء، لأنَّهم مع الملوك يتحرَّزون من قيود الدين بحَسَبِ أهوائهم، وتُسَايِرُهُمْ ملوكُهُمْ على ذلك، أما مع الأنبياء، فَإِنَّ أنبياءَهُمْ يَقْفُونَ عِنْدَ حُدُودِ الله، ولا يُسَايِرُونَهُمْ على فِسْقِهِمْ وشرِّهم وإفسادهم في الأرض.

وقد أَضَافَ هذا النَصَّ الذي جاء في سورة (البقرة) بشأن داود عليه السَّلَام إلى ما سَبَقَ أن نزل بشأنه في نجوم التنزيل عدَّة بيانات:

**البيان الأول:** أَنَّ داود عليه السلام قتل «جالوت» في حرب بني إسرائيل للوثنيين، بقيادة «طالوت»، وهذا بيان مُضَاف لم يَسْبِقْ ذِكْرُهُ فيما نزل قبل هذا النَصَّ بشأن داود.

البيان الثاني: أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد آتاهُ الْمُلْكُ، وهذا بيان مضاف لم يَسْبِقْ ذكره فيما نزل قبل هذا النصِّ بشأن داود.

وفيه دلالة على أَنَّ وُصُوله إلى الملك قد كان عطاءً من الله عَزَّ وَجَلَّ محاطاً بِعِنايةٍ منه.

أما الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) فقد تَضَمَّنَ بيان تقويةِ مُلْكِهِ في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ﴾.

وأما قوله تعالى في سورة (ص) أيضاً: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ فهو يَدُلُّ على معنى غير الْمُلْكِ، لَأَنَّ اسْتِخْلَافَهُ هَذَا قَدْ كَانَ وَهُوَ مَلِكٌ قَائِمٌ، فَهُوَ عَطَاءٌ زَائِدٌ فِيهِ مَعَانٍ مُضَافَةٌ إِلَى الْمُلْكِ، من مظاهرها أَنَّ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، وَأَنَّ لَا يَتَّبِعَ الْهَوَى.

البيان الثالث: أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ آتَاهُ الْحِكْمَةَ، وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ قد سَبَقَ بيانه في سورة (ص) فَيَسْبِقُ إِلَى الذَّهْنِ أَنَّهُ بَيَانٌ مُكْرَّرٌ، لَكِنْ لَنَا أَنْ نقول انسجماً مع أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ: إِنَّ الْحِكْمَةَ من الفضائل القابلة للزيادة، والقابلة للتنوع بِحَسَبِ الْمَجَالَاتِ والموضوعات، فتكريرُ بَيَانِ إِيْتَائِهِ الْحِكْمَةَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَاقِعَ قد جَرَى فِيهِ نَظِيرُ ذَلِكَ، عَلَى سَبِيلِ الزِّيَادَاتِ والإضافات في النُسْبَةِ، وفي الْمَجَالَاتِ والموضوعات المختلفة.

وبهذا الفهم يَظْهَرُ لَنَا أَنَّهُ لَا تَكَرِيرَ.

فعندَ بَدْءِ الْمُلْكِ آتَاهُ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْرًا أو نوعاً من الحكمة، وبعد أن تَوَطَّدَ مُلْكُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، آتَاهُ الله نوعاً آخر وقدرًا مُضَافاً جديداً من الحكمة.

البيان الرابع: أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وقد سَبَقَ في سورة (النمل) وفي سورة (الأنبياء) أَنَّ الله آتَاهُ علماً.

وأقول هنا نظير الذي سبق بيّانه بشأن الحكمة، فالعلم ذو نسب متفاضلة، تتنامى قدرًا، وذو مجالات مُتَنَوِّعاتٍ كثيرات.

فتكرير بيان إيتائه العلم يدلُّ على زيادات العطاء منه في المجالات. والأنواع، والمقادير. وهذا يدلُّ على أن داود عليه السلام قد كان يزداد معرفة وعِلْمًا مع مَرَاجلِ عُمره، ولم تتوقف لديه المعرفة عند المقدار الذي آتاه الله إيَّاه في أوَّلِ نشأته، أو في أوَّلِ مُلكه.

وبهذا نفهم أنه لا تكرار في النصوص الواردة بشأنه.

### النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) لرُسُوله

محمد ﷺ:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ فَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ ﴾ (١٦٥)

فأضاف هذا النص عن داود عليه السلام أنه نبيٌّ ورسولٌ بصريح العبارة، ويجمعه مع عدد من الأنبياء والمرسلين.

وأضاف بيان أن الله قد أوحى إليه، كما أوحى إلى نوح وإبراهيم ومن ذكر بعدهما فيه.

وأضاف التصريح بأن الله عز وجل قد آتاه زُبوراً، أي: كتاباً عن

طريق الوحي إليه، فهو كتاب تلقاه بالوحي عن ربه، وليس مجرد عطاء كما أعطاه الله الملك.

أما النص الذي جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فليس فيه التصريح بأن الله آتاه زبوراً بالوحي، فاقضى البيان مجيء نص فيه هذا التصريح.

### النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨).

فأضاف هذا النص عن داود عليه السلام بيان أن الذين كفروا من بني إسرائيل قد لعنوا على لسانه، ولعنوا أيضاً على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام.

أي: جاء فيما أوحى الله به إليهما هذا اللعن، وكانا هما مبلّغين باللسنتيهما، ولو كان اللعن صادراً عنهما دون وحي لكان المناسب أن يكون النص كما يلي: لعن داود وعيسى ابن مريم الذين كفروا.

وبهذا تم استكمال ما جاء في القرآن كله بشأن داود عليه السلام بتدبر كشف التكامل بين النصوص، وأنه لا تكرار في عناصرها وبياناتها، إلا ما يستدعيه الدخول إلى الموضوع، أو الربط بين سلاسل الأفكار.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه



(١٢)

## الملحق الرابع

## قصّة خلق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث

جاء في القرآن المجيد ستة نصوص مطوّلة حول قصّة خلق آدم عليه السلام، وما رافق خلقه من أحداث، منها عَرَضُ الله عزّ وجلّ قضاءه بخلقه على ملائكة الملائكة الأعلى، وكانَ معهم إبليسُ الَّذي هو من الجنّ لا من جنس الملائكة مُندساً فيهم نفاقاً بتمكين الله له، ومُتَسَلِّلاً سَمَاءَ فَسَمَاءَ بما كان يتظاهرُ به من عبادات مع أصناف الملائكة. ومنها سُؤالُ ملائكة الملائكة الأعلى ربّهم عن الحِكْمَةِ من خلق هذا المخلوق الجديد، ثم أمرُ الله للملائكة بالسّجود لآدم، وإبَاء إبليس وإصراره على رَفْضِ السّجود، ومحاكمته وطرده ولَعْنُهُ، وطلَبُ إبليس من ربّه أن يُمهله حيّاً فلا يُميتَه إلى يوم البعث، فأنظَرَهُ الله إلى يوم إنهاء ظروف الحياة الدنيا، لا إلى يوم البعث، فأخذَ إبليسُ العَهْدَ الموثَّقَ على نفسه بالقَسَمِ، أن يَغْوِي آدم وزوجه وأنسألهما إلّا قليلاً منهم، فمكَّنَهُ الله من الإغواء، دون أن يكون له سُلْطَانٌ يُلْغِي به إراداتهم الحرّة، وأوعده هو ومن اتَّبَعَهُ بأن يكونوا بكُفْرِهِم خالدين في عَذَابِ الجحيم يوم الدين بعدَ البعث.

والتدبُّر المتأنّي بنظرة كُليّةٍ جامعة، يَكْشِفُ أن هذه النصوص الستة المطوّلة، مع سائر النصوص القصيرة الموزعة في سور القرآن المجيد، هي متكاملةٌ فيما بينها دون تكرير باستثناء ما يقتضيه الرِّبْط أو التمهيد، أو بيّانُ أنَّ الواقع كان مُكرّراً وتوجدُ مطوِّياتٌ إيجازاً، ويقتضيها النّصُّ باللزوم العَقْلِي، ويكشِفُها التأمل التدبُّري.

وفي هذا الملحق أعرضُ ما انتهى إليه بتوفيق الله وفتحته تدبُّري لهذه النصوص، تدبُّراً تكامليّاً مُتأنّياً، ناظراً إلى ما في هذه النصوص من فروق في الألفاظ ولو كانت طفيفة، وناظراً إلى ما يقتضيه التسلسل المنطقي



للأحداث، وإلى ما يلزم عن الفكرة المنصوص عليها من أفكار أخرى مَطْوِيَّةٍ إيجازاً.

وما انتهيتُ إليه هو بمثابة خطوة في طريق التدبُّر التكاملي لكتاب الله عزَّ وجلَّ، وهو طريق طويل. والنصوص الستة الموضوعية لهذه الدراسة هي:

- (١) الآيات من (٧١ - ٨٥) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).
  - (٢) الآيات من (١١ - ٢٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).
  - (٣) الآيات من (١١٦ - ١٢٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).
  - (٤) الآيات من (٦١ - ٦٥) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).
  - (٥) الآيات من (٢٦ - ٤٤) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).
  - (٦) الآيات من (٣٠ - ٣٩) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).
- وقد تُجمَعُ مَعَهَا نصوصٌ قصيرة مكملّة موزعة في سُورٍ من القرآن المجيد.

وأنقلُ هذه النصوص من المصحف أولاً ثم أشرع بتدوين ما انتهى إليه تدبُّري، بالمقدار الذي فتح الله به عليّ، ويسرّه لي، وأتركُ لمن يأتي على الطريق نفسه من بَعْدِي، ما يفتح الله به عليه من إضافات أو تعديلات أو تصويبات، فسئله الله في العلم الإنساني أن تكون حركات تراكميّة وتعديليّة أو تصحيحية.

### النص الأول

الآيات من (٧١ - ٨٥) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)

قال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِنْ رُوحِي فَفَعُوا لَمْ سَجِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ  
 اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ  
 اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ  
 ﴿٨٠﴾ قَالَ فَانْخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ قَالَ رَبِّ  
 فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ  
 ﴿٨٥﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّثَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ فَالْحَقُّ  
 وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٨﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾ .

### النص الثاني

الآيات من (١١ - ٢٥) من سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول)

قال الله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
 إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ  
 خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا  
 فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ  
 ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ  
 وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا  
 مَذْهُومًا مَدْحُورًا لَنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَبَعَادُكُمْ عَنْ آتِ  
 وَرَاجِعِ الْجَنَّةِ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾  
 فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ  
 هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ  
 ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ  
 عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ  
 الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ❖

### النص الثالث

الآيات من (١١٦ - ١٢٦) من سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول)

قال الله عز وجل :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّخِذْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَتُكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ مُّغْدِلٍ وَفُكٍّ لَا يَلْبَسُ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ❖

### النص الرابع

الآيات من (٦١ - ٦٥) من سورة (الإسراء/ ١٧/ مصحف/ ٥٠/ نزول)

قال الله عز وجل :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَغْفِرُكَ مِنِ اسْتَغْفِرُكَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخِيكَ

وَرَجَلَاكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾

### النص الخامس

الآيات من (٢٦ - ٤٤) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول)

قال الله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعْ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَاجِدٍ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

### النص السادس

الآيات من (٣٠ - ٣٩) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)

قال الله عز وجل :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي

بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَتُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أُنْبِئَهُمْ بِأَنسَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكَنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَنَلْقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ قَنَابٍ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَأَبُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ ❀

وتوجد متفرقات من نصوص قصيرة، قد استشهد ببعض منها أثناء تدبر هذه النصوص المطولة إكمالاً للدراسة، ولكن دون استيعاب، والله ولي التوفيق والتسديد.



(أ)

إعلام الله الملائكة بقضائه أن يخلق السلالة البشرية

أولاً:

جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن هذا الإعلام قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ❀

أي: إني سَأَجْعَلُ مِمَّا أَخْلَقْتُ نَوْعاً من مَخْلُوقَاتِي يَخْلُفُ بعضهم بَعْضاً، فيكونُ النَّسْلُ اللَّاحِقُ خَلْفاً لِمَنْ سَبَقَهُ في الوجود وانتهت مدّة حياته.

خَلِيفَةً: على وزنِ «فَعِيلَةٌ» بمعنى اسم الفاعل «خالف» وبمعنى اسم المفعول «مَخْلُوفٌ» فهذا النوع خالف ومَخْلُوفٌ، فالْمَخْلُوفُ تنقضي حَيَاتُهُ في الأرض بالموت، والخَالِفُ يحل محلَّ المَخْلُوفِ في الْمِلْكِ والانتِفَاعِ.

وهذا النوعُ يُنْطَبِقُ عليه نظامُ التناسل المشهود في كلِّ المَخْلُوقَاتِ الحيّةِ الموجودة في الأرضِ قبل خَلْقِ الإنسان.

وَدَلَّ على أَنَّ المرادَ بالملائكةِ ملائكةُ المَلَأِ الأعلى كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم، وَكَانَ إبليسُ الجَنِّي الخَلْقِ والنشأةِ مُنْذَساً فيهم بنفاقه بتمكين الله له، قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) يُعَلِّمُ رُسُلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ لِحَاجِدِي نُبُوَّتَهُ ورسالته:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ إِنَّ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَآ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وجاء بعد هذا النصّ عَرْضُ لِقَطَاتٍ من قصّةِ خَلْقِ آدم، وفيها عَرْضُ لِقِطَةٍ من هذا الاختصام، وهي لِقِطَةٌ اسْتِكْبَارِ إبليسَ عن طاعة أمر الله بالسُّجُودِ لآدم، وعناده، ومخاصمته ربّه، طاعناً في حكمته بأمر ملائكةِ المَلَأِ الأعلى ومن كان معهم ملتحقاً ومُنْذَساً فيهم أَنْ يَسْجُدُوا لآدم.

ويُوجَدُ بين قول الله للملائكة في النص: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبين قوله تعالى فيه: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾ كلامٌ مَطْوِيٌّ يُمكنُ أَنْ نُعَبِّرَ عَنْهُ بما يلي:

فَسألَ الملائكةَ رَبَّهُمْ: مَا صِفَةُ هَذَا المَخْلُوقِ الَّذِي قَضَيْتَ رَبَّنَا أَنْ تَخْلُقَهُ وَمَا خَصَائِصُهُ؟ فَأَبَانَ اللهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانهُ لهم صِفَاتِهِ، ومنها

أنّه يكونُ ذا إرادةٍ حُرّةٍ وقُدّراتٍ لاكتسابِ المعارفِ والعلومِ، وذا صِفاتٍ نفسيّةٍ فيها أهواءٌ ورغباتٌ وشهواتٌ ونوازعٌ لتحقيقِ الأهواءِ والشهواتِ، ولو بارتكابِ المعاصي والآثامِ وفعلِ الشرِّ، وهذه الصّفاتُ يَنْتُجُ عنها الإفسادُ في الأرضِ وسفكُ الدِّماءِ ظلماً وعدواناً.

قال الملائكة: أَتَجْعَلُ فِي الْأَرْضِ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ لَكَ عَابِدُونَ، نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ، أَي: تنزهك تنزيهاً مُلْتَبِساً وَمَقْتَرِناً بِحَمْدِكَ، وَنُقَدِّسُ لَكَ، أَي: نُظَهِّرُ أَنْفُسَنَا مِنْ كُلِّ رَجَسٍ لَكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، وَنُعْظِمُكَ وَنُكَبِّرُكَ، والمعنى: فَلِمَ قَضَيْتَ بَأْنَ تَخْلُقَ هَذَا الْمَخْلُوقَ الَّذِي هَذِهِ صِفَاتُهُ؟.

قال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا لَا يَعْلَمُونَ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكَيْفَ بِمَا يَعْلَمُونَ وَمِنْهُ مَا يُبْدُونَ وَمَا يَكْتُمُونَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ أَقْوَالٍ لَا يَقُولُونَهَا أَدْباً مَعَ رَبِّهِمْ، أَوْ خَوَاطِرُ لَا يُعْبَرُونَ عَنْهَا كَذَلِكَ، وهذه لَا تَدْخُلُ فِيهَا هُمْ مَعْصُومُونَ عَنْهُ، فَعِصْمَتُهُمْ هِيَ فِي حُدُودٍ: لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

روى الطبريّ عن «موسى بن هارون» قال: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ حَمَادٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَشْبَاطُ بْنُ السَّيِّدِي، فِي خَبَرٍ ذَكَرَهُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ، وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَعَنْ مُرَّةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاهُ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قَالُوا: رَبَّنَا، وَمَا يَكُونُ ذَلِكَ الْخَلِيفَةَ؟ قَالَ: يَكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَحَاسَدُونَ، وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً هـ.

أَي: وَعِنْدَئِذٍ قَالَ الْمَلَائِكَةُ لِرَبِّهِمْ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟. فَقَالَ اللَّهُ عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً:

وَتَنْفِيزاً لِحُطَّةِ خُلُقِ اللَّهِ عزّ وجلّ لِآدَمَ، جَمَعَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظَّمَ

سلطانه، لتكوين جسد آدم مقداراً ما من مختلف عناصر المادة التي تتكوّن منها الأرض، وأضاف إليه ماء وخلطهما حتّى صار المجموع طيناً.

روى أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي موسى أنّ النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» إسناده صحيح.

الحزن: هو من الأرض ما غلظ، وكان المشي فيه صعباً.

وكون جسد الإنسان مخلوقاً من طين قضية ظاهرة، فمركب جسم الإنسان ماء وحفنة من عناصر ذرات الأرض، وهذا ما أثبتته التحليلات الكيميائية لدى علماء الكيمياء، وهو الأمر المشاهد في بناء الأجساد الحيّة من عناصر الأرض عن طريق النباتات، وفي عودة الأجساد بفنائها إلى عناصر الأرض إذ تكون تراباً، ويتبخّر الماء فيعود مختلطاً بالمياه الأخرى، سحباً وبحاراً وأنهاراً.

وفي هذا الطور الذي كانت فيها مادة جسد آدم طيناً، قال الله عز وجل للملائكة: إني خالق بشر من طين، دلّ على هذه المرحلة قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٦٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: سأخلق بشراً من عناصر تراب الأرض ممزوجة بماء.

البشر: هو في اللغة الخلق، ويُطلق على الإنسان (الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث سواء) وقد يثنى، وقد يُجمع على أبشار.



﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: أي: فإذا أتممت تقويمه وتغديل خلقه، حتى صار سويًا مُكْتَمِلًا لِلْغَايَةِ المخلوق لها، وهي الصورة البشرية الكاملة. يقال لغة: سَوَّى الشيء إذا قَوَّمَهُ، وَعَدَلَ بَيْنَ أَجْزَائِهِ، فَجَعَلَهُ سَوِيًّا. وَيُقَالُ لِلْغُلَامِ إِذَا تَمَّ شَبَابُهُ قَدْ اسْتَوَى.

﴿فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾: الوقوع والسقوط والخروج يراد بها سرعة الهبوط والنزول حتى يكونوا ساجدين. وهذا السجود طاعة لأمر الله وتكريم وتوقير لآدم، وتكفير عما كانوا كتموه من أنهم أفضل من هذا المخلوق الجديد، فَمَا الدَّاعِي إِلَى خَلْقِهِ؟.

وقد سبق تدبر هذا النص خلال تدبر دروس سورة (ص). فأبان هذا النص أن الله عز وجل، قد رآد الملائكة في هذا الإعلام اللاحق، بَيَّنَّ أَنَّ المخلوق الجديد الَّذِي قَضَى بِأَنْ يَخْلُقَهُ هُوَ:

(١) بَشَرٌ مِنْ طِينٍ، أي: من ترابٍ وماء مختلطين.  
(٢) وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، مَتَى تَمَّتْ تَسْوِيَّتُهُ لَهُ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ جَنْسِ الرُّوحِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَجَعَلَهُ بِحُكْمَتِهِ السِّرِّ الْخَفِيِّ الَّذِي تَكُونُ بِهِ المخلوقات كائنات حيّة.

رُوحُ اللَّهِ: هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، يَكُونُ وُجُودُهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ المباشر، دون وساطة أسباب من مخلوق سابق له. فإذا نُفِخَتْ ذَرَّةٌ مِنْهُ فِي شَيْءٍ صَارَ حَيًّا وفق التكوين الذي خُلِقَ لَهُ، وإضافة روح إلى ياء المتكلم الواحد الأحد هي على معنى المَلِكِ، إذ كل ما خُلِقَ هُوَ مَلِكُهُ<sup>(١)</sup>.

ثالثاً:

وَمَرَّتْ مُدَّةٌ عَلَى طَيِّئَةِ هَذَا المخلوق الجديد، تَحَوَّلَتْ خِلَالَهَا بِخَلْقِ اللَّهِ، فَصَارَتْ حَمًا مَسْنُونًا، ثُمَّ جَفَّتْ فَصَارَتْ صَلْصَالًا.

(١) وهو نظير قول الله تعالى: ﴿إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةً﴾ و ﴿وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾ و ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي﴾ إلى غيرها من نظائره.

الْحَمَأُ: الطَّيْنُ الْأَسْوَدُ الْمَتَّيْنُ.

الْمَسْنُونُ: الْمَضْفُوقُ الْمَمْلَسُ.

الصَّلْصَالُ: الطَّيْنُ الْيَاسِسُ الَّذِي إِذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أُعْطِيَ صَوْتًا فِيهِ تَرْجِيْعٌ.

وفي هذا الطور الذي صارت فيه طينة هذا المخلوق الجديد صَلْصَالًا من حمأ مسنون، قال الله عز وجل للملائكة ما جاء بيانه في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الجان: هو أبو الجن، وإبليس من ذريته، بدليل قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لبني آدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾: أي: فعصى خارجاً ومبتعداً عن طاعة أمرِ رَبِّهِ بالسُّجود لآدم مع الملائكة المأمورين بأن يسجدوا له.

نار السَّمُوم: هي النار التي تُخْذِلُهَا الرِّيحُ الْحَارَّة.

فأبان هذا النص الذي جاء في سورة (الحجر) أن الله عز وجل قد أكَّد للملائكة في هذا الإعلام اللاحق، حين صارت طينة المخلوق الجديد في طور صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ، بأنه خالق بشراً منه، وأكَّد لهم الأمر بأن يَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، إِذَا سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ.

وفي بيان أنه من صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ، غَمَزَ على مواطن الكبر

فِي نَفْسِ إِبْلِيسَ الْمُنَدَّسِ بَيْنَ مَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، لَامْتِحَانِ طَاعَتِهِ لَوْ شَاءَ أَنْ يَفْتَحِمَ عَقِبَةَ الْكِبَرِ الْعِظَمَى فِي نَفْسِهِ.

وفي بيان خَلْقِ الملائكة من نور، وَخَلْقِ الْجَانِّ من مَارِجٍ من نار، روى مُسْلِمٌ عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

من مَارِجٍ من نار: أي: من أخلاط نارٍ صافية، المارج: المختلط من عناصر مختلفة.

#### رابعاً:

ومرّت مُدّة جعل الله عزّ وجلّ فيها الصلصال المعدّ ليكون جسد آدم، ذا صورة، وهي الصورة التامة لآدم قبل نفخ الرّوح فيه.

يقال لغة: صَوَّرَ الشَّيْءَ، أي: جعلَ له صُورَةً مَجَسِّمَةً.

وهذا هو الطور الأخير الذي وصلت إليه طينة آدم قبل نفخ الروح فيه.

وحول هذا الطور روى مسلم عن أنس أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَ لَا يَتِمَّالِكُ».

ورَوَى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعاً».

وجاء في هذا الحديث:

«فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى

الآن».

ولفظ مُسْلِم: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ...» الحديث.

وَدَلَّ على هذا الطُّور، وهو طَوْرُ جَعْلِ جَسَدِ آدَمَ ذَا صُورَةٍ قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ...﴾ (١١)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾: أي: وَلَقَدْ أَعْطَيْنَا أَجْزَاءَ جَسَدِ آدَمَ مَقَادِيرَهَا بِإِتْقَانٍ وَإِحْكَامٍ، وَلَمَّا كَانَ آدَمُ هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ الَّذِي جَمَعَ الْخَالِقُ الرَّبُّ فِيهِ كُلَّ السَّلَاطَةِ الْبَشَرِيَّةِ، بَدَأَ بِحَوَاءِ رُؤُوسِهِ، ثُمَّ مَا بَتَّ مِنْهُمَا مِنْ ذُرِّيَّاتٍ، وَمَا يَبُتُّ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، خَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ فِي هَذَا النَّصِّ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾.

الْخَلْقُ: إِعْطَاءُ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ مَقَادِيرَهَا بِإِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ.

التصوير: جَعْلُ الشَّيْءِ ذَا صُورَةٍ مُجَسِّمَةً.

خامساً:

ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَسَدِ آدَمَ الَّذِي اكْتَمَلَ خَلْقُهُ وَتَصْوِيرُهُ مِنْ رُوحِهِ، أَي: نَفَخَ فِيهِ مِنْ جِنْسِ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ خَلْقٌ عَظِيمٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَهُوَ مِلْكُهُ جَلٌّ جَلَّالُهُ، وَبِهِ تَكُونُ الْمَادَّةُ حَيَّةٌ بِحَسَبِ الْخَصَائِصِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهَا عَلَيْهَا.

وقد جاء بيان أن الله عز وجل نفخ فيه من روحه في سورة السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) فقال تعالى فيها: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيَّهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٩)

وجاء مطوياً لفظاً مفهوماً اقتضاءً مِنْ تَرْتِيبِ حَادِثَةِ سَجُودِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى عِبَارَةٍ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٢) فِي الْآيَةِ (٧٢) مِنْ سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وَفِي الْآيَةِ (٢٩) مِنْ سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

والمطوي الذي يُسْتَخْرَجُ بِالتَّفَكُّرِ يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِمَا يَلِي: فَتَفَخَّ اللَّهُ

فِي الْجَسَدِ الْمَصُورِ الْمَعْدُّ لَأَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا حَيًّا، فَقَامَ مَخْلُوقًا تَامًا الْخَلْقِ كَامِلَ التَّسْوِيَةِ حَيًّا لَهُ صِفَاتُ كَائِنٍ حَيٍّ مُمَيِّزٍ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبُو الْبَشَرِ جَمِيعًا.

سادساً:

وَبَعْدَ أَنْ صَارَ آدَمُ إِنْسَانًا حَيًّا تَامًا الْخَلْقِ، قَابِلًا لِلتَّعَلُّمِ بِمَا خُلِقَ فِيهِ مِنْ جِهَازٍ دِمَاغِيٍّ مُفَكِّرٍ عَجِيبٍ، مُسْتَعِدٌّ لِاِكْتِسَابِ الْعِلْمِ، عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا حُسُّهُ الْبَصَرِيِّ.

اسم الشيء: يُطْلَقُ عَلَى صِفَتِهِ، وَيُطْلَقُ عَلَى اللَّفْظِ الَّذِي يُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مُشْتَقًّا مِنْ صِفَتِهِ.

وتعليمُ الأسماء التي يجري التعبيرُ عنها بالألفاظ، يستلزمُ عقلاً تعليمَ النُّطْقِ، وتعليمُ الكلام الذي يُعَبِّرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ مِنْ مَعَانِي.

وقد دلَّ على هذا الطُّور قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ (٣١)

وَنَسَكْتُ هُنَا عَنْ تَحْدِيدِ الْمَسْمِيَّاتِ الَّتِي عَلَّمَ اللَّهُ آدَمَ أَسْمَاءَهَا، إِذْ لَمْ يَرُدَّ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي هَذَا شَيْءٍ، فَالْوَاجِبُ عَدَمُ الْخَوْضِ فِيهِ بِالرَّأْيِ.

لَكِنْ نَقُصُّهُمْ مِمَّا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ مِنْ تَمَتُّةِ الْآيَةِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ مَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِمَّا يَرَاهُ بِبَصَرِهِ، وَقَدْ جَاءَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمْ بِعِبَارَةِ ﴿هَؤُلَاءِ﴾.

سابعاً:

وَمَرَّتْ مُدَّةٌ مُتَرَاخِيَةٌ لَمْ يَأْتِنَا عِلْمٌ بِمَقْدَارِهَا، وَبَعْدَهَا عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَسْمِيَّاتِ الَّتِي عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَمَعَهُمْ إِبْلِيسُ مُنْذَسًّا فِيهِمْ نِفَاقًا، وَأُجْرِي اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آدَمَ مُسَابَقَةً تَفُوقٍ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿... ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١).

دَلَّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على تَرَاخِي حَدَثٍ هذا العَرَضِ عن تعليم آدمَ أَسْمَاءِ الْمُسَمَّيَاتِ الَّتِي عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ.

﴿أَنْبِئُونِي﴾: أي: أَخْبِرُونِي واذْكُرُوا لِي.

﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾: أي: بِصِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْمَشَارِإِلَيْهِمْ مِمَّا يُذَكِّرُ بِالْأَبْصَارِ، وَبِالْأَلْفَافِ الَّتِي تُمَيِّزُ كُلًّا مِنْهُمْ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: تَدُلُّ هذه العبارة على أَنَّهُمْ حِينَ قَالُوا لِرَبِّهِمْ: ﴿اتَّجَمَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (٣٠)؟ كَانُوا يَكْتُمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْجَدِيدِ الَّذِي قَدَّرَ اللَّهُ وَقَضَى أَنْ يَخْلُقَهُ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُعَارِضُ عِصْمَتَهُمُ الْفِطْرِيَّةَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَهُمْ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

أَمَّا إِبْلِيسُ فَقَدْ كَانَ مَا يَكْتُمُهُ أَشَدَّ مِنْ هَذَا، إِذْ كَانَ يَكْتُمُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ.

فَأَجَابَ الْمَلَائِكَةُ بِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢).

﴿سُبْحَنَكَ﴾: أي: تَنَزَّهْتَ رَبَّنَا عَنْ مُجَانِبَةِ الْحِكْمَةِ فِيمَا تُقَدِّرُهُ وَتَقْضِيهِ وَتَخْلُقُهُ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾: أي: لَيْسَ لَدَيْنَا صِفَةُ اسْتِنْبَاطِ الصِّفَاتِ الْبَاطِنَةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ، اسْتِدْلَالاً مِمَّا فِي ظَاهِرِهَا مِنْ عِلَامَاتٍ وَأَمَارَاتٍ، فَعَلِمْنَا قَاصِرٌ عَلَى مَا عَلَّمْتَنَا إِيَّاهُ تَعْلِيماً مُبَاشِراً.

## ثامناً:

عندئذ أمر الله عز وجل آدم بأن يُنبئَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَأُنْبِأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، مَبِيناً صِفَاتِهِمْ، والألفاظ الخاصة الدالة على ذواتهم وعلى صفاتهم.

فَلَمَّا أُنْبِأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ذَكَرَ اللهُ عز وجل الملائكة بما كان قد قال لهم تعقيباً على قولهم: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (٣٠) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ (٣٠) ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

دل على هذه المرحلة قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣).

فأبان بهذا البيان المطوّل، أن قوله السابق لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو اختصار وإيجاز لقوله اللاحق لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣).

وقد سبق شرح هذا تحت «أولاً» من فقرة (أ).

## تاسعاً:

عندئذ جاء دور توجيه الأمر للملائكة بتنفيذ السجود لآدم، الذي كان من قبل أمراً مُعلّقاً على وجود شَرْطَيْنِ:

(١) تسوية الله عز وجل لهذا المخلوق الجديد.

(٢) نفخ الله عز وجل فيه من روحه.

ونفهم من ترتيب الأحداث ترتيباً منطقيّاً أن نفخ الروح في آدم قد كان سابقاً، وأن كمال تشويته للوظيفة التي أعده الله لها قد كان بعد تعليمه أسماء المعروضات التي علّمه أسماءها، فحرف العطف (الواو) في ﴿فَإِذَا

سَوِّتُمْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ هو لمطلق الجمع . إذ التسوية في اللغة هي إبلاغ الشيء الغاية المقضية له ، بجعله تاماً مستوياً بالغاً الغاية المقصودة من صنعه ، وظاهر أن تعليمه الأسماء جزءاً من هذه التسوية .

وقد دلّ على توجيه الأمر للملائكة بتنفيذ السجود لآدم ، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ ﴿٣٤﴾ .

ونظيره في الآية (٦١) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وفي الآية (١١٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) .

وقد جاءت هذه العبارة مكررة فيهما ، لأنها كانت مفتاح الحديث عن قضية السجود لآدم واستكبار إبليس وإبائه .

أما قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ ﴿١١﴾ فقد جاء عقب قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فدلّ هذا الإجراء البياني على أنه مرّ زمناً متراخ بعد التصوير ، إذ يبين التصوير وبين الأمر بالسجود مدة جرى فيها نفخ الروح في آدم ، ثم استكمال تسويته بتعليمه أسماء المعروضات كلها ، فكان من الدقة والصدق في البيان أن يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ ﴿١١﴾ .

عاشراً:

وعقب توجيه الأمر للملائكة ولمن كان معهم مندساً فيهم نفاقاً ، بتنفيذ السجود لآدم ، سجّد الملائكة المأمورون بالسجود كلُّهم أجمعون ، في وقت واحد مجتمعين غير متفرّقين ، إلاّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة



الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ. وَكُشِفَ إِبْلِيسُ بِمَا فَعَلَ  
عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

دلّ على هذا الحدث عدّة نصوص قرآنية متكاملة فيما بينها.

(١) فجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ..﴾ (١١)

فاقتصر هذا النصّ على استثناء إبليس.

(٢) وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (١١٦)

فأضاف هذا النصّ بياناً أنّ إبليس أبى أن يسجد.

(٣) وجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

وجلّ:

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾

فأبان هذا النصّ أنّ الملائكة المأمورين بالسُّجود قد سجدوا كلّهم أجمعون، أي: لم يتخلف منهم أحد، وسجدوا في وقت واحد.

وأبان أيضاً أنّ إبليس لم يسجد، ووصفه الله عزّ وجلّ في هذا النصّ

بصفتين:

الأولى: أنّه استكبر عن السُّجود لآدم، فالباعث له على ما اختار

لنفسه شدة مشاعر الكبر في نفسه.

الثانية: أنّه كان من الكافرين باطناً بالهيّة الله لمربوبه، وهذا يدلّ على

أنّ دخوله في صفوف الملائكة، مُستغلاً التشابه في بعض الصفات الظاهرة

بين الجنّ والملائكة، قد كان نفاقاً، وقد استطاع بهذا التّفاق أن يترقّى في التسلّل حتى دخل في ملائكة الملائكة الأعلى، وعرضه من ذلك أن يكون ذا خطوة عند ربّه، وأن يجعله في الملائكة ذا أمرٍ مطاعٍ كجبريل عليه السلام.

(٤) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ

وجل:

﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (ص) بيان أن إبليس أبى، أي: رفض أن يسجد لآدم امتثالاً وطاعةً لأمر ربّه.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ

وجل:

﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأبان هذا النصّ أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة السّاجدين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، بل هو من جنس الجنّ الممتحنين في ظروف الحياة الأولى، فهو ذو إرادة حرة، يملك بها أن يطيع وأن يعصي.

(٦) وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ

وجل:

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾﴾.

فأبان هذا النصّ أن إبليس قد كان باستطاعته أن يستمرّ على نفاقه مُندساً بين ملائكة الملائكة الأعلى، فيسجد معهم كما سجدوا، ولو لم يكن من جنسهم، لكنّه أبى أن يكون معهم، ورُبّما يرى في داخل نفسه أنّه خيّر منهم أيضاً.

(٧) وجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عز وجل:

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ﴾.

يظهر أَنَّ إبليسَ قالَ في نفسه مُوجِّهاً خِطابه لِربِّه حينَ أبى أَنْ يَسْجُدَ: أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا، أي: خَلَقْتَهُ طِينًا عندَ بدءِ خَلْقِكَ لَهُ.

(ب)

### محاكمة إبليس والحكم عليه وما كان منه عقيب ذلك

دَلَّتِ التَّصَوُّصُ بما فيها من عباراتٍ ذاتِ دَلالاتٍ متعدِّداتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مُتَنَوِّعاتٍ على أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد عَقَدَ لمحاكمة إبليس ثلاثَ جَلِساتٍ، لِيَمَكِّنَهُ من التَّراجُعِ عن موقِفِهِ العناديِّ الاستكباريِّ، فَيَعْتَرِفَ بِذَنْبِهِ وَيَسْتَغْفِرَ، وكانَ الحُكْمُ عليه في كُلِّ واحدةٍ منها الرُّجْمَ والطَّرْدَ، لِكِنَّ إبليسَ لم يكنْ مِنْهُ في كُلِّ واحدةٍ منها إِلَّا الاستكبارَ، والإصرارَ على العصيانِ، وإعلانَ الكُفْرِ بِحُكْمَةِ الله جَلَّ جلاله، والكفرَ بِالْهَيْئَةِ.

الجلسة الأولى:

جلسةٌ دَلَّ عليها قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۚ﴾ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۚ﴾ (٣٣) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۚ﴾ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۚ﴾ (٣٥).

أي: قالَ اللهُ جَلَّ جلاله وعَظَّمَ سُلْطَانَهُ لِإِبْلِيسَ مُتَرَفِّقاً بِمُسَاءَلَتِهِ، وَمُخَاطِباً لَهُ بِاسْمِهِ المَعْرُوفِ به بين الملائكة، والمَعْرُوفِ به بين الجنِّ.

﴿.. مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۚ﴾ (٣٢): أي؛ أَيُّ عَذْرِ لَكَ حَمَلَكَ

على أن لا تكونَ ساجداً مع السّاجدين من ملائكة الملائكة الأعلى، وقد تسألُ في صفوف الملائكة مُتَرَقِّياً حتّى اغتَبَرْتَ نَفْسَكَ واحداً منهم، حريصاً على أن يكون لك من الفضل والمنزلة الرّفيعة مثل ما لهم، ولو لم يكن عنصرك من الملائكة بل أنت من الجنّ.

فلَمْ يُخَفِ إبليس في جوابه احتقاره لآدم ناظراً إلى أحد أطوارِ خَلْقِ جسده، وإلى كونه بشراً.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِلْإِنْسَانِ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝﴾ (٣٢)

فأبان أنه بشرٌ شبيهٌ بأجسادِ حيوانات الأرض في عَدَمِ قُدْرَتِهِ على اختِرَاقِ الفراغات العليا والوصول إلى السماوات، كالملائكة وبعض الجنّ. وذكر المرحلة الأخيرة من أطوار خَلْقِ جسده، وهي مرحلة: ﴿صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

وهذا يُعَبِّرُ عن استكبار إبليس، وترفعه واستنكافه عن أن يسجدَ لمن يُعْتَبَرُهُ دُونَهُ في الخلق، ويُعَبِّرُ عن شكّه في حِكْمَةِ الله في تَوْجِيهِ الأَمْرِ بالسُّجُودِ له.

إن إبليس لم يذكر لنفسه عُذْراً حقيقياً، بل أجاب بما يكشفُ عن كبره ووقاحته مع ربه.

فكان لا بُدَّ من إصدار الحكم عليه بالإخراج من منازل الملائكة الأعلى من الملائكة، وبالرَّجْمِ للطَّرْدِ والإبعاد، مع صَبِّ اللَّعْنَةِ عليه.

﴿قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾ (٣٥)

أي: وفي يوم الدين يجري حسابك على كُفْرِكَ، وإصدار الحكم عليك بما تستحقُّ من عذاب.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ (٣٦)

أي: قال إبليس معترفاً لله بِرُبُوبِيَّتِهِ، رَبِّ بِمَا أَنَّكَ حَكَمْتَ عَلَيَّ بالإخراج والرجم واللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فَأَمْهَلْنِي حَيًّا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَقَدْ كَانَ يَوْمَ الْبَعْثِ لِلْحِسَابِ وَقَضَى الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ مَعْلُومًا لِلْجَنِّ وَالْمَلَائِكَةِ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، لِأَنَّ الْجَنِّ مَخْلُوقُونَ مُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الْأُولَى قَبْلَ الْإِنْسِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْجَزَاءَ يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ مِنْهُ.

وَقَرَّرَ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُغْوِي آدَمَ وَكُلَّ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهُ مِنْ نَسْلِ. فَأَعْطَاهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا بَغْضَ طَلِبِهِ، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يُنْظَرَهُ إِلَى سَاعَةِ أَنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِمَاتَةِ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ فِيهَا، وَجَعَلَهُ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ لَدَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾:

أي: قال: بَغْضُ مَا طَلَبْتَهُ مُجَابًّا، فَإِنَّكَ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، كَجَبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَلَمَّا اسْتَوْتَقَّ إِبْلِيسُ مِنْ إِمْهَالِ اللَّهِ لَهُ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى إِلَى سَاعَةِ أَنْهَاءِ ظُرُوفِهَا، أَعْلَنَ عِزْمَهُ عَلَى أَنْ يَغْمَلَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ وَسَائِلِ إِغْوَاءٍ وَإِغْرَاءٍ وَتَزْيِينٍ، لِإِغْوَاءِ آدَمَ وَمَا يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهُ مِنْ نَسْلِ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُخْلِصًا أَوْ مُخْلَصًا لِلَّهِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوَيْتُكَ لِأَرْضِيَنَّكَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾:

● قُرِئَ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ، أَيِ: الَّذِينَ تَسْتَخْلِصُهُمْ وَتَضْطَفِيهِمْ، فَتَعْصِمُهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، بِسَبَبِ مَا فَطَرْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَمَالِ، لِتَوْهَلَهُمْ لِلنَّبُوءَةِ أَوْ الرِّسَالَةِ.

وَقُرِئَ [الْمُخْلِصِينَ] بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيِ: الَّذِينَ أَخْلَصُوا لَكَ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ، فَأَنْتَ تَحْمِيهِمْ مِنَ الْغَوَايَةِ بِسَبَبِ إِخْلَاصِهِمْ.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ أَتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ :

أي: قال الله عز وجل لإبليس اللعين: هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ بَيَّانُهُ لِكُلِّ الَّذِينَ أَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، فيما أنزل على رُسُلِي وهو صراطٌ مستقيم.

وقرأ يعقوب: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى على هذه القراءة: هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ رَفِيعٌ عَلَى قِمَّةٍ، ودُونَهُ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشَّمَالِ سُبُلُ الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، وَهِيَ مُنْحَدِرَةٌ إِلَى الْمَهَالِكِ، وَمَوْصِلَةٌ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ. فبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

وقال عز وجل له: إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ هُمْ خَلْقِي وَمِلْكِي لَا أَجْعَلُ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا تُؤْثِرُ بِهِ عَلَيْهِمْ، تَأْثِيرًا جَبْرِيًّا تُلْغِي بِهِ إِرَادَتَهُمُ الْحَرَّةَ، فَهُمْ مَخْمُيُونَ مِنْكَ بِحِمَايَتِي لَهُمْ، إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ غَيْرِ الْمَجْبَرَةِ، فَهَؤُلَاءِ لَا أَتَوَلَّى حِمَايَتَهُمْ مِنْكَ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدٌ هَؤُلَاءِ الْغَاوِينَ الْكَافِرِينَ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ وَيَذُوقُونَ الْعَذَابَ فِيهِ أَجْمَعِينَ.

لَمَوْعِدُهُمْ: أي: لِهَيِّ الْمَكَانُ الْمَوْعُودُ بِالْعَذَابِ فِيهِ أَجْمَعِينَ.

ووصف الله عز وجل جهنم بأن لها سبعة أبواب، بحسب أنواع الجرائم العظمى التي كان الغاوون قد ارتكبوها في حياة الابتلاء، فلكل باب جزءٌ منهم مَقْسُومٌ له، وكلُّ جُزْءٍ مِنْهُمْ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ الْمَخْصُصِ لَهُ مِنْ أَبْوَابِهَا السَّبْعَةِ.

ولم يُصَرِّحِ اللهُ عز وجل لإبليس في هذه الجلسة بأنه سيكون في جهنم مع الغاوين، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يُفْهَمُ مِنَ النَّصِّ بِاللَّزُومِ الْعَقْلِيِّ.

### الجلسة الثانية:

وبعد جلسة محاكمة الله عز وجل لإبليس الأولى، منحه الله فرصة مراجعة نفسه إن شاء أن يَعْتَرِفَ بِذَنْبِهِ وَيَتُوبَ، فعقد له جلسة محاكمة ثانية،

دَلَّ عَلَيْهَا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزَّ وجلَّ إبليس عن المانع له من السجود، على الرغم من عناية الله بآدم إذ خلقه بيديه:

﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیْدَیَّ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنْ اَعَالِيْنَ ۝٧٥﴾ .

كانت الجلسة الأولى متضمنة سؤال إبليس عن العذر الذي حمله على أن لا يكون مع الملائكة الساجدين وهم أهل الملاء الأعلى، مع أن الأمر بالسجود لآدم قد كان موجهاً لهم وله، إذ هو مندس فيهم كواحد منهم.

أما في هذه الجلسة الثانية فقد سأل الله عزَّ وجلَّ إبليس عن المانع له من السجود، مع أن الأمور بالسجود له مخلوق خلقه الله بيديه دون أن يأمر أحداً من ملائكته بجمع ترابه وخلطه بالماء، ولا بمتابعة أطوار تكوينه، ولا بصنع صورة جسده، وهذا من عناية الله جلَّ جلاله بهذا المخلوق الجديد، وهي عناية تقتضي تكريمه من قبل أهل المعرفة من عباد الله، ولو لم يأمرهم بذلك.

وحصر الله عزَّ وجلَّ إبليس بين احتمالين:

أَحَدُهُمَا: أن يكون إبليس قد استكبر عن السجود لآدم، دون أن يكون له حق في هذا الاستكبار.

والآخر: أن يكون إبليس مُعْتَقِداً أنه من العالين الذين لا يليقُ بهم السجود لآدم، وفي هذا اغتراض ضمني على حكمة الله في أمره، ورفض لإلهية الله له. وأثر إبليس ادعاء الاحتمال الثاني، مدعياً أن أضله النَّارِي خَيْرٌ من أصل آدم الطيني.

﴿قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ۝٧٦﴾ .

وفي هذا إصرار من إبليس على موقفه السابق الذي أعلنه في الجلسة الأولى، إلا أنه ذكّر من أطوار خلق جسد آدم مَرَحَلَةَ الطين، وسكت عن

ذكر مَرَحَلَةَ الحمأ، وهو الطين الأسود المثلثين، تخفيفاً ممَّا يُشْعِرُ بِأَنفَتِهِ .

وأمام هذا الإصرار العنادي الاستكباري كان لا بُدَّ مِنْ إعادة إصدار الحكم عليه بالإخراج من منازل الملائكة الأعلى من الملائكة، والرَّجْمُ لِلطَّرْدِ والإبعاد، مع إضافة أَنَّ اللَّعْنَةَ المنصَّبةَ عليه هي لعنةُ الله .

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ .

أي: قال الله عزَّ وجلَّ لإبليس: لَزِمْتَ مَوْقِفَكَ وَلَمْ تَعْتَرِفْ بِذَنْبِكَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

وكانت العبارة في الجلسة الأولى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢٥) فجاء التشديد في الجلسة الثانية فقال الله له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨) .

فَاللَّعْنَةُ الصَّادِرَةُ عَنِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ، وَالْمُنْصَبَةُ عَلَى إبليس، أَشَدُّ مِنْ عُمومِ الحكم عليه بِاللَّعْنَةِ، لاحتمال أَنْ تكون تَكْلِيفاً مِنْ الله للملائكة بِأَنْ يَلْعَنُوهُ، دُونَ أَنْ تَنْصَبَ عَلَيْهِ لعنةُ الله .

وكرر إبليس طَلَبَهُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُمَهِّلَهُ حَيًّا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، طامعاً في أَنْ يستجيب الله عزَّ وجلَّ طَلَبَهُ، فيُؤَمِّلَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، وكان قد استوثق مِنْ رَبِّهِ بِأَنَّهُ سَيُؤَمِّلُهُ إِلَى سَاعَةِ أَنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِمَاتَةِ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ فِيهَا .

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩) :

أي: قال إبليس: رَبِّ بِمَا أَنَّكَ حَكَمْتَ عَلَيَّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْإِخْرَاجِ وَالرَّجْمِ وَأَنْزَلْتَ عَلَيَّ لَعْنَتَكَ، فَأُمَهِّلْنِي حَيًّا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ .

لَكِنَّ اللهَ جَلَّ جلاله، وعظم سلطانه، وبلغت حُكْمَتُهُ الغاية، لم يُعْطِهِ مِنَ الْإِمْهَالِ أَكْثَرَ ممَّا كَانَ أَعْطَاهُ فِي الْجُلُوسَةِ الْأُولَى، فَأَعَادَ لَهُ نَصْرَ حُكْمِهِ السَّابِقِ .



﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ :

أي : قال الله عز وجل لإبليس : بما أنك لزمْتَ مَوْقِفَكَ ولم تَغْتَرِفْ ، وما زِلْتَ تطالبُ بانظارك إلى يوم البعث ، فإني لا أنظرك إلا إلى يوم الوقت المعلوم الذي تنتهي عنده ظروف الحياة الدنيا ، ويموت فيه كل مخلوق حي .

فأغلن إبليس إصراره على إغواء الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا .

﴿قَالَ فِعْرَيْكَ لِأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

أي : قال إبليس لربه : بما أنك حكمت عليّ بالعواية ، فقد عزمتُ على إغواء آدم وما يخرج منه من نسل .

﴿فِعْرَيْكَ﴾ : أي : فبقوتك الغالبة التي تُمدني منها ما أبقيتني حيًا ، ولا تقطعها عني لأغويَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فأجعلُهُم بوساوسي ، وتسويلاتي ، وإغراءاتي ، وتزييناتي ، وحبايلي ، غاوين أجمعين ، واستثنى فقال : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بفتح اللام ، وفي القراءة الأخرى : [المُخْلِصِينَ] بكسر اللام ، وقد سبق بيان المراد بالقراءتين .

فكان جواب الله له ، ما تضمنه قوله تبارك وتعالى :

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

فجاء في هذا النص التصريح بالحكم على إبليس بدخول جهنم دار عذاب المجرمين ، ومعه كل الذين يتبعونه كافرين مجرمين .

وفي هذا البيان شدة في الحكم بصريح اللفظ ، وهذه الشدة تدلُّ على أنَّ هذه الجلسة قد كانت الجلسة الثانية من جلسات محاكمته .

الجلسة الثالثة :

ومنح الله عز وجل برحمته الواسعة إبليس ، فُرصة أخرى لمراجعة

نفسه، وإعلان اعترافه بذنبه وتوبته واستغفاره، فعقد له جلسة محاكمة ثالثة، دَلَّ عليها ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن أمرين: عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السجود، على الرُّغم من أنّ الله ربّه قد أمره بالسُّجودِ أمرٌ إلزامٌ ووجوب، مع الملائكة الذين كان قد دسّ نفسه فيهم، واعتبر نفسه واحداً منهم، وأمر الله لعباده أحدُ عناصر إلهيته لهم، التي تستلزمها عقلاً ربوبيّته جلّ جلاله وعظم سلطانه، فمن رَفَضَ طاعة أمر الله عناداً كان بإلهيته كافراً.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾ (١٧)

فذكر الله عزّ وجلّ من مُقتضيات الطاعة بالسُّجود، أنّه أمرٌ إلزاميٌّ صادرٌ عن الرّبّ الخالق.

ولم يخاطب الله عزّ وجلّ إبليس في هذه الجلسة باسمه، إهانة له واحتقاراً، واكتفى بضمير المخاطب، أمّا في الجلستين السابقتين فقد خاطبه الله عزّ وجلّ باسمه تلطفاً به.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾: أي: مَا مَنَعَكَ عَنِ السُّجُودِ؟ وَمَالِ حَمَلَكَ عَلَى أَنْ لَا تَسْجُدَ، فسأله بهذه العبارة عن المانع له عن السُّجود، وعن الحامل له على عدم السُّجود.

لقد جاء في هذه العبارة تضمين فعل «مَنَعَ» معنَى فعل «حَمَلَ» فعُدِّي تعديته، فأغنت الجملة الواحدة عن جُمْلَتَيْنِ، وهذا من بدائع الإيجاز القرآني.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وَفَتِ أَمْرِي إِيَّاكَ بالسُّجُودِ مع مَنْ أَمَرْتُ مِنْ ملائكة الملائكة الأعلى، الَّذِينَ دَخَلَتْ فِيهِمْ وَاعْتَبِرَتْ نَفْسُكَ واحداً منهم.

فأبان الله في هذه الجلسة لإبليس بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربهم، بمقتضى أنه إلههم الذي يجب عليهم أن يعبدوه، ومن عبادتهم الأولى له بعد الاعتراف له برؤوبيته وإلهيته، أن يطيعوه، فيفعلوا ما أمرهم به، ويتتبعوا عما نهاهم عنه.

لكن إبليس لم يعتذر بأنه لم يكن يعلم أن أمر الله موجّه له ضمن من هو معهم من الملائكة، بل أصرّ على عناده ولزم موقفه الأول، ولم يراجع نفسه، وأعلن بهذا الإصرار أنه غير مؤمن بإلهية الله له، وأنه مغترض على أمر الله له بالسجود لآدم، ويراه أمراً غير حكيم، ويرى أنه ليس من حق الرب أن يوجه لعباده المملوكين له مثل هذا الأمر.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (١٢).

عندئذ كان لا بد من إصدار الحكم الختامي عليه في هذه الجلسة الثالثة، فأمره الله عز وجل بأن يهبط هبوط مهانة وذُل وصغار، ولم يقتصر الأمر على الإخراج فقط، كما حصل في الجلستين الأولى والثانية، بل جاء الأمر له بالهبوط والإخراج، مع الحكم عليه بالصغار.

﴿قَالَ فَأَهْطُ مِّنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣).

الهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل. ويقال: هبط فلان، أي: ذلّ واتضع وسقط.

الصّاغر: الراضي بالذلّ والضعّة والمهانة، يقال لغة: صغر يصغر صغاراً فهو صاغر، أي: رضي بالذلّ والضعّة.

فكرّر إبليس بوقاحة طلبه من ربه أن يمهله حياً إلى يوم يُبعثون.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤).

ولم يدع الله ربه في هذه الجلسة مغلناً اعترافه بأنه ربه، ومُتدلاً له

بِالْعُبُودِيَّةِ، بل قال: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أما في الجلسَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ فقد قال فيهما: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾.

لقد بلغ به العِنادُ والاستكبارُ والجِرَانُ إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ رَبُّهُ دُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: رَبِّ.

فَاكْتَفَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَوَابِهِ بِعِبَارَةٍ: «إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» أَي: إِنَّكَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، كَمَا سَبَقَ أَنْ قَضَيْنَا لَكَ، دَلَّتْ عَلَى هَذَا عِبَارَةٌ: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥).

وبعد أن انتهت جلسات محاكمة الله عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ الثَّلاثِ، أعلن إبليس لِرَبِّهِ خُطَّتَهُ الَّتِي رَسَمَهَا لِلإِغْوَاءِ:

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾.

﴿فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾: أَي: فَبِسَبَبِ حُكْمِكَ الْقَطْعِيِّ عَلَيَّ بِالْعَوَايَةِ، وَهِيَ الإِمْعَانُ فِي الضَّلَالِ وَالْبُعْدِ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَالْخِيَةِ وَالْفَسَادِ وَتَرْكِ سَبِيلِ الرِّشَادِ عَنْ قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ، اتِّبَاعاً لِلْهَوَى وَنَوَازِعِ النَّفْسِ الطَّاعِيَةِ.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦): أَي: أَقْسِمُ لِأَقْعُدَنَّ لِإِغْوَائِهِمْ مُلَازِمًا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي سَتَبَيَّنَ لَهُمْ، وَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يَسْلُكُوهُ وَيُلْتَزِمُوا حَدُودَهُ.

ضُمِّنَ فِعْلُ «أَقْعُدُ» مَعْنَى فِعْلِ «أُلَازِمُ» فَعُدِّي تَعْدِيَّتُهُ، فَاكْتَصَبَ لَفْظُ «صِرَاطُ» عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، فَأَغْنَتْ الْجُمْلَةُ الْوَاحِدَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وَالْمَعْنَى: لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ مُلَازِمًا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.

فَأَبَانَ بِالْقُعُودِ مَعْنَى التَّمَكُّنِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ بِالتَّعْدِيَةِ مَعْنَى الْمُلَازِمَةِ، فَتَمَّتِ الْمُرَابَطَةُ كَامِلَةً الْعُنَاصِرَ.

وهذا الْعَزْمُ الْخَبِيثُ الَّذِي أَعْلَنَهُ إِبْلِيسُ، قَدْ قَدَّمَهُ مَلَا حِظًا فِيهِ ذُرِّيَّتُهُ مِنْ

الجنّ وجنوده من الشياطين، لأنه لا يستطيع أن يقوم بكلّ الأعمال بنفسه، وقد دلّ على أنّ ذرّيته سيكونون جيشاً إغواء تحت أمره وسلطانه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

ودلّ على أنّ لإبليس جنوداً، ويظهر أنّهم من شياطين الجنّ والإنس الذين يُجنّدهم من غير ذرّيته، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن مصير الكافرين والمشرّكين في الجحيم:

﴿فَنُكَبِّهُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ومعلوم أنّ المرباطة بتمكن وملازمة وترصّد هي أوّل شروط أعمال الإغواء والإغراء، للإبعاد والصّرف عن صراط الله المستقيم.

واختار إبليس بذلك أن تكون مرباطته عند صراط الله المستقيم، لأنّ همّه الأكبر هو أن يصرف عنه المتوجّهين لسُلوّكه، وأنّ يُخرج منه السّاكين فيه.

أمّا الآخرون فإنّهم في سبيلهم المختلفة التي انحرفت عن صراط الله عزّ وجلّ ضالّون غاؤون، قد كفّوا إبليس وجنوده مهمّة إغوائهم، بل هم مُتهَيِّئون لأن يكونوا من جنوده شياطين إنسٍ مع شياطين الجنّ.

وبعد المرباطة عند صراط الله المستقيم نلاحظ أنّ أعمال المغوين تنحصر بأربع جهات.

الجهة الأولى: هي الواقعة بين يدي السّالك، لصدّه عن الدّخول في الصراط.

الجهة الثانية: هي الواقعة خلف السالك، لمنعه بالجذب عن الدخول في الصراط.

الجهة الثالثة: هي الواقعة عن يمين السالك، لتحويله ذات اليمين بعيداً عن الصراط.

الجهة الرابعة: هي الواقعة عن يسار السالك، لتحويله ذات الشمال بعيداً عن الصراط.

أما جهة ما فوق الصراط، وجهة ما تحت الصراط فلا دفع فيهما ولا جذب، إذ مَوْقِعُ صراط الله كُلُّهُ من فوقه ومن تَحْتِهِ هُوَ من صراط الله.

فمن كان سالكاً على صراط الله المستقيم فكلُّ علوٍ فوقه هو من الصراط، وكلُّ غُمقٍ تحته هو من الصراط.

ومعلومٌ أنّ هَمَّ الشياطين هو الصدّ عن كلّ موقع الصراط أو الإخراج

منه.

﴿.. وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: وَلَا تَجِدْ في المستقبل أَكْثَرَ ذُرِّيَةِ آدَمَ شَاكِرِينَ، بل تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ كَفُورِينَ.

شاكِر: اسم فاعل يَصْدُقُ على مَنْ يَتَحَقَّقُ فيه أَقْلٌ مِقْدَارٍ من الشكر، ويكون بالإيمان المنجي من الخلود في عذاب النار.

لقد غلبَ على ظنِّ إبليس أنّه سَيَسْتَطِيعُ بوسائل إغوائه الشيطانية أن يؤثّر على أكثر ذُرِّيَةِ آدَمَ، حتى يكونوا كَفُورِينَ من الخالدين في عذاب الجحيم، وهو ظنٌّ مَبْنِيٌّ على عِلْمِهِ بما لدى الإنسان من أهواء وشهوات ونزعات قد تطمس بصيرته.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ بِشَأْنِ كُفَّارٍ سَبَأً، في سورة (سَبَأٍ/ ٣٤

مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠).

وبعد أن أعلن إبليس لعنه الله خطته في أغواء بني آدم، وجّه الله عز وجل له ما جاء في قوله في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّنْحُورًا لَّمَن يَعْكَ مِنْهُمْ لَآئِمًا لَّانَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨).

﴿مَذْمُومًا﴾ : أي: مذمومًا، معيبًا، مُخْتَقَرًا، مَخْزِيًا، مطرودًا.

﴿مَّنْحُورًا﴾ : أي: مطرودًا طردًا مقترنًا بدفع عَينٍف.

وقد أكد الله عز وجل في هذه الجلسة الثالثة، حُكْمَهُ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَصْدَرَهُ فِي الجلسة الثانية، وهو ما جاء بيانه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله تعالى:

﴿لَآئِمًا لَّانَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن يَعْكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥).



(ج)

### حوار جرى بعد انتهاء جلسات المحاكمة

وجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بيان حوار جرى بعد جلسات المحاكمة، بدأه إبليس وهو يذوق مشاعر عذاب الطرد واللّعن والصغار، مخاطباً ربه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْنِيَنَّكَ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٦).

خاطب إبليس ربه معترضاً عليه بوقاحة قائلاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ : أي: أرايت نفسك وما فعلت إذ كَرَّمْتَ عَلَيَّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيمَ، لأنك خلقتَه من طين.

أو الكاف تأكيد للخطاب الذي دلّت عليه تاء المخاطب.

﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: هذه العبارة بدلٌ من كاف الخطاب في:

﴿أَرَأَيْتَكَ﴾. ﴿هَذَا﴾: المشارُ إليه هو آدم، واستعمل اسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ هنا للإشعار باحتقار إبليس لآدم.

﴿كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: أي: جعلته أكرمَ مِنِّي، وفضّلته عليّ.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: اللام في ﴿لَئِنْ﴾ واقعة في

جواب قَسَمٍ محذوف، وتُسَمَّى مُوطَّئَةً للقسم، أي: أَقْسِمُ لَئِنْ أمهلتنني فعلاً، فَأَبْقِيَتَنِي حَيًّا كما وَعَدْتَنِي إلى يوم القيامة، وهو يوم قيام الساعة التي تنتهي بقيامها ظروف الحياة الدنيا كلها و﴿أَخَّرْتَنِ﴾: فعل الشرط في ﴿لَئِنْ﴾.

﴿لَا أَحْنِكَ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾:

جواب الشرط: ﴿لَا أَحْنِكَ﴾: أي: لأضعنَّ اللُجْمَ في أَحْنَاكَ دُرِّيَّةَ

آدم، كما توضع اللُجْمُ في أحناك الدّواب، لتطويعها وقيادتها أو سَوِّقها إلى حيثُ يريد مطوِّعها.

في هذه العبارة استعارةٌ مَكْنِيَّةٌ، إذ شَبَّهَ إبليسُ ذُرِّيَّةَ آدم بالدّواب التي

تُطَوَّعُ للرُّكُوب والقيادة والسَّوْق، ولم يُصَرِّحْ بلفظ الدّواب، بل جاء بشيءٍ من خصائصها يدلُّ عليها، وهو احتِنَاكُهَا لتَطْوِيعِهَا.

يقال لغة: احتنَكَ صاحبُ الدّابةِ دابَّتَه، أي: وضعَ الحبلَ أو اللُجَامَ

في حَنَكِهَا لِطَوَّعِهَا للرُّكُوب، والقيادة، والسَّوْق.

والمعنى: لأَجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدم كالِدّواب التي تُطَوَّعُ بوضع اللُجْم في

أَحْنَاكها، ولأَسَيِّرَنَّهُمْ في هذه الحياة الدنيا عصاًمَ لك، ولأَنقُلَنَّهْم خُطْوَةَ فَخُطْوَةٍ، حتى أُوَصِّلَ من يستجيب لي منهم إلى دَرَكَةِ الْكَافِرِينَ المجرمين

الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ الْأَبَدِيَّ الْخَالِدَ في الجحيم.



واستثنى إبليس فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مُرِيداً بِالْقَلِيلِ مَنْ لَا يَتَأَثَّرُ بِوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ مطلقاً، وَهُمْ الْأَبْرَارُ وَالْمُحْسِنُونَ وَكَامِلُو التَّقْوَى، وَهُمْ «الْمُخْلِصُونَ» وَ «الْمُخْلِصُونَ» بفتح اللّام وَكسرِهَا، كَمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ.

فكان الرُّدُّ الرَّبَّانِيُّ عَلَى إِبْلِيسَ اللَّعِينِ:

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ٦٣﴾  
وَأَسْتَفْرِزُ مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِخِيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي  
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ  
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾.

أي: أَذْهَبَ فَأَنْتَ مُمَكِّنٌ مِمَّا أُعْذَذْتَ نَفْسَكَ لِلْقِيَامِ بِهِ مِنْ إِغْرَاءٍ وَإِغْوَاءٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ يُلْغِي إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، فَمَنْ تَبِعَكَ فِي كُفْرِكَ وَتَمَرُّدِكَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فَإِنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَمِيعاً حَالَةً كَوْنَهُ جَزَاءً مَوْفُورًا، أَي كَثِيراً وَاسِعاً، يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ جَزَاءَهُ بِالْعَدْلِ فِيهَا.

وَلِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ حُكْمَةٌ بِالْغَةِ، فِي هَذَا التَّمَكِينِ لِإِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ مِنَ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ بِالْوَسْوَسَةِ وَاسْتِثَارَةِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ يُوَثِّرُونَ فِيهِ بِالْجَبْرِ عَلَى الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ.

وَهَذِهِ الْحُكْمَةُ تَظْهَرُ لَنَا حِينَمَا نُذَرِكُ أَنَّ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، تَكُونُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ الْإِشَارَةِ الْمَتَوَسِّطَةِ تَمَاماً، بَيْنَ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَطَرِيقِ الشَّرِّ، بَيْنَ نَجْدِ الْهُدَى وَنَجْدِ الضَّلَالِ، وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا يَجْذِبُ إِرَادَةَ الْإِنْسَانِ إِلَيْهِ.

فَفِي نَجْدِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى مَنْطِقُ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرُّشْدِ، وَالْإِغْرَاءِ بِالسَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، مَعَ

الخلاص والنجاة من عذاب الجحيم، كما جاء في بيانات الله ورسوله المطمئنة المقيّنة بالأدلة البرهانية القاطعة، والمتضمنة وغد الله الحق، الذي هو مالك الوجود كله، وربّ كلّ شيء.

وفي نجد الشرّ والضلال زينات الحياة الدنيا وشهواتها ومغرياتها العاجلات، وزُخْرُفٌ وساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعهم بالباطل، ووعودهم الكاذبات، وحُجَجهم الباطلات مغلفةً بالإغراء بتحقيق عاجل الأهواء والشهوات.

وبهذا يتمّ التكافؤ بين جواذب طريق الخير والهدى، وجواذب طريق الشرّ والضلال، في التأثير على الإنسان.

وعندئذٍ تكون الإرادة المقترنة بالقوّة الإدراكية الواعية في المخلوق الممتحن هي المرجّحة في السّير في طريق الخير والهدى، أو السّير في طريق الشرّ والضلال، خلال رحلة الامتحان، في مسيرة الحياة الدنيا.

والتمكين الذي أعطاه الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، لإبليس وجنوده، دون أن يكون لهم سلطانٌ جبريٌّ على العباد الموضوعين موضع الامتحان، يتلخّص بأربعة مجالات:

**المجال الأول:** هو المجال الإعلامي الدّعائي بالوساوس والتسويلات وأنواع لا تُحصَر من زُخْرُف القول.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في هذا النّص خطاباً لإبليس:

﴿..وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ..﴾ (١٤):

﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾: أي: وأعملُ بوسائلك الصوتية الإعلامية لتستفزّ بها مَنْ تستخفّ منهم، فتنهضه من مكان استقراره، وتجعله يتبعك برعونة.

يقال لغة: استفزّه الخوف، أي: استخفه فأنهضه. ويقال: استفزّ

المنادي قومَه، أي: أثارهم وأزعجهم بِنِدائِهِ، وجعلهم يَنْهَضُونَ وَيَنْشَطُونَ لتلبية النداء. ويُقال: اسْتَفَزَّهُ، أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات، واستخرجَه وَخَتَلَه حَتَّى ألقاه في مَهْلَكَة.

ومن الملاحظ أنَّ شياطين الإنس الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ بالإِحياء من شياطين الجنِّ تعليماتهم، وَيُضَيِّفُونَ إليها إضافاتٍ لا يَسْتَطِيعُها أولياؤهم من الجنِّ، قد استخدموا في هذا العُصر وسائل الإعلام المختلفة، للإغراء والإغواء والتضليل والإخراج عن صراط الله، والسَّوق إلى سُبُل الجحيم، وهي جميعها تدخل تحت عنوان «الاستفزاز الصَّوتي».

ويَدْخُل في الاستفزاز الصوتي كُلُّ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، إذ القاعدة الأولى لكلِّ ذلك: زُخْرُفُ القولِ الذي يَطْلُقُ بالصوت.

**المجال الثاني:** جمع الجنود والأعوان والأنصار للإغراء والإغواء، من شياطين الجنِّ والإنس.

دَلَّ على هذا المجال قول الله عزَّ وجلَّ في النصِّ خطاباً لإبليس اللعين: ﴿..وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ (٦٤):

﴿وَأَجَلِبْ﴾: يقال لغة: أَجَلَبَ العدوُّ على عَدُوِّه، أي: جَمَعَ جنوده وأنصارَه وأعوانه، لتحقيق غايته.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: مُتَقَوِّياً بخيلِكَ، وذكر الخيل كناية عن الفرسان، أي: متقوياً بفُرسانِكَ الَّذِينَ يقاتلونَ على الخيول.

﴿وَرَجِلِكَ﴾: فيها قراءتان: «رَجَلِكَ» بإسكان الجيم و «رَجَلِكَ» بكسر الجيم، أي: ومُتَقَوِّياً بالجنود المشاة على أرجلهم.

وقد كانت جيوش المحاربين تتألف من مقاتلين فرسان يمتطون

الخيول، ويقاتلون وهم على ظهورها، وهم القوة الأشد، ومن مقاتلين رجالٍ يمشون على أرجلهم، يقاتلون حينما تلتحم الصفوف.

والمعنى: واجمع لتحقيق ما عزمْتَ عليه من إغراء وإغواء كُلِّ قواتك، فعبرة: ﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ لِجَبَلٍ لَكَ وَرَجَلِكَ﴾ كناية عن تمكينه من جمع كُلِّ قواته التي يستطيع جَمْعُها.

ومن الملاحظ أنَّ جنود إبليس من الإنس يَجْمَعُونَ قَوَاتٍ عظيمة، ويبذلون في جمعها أموالاً كالجبال للقيام بمهمات الإغراء والإغواء والإضلال، للإبعاد عن صراط الله المستقيم والإخراج منه.

المجال الثالث: المشاركة في الأموال والأولاد.

دَلَّ على هذا المجال قول الله عزَّ وجلَّ في النصِّ خطاباً لإبليس اللعين:

﴿..وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ..﴾ (١٦).

أما مشاركة إبليس للناس في الأموال فتكون بإغرائهم حتى يأكلوا أموال بعضهم بالباطل، وحتى يَسْتُوا قوانين طاغوتية تخالف شريعة الله لعباده.

ومن أمثلة هذه المشاركة التي ظهرت في الناس البنوك الربوية، التي يُغري شياطين الجنِّ والإنس الناس بالتعامل عن طريقها، حتى أُمست أموالُ معظم الناس في أيدي أصحاب هذه البنوك، يتصرفون بها على مناهج إبليس، وهذه من مشاركة الشيطان بمناهجه للناس في أموالهم.

ومن أمثلتها أيضاً المضاربات المحرَّمة، والاحتكارات، والغش، وأنواع القمار، وقرارات التأميم الاشتراكية والرشوات والسرقات.

فقد صار الشيطان شريكاً للناس بمناهجه المخالفة لصراط الله المستقيم، في معظم أعمالِ اكتساب المال وجمعه ومنعه.

وأما مُشاركته للناس في الأولاد، فتكونُ بإغرائهم حتّى يخالفوا صراط الله المستقيم، فيما زَيَّنَ الله لهم من حبّ الشهوات من النساء والبنين.

ومن الملاحظ أن دَعَوَاتِ إباحيّة الجنس، وانتشارَ هذه الإباحيّة في العالم، بتأثير الدّعاة المنتشرين الداعين إليها، قد أُمست لعبة شياطين الجنّ والإنس في عالمنا المعاصر، وقد كان لهم نظراء في مختلف أُمم الأرض وشُعوبها في العصور الغوابر.

وممارسة الناس الإباحيات في هذا المجال، هي من مشاركة إبليس لهم في أولادهم الذين يولّدون من غير طريق الزواج الذي شرعه الله عزّ وجلّ للناس.

**المجال الرابع:** مواعيد إبليس وجنوده للناس القائمة على التغيرير بهم، لاستدراجهم إلى مهالكهم، أو إزلاقهم إلى نكد الحياة الدنيا ومتاعبها، والحرمان من سعادة النفس، وراحة الضمير، ثم إلى عذاب الله يوم الدين.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿وَعِدْهُمْ﴾ : أي: وَزَيَّنَ لهم بما تقدّم لهم من وعود كاذبة الابتعاد عن صراط رَبِّكَ المستقيم لعباده.

وفي تحذير الله عزّ وجلّ النَّاسَ من مواعيد الشيطان الكاذبة، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ :

**الغرور:** الخداع والإطماغ بالباطل.

ومن أمثلة وعد الشيطان للإنسان أن يوسوس له بأنّ المال هو وسيلة

السَّعَادَةُ فِي الْحَيَاةِ، فَيَغْتَرِ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الْوَسْوَسةِ، فَيَسْعَى فِي جَمْعِ الْمَالِ مِنْ كُلِّ وَسِيلَةٍ مُحَرَّمَةٍ، يَكُونُ فِيهَا ظَالِمًا أَثْمًا مَعْتَدِيًا.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ أَنْ يَخُوفَهُ مِنَ الْبَذْلِ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، حَتَّى لَا يَفْتَقِرَ فَيَكُونُ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِ، وَأَنْ يُغْرِيه بِالْبَذْلِ فِي الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَتَحْقِيقِ الْأَهْوَاءِ، لَاغْتِنَامَ مُتَعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ الْمَحْتَمُ.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ أَنْ يَعِدَّهُ بِالظَّفَرِ بِمَجْدِ السُّلْطَانِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، إِذَا أَقَامَ الْحُرُوبَ، أَوْ انْتَمَى إِلَى دَوْلَةٍ كَافِرَةٍ عَظُمَى، أَوْ انْتَمَى إِلَى جَمَاعَةٍ سَرِيَّةٍ لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَعُودٍ لَا آخِرَ لَاحْتِمَالَاتِ صُورِهَا.

وَلَقَدْ انْطَلَقَ الشَّيْطَانُ فِي هَذَا الْمَجَالِ انْطِلَاقًا وَاسِعًا يَعِدُّ النَّاسَ وَيُمْنِّيهِمْ بِالْغُرُورِ.

فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْتَحْذِيرِي: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤) أي: وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا وَغَدًا غُرُورًا، خَدَاعًا وَإِطْمَاعًا بِالْبَاطِلِ.

«غُرُورًا» صِفَةُ لِمَوْصُوفٍ مُحْذُوفٍ هُوَ مُصْدَرُ «يَعِدُهُمْ». وَقَدْ جَاءَ الْوَصْفُ بِالْمُصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ، حَتَّى كَأَنَّ الْوَعْدَ هُوَ غُرُورٌ، مِنْ شِدَّةِ مَا فِيهِ مِنْ تَغْرِيرٍ وَخَدَاعٍ وَإِطْمَاعٍ بِالْبَاطِلِ.

وَبَعْدَ الْبَيَانِ السَّابِقِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾ (٦٥)

أي: إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَعِيدُونَ بِي، وَيَحْتَمُونَ بِحِمَايَتِي مُؤْمِنِينَ بِي، لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ تَوْثِرُ بِهِ عَلَيْهِمْ، لِأَنِّي سَأُفَقِّهَهُمْ إِلَى تَحْقِيقِ نَهَايَةِ سَعِيدَةٍ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هَذَا النَّصِّ مَا يَلِي: إِنَّ عِبَادِي كُلَّهُمْ لَا أَجْعَلُ لَكَ

سُلطاناً جبرياً عليهم، تلغي به إراداتهم الحرّة، ولا يكون منك لهم أكثر من اتخاذ الوسائل الإغرائية غير الإكراهية.

ونجمع بين هذا النصّ وبين النصّ الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

بأنّ النصّ الذي في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يُرادُ به السُلطانُ الجبري، وهو مقدار من القوّة يُلغي حرّية إرادة الإنسان تجاه العمل الذي يريد الشيطان استدراجه إليه، وإيقاعه به.

وبأنّ النصّ الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) يُرادُ به الانقياد الطّوعي، الذي يطاوع به الغاوي الشيطان في قيادته له، أو سوقه له، حتّى يسيّر في السُّبُل المغرية الموصلة إلى عذاب الجحيم.

وأخيراً علّم الله عزّ وجلّ عباده اتّخاذ سبب التوكّل عليه، لحماية أنفسهم من تأثير الشيطان عليهم، فقال الله تعالى في آخر النصّ:

﴿..وَكُفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

أي: فتوكّلوا على ربّكم يَحْمِكم وَيَحْفَظْكم من إغواء الشيطان لكم، وكفى به وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عليه وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي والمراد جميع الصالحين للخطاب.



(د)

### وصيّة الله لآدم وزوجه قبيل إدخالهما الجنة

كان إدخال آدم وزوجه الجنّة إدخال امتحان واختبار، لا إدخال خلود وجزاء، وقد جعل الله عزّ وجلّ الجنّة السّكن الخالد الأبديّ للمؤمنين

المتقين، ولا ينكشف الإيمان والإسلام وطاعة الله في أوامره ونواهيه إلا بعد الامتحان.

ولما عصيا فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها بتأثير وساوس إبليس وتسويلاته، وإزلاقاته، أخرجهما الله من الجنة، وأبان لهما ولدزياتهما أن دخول الجنة للخلود في نعيمها لا يتحقق إلا لمن آمن وأسلم واتقى ولو من أدنى درجات التقوى، ولم يُشرك بربه شيئاً.

وقد أوصى الله عز وجل آدم قبل إدخاله الجنة بوصية حذره فيها من إبليس اللعين.

■ وقد جاء بيان هذه الوصية بقول الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٦٦﴾ فَقُلْنَا يَنْقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٦٧﴾﴾.

دلّت «الفاء» التي للترتيب مع التعقيب في: ﴿فَقُلْنَا يَنْقَادُ﴾ على أن هذا القول لآدم قد كان عقب إباء إبليس أن يُطيع الله في السجود لآدم.

ولا بُدّ أن نفهم أن هذا الإباء يُراد به الإباء الذي استقرّ عليه إبليس بعد آخر جلسة من جلسات مُحَاكَمَةِ الله له، والذي استقرّ بناءً عليه حُكْمُ الله عليه بالإخراج والإهباط والطرد، ولغنة الله المنصبة عليه، وحكم الله عليه وعلى من اتبعه بأن جهنم جزاؤهم جزاء مؤفوراً.

لقد حذر الله عز وجل آدم وزوجه التي اشتقها من ضلع من أضلاعه، من مكاييد إبليس، وأبان لآدم أنه عدو له ولزوجه، لأنها في تكوينها جزء مستخرج منه، فعداوة إبليس له تسري لزوجه، وفي بعض التصوص الأخرى، أبان الله عز وجل عداوة إبليس لآدم ولكل ذريته.



والعدو الذي كانت عداوته بسبب أمورٍ أفضت به إلى العذاب الخالد في الجحيم، لا يريد بعدوه إلاّ السوء والشر، والمصير الأبدي في العذاب معه، لينال مثل عذابه. أو أشد من عذابه.

● قوله تعالى لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ﴿١١٧﴾ \* يدل على وجود مطوي محذوف، وعد الله عز وجل فيه آدم أن يدخله وزوجه الجنة دخول ابتلاء، لا دخول خلود وبقاء، ويمكن تقديره بما يلي:

وقلنا يا آدم سندخلك وزوجك الجنة دخول ابتلاء، فإذا دخلتما فيها فلا تمكنا إيليس من إغوائكما، وإيقاعكما في معصية ربكما، فيتسبب في إخراجكما من الجنة عقوبة لكما، وعندئذ تتعرض يا آدم لتحمل الشقاء ومتاعبه في الأرض، وتحمل زوجك وذرياتكما فيها مثل ذلك.

وفي هذا إغلام ضمني، بأن مغصيتهما لأوامر الله ونواهيه وهما في الجنة عقابه الإخراج منها إلى الأرض.

الشقاء: يُطلق على كل ما لا يسر الإنسان من أمور، وعلى ما يخالف رغبته ومطلوبه، من أدنى المكارِه إلى أشد المؤلّمات.

والمراد بالشقاء في الحياة الدنيا على ظهر الأرض، ما فيها من متاعب الكد والكدح في العمل لاكتساب الرزق، وما فيها من متاعب الأوجاع والأسقام، وتحمل مكارِه القلق والخوف والهم والحزن ونحو ذلك.

ولما كان الرجل هو المسؤول الأول عن كسب رزقه ورزق أسرته على ظهر الأرض، قال الله عز وجل لآدم: ﴿فَتَشْقَى﴾ \* ولم يقل له فتشقى، أي: فسئطر لأن تكون الأكثر تحملاً لعناء الكد والكدح في العمل لاكتساب رزقك ورزق أسرتك.

■ وأبان الله عز وجل لآدم ميزة بقائه في الجنة إذا حافظ على طاعة الله فيها، وتلحق به زوجته، فلم يعصيا ربهما، فقال له في سورة (طه) أيضاً:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (١١٩)﴾.

﴿وَلَا تَصْحَىٰ﴾: أي: ولا يَمَسُّكَ فيها حرُّ الشَّمْسِ، يقال لغة: ضَحِيَ يَضْحَى ضُحُوًا، وضُحُوًا، وضُحِيًا، وضُحَا، أي: أصابه حرُّ الشمس.

إنّه بَعْدَ أَنْ يَسْكُنَ الْجَنَّةَ الْخَالِيَةَ من عوامل الأوجاع والأسقام، مع زوجته التي يَسْكُنُ إليها، ويَأْتُسُ بها وتَأْتُسُ به، لا يكون له من مطالب العيش إلّا المطالب الأربعة الّتي ذكرها الله له:

**المطلب الأول:** أن لا يجوع، فالطَّعَامُ في الجنّة وفير لا ينفد.

**المطلب الثاني:** أن لا يَعرَى، فاللِّبَاسُ الفاخر الفاره في الجنّة كثير.

**المطلب الثالث:** أن لا يَظْمَأ، فالماء وأنواع الشراب اللّذيذ الأخرى لا تنفد.

**المطلب الرابع:** أن لا يَضْحَى، فلا تَمَسُّهُ فيها حرارة أشعة الشمس، إذ الجنّة ظلٌّ ظليل دائم، ونفي التّأذي بحرارة الشمس يدُلُّ على نفي التّأذي بالبرّد عن طريق اللّزوم الذهني، وقد جاء في القرآن التصريح بأنّه ليس فيها زمهرير.

وهذه قصوى مطالب الجسد في حياة الامتحان، وقد سبق أن علمنا أنّ دخول آدم وزوجّه الجنّة، قد كان دخول ابتلاء، لا دخول جزاء وبقاء.

(هـ)

**بيان إسكان الله آدم وزوجه الجنة وبيان ما أباحه وما حرّمه عليهما**

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن إسكان الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الجنة، بيانٌ ما قاله الله تعالى لآدم، مقتطعاً من الحدث نفسه، وفقّ الأسلوب الذي انفرد به القرآن.

﴿وَبَقَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ تَضَمَّنَتْ هذه العبارة التوجيه لآدم وحواء أن يَسْكُنَا الجنة، وَتَضَمَّنَتْ تَزْوِيجَ الله آدم من حواء بعقد زواج صادر عنه جل وعلا، أخذاً من عبارة: ﴿وَزَوْجُكَ﴾.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: أي: فَكُلَا عَقِبَ دُخُولِكُمَا مِنْ أَيِّ مَكَانٍ فِي الجنة شِئْتُمَا، مَا يُؤْكَل مِنْ ثَمَرَاتِهَا وَطَيِّبَاتِهَا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: فِي هذه العبارة نهاهما الله جلّ جلاله عن أن يَأْكُلَا مِنْ شَجَرَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ مِنْ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الشَّجَرِ وَالله أعلم، وَمِبَالِغَةً عَنْ أَنْ لَا يَأْكُلَا مِنْهَا نَهَاهُمَا عَنْ أَنْ يَقْرَبَاهَا، حِمَايَةً لَهُمَا مِنَ الْانْزِلَاقِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ فَيَأْكُلَا مِنْهَا.

وَدَلَّ هَذَا النَّهْيُ مَعَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمَا بِأَنَّهُمَا سَيَكُونَانِ مِنَ الظَّالِمِينَ إِذَا أَكَلَا مِنْهَا، عَلَى أَنْ إِذْخَالَهُمَا الْجَنَّةَ قَدْ كَانَ إِذْخَالُ ابْتِلَاءٍ، لَا إِذْخَالُ خُلُودٍ وَبَقَاءٍ.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: أَي: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِكُمَا بِمَعْصِيَتِكُمَا، وَظُلْمِكُمَا هَذَا يُسَبِّبُ لَكُمَا الْإِخْرَاجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْإِهْبَاطَ إِلَى الْأَرْضِ، الَّتِي تَتَحَمَّلَانِ فِيهَا مَتَاعِبَ الْامْتِحَانِ الْأَشَدِّ أَنْتُمَا وَذُرِّيَّاتُكُمَا.

دَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْمَطْوِيَّاتِ نُصُوصٌ أُخْرَى، مَعَ النَّظَرِ إِلَى وَاقِعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

(٢) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥).

● فجاء هذا النصّ بأسلوب حكاية قول مضي: ﴿وَقُلْنَا﴾ للإشعار بأنّ نصّ (الأعراف) قد جاء نصّاً مقتطعاً من الحدث الماضي.

● وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَكَلَّا﴾ للدلالة على أنّ الإذن لهما بالأكل من الجنة لا يحتاج انتظار شيءٍ من الأشياء، بل لهما مباشرة الأكل عقب الدخول فوراً، لأنّهما سيَصِلانِ عقب الدخول إلى ما يُؤْكَلُ فيها.

● أمّا في سورة (البقرة) فجاء: ﴿وَكَلَّا﴾ للدلالة على الإباحة المطلقة، سواءً أكان الأكل عقب الدخول أم بعد ذلك على ما يشاءان.

● وجاء نصّ (الأعراف): ﴿فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

● وجاء نصّ (البقرة): ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

رَعْدًا: أي: كثيراً طيباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً، أي: وكَلَّا منها مأكولاً رَعْدًا كثيراً طيباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً.

فأضاف نصّ (البقرة) وصف المأكول في الجنة بأنّه رَعْد.

## (و)

### مكايد إبليس الشيطان لهما في الجنة

(١) جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَكَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (١٢٠):

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسة في اللّغة: الصّوت الخفي، والوسوسة والوسواس: حديث النفس.

ووساوس الشيطان الذي يجري من ابنِ آدم مجرّى الدّم، تأتي على صورة خواطر تُزَيِّنُ فِعْلَ الشرِّ والاثم، لحمل الإرادة على التنفيذ. ولا نذري

كيف وشؤس الشيطان إلى آدم، وقد يكون قد ظهر له بصورة مَلَكٍ من الملائكة، أو بصورة جَنِّيٍّ من الصالحين، أو غير من شَكْلِهِ تَنَكُّراً والله أعلم.

ويظهر أنَّ ما تَضَمَّنَه هذا النصُّ هو بداية الحركة الكيدية الإغرائية من إبليس الشيطان بالوسوسة، الَّتِي اتَّخَذَتْ أسلوباً غير مباشر، حتَّى تَصِلَ إلى مراكز التأثير في نفس آدم، بدليل استخدام حرف الجرِّ «إلى» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾. حرف الجرِّ «إلى» يدلُّ على بُعْدٍ مَا بَيْنَ بدء الحركة والوصول.

وجاء الحديث في هذا النصِّ عن آدم منفرداً عن زوجته، وذكر الله عزَّ وجلَّ فيه إبليس باسمه الوصفِيَّ الجديد «الشيطان» المأخوذ من فعل «شَطَنَ» بمعنى بَعْدَ، والمأخوذ من الشَّدُّ بالشَّطْنِ، وهو الحَبْلُ الَّذِي يُدَلَّى بِهِ الدَّلْوُ إلى البئر. وقد استحق إبليس هذا الاسم الوصفِيَّ الجديد إذ قَدْ هَيَأَ نفسه للإغراء والإغواء والإضلال عن صراط الله المستقيم، ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ إبليس قد صار بذلك بعيداً عن الحقِّ، مطروداً من دائرة رحمة الرحمن الواسعة، ومُبْعِداً عباد الله عن الصراط المستقيم بوساوسه وتسويلاته، وهو يَتَّخِذُ حَبَائِلَ كَثِيرَةً يُدَلِّي بِهَا عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتَّى حُضِيضُ الكفر بالله جلَّ جلاله.

وحين تكون الدعوة إلى الإثم والعصيان وسوسةً في الصدر من مُحَدِّثٍ غير مَرْتَبِيٍّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ بِأَنَّهَا من قَبِيلِ حَدِيثِ نَفْسِهِ لذاتها، وهذا أَدْعَى إِلَى الاستجابة والاندفاع إلى ما تَدْعُو إِلَيْهِ الوسوسة.

● ﴿قَالَ يَتَدَادُمْ هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (١٢٠).

بدأ إبليس الشيطان آدمَ بِأَسْلُوبٍ استدراجي، تَجَاهَلَ فِيهِ أَنَّهُ يَغْلَمُ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ نَهَاهُ وَرَوَّجَهُ عَنْ أَنْ يَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ، فَقَدَّمَ إغراءه له بِأَسْلُوبِ العرض الاستفهاميَّ ﴿هَلْ أَذُكَّ﴾ وأَوْهَمَهُ أَنَّهُ لَا يَغْلَمُ شَيْئاً عَنْ قِصَّةِ

الشجرة المحرّمة عليهما، وأنّه خالي الذهن من هذه القضية تماماً، وأنّه حريصٌ على نُصْحِهِ، فهو أَسْبَقُ مِنْهُ وُجُوداً، وأَعْلَمُ بحقائق كثيرٍ من الأمور، وبصفات الأشياء وخصائصها، وأغراه بالخلد في الجنة، بحياة أبدية دائمة لا تنقطع مع نعيم عظيم ومُلْكٍ لا يَبْلَى ولا يفنى.

أما الخلدُ فتأثير عَنَصِرٍ أو مجموعة عناصر تشتمل عليها شجرة الخلد، وسماها إبليس شجرة الخلد قَبْلَ أَنْ يَدُلَّ آدم عليها، لِإِشْعَارِهِ بِأَنَّ هذا الاسم الوصفيّ هو اسمُهَا المعروف عند أهل المَلَأِ الأعلى، وهي شجرةٌ من أشجار الجنة.

فاستنار إبليس بهذا العرض طَمَعَ آدم وَتَشَوَّفَهُ لمعرفة هذه الشجرة، حتّى يَأْكُلَ منها.

ومعلومٌ أنّ النفس الإنسانية متى تعلّقت بمَجْهولٍ فيه مَطْلَبٌ عظيم من مطالب النفس، أَخَذَتْ تَغْلِي مَراجِلُهَا لِلتَّعَرُّفِ عليه، والوصول إليه، واستعماله لتحقيق مطلوبها العظيم.

وهذا هو أسلوبُ التَّشْوِيقِ لِلرَّبْطِ والإِزْلاقِ.

وأما الملكُ الَّذِي لا يَبْلَى، أي: لا يفنى ولا يهتري كما تَبْلَى الثياب، فهو فيما يَظْهَرُ إغراؤه بسلطانٍ دائمٍ على دُرِّيَّاتِهِ الَّذِينَ يَتَنَاسَلُونَ مِنْهُ فيها، بَعْدَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شجرة الخلد فيكون من الخالدين، وإغراؤه بسلطانٍ دائمٍ على أهل الجنة وسكانها من غير دُرِّيَّاتِهِ.

بعد هذا التشويق والتعليق لِلرَّبْطِ والإِزْلاقِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ آدم قد قال لإبليس: نَعَمْ، دُلْنِي عليها. ولكن النصّ سكت عن هذا إيجازاً.

وهنا يأتي دور إبليس في إلهاب أشواق آدم لِلتَّعَرُّفِ على شجرة الخلد، ومع لهيب الشّوق يَحْصُلُ في البصيرة غشاوةٌ وسُلْطَانُ هوى، لكنّ هذه الأطوار قد طواها القرآن، لِإِمْكَانِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِالتَّنَبُّرِ والتفكير العميق.

وندرُكْ ذهنًا أَنَّ إبليسَ اللَّعين، لَمَّا وَجَدَ الحَالَةَ النفسِيَّةَ لدى آدم ملائِمَةً لتعريفه بالشجرة الَّتِي سَمَّاها له شجرةَ الخُلْدِ، مع أَنَّها في الحقيقة شجرةُ الطَّرْدِ والإخراج من الجنة، عَرَفَهُ بها.

ولَمَّا عَرَفَه بها وهي قريبة منه، قال آدم لإبليس: لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا عَنْ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا، فإذا أَكَلْنَا مِنْهَا كُنَّا مِنَ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بمعصية الله، وتَعَرَّضْنَا للإخراج من الجنة.

عندئذٍ استغلَّ إبليس حالة التوتر النفسي لدى آدم وزَوْجِه، وَحَالَةَ القَلَقِ الناتج عن حرصهما على الخلود وعلى المُلْكِ الذي لا يَبْلَى، وَخَوْفِهما من المعصية والإخراج من الجنة على احتمال أن يَكُونَ هذا النَّاصِحُ المَوْسُوسُ لهما كاذبًا عليهما، في ادَّعَاهُ أَنَّها شجرةُ الخلد، فاستطاع إبليس أن يختصر الطريق على نفسه، فيَصِلَ إلى الوسوسة لهما معاً ومباشرة.

وهُنَا تأتي دلالة البيان الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزَّ وجل:

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ۖ﴾ . ﴿٢٠﴾

كان إبليس يوسوس إلى آدم بأسلوب غير مباشر، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بدليل استعمال حرف «إلى».

فصار يوسوس لآدم وزوجه بصورة مباشرة، دَلَّ عليها استعمال حرف اللام في: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا﴾ مع استعمال الضمير العائد على آدم وزوجه.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ : أي: لِيُظْهِرَ لَهُمَا.

﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ : أي: مَا سُتِرَ وَأُخْفِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا.

كان إبليس اللَّعين يَعلَمُ أَنَّ الأكلَ من هذه الشجرة المحرَّمة، سيكون

من آثاره السببية في جلودهما تساقط ما كان يستر جلودهما من كسوة عليها.

وبتساقط هذه الكسوة الساترة تنكشف سواتهما، وتظهر عليهما آثار معصيتهما، إذ لكل معصية آثار تظهر بحسب سنن الله السببية، وحين تظهر لهما سواتهما ينكشف لهما أن إبليس خدعهما، وغرر بهما، وكان أقوى منهما بمخادعته وحيلته، وأنه شفى غيظه منهما.

وبهذا يتسنى لإبليس أن يدعي أنه قد كان معذوراً في رفضه السجود لآدم، فعلى آدم وزوجه أن يتحملاً نتائج معصيتهما إخراجاً من الجنة، وإهباطاً إلى الأرض، كما طرد هو بمعصيته من منازل أهل الملائكة الأعلى من الملائكة.

وأدرك إبليس اللعين أنه متى انكشفت سوات آدم وزوجه المادية، انكشفت بانكشافها سواتهما النفسية التي من جبلتها الميل إلى المعصية بتأثير الأهواء والشهوات والرغبات.

كان إبليس مُتَلَهِّفًا لأن يرى أول ظاهرة من ظواهر معصيتهما، وهي ظاهرة بُدُو سواتهما، وما يصاحبه من حزنهما وآلامهما، وخوفهما من الإخراج من الجنة، فقد سبق أن حذرهما ربهما من ذلك.

وسعى إبليس يُزيّن لهما بوساوسه وتسويلاته أن يأكلًا من الشجرة المحرمة، فقدم لهما إغراءات كثيرات.

ويظهر أن إغراءاته لهما لم تؤثر عليهما، حتى ظفر بنقطة ضعف لديهما، وهي رغبتهما في أن يكون لهما مثل انطلاق الملائكة في السماوات بأجساد نورانية، مع رغبتهما في أن يكونا خالدين فيما هما فيه من نعيم في الجنة، إذ هما يعلمان أنهما في سكنى ابتلاء، لا في سكنى دوام وبقاء.

عندئذ زرع إبليس اللعين الشك في قلوبهما حول الغرض من نهي الله



لهما عن أن يأكلًا من الشجرة المحرّمة، وفي بيان هذه الحيلة الإغرائية الشيطانية قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

أي: ما نهاكما ربكما عن أن تأكلا من هذه الشجرة إلا منع أن تكونا مَلَكَيْنِ نورانيَّين تنطلقان حيثُ تشاءان في أرجاء السماوات وفي آفاق الجنة، أو منع أن تكونا من الخالدين، وزعمَ لهما في هذا أنه توجد مخلوقات حيّة خالدة، مع أن برنامج خطة الله عزّ وجلّ للحياة الأولى تقضي بإماتة كل مخلوق حي، كما قال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فزرع إبليس بهذه الوسوسة الشكّ في قلوبهما، إذ أوهمهما أن للأشياء طبائع ذاتيّة أصلية ثابتة، والله يخلُق من خلالها.

وهذه الفكرة الشيطانية الإبليسيّة القديمة المكفّرة، هي الفكرة التي سقط في حباثلها الطبيعيين، والملاحدة الماديّون، اغتراراً بأنّ الله عزّ وجلّ جعل تصاريّف خلقه مقيّدة بالأسباب التي وضعها هو سبحانه في الأشياء، ليتمتحن عباده في الإيمان به خالقاً من وراء الأسباب، وأنّ الأسباب لا تزيد على كونها بمثابة قنوات يمرّ الخلق الرّبّاني من خلالها، ولو شاء الله عزّ وجلّ لخلّق ما شاء بأمر التكوين، دون أن يمرّ خلقه من قنوات الأسباب، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فَهُوَ يكون بأمر التكوين، والأسباب سواثر للخلق الرّبّاني المباشر للأشياء.

لقد زعم إبليس في وسوسته وتسويله لآدم وزوجه أنّ عنصر الشجرة المحرّمة يُحوّل الأكل منها إلى ملك نورانيّ يغبر أقطار السماوات بخفة الأنوار، أو بخفة الأرواح المجردة، أو يجعله خالداً يعيش أبداً دون أن

يُذَرِّكُهُ الْمَوْتَ، وَأَوْهَمَهُمَا أَنَّ رَبَّهُمَا لَا يُرِيدُ لهما أَنْ يَكُونَا مَلَكَئِن، أَوْ مِنَ الْخَالِدِينَ، فَحَرَّمَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ.

ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ قَبُولَ هَذَا التَّصَوُّرِ يُوَقِّعُ فِي مَعْصِيَتَيْنِ هُمَا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ، فَإِنَّ قَبْلَ فِكْرَةِ أَنَّ الشَّجَرَةَ ذَاتَ غُضْبٍ ذَاتِي فَعَالٍ فِي أَنْ يَكُونَا مَلَكَئِن أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فَقَدْ جَعَلَا طَبَائِعَ الْأَشْيَاءِ شُرَكَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَمَا أَظُنُّ أَنَّ آدَمَ وَزَوْجَهُ قَدْ سَقَطَا فِي هَذِهِ الْكِبِيرَةِ الشَّرَكِيَّةِ.

وإِنْ تَصَوَّرْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ هَذِهِ الْمِيزَةَ الْخَاصَّةَ، وَأَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمَا الْأَكْلَ مِنْهَا لِثَلَا يَكُونَا مَلَكَئِن أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فَقَدْ وَقَعَا فِي غَفْلَةٍ عَنْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمَا، عَلِيمٌ بِكُلِّ حَرَكَةٍ يَتَحَرَّكُانَهَا، وَبِكُلِّ سَكْنَةٍ يَسْكُنَانَهَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ هَذِهِ الْمِيزَةُ بَخَلَقَ اللَّهُ، وَاللَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَا مَلَكَئِن أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يُمَكِّنُهُمَا مِنَ الْأَكْلِ مِنْهَا بِصُورَةٍ جَبْرِيَّةٍ، أَوْ بِوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِهِ الْقَهْرِيَّةِ.

وَالَّذِي أَوْقَعَهُمَا فِي هَذِهِ الْغَفْلَةِ الْقَبِيحَةِ شِدَّةُ رَغْبَتِهِمَا فِي الْخُلُودِ، أَوْ فِي أَنْ يَكُونَا مَلَكَئِن، وَمَعْلُومٌ أَنَّ شِدَّةَ الرَّغْبَةِ تَتَحَوَّلُ إِلَى هَوًى، وَمِنْ شَأْنِ الْهَوَى أَنْ يُغَشِّيَ عَلَى مَرَاكِزِ التَّفَكِيرِ السَّلِيمِ.

وَلَمْ يُصَدِّقْ آدَمَ وَزَوْجَهُ هَذِهِ الْمَقُولَةَ الْإِبِلِيسِيَّةَ الشَّيْطَانِيَّةَ، وَبَقِيَا حَذَرَيْنِ خَائِفَيْنِ مِنَ السَّقُوطِ فِي الْمَعْصِيَةِ.

وَيَبْدُو أَنَّ آدَمَ طَلَبَ مِنْ إِبْلِيسَ أَنْ يُقَسِّمَ بِاللَّهِ عَلَى أَنَّ مَا يَقُولُهُ حَقٌّ، فَوَجَدَ إِبْلِيسَ هَذَا فُرْصَةً مَوَاتِيَةً لِيُقَسِّمَ الْأَقْسَامَ الْمَغْلَظَةَ عَلَى أَنَّهُ مِنَ النَّاصِحِينَ لهما.

قال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (١١).

أي: وشدد القسم لهما، لأن صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة مثل: «قَاتِل» فإذا كان الفعلُ من طرف واحد، كانت الصيغة دالَّةً على المبالغة في الفعل، ومع التشديد في القسم أكدَّ إبليس أذعائه بأدوات التوكيد المتعددة: «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللَّام المرحلة - تقديم المعمول على عامله».

فاستجابا له بعض استجابة، كالاقتراب من الشجرة، فأحسن إبليس بأنه سيظفر بإغوائهما، فتابع مكيدته الاستدرجية شيئاً فشيئاً، خطوة فخطوة، هذه المكيدة قد جاء التعبير القرآني عنها بقول الله تبارك وتعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ (١٢).

يُقال لغة: دَلَّى الدَّلْوَ وَأَذْلَاهُ، إذا أَرْسَلَهُ في البئر بِشَطَطِهِ، أي: بحبله، وَيُقَالُ: دَلَّى الشَّيْءَ في الْمَهْوَةِ، أي: أَرْسَلَهُ فيها.

أي: فربطهما بشطنٍ من أشطانه الإغرائية الكاذبة، ودلَّاهما في بئر المعصية، كما يُدَلَّى الدَّلْوُ في بئرٍ ما شيئاً فشيئاً، مُعَرِّراً بهما، خداعاً وتليساً وإطماعاً بالباطل، ورُبَّما قال لهما: لا تأكلَا من الشجرة، ولكن ذوقا طعمها بآلسَتكما.

هذه التدلية هي الوسيلة الشيطانية المتبعة عند جميع شياطين الجن والإنس، من بعد إبليس، وهي المعبر عنها بأسلوب: «خطوة فخطوة» فحيلة الإغواء الكبرى هي حيلة التدلية بالخطوات المتتاليات، خطوة فخطوة.

وهنا يأتي قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩

نزول):

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ﴾ . ﴿٢٢﴾ .

وهنا نتساءل: هل أَلْقَيَا ما وضعاه على ألسنتها منها بَعْدَ الذَّوَاقِ أم أَكَلَاهُ وَابْتَلَعَاهُ؟ .

ويأتي البيان الرَّبَّانِي في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) فيُكشِفُ أَنَّهُمَا قَدْ أَكَلَاهُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا

﴿فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ﴾ . ﴿٢٣﴾ .

﴿سَوْءَاتُهُمَا﴾: السَّوْءَةُ: هي العَوْرَةُ، القُبُلُ والدُّبُرُ، وَكُلُّ عَمَلٍ وَأَمْرٍ قَبِيحٍ شَائِنٍ، وَالْخَلَّةُ الْقَبِيحَةُ .

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: وَشَرَعَا عِنْدَ بُدُو سَوَاتِهِمَا .

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يُلْصِقَانِ عَلَى سَوَاتِهِمَا ﴿مِنْ وَرَقٍ﴾ أَشْجَارِ ﴿الْجَنَّةِ﴾ لِيَسْتُرَ مَا بَدَا مِنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا الَّتِي كَانَتْ مَكْسُوءَةً بِخَلْقِ اللهِ بِمَا يَسْتُرُهَا .

ودَلَّ البَيَانُ القُرْآنِيُّ عَلَى أَنَّهُمَا ابْتَعَدَا عَنْ مَسْرَحِ المَعْصِيَةِ، فَارَيْنِ إِلَى أَمَاكِنَ أُخْرَى فِي الْجَنَّةِ، لَيْسَ فِيهَا صِنْفُ الشَّجَرَةِ المَحْرَمَةِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ .

(ز)

### محاكمة الله لآدم وزوجه على معصيتهما والحكم عليهما بالهبوط إلى الأرض

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُمَا ذَاقَا الشَّجَرَةَ، وَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ:

﴿... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ . ﴿٢٤﴾ :

لَقَدْ ابْتَعَدَا عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَحَقَّا أَنْ يُنَادِيَهُمَا نِدَاءً، إِذْ جَاءَ التَّعْبِيرُ فِي النَّصْرِ: ﴿وَنَادَيْتُهُمَا رَبَّهُمَا﴾ وَلَمْ يَأْتِ بِأَسْلُوبٍ: وَقَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا.

وَتَبَدَّأَ مُحَاكَمَتُهُمَا بِطَرْحِ سَوَالَيْنِ عَلَيْهِمَا:

السؤال الأول:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ؟﴾.

كَانَ التَّعْبِيرُ عِنْدَ النَّهْيِ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُحَرَّمَةِ مُشْتَمِلًا عَلَى اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَى الْقَرِيبِ: ﴿هَذِهِ﴾ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

وَيَعْدُ أَنْ أَكَلَا مِنْهَا وَبَدَأَتْ مُحَاكَمَتُهُمَا جَاءَ التَّعْبِيرُ مُشْتَمِلًا عَلَى اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَى الْبَعِيدِ: «تِلْكَ» وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾.

فَذَلَّ هَذَا الْإِجْرَاءُ الْبَيِّنِيُّ، عَلَى أَنَّهُمَا ابْتَعَدَا فَارَّيْنِ عَنْ مَسْرَحِ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي تَقَعُ فِيهِ الشَّجَرَةُ الْمُحَرَّمَةُ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْبَيَانِ.

السؤال الثاني:

﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؟.

أَيُّ: وَالْمُ أَحْذَرُكُمَا مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَيْكُمَا إِبْلِيسُ الشَّيْطَانُ بِالْإِغْوَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، إِذْ هُوَ عَدُوٌّ لَكُمَا، فَيَكُونُ بَوَسَاوَسِهِ وَإِغْوَاةً سَبِيًّا فِي مَعْصِيَتِكُمَا، وَإِخْرَاجِكُمَا بِهَا مِنَ الْجَنَّةِ؟.

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ آدَمَ وَزَوْجِهِ اعْتِدَارٌ بِشَيْءٍ، وَلَا مُجَادَلَةٌ لِتَبَرُّةِ أَنْفُسِهِمَا مِنْ مَعْصِيَتِهِمَا، وَلَا إِصْرَارٌ عَلَى حَقِّهِمَا فِي الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَلَا عِنَادٍ، بَلْ كَانَ مِنْهُمَا اعْتِرَافٌ بِذَنْبِهِمَا، وَنَدَمٌ، وَاسْتِغْفَارٌ، وَتَذَلُّلٌ، وَسَأَلٌ رَبَّهُمَا أَنْ يَرْحَمَهُمَا، فَإِنْ لَمْ يَرْحَمْهُمَا كَانَا مِنَ الْخَاسِرِينَ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٣).

فاعترفا بأنهما قد عَصَيَا رَبَّهُمَا، وَظَلَمَا أَنْفُسَهُمَا بهذه المعصية، وسَأَلَا اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَاسْتَعْظَفَاهُ، مُؤَكِّدِينَ بَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُمَا وَيَرْحَمْهُمَا كَانَا حَتَمًا مِنَ الْخَاسِرِينَ، أَي: وبما أَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَإِنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمَا وَسَيَرْحَمْهُمَا، حَتَّى لَا يَكُونَا مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا بِكُفْرِهِمْ سَعَادَتَهُمُ الْآبِدِيَّةَ، وَعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْجَزَاءِ الْعِقَابِيِّ الْعَادِلِ.

(٢) وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ آدَمَ عَصَى رَبَّهُ، فَوَقَعَ بِمَعْصِيَّتِهِ الْإِرَادِيَّةَ فِي الْغَوَايَةِ، وَهِيَ الضَّلَالُ وَالْإِبْتِعَادُ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَذَلَّ عَلَى مَعْصِيَةِ زَوْجِهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا لِمَعْصِيَّتِهِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢).

﴿فَغَوَى﴾: أَي: فَوَقَعَ فِي الْغَوَايَةِ، وَهِيَ الضَّلَالُ وَالْخِيْبَةُ وَتَرَكَ سَبِيلَ الرِّشَادِ، وَالْإِبْتِعَادُ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْهُدَى.

(٣) وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (٣١).

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: أَي: فَأَزَلَّهُمَا مُبْعِدًا لَهُمَا عَنِ الْجَنَّةِ، بوساوسِهِ، وَتَسْوِيلَاتِهِ، وَاسْتِهْوَاءَاتِهِ لَهُمَا، الْمَتَنَقِّلَةِ فِي الْخُطُوبِ الْإِزْلَاقِيَّةِ، مِنْ خُطْوَةٍ إِلَى خُطْوَةٍ أَخْسَ وَأَحْطَّ.

وَالْمَعْنَى: فَأَزَلَّهُمَا مُتَسَبِّبًا فِي إِبْعَادِ اللَّهِ لَهُمَا عَنِ الْجَنَّةِ بِحُكْمِهِ الْجَزَائِيِّ عَلَيْهِمَا.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: أَي: فَكَانَ السَّبَبُ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِمَا

بالإخراج مما كانا فيه من نعيم الجنة، لأنَّ وجودهما فيها قد كان وجود امتحانٍ وإبتلاء، لا وجود دوامٍ وبقاء.

وَصَدَرَ حُكْمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عليهما بأنَّ يَهْبِطَا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ، هما وما أودَعَ الله فيهما من ذريتهما، وأنَّ تكونَ الْأَرْضُ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعًا لهما، مقداراً من الزمان يكونُ فيه امتحانُهم، وهو بالنسبة إلى الأفراد، ما قضى الله لكلِّ واحدٍ منهم من عُمرٍ في الأرض، وبالنسبة إلى عموم البشر الذين يتناسلون عليها يَسْتَمِرُّ إلى حينٍ إنهاءِ ظروفِ الحياة الدُّنيا بقيامِ سَاعَةِ الْإِفْنَاءِ.

دَلَّ على هذا قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

هذان النصان يدلان على ما وجه الله عَزَّ وَجَلَّ من قول لآدم وزوجه، وما أودع فيهما من ذرياتٍ سَتَنَاسَلُ، حتَّى آخِرِ مَقْضِيٍّ له بالحياة من البشر. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: قرار وثبوت.

﴿وَمَتَاعٌ﴾: المتاع ما يُتَنَفَّعُ به وَالْفَنَاءُ يأتي عليه.

﴿إِلَى حِينٍ﴾: أي: إلى زَمَنِ مَعْلُومٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهو ساعة موت كلِّ إنسان في أَجَلِهِ المَقْدَرُ له بالنسبة إلى الأفراد، وهو يوم قيام ساعة إنهاءِ ظروفِ الحياة الدنيا بالنسبة إلى عُموم البشر.

(٤) وَتَوَجَّهَ آدَمُ لِرَبِّهِ مُسْتَغْفِراً تَائِباً نَادِماً، سائلاً أَنْ يَكْفَرَ عَنْهُ خَطِيئَتَهُ

وَيَتُوبُ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ بِكَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ، وَيَعْمَلُ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي اشْتَمَلْنَ عَلَيْهِ، فَأَدَّى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فِيهَا، فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٧﴾.

أي: فتلقى آدم من ربه كلمات فأتى العمل بما أمره الله به فيها، فتاب عليه بفضلله ومثله وكرمه، إذ إنه هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

تاب: أي: رجع إلى الطاعة بعد أن عدل عن صراطها. وإذا تاب العبد إلى ربه توبة صادقة تاب الله عليه، أي: رجع جلّ جلاله يُفِيضُ عليه من رحماته وعفوه، وشمله بجوده وكرمه وفصله.

(٥) وبعد أن تاب الله على آدم ومَرَّ زَمَنٌ متراخ، اجتباه ربه، وهذه بما أنزل عليه من بيانات دينية يعمل بها، وَيَبْلُغُهَا لزوجها وذرياته، فكان بذلك نبياً ورَسُولاً.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾.

﴿اجْتَبَاهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره. وجاء فعل «اجْتَبَى» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوة والرسالة، إذا كان اجْتِبَاءً للأفراد.

وجاء مرة واحدة بمعنى اصطفاء أمة مُحَمَّدٍ بِمجموعها لِحَمْلِ رِسالته مِنْ بَعْدِهِ، والمراد أنهم مسؤولون عند الله عن تبليغ رِسالته للناس، كما كان الرسول مُحَمَّدٌ ﷺ مسؤولاً عن تبليغ ما أمره الله بتبليغه للناس، وأنهم بهذا الاجْتِبَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضلالة.



ونستدلّ من معنى الاجتباء الوارد في القرآن، على أنّ آدم عليه السّلام قد اجتباه الله نبيّاً ورَسُولاً، لأوّل مجتمع بشريّ من ذريّته.

(ح)

### الأمر التنفيذي بالهبوط إلى الأرض

بعد أن أصدر الله عزّ وجلّ حُكْمَه بإهباط آدم وزوجه وما أودّع فيهما من ذريّاتهما إلى الأرض، ومَرّت مُدَّةٌ تَابَ فيها آدم، وتاب الله عليه، جاء دور إصدار الأمر التنفيذي بالهبوط.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥

نزول):

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذان النّصّان متكاملان في الدّلالة على المراد، مع تكامل في

الأسلوب البياني.

● فجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ... ﴿١٢٣﴾﴾.

خطاباً لآدم وزوجه، ولوحظ فيهما ذريّاتهما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ﴾.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) جاء قول الله تعالى :  
﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا...﴾ (٣٨).

فجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلم العظيم : ﴿قُلْنَا﴾ إشعاراً بِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّةِ  
الرَّبِّ الحكيم جلّ جلاله ، ولوحظ في خطابهما دُرَيَاتُهُما معهما بعبارة ﴿أَهْبِطُوا﴾ .

● وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى :

﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا هَدًى مِنْ هَٰؤُلَاءِ وَلَا يَتَّبِعُوهُمْ يَكُونُوا أَعْمَى﴾ (٢٣)  
﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا هَدًى مِنْ هَٰؤُلَاءِ وَلَا يَتَّبِعُوهُمْ يَكُونُوا أَعْمَى﴾ :

أي : فإما يأتينكم مني تَغْلِيمَاتٌ مُتْرَلَاتٌ تَبَيَّنَ لكم ديني الذي اصطفيته لكم ،  
وفيها هدايتكم ، فاتَّبِعُوها ، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي ووصايا .

﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هَٰؤُلَاءِ﴾ : أي : فمن حرص على اتِّباع هُدَايَ بقوة وعناية  
والالتزام باهتمام .

دلّ فعل ﴿وَاتَّبَعَ﴾ بوزن «افتعل» على الالتزام بقوة وعناية ، لأنّ هذا  
الوزن يدلّ على التكلّف وتحمل مشقة الانقياد والالتزام بالتكاليف الدينية .

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ : أي : فلا يَضِلُّ عن صراط الله المستقيم ،  
ولا يَضِلُّ في السُّبُلِ المبتعدة عنه ضائعاً في متاهاتها ، ولا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ  
للمتاعب والمشقات المشقيات ، لأنّ الله جلّت قدرته وعظُمَت حِكْمَتُهُ يَهْوُوُ  
عليه ، ويُدافع عنه ، ويمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والسعادة في حياته ، وإنّ  
تعرّض فيها للمكاره .

ويلزم من ذلك أن يكون من الفائزين الناجين من عذاب الله يوم  
الدين ، ومن أهل السَّعادة الخالدة في جنّات النعيم .

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى :

﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا هَدًى مِنْ هَٰؤُلَاءِ وَلَا يَتَّبِعُوهُمْ يَكُونُوا أَعْمَى﴾ (٢٣)

﴿فَأَمَّا يَا أَيُّتِيكُمْ مِنِّي هُدًى﴾: هذه العبارة نظير العبارة التي جاءت في

سورة (طه) فلا حاجة لتحليلها وشرحها.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: جاء في هذه العبارة فعل ﴿تَبِعَ﴾ ومضارعه

«يَتَّبِعُ» على وزن «فَعِلَ يَفْعَلُ» المجزء من الزوائد.

أي: فَمَن تَبِعَ دون تَكَلَّفٍ والتزامٍ بقوةٍ وعناية، فاختلفت هذه العبارة في دلالتها عن العبارة التي جاءت في سورة (طه) إذ أبانت أحوالَ زُمْرٍ من المؤمنين لم يُحَقِّقُوا كمالَ المطلوبِ مِنْهُمْ في أن يَلْتَزِمُوا به في حياة الابتلاء، فكان من المناسب أن يكون جزاؤهم في حدود:

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨).

أي: فلا خَوْفٌ ضَاعِطٌ عَلَيْهِمْ يوم القيامة من التعرُّضِ للحريق بعذاب النار، ولا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما فاتهم من أنواعِ متاعٍ في الحياة الدنيا، لأن ما سينالونه من نعيمٍ في الجنةِ عَظِيمٌ جدًّا، وخالدٌ لا انقطاع له.

ولم يأت في هذا الوعد أنه لا يَضِلُّ مُطْلَقًا، لأنَّ زُمْرَ هذا الفريق من المؤمنين قد يَقَعُ في ضلالٍ غير بعيد، وهو ضلال المعاصي والذنوب والخطايا. ولم يأت فيه أنه لا يَشْقَى، لأنَّ زُمْرَ هذا الفريق من المؤمنين قد يَتَعَبُونَ وَيَنْصَبُونَ وَيَشْقَوْنَ في الحياة الدنيا، وقد يَشْقَوْنَ بعذابٍ في الآخرة على مقادير معاصيهم، إذ لم يُحْمَلُوا أَنْفُسَهُمْ كُلْفَةً الالتزام بقوة وعناية، بالهُدَى الذي جاءهم من الله عز وجل ببلاغات الرُّسل عنه.

● وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ

أَبْتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾.

هذا البيان يتعلق بمؤمن أعرض عن ذكر الله، وترك العمل بما جاء

في هُدى الله المنزل، فكان سلوكه مشابهاً سلوك الكافرين، فعاقبه الله عز وجل في الدنيا، فجعل له معيشة ضنكاً.

**الضنك:** الضيق في كل شيء، يستوي فيه المذكر والمؤنث، تقول: عَيْشُ ضَنْكٍ، ومعيشة ضنك، أي: ضيقة لا سعة فيها، وقد يكون ضيقاً نفسياً، ولو كان المضيئ عليه ذا سعة من المال. وقد يأتي هذا الضنك من أهله وأسرته وأولاده، أو وسائل كسب رزقه، أو من أمراض وأوجاع تراكب عليه، أو من غير ذلك.

ويعاقبه الله يوم القيامة بعد البعث، فيحشره أعمى، نظير حشر الكافرين، لمشابهته لهم في أعمالهم، فقال تعالى:

﴿وَيُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾: أي: على مثل ما يحشر عليه الكافرون، مع أنه لم يكن كافراً في الحياة الدنيا.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾: ١٢٥

أي: لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى كالكافرين، وقد كنت في الحياة الدنيا بصيراً، أي: مؤمناً غير كافر.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِنْ كُنْتَ تَصْبِرُ﴾: ١٢٦

﴿كَذَلِكَ﴾: أي: مثل ذلك الذي كان منك في الحياة الدنيا، والمعنى: حشرُك أعمى كحشر الكافرين ممثال لما كان منك في الحياة الدنيا، إذ إنك مع كونك مؤمناً بي لم تتبغ هداي الذي أمرتك بأن تتبعه، ولم تؤد ما أمرتك به، ولم تنته عما نهيتك عنه، وتركت العمل بآياتي، فصرت في حياتك مثل الكافرين في السلوك.

﴿فَتَصْبِرُ﴾: أي: فتركتها، وتركت العمل بها، أصل النسيان في اللغة الترك، وترك الشيء زمناً طويلاً يمحوه من الذاكرة، فلا يخطر على البال.

﴿... وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾: ١٢٧

أي: ومثل تركك في الدنيا العمل بآيات ربك المنزلات المشتملات

على هُداة، تُتْرَكُ اليوم في موقف الحشر فلا يُعْتَنَى بك، وتُعَامَل معاملَ الكافرين الذين يُخْشَرُونَ غُمِيًّا، لقد أَغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ عَمَّا قَدَّمْنَا من بيانات هداية لعبادنا، فجزاؤك اليوم يكون من جنسِ عَمَلِكَ، ولا يُفِيد هذا الترك له يوم الحشر أنه يكون من الخالدين في النار كالكافرين.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ :

جاء هذا البيان عقب ذِكر مَنْ تَبَعَ هدى الله دون التزام بقوة وحرص وعناية، وهؤلاء يتفاوتون في درجاتهم حتى أدنى درجَاتِ المتقين، فالمقابل لهم هم الكافرون الذين كَفَرُوا بالرَّسُول، وكَذَّبُوا بآيات الله، فعقوبَتُهُمُ الحثْمِيَّة هي أنهم أصحاب النار، وأنهم فيها خالدون.



لقد ظهر لنا في هذا الملحق التكامل في النصوص الواردة بشأن خلق آدم عليه السلام، ومارافق خلقه من أحداث، حتى إهباطه هو وزوجته من الجنة إلى الأرض. وقد تم لنا من جمع النصوص وتدبرها تدبراً تكاملياً، إدراك أبرز عناصر ما جرى بصورة تكاملية، وهذان التأمل إلى ملء الفراغات المطلوبة من اللوازم الذهنية، ومقتضيات حركية الحدث التي نفهمها من الأشباه والنظائر، والترتيب المنطقي لطبائع الأشياء.

وتوجد نصوص أخرى في القرآن تتعلق بالشيطان، وهي مكملة لما جاء في هذا الملحق، وتتطلب دراسة مستقلة.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه



وكان الفراغ من كتابة هذا المجلد في يوم الخميس/ ١٣ رمضان/ ١٤١٩ هجرية الموافق لآخر كانون الأول ١٩٩٨ ميلادية.



# الفهرس

## الموضوع

## الصفحة

(٣٤)

سورة (ق)

٥٠ مصحف / ٣٤ نزول

- (١) نص السورة ..... ٧
- (٢) مما ورد في السنة بشأن سورة (ق) ..... ١٠
- (٣) موضوع سورة (ق) ..... ١١
- (٤) دروس سورة (ق) ..... ١٢
- (٥) التدبر التحليلي للدرس الأول: الآيات من (١ - ٣) ..... ١٥
- ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ ..... ١٦
  - ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾ ..... ١٨
  - تحليل بواعث التعجب .. ..... ٢١
  - تعجب المشركين الوارد في هذا الدرس ..... ٢٢
- (٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيتان (٤، ٥) ..... ٢٦
- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ ..... ٢٦
  - شمول علم الله عز وجل كل شيء من خلال تدبر أربعة نصوص قرآنية ..... ٣١
  - ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٌ﴾ ..... ٣٥
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٦ - ١١) ..... ٣٧
- نظرة تدبرية عامة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس ..... ٣٧
  - الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسماء ..... ٣٩
  - الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض ..... ٤٠
  - نظرات تدبرية تحليلية لفقرات الدرس الثالث ..... ٤٣
  - ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا...﴾ ..... ٤٣
  - نصوص تزيين السماء للناظرين في الأرض ..... ٤٧
  - ﴿وَمَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ..... ٤٩

## الموضوع

## الصفحة

- ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا...﴾ ..... ٥٠
- ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي...﴾ ..... ٥١
- ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده بالجبال الرواسي ..... ٥١
- التعليق حول نعمة إلقاء الجبال الرواسي ..... ٥٢
- ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ..... ٥٣
- ﴿تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ..... ٥٦
- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا...﴾ إلى الآية (١١) ..... ٥٩
- وظيفتا آيات الله في كونه ونعمه على عباده ..... ٦٣
- ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ..... ٦٣
- دلالة تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النباتات من نويات بزورها . ٦٣
- (٨): التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ - ١٤) .. ٧٢
- ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ...﴾ إلى الآية (١٤) ..... ٧٢
- قوم نوح عليه السلام ..... ٧٤
- أصحاب الرس ..... ٧٤
- ثمود ..... ٧٥
- عاد ..... ٧٦
- فرعون، قوم لوط، أصحاب الأيكة ..... ٧٧
- قوم تُج ..... ٧٨
- ﴿كُلُّ كَذَّبٍ رُئِيسٌ فَحَقٌّ وَعِيدٌ﴾ ..... ٧٩
- (٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس، وهو الآية (١٥) ..... ٧٩
- ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ..... ٧٩
- صوغ الدليل الذي اشتملت عليه هذه الآية بقياس منطقي اقتراني، أو بقياس استثنائي ٨١
- (١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس، الآيات من (١٦ - ١٨) ..... ٨٤
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ...﴾ ..... ٨٥
- ﴿وَنَعْلَمُ مَا تَوَسَّوَسَ بِهِ نَفْسُهُ...﴾ ..... ٨٦
- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ..... ٨٦
- ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ..... ٨٧
- ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ..... ٨٨
- (١١) التدبر التحليلي للدرس السابع، الآيات من (١٩ - ٢٢) ..... ٩٢
- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ..... ٩٣



- ﴿ونفخ في الصور ذلِكَ يومُ الوعيدِ﴾ ..... ٩٦
- ﴿وجاءت كُلُّ نفس معها سائق وشهيد﴾ ..... ٩٨
- ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبُصِرَك اليوم حديد﴾ ..... ٩٩
- (١٢) التدبر التحليلي للدرس الثامن، الآيات من (٢٣ - ٢٩) ..... ١٠١
- ﴿وقال قرينة هذا ما لَدَيَّ عتيد﴾ ..... ١٠٣
- ﴿ألقيا في جهنم كُلَّ كفّارٍ عنيد \* متاع للخير معتد مريب \* الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ ..... ١٠٧
- ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلالٍ بعيد \* قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد \* ما يبدلُ القول لديّ وما أنا بظلامٍ للعبيد﴾ ..... ١١٠
- (١٣) التدبر التحليلي للدرس التاسع، الآيات من (٣٠ - ٣٥) ..... ١١٢
- ﴿يَوْمَ نقولُ لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾ ..... ١١٣
- ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ ..... ١١٥
- ﴿هذا ما توعدون لكلّ أوّابٍ حفيظ \* من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ ..... ١١٦
- ﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود \* لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ ..... ١١٨
- (١٤) التدبر التحليلي للدرس العاشر، الآيتان (٣٦، ٣٧) ..... ١١٩
- ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن...﴾ ..... ١٢١
- ﴿فنبؤوا في البلاد هل من محيٍص...﴾ ..... ١٢١
- ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد﴾ .. ١٢٢
- (١٥) التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر، الآية (٣٨) ..... ١٢٤
- ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيّام وما مسنا من لغوب﴾ ..... ١٢٤
- (١٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر، الآيات من (٣٩ - ٤٥) ..... ١٢٧
- ﴿فاضبر على ما يقولون...﴾ ..... ١٣٠
- ﴿وسبح بحمد ربك قبل طُلوع الشمس وقبل الغروب \* ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ ..... ١٣١
- ﴿واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب \* يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ ..... ١٣٣
- ﴿إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ ..... ١٣٥
- ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشرٌ علينا يسير﴾ ..... ١٣٦
- ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبارٍ فذكرْ بالقرآن من يخاف وعيد﴾ ..... ١٣٨

الموضوع	الصفحة
(١٧) الملحق الأول لسورة (ق):	١٤٠
مستخرجات بلاغية من السورة	١٤٠
(١٨) الملحق الثاني للسورة:	١٤٥
الوصف بالبركة في القرآن المجيد	١٤٧
وصف القرآن بأنه مبارك	١٥١
بيان أن الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين	١٥٥
بيان أن الله قد بارك في الأرض	١٦٠
البركة الزائدة التي جعلها الله لأمكنة خاصة	١٦١
البركة التي جعلها في ليلة القدر	١٦٥
البركة في الماء النازل من السماء	١٦٦
البركة في شجرة الزيتون	١٦٦
البركة في التحية التي يسلم المؤمن بها على نفسه	١٦٧

## (٣٥)

## سورة البلد

٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول

(١) نصّ السورة	١٧١
(٢) موضوع السورة	١٧٢
(٣) دروس السورة	١٧٦
(٤) التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ - ٤)	١٧٧
• ﴿لَا أُقْسِمُ...﴾ تحليل معنى القسم المنفي في القرآن	١٧٩
• ﴿لَا أُقْسِمُ بهذا البلد * وأنت حلٌ بهذا البلد﴾	١٧٩
• ﴿ووالد وما ولد﴾	١٨١
• ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾	١٨٢
(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ - ١٠)	١٨٩
• تمهيد: حول آيات هذا الدرس	١٩٠
• ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يقدّر عليه أحدٌ * يقول أهلك ما لا لبُدَّ﴾	١٩٢
• ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أحدٌ * ألم نجعل له عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ..	١٩٣
• ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾	١٩٤
الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصوص	١٩٦

- (٦) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ - ٢٠) ..... ١٩٩
- ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ ..... ٢٠١
  - ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ..... ٢٠٢
  - ﴿فك رقة﴾ ..... ٢٠٣
  - ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة \* أو مسكيناً ذا متربة﴾ ..... ٢٠٤
  - ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ ..... ٢٠٧
  - ﴿ولئك أصحاب الميمنة \* والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة \* عليهم ناز مؤصده﴾ ..... ٢٠٩
- (٧) لطيفة تربوية ..... ٢١١
- (٨) نظرة عامة إلى ما اشتملت عليه السورة ..... ٢١٢
- ملاحق لسورة البلد ..... ٢١٧
- (٩) ملحق حول بلاغيات في السورة ..... ٢١٧
- (١٠) ملحق أصحاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن ..... ٢٢٠

## (٣٦)

## سورة الطارق

## ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول

- (١) نصّ السورة ..... ٢٤٩
- (٢) ممّا ورد في الحديث بشأن سورة الطارق ..... ٢٤٩
- (٣) موضوع السورة ..... ٢٥٠
- (٤) دروس السورة ..... ٢٥٢
- (٥) التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ - ٤) ..... ٢٥٤
- ﴿والسماء والطارق﴾ ..... ٢٥٤
  - ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ..... ٢٥٥
  - ﴿النجم الثاقب﴾ ..... ٢٥٦
  - ﴿إن كل نفس لَمَّا عليها حافظ﴾ ..... ٢٥٨
  - الأسلوب القرآني في تأكيد الأخبار الغيبية ..... ٢٦٠
  - الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها
  - في دروس التنزيل ..... ٢٦١
  - العلاج النفسي بالترغيب والترهيب ..... ٢٦٣
- (٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ - ١٠) ..... ٢٦٤

الموضوع

الصفحة

- تمهيد: ..... ٢٦٤
- ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ..... ٢٦٥
- ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ..... ٢٦٥
- ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ..... ٢٦٦
- مقررات البحث العلمي حول كون الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ..... ٢٦٧
- ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ \* يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ..... ٢٧٠
- ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ..... ٢٧٢
- ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ ..... ٢٧٣
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ - ١٤) ..... ٢٧٤
- تمهيد: ..... ٢٧٤
- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ..... ٢٧٥
- ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ..... ٢٧٧
- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ \* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ ..... ٢٧٨
- (٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (١٥ - ١٧) ..... ٢٨٠
- ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كِيدًا﴾ ..... ٢٨١
- ﴿وَأَكِيدُ كِيدًا﴾ ..... ٢٨٢
- ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤُودًا﴾ ..... ٢٨٤
- ملاحق لسورة الطارق ..... ٢٨٦
- (٩) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة ..... ٢٨٦
- (١٠) الملحق الثاني: حول بيان بعض أطوار خلق الإنسان في القرآن ..... ٢٨٧
- (١١) الملحق الثالث: حول كون الإنسان مراقباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر .. ٣٠٠
- (١٢) الملحق الرابع: كلمة "يوم" في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرى ... ٣٠٤

(٣٧)

سورة القمر

٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول

- (١) نصّ السورة ..... ٣١٣
- (٢) مما ورد في السنة بشأن سورة القمر ..... ٣١٦
- (٣) سبب نزول السورة ..... ٣١٧
- (٤) موضوع السورة ..... ٣١٨

الصفحة

الموضوع

- (٥) دروس السورة ..... ٣١٩
- (٦) التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ - ٥) ..... ٣٢٢
- ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ ..... ٣٢٢
- قضية الساعة واقترابها ..... ٣٢٤
- نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة ..... ٣٢٦
- ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة ..... ٣٣١
- شرح قضية انشقاق القمر وما ورد بشأنه في السنة ..... ٣٣١
- ﴿وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ ..... ٣٣٤
- ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٍّ﴾ ..... ٣٣٦
- المكذبون الكافرون وعصاة المؤمنين لن يضرّوا الله شيئاً ..... ٣٣٩
- ﴿ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر \* حجة بالغة فما تغن النذر﴾ ..... ٣٤١
- ﴿فتولّ عنهم...﴾ ..... ٣٤٥
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (بعض الآية ٦ - ٨) ..... ٣٤٨
- تمهيد: ..... ٣٤٩
- ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ ..... ٣٥٠
- ﴿خُشِعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ﴾ ..... ٣٥٢
- ﴿مهطعين إلى الداع...﴾ ..... ٣٥٣
- ﴿يقول الكافرون هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ..... ٣٥٤
- نظرة عامة حول هذا الدرس من دروس السورة ..... ٣٥٥
- (٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٩ - ٤٢) وفيه خمس فقرات ..... ٣٥٦
- تمهيد: ..... ٣٥٦
- أولاً: فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، الآيات من (٩ - ١٧) ..... ٣٥٧
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ..... ٣٥٩
- ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ﴾ ..... ٣٥٩
- هل كان نوح عليه السلام أوّل رسل الله للناس؟ ..... ٣٦١
- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ ..... ٣٦٤
- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ وحتى آخر الآية (١٨). وفي هذه ..... ٣٦٤
- الآيات تسع قضايا ..... ٣٦٤
- القضية الأولى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ ..... ٣٦٥
- القضية الثانية: ﴿وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ ..... ٣٦٦

## الموضوع

## الصفحة

- القضية الثالثة: ﴿فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِّرَ﴾ ..... ٣٦٧
- القضية الرابعة: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ ..... ٣٦٨
- القضية الخامسة: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا...﴾ ..... ٣٦٩
- القضية السادسة: ﴿جَزَاءٌ لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ..... ٣٧٠
- القضية السابعة: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً...﴾ ..... ٣٧٠
- القضية الثامنة: ﴿فهل من مُّذَكِّرٍ؟﴾ ..... ٣٧١
- القضية التاسعة: ﴿فكيف كان عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ..... ٣٧٢
- ﴿وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ؟﴾ ..... ٣٧٢
- ثانياً: فقرة إهلاك عاد قوم الرسول هود عليه السلام، (الآيات من ١٨ - ٢٢) ٣٧٣
- تمهيد: ..... ٣٧٤
- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ..... ٣٧٤
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَخْسٍ مُّسْتَمِرٍّ \* تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعَرٍ﴾ ..... ٣٧٥
- ﴿وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ ..... ٣٧٧
- ثالثاً: فقرة إهلاك ثمود قوم النبي الرسول صالح عليه السلام الآيات من (٢٣ - ٣٢) . ٣٧٧
- تمهيد: ..... ٣٧٨
- موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام ..... ٣٧٩
- ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ..... ٣٨١
- ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ \* أَلَلْقَىٰ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ..... ٣٨٢
- ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ؟﴾! ..... ٣٨٣
- ﴿إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ..... ٣٨٣
- ﴿أَلَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟﴾ ..... ٣٨٤
- ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ..... ٣٨٧
- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ﴾ ..... ٣٨٨
- ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاضْطَبِّرْ﴾ ..... ٣٨٨
- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَظَرٌ﴾ ..... ٣٩٠
- ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ ..... ٣٩١
- ﴿فكيف كان عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ..... ٣٩٣
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظَرِ﴾ ..... ٣٩٤

- ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ..... ٣٩٥
- رابعاً: فقرة إهلاك قوم النبي الرسول لوط عليه السلام، الآيات من (٣٣ - ٤٠) ٣٩٦
- لمحة عن لوط عليه السلام وقومه ..... ٣٩٦
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمَ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ﴾ ..... ٣٩٩
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ﴾ ..... ٣٩٩
- كلمتا «أهل» و «آل» في دلالات النصوص القرآنية ..... ٤٠٠
- ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ ..... ٤٠١
- ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ..... ٤٠٢
- ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ..... ٤٠٣
- ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ \* فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ..... ٤٠٤
- ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ..... ٤٠٥
- خامساً: موجز مختزل بشأن إهلاك فرعون وآله، الآيتان (٤١ - ٤٢) ..... ٤٠٦
- تمهيد: ..... ٤٠٦
- ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرِ﴾ ..... ٤٠٧
- ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ..... ٤٠٨
- الآيات التي آتاها الله عز وجل لموسى عليه السلام ..... ٤٠٩
- ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ..... ٤١١
- (٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٤٣ - ٤٦) ..... ٤١٢
- تمهيد: ..... ٤١٢
- ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ..... ٤١٢
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ \* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ..... ٤١٦
- ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ ..... ٤١٨
- (١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس، الآيات من (٤٧ - ٥٥) ..... ٤٢١
- تمهيد: ..... ٤٢٢
- ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ مُسْتَعِرٍ﴾ ..... ٤٢٣
- ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ..... ٤٢٦
- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ..... ٤٢٨
- ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ..... ٤٢٩
- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟﴾ ..... ٤٣٠
- ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ..... ٤٣٢

الموضوع

الصفحة

- ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ ..... ٤٣٣
- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ \* فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدَرٍ﴾ ... ٤٣٥
- سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة ..... ٤٤٠
- ملاحق لسورة القمر ..... ٤٤٠
- (١١) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة القمر ..... ٤٤١
- (١٢) الملحق الثاني: حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله ..... ٤٤٥
- (١٣) الملحق الثالث: حول الحكمة في القرآن المجيد ..... ٤٥٣

(٣٨)

سورة ص

٣٨ مصحف / ٣٨ نزول

- (١) نص السورة ..... ٤٦٣
- (٢) الأطوار التي تنقلت فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتى نزول سورة (ص) .... ٤٦٩
- (٣) موضوع سورة (ص) وسبب نزولها ..... ٤٧٤
- (٤) دروس سورة (ص) ..... ٤٧٧
- (٥) التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ - ١٦) ..... ٤٧٨
- تمهيد: ..... ٤٧٩
- ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ ..... ٤٨١
- ما جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتى نزول سورة (ص) ..... ٤٨٤
- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ..... ٤٨٦
- ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ..... ٤٨٨
- ﴿وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ \* أَجْعَلِ الْآلِهَةَ آلِهَةً وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ..... ٤٩١
- ﴿وَانْطَلِقِ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ \* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ \* أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ..... ٤٩٤
- ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ ..... ٤٩٨
- ﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ..... ٥٠٢
- ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ .. ٥٠٢
- ﴿جُنُودٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ..... ٥٠٦



- ٥٠٩ ..... كلمة الأحزاب في القرآن أطلقت على أحزاب الكفر
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ \* وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ \* إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
- ٥١٠ ..... عقاب ﴿
- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ ..... ٥١٣
- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ..... ٥١٤
- (٦) التدبیر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (١٧ - ٤٨) ويشتمل على
- خمس فقرات ..... ٥١٥
- أولاً: الفقرة الأولى: الآيات من (١٧ - ٢٩) ..... ٥١٦
- تمهيد: ..... ٥١٦
- ﴿اضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ...﴾ ..... ٥١٧
- سوابق الأمر بالصبر في نجوم التزيل ..... ٥١٨
- ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ..... ٥١٩
- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ..... ٥٢١
- ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ ..... ٥٢٢
- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ ..... ٥٢٤
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغْيٌ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ..... ٥٢٥
- تمهيد: ..... ٥٢٥
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى...﴾ ..... ٥٢٨
- ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ...﴾ ..... ٥٢٩
- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ...﴾ ..... ٥٣٠
- ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ...﴾ ..... ٥٣٠
- ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ...﴾ ..... ٥٣١
- ﴿خَصِمَانِ بَغْيٌ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ...﴾ ..... ٥٣١
- ﴿فَاحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ...﴾ ..... ٥٣١
- ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ..... ٥٣٢
- ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ..... ٥٣٣

## الموضوع

## الصفحة

- ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه...﴾ ..... ٥٣٦
- ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم...﴾ ..... ٥٣٧
- ﴿وظن داود أنما فتاه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب﴾ ..... ٥٣٨
- ﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ ..... ٥٤١
- ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ ..... ٥٤١
- ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار \* أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ..... ٥٤٥
- عرض الدليل العقلي على ضرورة البعث للجزاء أخذاً من الآيتين (٢٧ و ٢٨) . ٥٤٦
- التدبر التحليلي للآيتين (٢٧ و ٢٨) ..... ٥٤٩
- ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ..... ٥٥١
- ثانياً: الفقرة الثانية، الآيات من (٣٠ - ٤٠) ..... ٥٥٥
- تمهيد: ..... ٥٥٦
- ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ ..... ٥٥٧
- ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد \* فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب \* ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ ... ٥٥٩
- ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب \* قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ ..... ٥٦٤
- ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب \* والشياطين كل بناء وغواص \* وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ ..... ٥٧١
- ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ ..... ٥٧٤
- ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ ..... ٥٧٥
- ثالثاً: الفقرة الثالثة، الآيات من (٤١ - ٤٤) ..... ٥٧٦
- ﴿وإذك عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ ..... ٥٧٧
- تمهيد: ..... ٥٧٧
- موجز عن حياة أيوب عليه السلام ..... ٥٧٨
- تدبر نصي (ص) و (الأنبياء) بشأن أيوب عليه السلام تدبراً تكاملياً ... ٥٨٠

- ٥٨٦ ..... ما جاء في السنة بشأن أيوب عليه السلام
- ٥٨٦ ..... رابعاً: الفقرة الرابعة، الآيات من (٤٥ - ٤٧) .....  
 • ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ \* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ \* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ﴾ ... ٥٨٦
- ٥٩٠ ..... خامساً: الفقرة الخامسة، الآية (٤٨) .....  
 • ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ..... ٥٩٠
- ٥٩١ ..... • الغرض الرئيس من الدرس الثاني بفقراته الخمس ..... ٥٩١
- ٥٩٣ ..... (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٤٩ - ٦٤) ..... ٥٩٣
- ٥٩٤ ..... تمهيد: ..... ٥٩٤
- ٥٩٥ ..... • ﴿هَذَا ذِكْرٌ...﴾ ..... ٥٩٥
- ٥٩٥ ..... • لقطات من ثواب المتقين ..... ٥٩٥
- ٥٩٥ ..... • ﴿... وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ..... ٥٩٥
- ٥٩٧ ..... • ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ مُمْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ﴾ ..... ٥٩٧
- ٥٩٩ ..... • نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارتي: «حُسْنُ مَآبٍ» و«جَنَّاتٍ عَذْنٍ» ... ٥٩٩
- ٥٩٩ ..... • ﴿مُتَكَبِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ \* وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
- ٦٠١ ..... الطرف أترابٍ﴾ ..... ٦٠١
- ٦٠١ ..... • البيان التفصيلي للاتكاء في سُورِ الْقُرْآن ..... ٦٠١
- ٦٠٤ ..... • ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ..... ٦٠٤
- ٦٠٥ ..... • ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ أترابٍ﴾ ..... ٦٠٥
- ٦٠٥ ..... • ﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ \* إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ..... ٦٠٥
- ٦٠٧ ..... • لقطات ومشاهد من جزاء الطاغين ..... ٦٠٧
- ٦٠٧ ..... • ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ ..... ٦٠٧
- ٦٠٨ ..... • ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ الْمِهَادُ﴾ ..... ٦٠٨
- ٦٠٩ ..... • ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ \* وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ ..... ٦٠٩
- ٦٠٩ ..... • ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ \* قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ
- ٦١٠ ..... لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّعُوهُ لَنَا فَبَشِّرْ الْقَرَارَ﴾ ..... ٦١٠
- ٦١٢ ..... • ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ ..... ٦١٢
- ٦١٢ ..... • ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ \* اتَّخَذْنَاهُمْ سَخَرِيًّا
- ٦١٣ ..... أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ ..... ٦١٣
- ٦١٤ ..... • ﴿إِنْ ذَلِكَ لِحَقِّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ﴾ ..... ٦١٤

## الصفحة

## الموضوع

- (٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٦٥ - ٨٨) ..... ٦١٥
- تمهيد: ..... ٦١٦
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مَنذَرٌ وَمَا مِن إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ..... ٦١٩
- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ \* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ..... ٦٢١
- ﴿مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ..... ٦٢٢
- قصة خلق آدم واستكبار إبليس عن السجود له ..... ٦٢٤
- تمهيد: ..... ٦٢٤
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ \* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ..... ٦٢٥
- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ..... ٦٣٠
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ..... ٦٣١
- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ \* وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. ٦٣١
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَتَبَعُونَ﴾ ..... ٦٣٢
- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ \* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ..... ٦٣٣
- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ..... ٦٣٣
- ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ \* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . ٦٣٥
- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ \* وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ..... ٦٣٦

## ■ ملاحق لسورة (ص)

- (٩) الملحق الأول: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل ..... ٦٤٠
- (١٠) الملحق الثاني: مستخرجات بلاغية من السورة ..... ٦٤٣
- (١١) الملحق الثالث: تدبر بقيّة ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام بنظرة تكاملية ..... ٦٤٧
- (١٢) الملحق الرابع: قصة خلق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث .. ٦٦٨
- الفهرس ..... ٧٣١